المنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم
إدارة التربية

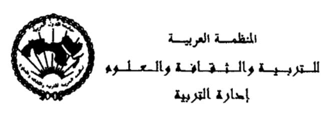
المركز العربي
للتعريب والترجمة والتأليف
والنشر بدمشق

التعليم التحولي

رؤية تربوية للقرن الحادي والعشرين

تأليف : EDMUND O'SULLIVAN
ترجمة : أ.د. عبد الله العابد أبو جعفر
مراجعة: أ.د. فاطمة الجيوشي

المنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم
إدارة التربية



المركز العربي
للتعريب والترجمة والتأليف
والنشر بدمشق

التعليم التحولي

رؤية تربوية للقرن الحادي والعشرين

التعليم التحولي

رؤية تربوية للقرن الحادي والعشرين

المؤلف

Edmund O'Sullivan

ترجمة

أ. د. عبد الله العابد أبو جعفر

مراجعة

أ.د. فاطمة الجيوشي

دمشق 2002

Transformative Learning

Educational Vision for the 21st Century

Edmund O'Sullivan
foreword by Thomas Berry

Published in Arabic by arrangement with the original publisher, Zed Books Ltd, 7 Cynthia Street, London N1 9JF, UK.

التعليم التحولي: رؤية تربوية للقرن الحادي والعشرين
ترجمة: أ.د. عبد الله العابد أبو جعفر
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - إدارة التربية
والمركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق
ص.ب: 3752 - دمشق - الجمهورية العربية السورية
هاتف: 3334876 11 963+ ـ فاكس: 3330998
E-mail: acatap@net.sy
Web Site: www.acatap.org

الترحيب الناقد لهذا الكتاب

- إنه لواحد من الكتب الشاملة في التربية والإصلاح التعليمي التـــي يجب قراءتها. إنه كتاب لم أقرأ مثله خلال عقد من الزمان. (هنري جيرو، أستاذ كرسي ووتربيرى، جامعة ولاية بنسلفانيا).
- إنه لكتاب مهمٌ جداً يخاطب بالاهتمامات الأساسية في المجال التربوي، وتجب قراءته على كل المهتمين بالشؤون الإنسانية وقضايا البقاء على مستوى الكوكب. (ديفيد بيربل، مؤلف كتاب الأزمة الروحية والأخلاقية في التربية: منهج للعدالة والمحبة في التربية).
- في الوقت الذي تكون فيه أغلب الإصلاحات التربوية تهدف إلى سبل تخفيض تكلفة التربية، يركز (أوسليفان) على سبل جعل التربية ذات معنـــى ومدلول وتكون موجهة نحو تذليل المشكلات العويصة التـــي تهدد المجتمع العالمي مع العمل على تغيير العالم الشخصي للألفية الجديدة. إنه لكتاب طموح واسع الأفق يقترح تغييراً تربوياً في إطار جديد لم نشهده من قبل. (الأستاذ/ر.و. كونيل، جامعة سيدني، مؤلف كتاب: كيف نُحدث تغييراً).
- إننـــي كتربوي مناهض للعرقية، أجد قراءة (أوسليفان) للعرقية والتنوع والقوة مفيدة جداً. إن التعليم التحولي يتطلب منا التعامل مع سرطان العنصرية على مختلف مستوياته الاجتماعية والروحية والبيئية والاقتصادية والسياسية. (جورج سيفا، مؤلف كتاب التربية المناهضة للعرقية بين النظرية والتطبيق).
- يطرح (أوسليفان) في هذا الكتاب ذي الرؤية الشاملة تحديات جذرية للتربويين المعاصرين بهدف دفعهم إلى التأييد والاعتراف بجمال الكوكب وإبداعه غير المحدودين، وكذلك بموقع البشر فيه. (آنجلا مايلز، مؤلفة كتاب التكامل الأنوثي: بناء رؤية عالمية، والمشاركة في تأليف كتاب: النساء من أجل كوكب صحي عادل).
- إنه كتاب جميل. إن ما يستقصيه (أوسليفان) هو عولمة حقيقية ليس من أجل البشرية فقط

ولكن من أجل الحياة ذاتها. (جوهان جالتنج، أستاذ دراسات السلام ومدير الاستشراف: شبكة السلام والتطور).

- إن المربـــي (أوسليفان) يقدم ويشاطر ويعبر بوضوح عما يجيش بالعقول والقلوب. إن كتابه هذا قدر له أن يتجه بعيداً نحو مواضيع تخص الجميع، وكافة البشر من مختلف الأعراق والأجناس. يجب أن نشكره على ذلك. (الدكتور جو كاوتير، حكيم وطبيب شعبي للهنود الحمر ومدير سابق لبرنامج الدراسات القومية، جامعة تورنتو، كندا).
- إنه كتاب عميق الرؤى، مدهش ويشعر القارئ ببعد النظرة الكوزمولوجية للتربية المستدامة. (ديفيد سلبي، مؤلف كتاب المعلم العالمي/التلميذ العالمي وإعادة الارتباط: من المناهج القومية إلى المناهج العالمية).
- إنه كتاب استفزازي يتحدى جميع المواطنين والتربويين على حد سواء، وتلزم قراءته. (الأستاذ ميشيل ولتون، مؤلف الدفاع عن عالم الحياة: منظور نقدي في تربية الكبار).
- إنه كتاب ذو رؤية بيئية للتربية... وتجعلها تربية من أجل تطور كل البشرية في إطار بيئة كونية مستدامة. (جون ميلر، مؤلف كتاب المنهج التكاملي).
- ادموند أوسليفان يفصح عن الضمور الروحي والأخلاقي الذي نتج عن النموذج السائد للتطور الحالي. إن كتابه سوف يكون ملهماً ومعطياً أملاً للأجيال القادمة (جوزيه زارات، الوكالة العالمية للإغاثة والتطور، الكنيسة الأنجليكانيه الكندية).
- يقدم (أوسليفان) في هذا الكتاب الذي تتفتح العيون لقراءته، مفهوماً جديداً للضمير الكوكبـــي في إطار تربوي ينتمي إلى المجتمع والعالم الطبيعي ويدعمهما (الأستاذ/تشنغ مياو، أكاديمية بكين للعلوم الاجتماعية).
- إن هذا الكتاب يتضمن أفقاً وعمقاً يجعلانه ذا قيمة تتجاوز حدود التربويين. إنه حقيقةً، دراسة تحقيقية تتحدانا جميعاً بهدف إعادة إنبات جذور كثير من الأمور الخطيرة التـــي تواجه البشرية في وقتنا الراهن (كولن كرَيج، مدير جمعية كوريميلا، أيرلندا الشمالية).
- الأستاذ (أوسليفان) يتجاوز المنظور الإقليمي "الشمالي" ويستحدث رؤية يمكن تطبيقها عالمياً (الأستاذ/أبيلاردو برينـــز، جامعة كوستاريكا وجامعة الأمم المتحدة للسلام).
- إن تخيلات (أوسليفان) السافرة يمكنها أن تكون المبادئ المحركة للإصلاح التربوي للألفية

الثالثة. إنه يقدم رؤية تربوية كاختيارٍ غنـــي مبدع للتربية مقابل تلك الحقيقة المدمرة للعولمة الصناعية التنافسية (سياران سيجرى، أستاذة المناهج، سانت باتركس، دبلن).

- يزيح (أوسليفان) الأفكار الماضية للعولمة وثقافة الاستهلاك ويرسم صورة بيانية لعالم منقسم على نفسه فيما يخص الأخطار البيئية والاجتماعية، ويقترح بعد ذلك إطاراً تربوياً شمولياً في شكل انتقاد مقنع واستراتيجية أساسية، إذا ما أردنا الاستمرار في البقاء كسلالة بشرية. (ريتشارد سويفت ، المجلة الدولية الجديدة).
- يعد هذا الكتاب رفيقاً لا يقدر بثمن للممارسين التربويين والباحثين على حد سواء، إن كتاب (أوسليفان) هذا يقدم مسلكاً متكاملاً للإصلاح التربوي والتحول الاجتماعي (توماس مارك توراي، مدير كاريتاس ماكينـــي، سيراليون).
- إن هذا الكتاب هو تحليل شامل ومفصَّل للتعليم التحولي على المستوى الكوكبي. إنه يحدد المعضلات والمعاناة، ويمكنه أن يكون أساساً لرؤى تربوية جديدة (ميشيل فولين، مؤلف كتاب المعنـــى الجديد للتغيير التربوي وتغيُّر القوى).
- إنه كتاب ذو بصيرة نادرة في وقت تسوده اضطرابات التغيير. إن طريقة تركيبية للطبيعة تجعله مرشداً أكيداً وتربوياً مبدعاً في آن واحد (ستيفن ج. دن، مدير معهد إليوت آلن للبيئة وعلوم اللاهوت، تورنتو، كندا).

تعريف بالمؤلف

الأستاذ الدكتور (ادموند أوسليفان – Edmund O'Sullivan)

هو منسق مركز التعليم التحولي بمعهد أنتاريو للدراسات التربوية (OISE) التابع لجامعة تورنتوبكندا. لقد شغل وظيفة أستاذاً لعلم النفس التطبيقي في (OISE) منذ عام 1983 وحتى عام 1992.

ألف الدكتور أوسليفان كتباً عديدة منها علم النفس النقدي والتربية (برجن وجارفي Bergin and Garvey- 1990)، كما ألف أيضاً مخطوط علم النفس النقدي" تفسير العالم الشخصي" (وكالة بلينم Plenum Press -1984). وألف أيضاً كتاب "نظريات ومشكلات نمو الطفل" لطبعات متعددة بالمشاركة مع D.P.Ausubel and W.Ives) نشرته وكالة (جرون وشتراتن Grune and Stratton).

ولقد ساهم الدكتور أوسليفان أيضاً في عدد كبير من الأجزاء والفصول في مخطوطات علمية مختلفة إضافة إلى مقالات في دوريات أكاديمية مرموقة.

قائمة المحتويات

شكروتقدير

أود في البداية أن أتقدم بعظيم الامتنان إلى كل من ساعد في إنجاز هذا المخطوط الذي أنجزت كتابته خلال ثمان سنوات مما أتاح لي فرص متعددة لمناقشته أثناء حلقات النقاش التـــي كانت تعقد لطلبة الدراسات العليا قبل نشره سنة "1999". وعليه أود أن أقدم الشكر الجزيل لهؤلاء الطلبة على مشاركتهم الرأي وتبادل الأفكار طيلة تلك الفترة.

كما أخص بالشكر والتقدير زميلي (بد هول Budd Hall) على ملاحظاته القيمة التـــي أبداها بعد عرضه الكتاب في إحدى حلقات نقاشه، وكذلك على تقديمي للناشر (روبرت مولتينو Robert Molteno) بدار نشر (زد بوكس Zed Books).

أخص بالشكر أيضاً صديقي (توم ليونـــز Tom Lyons) المدير السابق لمشروع اتحاد مدرسي أنتاريو، للتدريس من خلال منظور كونـــي وعلى مشاركته الفعالة في مناقشة قضايا "العولمة".

الشكر والتقدير أيضاً إلى (دورثي جولدين روزنبيرج Dorothy Golden Rosenberg) على قراءتها مسودة الكتاب ومساندتها في معالجة قضايا رئيسية تخص دور كل من الذكور والإناث في موضوع العولمة.

وأشكر كذلك (ليزا ليبست Lisa Lipsett) على مساعدتها القيمة في إعادة تنظيم الفصول الأخيرة من هذا الكتاب وكذلك توضيح أمور مهمة تم عرضها في الفصول التمهيدية منه. وأخيراً (لوسيانا ريكسيوتيللي Luciana Ricciutelli) التـــي أشكرها على دورها الرائع في إنجاز مسودة الكتاب.

هذا وكان (توماس بيري Thomas Berry) صديقاً نصوحاً ومشاركاً سخياً أثرى بنقاشه مشروع الكتاب من خلال خبرته المكتسبة من نشره لمؤلفه كتاب (قصة الكون The Universe Story) بالمشاركة مع (برين سويم Brian Swimme) حيث كانت أفكارهم واضحة جلية في الفصول الأخيرة من هذا الكتاب، ولقد كان (توماس) مفرطاً في كرمه

بكتابته المقدمة.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أعبر عن حزني العميق الذي غلف حياتي أثناء إعداد وكتابة هذا المؤلف ففي يوم الاثنين 22 - أغسطس من عام 1993 جاء (توماس بيري Thomas Berry) لزيارة زوجتي وهي على فراش الموت وقرآ الصلوات الأخيرة معاً. وفي يوم الثلاثاء 23 - أغسطس 1993 فارقت الحياة، ولقد خبرت خلال سنوات مرضها كم كانت عزيزة على قلبي وعلى أبنائي (جيرمي Jeremy) و(ميرا Meara) و(داميان Damian).

وأخيراً أود أن أعبر عن غبطتي وسروري بإهداء هذا المخطوط إلى (آمير اونيل Eimear O'Neil) التي كانت أنوثتها وأنماط سلوكها الهندوأوربية حافزاً قوياً على إنجاز هذا المؤلف.

إدموند أوسليفان — تورنتو

تقديم

توماس بيري Thomas Berry

إن مغزى التربية في القرن الحادي والعشرين هو التحدي الذي أبداه التربويون طيلة سنوات التحول السابقة، ومؤلف (آدموند آوسليفان Edmoud O'sullivan) هذا يمثل استجابة لهذه القضية. وهو نتاج عمرٍ كامل كرسه لإبراز دور ومغزى التربية في القرن الحادي والعشرين. لقد قمنا بتدريس العلوم والثقافة والآداب والأديان والاقتصاد والقانون والسياسة إلى جانب المثل الاجتماعية والجوانب التقنية للحياة المعاصرة ولكن يبدو دائماً وكأن هناك شيئاً منقوصاً.

وفي عالمنا الذي نعيش فيه يوجد عنصر مفقود في علاقة البشر بالعناصر الأخرى حيث يوجد خلل وظيفي منذ بداية انقراض حشود من الكائنات الحية من حولنا. وإذا كنا نتعا.. في عالم يدمر العديد من مظاهر الحياة، فإننا بالتأكيد نحتاج إلى إعادة التفكير في القوة المتأصلة، والفاعلة في برامجنا التربوية. ويمكننا القول ببساطة بأننا لا نستطيع أن نعيش لوحدنا وعالمنا الباطن ما هو إلا استجابة لعالمنا الخارجي، وبدون فخامة وجمال ومعجزات العالم الخارجي فإننا لا نستطيع أن نطور من عالمنا الداخلي.

وكما نلاحظ هلاك الكائنات الحية من حولنا، فإن هذا الفناء سيشملنا نحن أيضاً بمعنى أننا سنفقد جوهرنا وعواطفنا وحياتنا وسنفقد حتى القدرة على تنمية مداركنا العقلية، ولن نستطيع البقاء في النسق البشري دون توفر واستمرار الإطار العام للظواهر الطبيعية المحيطة بنا. وربما يكون أحمق شيء متداول هو تمجيد أنفسنا على أننا استطعنا قهر الطبيعة. وأول الأهداف الحمقاء للتربية هو تعليم التلاميذ وتدريبهم على إخضاع العالم لمصلحتهم.

إن أول اهتمامات الدكتور (أو سوليفان O'Sullivan) في مشروعه هذا، هو ضرورة زحزحة الحضارة العربية المعاصرة نحو التخلي عن مبدأ غزو الأرض وقهرها نحو التعايش معها في إطار تكاملي موحد (نحن والأرض معاً community with the earth).

لقد قمنا بقهر الأرض ولكن وجدنا أنفسنا نملك كوكباً مدمراً فقد عملنا على إنضاب مواردنا إنها لحظة حاسمة ليست بالنسبة للحضارة الغربية وللإنسانية عامة فقط ولكنها لحظة حاسمة في قصة الحياة الجيوبيولوجية للكوكب برمته. فمن وجهة نظر علماء الحياة (البيولوجيا)، فإن مظاهر انقراض الحياة البيولوجية بالمعدلات الحالية لم يسبق لها مثيل خلال الخمسة والستين مليون سنة الماضية من تاريخ الأرض.

ومن هذا المنطلق فإننا نحتاج إلى إعادة النظر في شكل وأهداف التربية إبتداءً برياض الأطفال وانتهاء بالمدارس المهنية. كان التعليم في العصور الوسطى منصبّاً على علم اللاهوت وما يتضمنه من قضايا مقدسة وخلال قرون لاحقة بدأ الاهتمام بتدريس الثقافة والعلوم والاقتصاد مع التركيز على التنمية البشرية مما مكّن التربية من وصولها إلى الوضع الراهن، غير أن دراسات علم الكونيات وموقع الإنسان ودوره في مسيرة مجتمع الأرض أصبحا من أهم محاور اهتمام التربية للمستقبل.

وأخيراً، يجب علينا أن نعلّم أجيالنا ونوسّع مداركهم حول جمال مظاهر الطبيعة وخوارقها وفاعليتها كأداة مفيدة لعالمنا الباطن وها نحن وسط هذه الإشراقة التـــي عملت على تغذية أرواحنا وأجسادنا وهي التـــي ترى بأن التربية يجب أن تكون سبيلاً يعزز عظمة الطبيعة لا العمل على تدميرها.

ويرى (أودموند أوسليفان Edmund O'Sullivan) بأننا نحتاج في الوقت الحاضر إلى طريق جديد للحياة وأننا بحاجة ملحّة أيضاً إلى طريقة جديدة للتفكير.

أننا في حاجة إلى طريقة تضمن لنا الحياة والتنعُّم بجمال الطبيعة، كما أننا في أمس الحاجة إلى معرفة قصة الكون وكيف بدأ ساطعاً واستمر حتـــى الآن.

أننا نريد أن نعرف قصة الأرض وتقسيم القارات ووجود الإنسان عليها. أننا نريد الحياة مع معجزة الرياح والطاقة الشمسية ومع الأنهار والأمواج، ومع الكم الهائل من النباتات التـــي تنمو في التربة ومع الحيوانات الجميلة والمخيفة التـــي تتجول في الغابات، وبذلك يجب علينا أن نحافظ على عظمة وكرامة عالم طبيعي يتلاشى أمام أعيننا يومياً.

وهذا أمر يجب أن يكون في غاية الاستعجال والأهمية، لقد شرق علينا وعلى أبنائنا قرن جديد وألفية جديدة ونأمل بالمناسبة أن تكون مرحلة يحيا فيها سكان المعمورة في سعادة

متبادلة.

إن الهدف الرئيس لهذا المؤلف يرتكز على الرؤية الثاقبة التـــي تقودنا عبر مستقبل يواجه تغيرات هائلة تجعل العمليات العادية لاستيعابها والاستدلال عليها غير كافية وبالرغم من حاجتنا إلى الاستدلال، غير أن الرؤية الثاقبة أكثر إلحاحاً ولا تأتـــي من مجرد الاستدلال، إضافة إلى أن صدمة الموقف تجبرنا على التخلي عن إطار فكري معين واتخاذ بديل له.

إن هذا الحدس أو ما يشار إليه بالخيال أو الرؤية الثاقبة، ربما يكون مصدرها أعماق اللاشعور وتكتشف لنا في عالم الأحلام ورغم أن هذا الإطار المقترح يتلاءم مع تقاليدنا الغربية وينسجم معها، إلا انه يقتحم هذه التقاليد في إطار جديد، لكنه نفس الإطار الأساسي الذي خبرته الشعوب البدائية في عالم اعتبروا فيه أنفسهم أعضاء في عائلة كبيرة في هذا الكون بكل مكوناته. أن هذا الإطار الشامل يمكن استيعابه والتنبؤ به من خلال الأمثلة الشائعة بين الشعوب إشارة إلى (علاقاتهم العامة).

ولا شك في أن عالمنا يتضمن ما يدعو إلى الاعتقاد بأن العالم من حولنا تتخلله مشاعر الرحمة. وكما أشار عالم آثار الشرق الأوسط (هنري فوانكفورت Henri Frankfort) في كتابه (ما قبل الفلسفة) فإن الفرق الجوهري بين اتجاهات الإنسان القديم وإنسان اليوم حيال العالم المحيط، هو أن الإنسان الحديث يرى الظاهرة أساساً كما هي، بينما يراها الإنسان البدائي كشيء (مخاطب) وهذا الاتجاه بطبيعة الحال تم التخلّي عنه في العلم الحديث منذ أمد بعيد. ونواجه نحن في وقتنا الحاضر وبكيفية جديدة ماتم إنجازه وماتمت خسارته عندما أهملت العلاقة الحميمة بين الإنسان ومحيطه.

أننا عندما تخلينا عن تقدير الطبيعة أصبحنا عرضة للخطر نتيجة لتعاملنا مع الأرض على أنها سلعة تباع وتشترى مما أفقدها أبعادها النبيلة الطاهرة، واختفى مع ذلك تقدير المجتمع الإنسانـــي لها. ان مشاعر الاحترام والرهبة تجاه الطبيعة تثير مشاعرنا وتحركها كميكانيزمات لهذا العالم. إن المعايير التجارية الصارمة هي التـــي حددت في الماضي قيمة كل شئ وهكذا أصبح العالم الذي نعيش فيه، عندما أصبحت النقود هي مقياس الثروة، الأمر الذي أدى لأن يصبح هذا الكوكب عرضة للعسف ليس فقط في ظاهره الطبيعية، بل في جباله وأنهاره وشواطئه وبحاره وفي كل مظاهر الحياة في نطاقه أن الحياة تتطلب شيئاً وراء هذا النظام، شيئاً

وراء الثراء، فهي تتطلب الروح الاجتماعية وحسن العناية كما تتطلب وجود الجماعة. وهذا يجب أن يكون جلياً واضحاً في أبسط صوره. حتـــى لأكثر العقول بساطة.

ويتحتم علينا هنا أن ننادي بضمير جديد يسود العالم ضمير عصر جديد من أجل أن يحيا البشر على هذا الكوكب في طمأنينة متبادلة، والقاسم المشترك في هذا الضمير هو مساهمة كل فرد بفاعلية في رخاء مستقبل الأجيال القادمة. وإذا لم يكن هناك بدٌّ من توريثهم إلا كوكباً مدمراً، فإننا قادرون على منحهم كوكباً يتماثل للشفاء. إننا نستطيع أن نزودهم بالرؤية الثاقبة التـــي تمكنهم من كشف دوائهم وسط علاقات أخوية حميمة يتوفر فيها اعتبار الذات في حضور روحي جميل لهذا الكون من حولنا. أننا نستطيع وضع خطة لبرامج تربوية ترشدهم وأطفالهم في زمن يجددون فيه احتفالاتهم في الغدو والأصيل، وبصورة مستمرة عبر فصول السنة ليلاً ونهاراً عندما تتفتح الأزهار وتحيط الحقول الخضراء بالمنازل.

والكاتب هنا، شأنه شأن بعض الناس الذين أعرفهم يرى أن الجامعة هي ملتقى الأفكار والرؤية الثاقبة التـــي بدونها يهلك الجنس البشري وتفنـــى الخليقة. والرؤية الثاقبة في هذا النموذج ولأول مرة في حضارة الغرب، هي النظرة الكونية المتكاملة وسط الفضاء الفسيح ونسيج تحولاته الممتد عبر الزمن، حيث تكون قيمة لكل مخلوق في هذا الكون، ويكون هو الجامعة الأولية. وتكون الجامعة الإنسانية هي الإطار الذي يعكس العلاقات السائدة في المجتمع البشري. وهكذا تكون الأرض في الكون شيء متكامل مع نفسه وكل عنصر فيها وكل مهمة من مهام البشر يجب أن تُسخر ضمن ذلك التكامل الوظيفي لهذا الكوكب.

والأرض هي المعلم الأول للدين والطب والاقتصاد والقانون وهي المربـــي الأول، حيث أن الاقتصاد البشري هو جزء من منظومة اقتصاد الأرض. وهكذا بالنسبة لبقية المهن حيث تكون الأديان والطب والبيئة منظومات متكاملة تسند بعضها بعضاً ولن تكون هناك حياة على كوكب مريض فالطبيعة يجب أن تكون مضموناً للتربية وليست موضوعاً من موضوعاتها. وعندما يكون للبشر اعتبارات متميزة على حساب عالم الطبيعة، فإننا نكون قد نسينا كيف خُلقنا ومن أي أتينا أننا نسينا آنذاك، أن مؤسساتنا التعليمية تنبثق أساساً من العالم المحيط بنا وهو مرجعها الأساسي.

ان هذه العولمة التـــي نشهدها تختلف عن عولمة مناقضة كانت قد نشأت بقوة الاقتصاد

والمال والتفوق الصناعي الذي شهده عالمنا المعاصر. وأن عولمة الاقتصاد هي حصاد قرون مضت من التنمية الاقتصادية التـــي دخلت مؤخراً إلى مرحلة من أساليب السلب والنهب، حيث أصبح الطلب يفوق بمعدل كبير الإمكانات المتاحة. وهذه العولمة التـــي تتضح من خلال سرقة الاقتصاد ونهبه، هي نجاح مؤقت سينهار خلال سنوات معدودة قادمة. وقد تشكل هذا الاقتصاد وفق احتياجات بشرية غامضة دون اعتبار للإمكانات الطبيعية المتاحة.

إن الاعتقاد السائد الآن هو أن تحصيل المعرفة وتشجيع الإبداع في الأقسام المختلفة للجامعات ومراكز البحوث العلمية يستطيعان الرفع من إمكانات الكوكب إلى مستوى غير محدود وما هو موجود الآن يشير إلى أنماط سلوكية مبهمة تقر بمحدودية إمكانات الأنهار والبذور والتربة وكذلك الغابات والبحار. حيث يقف العلم عاجزاً عن تطويرها بشكل غير محدود.

وما هو مقترح هنا، هو وجود عولمة أخرى تعترف بالأقاليم والقيم الموروثة لكل جماعة في المجتمع الدولي. وتبرز هذه العولمة العلاقات الحميمة بين المجتمعات المختلفة التـــي تكوّن في النهاية مجتمعنا العالمي، مع التأكيد على تعزيز والاعتراف بقيم الجماعات الأخرى.

إن سعادة الكون يتم التعبير عنها من خلال العلاقات المتبادلة بين الأفراد. وفي الوقت الذي يتميز فيه البشر بهذه الأدوار في المجتمع الواسع، فإن جودة حياتهم يتم تحقيقها ضمن رخاء المجتمع ككل. وإن تقدم مجتمع على حساب مجتمع آخر سيجلب الدمار عليهم جميعاً.

وعندما تكتسب الجامعة خبرات في هذا الإطار فإنها ستكون صالحة من خلال رؤيتها الثاقبة لما يجب أن يكون عليه القرن الحادي والعشرين كل المدارس والأقسام العلمية تشكل نفسها تلقائياً في وسط هذا العالم وتستعد للمشاركة في احتفال رائع مفعم بالموسيقى يقام إيذانا بالوجود الجديد وإيذانا ببدء يوم لم تعرفه الجامعات منذ تكوينها في الحضارة الغربية.

مــدخـــــل

الأفـعـال تـقـودها الأحـلام

نمتاز نحن البشر في كل أرجاء المعمورة بكوننا قد شهدنا قرناً جديداً ونمتاز كذلك بإنحدرانا من تاريخ رائع. وبغضّ النظر عمّ اكتنف هذا التاريخ من خير أو شر، فنحن في الحقيقة الوارثون للحداثة. غير أن ما نلاحظه في أيامنا هذه، هو أن كل شعوب العالم مدفوعة نحو ما يعرف "بما بعد الحداثة" وأن التحولات التـــي نشاهدها الآن تتسم بكونها مثيرة ورهيبة في آن واحد، مما يجعلنا نتساءل عن ما هي الحداثة؟ وما معنـــى التحول إلى ما بعد الحداثة؟ وفي كتابه المثير للغاية "تاريخ موجز لكل شيء" يزوّدنا (كن ولبر Ken Wilber) بتعريف عملي ينسجم مع فهمي الخاص للحداثة ومابعد الحداثة.

"إن نشأة الحداثة" وأعنـــي بالحداثة على وجه التحديد، تلك النظرة المنطقية الصناعية للعالم. كما يمكن وصف الحداثة بشكل عام على أنها التنوير والتطور الذي حقق أهدافاً كثيرة ومفيدة وخارقة للعادة، نذكر منها استحداث الديمقراطية والقضاء على العبودية وظهور الحركات النسائية الليبرالية. كما تميزت مرحلة الحداثة هذه بازدهار الفنون والعلوم والأخلاق بما في ذلك العلوم التطبيقية وأنظمة العلوم والإيكولوجيا إضافةً إلى ارتفاع معدل حياة البشر بنحو ثلاثة عقود واتّسمت الفنون والعلوم والأخلاق بالنسبية وتحوّل الناس من التركيز على العرقية إلى التفتّح على الغير وتفككت سيطرة التسلسل الاجتماعي الطبقي بطرق عديدة ومتميزة". إن الاعتراف بهذا الجانب المشرق للحداثة يحتم علينا الاعتراف أيضاً بالجانب المبهم للمسار المنحنـــي لتاريخها، أن أحد أهم مباحث هذا الكتاب هو أن الحداثة وبكل ما أتت به من أعاجيب وامتيازات فإنها قد بلغت نهاية حدود ازدهارها. إننـــي أعتقد بأننا نعيش المراحل النهائية للتاريخ المعاصر وبما أننا نعبر متسارعين وبكل قوانا حدود مرحلة الصناعة المنطقية التـــي تقوم الآن بإلغاء ذاتها فإنه يجب علينا ألا نفكّر مجرد التفكير في أنه سيكون مرغوباً إنكار أو نبذ القوى التاريخية للحداثة، فنحن في حاجة إلى تحول ارتقائي يتجاوز قوى

الحداثة ويتصمها في آن واحد يقوم (ولبر Willber 1996:69).

بوصف هده اللحظات التحويلية قائلاً: "إن ترك المنطق والصناعة دون تدخل جعل منهما سرطانات خبيثة تنهش الجسم السياسي مّما أدى إلى نتائج وخيمة. بحيث أن المنطق والصاعة يتحاوران حدودهما ووظائفهما ويتحولان إلى أنظمة وهياكل مسيطرة من نوع أو آخر، ولكي نتحاوز الحداثة لابد لنا من العمل على تقويض العناصر السلبية المسيطرة للحداثة مع تدعيم والأخد بالحوانب الايجابية لها. والتحول القادم سيشمل خواص الحداثة ويفوقها عن طريق دمج أسسها وتحديد قواها" (Wilber, 1996: 70).

ومع إنطلاق عملي هذا فإننـــي أود توضيح موقفي على نحو درامي اتجاه القوى الحالية للعولمة الاقتصادية التـــي تجاوزت الحدود القومية. إننـــي أعتقد بأن العولمة الإقتصادية بشكلها الحالي تمثل أشد قوى الحداثة خبثاً وتدميراً. إنها شبكات وأنظمة شرّ شرسة ذات محاور شر متعددة ومتوحشة وقد أصابها الجنون. إن الأفكار الرئيسية المسيطرة على ماأنت بصدد قراءته، هي أن الوظيفة التربوية الأساسية لعصرنا هذا تكمن في اتخاذ قرار حاسم بشأن جعل كوكبنا هذا موطناً لكافة أشكال الحياة التـــي يجب أن تتكامل فيما بينها وظيفياً من أجل بقاء واستمرار جميع الكائنات أحياءً وأشياءً، والعمل على طمس وإسكات نداءات سوق التنافس العالمية المجنونة. إن وجهة النظر الجديدة هذه لاتنطلق من فراغ بل تستند إلى موجة مدية عريضة من الأشخاص والمجتمعات التـــي تشاطرها الرأي حول شيخوخة الحداثة واهترائها وحتمية الإنطلاق نحو ما بعد الحداثة. "ماندر وكولد سمث 1990". هذه الرؤية الجديدة للحياة تتحدى العولمة الإقتصادية التـــي تتسارع خطاها في عالم اليوم، والتـــي يقول فيها (تمدتز 1990) إن هذه القوة الماحقة تسحق من يقف في طريقها وهي عادة ماتتبع مساراً ثابتاً ثم ماتلبث أن تتحول عشوائياً باتجاهات غير متوقعة. وفي تقييمهما للعالم الحديث يؤكد كل من "وريس ووالدنجل" في كتابهما (بصمتنا الأيكولوجية) على الملاحظات التالية حول قوى العولمة:

يبدو أنه في عالم اليوم تتكاثف جهود كل من المدينة والعولمة والتجارة للحدّ من الارتدادات التصحيحية فيما يخص السكان المحليين ويبدو أن سكان المناطق الحضرية أصبحوا محصّنين ضد نتائج سلوك الإدارة غير المحافظة على الأرض والموارد المحلية ولو لبضعة عقود.

إنهم اكتسبوا هذه المناعة من خلال تصرف البذخ في الموارد العالمية. إن الحداثة من الناحية الفعلية تغربنا فضائياً ونفسياً عن الأرض التـــي نحن بها ومنها وعليها. إن سكان العالم الصناعي يعانون من فقدان بصيرة أيكولوجية عامة تفقدهم إحساسهم العام تجاه الحياة الطبيعية التـــي تمكّنهم من الاستمرار (ووكرنجل وريس 132:1996).

هذا الاختيار الذي اتّصف بأنه رؤية إيكوزوكية أو رؤية ذات طراز إيكوزوكي، يمكن أن يقال عنه أيضاً بأنه وجهة نظر تحويلية "لأنها تفترض إعادة هيكلة راديكالية متطرفة للاتجاهات التربوية الحالية برمتها". ولتدعيم الاتجاه نحو أنظمة تربوية كونية ينبغي أن يكون لدينا علم كونيات وظيفي يتطابق مع الرؤية التـــي مفادها أن التربية هي التـــي ستقودنا إلى تحقيق أهدافنا. إننا نقف الآن عند نقطة تحوّل بالغة الأهمية مما يجعلنا في حاجة ماسّة إلى قصة كونية يمكنها استيعاب الرؤية وحمل الثقل الذي يمثله الوعي الكوكبـــي لكي يمكّننا من استبصار الطريق الذي يجب علينا أن نسلكه. إننا نعيش الآن مرحلةً حاسمة ونقف على الحدود الفاصلة مقارنةً بالتحولات الرئيسية التـــي حدثت أثناء التحول من العصور الوسطى إلى العالم الحديث. واستناداً إلى عمل (توماس بيرى 1988)، يمكننـــي الإشارة إلى مرحلة ما بعد الحداثة هذه على أنّها مرحلة ذات طراز إيكوزوكي. إن الاطار التربوي الملائم لهذه المرحلة لابد له من أن يكون مثالياً وتحولياً، كما ينبغي له أن يتجاوز الرؤى التربوية التقليدية التـــي قمنا بتشجيعها وتعزيزها خلال القرون القليلة الماضية.

إن وجود وعي عالمي متكامل يفتح أمامنا رؤية هائلة للعالم الذي نعيش فيه ممّا يحفز خيالنا ليتعدى حدود الرؤية السوقية. إن كوكبنا هذا ما هو إلا خبرات أحلام مشتركة وهذا هو المظهر النهائي لأفكارنا ومعتقداتنا بشأن الواجبات والإلتزامات الأخلاقية ولاشك بأن جدلاً كبيراً يجري الآن حول عمليات التطور والاتجاهات التـــي تسفر عنها. وهناك مجالات تتضح تدريجياً بخصوص تلك العمليات وتوصف هذه المجالات بأنها غير موجهة وليست عشوائية ولكنها خلاقة مبدعة. ولعل أكثر الأوصاف ملائمة لهذه العمليات هو تحقيق الأحلام. ويرى (توماس بيري 1988) بأن انعكاسات الانبهار أمام عظمة الكون تولد لدى الشخص خيالاً غاية في الشمولية حتـــى ليعتقد بأنه وجد عبر الأحلام. ولعله من الواجب هنا أن أُحذر القارئ من عدم المطابقة بين استخدامي لكلمة "الأحلام" وبين ما هو غير واقعي أو رمزي أو

مجرد عمليات لاشعورية. ولقد خلص (توماس بيري) من خلال حواري معه إلى نتيجة مفادها بأننا لسنا متحفزين ولا متحمسين على مستوى الأفكار الواقعية ولكننا نتفق عند الخوض في حوار الأفكار العميقة التـــي نصفها "بنسيج الأحلام" ولقد استخدم "توماس بيري" تعبيراً أسنده إلى "كارل يونغ" مفاده بأن الأفعال تقودها الأحلام. قليلة هي الأشياء التـــي تحقّقت في الشؤون الإنسانية تحت بند الإنتشاء مّما يمكن ربطة بتجربة الأحلام ولكن حلم المسيحية قد حقق الحضارة الغربية خلال العصور الوسطى. وثقافات العالم العظمى لم تنشأ من عمليات منطقية بل نشأت من تجارب إلهامية تظهر في الأحلام أو تتصف بكثير من أوصاف الخبرات التـــي نشهدها في الأحلام. وعلى مايبدو فإنه تحت هذه الظروف فقط تظهر التلقائيات العميقة لشفرتنا الجنينية السابقة للوعي بكل قوتها وروعتها.

وإذا كان الحلم خلاّقاً، فيجب علينا الاعتراف بأنه قلما يوجد شيء مدمر كنشوة أو حلم فقد استقامة المدلول ودخل مجالات من المبالغة والتخريب وماأكثر الأمثلة على ذلك في مجال الايدولوجيات السياسية والمثل الدينية. غير أنه لايوجد حلم أو نشوة في التاريخ جلبت معها الدمار كتلك الآثار المدمرة التـــي شهدتها إنشاءات الحضارة الصناعية. ولايمكن لمثل هذه الإنشاءات السلبية إلا أن تقيم في عداد الباثالوجيا الثقافية العميقة.

إن الأنظمة التربوية المعاصرة تفتقر الى خصائص الكوزمولوجيا الشاملة. وهذه السمة تعتبر من الأفكار الرئيسية التـــي سأطور نقاشها في هذا الكتاب. فعندما استقت التربية أفكارها من العلوم، تركز اهتمام التعليم، على العلوم الاجتماعية كعلوم منفصلة عن العلوم الطبيعية. وفي غالب الأحوال كانت النظريات التربوية وتطبيقاتها مستندة إلى علم لنفس وعلم الإجتماع وبدرجة أقل حدة إلى علم الإنسان. إن ما تعوزه النظريات التربوية الحديثة هو وجهة نظر شاملة ومتكاملة كانت في الماضي تعرف بعلم الكونيات (كوزمولوجي). وهكذا فإن النظريات التربوية الحديثة وتطبيقاتها لازالت تتسم بفقدان البصيرة التـــي أربكت التخصصات العلمية الحديثة أثناء انبلاجها من مرحلة ما بعد النيوتونية. وتأكيداً لذلك فإن الأفكار الغربية المعاصرة قد حاولت الإرتباط والتوحّد مع الفلسفات الإنسانية ولكنها فعلت ذلك دون تقديم علوم كونية (كوزمولوجي) مقبولة. إن ما أصبو إليه في كتابـــي هذا هو عرض وتوضيح لعلوم كونية (كوزمولوجية) يمكن أن تكون ناجحةً ومحققةً لأهدافها من

الناحية الوظيفية، حيث يمكنها توفير أساس لبرنامج تعليمي يمكّننا من تحقيق رؤية علمية من الناحية الأيكولوجية للشعوب وفي أوسع نطاق. أي إلى الدرجة التــي يمكننا من تسميتها "رؤية عالمية"، وهي الرؤية التــي نفتقدها ونتألم لغيابها في ظروفنا الحالية، وفي عمله الرائع "سحر الحسيات" لفت إنتباهنا "ديفيد ابرام" إلى الفراغ في رؤيتنا التربوية الحالية.

ومن الواضح أن هناك شيء مفقود. إن ثمة عنصر أساسي قد أهمل بشدة، إن هناك مظهر هام من مظاهر الحياة قد تم نسيانه وتجاهله تماماً خلال اللهث وراء عالم مشترك. يبدو أن البشر خلال اندفاعهم تجاه ظلمات الفضاء وخلال بحثهم على صورة مبهرة وموحّدة للكون الأرضي، قد تخلوا عن شيء مهم بذات القيمة. لقد افتقدنا التواضع والفضيلة اللذين ينبثقان من الانتماء الكامل لهذا العالم المندفع. لقد نسينا الوقفة التــي تتأتــى من العيش في علاقة تكاملٍ وتبادلٍ فعال مع الأشياء والكائنات غير المعدودة التــي تحيط بنا وندركها حسياً. وإذا لم نعي محيطنا الحسي عاجلاً وإذا لم نتوحد مع هذا المحيط الذي نعيش فيه وبما فيه من مكونات طبيعية واجتماعية وحيوية، فسيكون ثمن ذلك وخيماً على كافة بنــي البشر وقد يكون مدعاة لإنقراضنا جميعاً (Adram 1996: 270-71).

ولعله من الواجب تنبيه القارئ منذ البداية عن طبيعة إدراكي لفكرة التعليم التحولي التــي تظهر في عنوان هذا الكتاب. وسأبدأ بفكرة التحول ضمن نسق ثقافي واسع.

وعند بلوغ أي عرض ثقافي مداه، فإن الوظائف التربوية والتعليمية تصبح غير قابلة للنقاش وعادة ما تتفق الثقافة حول الثوابت الجوهرية الهامّة. ولا شك في أنه خلال مراحل تطورنا، توجد فترات من النشاط والتفاؤل تشير إلى أن عالمنا هو أفضل العوالم المحتملة على الإطلاق وأن علينا متابعة الطرق التــي نسلكها والأنشطة التــي نقوم بها. وكما هو معتاد يوجد شعور واضح بإدراك أهداف التربية والتعليم، كما يوجد إحساس مهيمن بوجوب المتابعة في ذات الاتجاه الذي أوصلنا إلى هذه النقطة، ومن ثم يمكننا القول بأن الثقافة عندما تكون متكاملة وأن هذا التكامل يضمن لها الاستمرارية، عندئذ نستطيع القول بأن السياق الثقافي الذي يتّصف بمفهوم واضح للأغراض والأهداف والاتجاهات سيكون سياقاً ملائماً من النواحي التشكيلية والتقويمية. والثقافة في حد ذاتها تكون ملائمةً من النواحي التقويمية حين تحاول نسخ نفسها في هذا السياق وحيث تكون المؤسسات التربوية والتعليمية في توافق تام مع الاتجاهات الثقافية السائدة.

وحتـــى عندما تكون الثقافة ملائمة من الناحية التقويمية، فثمة أوقات تبدو فيها فاقدة لهدف وللخصائص التـــي تتسم بها، ويصبح جانب من الحديث العام في مثل هذه الأثناء حول "النقد الإصلاحي". إن الانتقادات الإصلاحية لغة موجهة لنقد الثقافة بسبب فقدان أغراضها وضياع أهدافها التـــي تسعى لتحقيقها. فهو يدعو إلى العودة إلى المخزون الوراثي الأصلي للثقافة. إنه نقد يقبل الإرث الضمنـــي للثقافة ويسعى إلى إرجاعها إلى مسارها الإساسي. وعندما يتجه النقد الإصلاحي نحو المؤسسات التربوية نسميه الإصلاح التربوي.

يوجد نوع آخر من النقد يختلف عن النقد الإصلاحي جذرياً، وهو الذي يناقش الأساطير الأساسية للشكل الثقافي السائد ويدّعي بأنه لم يعد ممكناً للثقافة أن تحافظ على رؤيتها واستمرارها. يتركز هذا الانتقاد على أن الثقافة لم تعد ملائمة من الناحية التقويمية ويطرح عدة تساؤلات حول كافة الرؤى التربوية المتعلقة ببقاء واستمرار الثقافة السائدة. أننا نشير إلى هذا النوع من الانتقاد بأنه نقد تحولي ومقارنة بالانتقادات الإصلاحية يقترح الانتقاد التحولي إعادة هيكلة راديكالية للثقافة السائدة وقطع أواصرها مع الماضي نهائياً.

يتضمن النقد التحولي، من وجهة نظري الخاصة، ثلاث مراحل متزامنة وصفت الأولى على إنها نقد للملائمة التقويمية للثقافة السائدة، وأما المرحلة الثانية فهي رؤية لما يمكن أن يكون بديلاً لشكل الثقافة السائد وتعتبر المرحلة الثالثة في شكل مؤشرات متماسكة للكيفية التـــي يمكن للثقافة على أساسها أن تهجر تلك المظاهر غير الملائمة للأنماط الثقافية الحالية وظيفياً وتشير في الوقت ذاته إلى بعض الاتجاهات التـــي يمكن أن تشكل جزءاً من عملية التحول التـــي ستنشئ نمطاً ثقافياً جديداً يكون أكثر ملائمة وظيفياً.

إننـــي أعتقد بأن المراحل التـــي ذكرت أعلاه يمكن تسميتها إجمالاً بالمرحلة التحويلية، وهي مرحلة تاريخية تتسم بالتحول بين الرؤى، ولا يعنـــي ذلك أن المراحل التاريخية وتصنيفاتها لا تخضع للجدل، فهناك العديد ممن يقولون بأننا لسنا في مرحلة تحول جذري في وضعنا التاريخي الحالي وذلك ما اتصوره أنا. وفي حقيقة الأمر يبدو أننا نعيش في مرحلة تخمّر وهيجان وعلى سبيل المثال لا الحصر، يوجد نشاط ثقافي مفرط يتجه نحو السوق العالمية التنافسية. لقد لاحظنا ذلك في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا خلال عقد الثمانينيات. وحالياً خلال التسعينيات أصبحت الأنظمة التربوية مجالاً للإصلاح في النصف

الشمالي للكرة الارضية، غير أن تلك الجهود الاصلاحية كانت في جوهرها محاولات محافظة جداً. ويزودنا كل من (ارونونـــز وجيروكس 1993:1) بملخّص مصور من خلال وصفهما لنسق التعليم والتربية في الولايات المتحدة. "خلال هذه السنوات تم تعديل غرض ومفهوم التعليم لدى كافة المراحل التعليمية وذلك وفقاً لأسس السوق التنافسي ومنطق الفردية المتفشية، ويعنـــي ذلك من الناحية الايدولوجية تجريد المدارس من لغة الديمقراطية والمساواة وتقديم الإصلاح التربوي وتصميمه حول حوار الاختيار وإعادة الخصخصة والتنافس الفردي".

وفي أحدث نسخة "للإصلاح المحافظ"، يصعب ملاحظة أي نوع من التساؤل أو التقويم بخصوص أي مظهر من مظاهر الثقافة أو الرؤية السائدة والمتمثلة في السوق العالمية الاقتصادية، وحتـــى إن وجد بعض الانتقاد لما هو سائد الآن، فإنه انتقاد يتوافق تماماً مع الأنماط الثقافية السائدة التـــي تسعى لانتشارٍ أكثر لما هو موجود منذ بداية القرن العشرين. وتقترح ثقافة سيطرة السوق هذه، إصلاحات تربوية تتمشى مع الإطار السائد حالياً بل وتشجع المؤسسات التعليمية وتجهزها للإنتقال من سوق البلد المحلي إلى السوق العالمية.

إنه لا ملاذ لنا إذا أردنا الدخول في حوار حول الرؤية التحويلية للتعليم والتربية، من أن نضع في الاعتبار أنها ستشمل تنوعاً للعناصر والمراحل التـــي تشملها الأنظمة التربوية الحالية. وعند هذه المرحلة من علاجي لهذه القضية، سأحاول الإشارة إلى بعض التيارات التربوية الحديثة التـــي ينبغي أن تكون جزءاً من الرؤية الصاعدة للتعليم التحولي الإيكوزوكي. إن هذه التيارات تعمل إلى حدٍ مامستقلة ومنفصلة عن بعضها البعض ومادمنا بصدد مرحلة تحولية حيث توجد وجهاتٍ نظر متباينة، فلعلّه من المهم تسمية بعض هذه العناصر التـــي تتحرك باتجاهات معينة بالرؤية التحولية الأكثر تكاملاً، كما أود أن أصوغ هذه العناصر داخل إطار كوزمولوجي أعتقد بأنه سيمثل مشاركتـــي الأساسية في هذا الجهد الذي يطرح بديلاً للتقاليد التربوية الحالية.

إن استخدامي لمصطلح التحول يتسم بالدقة والتعقيد. إننـــي أُراود وجهة نظر كوزمولوجية طموحة، ولذا أريد من القارئ أن يدرك بأن استخدامي لمصطلح التحول لايشير إلى المثالية أو العصرية الذي أريد الإنسلاخ عنها. كل ما في هذا الكوكب وكل من

يعيش عليه يتوق إلى تغيرات عميقة تبدو أكثر عمقاً وأكبر حجماً من ذي قبل. وستقدم هذه التغيرات احتمالات جديدة رائعة، ولكن علينا أن نستوعب أن هذه التغيرات سوف تصطحب معها مشاكلها الخاصة وسواءً رضينا أم كرهنا، فهي سوف تأتـــي بحدودها القاسية التـــي عبر عنها (كن ويبر 70:1996) بالآتي: "ستهدّئ من حدة بعض المشكلات المتعلقة بالتصنيع المنطقي الذي وإن كان رائعاً، فإنه سيخلق مشكلات عويصة. ولذا فإن كان هذا هو ما نعنيه تحديداً بقولنا "التحول القادم" المناقض لعصرنة اليوتوبية الهوجاء، فإننـــي إذن أعتقد بأن هذا التحول حاصل لا محالة"

لقد بدأنا نستوعب بأننا نعيش مرحلة من التاريخ شديدة الاضطراب وفي زمن تتفاعل فيه عمليات عنيفة في مجال التغيّر والتغيير، وتتحدانا هذه العمليات على كل مستوى من المستويات التـــي يمكن تصورها. إن مسؤولية المواطن اليوم تكمن في كونه متورطاً تماماً في هذا التحول العجيب وإنه يساهم بتأثير ملحوظ فيما يخص الإتجاه الذي سيتّخذه هذا التحول. ويكمن الخوف هنا في مدى قدرتنا على جعل الحياة تنقرض من على هذا الكوكب. ونتيجةً لحجم هذه المسؤولية، فإن كافة المجازفات التربوية الحالية.

وتلك التـــي ظهرت مع نهاية القرن العشرين تخدم أنظمتنا الصناعية المختلفة الحالية. إن مؤسساتنا التعليمية الحالية التـــي تتوافق مع وتتغذى على الصناعة الوطنية والتنافس على ما وراء الحدود القومية والتركيز على الفردية وتجاوز المجتمع الأبوي الباترياركي، لابد وأن تخضع الى المساءلة. إن جميع هذه العناصر تتبلور في نظرة عالمية تسهم في تفاقم الأزمة التـــي نواجهها. ولاوجود للإبداع هنا، لأنه لاوجود لآراء أو ضمائر واعية تدرك الحاجة إلى تغيير الاتجاه نحو مسارات جديدة، وتوجد إدانة قوية جداً تدين الرأي الذي يقول بأن مؤسساتنا التربوية التقليدية تعتبر معطلة أو تفتقر إلى التفهم والاستجابة لأزمتنا العالمية الحالية. وإضافةً إلى ذلك يمكن مناقشة مايعانيه نتاج حكمتنا في مجال التربية والتعليم الذي أطلق عليه "فقدان الفهم الكوزمولوجي". إن هذا المفهوم الكوزمولوجي تدهور في خطابنا التعليمي وافتقد تماماً من أهدافنا التربوية. غير أن الحقيقة التـــي لا تخفى هو أننا حققنا بعض الشيء من خلال التعليم الحالي ممّا جعلنا نقترب الآن من إدراك أننا قد كنّا نفتقد شيئاً ما. ويجب الإشارة هنا إلى أننا لانتحدث عن التغيرات الطفيفة في المجال الشكلي للحداثة، بل نتحدث عن ثورة

جذرية لنظرتنا للعالم الذي اقبل مع نموذج الحداثة.

هناك اعتبار آخر أود تقديمه للقارئ، وهو مايتعلق بـي شخصياً ككاتب ومؤلف، حيث أنني أعتبر من أصحاب الفضل وفقاً للمعايير العالمية، غير أن معالجتي للموضوع يجب أن تقيّم في حدود خصائصي الشخصية والاجتماعية. فأنا رجل غربي أبيض وأنحدر من الطبقة الوسطى في أمريكا الشمالية، مما يجعل معالجتي للموضوع انعكاساً للبنية الاجتماعية والطبقية والجنس الذي أنتمي إليه في إطار الاهتمامات الإيكولوجية. وأشير هنا إلى ماجاء على لسان "سوزان غريفن" بشأن هذه السمات.

"يتفاقم الإدراك يومياً بوجود الأخطاء الفادحة في ممارسات الثقافة الأوروبية التي أدت إلى الخراب البيئي والمعاناة الإنسانية. إن أشكال الدمار الشامل للبيئة لم يحدث مصادفة ولاعشوائياً ولكنّه حدث عن وعي وإدراك حطم الوجود وجعله أشلاءً متناثرة. إنني أرى بأن المشكلة فلسفية، ولاأقصد تلك المادة الدراسية الجافة المبهمة التي تعرف باسم الفلسفة. ولكنني أعني الفلسفة كبناء فكري يشكل رؤانا ويحدد مدركاتنا ومستقبل أيامنا. وفي خضم هذه الثقافة الغربية الأوربية بالذات التي زحفت على أمريكا الشمالية وتطورت حتى صارت عملاقاً كبيراً غذاؤه عالمنا المعاصر وأن هذه الثقافة التي سادت على مدى ألفين من السنين غيّرت وتغيّر الوجود المادي للإنسان وغيّرت روحه وضميره لتصبح مكونات منفصلة عن الطبيعة ولازالت هذه الأنماط من التفكير تسيطر على خيال الناس وعقولهم حتى تقضي شيئاً فشيئاً على مصادر الحياة. وبالرغم من تفهمنا لأشكال أنظمتنا الاجتماعية وتركيبتنا الجنسية أو خوفنا من الشذوذ الجنسي والجدل القائم حول الإجهاض أو ما عبّر عنه "ادوراد سعيد" بقوله أن الأنظمة العرقية وانتشار العنف ونواتج التقدم التقني ومشاكل انهيار اقتصاد الدول إضافة إلى ما يترتب عن الأمور الايكولوجية، كل ذلك يعتبر جزءاً من ذات الموقف الفلسفي الذي يهدد يومياً استمرار الحياة على الأرض" (سوزان غريفن 29.1995).

ماذا يتوقع القارئ من هذا النص؟ إنني أدعوه إلى تأمل ثقافي وشخصي عميقين فيما يخص النماذج التربوية والتعليمية التي تعمل على المستويات الأعمق من الشعور خلال مسيرتنا تجاه القرن الحادي والعشرين. أن استخدامي لكلمة نموذج يجب ألايفهم في إطار

فكري محض. وكلمة نموذج تقترن في هذا العمل بفكرة "نظرة عالمية" التـــي ينبغي أن تفهم على كافة المستويات الفكرية، الشعورية منها والأخلاقية والروحية. وسيتفحّص هذا العمل كافة الأركان العميقة للوعي الإنسانـــي الذي يحّرك جميع جوانب حياتنا المعاصرة وعلى كل مستويات المؤسسات الاجتماعية، وخاصة التعليمية منها.

وينقسم هذا العمل إلى ثلاثة أجزاء متداخلة ويجب أن لايفهم من خلال نسق محدد حتـــى وإن سيقت في نسق منظم معين. هذه الأجزاء الثلاثة تم اقتراحها من قبل مؤرخ ثقافي مرموق هو "توماس بيري" وذلك من خلال مناقشاتنا وحوارنا الخاص خلال السبع سنوات الأخيرة. وفي أحد مناقشاتنا قال "توماس بيري" بأنه علينا أن نربـــي لكي يستمر بقاؤنا وعلينا أن ننتقد ونبدع، وأدركت حينها كم هي مهمة هذه المصطلحات وزاد إدراكي لأهميتها مع تقدم هذا العمل.

وأخيراً أطلب من القارئ أن يدرك سلفاً مايستطيع هذا العمل تقديمه، فهو لن يقدم وصفات محددة أو خطط مرسومة للتربية والتعليم، رغم أن القارئ سيجد أمثلة عديدة لاختيارات واتجاهات تربوية في كل فصل من فصول هذا الكتاب، ولكنها لاتتجاوز في كونها أمثلة المؤلف الخاصة، ولاأدّعي ولو للحظة واحدة بأننـــي أمتلك السعة والمدى اللذين يستوعبان كل الأمر الذي تشمله خصوصيات لقارئ الكريم. إننـــي أشعر بأن الاتجاهات الخاصة وخصوصيات الناس الإبداعية ممن يعيشون ويعملون ويتعلمون في تلك الأطر تتطلب إبداعاً محدداً قد لايفي هذا العمل بتقديمه. وكل ما أصبو اليه هو أن أترك لدى القارئ رؤية متجددة ستتحدى إبداعه الخاص في إطار عمله الخاص وكذلك في مجال التربية والتعليم.

واقتراح أخير أقدمه للقارئ وهو أننـــي عندما كنت أكتب هذه المقدمة، اتضح لي أن ماكنت أقوله هو القوة الضمنية التـــي قادت العمل بأكمله وعليه أنصح بقراءة مقدمة هذا الكتاب مع خاتمته.

الجزء الأول

البقـــــــاء

الفصل الأول

التعليم خلال مراحل الانحطاط التاريخي

إن الأبعاد الأساسية للمشهد الإنسانـــي تكمن في البقاء والتغيير، وبلغة أكثر تداولاً، الأمن والتطور ويعتبر البعدان متداخلين لا ينفصلان، إن أوضاع إنسان اليوم تتسم بالتراجع في كلا البعدين، وإن رؤية مستقبل إنسانـــي موحد ومتكامل على أسس المشاركة وروابط المصير الموحَّد تبدو أكثر بعداً من أي وقت مضى. "كوتاري 20:1988"

ومع قرب انقضاء القرن العشرين علينا أن نكتب معاً بخصوص التقدم العظيم الذي أحرزه الإنسان، إننا نعيش الأيام الأخيرة للأسطورة المتعلقة بالنمو غير المحدود واليوتوبيا التقنية وشريعة المركز التجاري... وبدون شك فنحن مترددين في التخلي عن عاداتنا المكتسبة في الإفراط الاستهلاكي والتفاؤل الأعمى، ولكن الوقت قد حان لتموت الأنا وتنطلق رحلة التحول الطويلة. "كين 1994 :14,13".

إيجاد موقعنا في التاريخ مع بزوغ الألفية الجديدة

إننا نعيش العقد النهائي للقرن العشرين ونترقب قدوم ألفية جديدة تقودنا إلى القرن الحادي والعشرين وفى جعبتنا توقعات كبيرة وتخوفات أكبر، وحيث أن هذا الكتاب يتناول موضوع التربية والتعليم، فإننـــي أرى بأن مهمة المربـــي اليوم تكمن في "إيجاد مكان لنا في التاريخ" قبل أن نقرر أي شئ بصدد ما سيكون عليه التعليم، وهذا هو أنسب الأوقات وأهمها لعمل ذلك، أن الآراء المتعلقة بالتعليم والتـــي تطور تباعاً في هذا الكتاب قد واهنت على هذه المرحلة الزمنية من التاريخ الذي نعيشه، ولذا نتساءل نحن الأن عن الزمن الذي نعيش فيه، يا ترى في أي زمن نعيش نحن الأن؟

وتكمن محاولتـــي الأولى للإجابة على هذا التساؤل في الإشارة إلى أهمية العقد النهائي للقرن العشرين، وقد يحق لنا أن نسمي أنفسنا مخلوقات القرن الواحد والعشرين، ولمجرد كونه العقد الأخير من القرن العشرين يجعل السنوات الأخيرة منه بالغة الأهمية وتشبه في أهميتها

سنوات العقد النهائي للقرن التاسع عشر بالنسبة لهؤلاء البشر الذين دخلوا القرن العشرين، وعلى رأي المثل الصينـــي القائل: "بأن كلاً من اللعنة والرحمة قد يمكن الفرد من الاستمتاع بوقته". وخلال هذا العقد النهائي للقرن العشرين، فإننا بالتأكيد نعيش زمناً ممتعاً ومتعباً متقلباً في أن واحد، حيث لم يعد لدينا ترف التفاؤل كما كان في العقود الماضية، إننا نعيش زمناً يبدو وكأنه يقترب من النهاية التـــي لا نستطيع تصور مداها لأمر أو لآخر. ولتأكيد أهمية هذا العقد الأخير من القرن العشرين، أعود إلى العقد الأخير من القرن التاسع عشر كإطار مرجعي ووجه للمقارنة.

وسيكون تركيزي في هذا الصدد على نمط الحياة في أمريكا الشمالية وتحديداً إلى تأملات المؤرخ الثقافي الأميركي "هنري أدمز **Henry Adams**". من خلال عمله المسمَّى "تعليم هنري أدمز [1918] 1931" الذي يتضمن سلسلة من الموضوعات التأملية، ومنها الموضوع المعنون "الدينامو والعذراء" وهو ما سيشغلنا في هذه المرحلة من الكتابة، يتعرض أدمز في هذا الموضوع إلى ولوج ثقافتنا من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، وذلك عن طريق إجراء بعض المقارنات مع بعض الإنجازات التـــي تمت في عالم القرون الوسطى، إنه يتناول باهتمام مركز الطاقة والديناميكية التـــي تلهم الإبداع الثقافي، ويستخدم أدمز شخص العذراء لمركز يؤدي للإبداع في تركيبة علم القرون الوسطى، وقد أُلهمت هذه الطاقة الإبداعية أناس تلك الأزمنة إلى مبانـــي تلك الحقبة من أمثال: "لو مونت سانت ميشيل **Lemont St. Michel**"، "وكاتدرائية شارتر **The Cathedral of Charter**"، ويقارن أدمز بين هذه المعالم وبين إحدى الرموز التـــي كانت تمثل القرن العشرين فيما بعد. كان الدينامو الذي كان يعرض في المعارض العالمية آنذاك، ويمثل الدينامو الآلة ذات الحركة المتواصلة، الآلة التـــي توقَّع لها أن تعمل دون توقف، وحقيقة لقد عكست هذه الآلة الرغبة في أن يكون الإنتاج الصناعي غير قابل للتوقف، ويفكِّر أدمز كذلك في أمر روح الثقافة في بداية القرن العشرين ولاحظ أنها كانت متفائلة جداً، حيث كانت تؤمن إيماناً منقطع النظير بالقوة البشرية التـــي كانت مفقودة في تركيبة عالم القرون الوسطى، ودخولاً إلى زمننا هذا في القرن العشرين، فلقد كان إيمان عميق وملتزم بالفكر الإنسانـــي التكنولوجي وقوى العلم الحديث، وبالتالي كان الإيمان والتفاؤل بالثقافة الغربية على أشدّه من حيث دفعهما للحركة التقدمية للتاريخ، وأصبحت

فكرة التقدم البشري واضحة أمام الجميع وأصبح التطور البشرى أمراً مؤكداً من خلال احترام القوة الفكرية بتكنولوجيا الآلة.

دعونا نتأمل من جديد هذا العقد الأخير من القرن العشرين مقارنةً بالتفاؤل العظيم للعقد النهائي للقرن التاسع عشر، إننا نعيش عقداً يتضارب الرؤى واختلاف الأصوات، إننا نلاحظ المتفائلين والمتشائمين مما نسميه بالنظام الاقتصادي العالمي الجديد، وهذه الأصوات التـــي نسمعها هي التـــي تعمل على تشجيع التجارة التـــي تتجاوز الحدود القومية "بارنت وكافانا 1994" وتؤكد هذه الأصوات بقوة على ضرورة التنافس في السوق العالمية الجديدة، ويتم تحفيزنا إلى التحول إلى هذا العالم الجديد ليس بسرعة جنونية فقط بل وعلينا دخوله متنافسين، ولا يجب أن يخالجنا أدنـــى مجال للشك في وجود نظام عالمي اقتصادي جديد يتم تأسيسه من قبل الأنشطة التجارية متعددة الجنسيات.

وفى الوقت الذي نشهد فيه هذا التفاؤل المتحمس، تتعالى أصوات شديدة التشاؤم، يشير "روبرت د. كابلن 1994" في مقالة مثيرة للجدل ظهرت على صفحات دورية "أتلانتك مانثلى Atlantic Monthly" إلى رؤية متشائمة تنبئ بقدوم الفوضوية، وهو يستخدم مصطلح الفوضوية على نحو شديد الازدراء، ويحاول أن يبرهن من خلال مقالته هذه على أن الفاقة والجريمة وتزايد عدد السكان والقبلية والمرض يدمرون بسرعة فائقة النسيج الاجتماعي لكوكب الأرض. ويتبلور نوع مماثل من التشاؤم يعبر عنه "بل مكّبن Bill Mckibben 1989" الذي يركز عمله على الكارثة الإيكولوجية، ويعبر عن فحوى هذا العمل كتابه الذي اختار له عنوان "*نهاية الطبيعة*".

كما يتناول "بول كندي" من خلال كتابه "الإعداد للقرن الحادي والعشرين" هذه السيناريوهات المتضاربة قائلاً:

"انتهت محاولات كثيرة مبكرة لتفحص المستقبل إمَّا على وتيرة تفاؤلية متطرفة أو تشاؤم سوداوي غامق أو كما في حالة "توينبيـــي Toynbee" دعوات لتجديد الصحوة الروحية، ولكن الحقيقة هي، ما دمنا لا نعرف شيئاً عن المستقبل، فسيكون من المستحيل علينا الجزم بما ستؤول إليه الاتجاهات العالمية، غير أنه من الواضح بأن الحرب الباردة أصبحت تتلاشى بعيداً وها نحن نستقبل الآن نظاماً عالمياً جديداً، كما نستقبل أيضاً كوكباً مهمشاً قلقاً تستحق مشاكله عناية جادة من قبل الساسة والعامة على حدّ

سواء. "كندي 1993: 349".

وهكذا فإن تقييماً صارماً للعقد الختامي للقرن الحالي لا يقودنا إلى استنتاجات سهلة فيما يخص المستقبل، وتكون الشخصية الصينية "جي آي" شعارنا لكل من الأخطار والفرص المتاحة، حيث تعيش الآن في مرحلة يكتنفها الغموض.

يسير "لستر ر. براون Lester R. Brown" مدير معهد مراقبة العالم في واشنطن، في تقديمه لتقرير معهد مراقبة العالم لسنة 1990، إلى العقد الأخير للقرن العشرين باعتباره عقد انقلبات، وتشير هذه التقلبات إلى إعادة توجهات راديكالية في مظاهر تعاملنا مع البيئة كافة وهو ما ينبغي أن يحدث خلال هذا العقد، إذا كنّا نطمح إلى تفادى تخريب، غير قابل للإصلاح، لمقومات حياة النبات والحيوان على الأرض.

وبصفتـــي تربوياً فأننـــي أرى بأنه من المهم جداً أن يتم تقييم جاد لمدى دقة وصدق هذه الأصوات المتناقضة من أجل إيجاد مكان لنا في التاريخ خلال هذه المرحلة الزمنية الحرجة، لقد ارتبط الفكر الغربـــي تقليدياً بفصل التاريخ الطبيعي عن تاريخ الثقافة الإنسانية، إن تقاليدنا التاريخية الأساسية هي التمركز المتطرف حول الإنسان. لقد درسنا تاريخ الإنسان خارج إطار تاريخ الأرض، وثقافياً لدينا فهماً كوزمولوجياً محدوداً جداً. "بيرمان تولمان Toulmin 1985;:Berman1981 1985". إن الأسوأ من ذلك هو أن رؤيتنا الثقافية ومفهومنا العام للزّمن يسودهما إهمال التاريخ ووضعه في سلة المهملات بمجرد مرور أيام أو أسابيع، إنه عالم من "الإهمال المخطط" يُهمش التاريخ ويفقده معناه، وإن جهاز الحاسوب الذي أستعمله الآن في كتابة هذا المخطوط يعتبر عتيقاً بمجرد مرور بضعة أسابيع على شرائه، وهذا يوضح لنا الكثير عن هذه الثقافة أكثر ممّا يخبرنا عن الجهاز نفسه لأنه يرينا كيف أن فترة زمنية محدودة تاريخياً لن تخدمنا جيداً في أيامنا هذه.

صحيح أننا نعيش زمناً حاسماً من حيث البقاء ونحن بحاجة ماسة إلى نظام تاريخي شامل يمكننا من استيعاب والإلمام بأوضاعنا الراهنة، ورغم عدم قدرتنا على قراءة المستقبل فإن علينا القيام بالتخمينات وتنبؤات علمية حول مسارات واتجاهات أوضاعنا الحالية، وها أنا أقوم الآن بذلك تحديداً، إن إحدى النقاط المرجعية التـــي ينبغي مراعاتها تكمن في آراء المؤرخ الثقافي المتميز وعالم الايكولوجيا، توماس بيري الذي تحدث، خلال حوار معه، عن المرحلة

الحالية باعتبارها "حالة نهائية" و"مرحلة امتياز"، وفي مراحل الامتياز يمكننا تحويل الأخطار إلى فرص، وفي حالات الامتياز هذه نستطيع تحويل الانحطاط إلى إبداع، تحدث بيري (1988) عن مرحلتنا التاريخية الحالية في إطار قصصي، ويقول بأننا نعيش الآن بين قصة وأخرى ويقترح علينا الترحال مع قصة جديدة مبدعة لكي نستطيع البقاء والاستمرار. يقول بيري: "إن قصتنا الثقافية الحالية المتمثلة في القيم التقنية الصناعية للثقافة الغربية المتمركزة حول أوروبا، هي الآن مفككة في أغلب أبعادها الاجتماعية ورغم ذلك فنحن لا زلنا نؤمن بها إيماناً راسخاً وننصرف وفقاً لتوجهاتها، ويصر بيري على أننا بحاجة ماسة إلى إعادة تقييم راديكالية لأوضاعنا الحالية وخاصة تلك المتعلقة بالقيم الأساسية التـــي تضفي على الحياة شيء من المعنى، ونحن في حاجة إلى قصة متكاملة تُعلِمنا، قصة تشفي أسقامنا وترشدنا وتهدينا إلى سواء السبيل، إن التنقل بين القصص ستتم الإشارة إليه في هذا النص على اعتباره تحولاً من السينوزواك النهائي إلى الإيكوزواك، وسيكون هذا التحول هو التطور الأساسي للرؤى والأفكار التـــي يتضمنها هذا الكتاب وستقوم الأرضية لرؤية تربوية جديدة تتم الإشارة إليها بـــ "التعليم التحولي الأيكوزواكي".

الانتقال من مراحل السينوزويك المنقضية إلى الإيكوزويك القادمة

يبدي لنا قاموس ويبستر معنـــى غامضاً للفعل يبقى أو يعيش، "to Survive" والكلمة الإنكليزية هذه لها أصل فرنسي فهي مشتقة من الفعل Vivre أي "To Live" ويشير هذا الفعل إلى البقاء على قيد الحياة في أزمنة الكوارث والموت المتفشي وعندما تبدوا الأمور وكأن الأوقات والأزمنة قد قاربت على الانتهاء، ولا بد لنا ونحن نتناول موضوع البقاء على قيد الحياة من أن تعي جيداً مدى وحجم السياق الذي يتم فيه تبنـــي استراتيجيات البقاء، لقد تناولت الفعل "أن يبقى على قيد الحياة" بدلاً من المصدر أو الصفة لأن تناولي لهذه الكلمة سيكون ديناميكياً ويتسم بالتوجه نحو العمل حتـــى عند ما يكون وصفياً، إن ديناميكية البقاء على قيد الحياة التـــي يجري تطوير نقاشها في هذا الفصل مصاغة في إطار تقييم تاريخي للسينوزوك النهائي الذي سبق التنويه إليه في ملاحظاتـــي سابقة الذكر حول مرحلة نهاية التاريخ، إن الافتراضات القائمة في معالجتنا التاريخية الحالية تكمن في كوننا نعيش في مرحلة

انتقالية من التاريخ تمتد من الموازين والمعايير الكوكبية العالمية إلى الموازين والمعايير الإنسانية "مرحلة السيبوريك النهائي"، وسوف أتناول الموضوع من خلال ثلاثة محاور متداخلة ومتكاملة رغم أنني أعالجها كلاً على حده، إن هذه الأصناف الثلاثة للبقاء على قيد الحياة هي: عالمية، اجتماعية وشخصية.

البقاء من الناحية العالمية خلال العقد النهائي من القرن العشرين ظهرت تفسيرات متعددة تتعلق بالمرحلة التاريخية التي نجتازها حالياً، ولعلّ من أبرز هذه التفسيرات، هو أننا مقبلون على دخول سوق عالمي جديد يفوق قوة مجموعات القوة السابقة كافة التي من أبرزها الدولة، إن عملية العولمة، التي هي رؤية عالمية، تم تأسيسها على التجارة والتسويق، وهي تتحرك نحو رؤية العالم يتجاوز الحدود المحلية الجغرافية والسياسية والاجتماعية... ويتأسس هذا العالم فقط على المال والتجارة. إن العالم الذي يتم جرّه وتسييره نحو رؤية العولمة الجديدة يتقدم بوتيرة متواصلة ويبدو أنه غير ميال إطلاقاً بما يحدثه من آثار على البنية التحتية للأرض وللعالم بأكمله أثناء المسيرة التجارية، إن تفسيري الخاص لما يحدث الآن يتوافق تماماً مع النظرة التي مفادها، أن وجهتنا التاريخية الحالية وفق متطور العولمة هي عملية مروعة وتمثل خطراً على العالم بكل سكانه، والتعليم الذي يؤسس على هذه الرؤية العالمية الجديدة سيكون مفككاً ولا يتفق مع الرؤية التي يتعامل هذا الكتاب وفقاً لها.

إننا نتحرك نحو إدراك عالمي من خلال أحداث وعمليات تشمل كلاً من الترغيب والترهيب "سويم وبيري Swimme and Berry 1992" ويصف كل من سويم وبيري هذه المرحلة بأنها انتقالية تنهي مرحلة عريضة من تاريخ الأرض يسمونها بالسينوزيك، لتلج حقبة جديدة من تاريخ الأرض يسمونها "الإيكوزويك".

ويحيط بنا الترهيب على مستوى عالمي، منها على سبيل المثال، ارتفاع درجة لحرارة الكوكب، إتلاف طبقة الأوزون، المخلفات الصناعية السامة وقضايا أخرى ذات آثار إيكولوجية سلبية مروّعة تحول بيننا وبين الدخول من جديد في أوضاع الدولة القومية التي تتكفّل حركة العولمة بالرعاية، إن محاولاتنا في مجال التعليم لا بد وأن ترفض مظاهر الترهيب هذه أو تواجه الأخطار الكبيرة التي نواجهها على هذا الكوكب، وفي دراسة أصدرها معهد مراقبة العالم "World Watch" ونشرت عام (1992). قامت "ساندرا بوستل Sandra

"Postal" بإشهار فداحة الأمر أمام الجميع:

قبل شهر أغسطس (آب) من عام 1992 لم يكن سوى بعض الناس يتصورون حدوث تحولات بهذا الحجم بين يوم وليلة، وفي تعاقب مذهل لأحداث تلاشي الشيوعية السوفيتية لتذهب معها الحرب الباردة إلى ذاكرة التاريخ، وبالنظر إلى سرعة وفظاعة هذه التحولات لا بد وأن تفسح نهاية هذا العقد المجال إلى حدوث تحولات أكبر حجماً وأكثر عمقاً إذا أردنا التمسك بآمال واقعية لعالم أفضل، إن الموضوع المطروح هنا، هو العلاقة الإنسانية المدمرة مع البيئة الطبيعية للأرض وضرورة إعادة النظر في هذه العلاقة وإصلاحها قبل فوات الأوان أي قبل أن يصبح الضرر غير قابل للإصلاح. "postel 1992: 3".

هذا وتعتبر السنوات الأخيرة من القرن العشرين سنوات حاسمة بالنسبة لكوكب الأرض وسكانه، وفي مواجهة فداحة وحجم التغيرات التـــي نشهدها الآن، نبدو ميالين إلى حالات من النكران والأعراض عن الموضوع لتغطية فداحة مشاعر الرعب التـــي تشوينا، غير أن حالات الرعب هذه يمكن أن تولد لدينا حاجة للاستفهام عن "عالم النفايات"، حتـــى ونحن في ربوع الدولة القومية التـــي تتحرك باتجاه العولمة الاقتصادية ونظامها العالمي المحمَّل بالسلع والمدمَّر لإيكولوجيا الأرض.

وعلى الرغم من الفوارق الإقليمية إلا أننا جميعاً ندرك تمام الإدراك بأن ثمة مشكلات جمة تواجه الكوكب بأكمله. وخلال العقد الماضي ظل "لستر براون 1996/1988 Lester R. Brown" وزملائه بمعهد مراقبة العالم "World Watch Institute" يوثقون المؤشرات الهامة التـــي تخص صحة وسلامة كوكبنا هذا، وقد تم تضمينها في تقرير المعهد لعام *1988*، وهي حقيقة تظهر المخاطر المحدقة بنا، وإذا ما تفحصنا مؤشر الغطاء النباتـــي للأرض المتمثل في الغابات، فإننا نجد أن الغابات الاستوائية تتقلص بمعدل إحدى عشر مليون هكتار سنوياً، ويتضرر واحد وثلاثين مليون هكتار من غابات الدول الصناعية نتيجة الأمطار الحمضية وتلوث الهواء الجوي، وإذا ما تناولنا مؤشر التربة الصحية للأرض المزروعة لوجدنا فاقداً متزايداً للشكل الترابـــي الجديد يبلغ ستة وعشرون بليون من الأطنان سنوياً، وباستخدام ظاهرة التصحُّر كمؤشر، نجد أن ما يقدر بستة ملايين هكتار من الصحاري الجديدة تتكون سنوياً نتيجةً لسوء إدارة الأرض، ونتيجة للمخلفات الصناعية والتصنيع يعتبر الآن البحيرات في الشمال الصناعي ميتة بيولوجياً وآلاف أخرى تحتضر، وما حدث لهذه البحيرات يعتبر

دليل آخر على الفساد الذي لحق بالأرض، ويعتبر الماء العذب من أهم المؤشرات الكوكبية لحيوية الأرض، والمياه الجوفية في أجزاء من أفريقيا والصين والهند وشمال أمريكا تتقلص بشدة نتيجة لزيادة الطلب على المياه بالقدر الذي يفوق معدل استعادتها وتعويضها، أمَّا مؤشر أنواع الكائنات الحية يقصُّ علينا قصةً مروعةً أخرى، حيث تقدر نسبة انقراض الأنواع النباتية والحيوانية معاً بالآلاف المتعددة في العام وأن واحد من كل خمس كائنات قد يختفي خلال العشرين سنة القادمة. وتعد نوعية المياه مؤشراً حيوياً هاماً يؤثر على السكان في مختلف بقاع الأرض، واليوم وباستثناء الصين لا يحصل ما يقدر بأكثر من نصف سكان العالم الثالث "عالم الأكثرية"* على الماء الكافي النظيف الصالح للشرب مِمَّا يشكل خطراً شديداً على صحة السكان تكون نتائجه باهظة التكاليف، فالماء بشكل أو بآخر، يظل مسئولاً عن مشكلات صحية مركبة تشمل أمراضاً متعددة، منها فقدان البصر نتيجة للتراكوما إلى الملاريا والتشقق والتضخُّم والتيفود والكوليرا والهيباتايتس المعدي والبرص والحمة الصفراء والأسوأ من ذلك كله الإسهال ونتائجه. ويعتبر الماء الملوث الناقل الرئيسي لما لا يقل عن 80% من الأمراض التـي تتفشى في العالم الثالث "عالم الأكثرية". وحتـى مع امتلاك الجزء الشمالي من العالم الثالث لموارد مائية أكثر أمناً، فإن ما يقارب من خمسين مُبيداً تقوم بتلويث المياه الجوفية في اثنين وثلاثين مدينة أمريكية وما يقارب من ألفين وخمسمائة (2.500) موقعاً لنفايات الولايات المتحدة السَّامة تتطلب تنظيفاً. وكما يعتبر الطقس من المؤشرات الحيوية الهامة، فإننا نتوقع ارتفاع متوسط درجات الحرارة إلى ما بين درجة ونصف وأربع درجات ونصف مئوية خلال ما بين الآن و2050م، وهذا ما يسميه الخبراء بتأثير البيت الزجاجي، يعتبر ثانـي أكسيد الكربون أحد أهم الغازات في الجو، فعندما تصطدم الطاقة الشمسية بالغلاف الجوي يرتدُّ الكثير منها نحو الفضاء في حين يمتص ثانـي أكسيد الكربون بعض هذه الطاقة مِمَّا يؤدي إلى تدفئة سطح كوكبنا الأرضي هذا وفقاً لما يُعرف بتأثير البيت الزجاجي. وحيث أن مستويات ثانـي أكسيد الكربون في الجو قد ازدادت بنسبة 30% فيما

* أتخلى في هذا العمل عن مصطلحات العالم الأول والثانـي والثالث باستعمال مصطلح "عالم الأكثرية" "وعالم الأقلية". عالم الأقلية ما كان سابقاً يدعى العالم الأول وذلك نظراً إلى قلة عدد سكانه، وعالم الأكثرية ما كان سابقاً يدعى العالم الثالث نظراً إلى تضخم عدد سكانه.

بين 1850 و1980 وتفيد التوقعات بأنها ستزيد لتبلغ ما نسبته 75% بحلول العام 2060م، إن الارتفاع في درجة حرارة الأرض سيصاحبه تغيُّر حاد في معدلات الإنتاج الزراعي ويكون هذا التغيُّر إلى الأسوأ وإن ارتفاع منسوب مياه المسطحات المائية سيقود عاجلاً أم آجلاً إلى حدوث فيضانات عالمية، ويتوقع ارتفاع منسوب مياه البحار إلى ما بين 1,4 متر و2,2 متر بحلول عام 2100، وتشير أحدث نتائج الدراسات إلى أن معدل حرارة الأرض قد وصل 15,39 لسنة 1995 ممَّا حطم المعدل السابق الذي بلغ 15,38 لسنة 1990، وأخيراً تشير طبقات الجو العليا للأرض بوجود "تغيرات" عديدة ومتنامية في الطبقة الأوزونية ممَّا ينذر بخطر عالمي تدريجي مع تزايد خطر الإصابة بسرطان الجلد على نحو لم يسبق له مثيل. "ل. براون L. Brown 1988;1996".

إن جميع هذه الأرقام والحقائق قد تم رصدها خلال العقد الأخير، ويكمن التحدي التربوي في كيفية بلوغنا مستوى من الإدراك الواعي لهذه المعضلات وأن يظل هذا الإدراك مستقراً في أذهاننا ومصنفاً على رأس أولوياتنا الثقافية، ولا يعتبر الأمر بسيطاً بأي حال من الأحوال، لأنه يتم شحننا باستمرار بمعلومات غير متكاملة وغير كافية لبناء وعي متسق. وعلينا أن نعترف بأننا جهلنا بالأهداف التربوية الحقيقية التـــي توصلنا إلى تكوين وعي عالمي. إن تعليم القرن العشرين قد تقولب في إطار الإدراك القومي للدولة، ورغم أننا نلاحظ الآن تحركاً إلى خارج الدولة القومية إلا أنه تحرك لا يتجه نحو ضمير ثقافي كوكبـــي عالمي، وما لاحظناه في المقابل هو تكوين التزامات جديدة نحو سوق عالمية استهلاكية، وهذا الاندماج نحو السوق العالمية الاستهلاكية يعمل على حساب أمن وسلامة كوكبنا، وفي عام 1995 ارتفع مستوى الاقتصاد العالمي إلى ما يقدر بنسبة 3.7% ويعتبر ذلك توسعاً يثير الإعجاب وفقاً للمواصفات الاقتصادية التقليدية، ولكن ما لم يؤخذ في الاعتبار، مع حدوث هذا التوسع في السلع والخدمات على نحو عالمي، وهي ما صاحبه من ارتفاع في الضغط غير المستقر على الموارد والأنظمة الطبيعية، ومنها المخزون الأرضي للمياه ومزارع السمك والغابات. "لـــ. براون L. Brown 1988; 1996". إننا نعيش مرحلة من الرؤى المتضاربة ومهمتنا التربوية التعليمية تكمن في القيام باختيار واعٍ تجاه الرؤية التـــي سأقترحها وهي

الرؤى والأحلام التـي أصبو إلى تحقيقها والتـي تتمحور حول تعليم عالمي تحولي*. سنحتاج مفهوماً أوسع لمحو الأمية وليكن مصطلح "التعليم العالمي" أو "التعلم الإيكولوجي" (أور Orr 1992) وسيكون ذلك تحدياً رئيسياً للمدربين والتربويين.

علينا أن نؤمن مهمة العلم العالمي مقابل الأمية العالمية في عدة سياقات، وحتـى ولو كان كوكبنا كُلاً متكاملاً وموجوداً داخل كون أكبر فإن له ميزة تباين المجتمعات، وأحد هذه المجتمعات هو مجتمع بنـي البشر، وهذا هو السياق الثانـي الذي سأناقشه.

البقاء البشري: إن ما يحدث على المستوى الكوكبـي بالنسبة لمجتمعات الكائنات الأرضية له آثار عميقة على مجتمع بنـي البشر والعكس صحيح، أنه لمن المهم لكافة المخلوقات الأخرى أن تدرك بأن المجتمع البشري يمثل دوراً هاماً فيما يخص بقاءنا وبقاء وتكامل مجتمعات الكائنات الأرضية كافة، ويوضح كل من (براين سويم وتوماس بيري Brian Swimme and Thomas Berry) الكيفية التـي يتصرف بها بشر اليوم في شئون كوكب الأرض ويقولون في ذلك:

يتضح اليوم أن الأرض في المستقبل ستعمل على نحو مختلف عمّا كانت تعمل به في الماضي، وفي المستقبل ستتأثر التركيبة الكاملة للأنظمة الحياتية للكوكب نتيجة لسلوك الإنسان وسيكون هذا التأثير على نحو شامل، وإذا كان ظهور السينوزويك بكل روعته مستقلاً عن أي تأثير بشري، فإن كل مرحلة من مراحل ظهور الإيكوزويك ستشمل الإنسان، فالإنسان لا يمكن له أن يخلق عشبة واحدة والأعشاب لن تبقى إذا لم ينقّيها ويرعاها ويحميها الإنسان. "سويم وبيري Swimme and Berry 1992".

ولتقدير أهمية الوجود الإنسانـي للبقاء العالمي، فإنه لمن المهم تقدير معرفة وتقييم المسؤولية التفاضلية لأركان معينة من مجتمعات الكائنات الأرضية في علاقتها بالوضع الراهن، ويقودنا ذلك إلى أهمية تفحص الموضوع الكليّ للتهميش في السياق الذي يتميز به سكان نصف الكرة الشمالي، لقد تحققنا من وجود طبقة دونية يتزايد حجمها نسبياً في نصف الكرة الشمالي، ونحن ندرك الآن تماماً بأن التشرد أصبح ظاهرة متفشية في بعض مناطق مدن

* م. تحولي ترجمنا بها كلمة transformatif وتعنـي الانتقال إلى شكل جديد. والمقصود شكل جديد للتربية.

الشمال الكبرى، ويمكننا أن نستخلص أن الهامشية تحمل مواصفات تتعلق بالجنس والعرق والطبقة الاجتماعية، في كل المسوحات والدراسات التـــي تناولت الفقر والطبقات الدونية على مستوى أمريكا الشمالية، تبين أن الفقر والتهميش يسودان الطبقات العالمية الفقيرة والملونين والنساء، وبذلك يمكننا أن نعترف بوجود "عالم ثالث داخل عالم أول" حتـــى في الجانب الشمالي للكرة الأرضية. "متر Mitter 1986". ولا شك في أن الظروف التـــي تصاحب البنية الاقتصادية العالمية الصاعدة تولد تهميشاً على مستوى عالمي، يزودنا "واستـــي متر Mitter Swasti 1986" بصورة دقيقة لسخرية السوق الاقتصادية العالمية، فهي تشير إلى التطورات المتسارعة في مجال التقنية وطلب السوق من الصناعات المتعددة، وترى أنه من الأيسر والأقل تكلفة أن تمتلك الشركات الدولية الكبيرة إمكانيات إنتاجية قريبة من مناطق الاستهلاك ومما يؤكد ذلك وجود احتياط كاف من العمالة الرخيصة من بين من يعانون البطالة في الدول الغربية ممَّا يمكن الشركات الغربية العملاقة من التحكم الفعَّال في معدل زيادة الأجور.

كل الاعتبارات السابقة لا تتطلب إلا فهماً بسيطاً للكيفية التـــي يتم بها النظر إلى فكرة التمييز التـــي يرتبط بها فضاء النصف الشمالي للكرة الأرضية، وعلى أية حال، فنحن لا زلنا نحمل أوزار الإحصاءات التـــي تؤكد دور الشمال المدمر في الأزمة الإيكولوجية العالمية، وعلى كل حال، فإن الاحتمال لا زال قائماً في أن تتواصل الجهود من أجل إعادة تقييم جذرية لنمط حياة الاستهلاك السائد في الدول الصناعية المتقدمة "عالم الأقلية".

كما لا يفوتنا أن ننوه بأهمية قيام تقييم تفاضلي لمدى تأثير العولمة على مختلف الشعوب والأماكن. توجد فروق هائلة للتأثيرات السلبية على مختلف الأفراد في عالم اليوم. يزودنا (سيرج لاتوش Serge latouche 1993) بنقد مستفيض لما يسميه "المجتمع الفخم" ويصف المجتمع الفخم بكونه النموذج الغربـــي المتمركز حول السوق الاستهلاكي الذي يعتبر الآن نموذجاً مثالياً للحضارة الانسانية يقول (لاتوش) بأن المجتمع الفخم يعيش اليوم مرحلة من الانحطاط في الرؤية والممارسات أدت إلى تزايد أعداد المنبوذين في دول الشمال الغنية ولم يؤدِّ النمو الاقتصادي إلى زيادة عدد الأفراد الذين يعانون سوء التكيف فقط بل وساهم في ارتفاع معدل الفقر والمتسربين من المدارس والمتشردين وارتفاع معدل البطالة المزمنة... الخ. وتشير

التقديرات الإحصائية الى وجود ما يفوق (100 مليون) من أمثال أولئك المنبوذين في الدول الغنية (سيرج لاتوش Latouche 1993).

إن أكثر التأثيرات ضرراً هي تلك الناتجة عن عولمة الاقتصاد وعادة ما تصيب السكان الأصليين. هؤلاء هم الجماعات المتفرقة الذين يعيشون في كافة بقاع الأرض ويبلغ عددهم حوالي (250) مليون نسمة حالياً (بيرجر Burger 1990). هؤلاء الجماعات ينحدرون من السكان الأصليين لمنطقة ما وقد استولت عليها قوى أخرى خارجية. أنهم لازالوا يتميزون داخل الجماعة المسيطرة، بلغتهم ودينهم وثقافتهم الخاصة. أغلب هؤلاء الجماعات ولهم مفهومهم في حراسة الأرض ويشعرون بمسؤولية الحفاظ عليها وعلى الموارد الأخرى المتصلة بها، وهم يعرّفون أنفسهم بالتوافق مع البيئة التـــي يعتمدون عليها في معيشتهم. أنهم يعيشون ضمن روابط قوية ويحافظون على روابط قوية مع اقتصاد البقاء وعلى الاقتصاد والعيش أيضاً. وكثير منهم ينحدرون من جماعات الصيد أو هم أنفسهم صيادون وصيادو أسماك أو يعتمدون على جنـــي المحاصيل أو رعاة أو مزارعين (ديرنن Durning 1991; 1992)، لقد عانـــى السكان الأصليون من ويلات الأفكار الغربية حول التطور والنمو، حيث تم إقصاؤهم عن أراضيهم وأساليب عيشهم وحرمانهم من موارد رزقهم وأجبروا على الاندماج في مجتمعات دخيلة عليهم إن قصة الأمريكيتين بالنسبة للسكان الأصليين متكررة في كل منطقة من العالم تقريباً وإن السكان الأصليين لهم السبق في تحدي الأطروحة التـــي مفادها أن الدول الإقليمية هي أساساً للسلام والأمن البيئي. يلاحظ (جاسون كلي Jason clay 1993) بأن الخطر المهدد لا في شرعية أو بقاء الدول فقط ولكن يكمن في بقاء الناس، ويضيف كلي قائلاً لا شئ يؤثر على بقاء واستمرار السكان الأصليين كاستيلاء الدولة على الموارد وخاصة استيلائها على الأرض التـــي يحتاجها السكان الأصليين ليعيشوا كمجتمعات متميزة. إنها الشهية العالمية النهمة للموارد التـــي تهدد وجود السكان الأصليين.

يشير (جوليان برغر Julian Burger 1993) للمعاملة التاريخية للسكان الأصليين ويصفها بالكارثة الاستعمارية الأوربية. وها نحن نشاهد آثار هذا الإرث. إن الاستعمار الحديث الذي يتقدم في شكل مغامرات العولمة مدمر جداً بالنسبة للحياة اليومية للسكان الأصليين. ويصور (برغر Burger) ذلك بقوله:

في بحثهم عن الموارد والأرض صارت القفار الكبرى موطناً أسطورياً (الدورادوس Eldorados) للثروة ومنافذ للنجاة. قلة من السكان الأصليين الذين يقارب عددهم الخمسين مليوناً والذين يقطنون الغابات الاستوائية ممن يعتمدون على هذه الغابات في غذائهم ودوائهم وإيوائهم ومعيشتهم قد نجوا من صناع الخشب والمستوطنين وعمال المناجم وبناة السدود. في أمازونيا وبعض الدول الأسيوية قام الفلاحون الفقراء ممن تم إقصاؤهم عن أراضيهم بفعل الصناعة الزراعية بالهجرة بأعداد مأهولة إلى مناطق السكان الأصليين. وأصبح اليوم السكان الأصليون لأمازونيا قليلي العدد ويقابل كل واحد منهم (16) من السكان الدحلاء. وتعتزم إندونيسيا ترحيل عشرة ملايين شخص من جزيرة جاقا إلى أراضي السكان الأصليين في الجزر الخارجية (برغر Burger 1993: 4–5).

ومن الملاحظ أيضاً أن نسبة كبيرة من القضايا الأساسية المتعلقة باستخدام الأراضي واستصلاحها ترتبط ببقاء السكان الأصليين عبر العالم. إن مشاريع البنك الدولي من حيث خطط التوليد الكهربائي عن طريق المياه أو حفر المنابع من قبل متجاوزي الحدود القومية قد هدد بتشريد أو شرَّد بالفعل المئات من الألوف من السكان الأصليين والقبائل. ويتضح أحد الأمثلة على ذلك من خلال ما جاء في كتاب (جوليان برغر Julian Burger) (*أحوال الناس State of Peoples*): *تقرير حقوق الإنسان العالمية حول المجتمعات التـــي يهددها الخطر* (1993) ويتعلق المشروع تحديداً ببناء سلسلة من السدود على نهر (ساردار ساروفار Sardar Sarovar) بالهند والذي هدد وجود حوالي (100.000) شخص، أغلبهم من سكان القبائل وإقصاؤهم من أراضيهم ودون منحهم أي بدائل أو تعويضات، والنتيجة الحتمية لذلك ستكون إضافة هؤلاء الناس إلى الأعداد الكبيرة من العاطلين عن العمل ممن يقطنون الأحياء الفقيرة في المدن.

تتعلق مسألة البقاء هنا بالنواحي المادية والثقافية والروحية، ممَّا دعا النشطاء من السكان الأصليين إلى إدارة حملات تتعلق بحقوق الإنسان في مختلف الملتقيات الدولية. لقد ظهر واضحاً نشاط المئات من السكان الأصليين من الأمريكتين وآسيا وأفريقيا وأوروبا وأوشينيا خلال اجتماعات الأمم المتحدة حول هموم ومشاغل السكان الأصليين. إن ما نلاحظه هنا هو تضارب بين الثقافات والاهتمامات التـــي تم تحفيزها من قبل الرؤية الاستعمارية الجديدة التـــي تنطلق تحت شعار العولمة. وعلى المستوى العالمي استخدم السكان الأصليون منبر الأمم

المتحدة مما أسفر عن نتائج متباينة وشكوك كبيرة. ومنذ سنة (1982) تشكلت مجموعة تابعة للأمم المتحدة للعناية بشئون السكان الأصليين. هذه الهيئة الخاصة هي المكان الوحيد داخل الأمم المتحدة التـي تمنح السكان الأصليين حقاً ثابتاً في التحدث بوصفهم من السكان الأصليين وكمنظمات خاصة بهم. وقد صاغت هذه الهيئة مسودة ميثاق حول حقوق الإنسان والسكان الأصليين لتعرضه على الجمعية العمومية. يعترف الميثاق تحديداً بحقوق السكان الأصليين مقابل الإبادة الثقافية التـي وصفت بأنها شكل من أشكال الامتصاص والحرمان فيما يخص الخصائص الثقافية المتميزة للسكان الأصليين. وتوجد أيضاً مع هذا الميثاق مسودة ميثاق آخر يضمن حق الحماية للمواقع المقدسة واستعادة الممتلكات الثقافية وبقايا الجثث البشرية. هذا ولقد تم إضافة أسس تضمن مزيداً من الضبط فيما يتعلق بالخدمات العامة آخذاً في الاعتبار، معاناة السكان الأصليين التـي تفوق معاناة أي جماعة أخرى في هذا العالم وعلى مستوى كل المؤشرات الاجتماعية والاقتصادية تقريباً (برغر Burger 1993).

إننا لازلنا ننتظر نتيجة كل الأعمال السابقة في هذا المجال. وفي إطار الإرث الاستعماري الغربـي الذي يعمل حالياً تحت شعار اقتصاديات العالم وتجارته، لا وجود لأي مجال للشك في وجود مفهوم واضح بإمكانية الإزاحة والمسخ لثقافات معينة على المستوى العالمي من خلال التقدم نحو السوق التجارية عالمية. ولذا يمكن تفهُّم شكوك السكان الأصليين فيما يتعلق بالنوايا الغربية حيث يؤكد تاريخ الغرب الاستعماري مثل هذه الشكوك ويبرر وجودها.

وتعتبر قارة أفريقيا اليوم بؤرة استقبال مخاوف العالم بخصوص تزايد عدد السكان والفوضى السياسية. وينظر الغرب اليوم إلى السكان الأفارقة وأراضيهم في ضوء ما يلحق بهم من أزمات حادة وفي إطار يصفه (سيرج لاتوش Serge Latouche 1993)، بالتشاؤم الأفريقي. ولقد لاحظنا سابقاً في هذا الفصل من الكتاب كيف ينظر إلى الأفارقة الآن نظرة تتطابق وآراء (مالتوس Malthus). ويقدم لنا الأمريكي (روبرت كابلن Robert Kaplan) في مقالته "مجيء الفوضوية 1994" صورة مأسوية حول غرب أفريقيا. يشير كابلن، إلى وجود قوى متنامية في المنطقة سوف تجعل من العالم بأسره مكاناً لا يمكن العيش فيه. ورغم ذلك يتم التعامل مع أفريقيا وفق مفهوم يدَّعي بأن مأساة أفريقيا الحالية هي من صنع أيديها فقط

وكنتيجة لسلوك سكانها الشيوعي والإحيائي، الذي يفسر الكوارث العشائرية مثل الدحرجة (المقترنة ببساطة بتزايد عدد السكان) والسل والملاريا ومرض نقص المناعة وفوق ذلك كله تزاحم السود وتكدسهم. وكما يشير (الكساندر كوكبرن Alexander Cockburn 1994: 405) حول تأويلات كابلن، فأين يعترف بالدور الغربـــي في الاقتصاديات المتدهورة؟" رغم أن الأعباء التـــي يعانيها غرب أفريقيا ما هي إلا نتاج أعمال الشركات العالمية ذات الرشاوى السخية التـــي تقدمها للصفوة المحلية والتـــي تعتبر جزءاً هاماً من تطور الصادرات التـــي تديرها هذه الشركات ويعتبر ذلك مناسباً من وجهة نظر مصرفيي العالم الأول.

إن أفريقيا كغيرها من مناطق العالم الأخرى تعانـــي داخل اقتصاد عالمي يسيطر عليه الغرب، وبذلك يمكننا أن نعتبر أفريقيا من ضمن الذين يكافحون من أجل البقاء. ونرى اليوم أن العالم الذي استعمر أفريقيا يتخلى عنها. وتواجه أفريقيا اليوم مأساة مستمرة نتيجة للاستغلال السيئ للأرض مما أدى إلى التصحر الذي جلب معه الفقر والمجاعة. إن هذه القارة تعانـــي حقيقة مأساة متفاقمة وكما يقول (سيرج لاتوش Serge Latouche 1993) فهي العضو المنبوذ من الجسم العالمي نتيجة للتطور الغربي. يوجد داخل المجتمعات الإفريقية تباين كبير وتنوع هائل للبشر مما يشكل أرضية خصبة للاختلاف والصراع. عبر إرثها الاستعماري تم نحت أفريقيا لتصبح دول قومية تقلّد نمط المستعمر مع نكران الفروق الهائلة بين سكانها. وتعتبر نيجيريا شاهداً على ذلك. فنيجيريا دولة قومية تحتوي تنوعاً هائلاً للبشر وبها صراعات تعتبر خطيرة في بعض الأحيان. ويزيد من حدة هذه الصراعات بيع الأسلحة الغربية ونفاق الدول القومية الغربية في تعاملها مع هذه الصراعات. وإذ تقوم الدول الغربية بإرسال قوات عسكرية لحفظ السلام والأمن في هذه المناطق من ناحية فهي تزودهم بالسلاح من ناحية أخرى، وإنه لمن سخرية القدر أن يقتل أفراد قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة برصاص أسلحة مصنوعة في الغرب. وتسبب الأسلحة في الدول الأفريقية كما في غيرها من دول العالم زعزعة الحكومات وتدعيم الاختراقات المتعلقة بحقوق الإنسان، كما تدمر المجتمع المدنـــي وتقوده إلى تجارة المخدرات وغيرها من الجرائم الشنيعة. مع الحصول على السلاح بسهولة تتحول الصراعات الاجتماعية إلى صراعات عسكرية، والحروب أصبحت تطول وعندما تنتهي أخيراً تكون عمليات حفظ السلام في خطر وتصبح أعباء إعادة التعمير مبالغاً

فيها بسبب محاولة تجميع الملايين من قطع السلاح الصغيرة التـــي تم توزيعها من قبل تجار السلاح الغربيين. ومما يؤدي بدوره إلى الفوضى الاجتماعية والسياسية (ريغر Regehr 1996).

إن ما يحدث في أفريقيا ينعكس على مناطق أخرى من العالم الثالث، ففي أغلب المناطق الجنوبية من الأمريكتين يتعامل الناس مع مسائل البقاء مثل تعامل الأفريقيين، كاستصلاح الأراضي وشح الغذاء واستنـــزاف الموارد والمشاكل الصحية، إضافة إلى أن أغلب دول الجنوب الأمريكي تئن تحت وطأة الديون التـــي يستحيل التخلص منها، وقد أدت الديون في الماضي إلى حروب من أجل ضمان الموارد، وأدت الديون إلى حروب أهلية في عدة بلدان مثل (الأرجنتين وأورغواي وبوليفيا وبيرو وغواتيمالا والسلفادور والمكسيك) ممَّا أدى إلى فرقة أهلية وصراعات عرقية (بيرو والإكوادور) بالإضافة إلى تجريم النشاط الاقتصادي (كولومبيا وبوليفيا وبيرو) (أسلا Isla 1996). وتؤكد (آنا أسلا Ana Isla) على أن تدبير الديون إنما هي طريقة أخرى لإدارة السوق العالمية عن طريق تجزئة حقوق الناس واستغلال قوى الدولة واستقطاب الصراع مما يولد أجواء مناسبة لاختراقات هائلة في حقوق الإنسان. إن غالبية هذه البلدان في أمريكا اللاتينية ملزمة من قبل البنك الدولي للخضوع لعملية تسمي "إعادة الهيكلة الاقتصادية" وعادة ما تجبر هذه الدولة المدينة على تقليص المصروفات في قطاع الضمان الاجتماعي والبرامج التعليمية وربط الصرف الداخلي للدولة بالصادرات إلى العالم الأول. أدت هذه العمليات إلى ارتفاع معدلات الفقر في دول العالم الثالث كما أدت إلى نفاذ مواردها الطبيعية، هذا وابتدعت مصارف الدول الدائنة برنامجاً آخر خطير يسمي "مقايضة الديون" أو "الديون مقابل المصادر الطبيعية" ويتمثل برنامج الديون مقابل المصادر الطبيعية في مقايضة نوع ما من آلية الديون لدائن ما مقابل موارد طبيعية معينة لدى الدولة المدينة. هذا النوع من النشاط له عواقب وخيمة لعل من أبرزها اتساع وتنامي المتاجرة والاستيلاء على الموارد الطبيعية التـــي كانت سابقاً إرثاً مشتركاً لمواطنـــي الدولة المدينة والنتاج النهائي للديون مقابل الموارد الطبيعية هو صرف الانتباه عن المجال الرئيسي للصراع المتمثل في النموذج الحالي للثروة العالمية التـــي تتجمع وتتركز لدى الدائنين الأثرياء الذين يقومون بسلب وتحويل جانب هام من ثروات وموارد الدول المدينة.

وعندما ننظر إلى دول عالم الأقلية (العالم الأول، عالم الشمال) نرى إن إعادة توزيع

الثروة تصب في صالح فئة صغيرة من الناس والمؤسسات حيث التهمت هذه النخبة الصغيرة ثروات طائلة مما زاد في توسيع الهوة بين الأغنياء والفقراء. وخلال التسعينيات رأينا معدلاً متزايداً للفقر في كافة قطاعات المجتمع وشرائحه باستثناء شديدي الثراء. كل المكاسب التـــي نالتها الطبقة المتوسطة منذ منتصف القرن تبدو في اضمحلال متسارع. إننا نشاهد في الشمال شكلاً من إعادة الهيكلة التـــي تؤدي إلى تآكل كافة البرامج الاجتماعية الرئيسية ذات العلاقة بالصحة والثروة والتعليم، إننا نشهد درجة من التشرد والفقر لم يسبق لهما مثيل وعلى مستوى جميع المدن الكبرى في الشمال. إن ما يحدث في مدن الشمال الكبرى يحاكي ما نشهده في مدن الجنوب الكبرى أي مدن العالم الثالث. كل هذه المؤشرات تتلازم مع انهيار الحياة المجتمعية والتغريب وانعدام القيم الاجتماعية السابقة. هذا إضافة إلى ارتفاع معدلات الإجرام وتعاطي المخدرات وغيره مما يهدد النسيج الاجتماعي.

وفي مناقشتنا لقضايا البقاء لا يمكن أن ننسي الكارثة العالمية التـــي يتعرض لها الأطفال والنساء وهذا الموضوع سأناقشه في الفصل الخامس وسأتعرض هنا فقط لبعض الأمور الملحَّة بالخصوص. إن العنف الموجه ضد النساء قد تجاوز كل الحدود الثقافية والدينية والإقليمية وأسوأ ما في ذلك هو العنف الذي يمارسه الزوج يشير تقرير (*تقدم الأمم* 1997 ***Progress of Nations***) إلى أنه في كندا عام (1987) مثلاً كانت نسبة 62% من حالات الاغتيال بين النساء على يد زوج أو خليل. أن هذا النوع من العنف يحدث عندما تكون هيمنة الذكور على نحو مؤسسي من خلال أنظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية. ومن أسوا مظاهر التمييز ضد الإناث ذلك المتعلق بالتشويه التناسلي ويقدر بأن ما بين (85 و114) مليون امرأة يتعرض لمثل هذا التشويه، ويعتبر البنك الدولي العنف عاملاً رئيسياً يؤدي إلى سوء الصحة بين النساء اللاتـــي في سن الإنجاب. و19% من كافة الأعباء التـــي تتحملها اقتصاديات السوق في الدول المتقدمة يمكن إرجاعها إلى الأمراض التـــي تصيب النساء بين السن من 15 و14، يمكن ربطها بالعنف المنـــزلي والاغتصاب. إن العنف يشكل تهديداً لنساء العالم الثالث أيضاً ولكن لكثرة الأمراض في تلك المناطق، يعتبر العنف في المقابل أقل وطأة من جملة أعباء تلك الأمراض. وكما سنناقش لاحقاً شيئاً من التفاصيل، العنف الاجتماعي فإن العنف ضد الأطفال لا يقل حدة في كل أرجاء العالم.

البقاء الشخصي: لعل أهم عوامل انهيار العالم الشخصي هو انهيار الصفة العلائقية العميقة لكافة أنواع الكائنات الحية (أوسليفان O'sullivan 1990). إننا اليوم نمر بتجربة تتعلق بنهاية ما يعرف بالحداثة حيث يوجد شرخ عميق بين الحياة الشخصية والمجتمعية على كافة الأصعدة. لقد ابتكرنا شكلاً للنشاط الاقتصادي تحت اسم الرأسمالية العابرة للحدود الجغرافية القومية. وهي لا تقيم وزناً لحدود المجتمع البشري ولا لعالم الطبيعة في مجملة. هدف هذا النشاط الاقتصادي جمع الثروة والمال وفي معجم الرأسمالية المتجاوزة للحدود القومية لا مكان للحياة المجتمعية. وبتفكك الحياة المجتمعية يظهر التفكك في العالم الشخصي. وبتفكك العالم الشخصي يحدث الانهيار لكافة جوانب الحياة العامة (أوسليفان O'sullivan 1990). إن واقع اليوم هو أن جزءاً هاماً من حياتنا تشوبه آلية مصممة للإعلان والبيع وهي آلية الإعلام وتقنياته المعروفة بالإذاعة المرئية (التلفاز). ومع قدوم البث المرئي الدعائي حدث هبوط ثابت الوتيرة في الحياة العامة. ويكمن التناقض هنا في أن تدنـــي مستوى الحضور العام يطابق مستوى التطور المطرد لتقنيات الاتصال. ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة 1945م ظهرت تقنيات جديدة وتطورت، منها الصحف والإذاعة المسموعة والمرئية واليوم الحاسوب والفاكس وشبكة الاتصال العالمية (الانترنيت). ولابد لنا أن نقرّ بأنه على المستوى الشعبـــي لا زالت الإذاعة المرئية هي المسيطرة. إن الاتصال من خلال البث المرئي بالأحداث الثقافية يمثل طقساً من الطقوس الخاصة لأنه بدون معايشة الأحداث واقعياً نظل نعتمد على هذه الوسيلة للاتصال بعالم أوسع. يقدر بأن في الأسرة الأمريكية الشمالية النمطية، سيكون كل فرد فيها قد سمع من المتحدثين عبر البث المرئي أكثر مما سمع أو تحادث مع باقي أفراد الأسرة (أوسليفان O'sullivan 1990). إنه لمن المهم جداً أن نشير هنا إلى أهداف البث المرئي التلفزيونـــي الموجه إلى المشاهد، والمتمثلة في الافتراض القائل، بأنه يجب تشكيل وتهيئة جمع من المشاهدين وتعبئتهم بالقيم التجارية الاستهلاكية وهذا الافتراض بالطبع، لا يدعو لمفهوم حول الحياة العامة والمشاركة فيها.

ولابد لنا من الاعتراف كذلك بأن الإعلام الغربـــي يمنحنا اتصالاً بالأحداث العالمية، غير أنه في ذات الوقت قد يجعلنا نفقد الصلة بالناس للتعبير عن أهمية هذه الأحداث. وإضافة إلى ذلك فإن ظاهرة التشبع الإعلامي أصبحت احتمالاً قوياً مما قد يؤدي إلى استخدام وسائل الدفاع النفسي كالانسحاب وفقدان الإحساس. وللعودة إلى الحياة العامة علينا أن نبتكر

وسائل أخرى عبر الأعلام الحالي، وسأتحدث لاحقاً على ضرورة إيجاد "ثقافة مدنية" كجزء من الرؤية التحولية.

يبدو أن استجابتنا تتباين حول تعقيدات العالم المتطور. وإحدى هذه الاستجابات تتمثل في ما سماه (روبرت جي لفتن Robert Jay Lifton 1993) "النفس المتقلّبة" وهذه نفس تتصل بالعالم عن طريق الاعتراف بتعقيداته وتتكيف مع تغيراته المتعددة. يفند (لفتن Lifton) وجود النفس المتقلبة كاستجابة للفوضى التـــي يتسم بها زماننا هذا وللشعور المتزايد بفقدان الاتزان النفسي. وذلك بديلاً عن الانهيار أمام هذه التهديدات التـــي تتصف بها الحياة المعاصرة. ومن الملاحظ بأن لهذه النفس مرونة عجيبة. تستخدم النفس المتقلبة أجزاءً من هنا وهناك وتظهر مرونة تكتيكية لتتطور فتكون نفساً ذات احتمالات عديدة تشكل أملاً للمستقبل. وفي أوقات من التفكك والصدمات لعصرنا هذا يعتقد (لفتن) بأن هذا التقلب يمكن أن يوقظ انتماءنا الوجودي وهو ما يشبه كائناً نفسياً مما يجعلنا قادرين على إثبات علاقتنا العضوية ببعضنا البعض وكذلك مع الطبيعة. ويتعلق هذا الإثبات بالنسبة لنا بالعقل والخيال لنتمكن من الشعور بأننا أعضاء في مجموعة من الكائنات المتشابهة ولنتمكن من تفهم التجربة الإنسانية السائدة في إطار ثقافاتنا المتنوعة.

هذه الاستجابة للتعقيدات والتفكك هي استجابة تتسم بالمرونة البناءة والتكيف. وإذا كنا مدركين لاستجابة متقلبة مع التعقيد، فلابد لنا أن نقر أيضاً بأن النفس يمكن لها أن تنفعل. فالقوى التاريخية ذاتها التـــي تستدعي التقلب يمكنها أن تستدعي رؤى أكثر تحديداً للنفس تحت مسعى التشدد والتعصب. والاستجابة المتعصبة للتعقيدات التـــي يتسم بها عالمنا المتفكك تشمل أي حركة تقضي دفاعاً عنيفاً عن المقدس وترجمة حرفية للنصوص المقدسة كعملية تطهير للتاريخ لتبرز الماضي باعتباره ذو اتساق مثالي لم يحدث أبداً ونظرة مستقبلية حالمة تنتج عن أثر نهاية عنيفة لتطهير وتنقية تاريخ منحط. إننا نشاهد اليوم مظاهر التعصب في ممارسات كل الديانات الرئيسية تقريباً. تراها في الديانة الهندوسية واليهودية والمسيحية والإسلامية. ونرى التعصب كذلك في الممارسات السياسية الثورية أو الوطنية أو كلاهما معاً ومثال ذلك النازية والنازية الجديدة والشيوعية (لفتن Lifton 1993). يتمثل التعصب اليوم في استجابة النفس إزاء التفكك والتعقيدات التـــي تصاحبه. وهي استجابة تعبر عن العموم

لكي نتمرد والانغماس النفسي في نظام أيديولوجي أو في نمط سلوكي من نوع ما.

إننا ندرك بأن التعصب ليس له قوة ثابتة في تاريخ الإنسانية. فالدولة التـــي تبنـــي على التعصب عادة ما تتحلى عنه في الجيل التالي. ولأغراض موضوع هذا الكتاب يعتبر ذلك أمراً مهماً، أننا ندرك أن التركيب الذاتـــي للمتعصب لا يمكن أن يمنحه المرونة والانفتاح اللذان تتطلبهما هذه المرحلة من التاريخ. نحن في حاجة إلى النفس المتقلبة التـــي وصفها (لفتن) لأننا بحاجة إلى تعقيد ومرونة وانفتاح في مواجهة التحديات التـــي تنتجها ظروفنا التاريخية الحالية.

إننـــي أود أن أختتم هذا الفصل بالإشارة إلى أننا في حاجة إلى رؤية تربوية تعليمية تخاطب المراحل الثلاثة التـــي تم طرحها للنقاش: الكونية والإنسانية والشخصية. وسوف نترقب التطبيق التربوي الذي يتحول بنا من مفاهيم الحداثة السابقة للتربية والتعليم إلى ما أطلق عليه "رؤية إعادة بناء ما بعد الحداثة".

التربية والتعليم فيما بعد الحداثة

من الضروري في هذه المرحلة أن نجري بعض المقارنات بين بعض الجدل الحالي حول "تربية ما بعد الحداثة" وجدلي الخاص فيما يخص الايكوزويك المنصرم. فعلى المستوى العام يشير تطور خطاب ما بعد الحداثة في العلوم الاجتماعية والتربوية ودراسات الثقافة إلى تحرر من وهم قوي الحداثة التـــي تعتبر إرث الفكر والمؤسسات الغربية التنويرية. ويقول (ديفيد غرفن David Griffin) في هذا الشأن:

> إن سرعة انتشار مصطلح *ما بعد الحداثة* في السنوات الأخيرة يدعمه عدم الرضى المتنامي عن الحداثة وإدراك متزايد بأنه كما كان للعصر الحديث بداية لا بد وأن تكون له نهاية كذلك. فبينما كانت كلمة حديث تستخدم دوماً وحتـــى يومنا هذا تقريباً، كلفظ يعبر عن الثناء وكمرادف لمصطلح "عصري"، فقد ثبت أن ثمة شعور متزايد بأننا لا نستطيع فقط بل ويجب علينا أن نترك الحداثة وراءنا بل ويتحتم علينا ذلك إذا أردنا تفادي تدمير أنفسنا وخاصة كوكبنا (د. غريفن D.Griffin 1988a: ix).

وعند التركيز على الخطاب التربوي، نجد أن النقد الموجَّه من تيار ما بعد الحداثة تحدي عدداً من المقدمات الأساسية للتربية. ويشمل هذا الانتقاد اشتباهاً في اعتماد الحداثة على العقائد والمفاهيم الميتافيزيقية عن الذات واتخاذ العلم والتكنولوجيا والمنطق كأساس للمعادلة

بين التغير والتقدم. ويرتبط مع النقد السابق لمعادلة التمييز العرقي (ethnocentric) حيث يتم الحكم على التاريخ في ظل انتصار الحضارة الغربية والرؤية العالمية القائلة بأن الدول الغربية الصناعية تشكل قوة فريدة ومتفوقة تمكنها من أن تتبوأ موقع التحكم في أنظمة السلطة وتسلسلها. يؤكد كل من (ارونوويتز وغيرو Aronowitz and Giroux 1991) على أنه من وجهة نظر ما بعد الحداثة، فإن مطالبة الحداثة وتشبثها بالسلطة تمنح ثقافة الغرب الأبوية (الباتريا تركية) ميزة هامة بينما تكبت وتُهمّش آراء وأصوات من تعتبرهم أقل شأناً نتيجة للونهم أو طبقتهم أو جنسهم أو انتمائهم الثقافي والاجتماعي.

قد يسأل القارئ عن العلاقة بين مفاهيم "ما بعد الحداثة" والسينوزويك النهائي وفي هذا الصدد يمكن استخدام آراء (ديفيد غرفن David Griffin's 1988a; 1988b) في التمييز بين الاتجاهات والأفكار الإيجابية البناءة لما بعد الحداثة وبين اتجاهاتها وأفكارها الهدامة. أن الأفكار السلبية لما بعد الحداثة تهدف إلى محو الصورة الحالية للعالم الحديث عن طريق تكوين اتجاهات مضادة للاتجاهات العالمية الحالية. إن الهجوم على ما يعرف "بالقصة الكبرى" هي بداية النقطة المركزية في عملية التفكيك أو هدم البناء. يفيدنا (آرونووتيز وغيرو Aronowitg and Giroux, 1991) بإعطاء أمثلة عن الخواص الإيجابية لنظرية الهدم مع الإشارة إلى بعض سلبياتها أيضاً، إن الدافع لنقد ما بعد الحداثة يهدف إلى تعميق وإثراء فهمنا للبيداغوجيا النقدية في التربية إن ارتباط الحداثة بالثقافة والاختلاف والذاتية يولد أرضية للتساؤل حول المثل الحديثة حول إيجاد سبل لتوفير الحياة الكريمة. إن النقد الموجَّه من منظور ما بعد الحداثة يثير أسئلة هامة حول كيفية بناء القصص ومعناها وكيف تنتظم في أشكال مختلفة من الخبرات الاجتماعية والأخلاقية، مع أن العمل الحالي يشارك في بعض أوجه النقد الهدَّام أو التفكيكي الموجَّه لرؤى العالم الحديث فإننـــي اتفق مع (ديفيد غرفن 1988a David Griffin) في حذرة بشأن ميل نظرية النقد الهدام إلى النسبية والعدمية، وهذا النمط من النقد قد واجه بدوره نقداً شديداً ونعت بالحداثة المفرطة أو المتطرفة (د.غريفن 1988a وسبريتناك Spretnak،D. Griffin 1991).

ويشير كل من (ارونوتز وجيرو Aronowitz and Giroux 1991) إلى الحدود التربوية إلى ما بعد الحداثة نظراً لتشككها المتشدد في المفهوم الحديث للحياة العامة والصراع لأجل

المساواة والحرية التـــي كانت أساس الاتجاه الليبرالي الديمقراطي، إن طموحات ما بعد الحداثة في إعادة البناء أو المراجعة تتحرك بلا شك إلى ما هو أبعد من منظومات عصر "التنوير" وانهيار نظرية الفروض التـــي بُنيت عليها الحداثة. ولكن بدل محاولة هدم أسس الحداثة كهدف نهائي. توجد رؤية تعيد البناء في السعي إلى التحرك نحو ما يتجاوز رؤى العالم الحديث ليس بإلغاء رؤى العالم الحالية في حدِّ ذاتها ولكن عن طريق بناء ومراجعة مقدمات الحداثة ومنظورات الحداثة للفروض والرؤى الحديثة الحالية (د. غريفن D.Griffin 1988a).

وسوف أطرح عملية المراجعة التـــي أجريها في هذا الكتاب في إطارٍ كونـــي حيث تتحد الخبرة والمعرفة الإنسانية عند تجلي الكون بلا أي غطاء يحجبه. ;T.Berry 1988) Swimme and Berry 1992) إننـــي أجد صعوبة في التأكيد على أن "القصة" (أو الرواية) ليست قصة جديدة تلك التـــي يطعن فيها دعاة النظرة التفكيكية الهدامة. وفي الوقت ذاته يكون من الخطأ الافتراض بعدم وجود "رواية" (أو قصة) من وجهة النظر التـــي يتم التعرض لها الآن . فيما يخص وجهة النظر التـــي يتم لها التعرض الآن. إن الحقيقة تكمن في أننـــي ومن خلال عرض قصة كون كبؤرة مرجعية أقترح "رواية كبرى" ليست الرواية الرئيسية لدى ثقافة بعينها ولكنها قصة الكون نفسه. أننـــي أحاول خلال هذا العمل تقديم رؤية قوية تترك المجال مفتوحاً أمام الرؤى الأخرى وتقبّل التنوع باعتباره طبيعياً كقيمة مرغوب فيها. إننـــي آمل أن أطور نسق حالم قوي يضم المجتمع البشري داخل المجتمع الأرضي وفي الإطار الكونـــي الشامل الذي يرجع أصلاً إلى عصر الكرة المشتعلة. لقد حاولت (شارلين سبريتناك Sharlene Spretnak 1991) تقديم رؤية ايكولوجية لما بعد الحداثة أشارت إلى عناصر الكون على أنها توجد في أجسادنا وهى ذات العناصر التـــي تتركب منها الأشجار والصخور والأسود والأنهار ونحن نعلم إن هذه الأشكال المتنوعة ليست أشياءً كامنة جامدة ولكنها عدد لا يُحصى من الأحداث المتناهية الصغر تحدث داخل ديناميكية التنظيم الذاتي. وحتـــى على المستوى الذري فإن الذرات تظهر أنماطاً واضحة داخل شبكة شاسعة من العلاقات، وتلمِّح (سبريتناك) إلى حيث تقودنا هذه الرؤية وإلى كيف يمكنها أن تقف بقوة في مواجهة العدمية الهدامة. وتقوم هذه الرؤية على أفكار "توماس بيري" لتفترض بأن الكون من خلال النشاطات التـــي يقوم بها ينتج مظاهر معينة ضمن سلسلة هائلة من الاحتمالات ومن خلال

ذلك يستمر في إنشاء سلسلة كونية. نحن نعيش في كون يعمل بديناميكية ويصوغ شخصية نوعنا البشري إلى أكثر من 5 بلايين تعبير فريد للدينامية والمشاركة العميقة التي تملأ الكون. تقوم (سبريتناك Spretnak 1991: 18) بالتأمل في الكيفية التي يمكن أن تخضع بها القصة الكونية إلى الهدم. وقد يقول أنصار ما بعد الحداثة بأنه يمكن أن تدعي بذات السهولة على أننا جميعاً مخلوقات غير متصلة وغير مترابطة، وعليه فإن كلاً من الرأيين محتملان.

وتوضح " سبريتناك " ذلك بإيجاد موقف تاريخي وانتروبولوجي متميز، حيث تلاحظ بأن هناك تواجد واسع وشامل للثقافات يدرك الترابط المتداخل الذي يجعل هذا الاتجاه الكوني المتكامل أكثر من مجرد رواية للمثالية المفترضة:

لقد مرّ عدد من البشر بهذه الخبرة في ظروف متباينة جداً ولآلاف السنين. إن مفهوم كون العالم الطبيعي حياً وأننا متصلون بقوة مع قوة تلك الحياة هو ما كان أغلب سكان الأرض يدركونه حسيّاً منذ العصر الحجري وحتى العالم الرابع المعاصر، وفي آسيا تطورت الرؤية إلى فلسفات طاوّية وبوذية وهندوسية وكونفشيوسية حول العضوانية. إن ذلك الإدراك الحسّي وذلك الوعي النابض بالترابط المتداخل قد تجمّد في مكانه رغم تحدي الأفكار الجديدة التي انتشرت من أوربا إلى العالم بأسره.

إن العلم المعاصر ذاته في مجالات علوم الأحياء والكيمياء والفيزياء ونظرية الفوضى والغوغائية قد انتهت أيضاً إلى الترابط المتداخل والتجانس الدقيق وهو ما يمثل في الواقع، طبيعة الوجود (سبريتناك Spretnak 1991: 18-19).

وقد تنتاب القارئ هنا بعض التخمينات بخصوص خضّم الجدال الدائر في خطاب ما بعد الحداثة. ومن جهتي أعتبر إيجاد موضع لهذا العمل مهمة أساسية بغية تركيز جهودنا للبحث عن بدائل أكثر إلحاحاً فيما يخص الحداثة. إن القارئ من خلال تزويده بإطار كوني يمكنه الانتباه الى أن هذا العمل رغم كونه يثير الاحساس بانتسابه الى ما بعد الحداثة إلا أنه لن يكون تمريناً في التفكيك والتهديم بحد ذاته وإن كان لا يخلو من عناصر تفكيكية وتهديمية. في الجزء الثاني بعنوان "النقد"، يمكن اعتباره تمريناً في التخطيط والتفكيك الايكوزوكي، ومع ذلك فإن روح العمل وأهدافه ليست التفكيك أو الهدم بل البناء وإعادة النظر. إن الحلم الايكوزوكي هو تدريب في إطار إعادة البناء الايكولوجي. وهذا هو الحلم الذي يوجه عمل هذا الكتاب.

إن إعادة البناء الذي سيشكّل الرؤية الأكثر إبداعاً من الناحية التربوية تتطلب إعداداً. والرؤية الجديدة ستُخلق وتنمو داخل رحم الفشل الثقافي للحداثة المحتضرة، مما يحتم تقييم البقاء من ناحية تربوية تأخذ في الاعتبار وضع الحداثة المتأزّم وذلك في ضوء ما تم عرضه على المستويات الكونية والبشرية والشخصية في مشهدنا التاريخي الحالي. إن التخلي عن بعض مصاحبات القديم يفيد عملية ديناميكية لا تقل شأناً عن ابتداع شيئاً جديداً. وغالباً ما يكون الانفصال عن القديم والاتصال بالجديد ما هي إلا عمليات تثار من خلالها شطحات إبداعية خلاقة.

التطبيق التربوي لأسلوب البقاء

التعامل مع الرفض واليأس والضياع: لقد تعايشنا كتربويين طوال القرن العشرين مع الوعد الثابت بقرن من الوفرة والرخاء الذي كان أملا بلا نهايةً لأحلامنا الثقافية. إن توقعاتنا لاقت التشجيع وعانت الإحباط في آن واحد. أن الدخول إلى القرن الآتـــي يجعلنا نواجه قرن الوفرة الذي أخفق في وعوده بها. إننا في الواقع نواجه الآن تراجعاً حقيقياً وطمساً تاماً لكل آمالنا. وكتربويين علينا أن نعي تماماً العوامل النفسية المعقدة التـــي تعمل باستمرار خلال محاكاتنا لأنفسنا عبر هذه المرحلة من الانحطاط التاريخي. إن الإطار التاريخي يمثل جانباً هاماً من ديناميات التغير الذي نعيشه. يطرح (راجنـــي كوثاري Rajni Kothari) **إشكالية** مثيرة هي البقاء الراهن لتاريخ العالم. ويعرف هذه الإشكالية كالتالي:

> الإشكالية هي البقاء، بقاء الكائنات، وبقاء الحضارة وبقاء الخلق، بقاء الدولة كأداة للتغيير والتحرر وكهوية وكرامة. إن هذه الإشكاليات تؤثر على البُنـــى المؤسساتية وسلوك البشر واستجاباتهم النفسية. إنها تولّد في الشعور السائد حالياً عدم اليقين وانعدام الأمان عند المستويات كافة مما يبدو أنه يلقى ظلاً كثيفاً يعتم المفهوم الأسبق للثقة واليقين حول إمكانات تحقيق السلام واستمرار التقدم البشري ووحدة الحضارة الإنسانية (كوثاري Kothari 1988: 6–7).

ولتقبّل هذا *المشكل* المعقد لابد لنا أولاً من الاعتراف بأن التربية النظامية في كل المجتمعات الحديثة قد كرّست لخدمة الدولة الحديثة وأنها تقوم الآن بخدمة الدولة التجارية التـــي تتجاوز الحدود القومية. خلال القرن العشرين ظلت المؤسسات التعليمية مطوّقة في

وعي الدولة القومية وأن المؤسسات التربوية الرسمية كانت تلبـــي حاجات ومطالب الدول القومية وبالدخول إلى القرن الواحد والعشرين أصبح هناك تحولا دراماتيكياً متطرفاً يتجه نحو تجاوز الدولة القومية إلى عالم يتنكر بشدة للحدود القومية كجزء من تحركه إلى الأمام لنظام سوق الرأسمالية العصرية. إن العولمة ليست حديثة الأصل فهي أصيلة في منطق الرأسمالية الزاحفة نحو توسيع الأسواق. إن العولمة المتخطية للحدود القومية تتسم باقتصاد السوق عن طريق التجارة والاتصالات الموّسعة على مستوي عالمي لم يسبق لنا تصوره. إن التحرك الحالي باتجاه العولمة يأخذنا إلى أبعد من قوى الدولة القومية إنه يأخذنا نحو رؤية السوق الذي لا يعترف بالحدود القومية وتتنامى تحدياته لسلطات واستقلال الدولة القومية. وماذا تحمل يا ترى هذه الحركة نحو العولمة للمؤسسات التعليمية؟ إن ما يتّصف به خطاب العولمة هو أنه على التعليم أن يعمل كمؤسسة تكوينية إنشائية للعولمة التـــي تتجاوز الحدود القومية وتعمل على إلغاء الدولة القومية.

لقد شاهدنا خلال السنوات العشر الأخيرة، خطاب العولمة الذي صمم لإنشاء توجّهات أساسية لعالم اليوم، والخطاب بسيط ومتكرر ويتمثل في أنه على كافة البرامج والمؤسسات أن تصمم لتواكب السوق العالمية وتنظّم صفوفها لتجنـــي ثمار هذه السوق التـــي تبدو إيجابياتها ظاهرة في الأفق. ويبدو أن هذا الخطاب ضمنـــي الخصائص الآن. إن عمل التربوي في نظام هذه الرؤية العالمية هو إعداد وتدريب الجميع للدخول إلى السوق العالمية والشعور بالولاء والاطمئنان نحو تقدمها. وعليه لم نعد نسمع الآن خطابا يؤيد الدولة القومية. أن غايتنا الجديدة هي السوق العالمية غير المكبّلة بالقومية وخطاب ذلك يسمي بالعولمة.

لقد تشبعنا بخطاب من هذا النوع من خلال الإعلام والدعايات وكذلك من قبل الحكومات الغربية التـــي لم تبق جهداً في إغراء الدول نحو تشكيل تكتلات عالمية، مثل مجموعات التجارة الحرة لأمريكا الشمالية وأوربا والتجمعات الآسيوية. في الجزء الثانـــي من هذا الكتاب والذي عنونته بكلمة "نقد" سأفكك وأحلل عملية العولمة ثلاث ولابد للقارئ أن يفهم كيف أرى أهمية عملية العولمة فيما يخص صفة البقاء، ووجهة اعتراضية تكمن في أن الحركة الأمامية للعولمة الرأسمالية المغامرة، هي شديدة التهديم وهى نقطة النهاية للتركيبة الثقافية مما يهدد إمكانات التحمُّل لهذا الكوكب. إن المهمة الخطيرة للتربويين ستكون متمثلة

في تطوير وعي يستطيع اختراق منطق العولمة الهدام وربط ذلك بالمهارات النقدية لمقاومة الخطاب الذي يعرينا الآن، وأمام التربوي الآن ثلاث وظائف أساسية تتعلق بصفة البقاء، تكمن الأولى في الخروج من سلوك الرفض، وتكمن الثانية في التشبث بالأمل وأمّا الثالثة فتتعلق في التعامل مع الأسى والضياع.

ونتعامل مع القضايا التربوية القائمة علينا أن نحدد موقع التربوي في تلك المرحلة التاريخية. إن خطاب العولمة يخلق وعياً مزيفاً للتربويين حيث أن البناء الحالي للتفكير العولمي يقوم دائماً باختلاق وعود زائفة بشأن المستقبل بادعائه بأن كل شئ سيكون على ما يرام إذا تقدمت عمليات عولمة السوق. ولكي ينجح هذا الخطاب لابد من وجود فصلٍ بين ما يدعي السوق أنه يقوم به وبين ما يحدث بالفعل. هناك تفاؤل ملح تشوبه المبالغة في رؤية السوق وخطابه يتسم بالنكران المتواصل للآثار التدميرية التـــي يحدثها على الصعيدين المحلى والعالمي. وبما أن المؤسسات التعليمية تخدم الوظيفة المحافظة في المجتمع وتبقي عليه كما هو، فليس غريباً إذاً، أن تعتبر المؤسسات التعليمية مؤيدة للرؤية الحالية للسوق العالمية. ويتم الآن إعداد المؤسسات التعليمية الرسمية لتهيئة الجيل القادم لمتطلبات السوق العالمية، ويمكننا أن نلاحظ الآن هذه الظاهرة مدسوسة في المناهج الدراسية باستثناء التعليم الأساسي وتعليم ما قبل المدرسة. أمّا إذا تفحصنا أهداف السياسة التعليمية للتعليم الثانوي وما بعده فإننا نرى هيمنة لغة العولمة. إن اختزان عقلية السوق العالمية تلقي بظلالها على اللغة القديمة التـــي تدين بالولاء للدولة القومية الإقليمية. والمهم في المساعي التربوية الحالية هو تدريب وإعداد المتعلمين لاستقبال النظام العالمي الجديد. واللغة الدعائية اليوم للرؤية العالمية تتمثل في أن العولمة هي البوابة إلى مستقبل أفضل ووظائف أفضل وحياة أفضل ...الخ. ومع هيمنة هذه اللغة يحكي علينا واقع الحال قصة أخرى أقل جاذبيةً، وهى أن الحركة البيئية المتزايدة قد نبهتنا إلى الآثار السلبية المعقدة التـــي ألحقتها السوق الشاملة بالعالم. من هذه الآثار، خراب الغابات الاستوائية وارتفاع درجة حرارة الأرض واختراقات حقوق الإنسان التـــي تنتج عن السوق الشاملة أكثر من أي آثار إيجابية مزعومة. أمّا من حيث توزيع الثروة، يعانـــي عالمنا اليوم من أسوء معدلات الظلم بالرغم مما يتغنـــى به خطاب السوق العالمية عن تناسب توزيع الثروة وانسيابها من الأغنياء إلى الفقراء بينما يقول واقع الحال عكس هذا الادعاء. أن الشكل

الحالي للتطور الاقتصادي ويغض النظر عن الوتيرة الذي يسير بها، فإنه حتماً يتجه دائماً إلى أعلى حتـــى ولو كان ينتسب في تناقص حجم النخبة أو الطبقة الأولى بينما يظل الغالبية العظمي من الناس أكثر فقراً من ذي قبل (ميسون Mason 1997). ومن الناحية التطبيقية للسوق الشاملة فإن نسبة العاطلين عن العمل إلى العاملين تتزايد يومياً. هذه بعض المؤشرات السلبية فقط والتـــي سنناقشها في الجزء الثاني. وهى كافية لتأكيد التباين الكبير بين ما تقوله عملية العولمة والواقع الملموس للأوضاع الحالية. أن مثل هذه التناقضات تجعل التربويين في حيرة من أمرهم فيما يخص الولاء والعمل ومن هنا تظهر علاقة التربية التحولية بالأوضاع العالمية.

ومن وجهة نظر تحولية نقدية لابد لنا من التعامل مع أربع مستويات من الوعي يمثل المستوى الأول ما قبل الوعي غير التأملي والثانـــي هو مستوى متنامٍ واعٍ بقضايا البقاء والثالث هو مستوى الوعي النقدي أما الرابع فهو مستوى الوعي المثالي الحالم. وسأتناول في هذا الفصل المستويين الأول والثاني؛ أما المستويين الثالث والرابع سأتناولهما في الجزء الثانـــي "نقد" وفي الجزء الثالث "إبداع".

أمَّا حالة قبل الوعي غير التأملية فهي معيارية داخل أنظمتنا التعليمية الرسمية رغم تعايش التربويين في الأنظمة المدرسية مع التناقضات التـــي سبق ذكرها، إلاّ أن مستوى إدراكهم ووعيهم لمسببات هذه الأحوال يعتبر متدنياً. أن التربويين في هذا الإطار يعملون على نسخ الطلاب بكيفية تلائم معايير السوق. ولغة السوق ليست طاغية دائماً في حوار المدارس التقليدية ولكن الامتثال للفكر الذي يتلاءم مع السوق هو أيضاً يتكيف مع الجنس والعرق والطبقة الاجتماعية. إن ما نعلّمه من حيث الوعي التربوي التعليمي يخلو الآن من مفاهيم أبعاد البقاء التـــي تتسم بها هذه الحقبة التاريخية، حتـــى لنجد التربويين يهملون وقد يقاومون محاولات تحدِّي الاتجاه الحالي للنظام.

ومع أن النظام التعليمي الرسمي يتبع المعايير الثقافية المهيمنة الآن إلاّ أن شروخاً تنتابه وتطرح تساؤلات عدة حول اتجاهاتنا الحالية. ويتكون الوعي المطلوب من خلال قيام الفرد أو المجموعة داخل النظام التعليمي الحالي بإثارة الشكوك حول مدى فاعلية وعملية الاتجاهات التربوية الحالية. وقد يتخذ ذلك أشكالاً متعددة منها البدء في أخذ المسائل البيئية على محمل

خذ واستثارة صمت النظام الرسمي وضلوعه في وجود الأزمة البيئية. كما قد تجد مسائل مساواة بين الجنسين أو مسائل تتعلق بالعرق أو فتح باب الحوار حول البيئة طريقها داخل النظام المدرسي نفسه. هذه بعض المداخل فقط، التـــي يمكن أن تتفتح من خلالها أبواب لإيقاظ سباتنا التقليدي فيما يتعلق بالنظم التعليمية المعمول بها حالياً. وفي المراحل الأولى للوعي لابد من الابتداء بإثارة التساؤلات المتعلقة بما يسمي بقرن الوفرة العولمية. ويأتـــي ذلك من ربط أعمال الاقتصاد العالمي بالخراب البيئي والاجتماعي الذي يبدو مصاحباً لهذه الأعمال.

هذا الإدراك لعلاقة البيئة بعولمة الاقتصاد يمكن أن يبدأ صغيراً وسيتطلب إدراجه وتنميته تربوياً وجود وعي اجتماعي وسياسي جديد. وبما أن جزءاً كبيراً من هذا الإدراك الجديد سيتحدى الحكمة التقليدية داخل النظام الحالي فستكون الحاجة ملحَّة إلى استعدادات مادية للاقتصاص من هؤلاء المندسّين داخل النظام التربوي ممن يتمسكوا بالمعايير السائدة. إن الوعي والإدراك من السمات المتنامية للبقاء ويثير الجدل حول ثلاثة ظواهر، على الأقل، مما يجب التفاعل معها بخصوص البقاء. وهذه الظواهر هي اليأس والأسى والرفض.

الخروج من الرفض: لقد تعاملت سابقاً مع ظاهرة الرفض باختصار، وأود الآن أن أُناقش هذه الظاهرة بشيء من التفصيل وفي إطار الأداء التربوي التعليمي على وجه التحديد. تعمل آلية الرفض في الحالة السابقة للوعي بشكل فعّال بحيث تعزل المربـــي التقليدي عن الطبيعة المعقدة للمعايير المسيطرة في ثقافتنا. وعند حدوث توقف أو انقطاع في الصفة المسيطرة للوعي فإن هذا الانقطاع يظهر في منطقة واحدة أو أكثر من الوعي مما يثير الشكوك حول المعايير السائدة. وفي مرحلة معينة يبدأ التربوي أو مجموعة من التربويين بعملية دفع الى التشكيك الجوهري في الطبيعة الهدّامة للهيكلة الخرافية المهيمنة للعولمة. وعندما يبدأ هذا الشك، نكون عندئذ قد بدأنا المسيرة الطويلة للرفض. وعند البداية تتسم العملية بالتذبذب ومع نشأة موقف تشكيكي في النظام، يحصل التراجع حيث يكون هناك فقدان للثقة في القوى الذاتية وخاصة مع وجود بعض الاعتقادات القديمة حول مصداقية النظام. وعندما يكون هناك شعور بإمكانية التشكيك في النظام، تبدأ عندئذ عمليات الرفض بالتلاشي وعند

ذلك تبدأ الخطوة الأولى نحو مراحل اليأس.

اليأس من نموذج البقاء: عندما يأخذ التربويون في الاعتبار علاقات القلق المتعددة الذي نعانيه اليوم ينتابهم شعور طبيعي بالإحباط واليأس. وعادةً ما تقوم عمليات الرفض بالتغطية عن الشعور باليأس. وكما تشير (جوانا ماسي Joanna Macy 1989; 1991) فاليأس ما هو إلا استجابة طبيعية لوضعنا التاريخي الحالي ولا يجب بل ولا يمكن أن يُزاح بجرعات من التفاؤل أو المواعظ حول "التفكير الايجابي" إن التقاءنا باليأس لابد أن يكون معترفاً به وأن يتم التعامل معه على مستوى عميق من النفس. وهناك فارق شاسع بين اليأس والأسى يجب ادراكه. وتقوم (ماسي Macy 1991) بمقارنة بين الاثنين. وتؤكد بأن عمل اليأس يختلف عن عمل الأسى من حيث أن هدفه ليس القبول بالخسارة التـي لم تحصل بعد ويصعب قبولها. ولكنه شبيه بالدنياميكية التـي تنكشف من خلال الاستعداد للاعتراف بالألم الداخلى والشعور به والتعبير عنه.

ومع بداية ظهور اليأس لابد وأن ندرك بأن يأسنا ليس انشغالاً مرضياً. إنّ الخبرة الطبيعية للقلق من مخاطر هذا الزمن تعتبر ردَّة فعل صحية على الأوضاع الحالية، إن اليأس جزء من عملية الخروج من الرفض. إنه شعور ناشئ عند مستوى الوعي العميق نتيجة لكوننا لم نتمكن من مواصلة السير في اتجاه سبق لتعلُّمنا الثقافي أن امتدحه باعتباره كثير النفع والجدوى الثقافية.

إن الإطار التربوي العام في حاجة ماسَّة إلى يأس أصيل يتعلق بالتربويين في إطار المرجعية للمؤسسات التعليمية. ومع انطلاق الوعي المتنامي، يوجد إدراك بأن المؤسسات التعليمية التقليدية غارقة في الطبيعة الإشكالية للقيم السائدة في ثقافتنا. إن جانباً من عمل اليأس يكمن في القبول الحقيقي بكون المؤسسات التعليمية الحالية مفككة بشكل أساسي في داخل القوس أو الإطار الأكبر للقيم الحية. وإذا قبلنا بمنطق العولمة فسنكون مضطرين لقبول مماثل للطبيعة الأزمة ولآثارها السلبية. إن اليأس التربوي يأتـي من إدراك عميق يكون النظام الذي يعمل به هو إطار أو نظام غير عملي ولا يستحق الثناء من حيث توجهاته وإنجازاته. إن موقف هذا الكتاب هو أن المسيرة الحالية للعولمة والأنظمة التربوية التـي تغذِّيها يجب أن تتحول ويعاد

اختراعها من جديد. ومثل هذا النوع من الاستنتاج واليأس المصاحب له يتأتـى من خلال تقييم شامل وواضح لما يقوم النظام بتحقيقه فعلياً.

نلاحظ الآن حوار وشكاوى تتعلق بتراكم الديون وعجز الميزانية التـي اخترقت موارد النظام المدرسي في كندا. إن منطق تخفيض الديون قد وجد طريقة إلى موارد الأنظمة التعليمية الغربية منذ زمن غير بعيد. غير أنه خلال السنوات الخمس الأخيرة شاهدنا تجريداً حاداً للأنظمة المدرسية الرسمية من مواردها الأساسية التـي أتاحت لها سابقاً التعامل مع مسائل المساواة والتنوع والبيئة. لقد تم انتخاب حكومات محافظة ملتزمة بالعولمة في برامجها وسياساتها من جهة وتقوم من جهة أخرى بخفض الميزانيات المركزية للبرامج الاجتماعية والتعليمية تحت طائلة "العجز المالي" ومن ثم نهب الموارد العامّة التـي تنتج عنه ضحايا متعددة منها النظام التعليمي. يقوم (أمير أونيل Eimear O'Neill) في إطار التجربة الكندية بتوصيح العلاقات المترابطة بخطاب العجز المالي والديون في مقاطعة (أنتاريو Ontario):

يقال لنا بوجوب تقليص البرامج الاجتماعية وإعادة هيكلة تنظيم الخدمات الحكومية للتعامل مع الأزمات التـي تتعلق بالعجز المالي والديون. إن ما يحدث في اونتاريو بل وفي كندا عامّة هو ما يطلق عليه البنك الدولي "إعادة الهيكلة أو تعديل الهيكلة". إن هذا المصطلح أكثر شيوعاً في تقارير الإعلام لدول ما يعرف بالعالم الثالث حيث تستقطع الديون المستحقة لصالح البنك الدولي من ميزانيات البرامج الاجتماعية بدون استثناء مما يسفر عن إتلافها بما في ذلك اختراق حقوق الإنسان. وفي أنتاريو يتم مهاجمة شبكة كبيرة من البرامج الاجتماعية تتضمن دعم الأجور ورعاية الطفولة والمحافظة على مستويات جيدة من الخدمات التعليمية وبرامج مواجهة العنف والعدالة الوظيفية والرعاية الصحية العامة وخدمات الإيواء التـي تعمل على تحصيننا ضدَّ آثار العولمة التـي كانت أثارها المدمرة ملحوظة قبلنا في كل من نيوزيلندا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية (أونيل 6–5 1998 :O'Neil).

إن نظرة أونيل لخسارة وضياع خدمات التعلم الجيد هي بمثابة إنذار شديد موجه تحديداً إلى المؤسسات التعليمية. وما الذي نتوقع حدوثه عند تخفيض الميزانيات في مجالات وقطاعات التعليم الحالية؟ إن كافة البرامج التقدمية تقريباً التـي عمَّت المناهج خلال العشرين سنة الماضية يتم الآن تعريضها للخطر أو إتلافها تماماً. وضمن ما تشمله هذه البرامج، التربية البيئية والمساواة والتنوع إضافة إلى البرامج التربوية المناهضة للعنصرية وتلك التـي تخصُّ مراحل ما

بعد الاستعمار وكذلك قضايا المرأة في التربية والتعليم. في اونتاريو وحدها تم تخفيض الصرف على التعليم البيئي، مثل ذلك الذي يتم خارج جدران المدارس الذي تم تقليصه أو إلغاؤه تماماً. أما القضايا المتعلقة بالمساواة والتنوع والعرق فقد تم استبعادها من الوثائق التربوية وحلقات النقاش والتحاور حول السياسات التربوية التعليمية القائمة حالياً. كل هذه التغيرات تعتبر خسائر مدمرة للنظام المدرسي ولابد من إعادة النظر فيها وتقويمها والتحسر عليها في ذات الوقت. ويجرُّنا ذلك كله إلى مواضيع الفقدان والضياع والأسى، وهي منطقة يخوض تجريبها فعلياً التربويون في المؤسسات التعليمة الحالية على عدة مستويات من الشعور والواقع وهي أيضاً منطقة قلّما يشملها النقاش.

الضياع والأسى في صفة البقاء: إن شعور الأسى على ما ضاع هو جزء من طبيعة الحياة. وتعتبر الخسارة التربوية ظاهرة ينبغي التآسي عليها. إن حياتنا في هذه المرحلة من التاريخ ينتابها التألم على الخسارة الكبيرة التـــي لحقت بنا. لقد سبق لي تصنيف للشعور بالضياع على المستوى الشخصي والبشري والكونـــي إن الوضعية التاريخية التـــي طورتها بخصوص الصفة المنتهية لتاريخنا قد انعكست في الشعور بالضياع الذي أصبح سائداً في أيامنا هذه. هذا الشعور بكوننا نعيش حقبة من الانحطاط يجعل صناع التاريخ جميعهم والذين يستوعبون هذه الحقيقة هم في حالة من الأسي والضياع. كل من تلقى تربيته في الغرب قد أمضى الثلاثة أرباع الأولى من هذا القرن في حالة من التفاؤل المستمر بخصوص أداء مؤسساتنا لاسيما المؤسسات التعليمية التـــي شملها هذا التفاؤل الذي ساد معظم الوقت من القرن العشرين. وبالرغم من استمرار يوتوبيا العولمة وفقاً لهذا التفاؤل، إلاّ أن الحقيقة تظهر أن حسّ التفاؤل هذا يقوم على أساس واعٍ في الواقع التاريخي الحالي. مؤسساتنا كلها بما فيها المؤسسات التعليمية لا تعبر الآن عن تفاؤل يذكر. حيث كانت المؤسسات وخاصة التعليمية منها هدفاً للتخفيضات المالية الهائلة في ميزانياتها مما جعلها مستنـــزفة ويائسة. وكثيراً ما يطلب، هذه الأيام، من المؤسسات التعليمية العامة بأن تدعم نفسها بنفسها ماليّاً من خلال القطاع الخاص. التمويل العام يتجه بعيداً عن المؤسسات التعليمية ولا توجد مؤشرات على أن هذه إجراءات مؤقتة. إن المطلوب من المؤسسات التعليمية اليوم هو أن تنجز الأكثر بواسطة الأقل.

إنه من الطبيعي اليوم في هذه المرحلة التاريخية، أن نتعامل مع الضياع والأسى وهي استجابات طبيعية للفرد عندما يكون في مواقف الإفلاس. ولا أعتقد أننا في حاجة إلى الرجوع إلى التفاؤل في هذه المرحلة التاريخية ولا إلى فقدان الأمل. وهذا يقودنـــي إلى تصور نهائي لصعة البقاء.

المآسي ليست مهمتنا

أريد قبل الانتقال إلى عناصر النقد في هذا العمل، أن أُشير إلى بعض التأملات الاستنتاجية حول ماهية البقاء، لابد لنا أن نعي جيداً المظاهر النهائية لوضعنا الثقافي، ولابد لنا من مواجهة التحديات الكبرى التـــي تتحدانا بقوة. وفي مثل هذه الآونة نصبح مدركين لبعض المظاهر المأساوية لما نعانيه من مشاكل ونحاول أن نتقبل تلاشي الأشكال القديمة المألوفة للحياة ولكن في النهاية المآسي ليست مهمتنا إنه لمن المناسب هنا أن نشير إلى مقالة (فريمان ديسون Freeman Dyson's 1985) التـــي تحمل نفس الاسم "المأساة ليست مهمتنا". يقول "ديسون" بأن الحضارة العربية مولعة بالتراجيديا وهذا هو السبب في أن ماضينا الروحي كان في عمومة يائساً. أننا نتعامل مع الخير والشر باستمرار. ويتضح ذلك من مذكرات ديسون، حول مفهوم التراجيديا من خلال انعكاسات رحلة (روبرت سكوت Robert scott's) إلى القطب الجنوبـــي (سكوت 1868 - 1912) استعد جيداً للرحلة وكان معتاداً على استخدام الآلة قبل 1912. وكان (رولد أمندسن Roald Amundsen 1872; 1928) يقوم بنفس الرحلة وفي نفس الوقت. كان المستكشفان يتسابقان على أن يكون الفائز هو الذي يعود أولاً. اعتمد "سكوت" بكثافة على كمية هائلة من المعدات واتَّبع الطريق المعتاد بينما اتبع "أمندسن" طريقاً آخر وقادته الفطرة إلى ما يعِّرفه ديسون بالحصافة وهي شيء من الدهاء المقترن بالحكمة وما هي إذن إلا تطبيق للحكمة التـــي يمارسها أولياء الأمور مع الأطفال. فكيف نتعامل مع الأطفال إذن؟ إننا نحتاج إلى الحصافة لتحقيق ذلك بنجاح. أي أن نكون متمتعين بخبرة وبصيرة على نحو عملي. على أية حال فكّر "أماندس" جيداً في الرحلة واختار طريقاً غير عادي وقرر أن يصطحب الكلاب. أمَّا سكوت فقد استخدم الجياد التـــي تنحدر من أصل شمالي. وصل "سكوت" إلى القطب الجنوبـــي ولكن في طريق العودة صادف

عاصفة على بعد إحدى عشر ميلاً فقط من المخيم وظل محاصراً في مكانه لمدة خمسة أيام مما أدى إلى موته هو ورفاقه جميعاً. وكان قد سجل مذكراته التـي نشرت بعد موته. إنه لمن الغريب أن نقرأ مذكرات شخص شرس ومغامر كهذا ولكنَّه يتصف بالبطولة والتصميم حتـى النهاية. يتضح ذلك من خلال المذكرات التـي تؤكد مدى صدق مشاعره ومشاعر رفقائه بخصوص الالتزام بتنفيذ الرحلة وماذا كانت تعنـي بالنسبة لهم ولبلدهم وكيف كانوا مخلصين لهذه المهمة حتـى نهايتها.

أنجز "أماندس" الرحلة ولكن سكوت استحوذ على البطولة. إن مذكرات سكوت بما احتوته من نهاية مروعة نشرت عام 1912، وتمت قراءتها من قبل الجنود الإنكليز خلال الحرب العالمية الأولى. قرأ الجنود الإنكليز هذه المذكرات خلال رحلتهم إلى فرنسا لأجل تشجعهم وشحذ هممهم. لقد نال "سكوت" شعبية بينما نسي الجميع "أماندس" كان شخص يدعي (أبسلي شيري جيرارد Apsley Cherry Garrard) قد خرج من المخيم لإنقاذ سكوت ولكنه وجد المذكرات وبعض الأشياء الأخرى ودفن ما تبقي تحت الثلج. وعلى إثر عودته فكّر جيرارد طويلاً قبل أن يكتب أي شيء عن الأمر، وعندما كتب قام بتأمل عميق بخصوص المأساة والانبهار الغربـي بالمأساة والبطولة.

لقد أوردت القصة الآن كما جاءت على لسان (فريمان ديسون) لأنه ينتابنا شعور ملحّ بمواصلة المشوار مع هذا العالم الصناعي المأساوي الذي نلتزم به رغم الثمن الباهظ الذي ندفعه في سبيل ذلك. ولكن "شيري جيرارد" في تأمله لرحلة "سكوت" قد كتب في ملاحظة نهائية تمثلت في العبارة التالية: "التراجيديا ليست مهمتنا" فقد أخفق "سكوت" أن دور المغامر هو أن يحقق هدفه ويعود حيّاً. لقد قدر "جيرارد" الجهد الذي بذل خلال الرحلة ولكنها في النهاية كانت فاشلة. أمّا "أماندس" فذهب وعاد ولا أحد يثير اهتماماً لذلك. وكما كان الأمر مع "سكوت" فقد تورطنا في نهاية مأساوية لمغامراتنا الصناعية والتجارية. ولكن حتـى في مواجهتنا للموت والفناء نتيجة لانهيار نموذجنا الضخم، فإننا نرفض أن نغير اتجاهنا الذي اخترناه.

شأننا شأن "سكوت وأماندس" نحن نقوم برحلة أيضاً. ومن خلال مسيرة الرحيل لابد لنا أن نجاهد ونكافح. ونحتاج طبعاً إلى الحصافة والطاقة الهائلة لإيجاد سبيلنا نحو تركيبة ثقافية

جديدة ذات أبعاد كونية. وقد يقول الناس إننا لا نستطيع القيام بذلك، والجواب هنا هو أنه علينا أن نقوم بذلك. لابد من التضحيات ما دام لدينا الانضباط والالتزام وما دامت لدينا قوة روحانية. إن زماننا هذا يقودنا في الحقيقة إلى رحلة مقدسة. وإذا لم ندرك الصفة المقدسة لرحلتنا هذه، فلن نتمكن من تحقيق التحولات العميقة التـــي نحتاجها. أننا نحتاج إلى تقدير الأبعاد الحقيقة لمن سيكون عضواً في المجتمع المقدس وبكل ما يحمله هذا المفهوم من معنى. إن ما أقوله هذا يشكل تحدياً يتمثل في السعي لاكتساب رؤية جديدة تخلّصنا ممّا نعانيه في أيامنا هذه. يمكن معالجة قضايا إفساد الأرض حتـــى في ظل عمليات الإفساد التـــي لازالت تحصل حتـــى الآن. يمكن عمل الكثير وهناك الكثير الذي يتحتم علينا عمله. إننا الآن وحتـــى لو كنّا نكرر قصة الماضي وندرك حقائق الحاضر، فإننا قد بدأنا فعلاً في تشكيل أبعاد المستقبل.

وسيكون على رأس قائمة أولوياتنا هذه المرة، مقاومة ضجيج السينوزويك النهائي. لقد دفعنا هذا الضجيج بعيداً عن وعينا وإدراكنا ومنعاً من النظر إلى أحوالنا نظرة نقدية تبرر وجودها أوضاعنا الخطرة المتدهورة. إن أصوات وضجيج السينوزويك النهائي يحوّل "عالم النفايات" إلى العالم الرائع العجيب "ونقوم بوصف ذلك تقدماً. وعلينا من أجل مقاومة عالم العجائب هذا أن نستعيد فطرتنا النقدية الذكية. أننا عمرنا خلال الجزء الأخير من القرن العشرين بخسوف الجانب المضلل من التقدم. إن الذين يعيشون في الجانب الشمالي من الكرة الأرضية قد تم تطويقهم واعترافاتهم بضجيجٍ منعهم من التأمل التقويمي للمرحلة التـــي يعيشها العالم. أن الأمر لا يتعلق فقط بكوننا لم نصغ لتلك الأصوات ولكنه يتعلق أيضاً بكوننا كنّا ولازلنا نتعرض لعملية إغراق تقوم بها آلة الدعاية لقيم الاستهلاك. وبذلك علينا أن نتأكد من أنه في إطار التعليم العالمي التحولي علينا أن نتعلم كيف ننتقد هذه الأصوات القوية وكيف نقاوم هذا الضجيج الذي يلفت انتباهنا إلى نمط حياة استهلاكي يدمّر كوكبنا. وإحدى مكوّنات هذا النظام التعليمي المستهدف هو استعاده الفطرة الذكية للأساليب النقدية.

الجزء الثاني

النقـــــــد

التعلم ومعضلات الحداثة: نحو رؤية إيكوزوكيه

لقد قمت سلفاً بتقييم لدور المؤسسات التعليمية في المرحلة الحالية، وأود أن ألفت إنتباه القارئ إلى المعايير التـــي أوردها "توماس بيري" بخصوص تقييم المؤسسات التعليمية "إن الحكم على المؤسسات البشرية كافة يجب أن يكون أولاً من خلال البرامج والمناشط التـــي تعيق وتتجاهل أو التـــي تنمى وترعى علاقات الإنسان بالأرض والحفاظ على جميع أنماط الحياة في إطار العلاقات الكونية" (الإتصال الشخصي Personal Communication 23/2/1990).

وإذا ما وضعنا هذه المعايير في الحسبان فيمكننا القول إذا بأن المغامرة التربوية الحديثة ببرامجها وأنشطتها بكافة ، هي قاصرة تماماً وفق مفهوم العلاقات الإنسانية الكوكبية. وهذا ليس بالأمر الغريب حيث أن المؤسسات التعليمية التقليدية كانت قد صممت لتلائم إحتياجات المجتمع الصناعي الإستهلاكي، الأمر الذي خلق إتجاهات إجتماعية تتوافق والبرامج والأنشطة التـــي همل الأرض وتعيق العلاقات الإنسانية الكوكبية. أن هذه الإتجاهات السلبية تحتم علينا إعادة تقييم أوضاع المؤسسات التعليمية والدور الذي تلعبه في أزمتنا الراهنة. لا ملاذ لنا إذن، من إعادة تقييم المؤسسات التعليمية هذه، وإذا ما أهملنا الدور التاريخي لهذه المؤسسات فلن نتمكن من اكتشاف دورها الخطير على حياتنا الكوكبية.

لقد دافعت مؤسساتنا التعليمية عن توجهات المجتمع الصناعي وشكلت جزءاً من عمليات السيطرة الممتدة التـــي تمارس على عقول الناس وخداعهم من خلال تدعيم أنماط التفكير المتمثل في تحقيق أحلام المستهلك. إن التفاؤل والتصديق لما يقال، لا يزال جزءاً من التعليم اليومي في المجتمع الصناعي الإستهلاكي. وها هو مشهد من مشاهد هذا التفاؤل وهو مقتبس من كتاب مدرسي كندي لعام 1957 حول موضوع تطوير التعليم الكندي: "بعيداً عن

لتغيرات العالمية التي لا تتعلق بنا مباشرة، يمكننا النظر إلى مستقبل مضيء للتربية والتعليم في كندا. إن الإنجازات خلال الحقبة القصيرة من تاريخنا تبدو مشجعة، وبكل تأكيد ستكون متجهة نحو الأفضل خلال المرحلة اللاحقة من التطور والنمو في كندا" (فيلبس Phillips 1957 66).

وعلى الرغم من أن تفاؤل الخمسينيات والستينيات قد انقلب على نفسه خلال السبعينيات والثمانينيات، إلا أن هذا الانقلاب لم تكن له أي علاقة بالأعراض المرضية للنظام الإقتصادي الصناعي. ورغم أن المؤسسات التعليمية تعرضت لانتقادات شديدة بسبب تهاونها لتعليم الأساسيات الضرورية لنظام صناعي مرن، إلا أنها كما حدث في الماضي وقعت كبش فداء لتبيكات التجارة المتقلبة من جديد. (أوسوليفان، كوارتر وماتيوس O'sullivan 1980; Quarter and Matthews 1987). إن المؤسسات التعليمية وقعت ككبش للفداء بسبب فشلها في الإيفاء بمتطلبات الإقتصاد الصناعي الجائر. وهذا هو محتوى الحركة الحديثة الداعية إلى الرجوع إلى الأساسيات "back to basics" (أوسوليفان O'sullivan 1980). كالقراءة والكتابة والحساب التي تعتبر من المتطلبات الأساسية لعمل النظام الصناعي.

ومع دخول القرن الواحد والعشرين، يمكننا أن نرى بوضوح كيف أصبح التقدم العلمي والتقني والصناعي مدعاة للإستغلال والإستهلاك المفرط لموارد الأرض وكيف كان ذلك باعثاً رئيسياً لأنشطة النظام الإقتصادي في القرن العشرين. قام الفيلسوف (وليام سبنسر William Spencer) بتشجيع من (كارنيجي وروكفلر Carnegie and Rockefeller). بإلقاء محاضرات في كل أرجاء الولايات المتحدة موضحاً الصلة بين "أفكار دارون" حول البقاء للأصلح وعالم الصناعة والتجارة. وصارت الداروينية الإجتماعية جزءاً الايديولوجيا المدافعة عن النظام الصناعي الذي قادنا إلى الأوضاع البيئية الراهنة. (هوفستادتر Hofstadter 1955). لقد قام الصناعيون وبدعم من سلاطنة الضمير "رجال الأعلام الحديث" بتقديم ما يصفونه بمعجزات الإستهلاك الصناعي اللامنتهية إلى هذا القرن (أيون Ewen 1976). وأدى ذلك أيضاً إلى إنغماس المؤسسات التعليمية في العمل على تحقيق طموحات النظام الصناعي الحديث. إن تاريخ التعليم والتربية الأمريكية ستتبع روح العلم والتقنية والرأسمالية إلى أعلى مستويات التعليم (نوبل Noble 1977).

إن أحد أهم المؤيدين والمدافعين على هذه البنية التعليمية، هو المؤرخ التعليمي (لورنس كريمن Lawrence Cremin 1964; 1976) الذي لاحظ أنه رغم التباين الهائل في التعليم الأمريكي، إلا أن أهدافه الأساسية تكمن في الإهتمام بخلق فرص متساوية. والتعليم وفق هذا المنظور يعرف بأنه يعطي فرص عادلة لكل المشاركين في النظام الصناعي للرأسمالية الديمقراطية. ولا يوجد في هذا المنظور التعليمي التاريخي أي تساؤل حول فشل النظام الصناعي أو فشل إفتراضاته الأساسية. وحتـــى عند إنتقاد النظام التعليمي الحديث من قبل تلامذة ومؤرخين من ذوي التوجه الماركسي (سواء كان ذلك في أمريكا، فرنسا، بريطانيا أو أستراليا) كان هذا النقد يتعلق بأن النظام الصناعي الحالي ينتج فرصاً غير متكافئة واقتناء غير متكافئ للمنتجات والخدمات الصناعية. (أبل، بورديو وباسيرون، باولز وجينتز وكونيل ديلون وكاتز Apple 1979 Bourdieu and Passeron 1977; Bowles and Cintis 1976 Connell et al. 1983; de Lone 1979; Katz 1968). إن إنتقادات هؤلاء الكتاب لا تتفق إطلاقاً مع ما يقوم به النظام الصناعي من تدمير للعالم الطبيعي، وعليه يمكننا أن نلاحظ كافة التقاليد التعليمية الغربية، وحتـــى عندما تختلف إحداهما عن الأخرى في بعض التفاصيل، فإنها جميعاً تتفق بخصوص الإفتراض العام حول ملاءمة استغلال النظام الصناعي الحديث للنظام الطبيعي من أجل الإستهلاك البشري.

وتمثلت استجاباتنا للأزمة التربوية الحالية خلال الثمانينيات في الدفع وتدعيم حدة مخطط النظام العالمي الجديد للعولمة. وعموماً فإن حل المشكلات التـــي تسببت فيها الصناعة التقنية للسينوزويك النهائي "نهاية العصر الثلثي" تمثلت في المزيد من التقنية الصناعية (إلول Ellul 1964). ومن المفروض أن يكون الحاسوب والهندسة الوراثية هي البلسم الشافي لعلل الجميع والعلاج الناجع للمعضلات كلها (ريفكن وبيرلاس، أوسليفان Rifkin and Perlas 1983; O'sullivan 1983; 1985). وإضافة إلى التقدم المذهل في مجال الحاسوب والهندسة الوراثية في هذا الأفق الكبير للسوق العالمي التنافسي، فإن السوق العالمية اليوم هي البعد الرئيسي لتعليمنا الحالي. ويطلب من المؤسسات التعليمية إعادة هيكلة برامجها التعليمية بما يمكّن الطلاب على المنافسة في إطار عولمي. تلك هي إذن مقدمة الإصلاح التعليمي والتربوي بصفة عامة. إن ربط المؤسسات التعليمية مباشرة بتلبية متطلبات الصناعة والتجارة ليس بالأمر الجديد ولقد

رأينا تزاوج التربية مع التجارة والصناعة من قبل. إنه الزواج الذي أسهم بدرجة خطيرة في تدمير عالمنا الطبيعي وكائناتنا الحية. والفارق الوحيد بين الأنشطة التربوية الحالية وما قبلها هو أن نسيطرة امتدت لتشمل مستويات عالمية. إن الجزء الأهم من عملنا يتمثل في أن نحفز أنفسنا ونستفيق من حالة التخدير الصناعي هذه التـــي أصبنا بها منذ بداية القرن العشرين.

الحاجة للإختيار بين الرؤى

إنـــي أودّ الخوض في الفرضية القائلة بأن المهمة الأساسية للتربية في وقتنا الحاضر، هي تحقيق الطموحات في رؤية عالمية موحدة تكون فيها جميع أشكال الحياة معتمدة على بعضها البعض، في التصدي لسوق عالمية تنافسية شرسة. إننا نعيش مرحلة فاصلة مشابهة للتحول الهام الذي حدث من العالم الوسيط إلى العالم الحديث. إننا نعيش مرحلة تحول كبرى ونحتاج إلى رؤية كونية يمكنها أن تحمل ثقل الوعي الكوكبـــي إلى حيث يسير اليوم. ولأجل التحرك نحو تعليم عالمي كوكبي، سيكون لزاماً علينا وجود كزمولوجياً وظيفية تتوافق مع ماستقودنا إليه هذه الرؤية التربوية. واستناداً إلى أعمال (توماس بيري Thomas Berry 1988) أشير إلى فترة ما بعد الحداثة بمرحلة "الإيكوزويك". وهذا الإختيار يمكن أن يقال عنه أيضاً وجهة نظر "تحولية" لأنه يفترض إعادة صياغة راديكالية لكافة الإتجاهات التعليمية والتربوية الحالية. إن الإطار التعليمي الملائم لهذه الحركة ينبغي أن لا يقتصر على مجرد الرؤية والتحول. بل لابد أن يتعدى تطلعات التعليم التقليدي الذي قمنا برعايته خلال القرون الأخيرة من الزمن.

السياق الكوزمولوجي

إن التعليم الحالي يعوزه كوزمولوجيا شاملة. هذه إحدى الأفكار المركزية التـــي أقوم بتطويرها في هذا الكتاب وعندما تكون التربية قد اقتبست من العلوم فإنها ركزت على العلوم الإجتماعية منفصلة عن العلوم الطبيعية. وفي غالب الأحيان كانت النظرية التربوية وتطبيقاتها تستعير من العلوم النفسية وعلم الإجتماع وبدرجة أقل من علم الإنسان. إن النظرية التربوية الحديثة تفتقر إلى الرؤية الشاملة المتكاملة التـــي عرفت في الماضي بوصفها كوزمولوجيا وبالتالي فإن النظرية التربوية الحديثة وتطبيقاتها العملية الحالية لازالت فاقدة للبصيرة التـــي

جعلت التخصصات العلمية الحديثة تتخبط خلال مرحلة ما بعد النيتونية "Post-Newtouian".

إن الفكر التربوي الغربـــي المعاصر قد حاول أن يعرِّف نفسه في الحركة الإنسانية ولكن دون تحديد كوزمولوجي مقبول. أن ما أسعى للقيام به في هذا الكتاب هو تقديم وتوضيح كوزمولوجيا يمكن أن تكون فعالة وظيفياً، حيث تقدم أساساً لبرنامج تربوي تعليمي يتضمن نظرة بيئية للمجتمع في أوسع نطاق، إلى الدرجة التـــي يمكن معها أن نسميه "رؤية كوكبية". هذه الكوزمولوجيا الجديدة في مستواها النظري والأسطوري يمكن أن تبدأ وتقود نظاماً جديداً لكينونة الأرض وبقائها إلى حقبة الإيكوزويك المتعاظمة. إننا، كما أشرت سابقاً نشرف على أواخر حقبة السينوزويك التـــي تقارب 4.5 بمليون سنة من تاريخ الأرض. إن هذه الحقبة تشرف على نهايتها ليس وحسب، في وجهها البشري ولكن أكثر من ذلك في أداء الكوكب ككل. كل الكائنات الحية يتم تحولها بكثافة منذ 65 مليون سنة مضت، إن كثافة هذا التحول الذي يؤدي إلى انحلال أنظمة الحياة على الأرض وتفتتها قد حتم علينا عدم إغفاله أو الاستمرار في إهماله.

إن بقاء الإنسان وأنواع الحياة الأخرى التـــي تقاسمنا الحياة على الكوكب يعتمد على إدراكنا لأبعاد ما يحدث للكوكب حالياً والمتمثل في تدمير الحياة الطبيعية عليه. والاعتراف بأن ما يحدث هو جريمة نكراء يعتبر غاية في الأهمية. ويعتمد هذا البقاء أيضاً على إعادة العلاقة بين عالم الإنسان وعالم الطبيعة التـــي تتميز بالمضي بعيداً عن علاقات الاستغلال التـــي يتصف بها النظام الصناعي الحالي. لابد لنا من تبنـــي تصور مختلف للتقدم والثراء يحتضن ويضمن مظاهر الحياة الإجتماعية كافة. إن المؤسسات الإنسانية وبرامجنا وأعمالنا ومناشطنا لابد لها وأن تعمل في سياق شامل للحياة بيئةً وإنساناً وحياةً طبيعيةً.

لقد حان الوقت الآن لاستحضار والإستعداد لظهور مرحلة جديدة من الحياة على الأرض يمكن أن تحدد بمرحلة الإيكوزيك. إن التحول يبدأ الآن حيث يتم النظر إلى علاقة ثنائية الدفع، بين الإنسان والعالم الطبيعي، ولا يعتبر هذا ممكناً فحسب بل لازماً وضرورياً من أجل البقاء. لقد لاحظنا ذلك في مختلف أنشطة وحركات البيئة وكذلك في حركات حقوق الإنسان والعدالة الإجتماعية. والتساؤل المطروح الآن هو، كيف يمكن للتربويين أن يتبوؤا مكانهم في هذا التحول الخطير جداً؟.

إن دور التربوي اليوم من حيث التعامل مع الأزمة الكوكبية قد صار بارزاً. فالتربويون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم ممارسين يقومون بتعليم الطلاب ليعملوا في إطار إجتماعي. وفي هذه المرحلة التاريخية فإن أغلب المؤسسات التعليمية تقوم بتعليم الطلاب وتدريبهم على المهارات اللازمة للتعامل مع حاجات مرحلة المستهلك الصناعي في حقبة السينوزويك النهائي هذه. وفي هذا الإطار يمكننا أن نقول بصراحة ووضوح بأن التعليم الحالي هو جزء من المشكلة بدلاً من أن يكون جزءاً من الحل. والمطلوب الآن هو تغيير جوهري لزاوية النظر السائدة داخل المؤسسات التعليمية لتكون قادرة على التعامل مع الحجم الكبير للمشكلات التـــي تواجهها على مستوى الكوكب.

إن التربويين لم يسبق إعدادهم لمثل هذا العمل الخطير لقد قاموا بوظائفهم التعليمية في العالم التقنـــي الصناعي الذي يشكل إرثنا المحتضر. وللتعامل مع مشكلاتنا الحالية يجب على التربويين أن ينظروا إلى عملهم في إطار تاريخي أوسع. وبما أن التربويين قد تم تشجيعهم على التعامل مع المشاكل العملية المباشرة، فقد يبدو هذا العمل التحولي التاريخي وكأنه يفوق كفاياتهم المهنية. وبالرغم من هذا التحفظ، فإننـــي أشعر بالضرورة المطلقة إلى النظرة التطورية التـــي أبرزتها في المقدمة. إن التاريخ يساعدنا على تطوير الرؤية، بل وأكثر من ذلك فهو يعيننا على تغييرها. لقد اقترحت مسبقاً، وفي إطار بيولوجي بأن كوكب الأرض يمر بنهاية مرحلة السينوزويك. وهذه المرحلة تستعجل أيامها بسرعة نتيجة لتخبط الإقتصاد الصناعي الذي فرضه الإنسان على الكوكب خلال القرون الماضية. وحقيقة الأمر الآن هي الإختيار بين السماع لأصوات السينوزويك النهائي أو تبنـــي الأصوات الجديدة التـــي تأخذنا إلى إتجاهات التعليم التحولي.

تقييم قوى التوتر السينيوزويك - الإيكوزويك

إذا كان العقد الأخير من القرن العشرين عقداً انتقالياً، كما أشرت في الفصل الأول، فمن المهم جداً تفحص القوى المتضاربة التـــي نخوضها في مغامراتنا التربوية. إننا ندرك الفترات الانتقالية مشحونة بالغموض والتناقضات. وهذا بطبيعة الحال أمر متوقع، ولكنه من الضروري أن نقوم بتقييم واضح لهذه القوى حتـــى لا نقع ضحية لتقلباتها ومنعطفاتها. ومن

الضروري أيضاً أن نمارس سلطة الإختيار عند ممارستنا للمغامرات والإتجاهات الجديدة. إن أحد الاستعدادات للمستقبل يكمن في إجراء تقييم جاد للماضي للتحقق من أن تيارات الماضي تعمل في الحاضر. لقد قمنا ببعض من ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب ولكن المزيد من مثل هذا التقييم ضروري الآن. ويقودنا هذا إلى الإتجاهات الحالية ذات الجذور التاريخية في التربية والتعليم في أمريكا.

إن تركيزي على هذا السياق الأمريكي في التربية والتعليم يتفق مع الإطار الذي وصفته لهذا العمل والذي أسميته "التميز الشمالي" وسأتفحص ثلاثة تيارات رئيسية تعمل في إطار توترات السينوزويك – إيكوزويك: وهي التكنوزويك التقدمي والعضوي المحافظ والإيكوزويك التحولي. ووفقاً لتقييمي الخاص فإن كل من العضوي المحافظ والتكنوزويك التقدمي، بكل اختلافاتهما، تبقيان بقوة في داخل الرؤية السينوزويكية النهائية. وبهذا التوضيح أرجو أن يخلص القارئ إلى أن تصنيفاتي تبرز أكثر مما تخفي وتضيء أكثر مما تضلل. والجدول اللاحق رقم 2.1 يوضح ملخص للعمل الذي سيظهر فيما تبقى من الفصل.

جدول 2.1: الرؤى التربوية

الخواص	التكنوزويك التقدمي	العضوي المحافظ	الإيكوزويك التحولي
رؤية تربوية عالمية/تاريخ	حديث	مضاد للحداثة	ما بعد الحداثة
التوجه نحو المجتمع والعالم الطبيعي	استغلالي	تقليدي	تفاعلي/استجابي
الرؤية تجاه الزمن	تطوري	ساكن	تطوري مع الزمن
النظرة للفضاء	تعددي/جمعي	عضوي/أصولي	عضوي/تفاعلي
المجاز المسيطر	آلي	عضوي/أنتروبولوجي	حيوي التركيز (دورة الحياة)
النظرة إلى الصراعات	سطحي/يعمل على التحسن	فوضوي/معاند	مبدع/خلاق
خصائص التربية المعاصرة	تقدمي	تقليدي	متصاعد/متعاظم

الرؤية التكنوزوكيه التقدمية

تاريخ الرؤية التربوية للعالم: تأثر تاريخ التعليم في أمريكا الشمالية بالسياسة الإقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية، وحتى فيما يخص كندا فإن التربية الكندية تحمل معالم الهيمنة الأمريكية التربوية مع مؤشرات الالتزام العام بتنمية "المواطنة الديمقراطية". كما يوجد التزام

تنبت بمكانة التقدم وارتباطها الكلي بالمجتمع التقنـــي الصناعي. وهذه باختصار هي فكرة رؤية التكنوزويك التقدمية. ويطرح هذا الكتاب افتراضاً مفاده، أن هذه الرؤية التعليمية تسير نحو مراحلها النهائية ولذا يطلق عليها الآن رؤية السينوزويك النهائي. وهذه الرؤية إذاً في طريقها إلى الأفول. إن المشكلة الأساسية لتركيبة هذا الحلم، هي أن مؤيديه لا يرون خصائصها النهائية. ولأغراض التوضيح والمقارنة، سأقوم بمناقشة كل الرؤى النموذجية الأصلية والتركيز على ما أعتقد أنه يشكل بعضاً من خصائصها المميزة. ولعله من المهم أن يفهم القارئ أن معالجتـــي للتوجهات التعليمية هنا، إنما هو تخطيطي عام وليس بالتاريخي الدقيق الشامل. وتتمثل وجهة نظري في أن الرؤية التعليمية لتعليم "التكنوزويك التقدمي" تظل متجددة في الحلم الحداثوي فيما يخص السينوزويك النهائي، ولابد أن تخضع اليوم لإعادة تقييم شاملة وناقدة، ولأجل الوصول إلى ذلك، لا بدَّ من البدء بلمحة عن تاريخ التعليم في شمال أمريكا.

أولاً. إن المفهوم التقدمي في تيار التكنوزويك التقدمي يتمثل في الفكر التربوي (لجون ديوي وادوارد ثورانديك John Dewey and Edwrad Thorndike). وبقراءة العمل التاريخي الذي قام به (لورانس كريمن Lawrence Cremin's 1964) تحت عنوان "*تحول المدرسة Transformation of the school*)، لا يمكن للقارئ إلا أن يعجب به لكون الفيلسوف التربوي "ديوي" وعالم النفس التربوي "ثوراندايك" كانا عند منعطف القرن من أبرز العلماء خلال مرحلة الإزدهار التـــي تميز بها اصلاح تعليم القرن العشرين. لقد استجاب كل من "ديوي وثوراندايك" لحاجات مجتمع الصناعة الحديثة والمدنية. إن أفكار وشروحات "ديوي" الإصلاحية كانت موجهة لأولئك المعنيين بالتعليم الأساسي بينما كانت مقترحات "توراندايك" موجهة لمرحلة التعليم الثانوي (كريمن Cremin 1964).

كان كل من ديوي وثوراندايك مكملين لبعضهما البعض. ومعاً قدما قالباً لرؤية تربوية أصيلة تحالفت مع حركة التقدم التـــي دفعت العالم التعليمي إلى المغامرة التعليمية لرأسمالية القرن العشرين. وبخصوص (ديوي Dewey 1963: 216) كانت فكرة التقدم لديه مرتبطة بتوأمها وهو مفهوم "التطور". "إن هدف التعليم هو النمو أو التطور عقلياً وأخلاقياً. والمبادئ الخلقية والنفسية يمكن أن تساعد المدرسة في أعظم عمليات البناء، وهو بناء شخصية حرة

وقوية. إن التعليم هو توفير ظروف تمكن الفرد من أداء وظائفه النفسية وبلوغه النضج الكامل بالشكل الأكثر تكاملاً وحرية".

وتتميز رؤية ديوي التطورية التقدمية بنبرة عصرية تتصل بتطور علم النفس المعرفي كما شهدناه في أعمال كل من (برونر وبياجه وكوهلبرج Bruner, Piaget and Kohlberg) ارجع إلى (اوسلفان O'Sullivan 1990)، وعلى سبيل المثال، كان كوهلبرغ صاحب ولاء عميق لأفكار ديوي حين طبق نظرية مراحل التطور المعرفي في التعليم والتربية.

ويمكننا فهم أفكار ديوي ومعاصريه المحدثين باعتبارهم الجناح الليبرالي للتقدمية. إن الاهتمام بأفكار ثورندايك التـــي أوردها (كريمن Gremin 1964) يأخذنا الى معلم من معالم التعليم سمِّي بـــ "العودة الى الأساسيات" "Back to basics". وخلافاً "لديوي" لم يكن ثورندايك فيلسوفاً وقد ارتبط كل عمله بالدراسات التجريبية. ونطلق عليه اليوم صفة "عالم النفس التربوي" الذي كان له أكبر الأثر في كل من النظرية والأداء في مجال التعليم، وكان أثره فعالاً في المجال التربوي والتعليمي كما كان أثر معاصره "ديوي" وقد أدى اهتمامه بالبحث التجريبـــي إلى اهتمامه بحركة الروائز التربوية في المجال التربوي - التعليمي والتـــي ازدهرت خلال عشرينيات القرن العشرين. وكغيره من المتخصصين بالقياس النفسي انخرط في برنامج مُفصَّل في تطبيق الروائز وتصنيف المتعلمين، ويبدو أن البحث النفسي لدى ثورندايك قدَّم دعمه للعديد من الممارسات التربوية في شمال أمريكا خلال القرن العشرين. وبتناسق مع نجاح "التعليم الأساسي" كان وضع ثورندايك أكثر ترابطاً مع الطرائق المنهجة التـــي ركّزت على التمرين والتكرار.

وبالنظر إلى أنماط التعلم المتبعة في أنظمة المدارس، نلاحظ أيضاً مجال تعليم الكبار ورغم وجود رواد في مجال تعليم الكبار ممن اقترنت أعمالهم بالطبقة العمالية والذي يعرف اليوم بالتعليم الشعبي. ولابد لنا من الإعتراف بأن المجال الرسمي لتعليم الكبار قد سار على نحو أهمل فيه الحركات الشعبية، الجماعات الوطنية، المزارعين وتعليم العمال. إن بعض تلك الحركات الشعبية شملت أعمالاً رائدة كتلك التـــي قام بها (موسى كودي Moses Cody) في كندا أو (ريموند وليمز Raymond Williams) في بريطانيا و(مايلز هورتن Myles Horton) في مدرسة (هايلاندر Highlander) في الولايات المتحدة الأمريكية (ويلتون Welton 1995).

ومع نهاية الحرب كانت حركات مثل هذه لم تحسب ضمن مجالات تعليم الكبار. وفي حقبة ما بعد الحرب ظهر التربويون المتخصصون من الطبقة الوسطى ممن أخذوا على عاتقهم إدارة حركة عمليات التعليم في أطر رسمية تخصصية. وتحول تعليم الكبار إلى مهنة في حقبة ما بعد الحرب. وحتى الثمانينيات وتمّ تقريباً كلياً بدون منظور اجتماعي نقدي. ويرى (مايكل كولنيسر Michael Collins 1991; 1995) في تعليقه على تعليم الكبار التقليدي كمجال خاص بأنه يتشابه مع "الإعجاب بالكفاية" وفي ضوء هذه التطورات بدأ العمل في المجال التربوي عموماً، مشغلاً بتقنيات شخصية وتخصصية وما يتعلق بالتطوير المهني. إن غالب أنشطة هذا المجال تندرج ضمن أصناف التدريس المشترك المتمثل في بعض المناشط مثل التعليم المعتمد على الكفاية وتطوير الموارد البشرية في إطار تربوي تنافسي، يتم التركيز فيه على "العقل الأداتي" باعتباره النمط الأساسي للعقلانية.

إن إتجاه تعليم الكبار خلال مرحلة ما بعد الحرب قد اعتمد كثيراً على علم النفس في كونه يركز على المتعلم الفرد. إن إثنين من أهم مصممي هذا النمط من التعلم هما (ألن تاف ومالكولم كنوليز Alan Tough and Malcolm Knowles) اللذان قاما بتطوير مفهوم المتعلم ذي "التوجه الذاتي" مركزين على الفرد كوحدة مستقلة للتحليل والدراسة. (كنوليز وتف Knowles 1986; Tough; 1981). إن التوجه الذاتــي في التعليم والتركيز على المتعلم كعنصر رئيسي في الموقف التعليمي قاد الفكر التربوي التعليمي إلى أن الفرد هو المصدر الأول لخبرته التعلمية وضمن هذا النموذج التعليمي الفردي تقدمت دراسات كل من "كنوليز وتف" حيث قاما بتطوير فكرة "التعلم بالتعاقد" وقد نال هذا النمط من تعلم الكبار شهرة واسعة وقبولاً جيداً لدى أوساط التعليم المهني. لقد تم تطبيق تعليم الكبار هذا في أماكن ومؤسسات متعددة منها المستشفيات والوكالات التجارية والسجون والمدارس العامة والكليات. ويظهر في التحليل النهائي أن هذا النمط من التعليم وقع في فخ الإطار الفردي مما يخفي عليه ديناميكية السلطة في المؤسسات. وفي الحقيقة فإن هذا النموذج من التعليم يخدم سلطة المؤسسات بوعي من المعلمين والمتعلمين أو بدونه.

ومن هذا الملخص يمكننا أن نستنتج التداخل بين القوى التقدمية في شمال أمريكا وبين التقنية وذلك واضح من خلال تاريخ التعليم في أمريكا الشمالية. ولنأخذ مثلاً، طرفي حركة

الإصلاح الليبرالي التقدمي مع حركة "العودة إلى الأسس" حيث نجد أن تعاظم دورة التجارة تقترن بالأولى بينما يقترن إنحطاط دورة التجارة بحركة "العودة إلى الأسس". (كوارتر وماتيوس Quarter and Matthews 1987).

ولعل الستينيات كانت أكثر العقود نمواً إقتصادياً. وشهدت هذه الفترة كذلك نهضة في الفكر الليبرالي التقدمي بينما أظهرت التسعينيات إقتصاداً ضعيفاً ولكنه مصاحب لخطاب ينادي بالرفع من "جودة التعلم" و"الرجوع إلى الأساسيات". إن النقد التربوي المسموع اليوم لا يتضمن أي تساؤل أصولي حول نظام المستهلك الصناعي المعاصر. إن حركة العودة إلى المبادئ الأساسية مصممة لإعداد الطلاب لمقتضيات النظام العالمي الجديد كما يمارس الآن على حلبة "سوق التجارة العالمي التنافسي" ويكمن الهدف من تعليم اليوم في تأهيل كوادر يمكنهم التنافس عبر أحلام المحيط التقنـــي العالمي.

التوافق مع المجتمع والتكيف مع العالم الطبيعي: يمكننا أن نخلص إلى أنه خلال القرن العشرين كانت النظرة التكنوزوكية التقدمية متحالفة مع النظام التكنولوجي للدولة المعاصرة. وأوضح صور العصرنة تتمثل في السوق التجارية العالمية التنافسية الجديدة التـــي تبشر بها الشركات متعددة الجنسيات. كما نجد المدارس تعد الأرضية لهذا النظام الإقتصادي الصناعي الجديد. ويعنـــي ذلك أنه "على المدارس أن تعد متعلمين جدد يكونون قادرين على التنافس في المجتمع العالمي الإقتصادي الجديد". ولا توجد أي تساؤلات بخصوص قدرة الكوكب على تحمل أعباء هذا التوجه. إن هذا الموقف يقبل دون انتقاد ولا تقييم بمتطلبات هذه السوق العالمية فيما يخص التنافس والإستهلاك. ويتسم هذا الموقف، بالنسبة لعالم الطبيعة بالاستغلال المفرط الذي لا تحمد عقباه. ويبدو أن حياتنا الإجتماعية والإنتماء الوطنـــي ينبغي أن يتم توجههما نحو ملائمة السوق التجارية العالمية. ولا يوجد أي تساؤل جدي فيما يمكن أن يؤدي إليه، سوق التجارة العالمي هذا من نتائج سلبية ومدمرة للبيئة الطبيعية. أما بخصوص تنمية وتطوير الحياة الإجتماعية المحلية وإدراك مدى التأثير الإيجابـــي العميق لهذه المجتمعات على نوعية حياتنا. فإنه من الناحية التاريخية، كان لهذا النموذج التكنوزيكي التقدمي للتغيير مكانة كبيرة منذ إنهيار أنماط المجتمعات التقليدية. إن فكرة المجتمع السوقي لها جذورها في

رؤية القرن التاسع عشر، وتتضح القواسم المشتركة لذلك التناغم من ملاحظات كل من (هولاند وهيبريوت Holland and Henriot 1984: 24). "إن مثال المجتمع المتوازن في القرنين التاسع عشر والعشرين في أوربا وأمريكا الشمالية كان يتجسد في بيئة السوق حيث تتفاعل الأجزاء غير المتصلة على نحو تنافسي عبر "مشروع حر" هو (الإقتصاد) وديمقراطية ليبرالية هي (السياسة) وفكر حر هو (الثقافة)".

ونصراً لاحتباس الرؤية فإن إتجاهها التكنوزوكي التقدمي داخل "حلم السينوزويك النهائي"، فإن إتجاهها نحو السوق التجارية العالمية تسبب في إهمالها لآثار ذلك الإتجاه على البيئة عامة ومقتضيات البيئة الطبيعية التـــي نعيش فيها على وجه الخصوص. وبإختصار شديد، فإن اللهث وراء سوق تجارة تنافسي، يجب النظر إليه اليوم في ضوء التناقض مع وجود موطن طبيعي حيوي وهو إهانة كبرى للعالم الطبيعي. إن حياة المجتمع المحلي في عالم المجتمع الإقتصادي ليس هدفاً في حد ذاتها ولكنها وسيلة للهدف الأكيد وهو السوق العالمي الإستهلاكي التنافسي. ولذا تطور السوق التجاري العالمي مواز لحدوث دمار شامل للحياة الإجتماعية على المستويات المحلية (ديلي وكوب Daly and Cobb 1989). إن "العالم العجيب" لهذا المجتمع العالمي التنافسي قد أصبح عالم خراب وتدمير لعالم آخر مدمر وهو الحياة الإجتماعية المحلية.

النظرة إلى الزمن: يتصف منظور التكنوزويك التقدمي بعقلية "القدر المتجلي" حيث توضع مفاهيم مثل النمو والتطور والتنافس في إطار تطوري والخط الزمنـــي لهذا المنظور خطي وتطوري أيضاً. وفي ذلك نوع من التجلي القدري وأفضل الإتجاهات هو احتضان التغيرات التـــي يمليها القدر. وينظر إلى التغير على أنه تقدم يسير وفق سلسلة متصلة حيث تقوم المجتمعات دائماً بالتحرك التدريجي إلى الأمام وإلى الأعلى. وكما قال (رونالد ريجان Ronald Reagan) في إعلاناته لشركة (جنرل إلكتريك General Electric) منذ زمن مضى "التقدم هو أكثر إنتاجنا أهمية". هذا التقدم إلى الأمام وإلى الأعلى للتاريخ عادة ما يضيء الماضي. والماضي هو عدو المستقبل. وهذا هو مفهوم التقدم في فكرة "النموذج التقدمي". فالتقدم في شكله المعاصر هو التحرك نحو السوق التجارية العالمية التنافسية.

النظرة إلى الفضاء: إن الفكرة المهيمنة للفضاء داخل رؤية التكنوزويك التقدمي يمكن وصفها بـ "التعددية" وتعنـي التعددية هنا عدم وجود كل متكامل متصل يتحكم في كل جزء من أجزائه. بل يرى هذا النوع من الإدراك بأن كتلة من الأجزاء المنعزلة تعمل بحرية. ونتحدث نحن هنا عن كون متعدد بدلاً من كون واحد. وهذا التعدد يولّد في أساسه الفكرة الأساسية "للتنافس": مجالات وظيفية متمايزة وغير مترابطة (مثل الاقتصاد، السياسة، الثقافة).

ويتم قيس هذا النموذج من الرؤية. إدراك أن "الرخاء العام" ليس الهدف المباشر للإهتمام الإجتماعي ولكنه نتاج غير مباشر للتحقق الذاتـي لكل الأجزاء. ومن الناحية الإقتصادية، فإن ثمة يد خفية تقود التنافس في نظام السوق الحرة وتعمل لمصلحة الجميع. ومن الناحية السياسية فإن الأجزاء تتدافع كمجموعات مصلحية أي كل مجموعة تعمل لمصلحتها. أما من الناحية الثقافية فهم يعبرون عن أنفسهم من خلال الفكر الحر. ووفقاً لهذا المنظور، فإن المجتمع السليم هو الذي يتميز بالفردية والإبداع ويتعدى على سوق تنافسية توسعية (هولاند وهينريوت Holland and Henriot 1984: 29).

وفي إطار المذهب الذري التعددي هذا، فإن دور النظام التعليمي هو إعداد المتعلم للسوق الجديدة الصاعدة والمتوسعة إلى ما وراء حدود الدولة القومية، وحيث نطاق الشركات التـي تتجاوز الحدود المحلية والقومية.

المجاز المتميز: إن الآلات كنظير أو مثيلاً مكّننا من فهم السلوك الإنساني، وسلوك المؤسسات جزءاً من نسيج الشرح العلمي والإجتماعي لآلية العمل العالم المعاصر. إن التفسير الميكانيكي يعتمد على أسس التحليل للمذهب الذري، الذي يرى بأنه يمكننا فهم الكل في إطار مجموع أجزائه المنفردة. ومثال ذلك إمكانية فهم بنية الساعة وآلية عملها إذا فككتها وأعدت تركيب أجزائها. ويرى بعض النقاد من أنصار البيئة بأن النظر إلى العالم من خلال رؤية ميكانيكية هو أحد أهم عوامل إنهيار العلاقة مع عالم الطبيعة (بيرمان وميرشنت ;Berman 1981 Merchant 1980). ويمكننا كذلك إدراك كيفية عمل مجاز النظرة الميكانيكية (المذهب الآلي) على مستوى تنظيم المدارس من خلال تفحص الكثير من مجالات التطور الذي حققته المنظمات البيروقراطية الحديثة التـي أسست وفقاً لوجهة نظر غير عضوية لكيفية إتصال عناصر المنظمة مع بعضها البعض ، حيث لا توجد علاقة فعلية للأجزاء وإنما تشد هذه

الأجزاء إلى بعضها البعض بفعل التنظيم السلطوي والتقسيمات الأفقية غير المترابطة.

الموقف من الصراع: رغم ما يتسم به التنافس الخطابي والمواجهة من أهمية، إلا أنه عندما يتعلق الأمر بالتساؤل حول المعتقدات الجوهرية لهذه الرؤية. فإننا نرى تركيزاً إيجابياً على التطور التدريجي. لذا فإن أي من هذه التحديات التي تبدو وأنها تدعوا إلى الصراع فيما يخص سطوة هذا النظام الفكري، تعتبر غير ضرورية وبالتالي فهي في حقيقة الأمر ظاهرية فقط. وعندما يقوم الإيكولوجيون بانتقادات جوهرية تمس سيطرة إقتصاد السوق العالمي بإعتباره مدمراً لوظائف المحيط الحيوي، فإن هذه الانتقادات تتم مواجهتها بوصفها مندفعة ومتطرفة ومبالغ فيها. ويدَّعون وجود علاج لكل شئ في هذا النظام وأن كل ما تم إحداثه يمكن إبطاله حسب زعمهم. فالتقنية لديهم، قادرة على حل المشكلات التي خلقها الإبداع التقني. وفي إطار المجال الواسع لخط التفكير هذا يبلغ التحمل والإستيعاب درجة الصفر فيما يخص النقد والصراع الذي يتحدى استقامة وتكامل هذا النظام. وعليه فإن مجتمعات كمجتمعاتنا يتم فيها السيطرة على كامل مساحة الصراع الإجتماعي من قبل السياسيين ورجال الأعمال وأخيراً المعلم التربوي الذي يعمل كجندي مدافع عن هذا النظام. إن التعامل مع تحدي الصراع الإجتماعي وإبقائه عند مستوى التغير السطحي هو الشرط الضروري للفكر الليبرالي التقدمي. وفي داخل هذا النظام تكون أكثر القوى الإجتماعية تأثيراً هي الجمود والقصور الذاتي. إن العلم والتكنولوجيا في نظرهم قادران على تذليل ما يصفونه "أزمة بيئية مبالغ فيها" وعادة ما يعبرون عن ذلك وفق رؤيتهم الخاصة بقولهم، "ما هي المشكلة".

الخصائص التربوية المعاصرة: إذا ما نظرنا إلى تعددية هذا الفضاء التعليمي. فإن الإتجاهات التعليمية تتنوع بدرجة تعيق إتصال بعضها بالبعض الآخر. وإن السمة العامة الوحيدة المشتركة بينها هي كونها جميعاً تقبل دون إنتقاد إتجاه التغير التعليمي الذي يقودنا إلى السوق العالمي التنافسي. إن التقنيات متغيرة كما هي مجزأة. وبالنسبة للتربويين في إطار التنافس العالمي، فإن لديهم مجالاً عالمياً يقدم لهم التقنيات والتوجهات. فمن الناحية النظرية لدينا منطقة صاعدة للنظرية التربوية التي يطلق عليها أتباعها أسم "العلوم المعرفية" وإن العلم

المعرفي هو مزيج من البحث والنظرية وجزئياً فرع من أبحاث ما بعد - بياجه (Post- Piagetian) إضافة إلى ربطها بمجموعة من التطورات الحديثة في مجال الحاسوب. ويمكننا القول فيما يخص التعليم بوجود افتراض يشير إلى أن تحسين التعليم يرتبط بمعرفة متطورة عن الذهن. إن تطوراً محدداً لهذا النمط من العلوم، ما هو إلا محاولة لخلق روابط بين مجالات علم النفس المعرفي والمحاكاة بأنظمة الحاسوب، ويزودنا (ألريك نيسر Ulric Neisser 1967) بمؤشر جيد على استخدام الحاسوب في إطار المجاز الآلي كدليل على مدى الإستيعاب الإنساني، حيث يرى بأن مهمة عالم النفس أن في محاولته لفهم عملية المعرفة لدى الإنسان مماثلة لعمل شخص في محاولته لاكتشاف كيفية برمجة الحاسوب، وخاصة تلك البرامج التـــي تقوم بتخزين وإعادة استخدام البيانات مما يؤدي بالباحث إلى محاولة التعرف على ماهية هذه العمليات أو الخطوات التـــي تمكن من الوصول إلى ذلك. وبطبيعة الحال حدثت تطورات هائلة في مجال علم المعرفة يمكن تقييمها على مدى العشرين عاماً الماضية. كما أن هناك شكوك متزايدة حول عدد من المحاولات التـــي تستهدف محاكاة الجهاز العصبـــي للإنسان من خلال المقارنة بالنماذج الآلية (أوسليفان O'Sullivan 1983). ولأغراض بحثنا هذا، فقد نكتفي بأن نقول أن هذا الإتجاه بأكمله يتقدم بكل تنوعاته وفق تصور مفاده بأن العقل أو الجهاز العصبـــي للإنسان يكون منفصلاً تماماً عن عالم الطبيعة. ولذا يبقى العقل حبيساً في حدود التفسير الديكارتـــي (نسبة إلى ديكارت) الذي يسمو بالعقل عن الطبيعة بدلاً من وجوده كجزء من العالم الطبيعي. ويوجد كذلك ميل داخل هذا الإتجاه يدعو إلى تجاوز الإنجازات المادية للعقل، كخلق آلات مثل الإنسان الآلي "Robots". ونرى هنا مرة أخرى تركيزاً صاخباً مفاده أن "الطبيعة لم تفلح في إنجاز العمل كما ينبغي أول مرة". وجدير بالإشارة هنا إلى بعض الخواص الإيجابية في بعض إتجاهات العلوم المعرفية. وعلى سبيل المثال، يغامر المؤرخ الثقافي (وليم أروين تومسون William Iriwn Thompson) بإتجاه أكثر تركيزاً على الحياة الطبيعية في العلوم المعرفية من خلال سلسلة من المقالات التـــي سماها (جيا Gaia): *طريقه للمعرفة* *A Way of Knowing* 1987. ويحاول "تومسون" ربط أعمال (غريغوري باتسون Gregory Bateson) في *خطوات في إيكولوجية* *Steps in an Ecology of Mindd* 1972 *العقل في الطبيعة* 1980 *Mind in Nature* وتشير هذه الأعمال المعاصرة إلى موقع العقل

'المخ' كساء آلي معموس في عالم الطبيعة. إن هذه إحدى المحاولات لتحديد إتجاه علم المعرفة رؤية حيوية بدلاً من التمركز حول التكنولوجيا. إن هذا التوجه المتنامي لم يتبوأ مكانة هامة على مسرح الأحداث بعد ولازالت العلوم المعرفية التقليدية مهيمنة على مسرح الأحداث.

إن تقديري العام لعلم المعرفة يكمن في أنه لا زال يواصل إعتبار العقل خارج نطاق الطبيعة وأنه يتضمن غروراً صاخباً يجره إلى تصور تستطيع فيه قدرة العقل البشري على إصلاح الطبيعة من خلال تطور تكنولوجية العقل البشري. وفيما يخص هذه التكنولوجيا، فإن إقتران المخ بتقنية الإنسان الآلي تستوجب منا الحذر الشديد (ماندر Mander 1991).

وبعد هذا الطرح الخاص بعلم المعرفة، لعلنا نلاحظ أن أكثر إتجاهات ونظريات وأبحاث علم النفس التربوي تداولاً هي تلك التـي تمتدح نـزاهة الرؤية القائلة بأن المتعلم يكون مستقلاً عن عالم الطبيعة. إن علم المعرفة هو واحد فقط من التجديدات الكثيرة في مجال البحث التربوي مما يتنافس على نيل اهتمام التربويين الذين يسعون لإيجاد حلول تقنية متتالية للتعامل مع الفاعلية المتدنية للمدارس من حيث تأثيرها في حياة الطلاب على كافة المستويات التعليمية. ووفقاً لهذا التصور يأمل المعلمون دوماً بأن العلاج الجديد هو العلاج الحقيقي. ولذلك عادة ما نجد استعراضاً مستمراً لوسائل الخروج من معضلات البقاء في السينوزويك النهائي. الجميع يقومون بأنشطتهم الخاصة تحت ستار أن تقنية ما سيتم إستحداثها من خلال مداومة الأسس العلمية وستسهم في تقدمنا الذي لا يجب إنتقاده ما دام إتجاهه تكنولوجياً. هذا هو نمط التقدم، وهذا هو التقدم المرغوب فيه من قبل النهضة التقليدية للعلم والتكنولوجيا. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: ماذا لو كان التقدم المفاجئ مساهماً في "الإنهيار والتدمير بدلاً من العلاج والتماثل للشفاء"؟. وفي هذا الصدد، يقوم (س. أ. باورز C. A. Bowers) بملاحظات نقدية هامة حول استخدامنا غير المتدبر للعلم والتقنية في مجالات التربية والتعليم:

إن العدد الهائل للتقنيات التـي يتم الدفع بها في مجال التعليم بحجة أنها ضرورية للنمو المهنـي لها أثر آخر، وهو ضمان منحى عدمي "nihilistic" حيث يبدو كل شئ ذو قيمة متساوية. وبدون فهم أعمق يسمح بوضع المشكلات والتوجهات والتقنيات في إطار أكثر تدبراً، فإن كل تقنية ستفقد تميزها، خاصة حين يبدأ المعلمون في إدراك أن كل عام يأتـي بإنشاءات ومبتكرات جديدة تكون أكثر تقنية

وتسهم في تكوين مهارات تعليمية أكثر تقدماً. وما يمكن أن يكون مفيداً من حلال ورش العمل السابقة مثل برامج التعلم الذاتـــي أو أهداف الأداء التعليمي هو اختفاء مثل تلك البرامج من حطة عمل الورش التعليمية نتيجة لاستحداث مواضيع جديدة وإضافتها إلى الخطة السابقة (باورز Bowers 1993b: 86-7).

ويستمر "باورز" في انتقاء التقاليد التكنولوجية التقدمية في التعليم لقصورها التام عن إدراك الأزمة الإيكولوجية. وفي حديثه عن إنتشار التقنيات، فهو يؤكد على قصور نظرتها الإيكولوجية ويقول:

إن قصور النظرة الإيكولوجية هذه، تصبح جزءاً من تنويم مغناطيسي محترف، حيث لا يتم ولا يمكن أن يتم إدراك أو إستيعاب الأحداث التـــي تجري في العالم الكبير خارج الفصل الدراسي، وتفقد تلك الأحداث المروّعة صلتها تماماً بما يحدث داخل الفصل الدراسي ويتأكد هذا من خلال عدم القدرة على ربط الأحداث الإجتماعية والبيئية بالتقنيات المستخدمة في التعليم. وكيف يستطيع المعلم أن يربط فقدان الغطاء النباتـــي للأرض مع تقنيات الفصل الدراسي المشتقة من البحث حول الدماغ في الجهاز العصبـــي للإنسـان. أو كيف يمكن إقتران قاعدة الإحتباس الحراري الذي يسبب في إرتفاع درجة حرارة الأرض مع التفاعل الصفي والإدارة الفعالة للفصل الدراسي (باورز Bowers 1993b: 87).

إننا كتربويين لم يعد بوسعنا أن نواصل هذا المسار دون انتقاد. والانتقادات أصبحت تنهال على مثل هذه التوجهات التربوية الحالية من عدة دوائر. وأحد هذه الدوائر الناقدة هي دوائر النقد المحافظ للتعلم المعاصر. وهذه هي الرؤية أو التقليد الذي نلتفت إليه الآن.

الرؤية المحافظة

كان دائماً هناك ردود أفعال تجاه الرؤية الحداثوية لتطور التقدم. وحتـــى في بداية المرحلة الصناعية بكل بهجتها كان هناك منتقدين لمشروع الحداثة المتمثل في الصناعة التقنية للسينوزويك الأخير. إن الشعر الرؤوي لـِـ (وليم بليك William Blake) يضج بالإنتقاد لكل من عصر التنوير والمعتقدات الأساسية للثورة الصناعية. كان هناك أيضاً ردة فعل قوية مناوئة للحداثة والإتجاهات التاريخية لها. وكان لردود الأفعال هذه عدة منعطفات وظلال، حتـــى أنها تجمع في بعض الأحيان بين الغرباء من حيث الرؤى وأنماط التفكير. إن القاسم

المشترك بين جميع ردود الأفعال ضد نموذج التقدم الصناعي، هو اشمئزاز من بعض المظاهر السلبية لمعالم الحديث إضافة إلى الاشتياق إلى الماضي. هاتان السمتان المشتركتان للحركة المناوئة للحداثة تتحداه الرؤية المحافظة الرومانسية. وسيتم التركيز الآن على المحور المحافظ حيث أنه التشكل الأكثر سيطرة على السياق التعليمي المعاصر.

يسعى الإتجاه "المحافظ" إلى المحافظة على القوى والمؤسسات التـــي أهملتها تطورات الحداثة. وتنطوي ردة الفعل المحافظة أحياناً على موقف النخبوية والطبقية حيث تقوم محاولات لمعارضة بعض الإتجاهات الديمقراطية التـــي تبناها العالم الحديث. ومن أمثال هذه المعارضة، تلك التـــي تبنتها مؤسسة الكنيسة الكاثوليكية والتـــي كانت من أشد المعارضين للحداثة في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. إن الإنتقادات المضادة للحداثة، ترى في الحداثة قوى هدامة لقيم المجتمع التقليدية كنظم السلطة الإجتماعية والخضوع للضوابط والعادات التقليدية، وبالتالي فإن أحد أوجه النقد المحافظ للحداثة كان متمثلاً في رؤيتهم لوجود تآكل "المفهوم المجتمعية". والوجه الآخر لردة الفعل تجاه الحداثة يلقب بالثورة الرومانسية. وهي شديدة الإنتقاد للأبعاد الحديثة للعلوم والتكنولوجيا التـــي أدت إلى تبنـــي أفكار غير مضمونة العوائد. هذا الإنتقاد الموجه ضد العقلانية يتمركز حول الفكر الحديث في إشارته إلى الخطأ في إدماج العواطف في تطور الفكر. ويوجد إنتقاد آخر يستهدف فقدان مفهوم إدراك الجسد وإعتبار العقل شيئاً مادياً متميزاً ومنفصلاً عن عالم الطبيعة، مما يؤدي إلى استثناء العمليات العضوية الحيوية من خلال الرؤية الآلية للعالم. ووفقاً لرؤية الجانبين المحافظ والرومانسي يبقى النقد الموجه للحداثة مستمراً وخاصة من وجهات النظر المحافظة. فالمحافظون الرومانسيون يمتدحون فضائل الماضي بمؤسساته وتركيبته ويعتقدون بأنه لا شئ يفلح كما أفلحت الأشياء في الماضي.

تاريخ التوجهات التربوية في العالم: لا شئ يوضح خضم الكتابة المحافظة والرومانسية حول التربية والتعلم، أفضل من كتابات المؤرخ الثقافي (هنري أدمز Henry Adams) الذي كتب وتأمل كثيراً في رحلة وصولنا إلى القرن العشرين. وفي سلسلة من المقالات نشرت تحت عنوان "تعليم هنري أدمز ([1918]1931) Henry Adams" قام بتأمل الخصائص السلبية

المحتملة للإبتكار الصناعي التقنـي الديناميكي الذي شهده في تطور تقنيات الآلات التـي كانت موضع ثناء كبير في المعرض الدولي لعام "1896". كان مؤرخاً للثقافة الأوربية في العصر الوسيط ويمكننا أن نلحظ في كتابته توقاً إلى الماضي المفقود عبر التحول عن تركيبة العالم في القرون الوسطى. يشير جوهر كتاباته – كغيره من نقاد الحداثة – إلى شك عميق نحو الإتجاهات المتعددة لروح الحداثة. وفي القرن العشرين ظهرت أشكال جديدة لتوجهات الحداثة، ودائماً كانت هناك ريبة عميقة بشأن التطورات التـي شهدها التقنية الحديثة. لقد لاحظنا ذلك في عدة كتابات منها كتابات (جاك أيلول Jaques Ellul 1964) و(جورج جرانت George Grant 1983) التـي وجهت شكوكها إلى التحول الديمقراطي للجماعات والمجتمعات كما تُلاحظ في كتابات (أورتيجا ي. جاسيت Ortega y Gasset 1957) التـي اعترضت على الإتجاه العام للتربية والتعليم نحو الأهداف المهنية التقنية. وفي السياق الأخير نرى التعليم يواجه بالنقد بسبب التحامه مع قوى العالم الحديث في الصناعة والتقنية ويكيف ظروفه لاحتياجاتها. وفي تعريفه للتعليم الليبرالي يزودنا (روبرت مينارد هوتشنـز Robert Maynard Hutchins) بتعريف "للتعليم الليبرالي" ويعطينا تصوراً حول أسباب الإشكال في التعليم المعاصر.

ما هو التعليم الليبرالي؟ إنه لمن السهل أن نقول عنه ما ليس فيه. إنه ليس تعليماً تخصصياً، ليس تعليماً مهنياً ولا مهارياً أو إعداداً للمهنة أو للقيام بأي عمل محدد. إننـي منساق إلى القول بأنه تعليم لا يمكن لأي أمريكي أن يحصل عليه في مؤسسة تعليمية اليوم. فنحن جميعاً متخصصون اليوم. وحتـى في المدرسة الثانوية يوجهوننا إلى التفكير في عمل المستقبل وكسب العيش، وللحصول عليه لابد من شروط معينة تعدنا وتوصلنا إلى تحقيق ذلك، وهذه الشروط هي معنويات التعليم وغذاؤه. إننـي أخشى من أنه سيكون لزاماً علينا أن نعترف بأن العملية التعليمية في أمريكا، إما أن تكون طريقة ممتعة لشغل الوقت إلى حين نكون مستعدين للعمل وإما طريقة تعدنا لوظيفة أو مهنة معينة أو هي مزيج من الاثنين معاً. إن ما نفتقده في تعليمنا الحالي، هو ما يعلمنا أن نكون بشراً. أنه التعليم الذي يتيح لنا فرص استغلال قدراتنا البشرية بأكبر قدر ممكن. وهو كذلك التعليم الذي يمكننا من تحمل مسئولياتنا كأعضاء في مجتمع ديمقراطي. إن التعليم المفقود هو تعليم من أجل الحرية (هتشنـز Hutchins 1959: v).

وأين نذهب للحصول على هذا النوع من التعليم الليبرالي الذي يفرضه هذا التقليد

المحافظ؟ وأي إتجاه سنلكه للحصول عليه؟ ويقترح "هتشنز" بأننا سنعثر على ذلك النوع من "التعليم في الكتب العظيمة للعالم الغربي". وعندما نتمعن في أمر الكتب "العظيمة"، ندرك للتو بأنها جميعاً من تأليف جنس الذكور. ونرى بأن الرحلة إلى ماضينا محددة فقط بالماضي الثقافي العربي وهو ماضي خال من النساء. ويبدو بأن لهذا الإتجاه بالذات صدى كبيراً في الوقت الحاضر وعلى نحو يظهر واضحاً في الإهتمامات الحديثة. جاء في كتاب (ألن بلوم Alan Bloom's) الذي كتبه تحت عنوان *"إنغلاق العقل الأمريكي The closing of the American Mind 1987"* والذي يجسد أهم أحدث "الكتب التقليدية العظمى" للعالم الغربي، وعلى لسان أحد نقاد هذا الكتاب ما يلي: "إنه يعتقد بأن التساؤلات حول محتوى التعليم (أي المناهج curriculum) قد حلت من زمن بعيد وربما منذ عصر أفلاطون ولكن بالتأكيد ليس بعد (نيتشه Nietzsche)" (أور Orr 1992: 97). ورغم تعزيز "بلوم" لحياة الفكر عبر الأعمال الكلاسيكية للأدب الغربي، إلا أنه يشن هجوماً شرساً على ثقافة الشباب الأمريكي. وحسب رأيه فهي ثقافة قاصرة أخلاقياً وفكرياً وتعتبر ثقافة راكدة. وقد أشار إلى هاتين الخاصيتين كمثال فقط ولكنه يرى بأن الثقافة الشبابية تتضمن كثيراً من الخصائص السلبية وهو يكره بشدة ذلك النمط من الثقافة. ومن خلال هذه التحفظات المعاصرة لأهم المؤلفين الغربيين الذكور المحافظين، يمكننا استنباط هذا النقد الموجه، حقيقة إلى المؤسسات التعليمية الحديثة حيث لا يوجد أي تساؤل بخصوص العدالة الإجتماعية أو الفقر أو الإنحلال الإيكولوجي أو العبث المفسد للعقل البشري إضافة إلى إهمال المظاهر الطبيعية المنظورة. إن الكاتب كسابقيه في هذا التقليد يعبر عن تمركز أوربي مستغرق غير متدبر ومقترنٌ بتعصب جنس كما يعبر عن ذلك الناقد نفسه قائلاً:

مما هو معترف به على نحو شاسع، يتمثل في كلاسيكيات التقليد الغربي وقصورها في مجالات متعددة، منها كونها انبثقت من قبل ذكور بيض مما يستثني الجزء الأكبر من الخبرة الإنسانية. إضافة إلى أن عدة مشاكل تتعلق بهذا التقليد لم يتم حلها بنجاح. إما لكونها حديثة المنشأ أو أنها لا تعتبر ذات أهمية. ومنها مسألة الدور الإنساني في عالم الطبيعة. ومهما كانت خصائص الطبيعة الإنسانية فإن الثقافة الغربية لم تقدم الكثير من التنوير والوعي فيما يخص العلاقة المناسبة بين الإنسان والبيئة (أور Orr 1992: 98).

إن هذا لا يعني أن وجهة النظر المحافظة لا تتمتع ببعض المزايا فيما يخص التعامل مع الأزمة الإيكولوجية الحالية. ومثال ذلك قيام (س. أ. باورز C. A. Bowers 1993b) بتحديد مسارين للمحافظة، إحداهما تتمثل في التمركز الإنتروبولوجي وتوصف الأخرى بكونها الإجتهاد إيكولوجي. لقد جاء في تصنيف (باورز Bowers) بأن تقاليد "أدلر وبلوم" تقع ضمن التمركز الإنترويولوجي، وهو مثلي ينتقد هذا التوجه. ويعرف التقليد المحافظ الآخر بتسميته "المحافظة الإيكولوجية" ويواجه هذا التقليد نقداً ثقافياً شديداً من قبل الرؤية التقنية الحديثة بسبب تأثيراته على البيئة الطبيعية. (باورز Bowers 1993) ويذكر أسماء (أدوارد شوماخر، وندل بيري وجاري سنايدر Edward schumacher, Wendell Berry and Gary Snyder) كنماذج لهذا التقليد. وأنا لا أناقش هذا التوجه هنا، والذي يعرّفه "باورز" على نحو صحيح من خلال وجهة نظر ذات توجه إيكولوجي لأن المؤلفين في هذا الخط الفكري لم يتناولوا مسائل التعليم بمعناه الرسمي. وفيما يخصني أنا، فإنني أعتبر هذا التقليد متمشياً مع ما سأطلق عليه لاحقاً "الإيكوزويك التحولي" وهو إتجاه سيكون له بالتأكيد مناصرين من عناصر المحافظة الإيكولوجية.

التوجه نحو المجتمع وعالم الطبيعة: يتصف الموقف المحافظ بتوجه إيجابي نحو عالم الطبيعة ويتسم بكونه ميال للتمركز الإنتروبولوجي وتقليدي في آن واحد. يتسم بالتمركز على الإنسان لأنه يحدد الأهداف التعليمية كافة في العقل البشري. وبذلك يكون الإثراء التربوي محمي بقوى الرعاية الفكرية الإنسانية. إن من أهم وظائف التعليم هي توفير الحوافز التربوية لإثراء العقل البشري. وعلى مستوى التنظيم المدرسي (إضافة إلى مجتمع المدرسة) توجد رعاية لبنى المجتمع التي تأسست على التقاليد والتسلسل الهرمي. ويقترح (أدوارد وين Edward Wynne) الذي يصنف نفسه من ضمن المحافظين قائمة من "القيم التقليدية" التي يرى ضرورة إدماجها ضمن أولويات التعليم الحديث، ويراها كالتالي:

1) تقبل التسلسل الهرمي التقليدي.
2) سيطرة الأقوياء الراشدين وضبطهم للأطفال والمراهقين.
3) أولوية الأهمية تعطي للسلوك الجيد المباشر مقابل الاستنتاج المنطقي الأكثر تفصيلاً.
4) تركيز كبير على حياة الكينونات المجتمعية.

5) تقدير واحترام معارف وعلوم الماضي.

6) تخصيص جزء من الحياة للمناشط المقدسة تتعدى التركيز على الأنشطة اليومية من بيع وشراء وإنتاج.

7) المساواة بين الجميع واحترامهم كأعضاء في المجتمع وكأبناء الرب. بغض النظر عن الفروقات في ظروفهم الزمنية أو المادية أو العقلية (Wynne 1987: 130–2).

ورغم أن هذا التقييم الخاص للقيم المحافظة التقليدية الذي أورده "وين" قد لا يجد قبولاً عالمياً إلا أن بعض عناصره تنطبق على الجميع. أولاً، يوجد اشتياق إلى الماضي الذي يحتفظ بالنظام من خلال التسلسل الهرمي. ثانياً، يوجد المقدس في المجتمع البشري فقط. ثالثاً، ليس هناك أي اعتبار لتأثيرات المجتمع البشري على البيئة الطبيعية. رابعاً، المجتمع البشري محكوم ومضبوط على أحسن ما يكون الضبط بتقاليد الماضي. ويعتقد الكاتب بأن الخروج من الوعكة الحالية يكمن في الرجوع إلى تقاليد الماضي والأديان التـــي أنجبت الثقافة الغربية.

النظرة إلى الزمن: الزمن وفق منظور العالم المحافظ يعتبر دائري جامد. وفي داخل هذه الرؤية للزمن أساس بيولوجي عضوي للسلطة الزمنية الجامدة. ويتبلور هذا الإعتقاد من كون الأشياء لا تتغير في المجتمع على نحو جوهري أو تحولي. إن التغير لديهم، هو حلقة تتكرر وفق أنماط من النمو والتدنـــي والسقوط. مثل الميلاد – النضج – الموت... إلخ. إننا نلاحظ هذه التغيرات في إيقاعات الطبيعة مثل تعاقب فصول السنة. وبما أنه لا يوجد في التاريخ إتجاه إلزامي إلى الأمام، كما هو الحال في وجهة النظر التقدمية، فلا داعي لوجود رغبة في خلق مستقبل رائع. إن الحاضر هو مراعاة مجهدة لأفضل ما هو عتيق. وبالتالي فالاهتمام بالماضي التقليدي ظاهرة واضحة في كل مكان.

الرؤية الفراغية للفضاء: إذا كان المنظور التقدمي للفضاء يعتمد في التكوين الذري المؤلف من إجراءات بسيطة كثيرة ذات خصوصية، فإن المذهب المحافظ يقول بوجود ماهوية عضوية. وأعنـــي بالعضوية هنا، رؤية مفادها أن المجتمع هو نوع من الوحدة العضوية حيث أن المجتمع ككل أعظم من مجموع أجزائه. وأقصد "بالماهوية" وجود ماهيات بنيوية عميقة تؤثر في كل العمليات الإجتماعية. إن جزءاً كبيراً من نظرية القانون الطبيعي يمثل فكرة وجود ماهيات بنيوية عميقة تشكل تعقيدات المجتمعات البشرية.

المجاز البارز الظاهر: يهيمن على المجاز البارز المحافظ تصور يفيد بأن جسم الإنسان هو كل عضوي. وباستخدام الجسم الآدمي كمجاز للفهم، فهناك تسلسل هرمي يوضح أعضاء الجسم حيث تكون أولوية الأهمية للرأس. حيث أن هذا المجاز عضوي في الأساس فالجسم البشري إذاً ينمو ويتفسخ ويتولد من جديد والأعضاء المختلفة متصلة ببعضها عضوياً من حيث تكون الوظائف الداخلية والعمليات الخارجية محكومة بسلطة الرأس. هذا النوع من الفهم العضوي يتركز كثيراً على التنظيمات الهرمية للأعضاء وتصنيف الأجزاء يعتمد على بنـــى سلطوية. ويرى التسلسل الهرمي وجود بنية طبيعية أساسية لكل الحياة المؤسساتية. وهكذا يؤكد (إدوراد وين Edward wynne 1987) في نظرته التعليمية المحافظة على أن التسلسل الهرمي حقيقة موجودة في كل المنظمات العاملة في الوقت الحاضر بما في ذلك المدارس: "ثمة اليوم جدل كبير حول ضرورة أن لا يكون المعلمون شخصيات سلطوية. لكن الآباء والأبناء معاً يدركون الحقيقة التـــي مفادها أن يلعب المعلمون بالضرورة دوراً سلطوياً، وهم في الحقيقة محتارين نتيجة للفوضى الناتجة عن محاولات البعض لإخفاء حقيقة التسلسل الهرمي للسلطة" (وين Wynne 1987: 130).

إن ما يتم التركيز عليه في هذه النظرة ، هو أن تنظيم الأجزاء يعتمد على قوانين من أعلى البنية. وبالتالي فإن أي نوع من التغيير يحدث من موقع آخر من التسلسل الهرمي يعتبر إنحرافاً. وهكذا ينظر للصراع داخل الأنظمة ذات التسلسل الهرمي للسلطة.

النظرة إلى الصراع: ينظر إلى الصراع داخل الأنظمة التقليدية للتسلسل الهرمي للسلطة باعتباره إنحرافاً وفوضى بالمعنـــى الازدرائي. وفي داخل هذه الأنظمة الهرمية البناء يوجد تركيز شديد على "النظام والقانون". إن أفضل استجابة للفوضى هي، إما تحمل وإستيعاب لآثارها إلى داخل النظام الحالي أو التصدي للعناصر المتصارعة مباشرة كما يحدث في العزل وقطع الإتصال نهائياً. وباستخدام جسد الإنسان كمثال مجازي، يمكننا التمثيل بزراعة الأعضاء البشرية في مجال الطب، حيث يتم زراعة عضو جديد في جسم الإنسان وقد يقبل الجسم هذا العضو الجديد وقد يرفضه. ويعتبر ذلك تحد للجسم فإما أن يتشربه النظام الخاص بعمل الجسم وإما أن يرفضه. وبالتالي يمكننا ملاحظة تأكيدات قوية على "النظام والقانون"

داخل الأنظمة التسلسلية التقليدية مع النظام والإنسجام كقيمة إجتماعية أساسية. ويزودنا كل من (هولاند وهنريورت Holland and Henriot) بمثال واضح على عمل هذه التركيبة باستخدام التقاليد الغربية للكنيسة الكاثوليكية:

تتسنى مركب للأرستوقراطية بين النبلاء من قساوسة الكنيسة الذين يشكلون صفوة السلطة. وهذه القيادة الأبوية تعتبر ضماناً للصالح العام. وفي أحسن الأحوال، هكذا تقتضي *النبالة* تجاه الطبقة الدنيا وفي أسوأ الأحوال يكون ذلك استبداد مطلق. وفي الحالتين تكون ردود الفعل على تحدي الأوضاع القائمة (Status Quo) متساوية، إما إمتصاص وتقبل وإما قمع وقوة. ومثل هذه التدابير السلطوية كانت مبررة في ضوء أيديولوجيات الحق الإلهي للملك ومطالب الضبط الإجتماعي والمحافظة على التقاليد حسب المبادئ والتعاليم التـــي تفيد بأنه هكذا كانت تسير الأمور وهكذا يجب أن تسير الآن (هولاند وهنريوت Holland and Henriot 1984: 34).

الخصائص التربوية المعاصرة: كانت الروح التقليدية المحافظة سائدة في المدارس النخبوية العامة. ويضم هذا النوع من المدارس أطفال النخبة السلطوية. وفي الأنظمة التقليدية "للتعليم النخبوي" فإن هناك تركيز قوي جداً على قيمة التسلسل الهرمي كأساس لمجتمع عادل ومنظم. كان هذا النظام يركز على شحن أذهان الأطفال بمعلومات وتعاليم البنية الهرمية التسلسلية وكان الأطفال يتقبلون ذلك وينصاعون له بحكم أنهم الوارثون لذلك النظام حيث يحاولون استيعاب ما يمكنهم من إعطاء الأوامر للآخرين الذين سيكونون تحت إمرتهم. وبالتالي أصبح هؤلاء الأطفال يشعرون بأحقيتهم في وراثة نظام منحهم درجات رفيعة باسم السلطة. يتعلم الأطفال سلطات الحكومة التـــي سيحتكمون إليها أثناء حكمهم لمن هم بحكم طبيعة نظام الأشياء يكونون تحت سلطتهم. وفي أنظمة التعليم المعاصر تعتبر نظام المدارس النخبوية تجسيداً واحداً فقط للرؤية التقليدية المحافظة. وخلال السنوات العشر الماضية، كان هناك حوار جاد داخل إطار التعليم العام حول تأكيد فضائل التقليدية المحافظة والتسلسل الهرمي لتسيير الأمور. ويعتبر "إدوارد وين" من مناصري التعليم التقليدي الهرمي والتسلسل السلطوي في التعليم العام.

إن وصفه للتعلم الفعّال، وكما يقال لنا، كان مدفوعاً بالمبادئ الدقيقة والمحددة وواضحة القيم

والسياسات والتــي عد الضرورة تستطيع الإستمرار نحو أهدافها بتصميم وشجاعة ضد أي نوع من المقاومة. بل وأكثر من ذلك، فالمعلمون في هذه المدارس يحترمون رؤساءهم ويتعون التوجهات ويتوقعون طاعة مماثلة من تلاميذهم. وهذا النوع من القيادة لا يتضمن ضعف الإتصال أو الإنفصال بين القيادة وأتباعها. وفي المدارس الفعالة لهذا النوع من النظام يكون الكبار هم المسيطرون دون أن يبدي أحد أي تساؤلات. وينفذ النظام تحت شعارات مثل العدل والحزم وتطبيق الضبط المناسب. وهذه الإجراءات عندهم لا تمت إلى القمع بصلة. وينظر إليها ببساطة في ضوء قبول التقاليد كمرحلة إنتقالية لمسئوليات الراشدين وكوسيلة لنقل القيم السليمة إلى الأجيال اللاحقة (وين Wynne 1987: 132).

إن "وين" في الواقع يعبر عن ردة فعل قوية وعصرية لانهيار السلطة التقليدية في تطور التعليم التقدمي الحديث. ولا يوجد اليوم أي نوع أو مستوى من الشعور بأن المشكلات التـــي نواجهها هي خاصة بمرحلتنا التاريخية وخاصة فيما يتعلق بالأزمة الإيكولوجية. بل ولا يوجد أي نقاش بخصوص الإنهيار الشديد الذي يحدث في العالم الطبيعي. ولا يعتبرون ذلك معضلة يجب التعامل معها كأحد أهم التحديات التربوية. إن أحد أهم المشكلات في الرؤية التربوية المحافظة هي التمركز الشديد حول الأنترويولوجيا، مقابل إنعدام تام للإستجابة للبيئة الطبيعية في جدل المفكرين المحافظين المعاصرين. فالمحافظة لا تشمل المحافظة على البيئة الطبيعية بل وكل ما تحتويه النظرية التربوية المحافظة هو الحفاظ على أنظمة السلطة للثقافة الغربية الذكورية البيضاء.

الرؤية الإيكوزوكية التحولية

أحاول، في هذا الكتاب، بيان ما أعتبره كشكل يبرز إلى الوجود، "رؤية تحولية" ترمي إلى التغيير. تعارض هذه الرؤية وترفض إمكانية استمرارية السوق التجارية العالمية كما يتم تصميمها الآن داخل النظام الإقتصادي الذي يتكون مرحلياً ويتجه نحو اجتياز الحدود القومية. إننـــي أعتقد بعدم قدرة هذا السوق على تبنـــي وجهة نظر كوكبية. وثقافية قابلة للتطبيق في المستقبل. إننا في الحقيقة نحاول البحث عن رؤية إيكوزوكية تحولية كبديل للسوق العالمية. وهنا يمكن ملاحظة "السينوزويك الختامي" بوضوح لدى نقاد الإصلاح التربوي المعاصرين في نقدهم للمسوقين التنافسيين على المستوى العالمي من جديد.

إن مجال "البيداغوجيا النقدية" هو جدل تعليمي متنامي يحاول التعامل مع النطاق الواسع لمسائل العدالة الإجتماعية المغمورة في الظلم المزروع في أنظمة السلطة والإستحواذ على الموارد من خلال أسس مبنية على الطبقة والجنس والعرق. وفي مؤلفاتـــي الخاصة *علم النفس النقدي " والبيداغوجيا النقدية"* (1990) *Critical Psychology and Critical Pedagogy* *وعلم النفس النقدي: تحليل العالم الخاص الشخصي* *and Critical Psychology: An Interpretation of the Personal World* 1984 حاولت أن أوضح كيف تعمل هذه البنـــى في سياق تربوي سواء في التعلم المدرسي أو في حركة التعليم الشعبي. ويشمل هذا العمل هموم القضايا التـــي تطرحها مسألة العدالة الإجتماعية وتتعامل مع مرحلة ما بعد الإستعمار وما بعد العنصرية (داي Die 1995b). التحليل الطبقي وعدم المساواة بين الجنسين (أوسوليفان، هوكس، هارت O'sullivan 1990; 1984; Hooks 1994; Hart 1995). يوجد تطور للتعليم المقاوم، أو ما يسمى أيضا (التعليم المناهض للسيطرة) أسس من قبل في أعمال أنطونيو جرامشي Antonio Gramsci (1971)، وباولو فرير Paulo Freire (1970)، وبل هوكس Bell Hooks 1994 وآخرين (أرنويتز وجيرو Aronowitz and Giroux 1993).

كما توجد أيضاً إتجاهات شبيهة في وجهة نظر ناقدة يتم تكوينها حالياً في مجال تعليم الكبار. إن تجميعاً لهذه الإتجاهات في تعليم الكبار يمكن ملاحظته في أعمال (مايكل ويلتون Michael Welton's) التـــي حررت *للدفاع عن العالم الحي: منظور نقدي لتعليم الكبار* *In Defence of the Life World: Critical Perspectives on Adult Learning* 1995. وكذلك في أعمال (بول وانغولا فرانك يانغمان Paul Wangoola and Frank youngman's) التـــي حررت تحت عنوان *نحو إقتصاد سياسي تحولي في تعليم الكبار* *Towards a Transformatie Political Economy of Adult Education*. إن تعليم الكبار النقدي هو حركة مضادة في تعليم الكبار تطورت داخل هذا النظام وتقوم حالياً بإعادة تقييم لسيطرة تعليم الكبار التقليدي والتـــي ناقشتها تحت عنوان التعليم التقنوقراطي. إن ما نلاحظه في هذه التيارات الجديدة الناقدة، هو تساؤل جاد حول رؤية السوق العالمية والتمييز الجنسي والظلم الطبقي ووجهات النظر لمرحلة ما بعد الإستعمار تسائل ثناياها هيمنة الثقافة الغربية. يوجد نقد لتعليم الكبار على مستوى النموذج ، يمكن ملاحظته من خلال منظور النظرية

الإحتماعية الناقدة التـــي تظهر في أعمال كل من (جاك ميزرو (1995) Jack Meizerow، ومايكل ولتن (1995) Michael Welton، وومشتلد هارت (1995) Mechhthild Hart، ومايكل كولنز (1991; 1995) Michael Collins.

لعل إحدى الإغفالات البارزة في أساليب التعامل التـــي يتبناها التدريس الناقد للتعليم المعاصر هي عدم الإكتراث بالأمور الإيكولوجيه. إن النقد الأهم الذي أقدمه هنا، هو ضرورة التركيز الشديد على المشكلات الناتجة على العلاقات البشرية فيما بينها التـــي تأتـــي على حساب العلاقات البشرية مع الأنظمة الحياتية الأخرى والعالم الطبيعي عامة. إن الإتجاه العام لوجهات النظر الناقدة ينحو جهة التمركز حول الإنسان. إن هذا النمط من الإنتقاء لا يعد بالضرورة سبباً في إلغاء الاهتمامات الحيوية التـــي تشكلها وجهات النظر الناقدة للتعليم المعاصر. إن مثل هذه المسائل يجب أن ندفع بها ويجب أن تظهر في اهتماماتنا لأنظمة الحياة على هذا الكوكب وفي أوسع نطاق.

التعلم التكاملي Holistic* وهو إتجاه آخر يظهر على الساحة التربوية يتحدى التجزئة التـــي تبنتها الحداثة والتـــي تتستر تحت غطاء الرؤية العلمية التحليلية والمنطقية لآلية العالم (ج. ميلر J. Miller 1996). ويعتبر "جون ميلر" من أبرز مهندسي التعليم الهولستـــي في شمال أمريكا ويشير إلى بعض المعالم التكاملية "الهولستية" في مقدمته *للمنهج المتكامل*.

> تحاول وجهة النظر التكاملية هذه ربط التربية بالحقائق الأساسية للطبيعة. والطبيعة في صلب تكوينها، هي مترابطة وديناميكية. ونستطيع أن نشاهد هذه الديناميكية والترابط في الذرة والأنظمة العضوية والأجواء الحيوية بل وفي الكون نفسه. ولسوء الحظ، فقد ركز عالم البشر على التجزئة والتوصيف منذ إنطلاق الثورة الصناعية مما أدى إلى التقسيم والتجزئة ومنها تجزئة الحياة. (ج. ميلر J. Miller 1996: 1).

إن التربويين الهولوستيين شديدو النقد فيما يخص التركيز التكنوقراطي الآلي للتعليم المعاصر من حيث استثنائه للمظاهر الجوهرية للحياة مثل الإبداع والروحانية. إن ثمة معالجات حالية عديدة تحاول إعادة الروحانية للتعليم وتعتبرها صفة جوهرية لكافة المساعي التعليمية (بالمر، بيربل، وموفيت Palmer 1993; Purpel 1989; Moffett 1994). إن التربويين

---

* التأكيد على عمل الأجزاء وآليتها في الكل المتكامل.

هولستيين يحاولون من خلال نقدهم للعقلانية السطحية وطبيعة القيم المحايدة للتعليم، أن يعرسوا التربية في إطار أخلاقي يذهب إلى ما بعد السطح الهش لحياتنا المعاصرة لتنغمر هذه الأخلاقيات في مكان مضيء من الضمير الإنساني. وفي هذا النمط من التربية والتعليم يكون الفكر والروح متكاملين أحدهما مع الآخر.

وكما هو الحال في البيداغوجيا النقدية، ينتقد التربويون الهولستيون بشدة كامل مسيرة التربية الحديثة لأسباب شتى. ومن وجهة نظري فهما يكملان بعضهما البعض ويجب عليهما الإلتحاق معاً ليتمكنا من محاولة إنجاز هذا التكامل الذي سيكون هدفاً آخر "لتعليم إيكوروكي تحولي" يطمح إلى تغيير متكامل وشامل.

وأخيراً يجدر بنا أن نعرج على مشروع متنامي يدعى "التربية الكونية". ولا أتحدث هنا عن وجهات نظر عالمية التـــي تعدنا لسوق عالمية، بل عن تعليم عالمي يتضمن وعياً كوكبياً. إن التعامل مع التعليم العالمي الذي أتحدث عنه هنا، يحمل بصمات مشابهة جداً لما أسميه التربية الايكوزوكية من أجل التغيير من حيث أنهما يضعان التعليم التكاملي "الهولستي" والإدراك الكوكبـــي مع الحفاظ على رؤية ناقدة في سلة واحدة. إن أمثلة كثيرة تشير إلى ذلك، منها تلك التـــي قام بها (بد هول Budd Hall) وأنا حيث قمنا بعمل مبدأي في مجال تعليم الكبار كمحاولة لتوضيح رؤية تحولية في مجال تعليم الكبار (هول وأوسوليفان Hall and O'sullivan 1995) ويوجد عمل مهم آخر في مجال التربية الكونية قام به (ديفيد سلبي David selby 1995) و(غراهام بايك Graham Pike) (بايك وسلبي Pike and Selby 1988). من بريطانيا. إن العمل الرائد الذي قام به (توماس ليونز Thomas Lyons) (ليونز وأوسوليفان Lyons and O'sullivan 1992) في اتحاد المعلمين في اونتاريو والذي كان بمشاركة المعلمين من مقاطعة أنتاريو، قد أظهر منظوراً تعليمياً يأخذ في اعتباره نظرة كوزمولوجية واسعة مع دمجها بنظرة متكاملة للتربية تشمل مفاهيم كوكبية عالمية، مثل العدالة الإجتماعية وحقوق الإنسان وانشغال بقضايا السلام العالمي وقضايا البيئة.

رؤية تربوية عالمية: أننـــي سأقوم بالإشارة هنا إلى المعالم العامة للرؤية التحولية، الرؤية من أجل التغيير، التـــي سيتم طرحها بعمق في الجزء الأخير من هذا العمل. لقد سبق وأن

أشرت، من خلال سرد معلومات تاريخية، إلى الآثار السلبية الشديدة التـــي لحقت بالعالم الحديث جراء فقدان الشعور الكوزمولوجي. يوجد أيضاً مؤشر على أن غياب كوزمولجيا الوضيفية قد أثر بشكل عميق على التركيبة الذهنية في العالم الغربـــي من حيث تعاملها مع العالم الطبيعي. لقد وصلنا اليوم إلى مدى يمكن معه فتح باب النقاش حول الإنبهار بعالم الطبيعة أو إعادة الإنبهار به، لقد ظهرت حركات مناوئة للتحرر من أوهام الإنبهار التـــي تقود إلى زمن نيوتن. إن الأصوات التـــي تنبأت بالتأثيرات السلبية للتطورات العلمية العالمية منذ بدايتها كانت محقة في ذلك. وكان (وليم بليك William Blake) الشاعر الصوفي، هو أول من تنبأ بأضرار الثورة الصناعية. ويعتقد "بليك" بأن الرؤية الفردية "لنيوتن" هي أساس التحليل الذي جزأ عالم الطبيعة وأبقاه ممزقاً لقد كان شعر "بليك" بليغاً حيث قال:

الآن أرى رؤية رباعية الثنايا
هبة قُدِّمت لي
الرباعية هي أوج بهجتـــي وحبوري
والثالثة في تألق الليل الهادئ
والثانية هي أن يحفظنا الرب
من الرؤى الفردية ومن سبات نيوتن!
(وليم بليك William Blake 1946:5)

ورغم شدة هذا الإنتقاد فإنه لم يكن نداً لرؤية العالم القوي الذي بشَّر بها "نيوتن وديكارت" وحتـــى خلال القرن التاسع عشر كانت الحركة الرومانتيكية قد حاولت الدفع بالإنتقاد نحو تلك الأفكار في مختلف الدوائر الأدبية ولكن كان من المستحيل الوقوف في طريق القوة الجذابة لتصورات عالم علمي صناعي. إن الأزمة الإيكولوجية المدمرة، هي التـــي أثارت التساؤلات حول جدوى ومصداقية نظام عالمنا العلمي الصناعي. وعندما نتحدث عن معاودة الإنبهار بعالم الطبيعة. فنحن في الحقيقة نتجه نحو رؤية كوزمولوجية للعالم. العالم الذي نشعر بأنه موطننا في الكون. ويقدم لنا (ديفيد غريفن David Griffin 1988a) شروطاً متعددة لإعادة التوجه الكوزمولوجي هذا، "تتمثل الشروط الرسمية لمثل هذا التوجه

الكوزمولوجي لمرحلة ما بعد الحداثة في أن يكون إدراكنا للإنسانية والطبيعة متكاملاً مع الأداء الذي يشمل إعادة وضع الإنسانية والأنظمة الحياتية ككل في الطبيعة واعتبار الكائنات الأخرى ليس وسيلة فقط ولكنها غاية في حد ذاتها" (د. غريفن D. Griffin 1988a: 38).

ويقوم عالم النظريات الفيزيائية "دافيد بوهم" بتعميق فهمنا لمعنـــى إعادة الإنبهار لعالم الطبيعة، حيث يعقب على التطبيقات الكوزمولوجية لنظرية النسبية ويقوده حدسه إلى الآتي:

نحن نتحدث عن دراسة غير موجودة أصلاً. ويمكننا أن نتحدث في نفس السياق عن الجسيم (أو الحرى) كإسم لشكل خاص في مجال الحركة ولكن هذا الجسيم غير موجود فالجسيم هو شكل ما في مجال الحركة، وإذا أخذنا جسيمين معاً فإن أحدهما سيغير الآخر وفي النهاية يتحدان ليصبحا جسماً واحداً. وبالتالي فإن الإتجاه يتعارض مع الفروض التـــي تقول بوجود مكونات، أولية وميكانيكية في تركيبة الكون (بوهم Bohm 1988: 23–4).

وتكمن معضلتنا الحالية في أننا لا نستطيع إعادة الانبهار فالعالم هو كل متماسك بكون أو عالم سابق للحداثة. إن العالم بنظامه المتناغم أثناء مرحلة ما قبل الحداثة لا يمكن الرجوع إليه بفعل التقدم الهائل الذي أنجزناه في مجال العلم الحديث. ويذكرنا (موريس بيرمان Morris Berman) بأن الحنين إلى الماضي لن يقدم لنا الحلول التـــي نسعى إلى تحقيقها.

إننا لا نستطيع العودة إلى الكيمياء القديمة أو إلى النزعة الاحيائية – على الأقل لا يبدو ذلك ممكناً. ولكن البديل هو عالم كالح علمي ومحكوم تماماً بالمفاعلات النووية والمصنفات الميكروبية والهندسة الوراثية. عالم قد طوقنا فعلاً. نوع ما من الإدراك الشمولي (الهولستي) المشارك وما يوازيه من الأعداد الإجتماعي السياسي يجب أن يتبلور للوجود لكي نتمكن من البقاء ككائنات من الأحياء والأشياء (بيرمان Berman 1981: 23).

إن مشاعر الرغبة للتلاقي الإبداعي يمكن ملاحظتها في كل مجالات العلوم الطبيعية والإجتماعية. ويطلق (ديفيد بوهم David Bohm) نداءً مألوفاً يدعو فيه إلى التغيير، وينبه إلى أن النظام العالمي بأكمله يذوب ويتحلل ويندثر منذ أكثر من قرن من الزمان ويقترح أن نصوغ دروباً أخرى تتجاوز المزاج الحديث.

إذا أردنا البقاء في مواجهة هذا التحلل والإندثار الذي يشهده النظام العالمي المعاصر: فإننـــي أقترح ضرورة إيجاد حركة إبداعية حقيقية تجاه عمومية تكاملية من نوع جديد. حركة تعطي مصداقية لنظام

حديد كما كان الحديث على التحديد لنظام العالم الوسيط. إننا لا نستطيع الرجوع إلى نظام ما قبل الحداثة. لذا على عالم ما بعد الحداثة أن يتشكل قبل أن يدمر العالم الحديث نفسه على نحو كامل وإلى درجة لا يمكن بعدها إصلاح أي شيء لوقت لا ندرك مداه (بوهم Bohm 1988: 23-4).

لقد سبق لي وأن أكدت على أننا في الزمن الحاضر من التاريخ نعبر في مرحلة انتقالية تتطلب كوزمولوجيا وظيفية. إن الصعوبة في هذا المصطلح "كوزمولوجي" تكمن في المادية الصرفة في معناها المقبول إلى درجة لا يتضح فيها إقتراح هذا المفهوم لحقيقة الكون التكاملية. ولذات السبب لا يوضح مصطلح الجيولوجيا الحقيقة المتكاملة للأرض ولكنه يبين مظاهرها المادية فقط. ليس لدينا الآن مصطلحات ملائمة لإعتبار جاد للأرض ومن مهمتنا اليوم أن نقدم إلى القارئ نسخة أولية للمفاهيم الكوزمولوجية الجديدة. وفي خضم ذلك يجب أن نتساءل عن ماهية المعالم التربوية للمنظور الإيكوزوكي التحولي. ومرة أخرى أتتبع الميثاق الذي تبنيته في الأجزاء السابقة.

التوجه إلى المجتمع وعالم الطبيعة: ظهرت إلى جانب الحكمة التقليدية، معرفة جديدة منبثقة عن العلوم الإيكولوجية التـــي تقترح رؤية مختلفة لمجتمع الأرض. وخلال العقد الأخير برز الاهتمام من جديد برؤية للعالم كما نجدها لدى سكان أمريكا الأصليين مما يقدم رؤيةً كوزمولوجية مختلفة جداً عن النظرة العلمية التقليدية الغربية. وإذا ما أقصينا المسحة الرومانسية عن ثقافة السكان الأصليين والتـــي تبدو أيضاً كجزء من الاهتمام المعاصربالثقافة الأصلية. فإن هناك الكثير الذي يجب علينا تعلمه حول التوجهات الإيجابية السليمة نحو مجتمع الأرض وذلك مما تتضمنه الحكمة التقليدية للسكان الأصليين للأمريكيتين (سيو Sioui 1992). أقول "الحِكَم" بصيغة الجمع (Wisdoms). لأن هناك ميل إلى جمع الثقافات الأصلية مع إهمال التنوع الهائل البديع والروعة الفائقة في الإختلاف الذي نراه في الوجود المتعدد الأشكال للسكان الأصليين على القارة الأمريكية (برغر Burger 1990). وأحد هذه الخصائص المتشابهة وسط هذه التباينات تتجلى في فهم مشترك لكون الأرض ليس مورداً ميتاً للإستهلاك البشري ولكنها مجتمع مقدس وشبكة حياتية ذات تعقيد كبير. وخاصية أخرى تبدو ماثلة، وهي ود عميق يرتبط بالعمليات الطبيعية للأرض. وخاصية ثالثة ولو أنها ليست

عامة. وإنما توجه نحو الأرض بأسلوب تتجلى فيه علاقة الأم بأبنائها، حيث ينظر للأرض كنظرة الأبناء لأمهم. وأخيراً يتولد احساس روحي يقدر الإنسان بمكانة ومكانة الكائنات الحية الأخرى.

وبعيداً عن آراء سكان الأرض المحليين التقليديين، لقد أصبحنا ككبشر نشعر بوحدة العالم المجتمعية نتيجة للغزو الحديث للفضاء. وفي مقدمة الكتاب التوضيحي الجميل، والمعنون "الأرض موطننا"، يلاحظ رجل الفضاء (راسل سيكوارت Russell Schweickart) حول التأثيرات الجذرية التـــي أحدثتها رحلته للفضاء على وعيه بكوكب الأرض وإدراكه لجماله.

> إنـــي بعد أن قضيت عشرة أيام في منطقة إنعدام الوزن أحلق حول كوكبنا الموطن الجميل الأرض، منبهراً بسعة عشر ألف ميل من التحليق قبل كل ساعة. كانت قد غمرتـــي خبرة ومشاعر حديثة أكسبتـــي علاقة جديدة مع كوكب الأرض. هذه الخبرة لم تكن معرفية ذهنية بل كانت المعرفة التـــي اكتسبتها عند عودتـــي إلى سطح الأرض هي نفس المعرفة التـــي أخذتها معي عند دخولي إلى الفضاء. نعم لقد أجريت تجارب علمية أضافت معرفة جديدة إلى فهمنا السابق لكوكب الأرض ومحيطها الجوي الذي تدور فيه، ولكن تلك الإضافات الدقيقة من التفاصيل التقنية لم أتعرَّف عليها حتـــى تم نشر نتائج تحليل المعلومات التـــي ساهمت في جمعها. وعلى أي حال، ما لم يتم تحليله ولا فحصه بالمجهر ولا تجريبه في المعمل هو الجمال الخلاب والتباين المطلق بين موطننا المزخرف اللّماع وبين السواد المطلق اللامتناهي. وبذلك انتابنـــي شعور نهائي وأكيد وتحقق تام للعلاقة الشخصية الحميمة التـــي لا يمكن تفاديها مع مجمل الحياة على هذا الكوكب الأرضي الجميل، فالأرض موطننا الحقيقي (كيلي Kelley 1988: Preface).

أنـنـــي أتوسل إلى القارئ الآن، ليشاطرنـــي عبء الخروج عن الموضوع، لأستطرد قليلاً في موضوع آخر آمل أن يكون مهماً وذي معنى. فعندما كنت طفلاً ، تحصلت على حظ يفوق الخيال. وهو مصاحبة أبـــي إلى إيرلندا وإلى مسقط رأسه، مقاطعة "كورك Cork". وقضينا هناك ثلاثة أشهر في مزرعة لا يتوفر فيها كهرباء ولا تمديدات صحية. كان المنزل الذي ولد فيه ويطل على بحيرة ماء مالح تصب مياهها في "المحيط الأطلنطي Atlantic Ocean" وقصر مهجور على جزيرة في الوسط. وكانت تلك خبرة مهمة بالنسبة لي. وعند رجوعي إلى هناك بصحبة زوجتـــي بعد ثمانية عشر عاماً كنت أتذكر بدقة كل ما كان موجوداً أثناء

زيارتــي الأولى. الخبرة بالنسبة لي كانت مرتبطة بالجمال الطبيعي الأصيل المتمثل في العالم الطبيعي في أسمى معانيه. وكانت جميع حواسي في ذلك الوقت في أسمى معنوياتها. ولقد أصبحت أتذكر هذه الخبرات الجميلة على الدوام ومع تزايد أعوام عمري. كان مكاناً خاصاً جداً وكان بالنسبة لي مكاناً ساحراً. وفي منتصف عمري بدأت باكتشاف تلك التــي هي بيتــي المقدس.

إن شعار الأرض أصبح حقيقة شعاراً مقدساً لي وللعديد من غيري. وعلى أية حال. أنه لمن سخرية القدر، أن يظهر منظور كوكب الأرض في صياغة "الكوكب الموطن" من المجمعات الصناعية العسكرية للولايات المتحدة والاتحاد السوفييتــي السابق. إن إدراك الأرض من الفضاء الخارجي قد لامست مشاعر رواد الفضاء بدرجة تجاوزت أفق الوعي المحدود بمواطنة الدولة القومية.

يوجد صفاء وتجلي في الفضاء الذي لا يمكن ظهوره من الأرض حتــى في الأيام ذات السماء الصافية من السحب في جبال الروكي "Rockies". ولا يوجد أي مكان آخر يجعلك تتحقق بجلاء من عظمة كوكبنا الأرضي ويرهبك جداً التفكير. في أنه الكوكب الوحيد الذي يأوينا من بين آلاف الكواكب (جيس جرسن أمريكا أخذت من كيلي18 :Gus Grissom, USA; in Kelley 1988).

إن أكثر ما أدهشنــي، هو السكون الدائم اللامحدود. ولا يشبه أي من الهدوء والسكون الذي خبرته على الأرض. كان سكوناً واسعاً لا حدود له وعميقاً بدون قاع إلى درجة مكنتنــي من سماع جسمي الخاص. كنت أسمع قلبــي ينبض وخلايا دمي تتحرك وحتــى حركات عضلاتــي أصبحت مسموعة. توجد أجرام ونجوم في السماء أكثر مما توقعت. وكانت السماء شديدة السواد ولكنه في ذات الوقت متألقةً بأشعة الشمس. وكانت الأرض صغيرة تميل إلى الزرقة الخفيفة ووحيدة بدرجة مؤثرة عاطفياً. أنها وطننا الذي يجب الدفاع عنه كإرث مقدس. (ألكسي ليونوف، الاتحاد السوفيتي، اقتبس من كيلي5–24 :Aleksei Leonov USSR, in Kelley 1988).

وبتأمل رحلات رجال الفضاء إلى الفضاء الخارجي، أدخل (جيمس لفلوك James Lovelock 1988) مفهوماً جديداً للأرض على أنشطة الدراسات العلمية، وذلك بصياغته (لإفتراضات الجيا Gaia Hypothesis). لن أتعمق بالتفاصيل التقنية هنا، ولكن هذه الفروض تقترح بأن الأرض عموميتها هي في الواقع كيان حي ويشير "لفلوك" من خلال هذه

الإفتراضات إلى أنه باستطاعتنا أن ندرك الهواء والمحيطات والتربة على أنها ليست فقط بيئة للحياة فيها، ولكنها جزء من الحياة ذاتها. ويعتقد أن الهواء بالنسبة للحياة يمثل الفراء بالنسبة للقطط أو كالعش للطائر. ويدافع "لفلوك" على عدم وجود أي شئ غير عادي حول الفكرة التـــي مفادها، أن الحياة على الأرض تتفاعل مع الهواء والبحار والصخور. إنه توصل إلى "فروض جيا Gaia Hypothesis" من المشاهد الخارجية للأرض من الفضاء الخارجي. وأنتاب "لفلوك" شعور بأن الأرض في كل تفاعلاتها وتحولاتها، لا تعدو كونها وقد أسهمت بإضافات إلى عملاق وحيد من الأنظمة الحية. وهذا العملاق له من القدرة على الحفاظ على ذاته في ظروف ملائمة لاستمرار الحياة عليه. وفي هذا الإطار الموسع. بدأنا ندرك الأرض على أنها مكان خاص جداً. وبطرق خاصة جداً ينفرد بها هذا الكون. وكلما اكتشفنا الامتدادات اللامتناهية للفضاء، كلما أدركنا أكثر جمال كوكبنا الفتان والوحيد من نوعه. ربما لا توجد كواكب أخرى قادرة على إحتواء "الفراشات الملكية" والموسيقى السمفونية والأزهار والورود. ويدعونا كوكبنا إلى تكوين مفهوم جديد حول أنفسنا وحول موقعنا على الأرض وكذلك في إطار المجرات الكبرى الأخرى. وتثبت (لويس يانغ Louise Young) في مقالاتها الجميلة التـــي كتبتها تحت عنوان *الكوكب الأزرق The Blue Planet* بأننا لازلنا بعيداً جداً عن معرفة حقيقة موطننا في الفضاء ولكننا نتحرك ببطء نحو إدراك عميق لمعرفة تلك الحقيقة.

منذ أقل من قرن من الزمان كنا نعتقد بأن الأرض مستقرة تماماً وأنها ثابتة لا تتغير رغم الحركة والنمو والحياة التـــي تحدث فيها وعليها. وتحدث الناس بثقة عن أرض ثابتة البقاء بجبالها وهضابها الأبدية. غير أننا الآن نعرف بأنه لا يوجد شيء جامد ثابت على الدوام بما في ذلك الأرض أو أي من أجزائها ومكوناتها. ولو تمكننا من رؤية شريط متحرك حول تاريخ الأرض، لانتابنا نوع من الحيرة الدرامية لمدى التغيرات والتطورات التـــي شهدتها الأرض: استحدثت جبال وتمت إزالتها وقيعان البحار والمحيطات تحولت إلى خنادق محفورة والتجويفات الأرضية أصبحت منخفضات بسبب الأنهار الهائجة. وقارات جديدة تكونت بإنفصالها عن القديمة واندفعت تسبح حول أرجاء الكوكب. إن مثل هذه المعلومات قد أحدثت ثورة في مجال المفاهيم التـــي تحملها حول الأرض، ولازالت هذه الثورة مستمرة. إن هؤلاء الذين يدركون ويستوعبون ما يجري على هذا الكوكب الذي نعيش فيه، يتحتم عليهم النظر بأعين لاتكل ولاتمل مثل أعين الأطفال (يانغ Young 1983: 5).

لقد بدأنا نعي أننا نحيا في مرحلة من تاريخ الأرض في غاية الإضطراب وفي زمن يشهد عمليات تغير تتحدانا على كافة المستويات التـــي يمكن أن نتصورها. إن ما يثير الشفقة فيما يخص حياة البشر اليوم، هو كونهم تورطوا تماماً في هذه التحولات الهائلة مما يضع على عاتقهم مسئولية عظيمة فيما يخص وجهة هذه التحولات. ويكمن الموقف المرعب الرهيب في أنه في أيدينا القوة اللازمة لسحق الحياة على الأرضْ. ونظراً لحجم هذه المسئولية فإن كل مغامراتنا التربوية لابد أن تقيم في نطاق حجم هذه المسئولية. ويمثل هذا تحدياً لكافة مجالات والتربية. وأعتقد أن على كل محاولة تربوية أن تضع في اعتبارها حجم مشكلاتنا الحالية عند تحديد أهدافها وأولويات برامجها. ويتطلب ذلك اهتماماً بالوضع الحالي للكوكب ووضع حد قاطع للرفض والإهمال الذي شهدته التربية خلال الحداثة. إن هذا المنحى التربوي المستهدف ليس بالوضع الهين، أنه يمثل تحدياً ضخماً للتربويين في مجالات متعددة لم تكن في تخيلاتهم من قبل. التعليم في سياق "التحول العالمي" يضع العناية بالكوكب على رأس قائمة أولوياته على الدوام.

إن التوسع في هذه الرؤية الجديدة قد منحنا إدراكاً جديداً للكوكب الذي نعيش فيه وأن أحد أبرز شعاراتنا في هذه المرحلة هو شعار كوكب الأرض الذي شاهدناه من الفضاء الأعلى، وكم بدا جميلاً. يقول (جوزف كامبل Joseph Campbell 1988: 32) إنك حين ترى الأرض من على سطح القمر لا ترى أي فواصل أو تقسيمات للدول. قد يكون في هذا شعار الميتولوجيا (علم الأساطير الدينية) القادمة. وهذا هو الوطن الذي سنحتفل به وهؤلاء هم الناس الذي نحن نعيش معهم.

وأخيراً فإن التطورات الحديثة في العلوم البيئية قد منحتنا مفهوماً واسعاً لمجتمع الأرض الحي بدلاً من التفكير في أن الأرض تتكون من مجموعة من المركبات تشبه الساعة في مركباتها. وأصبحنا ندرك بأن البشر ليسوا منفصلين كأجزاء لأرض ميتة. إننا مخلوقات حية في "شبكة حياة واحدة". هذا النمط من الإدراك المتنامي يساعدنا على النظر إلى النوع البشري في سياق حيوي أكبر. نحن كائنات ضمن كائنات ولسنا أعلى مرتبة من الكائنات الأخرى. إن وجهة نظرنا الغربية الهرمية للإنسان باعتباره أعلى مرتبة من الكائنات الأخرى وفوق من العالم الطبيعي ذاته تتعرض الآن للتحدي على مستوى واسع. ويرى كل من (بل

ديفل وجورج سيشن Bill Devall and George Sessions 1985) ظهور رؤية بيئية معمقة كطريقة لتطور نوع من الإتزان الجديد وتناسق بين الأفراد والجماعات والطبيعة ككل. إن تأكيدي هنا منصب على الرؤية الإيكوزوكية التـــي لابد أن يكون لها فرضية أساسية تتمثل في إدراك موسع للمجتمع والعلاقة المتكاملة للبشر مع المجتمع. إن تطور هذا المسار من الإدراك لابد أن يكون أحد أهم الإتجاهات التربوية المستقبلية في العقد الأخير للقرن العشرين.

النظرة إلى الزمن: من خلال نقاشي للرؤية المحافظة والرؤية التكنوزوكية التقدمية، تمت معالجة الوقت والفضاء كموضوعين منفصلين. وبسبب التماثل، سوف أواصل نقاش الموضوعين تحت عنوان جديد يسمى "الزمن والفضاء". ويوضح كل من (سويم وبيري Swimme and Berry) فكرة "تطور الزمن" كالآتي:

> لقد أصبحنا خلال القرون القليلة الماضية واعين بأن الكون قد دخل مرحلة، غير قابلة للتراجع، من التحولات المتتالية للكواكب في مداراتها الحركية الكبرى مكنت الكون من التحول من البساطة إلى التعقيد سواء في تركيبته أو أدائه لوظائفه وكذلك في ردود أفعاله المقصودة التـــي يمكن ملاحظتها على كوكب الأرض. ويمكننا أن نشير إلى هذه التحولات بأسم تطورات عمليات الزمن. (سويم وبيري Swimme and Berry 1992: 223).

النظرة إلى الفضاء، في ضوء إندماج الفضاء والزمن: الكون وحدة من الكل الديناميكي الذي لا يمكن شرحه أو فهمه في ضوء أجزاء مركبة. وعندما أتحدث عن الوحدة، فأنننـــي أعنـــي بأن الطريقة التـــي يمكن أن نفهم بها الكون هي، أنه في كل تحركاته يعمل كوحدة متناهية مع تماسك يحفظ كل شيء في وحدة متكاملة. ويعنـــي هذا أن الأنشطة المختلفة للكون تعتمد على بعضها البعض، وعليه لا يمكن أن نعتبره أجزاء منفصلة، فالكون يعمل بأسلوب متكامل. إن الدراسة المنهجية المنتظمة للكون ككل تتطلب رؤية كوزمولوجية تكون بطبيعتها منضبطة ذاتياً. إن معالجتنا السابقة للحداثة خلصت إلى أن ثمة تفوق مشروع للتفكير الكوزمولوجي في داخل هذا المنظور العالمي. وفي معرض تناوله للمفهوم الكوزمولوجي، يؤكد (ستيفن تولمن Stephen Tuolmin, 1985) على أن العلوم الطبيعية قد

طورت تجزئة نمطية منتظمة مما أدى إلى نتيجة مفادها عدم إهتمام فروع المعرفة التخصصية بالتفكير في الكل المتكامل. وعندما نتحدث عن الكون في عموميته أو كليته، فنحن في الواقع نتحدث عن معنـــى كوزمولوجي مندمجاً ومتكاملاً.

وأذكّر القارئ هنا، بأننا على كافة المستويات التكاملية أو التحليلية للكون ننظر إلى مجتمع متفاعل متواصل جينياً في علاقة غير منفصلة للزمن والفضاء. إننا بالتالي نتحدث عن كون يتطور من حيث الزمان والفضاء معاً. الكون يعمل كوحدة متناهية. وعندما نتحدث عن التطور الزمنـــي للكون، فنحن في الواقع نؤكد على فكرة أن الكون متفاعل ومتصل جينياً كمجتمع متوحد (بوهم وبيت Bohm and Peat 1987). وعندما نتحدث عن إنبلاج الكون من كتلة نارية أولية، فنحن لا نتحدث عن ظهور عشوائي. لأنه يوجد تنظيم معين على كل المستويات التفاعلية، والكون نفسه هو إسم ذلك التنظيم البديع، ونستطيع أن نقول إذاً بأن الشمس والأرض والنجوم والكواكب ما هي إلا علاقات متحدة لأن الكون يجمعها ويربطها ببعضها، ويمكن أن نقول الشيء ذاته عن مجرة "درب التبان" من حيث علاقته بالمجرات الأخرى، ونعاود القول بأن الكون يقوم بكل هذا كحقيقة عمل أساسي لا يمكن الإنقاص منها. الكون وحده يثبت فكرة أن كل شيء موجود وأن فهمه يتأتـــى فقط من إدراك عمله في سياق العلاقات والروابط التـــي تؤلفه (سويم وبيري Swimme and Berry 1992).

عندما نقول بأن الكون يعمل في وحدة الزمن والمكان، فإننا نتحدث عن كون ليس موجود لذاته في وقت واحد فقط ولكنه موجود لذاته عبر الزمن. أي نحن نشير إلى كون ذي تطور ونمو زمني. ومن هذا المنظور، فإننا نمتلك مفهوماً يؤيد الظهور التطوري للزمن. يقول (كارل ساغان Carl Sagan) في كتابه *الكون* (1980) *Cosmos*. إن البشر هم نتاج نجوم محترقة. إننا إحدى النتائج المتعددة لتطور الكون، وبالتالي فالطاقة الأساسية لكرة اللهب هذه هي طاقة كل حياة. إن طاقة كرة اللهب ذاتها هي التـــي تعمل في التطور الحالي للكون. إننا أنفسنا والكون نعتبر كائنات ذات نمو زمني. إن كوكبنا الحالي هو نتاج لتطور النجوم. نحن نعلم بأن هذه العملية قد حدثت ولكن لا نعرف بدقة كيف حدثت. ويمكننا القول أيضاً بأن الطاقة نفسها التـــي تطورت في النجوم عبر الزمن أخذت شكلاً إنسانياً. (سويم وبيري

.(Swimme and Berry 1992

ونتساءل إذاً ما المقصود بكون الكون مجتمعاً متفاعلاً ومتصلاً جينياً؟، ومن حيث هو مجتمع متفاعل، فنحن نعرف بحقيقة أن الكون حقيقة متكاملة وكل عناصره موجودة بعلاقة دينامية يعتمد فيها الواحد على الآخر وهي موجودة عبر الزمن والفضاء. وعندما نقول بأن هناك وجود متبادل بين كل جزء وآخر فإننا نتحدث عن عمل متبادل يأخذ طابع التفاعل. هذا الوجود المتبادل بين كل عنصر والعنصر الآخر يمكن أن يكون في الحاضر (إما في آن واحد أو فضائياً) أو يكون وجود متبادل يكشف عن نفسه عبر الزمن. إن فكرة الإنكشاف الزمنـــي تدخل على الصورة وجوداً متداخلاً له بعد تطوري يكشف عن تسلسل جينـــي لا يمكن قلبه. إن هذه العملية الوراثية شاهد على العلاقة التكاملية للكون. ويرى كل من (سويم وبيري Swimme and Berry 1992) قصة الكون كقصة تكاملية وليست كسلسلة من الظواهر عبر الزمن، ويرون بأن عين الإنسان تحتوي على العناصر الأولية المتبثة في كرة اللهب. نحن لدينا عناصر الإبداع الأولية النجم الممتاز*. نحن لدينا هذسة جزئية دقيقة للمعنويات الأولية، وعليه عندما تفتح أعيننا ونرى الضوء، نحن عندئذ نستخدم نفس الأجراء الذي تتبعه النباتات لحصولها على أشعة الشمس. إن جزيئيات أعيننا تعمل بنفس الأسلوب التـــي تعمل به جزيئيات أوراق النبات لأن تركيبنا الجزيئي مشتق من تركيبتهم. إن نضالهم يتمثل في إن كل أعمال الماضي الذكية موجودة في الواقع الحاضر، وبوثيرة مشابهة، يمكننا القول بأن ككوكب الأرض هو وحدة تكاملية. حيث أن كل كائن من كائنات الأرض متضمن في وجود وأداء كل كائن أخر من كائنات الأرض. ونحن ندرك الآن بأن الأرض هي وحدة ذاتية التشغيل وتحتوي على شبكة من الحياة لا يمكن فهمها إلا في إطار كلي متكامل. ويوجد سر عميق يربط كل شيء بكل شيء آخر على هذا الكوكب. وكبشر نحن نتأثر بأصغر وأدق الكائنات الموجودة على الأرض منذ بداية تكوين الكوكب. ونؤثر، في الوقت نفسه، بشكل عميق من على الكائنات الأرضية الأخرى. إن الوحدة المعقدة لعمليات الحياة على الأرض تم وصفها من قبل (إليزابيت ساهتورس Elisabet Sahtouris) في مثل

* نجم يظهر بأشعة ضوئية قوية ثم يختفي تدريجياً خلال بضعة أشهر أو سنوات.

حركة الرقص:

تعنـــي كلمة "تطور" عند الحديث عن الرقص لدى بنـــي البشر تغيير نمط الخطوات حسب كل رقصة مختلفة. ويتطور الرقص في نمط خطواته إذاً، في مواصلة الرقص. وبالضبط في هذا المعنـــى يكون تطور رقص الجايا (حياة الأرض). وتغير الحياة على الأرض أنماط خطاها في تنظيم ذاتـــي تكونت فيه المخلوقات ومجموعات الحياة عبر الزمن. هذا إذاً هو رقص الجايا، إنه عمل إرتجالي وتمايزي غير متناهي في شكل خطوات بسيطة أنيقة تتحول إلى تركيبة جميلة ورهيبة التـــي نكون نحن أحدث خصائصها (ساهاتورس Sahtouris 1989: 74).

تكون وحدة الكائنات على هذه الأرض موجودة ليس فقط في الوقت الحاضر ولكنها موجودة أيضاً خلال أزمنة التطور. وكنوع بشري على هذه الأرض، نحن لسنا الرقص في حد ذاته ولكننا جزء من الرقص اللغزي للحياة كلها.

المجاز البارز: ينحو بنا هذا الرقص نحو اعتبارات للمجاز البارز للرؤية الإيكوزوكية التـــي أتحدث فيها ما يُشار إليه في تقاليد السكان الأصليين. والمجاز هو ما يشار إليه في الأوساط البيئية أحياناً "بشبكة الحياة" أو في الأوساط التقليدية المحلية "بدورة الحياة". ونحن كبشر لسنا منفصلين عن عالم الطبيعة كما تعتقد به (الرؤية التكنوزوكية التقدمية) التـــي تتبنـــى "المنظور الآلي الميكانيكي" لوجود الإنسان، أو على قمة هرم التطور كما هو الحال عند استخدام جسم الإنسان للإشارة إلى السيطرة البشرية بالإستشهاد بوضع الرأس والعقل المخ أو الجهاز العصبـــي على رأس التسلسل الهرمي للتطور من وجهة نظرة (الرؤية المحافظة). إن "شبكة الحياة" مجاز متكامل حيث تعتبر العمليات الحيوية الحياتية كل غير متناهي. وفي هذه الشبكة الحياتية لدينا إدراك للعلاقة التكاملية لكافة الكائنات الحية مع الدور التكاملي الذي يلعبه الإنسان رغم أن هذا الدور ليس له قيمة شفاعية في الأهمية التطورية. واتخذت الثقافات المحلية مصطلحاً مشابهاً "لشبكة الحياة" وهو "دورة الحياة أو دائرة الحياة". إن أهمية دائرة الحياة تكمن في شمولية هذه الدائرة لكل الكائنات التـــي تحتويها ولا أحد ولا شيء فيها يكتسب مميزات خاصة تفوق الآخر بل للجميع أهمية متساوية. وفي داخل "دائرة الحياة" هذه، ثمة وجهة نظر تقترح بأن الحياة يجب أن تفهم في إطار حلقات أو دورات متتالية.

وتوجد هذه الدوائر في زمن مقدس غير علمانـــي يصل الحاضر بالماضي والمستقبل. وعلى سبيل المثال، تنقيب الرؤى وأحلامها لدى السكان المحليين تعكس الرحلات المكوكية بين الماضي والمستقبل.

النظرة إلى الصراع: إنه لمن الصعب إغفال مظاهر العنف على كل المستويات الكونية لكونها واضحة المعالم للجميع. إن المصطلحات الأساسية في علوم الكوزمولوجيا والجيولوجيا والبيولوجيا والأنتروبولوجيا وعلم الإجتماع والسيكولوجيا تحمل شحنة ثقيلة من التوتر والعنف. ولا يوجد أي جزء من الكوكب ولا الكون ككل يتمتع بنوع من السلام (ت. بيري **T. Berry 1988**).

إن الحياة تظهر وتتقدم بصراع أنواع الكائنات للتعبير عن الوجود الكامل للحياة. لقد سلك البشر طريقهم في الحياة عبر قسوة العالم الطبيعي ونفذوا عنفهم عن عالم الطبيعة. وفيما بينهم كبشر فلهم تاريخ متواصل من الصراع والعنف. لقد كان لزاماً توليد جهد نفسي هائل لتوضيح الأسلوب الإنسانـــي للوجود في كامل طبيعته الخيالية والعاطفية والفكرية. ذلك المجهود النفسي الذي يظهر منه ويعبر عن المواجهة الدرامية العنيفة للقوى التـــي تشكل الكون (توماس بيري **Thomas Berry 1988**) أن المواجهة قد تؤدي إلى "دموع أو بكاء الأشياء" كما تم وصفها من قبل (فيرجل **Virgil**) ولكن الأداء الإبداعي يصعب تجاهله أو التغاضي عنه.

وبمجيء البشر إندلع العنف على الكوكب من جديد (ت. بيري **T. Berry 1988**) ولكن إذا كان العنف الذي مورس في عالم الطبيعة خلال الأزمنة الراحلة بسيطاً، فإن العنف المرتبط بوجود الإنسان على الكوكب يبقى متناقضاً من حيث أثاره النهائية. إن الإبداع عادةً مايرتبط بإنعدام التوازن وتؤثر القوى وسواء كان ذلك في نطاق البيئة الحيوية البيولوجية أو في سياق الوعي والإدراك. إذا كانت هذه التوترات تتسبب عامة في مشاهد تدمير في العملية الكونية فإن هذه المشاهد تتحول مع الزمن إلى سياق إبداعي من نوع ما. ولكن مع تعاظم السلطة البشرية على عمليات الأداء الكوكبـــي وكبت أو إطفاء تلقائيات الطبيعة، أصبح الأداء السليم للكوكب يعتمد أكثر فأكثر على القرار والحكمة الإنسانية. لقد ظهر اعتماد

الطبيعة على الإنسان نتيجة لتدخل البشر في كيفية أداء الأرض لوظائفها الطبيعية، أي بالزراعة والتحكم في الري. منذ ذلك الوقت تم توليد عقلية الإخضاع والهزيمة وقهر الطبيعة. وتتوازى هذه العقلية التسلطية مع كثافة عمليات التحضر. إن إخضاع الأرض والتحكم في أدائها إمتد ليشمل إخضاع البشر والتحكم في أدائهم وأراضيهم. إن تجزئة الأرض وتقسيم سكانها هي القصة المسيطرة على قصص الكوكب عبر السنوات الطويلة. إنه حتـــى الآن أصبح لدينا أكثر من 160 دولة ذات هوية مستقلة.

إن المغامرات الصناعية العسكرية للدول الحديثة تستخدم قوة هدامة غيرت كل مرحلة من مراحل وجود الأرض. علينا أن نستوعب تماماً بأننا نواجه ولأول مرة حقيقة مفادها أن الكوكب قد صار قادراً على تدمير ذاته وفي أغلب أنظمته الحياتية من خلال الوكالة البشرية أو أنه على الأقل قد أصبح قادراً على إحداث تغيرات عنيفة غير قابلة للإسترجاع أو الرد إلى الوراء، بخصوص التركيبة الكيميائية والبيولوجية على نحو لم يحدث له مثيل منذ أن تشكلت الأرض أساساً. وبالتالي، فبينما نحن نتدبر في فوضى الكون إبان عملية إنبلاجه، علينا أن ندرك الروعة العجيبة التـــي تعبر عن نفسها وسط هذه السلسلة من الكوارث التـــي اصطحبت هذه الأحداث الكبرى. وهي الروعة البديعة التـــي مهدت لظهور الإنسان. إن مرحلة الإنسانية بوجهها الحديث والتـــي ربما ظهرت منذ 60.000 ستين ألف سنة مضت وبعد ما يقارب 2 مليون سنة من تحول الأنواع البشرية الذي تزامن على نحو غير دقيق مع آخر تقدم وتراجع جليدي. ومع تقدم الإنسان ظهر عنف جديد على وجه الأرض، حيث يوجد الرعب والإرهاب داخل الوعي الإنساني. إن هذا الرعب من الإعتقاد بأن العالم يمكن أن يشكل بكيفية يمكن معها للفرد أو الجماعة أن تكون محمية من العنف (ت. بيري T. Berry 1988). لقد أنتج البشر عنفاً هائلاً ووحشياً بدون قيمة إصلاحية – عنف بدون إبداع – ودمار بدلاً من التكامل وندرك نحن الآن جيداً أنه حينما يتم عرقلة الإبداع تكون النتيجة النهائية ليس فقط غياب الإبداع في حد ذاته ولكن في وجود حقيقي للدمار الشامل (ت. بيري T. Berry 1988: 218). إننا نناضل ضد هذه القوى الآن وفي ذات الوقت نشهد في هذه الفجوة المبدعة التوتر القديم بين الفوضى والنظام (برغس وبيت Briggs and Peat 1989). ولابد من أن تكون استجابتنا قطعية ومبدعة خلاقة. لم نكن على هذا النحو من قبل لن

تكون هنا عند ظهور الإبداع من جديد وعليه فهذا هو وقت المنافسة بين الصراع والإبداع.

الإتجاهات التربوية المعاصرة: إن هدف هذا الكتاب هو تقديم برنامج عملي إيجابـــي للتربية الإيكوزويكية. إن المنظور الإيكوزويكي يمكن أن يقترح بعض توجُّهات الأداء التعليمي الحالي الذي يعطي إحساساً بإتجاهات متنامية إيجابية. إن زملائي في مركز التعليم التحولي Transformative Learning في (OISE/UT) يقومون بعمل رائد لصياغة هذا المنظور في مجال تعليم الكبار (كلوفر، فولن وهول Clover, Follen and Holl 1998). إن المنظور التربوي المقترح يشير إلى تعليم متكامل يتجاوز المذهب الذري الآلي. إن خارطة آلية للكون لم تعد تفيدنا على فهم كيف يعمل العالم. ومهما قمنا بالتقسيمات لأغراض عملية، فإن كل شيء في التحليل النهائي يتعامل مع ويتفاعل في نسيج شبكة متعددة الطبقات ومتعددة الأبعاد من التفاعل والأهمية (بايك وسلبـــي Pike and Selby 1988). وفي أساس هذه الشبكة يمكننا أن نتحدث عن تعليم كوني، تعليم يتماثل مع الكون المتطور في تنوع مظاهرة منذ بداية تكوينه وحتـــى الآن. وفي هذا السياق الواسع فإن إدراكنا للمعرفة يكون تركيبياً متكاملاً. ومقارنة بالمبدأ الميكانيكي في التحليل الذي يفترض بأن الكل هو مجموع الأجزاء فإن الكلية التركيبية تقترح بأن الكل هو نموذج تربوي كلي ويفيد بأن كل الأشياء هي جزء من وحدة متكاملة أو كل غير قابل للتجزئة (ميلر Miller 1996). وإضافة إلى ذلك فإن هذا المنظور الكلي هو ذو طبيعة تطورية مع الزمن. إننا نرى في ما وصفناه "بالكل" بأن الأحداث ينظر إليها في إطار ديناميكي منتظم وأنها متصلة زمنياً وفضائياً. وبالتالي فإن النموذج الكلي هو وجهة نظر تعتبر أن كل الأحداث يمكن أن ينظر إليها من وجهة نظر تطورية. وهذا هو مانعنيه عندما نقول، نحن نعمل في كون تطوري من حيث الزمن. وهذا المنظور لايعتبر أن المعرفة يمكن أن توجد منعزلة عن العالم في وجوده الطبيعي. إن الفكر جزء من عالم الطبيعة مادامت الحياة الإنسانية مغروزة في الطبيعة. نقول بأن الفكر الإنسانـــي هو أسلوب الطبيعة في التدبر في ذاتها. وعليه فالتعليم الكلي في إطارنا الإيكوزوكي يتضمن في داخله *تعليم أرض* *Earth Education* ولا نعنـــي به *تعليم حول الأرض*، ولكن نعنـــي به الأرض كمجتمع ذاتـــي يعلّم كل الكائنات التـــي تكون الأرض.

الحداثة: كسوف العلوم الكونية وفقدان البصيرة الشمولية

تمهيد:

إنه لمن الصعب جداً على الفكر الغربـــي أن يستوعب الصورة الشاملة للأعراق البشرية. وحقيقة فإن هذا الفكر يحتل موقع الأقلية. وفي دراسته المتعمقة لأديان العالم يشير (هيوستن سميث، Huston Smith 1992) إلى أن البشر في حاجة ماسة للإيمان بأن الحقيقة التـــي يدركونها، هي متجذرة في الأعماق الراسخة للكون. ومع ذلك فإننا عندما نتفحص تركيبتنا الثقافية، يمكننا مباشرة ملاحظة افتقادنا لهذا الإدراك الكوني. ووفقاً لتعبير (ستيفن تولمن، Stephen Toulmin's 1985) فإن هناك "فقدان للصورة الشمولية" وباستشرافنا المعاصر، الذي يفتقر إلى مثال للعالم المتوطد في الكون، فإننا نشاهد الآن ارتباك "ما بعد الحداثة" الذي أشرت إليه في الفصل الأول من هذا الكتاب. وبالرغم من ذلك وحتـــى مع هذا الارتباك، فإن العلم الحديث وكذلك خيال عامة البشر يظل في حاجة إلى تجاوز حدود نظرتنا العالمية الحديثة. إن معظمنا ممن يعيشون في المدينة تغمرهم الرهبة من رحابة السماوات التـــي تتجلّى عندما تتاح لنا فرصة التواجد في فضاءات الأرياف والبراري. إن رهبتنا الطبيعية تجاه الكون لا تعوقها أي حوافز خارجية، مثل الإضاءة الخلفية للمدينة أو ماشابه ذلك، ولكننا يبدو وأننا اكتسبنا تدريجياً حوافز داخلية تعوق رؤيتنا للكون كوجود متكامل. إن أحد أهداف هذا الفصل هو إعادة التقييم النقدي لقوى الحداثة وتبيان كيفية إسهامها في مشاكلنا الحالية. ويفترض هذا الهدف مسبقاً اهتماماً خاصاً بـــ "تساؤلات المشاكل الكونية". إن علم الكونيات، بمعناه الأوسع، هو فرع من الفلسفة يدرس أصل وبنية الكون. وأول هدف لها هو

توضيح كيف أن حدة "عصر السينوزويك الختامـــي - العصر الحديث الختامـــي" قد أدى إلى كسوف فعلـــي وحجب كامل للرؤى العالمية التـــي تجد موقعاً للمسائل الكونية في مركز الفكر المتعلق بالكون، وهذا مايسميه اللاّهوتـــي (هيوستن سميث، Huston Smith 1992) "بالتقاليد الأولى الأساسية". إننا سنحاول هنا توضيح أن إحدى نتائج ازدهار "العصر الحديث الختامي" كانت مجسدة في الابتعاد عن مانسميه "بالأمور أو المسائل الكونية" ويمكن استكشاف هذا الابتعاد أو الفقدان "للإدراك الكونـــي" بعدة طرق" أولها، بمناقشة أسباب ضعف الاهتمام بالمسائل الكونية المتزامنة مع الازدهار الكامل لعصر الحداثة الحالي النهائي. وأخيراً، بالنظر إلى المؤسسات التربوية وتقييم دورها في فقدان المنظور الكوني. وقبل القيام بهذا الأمر ، دعونا نتفحص عبارة "الكونـــي".

يزودنا الفيلسوف (ستيفن تولمن، Stephen Toulmin 1985) في كتابه (*العودة إلى علم الكونيات* *The Return to Cosmology* 1985) لمناقشة عبارة "علم الكونيات" ويلاحظ وجود موقف طبيعي يتخذه البشر في كل الأماكن وعبر كل العصور عندما يتدبرون العالم الطبيعي مما يشير إلى وجود طموح شامل لفهم الكون وإدراكه كوجود متكامل. ويقول (تولمن Toulmin) بأن الرغبة في الوصول إلى رؤية كلية، تعنـــي عملياً، انعكاس إلى الحاجة الملحة لتوطيد موقعنا في هذا العالم الذي ولدنا ووجدنا فيه. وتعنـــي كذلك حاجتنا إلى تحديد مكاننا بين نظام المخلوقات وتحقيق شعورنا بالراحة ضمن هذا النظام.

إنه لمن الأمور الشيقة، عندما يتأمل المرء اشتقاق الكلمات ويدرك كيفية ترابط المفاهيم الجوهرية المحددة في هذا الكتاب. إن اشتقاق كلمة إيكولوجيا (علم البيئة) تتصل بدراسة "الوطن أو الموطن" ولهذا، فإن محاولتنا لوضع أنفسنا في منشأ الأرض وفي الكون، هي في جوهرها ممارسة لعلم الكونيات. ويمكن مشاهدة هذا الإحساس بالتكامل في تحليل كلمة الكون (Universe) أو القصة الواحدة. وتاريخياً كانت كلمة جامعة "University" تشير إلى مؤسسة يرتادها المرء ليعرف أو يختبر مكانه في الكون (فوكس، Fox 1988) وهي ليست الجامعة التـــي أعرفها الآن. في الجامعة العصرية يبدو مصطلح علم الكونيات في أغلب الأحيان غامضاً. كما أنه لاوجود لدراسة علم الكونيات في الفلسفة المعاصرة خلال القرن العشريـــن. ورغم ذلك، فإن مصطلح علم الكونيات كان ولا يزال مهماً جداً في تاريخ

الفلسفة وسيكون بالتأكيد كذلك في المستقبل نظراً لتطورات علم ما بعد الحداثة (بيرمن، د. غريفين، هيوستن سميث، تولمن Berman 1981; D. Griffin 1988a; 1988b; 1990; Huston Smith 1992; Toulmin 1985).

ولأغراض هذه الدراسة فإننا نعرف علم الكونيات بأنه ذلك الفرع من الفلسفة الذي يدرس أصل وبنية الكون. وفي المجال الفلسفي، سيتم مقارنة علم الكونيات بعلم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) الذي يدرس الخصائص العامة للواقع وفلسفة الطبيعة التـــي تبحث في القوانين الأساسية وعمليات وتصنيفات مكونات الطبيعة. وبكل تأكيد فإن هذه العلوم ليست مجالات تستبعد بعضها ولكنها بالأحرى نقاط تركيز متنوعة. ومع ذلك فإن نقاشنا هنا سيكون من ناحية تاريخية حيث أن التاريخ يوفر لنا خلفية يمكننا التعامل من خلالها مع المشاكل الراهنة للكوكب.

علوم الكونيات لما قبل الحداثة

إن أول إشارة تاريخية لنظم كونية موثقة نجدها في حضارتـــي بابل ومصر قبل ميلاد المسيح بعدة قرون. ولا يزال البابليون، حتـــى يومنا هذا هم المبتكرين الأصليين للتقويم. لقد درسوا الشمس والقمر والنجوم لأغراض عملية جدًّا. وكان ابتكار أول تقويم لأغراض المساعدة في الأعمال الزراعية. إن علم الفلك كما نعرفه اليوم، يعود أصله المتواضع إلى عمليات الصيد والزراعة لدى الإنسان القديم. وتكشف الدراسات التاريخية حول تلك الفترة عن أن علوم الفلك والكونيات كانت في أول صيغة لها تتبعاً لحركة الأجرام السماوية من أجل تسهيل سبل العيش والبقاء على قيد الحياة. إنها كانت علوماً لاكتساب استراتيجيات البقاء. وتمثل ذلك في معرفة أي من أوقات النهار تتواجد فيها حيوانات الصيد. وكان هذا الفهم في تلك الفترة الزمنية مهمّاً للغاية، حيث كان يعنـــي الفرق بين الموت والحياة بالنسبة للصياد والفريسة على حد سواء. لكل هذه الأسباب، أجبر البشر على الملاحظة الدقيقة لدورات النهار والليل المتعاقبة، مكتسبين بذلك تصوراً أولياً لحركة الكون (روزن، Rosen 1973).

وبهذا كان لأول اهتمام موثق بعلوم الفلك والكونيات ملامح متميزة. تمثل أولى هذه

الاهتمامات، فيما ذكر أعلاه، من جهود عملية للبقاء على قيد الحياة في الحضارات الإنسانية السابقة للعصر الحديث. أمَّا السمة الثانية للاهتمامات الموثقة لهذه العلوم، هي الإحساس لذي أولئك الناس الأوائل بأن الطبيعة كانت"مسحورة" ونابضة بالحياة. وكثيراً ما يشار إلى هذه الخاصية بحيوية المادة. وقد اعتبرت الشمس في بعض الحضارات تجسيداً للألوهية. وكان هناك مقداراً وفيراً من عبادة الطبيعة في كل المجتمعات القديمة. إن تفسيرنا الحديث لمثل هذه الأمور هو اعتباره نمط من أنماط الارتقاء البدائي للدين.

وعندما يقيم المرء الحضارة اللاحقة الغابرة لليونان الإغريقيين، سيفاجأ بأنه رغم كل الإنجازات الرائعة لتلك الحضارة، إلاَّ أنها لم تضف جديداً لما قدمته الحضارة البابلية الأكثر قدماً. إن الإسهام الرئيسي للحضارة اليونانية لم يكن في المجال التجريبـــي للعلوم الكونية، حيث قال (أفلاطون Plato) في (*كتابه الجمهورية The Republic*). إن المرء يمكنه الاستغناء عن معرفة الأجرام السماوية لكي يحوز فهماً حقيقياً لعلم الفلك. وبالرغم من أن تأثير "أفلاطون" كان ضاراً وسلبياً فيما يخص إحداث أساس تجريبـــي لعلم الكونيات، إلا أنه مع ذلك اعتبر الاهتمامات الكونية أساسية لنظامه الفلسفي. إن ما قدمته الحضارة اليونانية كان تأكيداً فلسفياً على المسائل الكونية. إن الأكثر أهمية من حيث الإسهام العلمي، هو ما قد يعتبر إرساء للفرضيات القائلة بأن النظام الذي نلاحظه في السلوك البشري يكون منشؤه نظام أساسي في الكون. ولهذا تمثلت رؤية (أرسطو Aristotles) في أن علم الأخلاق يعتبر جهداً، ساهم في تحقيقه الافتراض القائل بأن هناك كون منظم. وكان جدال "أرسطو" مبنياً على أن الكون متماسك بحكم طبيعة منظمة.

أمَّا في العصور المسيحية الوسطى، فثمة نقطة تواصل مع علوم الكونيات، حيث تطور تطوراً ملموساً للمعتقدات السحرية المرتبطة بالطبيعة والكون. كما نجد أيضاً نلاحظ فكرة الملائكية لدى رؤى النصرانية المسيحية التـــي مفادها بأن الكون لم يعد إلهياً مقدساً، بل توجد مخلوقات "ملائكية" في السماوات وهي جزء منها. وفي هذه الرؤية تلتقي الملائكية بالاهتمامات الكونية. إن أهم إسهام في علم الكونيات النظري، يتمثل في نظرية (بطليموس Ptolemy) عن مركزية الأرض، حيث يتصور "بطليموس" بأن الأرض هي مركز الكون. إن ارتباط مفهوم "بطليموس" ببعض الأديان المعاصرة آنذاك، يوضح مدى الدور الفعال الذي

تلعبه الكنيسة في توجيه الاعتبارات الكونية وعلوم الكونيات. إن الملائكية وعلوم الكونيات كانا متداخلين فيما يخص تركيبة العالم الوسيط (روزن، Rosen, 1973). وكان الاعتقاد السائد، هو أن كل الأجرام الكونية يدفعها في مساراتها ملاك ما. ولقد حل الملاك المسيحي محل الروح الوثنية التـــي عرَّفها "أفلاطون" واللاحقون من بعده بأنها القوة الدافعة للإجرام السماوية وبالمقارنة، كان "أرسطو" أيضاً يعتقد بأن روحاً معينة تحرك كل الأجسام الكونية. بينما كان موقف "بطليموس" متمثلاً في أنه لا يمكن الأجرام السماوية أن تستمد حركتها من الخارج أو من لا شيء، وأن هذه الأجرام جميعاً امتلكت قوتها الحيوية الخاصة بها من داخلها، وهذه القوة هي التـــي تحركها وتدفعها ليصبح كل كوكب مصدراً لحركته الذاتية. سابحاً عبر الفضاء بموقعه وسرعته الخاصة به.

إن نقاشنا لعلوم الكونيات القديمة، لا يعتبر وافياً من الناحية التاريخية ولمزيد من التفصيل والشمولية فيما يخص العلوم الكونية في فترة ما قبل الحداثة أرجع إلى (روزن، Rosen 1973). لقد اكتفيت في معالجتـــي لعلوم الكونيات القديمة على الخطوط العريضة، لأننـــي لا أريد أن أكون شديد التدقيق تاريخياً، ولكن هدفي هو إبراز ملامح محددة لعلوم الكونيات القديمة التـــي ضاعت بقدوم الرؤية الغربية العلمية. ورغم أن علوم الكونيات القديمة شديدة الاختلاف في الشكل والمضمون، إلا أن هناك ملامح أساسية محددة تميزها عن النـــزعة العلمية الحديثة. أولاً، تنـــزع علوم الكونيات القديمة إلى الارتباط الوثيق بالاهتمامات الحياتية العلمية للحضارات المبكرة مثلما هو الحال في الأعمال الزراعية أبّان الإمبراطورية (البابلية Babylonian). ثانياً، كانت العلوم الكونية في العصور المبكرة تشكل صلب النظام المركزي لتلك الحضارات. وعلى سبيل المثال، كانت أنظمة الفلسفة اليونانية العظيمة مثل فلسفة "أفلاطون وأرسطو" تضع الاهتمامات الكونية في صلب بنيان الفلسفة لديهم. وخلافاً لنظم الفلسفة الحديثة، فإن علم الكونيات هو حجر الزاوية للفلسفات القديمة من أفلاطون إلى القديس توماس الأكوينـــي. (Plato to St. Thomas Aquinas). ثالثاً، سواء كان ذلك سلبياً أو إيجابياً، فإن النظم الكونية القديمة كانت متداخلة المحتوى مع النظم الدينية التـــي عاصرتها. وأخيراً كانت الطبيعة في علوم الكونيات القديمة يكتنفها السحر. وكان كل من الكون والطبيعة محاطين بالرهبة والمهابة والقدسية. لقد كان هناك خوف ورهبة من العالم الطبيعي

يمكن ملاحظتهما ببساطة من خلال نظم العلوم الكونية المختلفة لتلك الشعوب. وبالإضافة إلى "الافتتان" كان هناك حس بالانتماء يتم الشعور به نحو العالم الطبيعي. ويزودنا (موريس بيرمان Morris Berman) بإدراك رائع لمعنـــى الافتتان في العالم القديم.

إن صورة الطبيعة التـــي هيمنت في الغرب إلى ما قبل الثورة العلمية الحديثة، كانت صورة عالم مسحور واعتبرت الصخور والأشجار والأنهار والسحب بأنها كلها أشياء مدهشة عجيبة ونابضة بالحياة. وأحس البشر بالألفة والارتياح لهذه البيئة الفاتنة. وباختصار شديد، فإن الكون، بالنسبة للأوائل من الناس، كان مكان انتماء. ولم يكن المشارك في هذا الكون مشاهداً غريباً أو دخيلاً عليه، بل كان مشاركاً مباشراً في هذه الدراما. ومصير الشخص مرتبط بمصير الكون كله. وهذا النمط من العلاقة أعطى معنـــى لحياة هؤلاء الناس (بيرمان، Berman 1981: 2).

إن القصة الملحمية الطويلة للعالم الحديث، التـــي سنلتفت إليها الآن ستكون قصة فك السحر التدريجي للعالم الطبيعي وكل ما تتضمنه هذه القصة أو ينتج عنها.

نظم العلوم الكونية الحديث

بدأت نظم العلوم الكونية الحديثة مع عصر التنوير اللاحق للعصور الوسطى والذي يأخذنا إلى منتصف القرن العشرين. وهذا ما سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول على أنه الطور النهائي لمرحلة العصر الحديث. إن ما يميز هذه المرحلة هو المراجعة والتنقيح للنظم الفكرية والثقافية الرئيسية التـــي تم تعريفها الآن بالرؤية العلمية الصناعية التـــي اتسمت بالعلمية التقنية. ويمثل هذا العصر اللاّحق للعصور الوسطى تعبيراً بالغ العمق، الحق تغييرات جذرية لكل مستويات الوعي الثقافي. ويصف (لويس ممفورد، Lewis Mumford 1961) هذه التغييرات التـــي حدثت أثناء الانتقال من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، بأنها تغييرات ثقافية جذرية وعميقة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية. ويلاحظ "ممفورد" بأنه مثلما هو الأمر مع نقاط الوصل التاريخية العظيمة الأخرى، فإن الانتقال من العالم الوسيط إلى العالم الحديث تتطلب تغيراً ميتافيزيقياً وأيديولوجياً شاملاً لكل المؤسسات الثقافية الرئيسية، وهو ما شكل في جوهره صورة جديدة للكون وشكلاً جديداً لطبيعة الإنسان كيف تحقق هذا الأمر يا ترى؟ وأي من الإعلام المتميزين والقوى الثقافية التـــي اشتركت في تحقيق هذا التغيير؟

ومثلما هو الحال في كل المراحل الانتقالية الرئيسية، فإن شخصيات لامعة معينة، هي التـــي ترتبط بالتحول الاجتماعي الذي يحدث بين مرحلة وأخرى. وفي حالة الانتقال من العالم القديم إلى رؤى العالم الحديث، كان أحد هذه الشخصيات الهامة، محامياً كنسياً بولندياً اسمه (كوبرنكوس Copernicus)، الذي كادت اتجاهاته الفكرية أن تقوض بتطرف حاد جميع مفاهيم العلوم الكونية التـــي صاغها "بطليموس" التـــي كانت النظام الأساسي لهذه العلوم خلال العصر الوسيط. لقد انتقد "كوبرنكوس" بشدة نظرية "بطليموس" التـــي اعتبر فيها الأرض، على أنها مركز الكون كله. وتمثل موقف "كوبرنكوس" في أن حركة الشمس والقمر والكواكب هي المسؤولة عن حركة الأرض حول محورها ومسارها اليومي ودورانها حول الشمس الثابتة في مكانها مرة في السنة. لقد توج عمل "كوبرنكوس" بنشر كتابه حول "ثورة المنطقة السماوية العلوية سنة 1543" وفي تطور أكثر عمقاً وتطرفاً أضاف (جوهان كيبلر Johann Kepler) إلى هذا النظام الكونـــي فكرة المدارات الأهليليجية أو البيضوية.

وصاغ القوانين الوصفية لحركة الكواكب. وكانت أعمال "كوبرنيكوس" التـــي أدت إلى ازدهار العلوم الكونية محل تقدير وإعجاب من المفكرين اللاحقين، رغم أن بعضهم من أمثال (كيبلر وجاليليو Kepler and Jalileo) طور تطبيقات علمية جذرية لها مضامين عميقة تتجاوز حدود علم الفلك. وهو ما نسميه بلغة اليوم تحولاً جذرياً نموذجياً كان سيتم الشعور به عبر كل المؤسسات الثقافية الرئيسية. إن حجم ومدى إعادة التوجه هذا أدى إلى إقصاء الأرض عن مكانها في مركز الكون الذي سبق افتراضه من قبل "بطليموس". وبما أن علم الكونيات الذي صاغه "بطليموس" ارتبط بالتصورات الدينية والفكرية للعصور الوسطى، فإن المؤسسات الدينية صدمت بشدة. لقد كان مغزى نظرية "كوبرنيكوس" متمثلاً في أن الأرض لا تزيد عن كونها كوكب بين عدة كواكب أخرى، ولن تعود في الموقع المتميز كموقع لكل تغيير أو اضمحلال في كون ثابت يحيط بها. وإضافة إلى ذلك، فإن هناك إعادة توجه للمنظور الفكري العام حول الكونيات فيما سمي بالعوالم الدقيقة والعوالم الكبيرة. إن انتماء الإنسان (عوالم صغيرة) كمرآة عاكسة للكون المحيط (العوامل الكبيرة) كان سيتم تدميره كليّاً في علم الكونيات الجديد. وكما سيتم توضيحه لاحقاً، فإن الفصل بين العالم الصغير والعالم الكبير أضحى أحد العوامل التـــي تدعوها فقدان المعنـــى الكوني. لقد تمثلت الضربة القاضية

التـــي وجهها علم الكونيات الجديد بمعتقدات العالم الوسيط، في أن البشر لم يعودوا يحتلون مركز الصدارة بين المخلوقات. ولهذا لم يكن علم الكونيات الجديد، مجرد تغيير مناقض للفكر، بل كان ثورة في الفكر ذاته. لقد أثارت أفكار (كوبرنكوس) جدلاً واسعاً في مجالات الدين. والفلسفة والنظرية الاجتماعية، وهي التـــي حددت اتجاهات الفكر الحديث. وإضافة إلى ذلك، كانت أفكار "كوبرنكوس" دافعاً قويّاً لتحول رئيسي في مسار الفكر الغربـــي وقيمهُ التـــي يؤمن بها. وباختصار شديد، فإن الثورة "الكوبرينسكية" بلغت مرتبة تحد رئيسي لمجمل نظم سلطات العصور الوسطى. لقد كان النظام "الكوبرينسكي" في أساسياته المجردة معاكساً تماماً للمفهوم الفلسفي للكون الذي كان قائماً في العصور الوسطى. لقد كان نظام "كوبرنكوس" جزءاً من تحول أكثر اتساعاً شمل كافة طرق النظر إلى العالم. وكان الأساس والأصل لكل ماوصلنا إلى تسميته "الثورة العلمية" (هارمان، Harman 1988).

لقد أظهر (هارمان، Harman 1988) التغييرات الجذرية التـــي حدثت في المجال التربوي عند المقارنة بين تركيبة العالم الوسيط وماحلَّ محلها. ويضيف "هارمان" ملاحظاً بأنه في القرن السادس عشر كان الرجل المثقف (معظم المثقفين كانوا من الرجال) يعرف بأن الأرض هي مركز الكون. فهي كما يدعي، قاعدة التغيير والاضمحلال والخلاص المسيحي. كان هذا الرجل يعتقد بأن الكواكب والنجوم تدور من فوق الأرض صافية وغير متغيرة وتحركها أرواح ذكية أو إلهية. وهذه الأرواح لها تأثير على البشر وتسيره من خلال مواقعها ومجالاتها. إنه بعد مائة عام تقريباً ظهر سليل مسيحي لهذا الرجل، ولنقل حفيد حفيده مثلاً، وعلم (ما لم يكن يعيش في بلد تحكمه الكنيسة الكاثوليكية) بأن الأرض لم تكن إلاّ كوكباً من مجموعة كواكب تدور حول واحد من مجموعة نجوم تتحرك عبر الفضاء وتفصلها عن بعضها مسافات مذهلة. ومع هذا فإنها جميعاً يحكمها التوجيه الربّانـــي، ولكن بفروقات هامة. لقد كان منظور الأول باحثاً عن الغاية، وحيث الكون نابض بالحياة وله معنـــى وحيث تشكل كل المخلوقات جزءاً من سلسلة وجود عظيمة، حيث يوجد الإنسان بين الملائكة والحيوانات الدنيا وحيث الأحداث تفسرها الحكمة الإلهية أو تحركها وظائفها في عالم له معنى. ومقارنة بحفيد حفيده، فإن الكون بالنسبة لهذا الأخير، هو أصلاً كوناً ميتاً صاغه وحرَّكه الخالق. تفسر فيه الأحداث اللاحقة من خلال القوى الميكانيكية وأنماط السلوك التـــي تتوافق

وقوانين الطبيعة. وبما أن الجد الأكبر رجل منطقي فإنه كان سيتقبل الأدلة الدامغة عن أثر السحر، وحدوث المعجزات ووجود الساحرات ومخلوقات أخرى ذات قوى خارقة. غير أن سليل هذا الجد الأكبر كان سيعتبر متأكداً بأن كل تلك القصص، ما هـــي إلاّ أوهاماً ومن نسيج الخيال (هارمان، Harman 1988).

وهكذا فإن الانتقال من علم الكونيات القديم إلى الحديث وصل إلى مستوى جديداً من السعي إلى المعرفة وتأكيدها. وحقق علم الكونيات الحديث هدفه من خلال ما قد نسميه النظرة العلمية للعالم، حيث تم الوصول إلى ادعاءات العلم حول الأحداث التـــي تجري في العالم من خلال الملاحظة التجريبية. وأصبح المرجع النهائي للمعرفة بأكملها يرتكز على المذهب التجريبـــي الذي اقترن بالمجتمع العلمي. ولقد استغرق الانشقاق بين الطرق القديمة والحديثة لرؤية العالم عدة قرون ليلتئم ويصبح مكتملاً لصالح المذهب التجريبي.

إننا نعيش الآن مرحلة انتقالية مطابقة لتلك التـــي كانت أيام "كوبرنكوس"، ويمكننا أن نستنتج بسهولة أن أفقاً كونياً جديداً سوف يتجسد، وسوف يكون مساوٍ في فجائيته وحدة توجهه للانتقال من نظرة العصور الوسطى إلى النظرة الحديثة للعالم. ومع ذلك فإنه لازال من الصعب، وصف هذا الزخم الانتقالي التحولي حتـــى ونحن نعيش خضمه إنه من المهم جداً، أن نفهم أولاً، ما هو المقصود بفقدان علم الكونيات. أن مثل هذا التحليل يكتسب أهميته من كون هذا الإدراك كان مفقوداً وهو الذي يشكل الآن نقطة النهاية لعصر السينوزويك النهائـــي "العصر الحديث الذي يعتبر في طور الانتهاء".

غياب الإدراك الكونـــي في مرحلة السينوزويك الأخير.

يحوم الصقر ويحوم في الدائرة المتنامية
ولا يستطيع الصقر سماع مدرِّبه
وتتحطم الأشياء وتنفصل عن بعضها البعض
والمركز لم يعد قادراً على إمساكها معاً
وتنطلق الفوضى العارمة لتعم العالم.

(وليم بتلر يتس، القدوم الثانـــي William Butler Yeats, the Second Coming)

إن الثقافة التـــي نعيشها عامة ما يكون شعراؤها أصوات حالمة وتنبئية. ويعتبر (وليم يتس William Butler Yeats) عند مطلع هذا القرن معبراً عن ثقافة الغرب التـــي فكّت السحر، في قصيدته التـــي كثيراً ما يستهد بها "القدوم الثاني" وحيث يعبر عن الحنين الشمولية والاكتمال. أننا عندما نتحدث عن فقدان الإدراك الكوني، يكون ذلك بالنسبة لنا إحساس ذاتـــي بأن المفقود هو بصيرة بكمال وشمولية وترابط الأشياء. وعندما استطاع الشاعر (وليم بليك William Blake) "رؤية العالم في حبة من الرمل، ورؤية الأبدية في ساعة"، فقد كان يشير إلى إدراك عميق لكمال الأشياء التـــي تآكلت كنتيجة لتطور النظرة العلمية الحديثة. ويزداد شعر "بليك" أهمية عندما تكون العلاقة بين العالم الصغير والكبير علاقة ملموسة وواضحة. وبقدوم القرن التاسع عشر أصبحنا ندرك بأن هذه العلاقة تحطمت تماماً. وحتـــى لدى الكتاب الأشد تديناً، مثل الكاتب الفرنسي (جورج برنانوس Georges Bernanos) في كتابه "*يوميات كاهن في الريف* *The Diary of a Country Priest* 1937"، يمكننا مشاهدة اغتراب الناس عن العالم الطبيعي.

إن أناس العالم الحديث يبتعد موقعهم كثيراً عن الرهبة والافتتان نحو العالم الطبيعي مقارنة بأناس العصور الغابرة والشعوب البدائية. إننا لا نشاهد الآن عدم الافتتان أو الخوف من العالم الطبيعي في العقلية الحديثة فقط بل نشاهد أيضاً عداءً صريحاً نحو الطبيعة. وتشير (لويز ينج Louise Young) في كتابها الممتع بعنوان "*الكوكب الأزرق*، *The Blue Planet* 1983" إلى وجود عداء صارخ جدّاً ومقت شديد للعالم الطبيعي في معظم تفكير الأوربيين خلال القرن التاسع عشر. وتفيد "لويز" على سبيل المثال، أنه عندما سافر (كازانوفا Casanova) عبر جبال الألب، أسدل ستائر عربته ليتجنب أطراف الطبيعة التـــي اعتقد بأنها كريهة مثلما في الجبال المشوهة. وعليه فإنه لمن الأهمية بمكان، أن يدرك القارئ كيف تم اعتبار العالم الطبيعي مكاناً دخيلاً وعدائياً في التفكير الحديث. وسيساعدنا الفهم الجيد لكيفية نشوء هذا الموقف العدائي ضد الطبيعة وكيف أن الثقافة السائدة جعلتنا نتخذ هذا الموقف المشين، وكيف لازال يؤثر حالياً على تعاملاتنا مع الأزمة الراهنة لكوكب الأرض.

إننـــي سوف ألتفت الآن بشيء من التركيز إلى بعض العوامل الثقافية التـــي قادتنا نحو فقدان الإدراك الكوني. ويصنف، عالم الاجتماع الكبير خلال القرن التاسع عشر (ماكس

ويبر، Max Weber 1958) آثار الحداثة بأنها فقدان سحر العالم وتفكيك للعالم الاجتماعي بسبب "الهيمنة البيروقراطية" وهذا بالنسبة لنا هو نقطة النهاية للعصر الحديث الذي ازدهر في الفكر الغربـــي فيما سأدعوه "التركيبة النيوتونية الديكارتيه" وسنوجه اهتمامنا الآن لهذه التركيبة.

التركيبة النيوتينية الديكارتيه لقد هيمن على المناخ العلمي طيلة القرون الثلاثة الماضية، التصور النيوتينـــي الديكارتـــي للعالـــم. إن تركيبة التفكير هذه، بنيت على بحوث العالم البريطانـــي (إسحاق نيوتن Isaac Newton) وعالم الرياضيات والفيلسوف الفرنسي (رينيه ديكارت René Descartes). لقد تصور نيوتن الكون على غرار آلة يكون مجازها الجوهري مغروز في تفسير ميكانيكي. لقد تشكل الكون في نظامه من مادة صلبة وكان مخلوقاً من ذرات أو جزيئات صغيرة، قيل بأنها المواد التـــي تراصت وبنـــي منها الكون. ومن قاعدة الأساس الذري هذه، طور "نيوتن" نظريته الكونية عن الجاذبية، وأصبحت المسائل المعقدة المتعلقة بحركة الأجرام الفلكية مفسرة في ضوء مفهوم (الكتل Masses)، حيث تكون القوة الجاذبة هي تلك القوة الفعالة بين الجزيئات. وتبدو الجاذبية، في نظام "نيوتن" بأنها خاصية جوهرية لكل الأجرام التـــي تؤثر فيها هذه الجاذبية. إن قوة الجاذبية تفرض تأثيرها على الأجرام الفلكية مباشرة عن بعد. إن التركيبة النيوتينية جمعت الرياضيات مع الفيزياء اللتان كانتا حتـــى حينه منفصلتين. لقد جمع نيوتن في تركيبته أعمال سابقيه وعلى وجه الخصوص "كيبلر وجاليليو"، حيث كان "كيبلر" قد طور قوانين حركة الكواكب من خلال دراسته المتعمقة للجداول الفلكية. وقام "جاليليو" بتجاربه للتوصل إلى القوانين التـــي تحكم سير الأجرام الهاوية. وتمثل الإسهام العلمي المتميز لـــ "نيوتن" في تطوير اكتشافات سابقية ودمج اكتشافاتهم في صياغة لقوانين الحركة العامة التـــي تحكم كل الأجرام في المجموعة الشمسية. ابتداءً من الحجارة إلى الكواكب. ويزودنا (فرتجوف كابرا Fritjof Capra) بصورة كاملة لهذه التركيبة النيوتينية:

طبقاً للأسطورة، ظهرت الفكرة الحاسمة لـــ "نيوتن" في ومضة مفاجئة عندما رأى التفاحة تسقط من الشجرة على الأرض. لقد أدرك حينها بأن التفاحة تم جذبها إلى الأرض بنفس نمط القوة التـــي تجذب

الكواكب والأجرام الفلكية تجاه الشمس. وهكذا، وجد "نيوتن" مفتاح نظريته الرائعة، واستعمل بعد ذلك مناهجهُ الرياضية الجديدة ليصوغ قوانين الحركة الدقيقة لكل الأجسام والأجرام الواقعة تحت تأثير قوة الجاذبية. إن أهمية هذه القوانين تكمن في تطبيقاتها الكونية ضمن أنظمة المجموعة الشمسية، إن الكون في نظرية "نيوتن" هو بحق نظام ميكانيكي هائل، يعمل طبقاً لقوانين رياضية دقيقة (كابرا، Capra 1983: 63).

إن رؤية الكون في نمط علاقات ميكانيكية، هي جزء من ميراث نيوتن للنظرة العلمية للعالم. وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر تمت مواجهة الناس بهذه الرؤية الجديدة للكون التـــي كانت مادية وميكانيكية في آن واحد، وكما أشرت لتوي، فإن المادية الميكانيكية نتجت عن التطورات التـــي أنجزت في مجال العلوم الفيزيائية وخاصة علم الفيزياء. إن الميكانيكية، التـــي هي رؤية العالم من منظور التماثلات الآلية، تم اعتبارها أهم لغة تفسيرية في تطور علوم الفيزياء. ومن وجهة نظر المادية الميكانيكية، كما تبناها "نيوتن"، فإن العالم يتكون من جزئيات مادة في حالة تفاعل. حيث يكون لكل جزيء وجوده الذاتـــي ويصبح وحدة كاملة أكبر عن طريق الإضافة. إن مجموع التفاعلات بين الجزئيات يشكل مجموع كل شيء يحدث في العالم. وهذه التفاعلات ميكانيكية في طبيعتها، أي أنها تتكون نتيجة لتأثيرات خارجية من جزء على جزء آخر. ولكونها هكذا فإن الميكانيكية المادية تصور الكون بأنه، لا يزيد عن كونه نظاماً آلياً في شكل آلة ضخمة. إن هذه النظرة الميكانيكية للطبيعة، التـــي قدمها "نيوتن"، تفترض بأن (الله) خلق الكون لأول مرة ثم تركه ليستمر في الوجود في شكل آلة عظيمة تحكمها قوانين ثابتة. لقد تم ربط النظرة الميكانيكية للطبيعة بحتمية صارمة دقيقة وسببية، حيث تكون كل الأحداث التـــي وقعت أو التـــي ستقع لها أسباب محددة وكانت وستكون لها نتائج محددة أيضاً.

هذا، ويمكننا مشاهدة خاصية هامة أخرى للنظرة العلمية للعالم من خلال اعتناق مبدأ التحليل، الذي تتم مقارنته بالمبدأ التركيبـــي الصناعي الذي يفيد بأن الكل أكثر من مجموع أجزائه (الكلية أو الشمولية). وهو المبدأ الذي سنعود لمناقشته لاحقاً. ويتم تأكيد مبدأ التحليل بوضوح عند استخدام الاستعارة الميكانيكية في البحث. وإنه لمن السهل جدّاً، أن تتم الموافقة على الفكرة التـــي مفادها بأن تركيب آلة ما، قائم على مجموع أجزائها. وأن الناتج

المنجز يمكن تفكيكه إلى أجزائه المكونة له (أوسلفان ، O'sullivan 1984).

توجد شخصية أخرى، لا يقل مستواها العلمي عن مستوى "نيوتن" وخاصة من حيث إسهامها في تطوير الفكر العلمي الحديث. إنه الفيلسوف والرياضي الفرنسي "رينيه ديكارت" الذي كان نظامه الفلسفي استجابة رئيسية لانهيار المعالجة الفلسفية في تركيبة العصور الوسطى التـــي أنجزها القديس "توماس الأكوينـــي". إن أهم إسهام لـــ "ديكارت" في مجال العلوم الحديثة، يمكن ملاحظته في صياغته المنشودة للثنائية المطلقة بين العقل (***res cogitans***) والمادة (*res extensa*). ويتبع هذه الصياغة الإيمان بأن العالم المادي يمكن وصفه ذاتياً بدون اللجوء للملاحظ البشري. إن القوة الجوهرية لمفاهيم "ديكارت" حول صياغة الفكر العلمي الحديث لا يمكن التقليل من أهميتها من حيث مضامينها السلبية والإيجابية.

لقد كان للأثر التراكمي لأفكار "نيوتن وديكارت" وقع عميق على كيفية بلوغنا للنظرة الراهنة حول العالم الطبيعي. إن "ديكارت" على غرار "نيوتن" نظر إلى الكون المادي باعتباره مادة ميتة جامدة واعتبره يعمل وكأنه آلة. إن مضامين هذه النظرة للعالم كانت ولاتزال مذهلة بشدة. ويعطينا "فرتجوف كابرا" فكرة عن مداها.

كان الكون المادي بالنسبة "لديكارت" مجرد آلة لا أكثر ولا أقل. ولم يكن هناك هدفاً ولا حياة ولا روحانية في المادة. إن الطبيعة في نظره تعمل طبقاً لقوانين ميكانيكية، حيث يمكن تفسير كل شيء في العالم الميكانيكي من منظور ترتيب حركات أجزائه. إن الصورة الميكانيكية للطبيعة أضحت نموذجاً مهيمناً في علوم العصر الذي تلي "ديكارت" إن التوسع المزدهر للعلم الميكانيكي في القرن السابع والثامن والتاسع عشر لم يكن إلا تطويراً للفكرة "الديكارتيه". لقد أعطى "ديكارت" الفكر العلمي إطار عمله العام – رؤية الطبيعة على أنها آلة متكاملة – تحكمها قوانين رياضية دقيقة (كابرا، Capra 1983; 60).

المجتمع الأبوي وعلاقته بالعلم الحديث إنه لمن المهم أيضاً، التأكيد على كيفية تأثير الفصل المتطرف للعقل عن المادة على مواقف البشر تجاه العالم الطبيعي، بما في ذلك النباتات والحيوانات. إن المظهر الوحيد للعالم الطبيعي الذي اعتبر روحانياً ومقدساً في التركيبة الديكارتية كان العقل البشري (*res cogitans*). واعتبر الجسد البشري مثل كل مظاهر العالم المادي الأخرى، لا يزيد عن كونه مكونات آلة معقدة. ونرى في هذه التركيبة التحرر الكامل

من الانبهار بالعالم الطبيعي مما يعكس التباين الحاد مع العالم الوسيط حيث دعا "بطليموس" في دراساته إلى تبنـــي نظرة عضوية للكون بأكمله. وتشير عالمة التاريخ ومناصرة الحركات النسائية (كارولين ميرشنت Carolyn Merchant) في كتابها "*موت الطبيعة*، *The Death of Nature* 1980" إلى المضامين العميقة لهذا التوجه الميكانيكي، نحو تفسير المظاهر الكونية، على إدراكنا للقضايا البيئية المعاصرة. وترى المؤلفة أن المثال البيئي الذي يتطور الآن يسمح بتفسير نقدي جديد لنشأة العلم الحديث خلال المراحل الحاسمة، عندما تم التخلّي عن رؤية الكون ككائن عضوي وأضحى بدلاً من ذلك آلة ميكانيكية. إن التشبيه المجازي بالآلة هو المتمكن الآن في عمق معضلتنا البيئية الراهنة، ويرتبط مباشرة بالنموذج العلمي والتقنـــي الذي تم تحديده للتو. وتجازف "ميرشنت" بالقول، بأننا خلال الانتقال إلى العلم الحديث، أعدنا تصور الكون على أنه آلة بدلاً من كونه نظام عضوي حي وأن هذا الانتقال برّر الهيمنة على الطبيعة وكذلك على النساء. إن التشبيه المجازي للأرض على أنها أم حاضنة كان سيختفي تدريجياً بظهور الرؤية النيوتينية والديكارتية للعالم. إن الاستعارة المجازية للآلة كانت ستؤثر بعمق على النظرة المتنامية آنذاك نحو العالم الطبيعي. وبتزايد ميكنة الثقافة الغربية مع نهاية القرن السادس عشر، أصبحت الأرض الأنثى وروح الأرض العذراء مكبوتة عن طريق الآلة (ميرشنت، Merchant 1995). وتجادل الكاتبة بأن الواجب يحتم علينا إعادة تفحص وإعادة صياغة الرؤية نحو علم وعالم أجازا الهيمنة على الطبيعة والنساء من خلال إعادة صياغة مفهوم الحقيقة وتصوير الواقع كآلة أكثر من كونه نظاماً حيّاً. لقد ابتعدنا، مع قدوم العلم الحديث، عن فهم عضوي للطبيعة. ذلك الفهم الذي وصف الطبيعة تتمثل في أن الأرض وخاصة الأرض "بالأم الحاضنة"، الأنثى التـــي تكتنـــز الحب والخير والحنو، وهي التـــي ألبست الكون نظاماً وحسن تخطيط. كان إلى جانب هذا التصور، صورة معارضة للطبيعة كأنثى جامحة، قدمت العنف والجفاف والعواصف والفوضى السائدة. إن مثل هذه التصورات الأخيرة قدمها رجال، ربطوا الفوضى بجنس الأنثى وأسقطوا الإدراك البشري على العالم الخارجي. وتلخص "ميرشنت" الانتقال المشار إليه سلفاً، في مؤلف آخر بعنوان *الاعتناء بالأرض*:

إن التشبيه المجازي للأرض بأنها أم حاضنة اختفى تدريجياً كصورة مهيمنة، مع شروع الثورة الثقافية

الداعية إلى تبرير النظرة الميكانيكية وميكنة العالم. كما جليت الصورة الثانية، وهي تصوير الطبيعة بأنها اضطراب وهي فكرة حديثة مهمة تمثلت في تغلب قوة البشر على الطبيعة. ولهذا تطورت فكرتان أساسيتان جديدتان الميكانيكية والهيمنة على الطبيعة، وأصبحتا مفاهيم جوهرية للعالم الحديث. وتم تقزيم العقلية ذات التوجه العضوي لفهم الكون التـــي لعبت فيها النساء دوراً مهمّاً وتم استبدالها بعقلية ذات توجه ميكانيكي. وهذه العقلية الأخيرة. إمَّا ألغت المبادئ النسائية تماماً أو استعملتها بطريقة استغلالية ، وبتنامي ميكانيكية الثقافة الغربية مع نهاية القرن السادس عشر سيطرت الآلة وكبتت أنفاس الأرض الأنثى وروح الأرض العذراء " (ميرشنت، Merchant 1995; 77).

وهكذا فإن أول متغير أدى إلى فقدان الإدراك بالكون الحي المتكامل، كان تطوير التشبيه المجازي بالآلة. لقد أصبحت الأرض كياناً ميتاً يمكن السيطرة عليه والتلاعب به.

كان هناك تأثير آخر رئيس على الإدراك الكونـــي، وهو التأكيد على مفهوم الفرد في تطور الفكر الحديث. إننا نشهد انهياراً للمجموع العضوي في علاقته بالكون كنتيجة لتطور المثال الحديث للفرد. لقد تطور انفصال جذري في الفكر الحديث، يفصل بين الأحداث الكونية الصغيرة والأخرى الكبيرة. وتمت مصاحبة هذا التطور الثقافي بالمذهب الذري الذي طوره "نيوتن" وديكارت وتمت المواصلة والاستمرار في تطويره على يد كل من (لوك وهوبز Locke and Hobbes). حيث أحالت الفيزياء خصائص الغازات إلى حركة الذرة. وعليه تمكن علماء الاجتماع، كما هو الحال عند (جون لوك Jonn Locke) من إحالة الأنماط الاجتماعية إلى السلوك الفردي (كابرا، Capra 1983).

وقبل التركيبة التنويرية التـــي دعمها "لوك وهوبز" كان للفرد مفهوم ذي معنـــى ومدلولاً ثقافياً مختلفاً جذرياً. إن مفهوم الفرد في العصور الوسطى كان يعنـــي عدم الانفصال أو التجزئة. وكان مصطلح الفرد شائع الاستخدام في العلوم والمجالات اللاّهوتية حول الثالوث المقدس (وليمز، وستور، Williams 1976; Storr 1988) وهكذا كانت الفكرة الفردية في العصور القديمة مربوطة بالأفكار الكونية وفي النقاش اللاهوتـــي على مدى أوسع. وبتطور أفكار "لوك وهوبز" أصبح هناك انفصالاً جذرياً يفصل عالم الفرد الصغير عن العالم الكونـــي الكبير، ليصبح الفرد وفقاً لهذا المسار من التفكير، كوناً مستقلاً بذاته، وبذاته فقط. لقد مكَّن هذا المسار من التغيير الحاسم عامة الناس من اعتبار الفرد عنصراً مطلقاً

منقطعاً تماماً عن العالم المحيط. ويشير (ريموند وليمز، Raymond Williams 1976: 135): في بريطانيا وابتداءً من "هوبز" إلى النفعيين، تتقاسم مجموعة من النظم بداية مشتركة في مجال علم النفس والأخلاق والسياسة. ونادراً في مثل هذه التقاليد أن تكون البداية منطلقة من الحقيقة الواقعية التـــي تفيد بأن الإنسان ولد في شبكة من العلاقات. إن تجريد الكائن البشري كمادة منفصلة، في هذه التقاليد، هو عادة أمر مسلّم به.

لقد رأينا لتونا، كيف أن تطور الفرد ككون معزول متقوقع على نفسه له معان وآثار على إدراكنا للعالم وعلى كيفية فاعليتنا كأفراد وجماعات فيه. ويمكن للمرء أن يتصور، بأن تجريد الفرد وعزله بهذه الكيفية، له آثار عميقة ودائمة على إدراكنا للكون وكذلك على بصيرتنا المفقودة. إن ثمة خاصية أو عنصر آخر بحاجة للمناقشة قبل توجهنا نحو نقاش علم الأحياء، الذي عجلت بازدهاره، نظرية (داروين Darwin) للنشوء والارتقاء. إن هذا العلم البارز له آثار خاصة على رؤانا ومفاهيمنا عن الكون.

لقد رأينا فيما سبق أن الإدراك القديم للعالم بنـــي على فكرة الوحدة العضوية التـــي تم استبدالها بالنظرة الميكانيكية (ميرشنت، Merchant 1980). وتتبعاً لأفكار "أرسطو"، كانت أبحاث العصور الوسطى وما قبل الحداثة مبنية على جملة من المحاولات لتكوين إطار عام لنظريات التغيير. وفي أغلب الأحيان، كان علماء العصر الوسيط، وبالرغم من أهدافهم ومقاصدهم يتصفون بالعمومية. وعلى سبيل المثال، كانت أعمال "نيوتن وديكارت" غير مقتصرة على الرياضيات أو الفيزياء. وكان لأعمالهم مضامين مباشرة على علوم اللاهوت والفلسفة. وعلى أية حال، فإن بعد القرن السادس عشر، كان مبدأ التحليل الذي سبقت مناقشته، مبدأ رائداً في البحث. إن اعتبار الكون مركباً من الذرات، هو الاعتبار الذي بنيت على أساسه مفاهيم التحليل التـــي أجازت تفكيك كل المسائل، مهما كانت طبيعتها إلى أجزائها المكونة لها ودراستها بشكل منفصل. وهكذا، أصبح البحث نشاطاً يختص بدراسة الأحداث والمجالات المنفصلة وفقاً لقوانين محددة، بدلاً من محاولة صياغة نظريات تغيير عامة تعمل وفقاً لقوانين عامة. ولهذا، أصبحنا نشاهد مقدم علوم محددة وتخصصات متميزة عن بعضها البعض، تمكننا من تحديد قوانين التغيير بكيفية محددة ومنفصلة. لقد رأينا عند نهاية القرن السادس عشر قوانين محددة لعلم الحركة المجردة والاهتزاز المعدنـــي وغيرها من العلوم

التـــي بدأت تظهر كأنظمة لفروع المعرفة العلمية بنظريات محددة بدلاً من النظريات العامة للتغيير. وهذا ما كان له الأثر البالغ على الإدراك الثقافي الكوني.

ويحدد (ستيفن تولمن، Stephen Toulmin 1985) الفرق الحاسم بين العلم الحديث والعلوم الكونية المبكرة. ويجادل "ستيفن" بأن علوم الكونيات التقليدية لم تكن أبداً منشغلة بأي مظهر معزول لأي ظاهرة. وبالمقارنة، نشاهد بأن النظرة الحديثة للعالم، لها فروع من المعرفة العلمية محددة المعالم وبالغة التخصص وكانت مستمرة في التطور حتـــى القرن العشرين. لقد أصبحت المعرفة بيروقراطية ذات معالم واضحة جلية لتقسيمات العمل حسب مجالات محددة ومميزة. ويلاحظ (تولمن، Toulmin 1985) بأن منذ القرن السابع عشر قدماً كان عدد من العلماء المتميزين ممن يتجاوزون حدود نظام معرفي واحد. ونتيجة لذلك، فإن التساؤلات التـــي كانت تطرح ضمن نطاق مجالات معرفية متعددة، كانت محدودة جداً، ناهيك عن مدى الإجابة عليها. ومع ذلك فإن البحث العلمي المنظم الذي عرف حديثاً حقق نجاحات مثيرة للإعجاب وحجبت تجزئة الفكر التـــي كانت متوقعة نتيجة للتقدم العلمي. ومع نهاية القرن العشرين كانت هذه التجربة العلمية المنظمة ستحجب أي محاولة للتصور الشمولي للكل مثلما شاهدناه في ظهور النظرة العضوية للعالم. ويبدو أن شعراء الثقافة هم الباقون دوماً رواداً لنقد المعايير الثقافية. وما قصيدة يتس "القدوم الثانـــي" إلا دليل على ذلك: الأشياء تتحطم وتنفصل عن بعضها البعض ويصبح المركز عاجزاً عن حفظ تماسكها إنها إشارة شعرية واضحة إلى فقدان الإدراك الكوني. ويوضح لنا "تولمن" معنـــى وكيفية فقدان هذه النظرة الكونية المفقودة في أنظمة البحث العلمي خلال القرن التاسع عشر عن طريق إقصاء المهمة الكونية المتكاملة. أن المختص البيروقراطي يقول للعامل الكوزمولوجي بوصفه عالم لاهوت طبيعي.

بأنه الانتقال إلى سطر جديد وبالحرف الصغير، ويقولون له لقد كنت تدير قسم التنسيق والتكامل، أليس كذلك؟ حسناً، كما ترى، فإنه لا يوجد لدينا مثل هذا القسم. الآن، لو سمحت، هلا تفضلت بالانصراف. لكي نتمكن من مواصلة عملنا. حيث أن كل مقاولاتنا ومغامراتنا التجارية تسير سيراً حسناً دون الحاجة إلى التنسيق أو التكامل، وعليه من فضلك انصرف وأغرُب عنا، ودعنا نواصل أعمالنا. وباختصار شديد، فإن النـــزعة التخصصية والتفرع العلمي خلال القرن التاسع عشر، جعلت

الوظيفة التكاملية للاهوت الطبيعي أمراً ليس ضرورياً (تولمن، Toulmin 1985: 235).

لقد تم، بمقدم القرن التاسع عشر تجاوز مسألة تكامل المعرفة كقضية أساسية. وبنهاية ذلك القرن أضحت العلوم الطبيعية مجزأة إلى عدد من الفروع المعرفية المستقلة، ولكل منها خصوصية متميزة وفي بعض الأحيان تساؤلات وافتراضات واهتمامات وإجراءات بحثية جيدة من نوعها. وكانت النتائج الرئيسية لهذه التطورات، هي إهمال مهمة التكامل التي أصبحت مفقودة ولا تقع ضمن نطاق أي فرع معرفي محدد. لقد أهملنا الاهتمام والقدرة على التفكير "بالكل" (تولمن، Toulmin 1985). ويقتبس لنا "مالكس ويلبر" اقتباساً شهيراً يدعى "القفص الحديدي" الذي يعطينا تصوراً للتخصص والتجزئة مثيراً للشفقة.

> لا أحد يعرف من سيعيش في هذا القفص مستقبلاً. أو فيما إذا كان سيظهر أنبياء جدد عند نهاية هذه التطورات الراهنة. أو أنه ستكون هناك إعادة ولادة جديدة للأفكار المثالية القديمة. وإذا لم يحدث كل ذلك، فهل سيكون تحجر للميكنة منمق بشيء من الأهمية الذاتية. أما بالنسبة للمراحل الأخيرة من التطورات الثقافية، فإنه يمكننا أن نقول صادقين، بأن التخصصين تعوزهم الروح والحسيين يعوزهم القلب. إن هذا البهتان الباطل، يتصور بأنه حقق مستوى حضارياً لم يسبق تحقيقه من قبل (ويبر، Weber 1985: 182).

ويجب أن لا يفوتنا القول هنا، بأن "ويبر" كان خلال القرن التاسع عشر كاتباً متفائلاً.

الرؤى والتصورات الارتقائية التاريخية

لقد كان تركيزنا حتى الآن على نظرية المعرفة التي كان أثرها واضحاً على تطور العلم الحديث، حيث كان أحد أهم مقومات انتشار نظم ميكانيكية تفسيرية، هو مبدأ التحليل كطريقة أساسية للبحث. إن تجاهلنا للتفحص الدقيق لفقدان الدلالة الكونية واقتصار ذلك على المستوى النظري من التحليل فقط، سيكون تجاهلاً لبعض التطورات الرئيسية في العلوم التاريخية والبيولوجية التي كانت بالغة التأثير على الفكر عند نهاية القرن التاسع عشر الأمر الذي كان له تأثيراً جوهرياً على فكر القرن العشرين. وسيكون القول بأن التخصص النظامي هو العامل الوحيد المشارك في تطوير الفكر، قولاً مضللاً، كما أن نظرية (تشارلز دارون Charles Darwin's) عن النشوء والارتقاء كانت ستلقى ظلالاً واسعة على تطورات

البحث العلمي. وهناك شخصية تاريخية أخرى لها مكان بارز في نقاشنا هذا، هي شخصية (كارل ماركس Karl Marx).

لقد أحدثت نظرية "دارون" حول نشوء وارتقاء الأنواع والأجناس أثراً واضحاً على تطورات العلوم خلال القرن العشرين. وقدمت نظريته وعياً زمنياً مهماً في ارتقاء كل أشكال الحياة ووضعت نشوء الأنواع والفصائل ضمن نطاق العالم الطبيعي. وكانت أنظمته الفكرية معارضة صريحة للتأسيسات اليهودية المسيحية المتعلقة بمنشأ الإنسان لخليقة إلهية ربانية خالصة. لقد كان الحديث عن البشر كأشكال طبيعية دون تدخل إلهي أمراً مقيتاً للعقلية الدينية خلال القرن التاسع عشر. أمّا بالنسبة "دارون"، فإن البشر ارتقوا من فصائل دنيا من الخليقة، وبوصفهم شكلاً في طور الارتقاء، فقد كانت لهم قدرات بقاء أفضل من أسلافهم. لقد بقيت الفصائل الحية على قيد الحياة لأنها كانت مؤهلة بشكل أفضل للبقاء عن طريقة (الانتقاء الطبيعي). وعندما قام "دارون" بصياغة نظريته حول ارتقاء أشكال الحياة، اعتبر ذلك صياغة لبيانات وصفية أكثر من كونها بيانات تفسيرية. ولكننا تمكنا مؤخراً، ولو بشكل نسبي، من توضيح الكيفية التـــي تتم بها كل الملاحظات بصياغة اجتماعية مما يؤكد على أنها أنظمة تفسيرية (هوفستر، ريفكن وبيرلاس، ورستر، Hofstadter 1955; Rifkin and Perlas 1983; Worster 1977). إن أحد أهم إسهامات "ماركس" الرئيسية في الفكر الغربـــي كانت توضيح كيفية ارتباط نظم الفكر المتعددة (التفسير) بالنظم الاقتصادية للمجتمعات التـــي تتبنـــى تلك النظم. وبإتباع حلقة الوصل هذه، بين النظم التفسيرية والقاعدة الاقتصادية، يمكننا تفسير نظرية "دارون" الارتقائية في ضوء هذا الارتباط. ويلاحظ "جرمي ريفكن ونيكانور بارلاس" في تحليل معاصر لنظرية "دارون" عن النشوء والارتقاء، وجود تشابه ملفت للنظر بين وصف "دارون" للارتقاء وعمليات الإنتاج الصناعي حيث يتم تركيب الآلات من مجموع أجزائها المنفصلة:

لعله من غير المنصف أن نوصي بأن "داروين" تعمد استعارة مفاهيم التركيب الصناعي، فإن نظريته عن الارتقاء البيولوجي تعكس منهجياً مشابهاً للإنتاج في الطبيعة . حيث يتم اعتبار كل الفصائل الجديدة كتركيبة من الأجزاء المنفردة في شكل منظم وفي ترتيبات وتركيبات جديدة وتحسينات إضافية متضمنة زيادة في تعقيد وكفاءة تلك الفصائل (ريفكن وبارلاس، Rifkin and Perlas 1983: 98).

وكما أشار كل من "ريفكن وبارلاس" فإنه من الصعب إظهار "دارون" مخطئاً لاعتماده على التشبيه بالآلة. لقد كان هناك حضوراً مكثف للآلة في الحياة الإنجليزية خلال القرن التاسع عشر. وإضافة إلى ذلك، فلقد سبق لي أن أشرت إلى أن الآلة أيضاً هي الاستعارة المجازية المركزية في النظرة العلمية الحديثة للعالم ولكل من المعاصرين لـ "دارون". وأقرب السابقين له. لقد ربط "دارون" نفسه بـ "نيوتن" الذي ارتبط بدوره بعلوم الحياة، حيث أنه حوَّل بنجاح فكرة كون ميكانيكي إلى نظريته التي تفيد بميكانيكية المنشأ ومن ثم تطور الفصائل والأنواع الحية. وهنا مجدداً تكون المقارنة بين علوم الكونيات القديمة والحديثة ملفتة للنظر في هذا السياق. لقد اعتبرت المخلوقات الحية ككل متكامل قبل عصر الآلة، غير أن هذه النظرة التقليدية للطبيعة تمت إزاحتها واستبدلت بتصور جذري جديد ومتطرف يتوافق مع الصيغة الجديدة للإنتاج الصناعي. وخلص "دارون" إلى اعتبار الأشياء الحية على أنها مجمل أجزاء ميتة لا حياة فيها "مجمعة" مع بعضها البعض في تركيبات عاملة متنوعة. واعترف "دارون" بأنه لم يعد بوسعه حتى تصور أن المخلوقات الحية خلقت متكاملة (ريفكن وبارلاس، Rifkin and Perlas 1983: 100-1).

وكان "دارون" يحاول إدماج الميكانيكية في إطاره الارتقائي محولاً بذلك الكائنات الحية (المتعضيات) إلى أشياء شبيهة بالآلة. وكان هذا العمل في الواقع أقصى محاولة لنزع القدسية عن الطبيعة حيث قطع الروابط الرفيعة (ضعيفة) لمذهب حيوية المادة الذي كان لا يزال باقياً في الرؤى الكونية لعامة الناس (ريفكن وبارلاس، Rifkin and Perlas 1983) .

وإذا كان "دارون" قد تأثر بالقوى الاجتماعية للإنتاج في عصره، فإنه أثر أيضاً تأثيراً مهماً على إجازة النظام الاجتماعي الصناعي الذي عاصره. إن نظريته عن النشوء والارتقاء التي تؤكد على الانتخاب (الانتقاء) الطبيعي حيث يكون البقاء للأصلح كانت ستعكس صدى النظام الاجتماعي للرأسمالية الصناعية. ويعطينا (ريتشارد هوفستر، Richard 1955 Hofstadter) وصفاً ممتازاً لكيفية تحول الداروينية إلى "داروينية اجتماعية". لقد كان قباطنة الصناعة، من أمثال (كارنيجي وروكفلر Carnegie and Rockefeller)، سيبادران بتكليف الفيلسوف الدارويني (سبنسر Spencer)، وهو ابن أخ دارون، بأن يحاضر حول كيفية توافق المفهوم الدارويني المتمثل في "البقاء للأصلح" مع روح المنافسة الضارية التي

تفشت في النظام الإنتاجي للرأسمالية الصناعية. إن العالم البشري والطبيعي وفقاً لهذه الرؤية هما دائماً في صراع اعتيادي مألوف. غير أن الرأسماليين لم يكونوا وحدهم الذين تبنوا نظرية دارون عن النشوء والارتقاء. لقد كان (ماركس وأنجيلز Marx and Angels) هما أيضاً من الذين سيستعملون نظرية دارون لأغراضهما العقائدية الخاصة. لقد شعر "ماركس" بأن نظرية "دارون" قدمت أساساً متيناً في العلوم الطبيعية لتأجيج الصراع الطبقي في التاريخ. وهكذا فإن نظرية دارون عن النشوء والارتقاء تتضمن الفكرة الرئيسية المفهومة ضمنياً حول ترسيخ مفاهيم الصراع والتنافس وتأكيدها. وهكذا فإن نظرية "دارون" عن الارتقاء تتضمن الفكرة الرئيسية المفهومة ضمنياً عن الصراع والتنافس. إن علوم الكونيات الدراووينية قد أجازت عصراً كاملاً من التاريخ. وباقتناع رجال الأعمال الصناعية بأن سلوكهم يتفق تماماً مع العمليات الطبيعية للطبيعة، فقد تسلّحوا بأقوى مبرر كانوا في حاجة إليه لمواصلة استغلالهم البشع الذي لا هوادة فيه للبيئة وإخوانهم البشر، دون أن يضطروا إلى التفكير في عواقب سلوكهم الخاطئ (ديفكن وبارلاس، Rifkin and Perlas 1983: 103).

إنه لمن الواجب علينا هنا، أن ندرك جيداً، بأن مؤسساتنا التربوية قائمة على بعض من الافتراضات المسبقة التـــي كنا بصدد تحديدها للتو. إنه بالإمكان أن نستنتج من تلك الافتراضات بأن تركيبتنا التربوية الحالية قائمة على معرفة أو حكمة موروثة. ينقصها الوعي بمسار الحداثة. إننـــي سأوضح لاحقاً كيف تكون مؤسساتنا التربوية الحالية مسخرة بالكامل لخدمة النظرة الصناعية للعالم التـــي أصبحت الآن في طور الاحتضار. إن حكمة ومعرفة كل أنظمتنا التربوية خلال القرن العشرين كانت في الواقع مسخرة لخدمة احتياجات النظام الصناعي الذي يعانـــي من العطل والاختلال حالياً. إن مؤسساتنا التربوية الحالية التـــي يمكن وصفها بالتناسق مع تغذية الصناعة الآلية والقومية والفردية والتنافس والسلطة الأبوية، يجب وضعها بشكل جوهري موضع تساؤل ومراجعة. إن كل هذه العناصر تتلاءم في نظرة عالمية لتزيد من تفاقم الأزمة التـــي نواجهها الآن. إن هذا الوضع لا إبداع فيه، لأنه وضع لا يشمل وجهات نظر أو وعي يبصِّرنا بالحاجة إلى اتجاهات جديدة. إنها لإدانة شديدة اللّهجة عندما تصرح بأن مؤسساتنا التربوية التقليدية معطلة تماماً وهي حقيقة ميتة ومجردة من تفهم الحاجة إلى الاستجابة لأزمتنا الكوكبية الحالية. وإضافة إلى ذلك، يمكن تقديم حجة مقنعة بأن

معرفتنا التعليمية الموروثة تعانـــي مما نسميه (فقدان الإدراك الكوني) وبطريقة أو بأخرى افتقد هذا الإدراك الكونـــي ومُسخت مرتبته في خطابنا التربوي. غير إن واقع الحال الآن، يبشر باكتساب شيء جديد، ألا وهو البدء في الإدراك بأن هناك شيء ما مفقود.

إننـــي لا أتحدث عن تغيرات سطحية في الشكل أو الأسلوب. إن ما أقصده هو ثورة حقيقية على النظرة إلى العالم التـــي صاحبت نموذج الحداثة. لقد أيقظت الأبعاد الرئيسية لهذه التغيرات الطرائق التـــي نتصور بها نحن المتحضرون هذا العالم ومن ثم قمنا بتغيير تلك الطرائق التـــي كنا نعلم بها أبناءنا. وحتـــى في أواخر القرن العشرين لا زال المرء يجد سبيلاً للتفاؤل تجاه طبيعة التقدم المضطرب للثورة العلمية والصناعية. وعلى أي حال، فإن العالم الذي استقر بنفسه في الحداثة المدمرة التـــي يدعمها العلم والصناعة الآلية والتقنية والرأسمالية، قد أصبح عالماً يتخبط في معضلات جسام. (مورس بيرمان، Morris Berman 1981) وهو ملاحظ ذكي لتدهور الحداثة، يشير إلى أن المشكلة تكمن في مجموعة متكاملة من المتغيرات منها التلاعب التقنـــي بالبيئة والتركيبة الرأسمالية المرتكزة على تلك التقنية، وهما المتغيران اللذان يبدو وأنهما أخذا مجراهما بشكل واضح، وعلى وجه الخصوص، النموذج العلمي الذي أصبح من الصعب جداً السيطرة عليه مع أواخر القرن العشرين مثلما كان النموذج الدينـــي خلال القرن السابع عشر إن انهيار الرأسمالية والخلل العام في المؤسسات وردود الفعل القوية على إتلاف المحيط البيئي وقصور العلم عن تفسير الأشياء الهامة التـــي تحدث للعالم وفقدان الاهتمام بالعمل أو الرغبة فيه وارتفاع معدلات الاكتئاب والبؤس والأمراض الذهنية، كل هذه المتغيرات وفقاً لآراء "مورس بيرمان" تعتبر متغيرات متجانسة من نفس النوع. إن ما تم استعراضه في هذا الفصل، هو تأكيد للفكرة القائلة بأن تغييراً جذرياً تم حدوثه بين علوم الكونيات القديمة والحديثة، الأمر الذي تسبب في عواقب وخيمة على سلوكنا وتفكيرنا تجاه العالم الطبيعي. لقد سبق وأن وضحت بأن الأعراف العلمية الحديثة صورت الطبيعية على أنها كيان ميت يمكن التلاعب به والسيطرة عليه واستغلاله بالكيفية التـــي تشبع جشع الحداثة. يمكننا أيضاً أن نستنتج بأن فقدان المغزى الكونـــي وإهمال العلوم الكونية قد أديا بدورهما إلى فقدان مماثل للافتتان بالطبيعة وتدهور علاقاتنا معها. إن افتقاد الإعجاب بالطبيعة، يعنـــي في جوهره إنكار بأن للطبيعة مظاهر ذاتية أو شعور أو تجارب وخبرات. ويعنـــي كذلك بأن

الطبيعة شيء مفعول به وليس فاعلاً. ولذلك نجـد أن الناس عندما يتحدثون عن الطبيعة يشيرون إليها بوصفها "جماداً" أو "شيئاً جامداً" أكثر من كونها كائناً حياً مثل (أنت أو أنتِ). إن الرهبة والوقار تجاه الطبيعة اللذان كانا شائعين في النظرة القديمة للعالم، أصبحا غائبين تماماً في العالم الحديث. وعلى اعتبار أن الطبيعة مفعول به، أكثر من كونها فاعلاً مشاركاً، أصبحنا نشعر بالاغتراب الذي لم يكن مُشاهداً في ثقافات العالم القديم.

إن التحرر من الافتتان بالطبيعة يعنـي أيضاً، بأن الطبيعة ليس لها هدف أو مغزى متأصل فيها، وأن الغاية موجودة فقط في نوايا وأهداف البشر نحو الطبيعة. وهكذا فإن العالم الطبيعي يعتبر غير ذي معنـى وليس له أهداف أو اتجاهات خارج نطاق الاتجاهات والتصميمات التـي صممها البشر وألبسها إياه. ومن ثم أصبحت الطبيعة وسيلة لغايات بشرية أكثر من كونها غاية في حد ذاتها. إن الرؤية العلمية الحديثة التـي جاءت إلينا عن طريق "نيوتن وديكارت" لم تترك مكاناً أو دوراً في الكون للأهداف النبيلة والمثل العليا والاحتمالات والمواصفات الحميدة. كما أن رؤية الحداثة هذه لم تترك مجالاً للحريات أو الإبداع أو السلطة الزمنية والمدنية الجماعية أو احترام للقدسية والمقدسات الإلهية. إن مثل هذه الأنماط السلوكية لمناصري الحداثة ونواتجها قد أدت إلى تحرك غير مسبوق تجاه العدمية والقنوط*. إن المعتقدات العلمية الحديثة، أدت إلى حد ما، إلى محصلات تهكمية بخصوص تكامل الفكر الإنساني. ولقد قام العلم الميكانيكي، أثناء عملية نـزع صفة السحر والفتنة عن العالم الطبيعي بالتحرر هو ذاته من هذا الافتتان. إن مذهب الشك في العلم الحديث فتح الباب للقنوط وفقدان الأمل في صلاح البشر، ومن ثم انقلب هذا الشك والقنوط على عمليات العلم نفسه، وهو ما نشاهد بعض أعراضه واضحة في بعض النـزعات المتطرفة في النقد غير البناء لما بعد الحداثة. إن المفهوم الضمني الذي يمكننا استنتاجه، هو الذي تتضمنه الحقيقة التالية: إذا كانت الحياة البشرية في مجملها تفتقد إلى المعنى، وإذا كانت تفتقد كذلك إلى الهدف، فإن العلم بوصفه واحداً من أهم فعالياتها، فهو بالتالي يتقاسم هذا الافتقاد إلى المعنـى الجوهري. وفي المراحل

*(العدمية أو النهلستية): وهي وجهات نظر لمذهب يقول بأن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة وأن الوجود لا معنـى له ولا غناء فيه، وليس للأخلاق أساس موضوعي.

حديثة النشأة، أصبحت الاكتشافات العلمية تعتبر صحيحة أو مؤكدة من وجهة النظر العلمية العالمية تحت ظروف محدودة فقط. والآن أدت بعض انتقادات مرحلة ما بعد الحداثة إلى تشكيك في العلوم التقنية الحديثة أكثر عمقاً (د. جريفن، D. Griffin 1988a).

إن التخلي عن حب الطبيعة والافتتان بها يمثل مشاكل أكثر تعقيداً من مشاكل النظريات المعرفية. ولقد شاهدنا على مستوى الممارسات الثقافية أن البشر، باتخاذهم لموقف منعزل غير أخلاقي تجاه العالم الطبيعي، انجرُّوا إلى ارتكاب سلوك استغلالي يتصف بالرعونة وانعدام المسؤولية تجاه الطبيعة. وهو الموقف الذي أصبحنا نلمس عواقبه في شكل أزمة بيئية حادة. ويعتبر من المهم جداً بأن لا تنسب أوضاعنا الراهنة إلى أي مسببات خارجة عن إطار أنفسنا. إن المطروح للنقاش هو التفكير الغربي والنظرة الغربية للعالم، وهي السبب الرئيسي للأزمة البيئية الحالية، وإننا حقيقة في مركزها. إن الأزمة البيئية جزء لا يتجزأ من كل شيء نؤمن به ونتصرف بموجبه. إن المشكلة البيئية جزء من صميم نسيج حياتنا (ايفرندن،Evernden 1983). أنه يتحتم علينا أن ندرك بأن الأزمة البيئية ليست عارضة ولا خارجية عنا، كما لو كانت ظاهرة خارجية، بل إنها في حجمها وصيغتها الراهنة تضع رؤيتنا الثقافية للعالم التي تقوم على الابتكار التقني لأغراض التسويق التنافسي للمواد الاستهلاكية، موضع شك وتساؤل. إن تفسخ عالمنا الصناعي – التقني – الاستهلاكي يمكن إدراكه من خلال نواتجه المعتمة المتمثلة في تدمير كوكب الأرض. إن إدراك العالم والاعتقاد فيه من خلال رؤية تعتقد بالتحرر من الافتتان والتعلق به، يؤدي إلى إدراك العالم على أنه ميت ومكون من مادة يمكن استغلالها والتلاعب بها. إن الإحساس بالرهبة والإجلال يبدو وأنه فقد من مواقفنا الحالية تجاه العالم الطبيعي.

وإضافة إلى ذلك، يجب أن نقيِّم على المستوى الشخصي الأثر العميق الذي لعبته قيم "الفردية" ضمن سياق فقدان الافتتان بالطبيعة. إن التعريف الحديث للفرد بأنه وحدة اجتماعية مستقلة بذاتها هو نتاج للإجماع الذي حققته النظرية الاجتماعية التحررية التي يعتبر فيها الأفراد وحدات مستقلة بذاتها ومتفردة بنفسها. ويصف (هوبز Hobbes) الأوضاع الأولية "لحالة الطبيعة" بأنها انعزالية حيث ينكمش الفرد اجتماعياً نتيجة للخوف من فقدان فرص البقاء والاستمرار. إن قيام المجتمعات مبني على اتفاقات وتعاقدات ككيانات منفردة

وهويات مختلفة، والتـــي حسب وصف "هوبز" ما هي إلاّ جزيئات أو ذرات اجتماعية. وهذا الانفصال والتفتت إلى جزيئات ذرية، ما هو إلاّ خاصية مميزة للفكرة التحررية للفردية، وستكون له مضامين عميقة على الفكر الحديث.

وعندما حاول (لوك Locke) تطبيق نظريته عن الطبيعة البشرية على الظاهرة الاجتماعية، كان دليله ومرشده، هو الاعتقاد بوجود قوانين طبيعية تحكم المجتمع البشري مشابهة لتلك القوانين التـــي تحكم الكون المادي. ومثلما تحدث الذرات في الغاز حالة من التوازن، كذلك يستقر أفراد البشر في المجتمع في "حالة طبيعية". ولذلك كانت وظيفة الحكومة ليست سن القوانين وفرضها على الناس، بل بالأحرى اكتشاف وتدعيم القوانين الطبيعية التـــي كانت موجودة قبل تشكيل أية دولة. ووفقاً لآراء "لوك" فإن هذه القوانين الطبيعية شملت ضمان الحريات والمساواة بين كل الأفراد إضافة إلى حق التملك الذي يمثل ثمار كدح الفرد (كابرا، Capra 1983: 69).

إن الجانب السلبـــي للفردية يتم الآن الإحساس به على كل مستويات الحياة الثقافية. والفرد المستغرق* في الذاتية التـــي تم وصفها للتو، لا مضامين عميقة لفقدان الإدراك الكونـــي الذي يصل الأفراد بمشترك الحياة الأرحب ومن خلالها بالكون نفسه.

رؤية تربوية: إعادة الوصل والافتتان بالعالم الطبيعي

لا زلنا نحاول نحن البشر، وعلى مدى ما يربو إلى ثلاثة قرون، أن نفصل أنفسنا عن العمليات العضوية للعالم الطبيعي. لقد تم تغليب العقل على الطبيعة عن طريق المنعطف الديكارتـــي (منسوب إلى ديكارت) وتم بذلك انتزاع أسرار العالم الطبيعي وقواه عن طريق العقل. وبفصل الذات البشرية عن المشاركة الفعالة في عوالم الكون والطبيعة، ساهم الإنسان في تعميق فجوه اغترابه عن العالم الطبيعي. إن تصورنا للأزمان التاريخية أصبح منقطعاً وإحساسنا واهتماماتنا بعمليات الأرض والكون الارتقائية أُخرست وأصبحت ممزقة ومشتتة. وكما يقول (توماس بيري، Thomas Berry 1988) أصبحنا منعزلين عن أصوات العالم الطبيعي بكيفية مرضية أو تستية*. إن إدراك التركيبة العضوية للكون يجب إحياؤه. ويجب

---

*إن تناولي لموضوع "الفردانية" لا يتناول ملامحها الإيجابية العديدة. أرجع إلى تايلور (1991)

*الهروب من الواقع إلى الخيال.

علينا إبعاد العلوم بعيداً عن انقسامات النظام الديكارتـي الحديث، إلى علوم ما بعد الحداثـة التـي تقوم على إطار من النظام المفتوح يكون عضوياً وشمولياً. إن التفسيرات الأكثر شمولية تجمع بين القيم والحقائق في تفاعل ديناميكي مختلف تماماً عن تلك الأطر التفسيرية التـي تفصل القيم عن الحقائق. يجب أن نتعرف على العالم الطبيعي بتوسع وإظهاره في علاقاتنا معه، حيث نكون نحن البشر ملاحظين ومشاركين أكثر من كوننا مشاهدين متفرجين منفصلين. يجب أن يتم تقييم أبعاد العقل الباطنية، ويجب أن يكون وصف العالم مزيجاً من المجرد والملموس (الحسي) مع أسبقية الوصف النوعي على الوصف الكمّي. يجب اعتبار العقل جزءاً من العالم الطبيعي ويجب أن تكون علاقات العقـل/الجسـد والفاعل والمفعول به مظاهراً لعملية واحدة. وأخيراً يجب أن يكون المنطق شاملاً للاثنين بدلاً (من كل من) أو (هذا أو ذاك).

إنه لمن الواجب علينا إعادة إحياء العضوية وإدخالها ضمن نظام ما بعد الحداثة حيث لايتم تحجيم المنظومات الحية إلى أجزاء ومكونات، وحيث لا تعتبر الطبيعة شيئاً ميتاً بل تكون من ضمن المنظومات الحية. إن موقع العالم البشري كعالم مشارك في عمليات الكون الخلاقة التـي تنكشف تدريجياً يفتح لنا آفاقاً واسعة على أسرار الطبيعة وغموضها الملهمة. وبتحركنا نحو المشاركة في العمليات الكونية فإننا سنكتسب خبرات تجعلنا نقدر بإجلال مظاهر ومجالات الواقع كافة، وسوف نكون قادرين على استشعار مكاننا في الطبيعة كجزء من "نسيج الحياة". إن العمليات الديناميكية المتضمنة في "نسيج الحياة" تفتح بصيرتنا الإنسانية على التفاعل المدهش لكل الظواهر الطبيعية وعلاقاتها المتبادلة. إننـي أقترح في فصول لاحقة رؤية متسعة شمولية توطد العمليات الحية للأرض المستمرة في الحدوث في كون ارتقائي متعاظم. وبانفتاح حياتنا البشرية على قصة الكون العظيمة فإننا نقدم قصة متكاملة لكيفية تأكيد التاريخ البشري لنفسه ضمن نشوء الكون الخلاق. إننا خلقنا من مادة من قوام النجوم. إن الرؤية الأكثر شمولية واتساعاً لكون ارتقائي شاسع تضع تاريخنا البشري في النطاق الأكثر اتساعاً لتاريخ الأرض. نحن لسنا فقط نتاج النجوم، بل نحن مخلوقات أرضية أيضاً:

يبدو كوكب الأرض في الصور الفوتوغرافية المأخوذة من الفضاء الخارجي مثل شيء صغير يمكننـي

إمساكه براحة يدي. ويمكنني أن أتخيل بأنه سيكون دافئ الملمس، حسّاساً ونابضاً بالحياة. إن هذه الحفنة من المادة الناتجة عن غبار النجوم قد تطورت عبر دهور الزمن الجيولوجي. إن مثلها مثل فراشة تشكلت داخل غلاف الخادرة، حيث أعادت الأجزاء تشكيل نفسها متخذة أشكالاً جديدة. لقد ازداد التنوع وأفسحت البساطة الطريق للتعقيد المندمج بغزارة وتنوع وتوسع. هناك مخزون هائل من الروائع وثروة من التفاصيل المرهفة تحت غطاء من السحب والهواء المتحركين. يمكنك مشاهدة أقواس قزح متجسدة في الشلالات المائية وأزهار متجمدة على أطر النوافذ وقطر الندى يتلألأ مثل الجواهر المنثورة على عشب المروج، ومتحركات العسل (النحل وحشرات أخرى) تغني في أشجار (الجاكندرا Jacandra)... والزمن يواصل الاستمرار... ويواصل الكوكب دورانه في مساره عبر امتدادات الفضاء المجهولة. ولا يمكننا التخمين أو التنبؤ بوجهته أو مصيره. إن فقاعة المادة الزرقاء الجميلة هذه تزخر بفيض من العجائب غير المعروفة ومستقبل غامض ينتظر الاكتشاف (ينغ، Young 1983: 266).

إن المشروع التربوي، عند هذه اللحظة من الزمن، بحاجة إلى خوض أنشطة بشرية جديدة ومتجددة كمواصلة للأنشطة الإبداعية الخلاقة التـي نتج عنها نشوء نظم المجرات وصاغت العناصر التـي تسببت في وجود كوكب الأرض ضمن النظام الشمسي. والتـي صاغت الحياة في تنوعها المذهل وتجلياتها العجيبة والتـي أيقظت الوعي في التنظيم البشري والتـي مكنت من حدوث التعاقب الحضاري العظيم. يوجد تواصل غير منقطع في عملية الخلق عبر مدى الاتساع الكامل لتطور الكون. ونحن في تركيبتنا الروحية والجسدية منغمرين بالكامل في عملية الخلق. تلك العملية الوحيدة الشاسعة البديعة التـي تمتد عبر كل مسافات واتساعات الفضاء ومنذ بداية الزمن إلى الوقت الراهن. إن انغماس البشر في هذه العملية، يعبِّر عنه الشعراء والموسيقيون ورجال الدين. ويجد تعبيراً أيضاً في سعينا المتواصل لخلق وظيفة بشرية ذات كيان اجتماعي للمجموعة وفردي للفرد نفسه. إنَّه هذا الفهم للكون الذي مكن هذا الجهد البشري العظيم من الحدوث. وهو أيضاً الذي يموِّل مواردنا الأساسية لصياغة نظام كوكبـي جديد نسميه (العصر الإيكوزوكي Ecozioc). وكما سبقت الإشارة، فإن القصة الأساسية الجديدة، التـي تمثل المنجزات السامية للمساعي العلمية عبر القرون الماضية، يجب إكمالها بحس روحي وأبعاد ملموسة للعملية الارتقائية. غير أنه حالما تنجز هذه المهمة، فستكون هناك حاجة ضرورية لوجود بصيرة قوية وحيوية إلهامية لدعم هذا المسعى. إن قصة

الخلق المتكاملة هذه، يزيد من كمالها إدراك واعٍ بمظاهرها الروحية المقدسة منذ البداية. إن مهمتنا الآن هي فهم هذه العملية بشيء من التعمق في المشروع التربوي ضمن العصر الإيكوزوكي القادم.

إن الخاصية الإيجابية المتميزة لقصة الكون الراهنة، هي أنها قصة عامة ومتاحة للجميع. ورغم أنها نتاج البيئة الثقافية الغربية، إلا أنها ليست متأصلة الارتباط بأي ثقافة تقليدية. إنها مدعَّمة ببراهينها وأدلتها الخاصة. لقد أضحت هذه القصة أساساً علمياً للتعليم على مستوى العالم. ورغم أنها واضحة ومفهومة من قبل الجميع وخاصة في عرضها المبسط لنشوء الكون المادي، إلاّ أنها غالباً ما تعرض مصحوبة بما تقترحه من تقدُّم في مجالات الطب والعناية الصحية والتغذية وتحسينات في مجال الزراعة وإدراكاً أعمق للعدل الاجتماعي وتقدماً في مجال الاتصالات ووسائل النقل. ويجب القول أيضاً بأن قصة الكون بهذه الصيغة محبطة للمجتمعات التقليدية حيثما كانت. إن صيغتها هذه ساهمت في تلوث الدين ودعمت الانهيار الأخلاقي، وحطمت النظم الاجتماعية وهي كذلك مصدر للارتباك النفسي والاضطرابات الانفعالية. وإضافة إلى ذلك أدت هذه الكيفية لعرض قصة الكون عندما اصطحبتها التقنية الغربية إلى الاستغلال التجاري للبشر وتدمير البيئة الطبيعية.

ورغم إن الآثار النهائية الذي يشوبها تعدد القيم والمعانـــي وملؤها المتناقضات هي السائدة الآن، إلا أنه لا يمكن لأي طريق إلى المستقبل تجاهل الرؤية الشمولية الجديدة للكون. إن الحمل الثقيل للحضارة الغربية هو إدماج هذه القصة بمظاهرها الخلاقة وبتطورها إلى أداة أكثر مركزية وإبداعاً للمسار المستقبلي للمغامرة البشرية.

ويمكن للمرء أن يلاحظ تاريخياً وجهة نظر المشروع التعليمي الجديد، الذي يأخذ في الاعتبار العبقرية الخلاقة لعمليات الأرض الأولى، إضافة إلى أداتها التربوية الرئيسية المتمثلة في الشفرة الوراثية التـــي تكشف مسارات وتصنيفات عمليات الحياة في الأفراد والسلالات والأصناف الحية. إن العبقرية الخلاقة القصوى للأرض عند هذا المستوى هي الخطة الرئيسية لمجمل التفاعل الخلقي الحيوي للشفرات الوراثية وعمليات التحول التـــي يتم بمقتضاها تطوير شفرات جديدة ضمن نظم تفاعل الطاقة الحية وغير الحية. إن الإبداع عند هذا المستوى إضافة إلى الحرية هما مرشدان رائعان للفهم والإدراك العميق لمعانـــي الحرية والإبداع خلال

المراحل اللاحقة لتطور البشرية. وكما هو الحال مع الكون، فإن التعبيرات المتكاملة للبشرية تحدث عبر تعاقب التطورات الرئيسية واسعة النطاق، بالإضافة إلى التنوع ضمن المستويات المنفردة من هذه التطورات.

إن بعض لحظات الإبداع تتطابق مع عمليات التحول عند المستوى ما قبل البشري. ولذلك تحدث في أزمتنا هذه تطورات ثقافية واسعة النطاق من عصر السينوزويك* إلى عصر الإيكوزويك*. وبما أن الإبداع يقتضي أن تحتويه حقيقة مبدئية في أعماق الكون اللاواعية، فلذلك تحتوينا نحن الآن تجربة ملهمة آتية إلينا من خلال قصة المنشأ الجديدة وتحقيقها في هذه المرحلة الحديثة ذات العلاقة المشتركة بالكون. وأي تراجع إلى ثقافة أحادية هو قصور في العصب الارتقائي. إننا بالتأكيد لسنا في حاجة إلى النظام العالمي الجديد الذي طرحه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (جورج بوش George Bush) مع نهاية حرب الخليج الثانية. وعلى كل حال، فإن مهمتنا التربوية ستتمثل في تشجيع المقاومة والصمود في وجه الرؤية الأمريكية المبثورة لثقافة العالم. "إن الحديث عن قوة ثقافية عالمية لا يعني فقدان التنوع الثقافي، بل يمكن تحقيقها ضمن محيط تنوع المخلوقات الحية وتنمية قيم وتقاليد وأخلاقيات بيئية عالمية. (ميتش Mische 1989: 15).

نحن حقيقة أحراراً في كيفية القيام بهذا الإنجاز، غير أننا محكومين بأطر وقوانين شفرة الحياة وكذلك واعز الضمير نحو إنجازات محددة وحيدة من نوعها يمكن تحقيقها في وقتنا الحاضر. ومثلما هو الحال في تشكيل كوكب الأرض كعملية وحيدة من نوعها لا يمكن تكرارها أبداً، وكما أن نشوء الحياة حدث في ظروف استنفدتها الكائنات الحية السابقة ولا يمكن تكرارها في العالم الطبيعي مرة ثانية، وكما أن الضمير الواعي نشأ واستيقظ في لحظة محددة حيث تم الانتقال من الوعي ما قبل البشري إلى أسلوب الوعي البشري والتي هي أيضاً لا يمكن أبداً توقعها مجدداً، فهكذا يكون الأمر مع اللحظات الثقافية الإبداعية التي أشرنا إليها سابقاً. إنها إنجازات مطلقة وحيدة من نوعها ولا يمكن أن تكرر. ويمكن مشاهدة

---

* السينوزويك: العصر الذي هو في طور الانتهاء.

* الإيكوزويك: العصر الذي هو في طور الابتداء الآن.

هذا الأمر في نشوء الثقافات الدينية الكلاسيكية الرئيسية. إن لحظة الخلق لا يمكن أن تتكرر.

لقد حدثت أيضاً نقله في المرحلة العلمية التقنية. إن الكوكب نفسه تم تغييره وتأثرت كل أشكال الحياة وحدث تغيير دائم لأعمق عوالم الوعي الإنساني. إنه بوسعنا المضي قدماً في الملاحظة العلمية والعملية التجريبية، لكن الانتقال من العصر الكلاسيكي إلى العصر العلمي لن يحدث مجدداً أبداً.

وسيكون الانتقال إلى العصر الإيكوزوكي بطبيعته الخاصة مبدعاً في مساره. وبينما نحن لا نـــزال نتحدث عن رؤية شمولية، فإنه علينا أن ندرك دائماً أن القصة الارتقائية الناشئة هي قصة تمايز وذاتية ومشاركة في كل مستوياتها. إن تحقيق إعادة الافتتان بالعالم الطبيعي لن تتم بالعودة إلى طرق العمل والتفكير القديمة. ولن نستطيع أن نتصور أو نتخيل بطريقة شاعرية أو نقلد صوفية الشعوب المحلية البدائية القديمة في علاقات المشاركة الشمولية مع العالم. إنه ليس بوسعنا أن نحذو حذو أنظمة ورؤى عالمية لا نملكها ولا نعيش فيها. ومع ذلك يجب علينا استعادة بعض مظاهر المعارف من ذلك الماضي. ويجب علينا القيام بتمحيص هادئ ورصين لحكمة وحصافة الثقافات التـــي سبقتنا. ورغم أن التقاليد الصوفية والدينية والسحرية كانت عرضة للأخطاء في تصور الأرواح، فإنها مع ذلك شملت داخلها حكمة وعي البشرية بالتلاحم العضوي للإنسان مع نظام طبيعي ومعقد. إن هذا النمط من التقييم لا يلغى الحداثة ولكنه قد يساعدنا على تجاوزها. إن المشكلة الرئيسية هـــي أن نكتشف كيفية استعادة المعارف القديمة في صيغة مكتملة النضج (بيرمان،1989 ;Berman 1981).

إن العلماء المحدثون بدءوا في إدراك الحكمة البدائية التقليدية على أنها محنكة وحصينة ولها قيمة عملية هامة. ولقد طور العلم البدائي السابق على أنظمتنا الغربية أنظمة لتعريف وتسمية وتصنيف أنواع التربة والنباتات والحشرات وعناصر البيئات المحلية واستخلاص منفعة طبية واقتصادية منها. إن هذه النظم هي توضيحات ثاقبة وقوية لفوائد ملاحظاتهم الدقيقة. ويزودنا كل من (كندتسون وسزوكي، Knudtson and Suzuki 1992) بإحساس قوي بنوعية الافتتان المتأصل في المعرفة البدائية، من خلال تمييزهما الدقيق للتباين بين المعرفة البدائية والمعرفة العلمية الحديثة، ويحددان قائمة بالخصائص التالية كأساس للمقارنة:

1. تنظر المعرفة البدائية التقليدية للعالم الطبيعي على أنه مقدس أكثر من كونه قِبْلِياً دنيوية

متوحشة وبرية.

2. الحكمة البدائية مشرَّبة بحسٍّ تقديري وتوقيري عميقين للعالم الطبيعي مع غياب الرغبة في الهيمنة البشرية عليه.

3. الحكمة البدائية تعتبر الروح بأنها منتشرة في أرجاء الكون وليست متجسدة في مرحلة واحدة متألهة.

4. ينـــزع العقل البدائي إلى اعتبار الكون تفاعلاً نشطاً لقوى طبيعية مجرة ودائمة التغير وليس كنظام شاسع لأشياء مادية ملموسة.

5. تعتبر الحكمة البدائية بأن العالم الطبيعي بأكمله ينبض بحياة من نوع ما وتحركه قوة حياتية واحدة.

6. تعتقد الحكمة البدائية في وجود حس عميق بالارتباط الوجدانـــي مع أشكال الحياة الأخرى والانتساب إليها أكثر من الإحساس بالانفصال عنها والتفوق عليها. ويعتبر كل نوع أو كل فصيلة حية بأنها منحت بوفرة نظاماً خاصاً منفرداً من المواهب والقوى وليست محدودة إلى الدرجة التـــي تثير الشفقة عند مقارنتها بالإمكانيات البشرية.

7. وأخيراً، يوجد اتجاه نحو بناء علاقة إيجابية بين أبناء البشر والعالم الطبيعي يكون أساسها التواصل الأفقي بين البشر وعناصر الكون الأخرى أكثر من كونها طريقاً أحادياً إلزاميا.

إن تاريخنا الثقافي مع السكان الأصليين للأمريكيتين قد تميز بالغطرسة والاحتقار لنظرة السكان الأصليين إلى العالم التـــي لم نفهمها بعد و لم نقدرها حق قدرها. ونحن أصبحنا الآن نتحقق "بمساعدة إعادة بناء ما بعد الحداثة" من أننا تجاهلنا الرؤى العالمية التـــي كانت غنية بالمعانـــي الكونية. إن الملخص الذي سبقت الإشارة إليه بخصوص رؤى السكان الأصليين نحو العالم يمكن أن تزودنا بإدراك وتقدير جديدين للمغزى التاريخي والمعاصر لعلوم الكونيات التقليدية البدائية. إن تعليماً تالياً للعصر الحديث ، مؤصل ضمن أفق إيكوزوكي سيتغلغل في المغزى العميق لمعرفة السكان الأصليين. وسيكون الدخول في حوار مع وجهات النظر العالمية التـــي تقدر وفرة العلوم الكونية، شأناً تربوياً مهماً. إن نتائج هذه الحوارات ستكون بدون شك مفتوحة للجميع. ولن يكون هذا النمط من التعليم تصُّوراً شاعرياً للطرق التقليدية

البدائية، بل ستكون بالأحرى حقائق ناشئة تمثل وجهات نظر جديدة أكثر ثراءً وشمولية. أمَّا بخصوص رؤيتنا التربوية الخاصة المقترحة تجاه العالم، فإنها ستكون منفذاً للرؤى العالمية والشعوب المختلفة عنَّا وستكون مقدرة - ومقبولة - ومرحب بها. وستكون كذلك تدريباً على التواضع الثقافي الذي يواصل طريقه نحونا منذ أمد بعيد.

إن هذا البعد المهم للرؤية التربوية الانتقالية يقوم على الافتراض الذي يفيد بأن المجتمع الأرضي بأكمله هو التربوي الأول. إن اهتمامنا الحالي بالعالم الطبيعي يقوم أساساً على مدى الاستفادة منه، غير أننا ضمن هذا الافتراض نفتقد إلى الإدراك الواعي بأن العالم الطبيعي الذي نحن متأصلون فيه هو أكثر بكثير من الهامش النفعي. لقد ورَّث لنا عدم الافتتان بالطبيعة نظرة تجاه العالم قائمة أساساً على اعتبارات تغمر أبعادها المادية النفعية. إن هناك إحساساً ملحاً نحو تبنـــي منظور أكثر رحابة وشمولية من ذلك المنظور المادي نتيجة لوجهات نظرنا العلمية السائدة التـــي طورت مقداراً هائلاً من المعلومات عن العالم الطبيعي من حيث مظاهره المادية وقوانا المماثلة للتحكم فيها. إن مثل هذه الرؤية في غاية الأحادية ولها آثار عميقة على برامجنا التربوية وفي كافة مستوياتها. إن ما يتم اقتراحه الآن في كل الدوائر التربوية هو إما أن يكون تقليدياً أو محاولة إصلاحية. وكما لاحظنا في الفصل الثانـــي، فإن هناك اقتراحات تدعوا إلى العودة إلى أمثلة الحضارات التقليدية، في الوقت الذي نكون نحن فيه مدعوون لإعادة اكتشاف مبادئنا التربوية في الإنسانيات. وهذا ما نلاحظه من قراءة كتاب (*إغلاق العقل الأمريكي* *The Closing of the American Mind*) لمؤلفه (بلوم، Bloom 1987) الذي سبق لي انتقاده. توجد اقتراحات أخرى بالعودة إلى تقاليد الماضي الروحانية الأخلاقية غير أن هذه الزاوية يحتلها اليمين الدينـــي الجديد، إضافة إلى عالم العجائب الذي يعرضه العلم والتقنية. ويلوح الأمل المرجو هنا، من التكيف العلمي مع العالم من خلال قبول حتمياته كما هي معروفة من خلال العلوم المادية والسياسية والاقتصادية وكذلك العلوم الاجتماعية. وأخيراً لقد اعتمد التعليم بشدة على إرشاد سيكولوجيات ضرب في الإقناع بشكل أو بآخر.

إن الرؤية التربوية التـــي يتم تطويرها في هذا الكتاب تتحرك نحو منظور أسميته "الإيكوزويك التحولي"، وإحدى خصائصها الأساسية هي العلوم الكونية الوظيفية الفعالة.

ويلاحظ (توماس بيري، Thomas Berry 1988) وجود صعوبات تواجه التربويين الآن، حيث تعنـي عبارة "العلوم الكونية" كل ما يُشير إلى "المادية" وهو المعنـى المقبول للإنسان المعاصر. وبهذا المعنـى فهي لا تبين الحقيقة المتكاملة للكون. ويضيف "بيري" قائلاً، إن عبارة "جيولوجيا" لا تفي بالغرض أيضاً لأنها لا تبين الحقيقة الكاملة لكوكب الأرض، بل توضح مظاهره المادية فقط. إن ما يشير إليه "بيري" هو الحاجة لعلوم كونية فعَّالة تفسر حقيقة الكون المتكاملة. إن مثل هذه الآراء تصل بنا إلى الحوار التفصيلي الثانـي للرؤية الإيكوزوكية المقترحة. إننـي في الواقع، أعيد صياغة أعمال "توماس بيري" في شكل تلخيصي مطول، لأنه يبلور للتربويين ما سوف يتم الإسهاب في سرده في فصول لاحقة من هذا الكتاب. وتقترح أفكار "بيري" المبدئية عملية ارتقائية رباعية للعلوم الكونية الوظيفية أولا: حدث نشوء المجرات والعناصر، ثانياً: حدث نشوء وارتقاء النظام الشمسي والأرض بتشكيلاتها الجزئية والجيولوجية. ثالثاً: حدث نشوء وارتقاء الحياة في كل تنوعاتها. رابعاً: وأخيراً: حدث نشوء وارتقاء الضمير الواعي والتطورات الثقافية للتنظيم البشري. إن هذه العملية بأكملها تمثل وحدة واحدة.

> إنه من أول لحظة يمكن تصورها منذ النشوء الكونـي وحتـى الوقت الراهن، ومن خلال ملاحظة كل الأشكال والتعابير اللاحقة لنشوء الكون، يمكن القول بأن العروة الوثقى للترابط التـي تجعل من الكل كوناً واحداً، يزيد تأكيدها ووضوحها بتزايد الملاحظة العلمية، رغم أن هذا الترابط سيختفي لاحقاً من الصياغة العلمية والفهم العام. وفي ضوء هذا الترابط، فإن كل شيء موجود، هو موجود بشكل ودي حميم لكل شيء آخر موجود في الكون. ليست هناك ذاتية لشيء بدون وجود الأشياء الأخرى. إن هذه العلاقة هي علاقة مكانية ومؤقتة. ومهما كانت رابطة الوحدة بعيدة في الفضاء والزمان والمكان، فإنها دائماً موجودة وفعالة. إن الكون مشترك عام وهو في ذات الوقت مجتمع متكامل. ونحن أنفسنا نُكوِّن ذلك المشترك العام الذي سيصبح واعياً بذاته (توماس بيري، T. Berry 1988: 91).

إن الوصف الملائم للأرض يجب أن يكون شاملاً لكل مظهر من مظاهرها. ولن تتم معرفة العناصر الأكثر دقة بشكل كامل ودقيق إلى أن يتم الاعتراف باندماجها في صيغ أكثر شمولية. وعندما نتحدث عن التعليم ضمن هذا المحيط الكونـي الأكثر رحابة واتساعاً وشمولية،

فإنه من الواجب علينا اعتباره تجربة حياتية عامة يشترك فيها الجميع. إن برامج التعليم الرسمية ليس بإمكانها تحقيق كل هذه المتطلبات، الأمر الذي يحتم تغييرها إلى نمط من التعليم يمكنه توفير محيط يمكّن من الاندماج والتكامل ويحقق الأهداف الوظيفية للحياة. إن المطلوب تعليمه في مؤسسات التعليم العالي الرسمية، هو تنمية عمليات تدبُّر القيم والمعاني التي يجب تعليمها في سياق نقدي. ومن الواضح أن الجامعة في الوقت الراهن، يجب أن تعبِّر عن المحيط الكوني وتتطلب الدقة أن نسمِّي مؤسساتنا التربوية الرسمية "الجامعات المتعددة الأغراض" أكثر من كونها جامعات فقط. إن جامعاتنا اليوم تتخبط لأنها بحاجة إلى بيئة أكثر رحابة وشمولية. وحيث أن مؤسساتنا التربوية العليا لا تتضمن المرونة والرحابة الملائمة، فهي بالتالي تؤدي وظائفها ضمن رؤية مجزّأة وممزقة للعالم. إن أحد الحلول المقترحة لهذا التشتت هو ملء الفراغ الشاغر بإعادة إحياء الصيغ الماضية للدراسات البشرية الإنسانية في منهج جوهري مركز. إن مثل هذا المنهج المقترح يشمل الفلسفة وعلوم الأخلاق والتاريخ والأدب والدراسات الدينية وشيء من العلوم العامة. وعند هذه النقطة من تاريخنا الثقافي الخاص، لا يبدو أن هذه المحاولات لخلق تعليم تكاملي مثير لحس الاتزان الملتزم ولا يبدو أن هناك نموذجاً موحداً في الأفق. ونتيجة لذلك فإن التعليم الوظيفي الفعال تحقق التحول المنشود لن يتحقق إلاّ بثورة تعليمية تحولية.

في تقصيه الدقيق للأزمة الراهنة يقترح "توماس بيري 1988" بأننا بحاجة للعودة إلى قصة الكون. ويؤكد أنه وللمرة الأولى شعوب العالم برمتها بقدر ما يتلقون تربية في سياق حديث، فإنهم يُربوّن في إطار قصة الأصل هذه. وقصة الكون هذه تزود بالموقع حيث يقدم للأولاد في كل مكان – في إفريقيا، في الصين، في روسيا، في أمريكا الجنوبية أو أمريكا الشمالية، أوربا والهند – يقدم لهم عالمهم وهويتهم الشخصية في الزمان والمكان. وبينما نحتاج إلى الأصل التقليدي ولقصص الرحلات في العملية التربوية، لا يمكن لأي منها أن يقدم الرؤية الشاملة للعملية التربوية كما تظهر في القصة الجديدة، التي هي الجانب الأسطوري لمعرفتنا الحديثة للعالم. تخبرنا القصة كيف برز العالم إلى الوجود والتحولات التي مَرّ عبرها وبشكل خاص على كوكب الأرض إلى أن تحققت المرحلة الراهنة للتطور في ذكاء البشر في الزمن الحاضر.

إن كامل هذه القصة للعالم هو الأساس لكل سلوك تربوي والسياق الملائم للعملية

التربوية برمتها. وفي الوقت ذاته، ينبغي فهم القصة في حدود التطور الشخصي والاجتماعي. وهكذا يمكن تثمينها في إطار التطور البشري. وتتبع عملية التقويم لطلبة المدرسة الابتدائية، وطلبة المدرسة الثانوية، وبعدهم طلبة العليم العالي، مرحلة التطور لكل فرد. لن ندهش من أن طلبة المدرسة الابتدائية والمدرسة الثانوية لا يقدر ومن القصة بأسلوب متعقل وتفكري كامل: في الجامعة، تفسح عمليات النضج المجال لبلوغ معرفة أقوى وأعمق. من المهم أن نلاحظ عند هذه النقطة أن سلوكنا التربوي والتزامنا ينبغي أن يتأسس على قصة لها سياقها الثقافي والتاريخي والكوزمولوجي، سياق دلالة يمكن القبول بها بشكل واسع لدى الأفراد من ذوي الخلفيات القومية والثقافية المتنوعة.



التشكيك في قدسية الثقافة الغربية أصبح يدق الآذان ويقتحم النفوس وينسفه الأحلام

إنني مع التقدم في هذا الكتاب، سأحاول إبراز لإقتران بين الإقتصاد والكوزمولوجيا وتطور الأفكار التربوية، وأُحذر القارئ الكريم بأن يكون مستعداً للتحول إلى ما أعتبره دراسة محكمة لبعض الرموز المقدسة لدى المجتمعات الغربية، وإشارة إلى تصنيفي "نهاية العصر الثالث" بهدف الإشارة إلى أننا نتعامل في وقتنا هذا مع ماهو أكبر من مابعد الصناعة أو مابعد - الحداثة وإن ما يتجه إلى نهايته الآن هو حقبة خارقة من تاريخ الأرض وليس مجرد صفحة من تاريخ البشرية، وبالرغم من أنه بات واضحاً بأنه توجد مرحلة انعطاف جذرية تتضمن نهاية لعمليات تاريخ الأرض، إلا أننا ما زلنا نجد خطاباً رافضاً في لغة التجارة العالمية.

وستكون لنا في هذا الفصل نظرة نقدية لبعض المفردات الأساسية للمعجم اليومى "للنظام الإقتصادى الجديد". وهذه الأصوات تدق في آذاننا وفي العديد من التقاليد الروحية في العالم يتم توظيف تكرار بعض الأصوات بغية تعزيز السمو بالمشاعر الروحية ومثال ذلك ماتسمعه كثيراً في التقاليد الهندوسية من الصوت "أوم 'Om'" وفي البوذية صوت "زن كوان zen koan" الذى يتكرر كأحجية مبهمة شأنها شأن التصفيق بيد واحدة، أما في التقاليد المسيحية فتوجد أيضاً صلوات صاحب المقام الرفيع وكذلك "التراقيم الغريغورية" وهذه الأصوات قد يكون دورها إيجابياً أو سلبياً في تنمية المشاعر الروحية. وفي هذا الفصل أيضاً يتم تمحيص عدد من الأصوات المترددة في وسائل الاعلام والتي، في رأيي، عملت على إثارة المشاعر السائدة في المجتمع الصناعى الإستهلاكى.

وعندما أتكلم هنا عن نهاية العصر الثالث (السينوزويك النهائي) فإنني أعني بذلك العنوان الذى ظهر فيما بعد الدولة القطرية وهو التنمية الحديثة المتمثلة في التحوّل باتحاد الأعمال التجارية تحت شعار "النظام العالمى الجديد" أو سوق التنافس العالمى وهذه المرحلة

التاريخية تمتلك رموزاً بارزة ذات حضارات بارزة تذكّر بالنسخة الأخيرة من وعينا الصناعي "الإستهلاكي" وتكرار هذه الشعارات كأصوات هي من صنع المعلمين الروحيين في نهاية العصر الثالث، وأنا أتكلم هنا عن الجانب المبدع من الرأسمالية رجال الدعاية الذين سماهم المؤرخ (ستيورات أوين Stuart Ewen 1976) بقادة الضمير حيث تتركز أعمالهم في تهيئة مشاعر الناس لإتخاذ مواقف إيجابية نحو التصنيع ودعم شهيتهم نحو إستهلاك المنتجات الصناعية وفي ثقافة عالمنا المعاصر المعلنة من قبل المناصرين "للسوق العالمى الجديد". وقد نجحت هذه الأصوات في محاولاتها إدخال بعض البهجة على المستهلكين. وعلى مستوى الإقتصاد العالمى كان هناك حشد وتكريس هائلين لحركة الموارد الطبيعية بأكبر كمية وبأقصى كفاءة ممكنة نحو إقتصاد الإستهلاك "وكومة النفايات" التـــي هى في الواقع ليست مصادر لحياة جديدة بتخصيبها الحقول والمزارع ولكن كما أشار المؤرخ "توماس بيرى Thomas Berry 1988" على أنها، في أحسن الأحوال، الحد الفاصل وغالباً مصدراً للسموم وللفناء في نهاية المطاف.

وزيادة سرعة وحجم هذا النشاط الصناعى هى المعيار الأساسي لمايسمى "بالتقدم الحديث" ويرمز له بالنمو والتطور والعولمة والإستهلاك والمنافسة وهذه الرموز والأصوات بطبيعة الحال تخفي حقيقة التناقضات التـــي تتضمنها ثقافتنا الحالية وذلك عن طريق الإطراء المفرط لتركيبة التصنيع والإستهلاك. وأعتقد بأن مهمتـــي في هذا العمل هى تناول هذه الرموز والشعارات بالتمحيص الدقيق وسأبدأ بمصطلح التقدم.

التقـــدم

على الرغم من أنه بالإمكان إرجاع فكرة التقدم إلى العصر الكلاسيكي في الفكر الغربـــي إلا أنه لعب دوراً هاماً في الفكر الغربـــي الحديث منذ البداية الأولى لحركة التنوير (جنسبرغ Ginsberg 1973) وهو يعنـــى الإعتقاد في بلوغ الكمال من خلال المضي قدماً عبر مراحل تاريخية (من تاريخ الغرب)، وكل مرحلة هى تأكيد وتكثيف للمرحلة السابقة لها وفكرة التقدم قد ظهرت في القرن السابع عشر وكل النظريات السياسية والاجتماعية والعلمية في الثقافة الغربية قد تبنت مصطلح التقدم في معاجمها (واينر Wiener 1973) وتجدر

الإشارة هنا إلى أن الماركسيين يشتركون مع الرأسمالية في استخدام هذا الشعار في تفسيرهم للتاريخ. وقد رسم عالم اللاهوت (ميركا الياد Mircea Eliade) أصل النمو المطرد في التراث المسيحى - اليهودي والأصول الدينية للمصطلح يمكن ملاحظتها في التشديد على فكرة التقدم الخطي للتاريخ باستخدام مصطلح التقدم للثقافة الغربية خلال عصر التنوير والمبالغة بتمجيده باستخدام مصطلح التقدم.

وفي القرن التاسع عشر تطورت فكرة "التقدم" بفعل نظرية التطور (دارون Darwin's) والتفسير الماركسي للتاريخ والإتجاه الأخلاقى لدى المفكر الفرنسي (أوغست كومت Auguste Comte) وكذلك التفسير الذى ظهر لنظرية دارون في التطور على يد ابن شقيقته (هربرت سبنسر Herbert Spencer) وإطرائه لفكرة النشؤ والإرتقاء ومباركته لفكرة "البقاء للأصلح" وذلك عن طريق التنافس الذى يكون فيه البقاء للأقوياء، من خلال محاضراته التـــي ألقاها في الولايات المتحدة بدعوة من (أندرو كارنيجي Andrew Carnegie) (هوفستيدر Hofstadter 1955) واستعمل ماركس كذلك فكرة النشؤ في تطوير تفسيره للتاريخ، حيث يتقدم التاريخ من وجهة نظره في مراحل وأن كل مرحلة تظهر تقدماً بالنسبة إلى سابقتها، وبالرغم من أنه انتقد الرأسمالية بشدة إلا أنه اعتبرها تمثل تقدماً على أشكال الإقتصاد السابقة ويلتقى ماركس ودارون في الإحساس بأن الثقافة الغربية تمثل أسمى أشكال التطور الإقتصادى، وهكذا فإن المؤسسات الثقافية الغربية تمثل قمة التقدم كما تراها أنظمة الغرب الحديثة. هكذا كانت أفكار كل من ماركس ودارون تلتقى بخصوص الثقافة الغربية بالرغم من وجود عداء بينهما كما هو الحال بين الماركسية والرأسمالية (سعيد Said 1993).

إن النـــزعة التـــي سادت خلال القرن التاسع عشر هى الحماس الشديد لمفهوم التقدم، ومع نهاية القرن التاسع عشر كان الإيمان بفكرة التقدم واضحاً لا لبس فيه، غير أن حربين عالميتين وما أدتا إليه من دمار وموت جماعى قوضا استعمال هذا المفهوم بشكل جدى ولكن خلال الثمانينيات من القرن العشرين رأينا كيف عمل الإتجاه الليبرالى وحرية التجارة لدى حكومة (رونالد ريغن Ronald Reagan) في الولايات المتحدة و(مارجريت تاتشر Margaret Thatcher) في بريطانيا و(براين مولرونـــي Brian Mulroney) في كندا على نشر فكرة التقدم من خلال النمو الإقتصادى.

وتعتبر سنوات رئاسة ريغن للولايات المتحدة إعادة للصيحات الدعائية التـــي أطلقتها شركة (جنرال إلكتريك) والتـــي شهدها بداية ظهور التلفاز حيث كان شعارها هو "أن التقدم يشكل أهم إنتاجها"، إن ريغن تغير قليلاً عن أيام تمثيله القديمة ولكن مقالاته الدعائية المشئومة كانت دائماً واضحة المعالم، غير أن المثير للسخرية هنا هو أنه مع نهاية فترة ولايته لم يعد يتكلم عن الإتحاد السوفييتـــي بأنه "إمبراطورية الشيطان" هذه الإمبراطورية التـــي تبدو وأنها جردت نفسها من معتقداتها ووفاقها الذاتـــي وانهارت فجأة أمام أعين الجميع، ومثل هذا الإنهيار يمكن أن يحدث إلى تلك الرأسمالية المتقدمة التـــي يبدو وأنها تقود العالم إلى القرن الحادى والعشرين.

وفقاً لرؤيتـــي فإن الرأسمالية والماركسية شركاء في تراث واحد تمتد جذوره عبر الركود الذى طال أمده خلال عصور التنوير، ويمكن إعتبار كلا النظامين غير مرغوب فيهما بالنسبة للعالم الطبيعى، وينتقد مؤرخ الثقافات (كرستوفر لاش Christopher Lasch 1989) بشدة كلاً من الماركسية والرأسمالية وتتفق رؤيتـــي مع رؤية "لاش" في أنه لايأمل إطلاقاً لامن الرأسمالية والشيوعية في حلّ المشاكل التـــي تحيط بنا ويؤكد "لاش" على أن كلاً من النظامين قد ارتكب خطأ في تفسير فكرة التقدم.

ومنذ إنتهاء الحرب الباردة ونحن نسمع عن إنتصارات الرأسمالية وأن يُطلق لها العنان لتؤدي رسالتها الإنسانية التاريخية. ولكن ما هي هذه الرسالة؟ وكما اتضح لنا فإن الرأسمالية ورفيقتها الليبرالية لم يشدّدا كثيراً على المشاركة الديمقراطية، وكما أوضح "لاش" فإن المشاركة الديمقراطية لم تكن الهدف الأهم لليبرالية بل كان الهدف هو إتاحة فرص التمتع بحياة سعيدة، ويبدو أن الدولة العصرية تضع حق امتلاك الأشياء فوق حق المشاركة في الحياة المدنية (لاش Lasch 1989; 28) إن "لاش" يشاركنـــي الرأي في أن المدرسة الحديثة تعزز كيان الدولة العصرية في تنمية مستهلكي المنتجات أكثر مما تركز على تنمية نشاط المواطنة، ويشاركنـــي كذلك في نظرة التشاؤم حيال عولمة السوق:

ويفترض الإتجاه الليبرالى إنشاء سوق عالمى يشمل أناس سبق وأن حُرموا من تحقيق آمالهم في الرخاء وتدعى تنبؤات السوق الحالية إلى أننا سنكون منعمين آجلاً أم عاجلاً، غير أن حركة البضائع والمعلومات والسكان مازالت بعيدة عن تحقيق حياة طيبة (لم تحقق بعد) لكل الناس بل وسّعت الهوة

بين الدول الغنية والفقيرة وتفاقمت أزمة الهجرة الهائلة إلى الغرب، حيث إزداد عدد القادمين الجدد ليكوّنوا أفواجاً من الأميين والعاطلين وغير الحاصلين على مأوى والمنبوذين والمحرومين من حق التصويت (لاش Lasch 1989: 29).

وإذا ماكان الحال كذلك فمن العجيب أن تكون ثقافة الإستهلاك سائدة على مستوى عالمى وسنرى هذه الفكرة متضمنة في مفهومين مرتبطين بأسطورة التقدم: النمو والتطور، وإذا كان التقدم هو إتجاه لحركة تاريخية فإن التطور والنمو هما ديناميكيات تحرك الثقافات إلى درجات عالية في سلم التقدم، وسنناقش الآن فكرتـــي التطور والنمو في صورهما الحالية.

النمو والتطور

عادة ما يُستخدَم مصطلحا النمو والتطور بشكل متكامل ومتبادل على المستوى العملي ولهذا تناولتهما معاً في هذا الفصل. إن مفهومي النمو والتطور مترابطان وغالباً مايحدد الواحد بالآخر بعملية دائرية. إن مصطلح "التطور" يشير عموماً إلى العمليات الإقتصادية المرتبطة بحركة التصنيع الحديث. وطبقاً لحركة النشاط الإقتصادى فإننا نفرق بين الدول الأكثر تطوراً والدول الأقل تطوراً. ويشهد العالم في الوقت الحاضر موقفاً إقتصادياً واضحاً يتمثل في أن الدول الأقل تطوراً تشارك بفاعلية في النمو الإقتصادى الذى حدث في الدول المتقدمة. والتنمية في حد ذاتها لم تكن شيئاً مرغوباً وحسب، بل هي عملية ضرورية لتحقيق حياة كريمة، وتمتد جذور التطور والنمو إلى القرن التاسع عشر، لقد قام "إدوارد سعيد 1993 Edward Said" في معالجته المتميزة، للثقافة والإمبريالية بالربط بين التطور والنمو والإمبريالية، وفي القرن العشرين أصبح مفهوماً النمو والتطور بمثابة رمزين للإمبريالية التـــي تعنـــي بشكل أساسي قيام دولة أو أكثر بتنمية دولة أو دول أخرى، وإذا ما تفحصنا هذه العمليات فإننا سنرى كيف تعمل القوة على مستوى العالم وفي القرن العشرين وخاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أصبح مفهوم التطور والنمو من المعانـــي المشرفة، وقد قدَّم (ليستر ميلبراث Lester Milbrath 1989) معالجة ممتازة لهذين المفهومين واعتبرهما من أقوى المفاهيم تأثيراً في الجغرافيا السياسية في الوقت الحاضر.

بوصفهما رمزين أو شعارين أيدولوجيين، نستطيع أن نرى بأي قوة تعملان في الخطاب

الشعبي. ويدعونا ميلبرات كي نرى كيف تتم العملية في الخيال الشعبـــي بدون أي مساءلة. وقد لاحظ وجود ثوابت تحث على الإستمرار في تنمية المخرجات الإقتصادية حيث أن النمو يرتبط بالتطور والصحة والتقدم. ويعتقد كثير من الناس بأن انعدام التطور لايعنـــي شيئاً سوى الفناء، وعلى الرغم من ذلك فإننـــي سأدفع بالقارئ إلى التفكير بصورة نقدية.

في تحليل أورده (سكاف Schaef 1987) أشار كل من (روليدج وكيث 1991 Rowledge and Keeth) إلى أن هذين المصطلحين يتبعان نموذج إلزام والتـــي تعنـــي أنه يجب أن يكون لدينا هذه الأفكار وهى "النمو والتطور". وبالنظر إلى النمو الإقتصادى فإن الفرد والمجتمع يتبعان هذه المنظومة حيث يكون المنتج هو مرتكب الجريمة ويكون المستهلك هو العامل المساعد، ومن الطبيعى فإن هذه الأدوار قد تختلف باختلاف الظروف والأطر.

والمؤشر الرئيسي في قضية "الإلزام" يمكن ملاحظتها في تعاملنا مع مؤشر "مجمل الدخل القومى" حيث نسمع بإستمرار أن ذلك هو المؤشر على سلامة الإقتصاد، فإذا كان معدل الدخل القومى أو نموه مرتفعاً فإن ذلك يقودنا إلى الإعتقاد بأن النمو الإقتصادى قد تحقق. وتوجد مشاكل معقدة وارتباك مصاحب لإستعمال مجمل الدخل القومى على الرغم من أنه مازال مصطلحاً مقدساً في دوائر الإقتصاد التقليدية، (ولأجل الإطلاع على معالجة نقدية متميزة بخصوص مفهوم "مجمل الدخل القومى" يمكنك مراجعة كل من (ديلى وكوب 1989 Daly and Cobb) و(إكنـــز Ekins 1992) و(هندرسون Henderson 1992) و(بيرى T.Berry 1988) و(ويرنج Waring 1988).

ولإدراك ديناميكيات مصطلحى النمو والتطور لابد من تتبع المسار التاريخى لظهورهما في فترة مابعد الحرب. لقد قدم لنا (ولف فانغ ساكس Wolfgang Sachs 1992) شرحاً وافياً لمصطلح النمو يمكننا من خلاله أن نرى القوة الثقافية والإقتصادية المتضمنة فيه، ويأخذنا "ساكس" إلى البيت الأبيض عقب الحرب مباشرة أثناء إدارة "هارى ترومان Harry Truman" لتوضيح بداية استخدام المصطلح حيث حدد ترومان في خطاب استلام الرئاسة أن جزءاً كبيراً من العالم يمثل مناطق غير نامية، ومن ثم يعتبر "ترومان" مؤسساً لهذا المصطلح المحورى الذى يحشد الجنوب بالرغم من تنوعه الكبير في قائمة واحدة هي قائمة "المتخلفين" وقد حددت الرؤية مسار وطموحات سكان الأرض في سبيل تحقيق هدف واحد وهو النمو.

ورؤية "ترومان" فيما بعد الحرب تتمثل في غزارة الإنتاج بإعتباره السبيل إلى الإزدهار والأمن، وقد كان ذلك بداية للولايات المتحدة لتصبح الأولى من بين الدول الإمبريالية. وقد أشار كل من (بارنت وكافانغ Barnet and Cavanagh 1994) و(سعيد Said 1993) و(ساكس Sachs 1992) إلى أن الإعتقاد السائد لدى الخارجية الأمريكية في فترة مابعد الحرب هو أن التقدم الثقافي يتم إحتواؤه بواسطة الحراك الإقتصادى والنمو، وأن التقدم الحضارى للدول يتم قياسه بمستوى الإنتاج كما يوجد إعتقاد آخر مفاده بأن النمو غير مرتبط بوجود الموارد الطبيعية، وفي الحقيقة إن المجتمع يعتبر "متخلفاً" عند فشله في تحقيق النمو واستخراج موارده الطبيعية، ويعتبر "ترومان" أن المواطنين والمجتمع ككل لايمثلون إلاّ أدوات للتنمية، وقد كان هذا هو جوهر النموذج الأمريكى الذى قدمه لبقية أقطار العالم، وفي هذا الإطار عرّف "الفقر" بشموليته لجميع السكان، والفقر من وجهة نظر الدول الصناعية عرّف بأنه قصور الإنفاق الذي يمكن تنشيطه بالتنمية الإقتصادية، ويتضمن تعريف الفقر هذا إجبار كل المجتمعات على الإقتناع بأن المنافسة هى السبيل إلى النجاح والتفوق في السوق الإقتصادى العالمى. ويرى السياسيون في المجتمعات الصناعية بأن "الفقر" هو المشكلة وأن التطور هو الحل، ويشوب هذا التعريف للفقر قصور أساسي عندما يخفق في التمييز بين الإقتصاد في الإنفاق ونقص الغذاء والعوز والفقر المدقع، ولقد قدم (ولف غانغ Wolfgang) وصفاً جلياً وتمييزاً واضحاً لهذا التمييز، حيث اعتبر "*الإقتصاد* في الإنفاق" من خصائص الثقافات غير المتأثرة بنــزعات الإدخار ويتمثل ذلك بتزويد السوق بجزء بسيط من الإنتاج بينما يرى بأن الإقتصاد في الإنفاق هو خاصية الثقافات غير المسعورة، ويتضح وصفة لذلك بقوله:

إن الناس في الثقافات غير المسعورة لا يمتلكون إلا القليل ويكتفون بالكوخ وبعض الأوانـــي وبدلة يوم الأحد، أما النقود فيعتبرون دورها ثانوياً فقط، وعوضاً عن ذلك فإن لكل واحد حرية كاملة في الوصول إلى الحقول والأنهار والغابات، ومن وظائف الجماعة ضمان الخدمات التـــي يجب أن يشتريها مواطن الدولة الصناعية بعملة نقدية، وبالرغم من أن دخل الفرد في هذه الثقافات التقليدية البسيطة يعتبر من أضعف مستويات الدخل إلا أنه لايعانـــي أحد من الجوع، إضافة إلى أن الفائض يتم إنفاقه على الحلى والحفلات وتشييد المبانـــي. وفي القرية التقليدية المكسيكية على سبيل المثال، إدخار الثروة

ينتهي إلى نبذ إجتماعى، والمكانة الإجتماعية الرفيعة يتم إكتسابها من خلال الإنفاق من المدخرات حتـــى ولو كانت بسيطة على الأعمال الخيرية العامة وهذا نمط للحياة تحافظ عليه ثقافة الإكتفاء وتستحف من مكانة الفقر عندما يكون نتيجة للتراكمات الإجتماعية، "ساكس Sachs 1992:11".

والفقر المدقع طبقاً لرؤية "ساكس" هو حالة تحدث بصورة فجائية نتيجة الشح في الإنفاق وعندما يحرم المجتمع من أسسه التـــي تشمل البنية التحتية للحياة مثل الإرتباطات الإجتماعية والأرض والغابات والماء وهى ضروريات للبقاء بدلاً من النقود، وعندما يتم عزل هذه الثوابت فإن الإملاق يكون النتيجة. *ونقص الغذاء والتموين* ظاهره وجدت في أيامنا هذه ونقص المؤن يؤثر في الجماعات الحضرية المعتمدة على إقتصاد النقود مثل العمال والمستهلكين الذين تكون قوة إنفاقهم قد انخفضت إلى ما دون خط الفقر. وسكان الحضر الذين يعيشون في حالة من نقص المؤن فإنهم يعانون من وضع محفوف بالمخاطر ويتجه نحو التدهور. والمجتمعات التـــي تعانـــي من نقص الغذاء هى في مأزق يجعلها عرضة لنـــزوات السوق والمجتمع الفقير في غذائه يجبر على أن يعيش في ظروف تكون للنقود فيها أهمية عظمى، وتتلاشى تدريجياً القدرات في الوصول إلى الأهداف. وفي ذات الوقت فإن المجتمع الراقي تكون آماله مدعومة ويسير نحو اللامتناهى. وهذه هى خصائص مظاهر الفقر الحديث.

وبدلاً من الوعظ والتبشير بالتطور والنمو الاقتصادي فإن "ساكس" يرى ضرورة التركيز على التقتير في الإنفاق وإزاحة العوائق المؤدية إلى الفقر الناجم عن التنمية الحديثة ويرى السياسيون الآن أن "الفقر" يعتبر مشكلة وأن التنمية تعتبر هى الحل الوحيد، وهم لايعترفون حتـــى الآن بأنهم يتعاملون مع مصطلح الفقر بعقلية صاغتها خبرة الحاجة إلى السلع. كما تعودت أسواق النصف الشمالى من الكرة الأرضية، ورغم تبشيرهم بما ستقدمه لهم التنمية. إلا أنهم يواجهون أحياناً أوجه مشينة من الفقر المدقع، إن التنمية لا يمكن أن تقام. إلا على حطام الفقر والشح في الإنفاق والإعتماد على السلع الإستهلاكية هو ثمن ذلك (ساكس Sachs 1992).

وفي الوقت الذى يكون فيه كل ذلك صحيحاً، فإننا مازلنا نفتقد إلى الفهم والمعرفة الضرورية للقيام بعمليات التنمية المتكاملة. ومعرفتنا بمثل هذه العمليات تثرى الحياة البشرية وتجنب المجتمع الإنسانـــي والكوكب الذى نعيش فيه مخاطر الفناء وحفظهما من عمليات

التفسخ الناجمة عن التنمية. إن شعور الحسرة لدى المجتمعات الأكثر تقدماً نتيجة للتمزق والإنهيار الناتج عن عمليات التصنيع الجديدة يقابله تفجع وشعور بالحسرة والألم لدى المجتمعات الأقل تقدماً والحاجة الملحة إلى التخلص من الأحزان والمعاناة. ويبدو أن بشائر الخلاص سوف لاتأتـي إلا من خلال التنمية التـي يمكن أن تقدمها المجتمعات الأكثر تقدماً، وهذه المجتمعات التـي توصف بالرقى والتقدم كثيراً ماقامت بنبذ المجتمعات الأخرى واستغلال مواردهما وقدراتهما البشرية وطاقاتهما الإنتاجية. إن هذا الإستغلال في عهده الجديد قد تم تحت "سياسة إعادة الهيكلة الإقتصادية التـي أسسها (صندوق النقد الدولى) و (البنك الدولي).

وترتكز التنمية في هذا الإطار على ثلاثة فروض قوية، يفترض الأول منها، أن العلم الغربـي هو الطريق الوحيد لفهم العالم، وهذا في حد ذاته نكران لحكمة معظم البشر جميعاً ويفترض الثانـي بأن التقدم والنمو يتحققان بإستخدام النظرة العلمية العالمية المتمثلة في زيادة إنتاج سلع السوق، أما الإفتراض الثالث فهو الذى يتمثل في الإختراع الجديد نسبياً "للدولة القطرية" ذات الحدود الوهمية والتـي تسيطر داخل هذه الحدود المصطنعة على السكان وتسمح بالتنمية المفروضة على الجميع. (إيكنـز Ekins 1992) وبهذا المعنـي تكون التنمية مجرد تحالف بين الحكومات وبعض المؤسسات القوية في الشمال مما ينتج عنة تحكم في سلوك النخبة الحاكمة في الجنوب إن معظم أفراد هذه النخبة سبق تعبئتهم نحو الإتجاهات الغربية في التنمية منذ أيام الإحتلال الغربـي لبلدانهم وارتبطوا فكرياً وثقافياً بأكثر الدول الإستعمارية تقدماً وهى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد حدد (بول إيكنـز Paul Ekins 1992) ميكانـزمات هذه العلاقة التـي تم وضعها لتحقيق أهداف الدول الإستعمارية في التجارة والديون والمساعدات. ومن وجهة نظر الدول الغربية فإن هذه الثلاثية كانت ناجحةً إلى حد كبير، أما فيما يخص ديون العالم الثالث فإن الشمال قد وجد مصادر غير محدودة يمكن أن يستجلبها من الجنوب بشروط معينة، وأحد هذه الشروط هى الإقتراض الأجنبـي الذى يمكّن النخبة الحاكمة في الجنوب من تمويل مشاريع ذاتية مبالغ فيها. وخلافاً للأعراف والتقاليد المصرفية والعدالة الطبيعية، فإن تسديد الدفعات يتم وفق شروط قاسية مفروضة من قبل صندوق النقد الدولى تتفق مع برامج "إعادة الهيكلة" للأنظمة الإقتصادية للشعوب الفقيرة

وبالتالى التحكم في نظم العمالة وقوت الفقراء من أبناء الشعوب الذين لايمتلكون نصيباً من هذه القروض. وتجدر الإشارة هنا إلى أن "التعاون والتجارة" لهما نفس الأثر، حيث يتم التعاون بطرق ثنائية مريبة وفقاً لإجراءات (الغات GATT) "إعادة الهيكلة" الناتجة عن إجراءات صندوق النقد الدولى. وإذا كانت التنمية قد عرفت بأنها وسيلة للرفع من مستوى البرامج الحكومية الموجودة أصلاً وبرامج المؤسسات متعددة الأغراض، فإن إجراءات البنك الدولى ونظم التجارة الحالية يتم فرضها بأيدلوجية حرية التجارة مع مؤسسات محكومة من قبل نخبة من الأثرياء نسبياً دون أي إعتبار لتأثير نواتجها على الفقراء، وهكذا تكون المساعدة والتجارة والديون من أقوى أدوات التنمية (إيكنـــز Ekins 1992). إن هذه التنمية ليست مبنية على أسعار ثابتة من قبل الغرب وبسبب آثارها السلبية وصفتها "فاندانا شيفا 1989 Vandana Shiva) بأنها عمليات لتنمية مريضة.

وقبل الإنتهاء من المعالجة النقدية لقضيتـــي التطور والنمو يبدو أنه من المهم أن نشير إلى موضوعين لهما علاقة قوية بموضوع حديثنا، الموضوع الأول هو التنمية العسكرية وأثرها على أفكار التنمية الحديثة، أما الثانـــي فهو قضية الهندسة الوراثية الذى يحتم علينا وضع أحكام ومواقف أساسية في هذا المجال الجديد، وفيما يتعلق بالجانب العسكرى، فإنه يجب الإعتراف بأنه لايوجد نقاش متكامل حول التنمية الحديثة مالم تتم الإشارة إلى التأثير الفاحش للتنمية العسكرية، وتقدر قيمة الإنفاق على الجانب العسكري حالياً بحوالي (1000) ألف بليون دولاراً أمريكياً في العام الواحد. أي مايقارب (1.9) مليون دولار في الدقيقة الواحدة (إب تايسون Epp–Tiessen 1990) وللربط بين الإنفاق العسكري وبين التخلف، يزودنا "إب تايسون Epp–Tiessen" بإحصائيات مفادها أن المؤسسات العسكرية تستحوذ على مانسبته (5.6) من مجمل الإنتاج العالمى، وعلى تشغيل (25.7) مليون شخص في القوات المسلحة لوحدها. ويقدر مخزون العالم من السلاح النووى بـــ (57.000) رأس تحتوى على مايعادل 1.000 مرة من قوة المتفجرات التـــي استخدمت في كافة الحروب الماضية ومنذ استخدام البارود لأول مرة، وأضاف "أب تايسون 1990" بملاحقات أخرى تؤكد سرعة التسلح في دول العالم الثالث، ومن أمثلة ذلك ماحدث خلال الستينيات حيث كانت (22) اثنان وعشرون دولة من مجموع (78) ثمانية وسبعين دولة مستقلة ذات أنظمة عسكرية، وفي سنة

1988، ارتفع العدد إلى (64) أربعة وستون من مجموع (113) دولة أي بما مقداره 57% من الدول المستقلة تحكمها أنظمة عسكرية، وإذا ماكانت حقبة الستينيات هي المرجع، فإن الإنفاق العسكري في العالم الثالث وأسعار الأسلحة في الإعتبار فقد تتضاعف خمس مرات، ونتيجة لذلك فإن الدول النامية تستوعب مامقداره 82% من تجارة وتبادل الأسلحة، ويعتقد "تايسون" بأن علاقة التوجهات العسكرية بالتخلف أو التنمية المريضة مثير للصدمة والإندهاش ويؤكد بأن العسكرة والعسكريين يسهمون في تفشي التخلف بطرق متعددة، ويتضح بعض هذه الطرق من خلال نظرتنا إلى مضاعفة الديون الخارجية للإقتصاديات النامية وتوجيه الإنتاج نحو التصدير بعيداً عن الإحتياجات المحلية الملحة وبمساهمة الإعتماد على صندوق النقد الدولى وبتشجيع التسلط والقمع، مما يعزز ديناميكية البناء الهرمى للسلطة والقوة في العالم مدعومة بالقوة العسكرية في العالم الثالث، ويختم "تايسون 1990" تعليقاته على العسكرة بقوله، إن العسكرة تعمل لحساب التخلف وذلك بتوحيد الدول النامية في نظام إقتصادى عالمى حيث يكونون محكومين بالخسارة، (جورج داى George Dei 1995) تعليقاً عن إستراتيجيات التنمية في أفريقيا، مشيراً إلى أن العلاقة بين المجتمعات الإفريقية والغرب كانت غير عادلة وقد أدى ذلك إلى تعزيز نظم التسلط والتحكم وعدم المساواة والفساد في داخل المجتمعات الإفريقية.

ويقترح كل من (داى Dei 1995b) و(شيفا Shiva 1989; 1995) بديلاً عن التوجه الأوروبـــي في التنمية، حيث أبرزا نموذجاً مختلفاً في التنمية. وأقترح هذا النموذج البديل عام (1975) من قبل مؤسسة (داغ همرشيد Dag Hammarskjold) في السويد ويسمى بالتنمية البديلة (إيكنـــز Ekins 1992). وحددت هذه المؤسسة خمس نقاط تميز التنمية البديلة. وأول هذه النقاط هي أن التنمية البديلة تتوجه مباشرة نحو سد الحاجات البشرية الأساسية في المجتمع (هندرسون Henderson 1992) و(إيكنـــز Ekins 1992) و(دالي Daly 1973) و(دالي وكوب Daly and Cobb 1989) و(روبرتس Roberts 1993) و(جورسك روغن Georgescu Roegen 1971). النقطة الثانية تؤكد على أن تكون التنمية ممثلة لدور المجتمع المعنـــي ومبنية على معرفة وخبرة وثقافة ذلك المجتمع، دون أن تكون تنمية مفروضة من الخارج. ويسميها (ديفيد كورتين David Korten 1991) بالتنمية المرتكزة على الشعب.

وتؤكد النقطة الثالثة على أن تكون التنمية البديلة مبنية على الاعتماد على النفس ويمكن تحقيق الجانب الأكبر منها من خلال تحريك الموارد المحلية لتلبية الحاجات الوطنية. والبند الرابع للتنمية البديلة يصر على أن تكون للتنمية مغزاً بيئياً (روبرت Roberts 1993) و(كوارتر Quarter 1992). وأخيراً البند الخامس للتنمية البديلة الذي يتمثل في تحقيق استراتيجيات يكون فيها تغييراً أساسياً في طبيعة العلاقات المحلية مع المؤسسات الدولية مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. وهذه التنمية تتحدى بشكل جذري سيطرة دولة على دولة أخرى نتيجة برامج التعاون والتجارة والديون التـــي ابتدعها نظام المنافسة في الإقتصاد العالمي.

وتجدر الإشارة هنا إلى البيان الذي أصدرته لجنة (بروندتلاند Brundtland) حديثاً والذي يتلخص في الكتاب "*من أجل مستقبلنا جميعاً* والصادر عن *الوكالة العالمية للتنمية والبيئة*". يشير هذا التقرير إلى وجود حساسية واضحة نحو معتقد النموذج البديل الذي سمي بالتنمية المساعدة. وعلى الرغم من أن مصطلح التنمية المساعدة قد أسس من قبل الوكالة نفسها إلا أنه حساس بشكل خاص لأبعاد التنمية المؤثرة على التوازن البيئي لكوكب الأرض. وعلى كل حال فإن هذا النموذج لا يبتعد من حيث الأساس عن النماذج الإقتصادية للتنمية. ويعتقد بأن التنمية المساعدة يمكن أن تسير قدماً نحو حقبة جديدة من النمو الإقتصادي (برونتلاند Brundtland 1987). ويجب علينا أن نتحسر على رأي الوكالة التـــي تسمح لنا بامتلاك نصيبنا من المائدة ونتناوله أيضاً.

وعلى الرغم من المحاولات المبذولة للتقدم بمستوى الحياة فإننا بحاجة للتفكير بشكل جاد في عملية التنمية برمتها. ويجب على المجتمع الإنســـاني الالتزام بالانضباط المطلوب لتفادي كوارث عظيمة تهدد الجميع إذا لم يتم التعامل مع التنمية بالطرق المناسبة.

لقد سبق وأن أشرت إلى دور العلم والتكنولوجيا في التنمية الحديثة. وقبل الإنتهاء من التحليل النقدي لآراء ومعتقدات الغرب بخصوص التنمية، أرى من الضروري أن نتعامل مع البعد الأخير للتنمية: وهو عالم التقنية الحيوية والهندسة الوراثية. وفي هذا الإطار الحالي من الإختلال الوظيفي للتنمية في العلوم الغربية وتقنياتها. ويجب علينا هنا أن نواصل بحذر شديد. وهذا المسعى لا يكون مجرد توجه ولكننا ندرك أيضاً بأن الهندسة الوراثية مجال يتضمن نتائج ثقافية وكونية هائلة. وفي نقدهم التقييمي لهذه التطورات الجديدة فقد لاحظ كل من (جرمي

ريفكين ونيكانور بيرلاس Jeremy Rifkin and Nicanor Perlas 1983) إن الحضارة أصبحت تشاهد بداية عصر تاريخي جديد. ويقوم الإعلام بتتبع المستقبل حيث هندسة الحياة وتصميمها سوف تكون معياراً للإجراءات العملية. ومع بداية إعادة تشكيل الحياة، فإن قيمنا وأخلاقياتنا أُعيد تشكيلها هي الأخرى لتعكس التغير العميق في تنظيم البشرية في العالم.

والتقنية الحيوية التـــي بدأت سنة 1973 بأول عملية استنساخ وزرعها في عضوية أجنبية في العام التالي. أصبحت في الثمانينيات صناعة الإنسان للحياة وما تبعها من عمليات حية تم تسجيلها كبراءة لاختراع جديد وهي في الحقيقة كانت أساساً متيناً للأعمال التجارية في التقنية الحيوية (مينـــزيس Menzies 1989). وفي الإطار الذي نتحدث فيه، هناك العديد من المخاطر المصاحبة لهذه للتطورات في معظمها قد تم تطويرها في مجمعات صناعية عسكرية حول العالم وهي مقصورة على قطاع خاص صناعةً وتطويراً. وقد زاد عدد المراكز التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية ليبلغ عددها 100 سنة 1984. وتضاعف الانفاق على هذه المراكز بمعدل بلغ 900% بين سنة 1979 وسنة 1986. وبزيادة في المعامل بلغت 100 مائة معمل إضافة إلى 18 معملاً حكومياً يعملون في هذا المجال. ومن المعقول أن نفترض أن الهدف الأساسي وراء هذه المعرفة وتطويرها هو النية في التدمير والكسب المادي. وعلى الرغم من أن الهندسة الوراثية لا تزال في مراحلها الأولى فإنها تنمو بسرعة ولا تخضع للرقابة العامة. في عام 1989 قدَّمت "هيزر فنري" الملاحظة التالية حول التطور السريع في هذا المجال. تؤكد "هيزر فنري" أن الهندسة الوراثية، في بنائها الاجتماعي، قضية فريدة. فهي، من جهة، لا تزال في مرحلة مبكرة جداً إلا أن نموها قد صار في المنظور. وبدلاً من أن تنمو ببطء، بما يسمح، على الأقل، باستيعاب طبيعة الحدث، وبتفكر رصين على طول الطريق، فقد دُفعت بقوة إلى مرحلة متقدمة من التطور الصناعي.

إن النظرة القاصرة لهذه التطورات المتسارعة، تقطع دارة النظر في الاعتبارات البيئية والنتائج الاجتماعية على المدى الطويل (سوزوكي وكنود ستون Suzuki and Knudston 1988). وبالإضافة إلى دافع الربح القصير النظر يوجد أيضاً احتكار الرقابة على البحث والتطوير من قبل الشركات المتعددة الجنسية المختصة بالهندسة الوراثية. إن الشركات الخاصة العاملة في مجال التشخيص الطبي، والزراعة والكيمياء. ووفقاً للتنبؤات للسنة 2000 سيكون

هناك احتكار للبذور والمواد الكيميائية في مجال التسويق من قبل أثنتـــي عشر شركة عالمية فقط. وعند الدعوة لمؤتمر القمة حول الأرض في البرازيل سنة 1992 قامت هذه الشركات متعددة الجنسيات باحتكار إنتاج البذور والإقتصار على أنواع محددة منها. وكمثال على نتائج الاحتكار لإنتاج البذور في الخمس والعشرين سنة الماضية، كان هناك خمسة وسبعون نوعاً من بذور الخضروات مع بداية القرن العشرين، أما الآن فقد انقرضت نسبة 97% من أنواع كل شكل من أشكال الخضروات وقليل فقط من الثمين منها لا زال محتفظاً به لدى قليل من الشركات العالمية (العالمية الجديدة *New Internationalist* 1991; 1997).

ويوجد سبب أخر يدعو إلى القلق وهو أن التقنية الحيوية هذه يتم تطبيقها في الكون الذي يأوينا والدهر الذي تعيشه والذي أطلقنا عليه أسم السينوزبك النهائي. ولا نـــزال فريسة نموذج المذهب الآلي (جيرمي ريفكن ونيكانور بارلاس 1983 Jeremy Rifkin and Nicanor Perlas) آثارا كثيراً من التساؤلات حول الهندسة البشرية وأشارا إلى أن فكرة هندسة الكائنات البشرية تشبه إلى حد كبير هندسة قطع الغيار الوراثية الميكانيكية، حيث يطمح المهندس دائماً إلى ابتداع طرق جديدة لتحسين أداء الآلة. ويشعر "ريفكن وبارلاس" إلى أننا في الهندسة الوراثية البشرية، نحصل على شيئ ما ونتخلى عن شيئ آخر. وفي مقابل ضمان وجودنا الفيزيقي في حالة جيدة، فإنه يتوجب علينا قبول التنازل الذي مفاده قبول كائنات بشرية تصممها وتنتجها الآلة. وبذلك توجد تحفظات جمة حول التوجه الكونـــي المتمثل في الطريقة التـــي تنفذ بها الهندسة الوراثية. التطور الذي حدث في مجال البيوجيا منذ القرن التاسع عشر أحدث عودة لموقف كوزمولوجي حاول خلال قرون وضع الانسان فوق شبكة الحياة المتداخلة ومتجاوزاً لها. وبدلاً من السير قدماً في تغيير نظامنا الوراثي (الجينـــي)، يجب أن نتوقف قليلاً للاسترشاد به بخصوص ما يمكن أن يفيدنا منه أو ما قد يوصلنا إليه. وفي هذا الخصوص ألمح (توماس بيري Thomas Berry 1988) إلى أننا نادراً ما نبحث عن الاسترشاد ونحن نبحث في برنامجنا الوراثي. إن ثقافتنا الحالية تجعلنا عموماً غافلين عن أن برنامجنا الوراثي هو الذي يزود بالبنية النفسية والمادية لوجودنا. والنظام الجينـــي لا يحدد فقط كياننا عند الميلاد بل يمتد توجيهه في كل خلايا الجسم طيلة وجودنا على قيد الحياة. ويؤكد "بيري" ذلك بالإشارة إلى أن وظائف العلم والتكنولوجيا على المستوى البشري. إن هذه العمليات

العلمية والتكنولوجية الكبيرة التـــي حدث وتحدث على هذا الكوكب، هي من صنع الإنسان وهي تهدد برد فعل قوي ضد هذه التدخلات التعسفية التـــي ارتكبها الإنسان. إن السموم التـــي أتخمت الكوكب تمثل إحدى الطرق التـــي بواسطتها تحذر الأرض المجتمع البشري بضرورة ملاحظة ما يحدث واتباع المسارات والوسائل السليمة للتنمية سواء كان ذلك في الشرق أو الغرب أو في الشمال أو الجنوب من أقطاب هذا الكون. وسنتعرض الآن لمناقشة قضية العولمة من خلال هذه التحديات والمؤشرات الخطيرة التـــي نلاحظ تهديدها لوجودنا يومياً.

العولمة

إن كل الدلائل تشير إلى أن البشرية تتجه الآن نحو العولمة ويجب علينا أن نتعايش مع هذا الاتجاه ويجب علينا أن نكون مستعدين للمنافسة في سوق العولمة الجديد. إن مثل هذه العبارات والنداءات نسمعها يومياً من خلال وسائل الإعلام التـــي تقول لنا بأن التداول في مجال الأعمال خارج الحدود يعتبر شريعة جديدة وهي عبارة عن صورة مختصرة للجانب الإجتماعي من دراوونية القرن الماضي بمعايير وقيم غير ديمقراطية (هيرتيق Hurtig 1991). إنهم يتحدثون عن عدالة مسرح المنافسة، غير أن هذا المسرح الذي يتم فيه التنافس التجاري هو في الحقيقة خال من العدالة والنتيجة مضمونة لصالح أحد المتنافسين قبل بداية المباراة. إن التجارة والأعمال الحرة التـــي يتحدثون عنها هي في الواقع متميزة لصالح طرف دون أخر. وعلى سبيل المثال، الدولة التـــي تدعم صناعتها تسمح لصادراتها بأن تكون أرخص ثمناً ممّا يجعلها أكثر رواجاً. وبهذا المعنـــى فإن تطبيق مفهوم عدالة التداول يتطلب سحب الدعم عن قائمة الصناعات لدى كافة الدول. (ج. سميث J. Smith 1993). إن التطبيق العملي لمفهوم عدالة التعـــامل التجاري الـــدولي مبالغ فيه وكما يشير كل من (بارنت وكافانغ 1994 Barnet and Cavanagh) فإن هذا الدعم غالباً مايوصف بأنه يشمل أشياء وبرامجاً مثل برامج التنمية الإقليمية ومكافآت التأمين ضد البطالة والبرامج الصحية التـــي تمولها الدولة ويجادل الشركاء والتجاريون بأنه ما دامت مثل البرامج محولة من قبل الدولة إذاً يكون أرباب العمل قد استلموا دعماً خفياً إلى المستوى الذي يجب فيه إيقاف مثل هذه البرامج (ج. سميت 1993 J. Smith).

ويتكلم السياسيون اليوم، عن "نظام عالمي جديد" في العديد من خطاباقم المنمقة. وتم إدخال مصطلح العولمة في الأحاديث العامة عن طريق وسائل الإعلام، حيث يدعى الإعلام الغربـــي تعاظم الديمقراطية وحرية الصحافة، غير أن (نعيم تشومسكي وإدوارد هيرمان Noam Chomsky and Edward Herman) يتحديان هذه الادعاءات وينتقدونها بشدة، واعتبرا أن الصحافة الغربية ومايسمى بالصحافة الأمريكية الحرة هي صناعة المبشرين الإمبرياليين الجدد، الذين يناقضون بأعمالهم تفاخر الإعلام الأمريكي بكونه مستقلاً ويدعي العمل على كشف الحقيقة. والواقع أن الإعلام الأمريكي لا يهتم بالحقائق ولكنه يعكس آراء وأفكار مصادر القوة فقط ويعمل على نشر وتدعيم مخطط هذه المراكز في جميع أنحاء العالم. إن ادعاءات ما يسمى بالصحافة الحرة في كونها مبنية على محكات موضوعية وتعمل في حياد تام هي ادعاءات مزيفة. وإذا ماتفحصنا الأمور بشكل دقيق، نجد هذه الصحافة تدعم مصادر القوة ونشر أفكارهم ومخططاقم عبر العالم. إن أداء مايسمى بالصحافة الحرة المتمثلة في مايشبه السماح للجمهور بالوقوف على الحقيقة لا يمكن أن يصمد أمام التحليل الدقيق حيث تكون وقائعه وأهدافه الحقيقية مختفية وراء الواجهات المزخرفة بالخطب والإعلانات وتقارير الأخبار. أبواق النخبة القوية هي التـــي تقرر حقاً ما يجب على الجمهور سماعه أو رؤيته أو التفكير فيه، وبذلك هي التـــي تحدد رأي الجمهور واتجاهاته العامة (تشومسكي وهيرمان Chomsky 1989a; 1997; Herman and Chomsky 1988) إن وسائل الإعلام الحالية غير ديمقراطية بسبب عدم إطلاع الجمهور على كل الحقيقة وهي عادة ما تتبع أساليب ملتوية لإظهار إيجابيات زائفة لمظاهر العولمة (تشومسكي وشيلر Schiller; Chomsky; 1997 1983) وفي إطار العولمة، فإن النظام العالمي الجديد يتكامل مع نظام معلوماتـــي جديد. ويضيف كل من (تشومسكي وشيلر Chomsky 1997; Schiller 1983).

أنه عند دراسة وتحليل نظام الإعلام الغربـــي نجده محتكراً بالكامل للدول الصناعية الغربية. وعند انتقاد سيطرة نظام الإعلام الغربـــي الجديد، تحدث ردة فعل عنيفة من قبل الحكومات الغربية والمؤسسات الإعلامية الغربية (تشومسكي وشيلر وماكفيل Chomsky 1997; Schiller 1983; McPhail 1981). إن هذه المؤسسات الإعلامية المسيطرة هي التـــي تدعم بقوة الفكرة القائلة بأن الإعلام الغربـــي هو الإعلام الوحيد الحر في العالم. ويمكن

اعتبار الإعلانات التجارية من خلال التلفاز دليلاً على زيف ذلك، حيث نلاحظ أنها تبيع مشاهديها لمؤسسات إنتاج السلع مقابل دولارات الإعلان. والإعلان يغري المستهلكين بمشاهدة الدعاية. وأي نقد أو تهديد لهذه العمليات ينظر إليه على أنه محاولة للتأثير والعبث بحرية البرامج التلفزية (تشومسكي وشيلر Chomsky 1997; Schiller).

وخلال هذا القرن قام أخصائيوا العلاقات العامة في الإعلام بتطوير وتنقيح تكنيكات للكشف عن مخططات مؤسسات وحكومات زبائنهم، وخلق صور إيجابية بدلاً من الجانب المظلم السيئ للأنشطة التـــي يقومون بها (نيلسون Nelson 1989). وفي الجزء الأخير من القرن العشرين رأينا التألق المذهل للولايات المتحدة الأمريكية وهي الآن القوة الإمبريالية الوحيدة في العالم. وقد لاحظ (هربرت شيلر Herbert Schiller 1983) أن قوة أمريكا الإمبريالية هذه الأيام تكمن في ربطها للاقتصاد بالإلكترونات الذي حل مكان الفكرة السائدة لدى الغزاة القدامى والتـــي تمثلت في (الحديد والدم). ولا أعتقد بأننا نغالي إذا قلنا بأن الظروف التـــي يتم فيها تمويل المعلومات في الولايات المتحدة هي، في الحقيقة تحت سيطرة مركزة من قبل قوى إقتصادية خاصة (شيلر Schiller 1983). ومن منظور عولمي فإن صناعة الثقافة ماهي إلاّ تسويق لأسلوب الحياة الأمريكية. (بارنت وكافانغ Barnet 1994 and Cavanagh). والدعاية الغربية فيما وراء الحدود هي صناعة تكلف عدة بلايين من الدولارات وتقدم إنتاجاً وحيداً دون منافسة بحيث لانستطيع تحاشيه. والآمال التـــي تبشر بها تعمل على تليين مشاعرنا وتخترق كل المستويات في مجتمعاتنا على امتداد عالمنا المعاصر. والثقافة الشعبية الاستهلاكية للولايات المتحدة تحتكر سوق الاتصالات العالمي، وبمجرد كثافة مجالاتها وتعدد برامجها المركزة فإن الولايات المتحدة حقيقة تسيطر على العالم. وفي بلدان الجنوب نرى الصورة الخانقة للشعارات والدعاية الأمريكية لأن البرامج الأمريكية أقدر على إعادة صياغة العرض وبيعها بأسعار أرخص كثيراً من أسعار البرامج المحلية. (دستريس سيجنلز وبارنت وكافانغ Distress Signals 1986; Barnet and Cavanagh 1994). ونحن لانخالف الواقع إطلاقاً إذا قلنا بأن الولايات المتحدة الأمريكية تمثل القوة الإمبريالية الأولى التـــي تعمل على مستوى الكون كله.

ورغم كل ما يقال، فإنه يجب علينا تفحص مفهوم "العولمة" جيداً وانتقاده بشدة لكي

نرى الغايات التـــي تقودنا نحوها هذه العولمة. هناك بعض المظاهر السطحية التـــي قد تغرينا ولكن التعمق في أهداف العولمة ومقاصدها جديرة جداً بالاهتمام والحذر (Clare Booth Luce).

إننا في الحقيقة مفرطون في النظرة إلى تعاون القوى الإجتماعية من أجل خلق عالم صغير يكون لكل الناس. ولقد جاء إحساسنا بالعولمة من نقطتين أساسيتين. أولاهما تعود إلى خمس وعشرين عاماً مضت عندما رأينا صور الأرض من الفضاء الخارجي، والتـــي أوجدت لدينا نوعاً من الإحساس بأن الأرض وحدة متكاملة وأيقظت شعور العولمة لدى الكثير من الناس. تضمن هذا الشعور وحدة أعضاء هذا الكوكب الجميل وأننا جميعاً مترابطين في شبكة حياة معقدة وجدت في هذا المكان من الكون. وأود هنا أن أناقش العولمة من منظورين منفصلين، الأول هو النظام "الاقتصادي الجديد" في عمليات "التركيبة الكونية". المنظور الثانـــي هنا هو الإقتصاد العالمي الجديد الذي يعتمد تجارة ما وراء الحدود والذي يشار إليه أيضاً بالنظام العالمي الجديد، وهو ما أصفه بأنه أحد مكونات مرحلة السينوزويك النهائي (نهاية العصر الثالث) وإن النظام الإقتصادي الجديد التـــي تروج له وكالات الدعاية والذي نلاحظه يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة عبر وسائل الإعلام المختلفة ما هو في الواقع إلاّ انعكاس لنشاط المنظمات العالمية الإقتصادية. وإذا ما تجاوزنا اللغة المنمقة ونظرنا بعمق لهذه الأنشطة فإننا حقيقةً لا نرى إلاّ دماراً شاملاً. وأحد نتائج هذه العولمة هو مناقض تماماً لما تبشر به. فبدلاً من الثروة والرخاء الذي تدعى بأنه سيعم العالم، فإننا نرى نواتج إعادة هيكلة الإقتصاد العالمي متمثلة في زيادة متطردة للفقر والحرمان وتنامي فئات المنبودين (مارشيا نازك Marica Nozick 1992) إن الشركات العالمية العملاقة تمثل نهاية مرحلة المؤسسات ذات التفكير الجغرافي والضمير الميكانيكي. وفي كل من أهدافهم وإجراءاتهم العملية، فإن تعدد الجنسيات يمثل صورة مصغرة للقيم والفرضيات التـــي بنيت عليها نظرية العالم الحديث. هذه المرجعية جعلت كل أرجاء الأرض سوقاً عالمياً واحداً. إنه عالم من التجارة الدولية وهمه الوحيد هو التجارة. المنافسة والتجارة في كل شيء وعلى كل مسار يستطيع العقل البشري أن يفكر فيه أو يبتدعه. (جيرمي ريفكن Jeremy Rifkin 1991) يزودنا بتقييم يوضح فيه التجاوزات والنتائج السلبية لتجارة ما وراء الحدود، ويؤكد "ريفكن" إن العائق الرئيسي للنظرة الجديدة

الخاصة بالاعتناء بالبيئة هي الشركات متعددة الجنسيات. هذه الشركات العملاقة تمثل مرحلة نهائية من المؤسسات ذات الضمير الميكانيكي والتفكير الجغرافي. ومخاطر هذه الشركات العملاقة وتأثيرها على العالم يجب أن يتم إدراكه جيداً ويجب أن يتم انتقاده ومكافحته إذا ماأراد المجتمع الإنسانـــي أن ينعم بضمير جديد يقدر أهمية الحفاظ على سلامة هذه الأرض.

إن هذه الشركات تستغل شعار وحدة الأرض لتمرير مغامرات التسويق الدولي الذي لايعرف الحدود، وتنفذ تحت هذا الشعار مقاصدها الشريرة وتموه المواطن العادي وكأنها تعمل تحت علم واحد وشعار واحد هو وحدة الأرض وسلامتها ورفاهيتها. ويشير كل من (بارنت وكافانغ Barnet and Cavanagh):

أننا جميعاً مشاركون بشكل أو بآخر في هذا الحدث السياسي والاقتصادي غير المسبوق بالرغم من كل تحفظاتنا حياله وعدم قناعتنا به. نحن نعرف أننا يجب أن نفكر عالمياً، ولكن من الصعب على ذهننا أن يحيط بحي في مدينة فكيف له أن يحيط بالكوكب، وبذلك لا نستغرب وجودنا تحت رحمة ألغاز يصعب فهمها، فالعولمة هي الكلمة الشائعة خلال التسعينيات، وهي كلمة مثقلة بالاحتمالات وصبورة بشكل رائع وكأنها تطرح أحجية على "آليس في بلد العجائب" وتثير "الملكة الحمراء" لأنها تعنـــي بالضبط أي شيء يقول مستعملها إنها تعنيه (Barnett and Cavanagh 1994: 13-14).

كما كانت النـــزعة القومية سائدة خلال القرن التاسع عشر، ومن الواضح أن العولمة هي التـــي ستأخذنا إلى القرن الحادي والعشرين. وستكون مهمتنا التربوية هي المراهنة عليها لأنها تعمل على طمس بصائرنا بدلاً من تنويرنا. والدولة القومية في منعطف هذا القرن فقد فقدت سيادتها وبدأت تتلاشى أمام زحف العولمة. إن تجارة ما وراء الحدود نستطيع العمل في داخل الدول القومية حيث يقوم زعماء هذه الدول بتقديم التسهيلات المطلوبة عن طريق الدخول في تحالفات تجارية. وهكذا وجد اقتصاد المجتمعات الأوربية (EC) في منطقة غرب أوربا والذي اتضح أنه ارتبط بتحالف أمريكا الشمالية التجاري الذي يسمونه، NAFTA (North America Free Trade Agreement) وإذا نظرنا إلى هذا النظام العالمي الجديد فإننا نجده نظام يعمل لصالح الأقليات من السكان فقط، وبالتأكيد فإن التكامل العالمي هو نعمة مختلطة بين الإيجابيات والسلبيات حتـــى ولو ألبسناه مقومات الزينة، وقد قدم كل من "بارنيت وكافانغ" وصفاً جيداً للعولمة حيث أفادا أن تكامل اقتصاديات الدول يؤدي إلى

نتائج مختلطة. ويلخصان ذلك في الآتي:

في أواخر القرن العشرين توجد دلائل قوية على دمج اقتصاديات الدول بشكل متزايد، وأن الدول يتم تقسيمها بطرق متعددة ولا خيار للمجتمعات في ذلك، رغم أن بعض المناطق في العالم لا تحقق العولمة فيها نجاحاً متوازناً. وفي بعض المناطق الأخرى من القارات أو في مدن أخرى تكون العواقب ليس فقراً ساحقاً فقط، بل واختفاء لبعض المجتمعات والثقافات القديمة، إضافة إلى أن بلايين البشر يفقدون الإحساس المكانـــي واعتبار الذات اللذان يضيفان على الحياة معنى. والصراع السياسي خلال العقود الأولى من القرن الجديد سوف يكون بين دول أو تحالفات اقتصادية. ولكنه سيكون بين قوى العولمة وقوى أخرى أسست في المناطق المحلية تعمل على إعادة تشكيل المجتمع والمحافظة على بقائه (بارنت وكافانغ Barnet and Cavanagh 1994; 22).

وكما هو واضح للقارئ فإن آراء (بارنت وكافانغ Brnet and Cavanagh) تبدو على درجة كبيرة من الأهمية. فهم يتساءلون عن أين ستؤدي بنا هذه العولمة؟ وإلى أين ستقودنا؟ وأخيراً نرجع إلى حيث ابتدأنا وهي البيئة حيث نبني حياتنا الجماعية. نستطيع الآن بناء مجتمعنا المحلي في إطار وعي مجتمع كوني يرانا جميعاً نعيش في عالم واحد. تحتاج هذه الفكرة للتطوير بالطبع وستشكل عمل الجزء الأخير من هذا الكتاب. وأثناء ذلك علينا أن نرفع أنوفنا بعيداً عن ضوضاء العولمة التي سيمطرنا بها عمالقة العولمة الذين سيغرقوننا بالدعاية عن جمالات السوق العالمي.

المنافسة

يعرف قاموس (ويبستر Webester) كلمة "منافسة" بأنها الكفاح من أجل الوصول إلى (مكانة أو تملك شيء أو الحصول على مكافأة) يعمل الآخرون على تحقيقها. وهذا المصطلح من أقوى المصطلحات الذي استخدمته الرأسمالية في جميع مظاهر تحولها بداية من منتصف القرن التاسع عشر وحتـــى وقتنا هذا. وقد رأى (آدم سميث Adam smith) في المنافسة بأنها اليد الخفية التـــي نظمت التجارة وغير من عملياً المبادلة. وتتم المنافسة في السوق دون إعاقة أو مداخلات من مؤسسات أخرى كالدولة مثلاً، وفي هذا التعليق يختلف "آدم سميث" مع كارل ماركس Karl Marx حيث يرى ماركس ضرورة سيطرة الدولة على عمليات

المنافسة، أما بالنسبة للرأسمالية، فإن المنافسة تعتبر القوة الرئيسية في توجيه السوق. وعادة مانسمع إرشادات الساسة ورجال الأعمال وتأكيداهم على ضرورة المحافظة على استمرارية "عصر المنافسة" وإلا سنتخلف عن السباق، وكما أشرنا سابقاً، لكي تجعل السباق عادلاً فلامناص من تكافؤ الفرص أولاً.

ومن الضروري أن نتفحص المصطلح في إطار سياسي وتاريخي. مما يحتم علينا الرجوع إلى القرن التاسع عشر، حيث ارتبط المصطلح ارتباطاً عضوياً بالرأسمالية. فنظرية "دارون" في التطور تشير إلى أن بقاء الأنواع هو نتيجة لنمط من الميكانـــزمات يسمى (البقاء للأصلح) وقد أشرت سابقاً إلى أن هذه الميكانـــزمات أصبحت تعليلاً اجتماعياً للداروينية (هوفستاديتر Hofstadter 1955). وفي الإطار الإجتماعي اعتبر جزءاً من طبيعة الأشياء أن الأصلح يجب أن يبقى ويزدهر. وهذا الاعتقاد هو الذي أضفي شرعية لمنافسة قاسية في مجال الربح لا ترحم أبداً. وقد أشار التشكيل الإجتماعي للداروينية ردة فعل قوية في بداية القرن العشرين وانتقدت هذه النظرة كثيراً في تاريخ الفكر العلمي المعاصر (ريفكن وبارلاس وهوفستادتير وكروبتكين Rifkin and Perlas 1983; Hofstadter 1955; Kropotkin, 1895). وفي الحقيقة فإن "دارون" لم يعتنق "التفسير الإجتماعي للداروينية" ويعتقد "دارون" بأن الكفاح من أجل البقاء عزز غريزة التعاون. وفكرة التعاون هذه قد طورت على يد الأمير الروسي (كروبتكين Kropotkin 1895) من خلال نقاشاته عن *"التعاون المتبادل"*، وقد انتهى إلى رأي مخالف تماماً للرأي السائد الآن في تفسير المنافسة بخصوص بقاء الأنواع، حيث يجادل بشكل مقنع في أن الحب والعطف والمعاناة والتعاون قيماً تلعب دوراً كبيراً في نمو الضمير الخلقي. والرأي المعاصر السائد في علوم البيولوجيا والأنتربولوجيا والإحاثة* جميعها تتفق مع "كروبيكين" دون أن تتفق مع هربرت سبنسر وهكسلي Herbert Spencer and T.H. Huxley) في الجدال الدائر حول سمو التعاون عن المنافسة في تطور أشكال الحياة (مارغيوليس ومارغيوليس، ساهورتيس، شاتوريس Margulis 1987; Margulis and Schwartz 1982;

---

* الإحاثة... علم يبحث في أشكال الحياة خلال العصور الجيولوجية السابقة من خلال المتحاثات الحيوانية والنباتية (المترجم)

.(Sahtouris 1989

إن هذه التطورات ليس لها إلا تأثير بسيط على اللغة المستخدمة اليوم في التجارة عبر القارات والدول حيث يكون تنافس السوق العالمي مرناً للغاية لأن الأسعار يتم تثبيتها من قبل الشركات الكبيرة من خلال وسائل الإعلام ويتم ذلك بصورة حادة كل يوم وليلة.

الإستهلاك

إن ثقافة الإستهلاك ورأس المال المسيطر في العالم في نهاية القرن العشرين لهو أمر مدمر بشكل شامل وعميق، ويبدو رؤية جديدة ستستمر في مشاهدة الإنهيار المتزايد في بُنـــى حياتنا ونهاية حتمية لأشكال متعددة أخرى من الحياة. وقد سميت هذه المرحلة التاريخية "بنهاية العصر الثالث" السينوزويك النهائي. إن هذا النمط السائد من حياتنا الثقافية لا يلبـــي قطعاً العديد من حاجاتنا الأساسية.

إن وضع التعقيد والتنوع الظاهر في ثقافتنا السائدة الآن يجعل الفرد حذراً في الخوض في تعريفات الثقافة أو صياغتها في صور بسيطة على أنها *"ثقافة خدمات"*. وحقيقة الأمر، أن كل الثقافات وفي كل الأزمنة أظهرت الجماعات البشرية رغبات، وإن لم تكن في الخدمات بعينها فقد كانت في أشكال مزخرفة وكثيراً ما تمثلت في أشياء مرهفة ولدى عشائر أو قبائل أو طبقات إجتماعية محددة. وخلال النصف الأخير من هذا القرن أصبحت الرغبة في الخدمات سائدة لدى جميع الطبقات. ولايعنـــي ذلك أن الناس لديهم عدد كبير من البضائع والخدمات ولكن عدداً كبيراً منهم يريد ويرغب الحصول على سلع وخدمات حتـــى ولو لم يتمكنوا من الحصول عليها. وتتميز رأسمالية السوق العالمي باستحواذها على أصناف معينة من السلع والخدمات.

ويصف عالم النفس (فيليب كوشمان Phillip Cushman 1990) مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية بأنها تحول من القيود الجنسية الفكتورية (Victorian) إلى ما يشار إليه "بفراغ الذات". ويعتقد بأن حقبة ما بعد الحرب فإن الجزء الشمالي من القارة الأمريكية قد تسبب في غياب ملحوظ لثقافة العشيرة والتقاليد المشتركة مما أدى إلى زعزعة الإيمان والاحترام. وتتجسد هذه المظاهر السلوكية في الجوع العاطفي الشديد. ويؤكد "كوشمان" على أن تركيز

الاهتمام على بناء الاقتصاد وتعزيز القوة يؤثران بشدة على بناء الشخصية. وقد لاحظنا في مرحلة ما بعد الحرب ظهور علاقات تدل على "فراغ الذات" بين الناس مما أدى إلى سلوك سد الفراغ عن طريق اقتناء المواد الإستهلاكية والأطعمة المشبعة بالسعرات الحرارية والتشبه بالسياسيين واللهث وراء الخلان من الرومانسيين والتقمص العاطفي كمحاولات لردود أفعال ناتجة عن ازدياد العزلة والتغريب ومظاهر تدهور وانهيار عصرنا هذا. وهذه النواتج كانت نتيجة حتمية لمقتضيات إقتصاد ما بعد الحرب الذي بنـــي على استمرارية الاستهلاك للسلع العتيقة وغير الأساسية. وهذا النوع من الاقتصاد يزدهر بتعزيز الرغبة في إستهلاك السلع غير المعمرة وإثارة الحاجة إلى الإستهلاك المستمر إضافة إلى تدمير الدخل عن طريق التدفق المستمر للمال يسبب إثارة دوافع الاستمرار في الصرف والشراء (كوشمان Cushman 1990). وأول مؤسسة تولت تنمية الذات العصرية الإستهلاكية هي مؤسسة الإعلان بخزعبلاتها الخبيثة.

والإعلان هو عرض منظم للحاجات والرغبات التـــي تساعد على بيع البضائع، سواء كانت سلعاً أو خدمات. ونحن نسير الآن نحو ثقافة عالمية تعمل بصورة متواصلة على توفير الحاجات في جميع أنحاء المعمورة. وعولمة الثقافة هي جمهرة الثقافة، حيث يكون عرض الحاجات متوفر في جميع أرجاء المعمورة وبأشكال مختلفة ومتعددة.

وفي سبيل إنتاج كميات كبيرة من البضائع والخدمات فإنه يتحتم تهيئة قابلية الناس للإستهلاك، وأصبح الباعث المسيطر في ثقافة الغرب اليوم هو الإستهلاك ومزيد من الإستهلاك. وقد نتج عن ضخامة الإنتاج وميكانـــزمات السوق ظلم فادح يعانيه السواد الأعظم من الناس. وقد تضمنت الفصول السابقة من الكتاب مظاهر التفاوت الطبقي بين أقلية الأغنياء وغالبية الفقراء في كل أرجاء الأرض مما أنتج تفسخاً وانحلالاً وحرماناً لغالبية سكان الكرة الأرضية، حيث تم تهجيرهم عن مواطنهم الأصلية واستنـــزفت مواردهم وخربت أراضيهم واندثرت مواقع عملهم. وحتـــى في البلدان الغنية نلاحظ انهياراً متزايداً للبنية التحتية وخراب متزايد للمساكن والخدمات الصحية وخدمات الضمان الإجتماعي. إن الحكومات لم تعد مهتمة بالمصلحة العامة بل مهتمة فقط بإشباع المؤسسات التجارية التـــي ليس لها ولاء أو اهتماماً بالجماعات المحلية. ويوجد لدينا في المجتمعات الغربية، وبكل تأكيد، انحلال في حياة جماعاتنا المحلية التـــي تركناها عرضة لثقافة التلفاز. ويستعرض (مايكل ليرنر

(Michael Lerner 1996) صورة معبرة لحياة الجماعة من خلال وصفة لنمط الحياة في أسرة الطبقة المتوسطة في الولايات المتحدة الأمريكية، مشيراً إلى أنه بعد يوم مضنـــي من العمل، يوجد غياب مؤلم للمشاركة الوجدانية والرؤية الخلقية والاعتراف والقبول المتبادل لدى الغالبية العظمى من هذه الأسر. وغالبية الناس يبحثون عن أماكن التسلية والترفيه في المجمعات التجارية أو من خلال التلفاز. ويتصور هؤلاء الناس بأن حريتهم قد تحققت بتخلصهم من مقترحات جيرانهم بخصوص ما يلبسون أو كيف يعيشون. وفي ذات الوقت يقتبسون ذلك من وفرة العروض عبر الصحافة المنغمسة في تلقين دائم ومستمر للمشاهدين سواء الوسائل المسموعة أو المقروءة أو من خلال شاشات التلفاز. ويعتقد "ليرتر" بأن هناك إحساساً متزايداً بأن الحرية التـــي يتم اكتسابها عبر هذه العمليات هي حرية فارغة تماماً. وفي حقيقة الأمر، فإن الناس قد وقعوا في فخ عميق وسيطرت عليهم جميعاً وبشكل مستديم فكرة قوة خارقة تعمل على تشكيل ميولهم ورغباتهم بطرق لا يستطيعون معها إبداء أي نوع من المعارضة أو المقاومة.

ولعدة قرون، اعتبرت الثقافة الغربية في أعلى مستويات تطور الثقافات البشرية، وعندما استعمر الإنكليز آسيا وإفريقيا، كانت أنشطتهم بمثابة رسالة واجبة التبشير بها من قبل الرجل الأبيض. وخلال القرن العشرين ولدت الثقافة الغربية مفهوم الدول النامية والدول المتحضرة لتضع نفسها في قمة درجات التحضر وأصدرت حكماً على بقية دول العالم بالتخلف في القدرة الإنتاجية وتحويل الموارد الطبيعية وصنع البضائع وما يشار إليه بمواد الإستهلاك. وتعتبر الثقافة في نظرهم متخلفة ما لم تكن صناعية حديثة تتناغم فيها التكنولوجيا الغربية مع الخبرة العلمية.

إننا نرى الآن قصور الثقافة الغربية في الإيفاء بالمتطلبات الأساسية للحاجات الإنسانية. وفي الماضي القريب نستطيع أن نقول أن ثقافتنا الحالية كانت مورداً جيداً للجانب المادي. غير أنه خلال العقد الأخير من القرن العشرين رأينا تدهوراً شديداً على المستوى المادي مقابل التوفير لبعض الحاجات، كتوفير بعض الغذاء والمأوى للمشردين، الذي نسمع عنه من مدمنـــي العولمة. وبالنظر إلى الحاجة للحماية فإننا نستطيع القول بأن المجتمعات الغربية قد تعاملت بشكل مناسب مع الحاجات من أجل الوجود والتملك والعمل والتفاعل في مرحلة

ما بعد الحرب. وفي الوقت الحاضر يوجد شعور عميق وواضح بتدهور أنظمة الرعاية الإجتماعية. منها استنـــزاف المكاسب في الخدمات الصحية، وخلخلة برامج الرعاية الإجتماعية، ومهاجمة أنظمة معاشات التقاعد مما يعرض كبار السن للإهمال بشكل متزايد. ونلاحظ أيضاً تقلص في التفاعل الإجتماعي مما أدى بدوره إلى انهيار متزايد في الحياة العامة.

إن الحاجة إلى العطف أصبحت مشكلة المشاكل في المجتمعات الغربية حيث يوجد جفاف في العلاقات العاطفية، وبشكل ملحوظ ستصبح الأسرة الحميمة هي الملاذ الوحيد الذي تتوفر فيه المودة والرحمة. وعندما تنظر إلى الحاجة النفسية المتمثلة في الاعتراف بالمكانة فإن حاجة إثبات الوجود والعمل والتملك يرتبط بالطبقة الإجتماعية والجنس والنوع الذي ينتمي إليه الفرد. ومن المهم أيضاً أن نلاحظ أن المجتمعات الغربية تقوم على نظام هرمي التنظيم حيث يكون الارتقاء من طبقة دنيا إلى متوسطة يعتمد على ما يسمى بالثراء. وبصورة ملحوظة ومطردة أصبح التعليم للنخبة. والمشاركة في المجالات الأربعة الهامة المتمثلة في المكانة، والملكية، والعمل، والتعامل تعتبر محدودة في المجتمع الإستهلاكي. الأمر الذي أدى بدوره إلى تدهور ملحوظ في المشاركة في الحياة الإجتماعية العامة. ويتم التعبير عن المشاركة الإجتماعية من خلال ثقافة التلفاز السائدة. كما يوجد تدنـــي كبير في المشاركة في الحياة السياسية على جميع المستويات الحكومية. وفي معظم البلدان الغربية يوجد تدنـــي في المشاركة في الانتخابات على الرغم من وجود اختلاف في حجم المشاركة الانتخابية بين المدن والمناطق الريفية التـــي يتوفر فيها قدر من التضامن بين الجماعات. أما حياة السرعة وانعدام أوقات الفراغ واستمرار الحركة فقد نتج عنها أعراض إكتئابية لدى كثير من الناس. وعلى الرغم من إشباع حاجة الخلق والإبداع وحب الاستطلاع إلا أن ذلك لم يترك مجالاً كافياً للتعبير والحرية المستمرة. وربما كان من أكبر مظاهر العجز في المجتمعات الغربية هو عدم القدرة على إشباع الحاجة إلى الاعتراف بالهوية. والإحساس بالإنتماء في المجتمعات الحديثة أصبح ضعيفاً جداً وذلك بسبب العزلة النفسية المفروضة على الأفراد. وقد يبدو إشباع الحاجة إلى الحرية متوفراً في المجتمعات التـــي تسمي نفسها بالمجتمعات الحرة إلا أنها حرية مصطنعة وسطحية. وخلال مسيرة الإقتصاد نحو العولمة تكونت طبقات دنيا من العاطلين وضروباً من العمالة الهامشية. وعلى الرغم من حركات المطالبة بالمساواة لازالت هناك فئات كالسود والنساء

والبدائيين يعانون من الأساليب المتعددة للتفرقة والتمييز وانعدام العدالة والمساواة.

وباختصار، فإنه من المهم أن ندرك جيداً أهمية أن يقوم المجتمع بإشباع حاجاتنا الإنسانية. أما إذا اعتقدنا بأن مجتمع اليوم يقع في أعلى مستويات التطور الثقافي فإننا عندئذ نكون قد وقعنا ضحية للدعاية الزائفة وعندما ننظر جدياً وبتعمق إلى حاجاتنا النفسية والمادية وكيف يتم إشباعها فإننا نجد أن مجتمع اليوم يفتقد إلى أهم الوسائل لإشباع تلك الحاجات ولعل أبرزها التماسك الإجتماعي والشعور بالانتماء والاطمئنان النفسي.

إن مهمة المستهلك العالمي الجديد هي "تسوق حتـــى تستهلك فتفلس وتهلك" وهذا مايتأكد لنا من خلال النظر إلى قمامة العولمة الجديدة ومراكز أسواقها التـــي انتشرت حول العالم (بارنيت وكافانغ وماندير Barnet and Cavanagh 1994; Mander). إن هذه المراكز التجارية تبحث عن مستهلكين وليسوا مواطنين، وهذا هو الموضوع الذي سيتم الرجوع إليه لاحقاً. إن غالبية الناس لا يملكون الوسيلة للوصول إلى تلك البضائع المعروضة بل وأكثرهم لايعرفونها إلا من خلال التلفاز، وهذه هي ثقافة أمريكا الشمالية. ورغم ذلك يظهر (*برنامج دالاس وكوسبـــي Dallas and Cosby show*) على شاشات التلفزيون في كل مكان و"الحلم الأمريكي" ينشر في جميع أنحاء العالم (بارنيت وكافانغ وماندير Barnet and Cavanagh 1994; Mander 1991). إن المثير للسخرية هنا، هو أنه في وقتنا الحاضر تكون معظم أنظمة البث الرئيسية الأمريكية مملوكة للألمان واليابانيين. وكرجال أعمال لا يثيرون اهتماماً للعزة الوطنية، فهم يسوقون بضاعة التلفزة على الطريقة الأمريكية في الحياة لأنها أرض أحلام المستهلكين. وبالرغم من أن التلفاز الأمريكي هو حقيقة ليس مؤشراً دقيقاً عن الحياة اليومية ولما يحدث للأمريكيين، إلا أنه هيكل من ورق للأحلام صمم في برامج لإغراء كل ثقافات العالم، وهو حلم محدد في إطار الثقافة الواحدة. ومن الدقة بمكان، أن نقول أن رؤية أمريكا الشمالية كدولة حرة لمستهلكي الحياة السعيدة ونموذج ثقافي وصل الآن إلى كافة أرجاء المعمورة. وفي صيف العام الماضي سمعت بأنه قد تم تغيير موعد الاجتماعات الرسمية في أحد القرى بفلسطين المحتلة من يوم الجمعة إلى يوم السبت وذلك بسبب عرض "دالاس وكوسبـــي" الذى يعرض يوم الجمعة.

والتلفاز الآن هو الوسيلة الوحيدة لتقديم الثقافة الشعبية، وفي الفترة الأخيرة من القرن

العشرين أصبح التلفاز بدون أدنـــى شك أقوى وسيلة لنقل القيم الثقافية التـــي تشكل ما نسميه بالنظرة الواقعية. والتلفاز باعتباره ناقل الثقافة يمكننا استخدامه في استعادة قصة تصورنا وسيطرتنا الثقافية (الأيديولوجيات والشعارات اليوتوبية).

ولو افترضنا أن مذيع التلفاز يخاطبنا كأفراد وليس كجماعات. نحن أفراد ولنا الحق في التملك وواجب في الإستهلاك ومهمة ثقافية في الاعتقاد وذلك هو أفضل العوالم الممكنة. أنها قصة الثقافة لـــ "المستهلك الرأسمالي". وذاكرة الثقافة الأساسية، هي أننا استهلكنا بالأمس ولنا الحق بل ومضطرين أن نستهلك اليوم* نحن نعلم بوجود من يعرف أكثر ومن يعرف أقل وكمشاهدين، نحن تعودنا على أن نعرف أقل، نحن لم نسأل قط عن استخدام حكمنا. نحن نعتمد دائماً على أحكام "الخبراء". وعلى مستوى المشاهدة والسماع، يتبين لنا أنه على الرغم من أن كل الناس متساوين، إلا أن بعض الناس يكونون أفضل من الآخرين. ولهذا أصبحت الأحثية هي التبرير الوحيد لفكرتنا عن المساواة. وبذلك تسمع وسائل الإعلام تقول بأن النساء متساوون مع الرجال. هذا نظرياً أما فعلياً فمواصفات دور الرجل يثبت أن جنس الرجل ذو مدلول وأهمية أكبر. وينطبق ذلك تماماً على أرباب العمل والعمال والبيض والسود والعالم الثالث والأول.

وبالإضافة إلى أن العامل المسيطر في ثقافتنا ليس هو الفرد ولكنها التقنية. وأصبحنا نعتقد أن "التقنية" هي التـــي تخلق الثقافة خلافاً لكونها نتاجاً لتأليف ثقافي. إن العنصر الغائب في هذه الإعلانات التجارية هو "العنصر البشري" وحكمته التـــي تقرر كيف تؤدي مخترعاتنا

---

* في أمريكا الشمالية وخاصة الولايات المتحدة. يخفي إنتصار الرأسمالية على الإشتراكية معظم المشكلات المزمنة الناتجة فك لجام التصنيع. وإنتصار السوق الحرة يجب أن لا يغري الناس في الغرب الديمقراطي. والرأسمالية المتوحشة ستنجب تنافساً وحشياً مع إنعدام التوازن وعدم تكافؤ الفرص وغياب العدل وتفشي الاستغلال في هذا الصراع الدامي الذي يسمونه التنافس الحر في الدول الغربية. إن زوال الإشتراكية يجب أن يثبت فقط بأن المجتمعات المعاصرة لا يمكن أن تدار أمورها أو تحكم بواسطة مبدأ واحد، سواء كان التخطيط بواسطة رغبة عامة أو كان بواسطة محددات السوق الحرة. ووسائل إعلامنا الحالية منهكة عن الدفاع غير المجدي عن ميكامزمات السوق الحرة، وتقدمها على أنها الوجهة المنطقية الوحيدة التـــي لا اتجاهات مستقبلية لكافة إقتصاديات العالم. (لمزيد من التفاصيل أنظر تايلور Taylor 1991).

التقنية وظائفها. وعلى سبيل المثال، فإن المفاعل النووي لم يوجد صدفة أو يأتـــي من فراغ، ولكن كان نتاجاً لقرارات بشرية لم يتم عرضها في الإعلانات التجارية.

وكما أشرنا سابقاً، إن رؤية التقدم أعطتنا الإحساس بأننا نسير إلى الأمام بشكل مطرد وبدون إرادة. ونستطيع السير قدماً بشكل جيد دون أن نسأل عن تكامل قصة الثقافة أو سلامة محتواها. وهكذا فإن منفذي تغيير اليوتوبيا (الإصلاحات المثالية) هم أنفسهم منفذو تغيير قصة الثقافة. أفراد بيض رأسماليون وينتمون إلى العالم الأول. وإن فكرة التقدم التـــي تدعي بأن التقدم يحقق المساواة هي فكرة تم إعلانها في إطار سيطرة الخرافة. وهي نفس الخرافة الثقافية التـــي تحدد مساراتنا. إضافة إلى أن رموز التقدم اليوتوبـــي ينخرون باستمرار في قصة الثقافة ويقرنونها "بخرافة الإستهلاك"، حيث يتقادم لإنتاج سريعاً بظهور منتجات جديدة للإستهلاك. وهكذا تكون السيارة أو معجون الأسنان أو جهاز مجسم الصوت الذي اشتريناه بالأمس غير مناسب اليوم نتيجة لإنتاج جديد أكثر فعالية. والشيء الوحيد الثابت في القصة هو عمليات الإستهلاك والشراء المستمر. وعلى الرغم من أنها غير بارزة في البرامج التلفزية، إلا أن الأسلحة المدمرة رغم كراهيتها فهي تقدم للمستهلكين على أنها ضرورة حتمية لاستمرار التقدم. ويمكننا القول بأن صناعة خرافة الثقافة يمكن تأليفها بخصوصية تامة في غرفة الجلوس حيث يكون الإتصال متميزاً بالخصوصية ولا يتعرض للتساؤلات. وهكذا فالحياة السياسية العامة التـــي تمكننا من المشاركة في اتخاذ القرارات لا يتم تشجيعها. ونرى التلفاز أحياناً يتظاهر وكأنه مهتم بالحاجة إلى الشعائر العامة التـــي تذهب إلى ما بعد مخاطبة الفرد، وذلك عن طريق حضوره لما يشبه المناسبات العامة مثل المباريات الرياضية. أنه لأمر مشوق جداً أن تكون المناسبات الرياضية ذات شهرة. ولكن المتفحص الدقيق سرعان مايكتشف الأسباب الحقيقية لاهتمام التلفاز بمثل هذه المناسبات. ومثل هذه المناسبات عادة ما تمجد الدولة أولاً، عن طريق تحية العلم ثم جنس الرجال وكذلك التقنية والمنافسة الشرسة التـــي يكافؤ فيها الفائزون في مباريات بنجوم النظام. وتوجد لحظة من السكون العقائدي قبل تلاوة النشيد الوطنـــي.

وإذا ما لاحظنا بدقة برامج التلفاز التجاري، فنجده يسمح للفرد بترميز قصة الثقافة ورؤيتها المسيطرة، لأنه، أي التلفزيون التجاري هو البرنامج الأكثر قوة لتكريس الميول

التجارية في مجتمعنا. وتدفع الشركات الممولة للبرامج التلفزية بسخاء لكي تصل دعاية البناء الخرافي للرأسمالية إلى المشاهدين، لتصل معها دعاية الأسس الخرافية لثقافة المستهلك والمصنع ودافعية اقتناء السلع. أما هؤلاء الذين يتحدون قصة الثقافة الخرافية هذه، يتحتم عليهم القيام بمهام تربوية حاسمة نتمكن من خلالها التعامل بكفاءة مع هذا العالم العجيب من رأسمالية الإستهلاك الذي يعرض أمام أبصارنا من خلال وسائل الإعلام. إن البيداغوجيا النقدية التـــي تتحدى هذه القوة الخرافية السائدة وتنتقدها بشدة، لا نستهين بعناصرها الجذابة. . وتتجسد جاذبيتها في تقديمها لعالم المخلفات هذا على أنه عالم "عالم العجائب". (ت. بيري (T. Berry 1988). ولقد علمنا من "مذكرات السجن" (لأنطونيو غرامشي Antonio 1971 Gramsci) بأن أسطورة ثقافة رأسمالية المستهلك السائدة هي في الواقع مرتبطة بقبول عميق لدى الجماهير. وواضح أنه بالذات الحال في بلدان الديمقراطيات الليبرالية حيث المطواعية تخفف وطأة الإكراه. والعنصر الأساسي في هذا الإتقان الجماعي في الوقت الحاضر هي أنظمة الإتصال الإعلامي. ويلعب التعليم المدرسي دوراً بارزاً ولكنه لايحظى إلا باهتمامٌ ثانوي، ويشغل المقعد الخلفي في عصر "أطفال الأنبوب". ولهذا تلعب التربية النقدية دوراً حاسماً في تحدي هذه النداءات القوية لأسطورة رأسمالية نظام الإستهلاك وتعرض فاعلية الإعلام للخطر.

إن قصة الرؤية الثقافية السائدة حالياً لا تستوعب كل الرؤى والقصص المتضمنة في الثقافة الغربية المعقدة. وفي كل الثقافات توجد دائماً قصص ورؤى معارضة. وهذا هو دور التربية الناقدة كما يجب أن تكون، تربية تنمي الحس النقدي السليم.

وإذا كان الدافع الأساسي للإعلان هو خلق مستهلكين فسوف تكون مهمة التربية الحصينة هي إعاقة تقدم الإستهلاك.

> إن الشعارات القوية للثقافة السائدة هي التـــي نراها من خلال زخم الإعلانات التجارية المرئية التـــي تدخل كل البيوت مما يزيد من أعداد المشاهدين بمعدل لم يسبق له مثيل في التاريخ. إن الأنشطة الدعائية هذه، سواء كانت مسموعة أو مقروءة فهي التـــي تهدد وجود مؤسسات عريقة لها تقاليد وقيم ثقافية لدى العديد من الثقافات التـــي يرتبط استمرارها باستمرار تلك التقاليد والقيم. Goldson (1977: 14–15)

وما نحن في حاجة له اليوم فهو إدراك جديد لما يجب أن تكون عليه المواطنة الصالحة.

والمواطنون هم عناصر فعالة وليسوا مستهلكين سلبيين. والمهمة الرئيسية لأجهزة البث المرئي والمسموع ليست موجهة لتهذيب قوانا العقلية وإمكانياتنا البشرية ولكنها موجهة نحو تدعيم رغبتنا في الإستهلاك للمنتوجات والبضائع. وبذلك يكون هدف الإعلان الإعلامي خسف العمل الإنساني وإعاقة الضمير، ومسخ الميول الإنسانية والمحاولات الإبداعية التي قد لاتكون ملائمة لثقافة الإستهلاك.

إن الظاهرة الكاذبة للعولمة التي سبق نقاشها ما هي في الحقيقة إلا انعكاس لعمل القوى الإقتصادية والثقافية العميقة التي تنطلق تحت حماية العولمة وتكتسح العالم مثل العاصفة. أنها تدمير شامل ويجب أن يقاوم بشدة من خلال محاولاتنا إيجاد حياة مؤمنة وخلق قوى حية. إن أحد مكونات المنظور الجديد هو مقاومة القديم المدخر. وبعد تقييم قوى العولمة. اكتشفنا بأننا كنا مهملين لما يجب عمله من نقد ومقاومة لهذه القوى المدمرة التي تغزونا اليوم. وماهو قادم لا محاله، هو تعدد الأبعاد لتعليم يكرس المقاومة الفعالة.

التعليم من أجل التحدي الحاسم وفي إطار التمييز والتهميش والأقلية والأغلبية

إن تطوير فكرة "الامتياز العالمي" يتطلب منذ البداية، احتواء معيناً في تعريفه وتحديد مفاهيمه. وتميز العولمة يتطلب فهم الإقتصاد والسوق الحر الذي يمتد في كل أرجاء المعمورة. ويعني هذا الفهم كافة أنماط الاستغلال والإستهلاك في سوق التجارة العالمي. ومناقشته الامتياز العالمي في إطار جغرافي يتطلب توضيحاً وتحديداً. إن فكرة "التمييز" يتم تقييمها من خلال منظور الجغرافيا السياسية وإقتصاديات العالم. ولهذا ظهرت فكرة العولمة الواحدة في نصف الكرة الشمالي في غياب التحليل الموضوعي لتمييز النوع والجنس والطبقة. ويجب الإعتراف بأنه في النصف الشمالي من الكرة الأرضية توجد قطاعات عديدة من السكان أصبحوا محرومين من حقوقهم. وعند الحديث عن الجنوب الذي يسمى تقليدياً بالعالم الثالث أو العالم المتخلف، فإن نخبة غير بسيطة من سكانه يعيشون نفس ظروف الامتياز التي تعيشها نخبة الامتياز في الشمال. إن التعبير المناسب هنا هو "أنه يوجد عالم ثالث في العالم الأول، وعالم أول في العالم الثالث"، وكما يوجد أيضاً تحليل مفصل عن قضية المساواة بين الجنسين التي توضح نظام إقتصاد العولمة ضمن نظام للإقتصاد العالمي في منظومة "امتياز

الأباطرة" (مايس Mies 1986). إن مثل هذه التوضيحات يجب تذكرها عند الحديث عن فكرة تميز النصف الشمالي للكرة الأرضية. إن مثل هذه الأفكار يجب أن تصاحبنا دائماً خلال نقاشنا "للتمييز الإقليمي". وحتـــى في إطار الإقتصاد العالمي يمكننا تبرير الجدل حول تميز الشمال حيث يدعم ذلك تحدياتنا التربوية للعولمة ويحدد لنا مؤشرات جغرافية محلية. ويعد هذا التحليل يمكننا أن نعرج على قضايا التهميش والطبقات الإجتماعية الدنيا.

وها هي بعض الإحصائيات والأرقام نوردها لكي يتأملها القارئ. يستهلك نصف الكرة الشمالي حوالي 80% من ثروات العالم. ويعيش ثلاثة أرباع سكان العالم في النصف الجنوبـــي من الكرة الأرضية ويقتسمون ما تبقى من ثروات. يستهلك الفرد العادي في الغرب (1) أكثر من (264lb) رطل من الورق في العام مقابل (17.6lb) رطل للشخص في العالم الثالث، (2) أكثر من (990lb) رطل من الحديد الصلب مقارنة بـــ (94.6lb) رطل في العالم الثالث، (3) يشتري طاقة تعادل (6) أطنان تقريباً من الفحم، مقارنة بـــ (0.5) طن في العالم الثالث.(*New Internationalist* 1990)

وفي مجال إغراق العالم بالسموم، تنتج مصانع الغرب كميات كبيرة من النفايات السامة معظمها ينكب في العالم الثالث. وعلى سبيل المثال، منذ سنة (1986) أكثر من (3) ملايين طن من النفايات السامة شحنت من أوربا الغربية وأمريكا الشمالية إلى أقطار أخرى خارج نصف الكرة الشمالي (*New Internationalist* 1990).

وفي ما يتعلق بإستهلاك المياه، يستهلك الغربيون ما بين (30 و100) جالون يومياً. ومتوسط مايستعمله الأمريكي الشمالي من ماء يومياً يزيد عن ما يستعمله المواطن في مقديشو. في ثلاثة أشهر. والولايات المتحدة وكندا من أكبر دول العامل إسرافاً في المياه والنفايات وتليها أوربا الغربية وخاصة في النفايات (*New Internationalist* 1990).

وفيما يتعلق بإستهلاك الطاقة، فإن الولايات المتحدة تمتلك 6% من مصادر الطاقة في العالم ولكنها تستهلك 30% من الطاقة المستهلكة في العالم، ومقارنة بالهند التـــي يمثل عدد سكانها 20% من سكان العالم تستهلك فقط 2% من الطاقة في العالم (*New Internationalist* 1990).

إن هذه الحقائق توضح ما أسميته بالتمييز الإقليمي للشمال وتحديداً ما يسمى بتصميم الإقتصاد العالمي المتميز للشمال. أننا سئمنا ترديد مصطلحي الدول المتقدمة والدول المتخلفة

خلال الثلاثين عاماً الأخيرة. وحسب الموقع فإن النصف الشمالي من الكرة الأرضية يعتبر العالم المتقدم والنصف الجنوبـــي أو العالم الثالث يعتبر متخلفاً. ومعظم النظريات المتداولة بخصوص التقدم والتخلف تعتمد على الفرضية القائلة بأن دول الشمال متقدمة في حين تعتبر دول الجنوب متخلفة. ويبدو الآن واضحاً بأن ما نسميه تقدماً في الشمال هو مصدر للتخلف في النصف الجنوبـــي من الكرة الأرضية. وقد وصفه المنتقدون بسوء التنمية وما وراء التنمية (شيفا وماكس نيف وهوبنهاين Shiva 1989; Max Neef and Hopenhayn 1989). وهذا النوع من التنمية يمثل العوامل الأساسية في خراب الأرض. وأعتقد أنه يجب إلغاء مصطلحات النمو والتقدم والتخلف والتركيز على الامتياز في النصف الشمالي من الكرة الأرضية وأثره السلبـــي ليس فقط على النصف الجنوبـــي من الكرة الأرضية ولكن على الكوكب ككل. إننـــي أرى ضرورة اعتبار امتيازات النصف الشمالي هي التهديد الوحيد والأكثر خطورة على بقاء الكوكب. إن أحد العوامل المهمة في تعليم الناس في النصف الشمالي من الكرة الأرضية هو العمل على نعتاقهم وفك إرتباطهم بهذا الامتياز. وهذا التحرر من الامتياز في النصف الشمالي للأرض يشمل كل سكان الشمال أغنياء وفقراء، رجالاً ونساء وبيضاً وملونين. إننا هنا لا نعنـــي التخلي عن المرسيدس ولا معاطف فرو المنك. وإذا صدَّقنا مايدعيه دعاة النظام الإقتصادي العالمي فإن كل واحد في الشمال يعتبر غنياً بما في ذلك العاطلين.

التعليم من أجل التحدي والمقاومة ومن أجل البقاء والتحرر من الامتـــياز

ما هي درجة أهميتنا اليوم عندما نتكلم عن البقاء؟ إننا نتحدث اليوم عن بقاء أنظمة الحياة على وجه الكوكب والذي يضمن كذلك بقاءنا كأنواع. نحن نعيش اليوم مهددين بشبح الفناء. وإذالم نبق فسنأخذ معنا أعداداً لا تحصى من الأنواع الأخرى. وهذا هو حجر الزاوية فيما يهمنا في الوقت الحاضر. إننا في الواقع نعيش مرحلة من التحول في تاريخ البشرية، ونحن قادمون على نهاية الإيكوزويك "العصر الثالث أو العصر الحالي" وإننا نعيش في مرحلة انحطاط. إن العيش في تفسخ وانحلال كمرحلة تحولية تاريخية جذرية ليس بالمهمة السهلة. وكم هو مؤلم حين نسمع، بأن البقاء يجب أن يتم على أنقاض البنية التحتية للبناء الصناعي

الإستهلاكي، ولكن هكذا فقط يمكننا أن نحافظ على سلامة الكوكب. الاستجابة لذلك تختلف طبعاً، باختلاف موقعنا في الهيكلية العالمية الحالية. ويجب الانتباه إلى أننا عندما نتكلم عن البقاء، فإننا نتكلم عن حرية الإرادة والتحرر من عبء السيطرة. إن هذا العمل في الواقع هو مهمة ثلثي سكان العالم ممن يعيشون في العالم الثالث، إضافة إلى أعداد متزايدة من سكان العالم الأول. إن ما أود النظر فيه هنا هو الحرية أو الانعتاق للبشر من امتياز بلاد الشمال. وأيضاً التحرر من أخلاقية المستهلك في الشمال والتـــي انتشرت عبر الكوكب من أفقر الناس في البرازيل وصولاً إلى أحياء الفقراء في كالكوتا. وندرك الآن أن أسلوب عيش المستهلك يمتد على الكوكب كله. ومن خلال البرنامج (روبين ليش Robin Leech's) التلفزيونـــي الذي يستعرض "أساليب الحياة" لدى المشاهير والأغنياء والمعروف في كل أنحاء العالم، نجد أن الإستهلاك المنافي للذوق العام في هذا البرنامج يبدو وكأنه موجه كل الناس، حتـــى ولو كانت أساليب هذه الحياة يستحيل تحقيقها لدى 95% من سكان العالم تقريباً. وكما اقترح (ألان ديرنينغ Alan Durning 1992) فإن هذا الكوكب سيظل عرضة للتدمير بل وسيدمر قبل أن يستطيع العالم تحقيق الحلم الأمريكي في الحياة. إننا نتحمل أعباء تربوية كبيرة يجب أن تنظر في قيم الإستهلاك وما تؤدي إليه من دمار وذلك ما أسميه بمهمة "التحرر من الامتياز أو الشعور بالتميز". إن هذه المهمة التربوية العظيمة هي المهمة الرئيسية التـــي يجب أن يتبناها العالم المتقدم. ومن خلال الإحصائيات السابقة، نستطيع القول، بأن أساليب حياة الامتياز هي سرطان هذا الكوكب. وهذه الملاحظات عن بلدان الامتياز قد تضمنها تقرير معهد مراقبة العالم منذ سنة 1992 (*WorldWatch Institute Report*).

لا تزال سياسة العولمة تجاه البيئة سلبية فهي حتـــى الآن لم تعترف بخطورة المشاكل الناتجة عن العولمة وحتـــى أن كان هناك شعور بهذه المشاكل فهو بطيء جداً ولم يسعى بعد إلى التعاون بشأن تذليلها. إن بعض الدول فقط اعترفت بأنها تسببت في معظم فساد البيئة، ولهذا فهي تتحمل المسئولية تقديم المساعدات العالمية، في حين عارضت الولايات المتحدة حتـــى الجهود المتواضعة الخاصة بالمفاوضات الجارية من أجل العمل على تقليص كمية الكربون المنبعثة في الجو لحماية المناخ العالمي (بوستيل Postel 1992; 5).

وما قدمه الامتياز هو حصانة ظاهرية لأحداث معينة. والمتميزون، هم أيضاً انحدروا إلى

مايصفه علماء النفس "بسلوك الإنكار". ومن وجهة نظر التعلم وإعادة التقويم فإن الإنكار يمثل مقبرة لمعرفة قاصرة عاجزة. وهو موقف لا يعنـــي عدم المعرفة فقط بل ويعنـــي كذلك إنعدام إدراكهم لحقيقة جهلهم لتلك المعرفة. والإنكار في إطار التمييز العالمي له تأثير مدمر على الكوكب. وفي الجزء الشمالي من الكرة الرضية. نحن لا ننظر إلى أنفسنا على أننا نشكل خطراً على أنفسنا وعلى الكوكب ككل. وعادة ما نكون منغمسين في حياة الترف وبأننا متقدمون على بقية العالم، ونحاول، من خلال الإعلام، تصدير أسلوب حياتنا لجميع بقاع الدنيا، وننتخب السياسيين ليقولوا لنا أن كل شيء على ما يرام. ونقطع أي إتصال ونخرس أي صوت يتحدى أسلوب حياتنا الفياض. ولهذا نحتاج نحن إلى التحرر من موقف الإنكار هذا الذي يولده موقعنا من الامتياز. وفي مقال كتبته (ساندرا بوستيل Sander Postal 1992) بعنوان "الإنكار خلال العقد الحاسم" ونشر في تقرير معهد مراقبة العالم *(WorldWatch Institute)* ولاحظت فيه الآتي:

إن علم النفس كعلم يقرر قضاء العالم وقدره، وذلك لأنه من أجل القيام بأي فعل، لابد من التغلب على الإنكار أولاً. حيث أن الإنكار يعيق إستجابة الإنسان للمثيرات سواء كانت داخلية أو خارجية. والإنكار، دون أي شك يؤثر في سلوك معظم الناس ولو كان ذلك بدرجات متفاوتة. ويكون الإنكار أكثر عمقاً لدى أولئك أصحاب المهام الصعبة في أوضاعنا الراهنة. ومن بينهم رجال الأعمال والقادة السياسيين. نتيجة لما يملكونه من قوة في تشكيل برامج الأعمال وأنماط الحياة على وجه الكرة الأرضية. وهذا النوع من الإنكار يكون خطيراً على المجتمع والبيئة الطبيعية، مثل إنكار مدمنـــي الكحول إلى عائلاتهم، حيث يلوم الكحولي أسرته على عدم ملاحظة مساري الإدمان ويؤكد وجوب حذرهم تجاهه كمصدر لتهديد حياتهم. وغالباً ما ينتهي المدمنون إلى تدمير حياتهم، وبدلاً من مواجهة الحقيقة فقد اختار ضحايا الإنكار الإنتحار البطيء، وبنفس الطريقة اتبع أنصار العولمة سلوك الإنكار تجاه نواتج العولمة الإقتصادية وأساليب الحياة الإقتصادية المفسدة للبيئة. وهكذا نضحي نحن بحياة طويلة الأمد مقابل إشباع سريع لرغباتنا المادية المؤقتة. إن هذا الاستبدال الغبـــي لا يؤدي إلى نتائج إيجابية (بوستيل Postel 1992; 4).

المركزية والتهميش في إطار الامتياز: تعليم للمقاومة والتصدي التربوي الحاسم

المركزية هي موقع القوة في الامتياز. والمعروف أن القوة والمعرفة ينبثقان من المركز باتجاه

الهامش. وموقع المركز تشغله اليوم الثقافة الغربية "عالم الأقلية المتقدمة"، وفي مقدمته الرجل الأبيض المشتهى للجنس الآخر. والموقع الهامشي يشغله مناهضو الثقافة الغربية "العالم الثالث، عالم الأكثرية المتخلفة". وهم الملونون والنساء والأطفال والمواطنون من الرجال والنساء. وفي إطار المركزية والهامشية يوجد أناس في موقع الامتياز قادرون على تصنيف العالم وتحديد المواقع في سلم العالم الإجتماعي والإقتصادي وبعبارة أخرى، يمكن لهذه الفئة ليس تصنيف المواقع وتحديد معايير تركيبة المراكز فقط ولكن يستطيعون فعل ذلك في السلم الهامشي أيضاً. ومن منظور القوة في العدالة والإنصاف فإن جماعة المركز هم المسيطرون على علاقات الهامشية والتحكم فيها. وهكذا يكون إحساس الجماعات والأفراد الذين يحتلون المركز بأن موقعهم في العالم هو الأهم والأقوى والأعظم، الأمر الذي نلاحظه في تفضيل ثقافة الرجل الأبيض في الغرب على ثقافة غير الغربيين وغير البيض وغير الذكور. وهذه المواقع المركزية الحالية قابلة للسقوط وهي مؤسسة للتفرقة العنصرية والطبقية والجنسية والعرقية في عالمنا المعاصر. والنظرة النقدية التـــي أسوقها في هذا الكتاب هي التـــي تحركنا لتحدي مواقع المركزية والامتياز.

وقد استعرض كل من (أرونوويتز وجيرو Aronowitz and Giroux 1991) في مؤلفهما "تربية ما بعد الحداثة" وجهة نظر تستهدف التحول عن مركز التميز وسميا هذا النمط من التربية "بالتربية الفاصلة" التـــي هي فرع من البيداغوجيا النقدية التـــي تتيح الفرصة للتربويين والمربين لأن يشاركوا في الحوار الخاص بجماعة الامتياز والهامشية. ولإزاحة شبح الامتياز تقترح البيداغوجيا الفاصلة بأن تكون للمواقف التعليمية مرجعية متعددة المصادر الثقافية واللغوية وخبرة الآخرين. وتحاول البيداغوجيا الفاصلة أو الحدية توعية المتعلمين واستيعاب الثقافات المتنوعة. وفي موضوع البيداغوجيا الفاصلة أو النهائية، يشير كل من "رونو ويتز وجيرو" إلى أن هذا النموذج التربوي تعمل على أكثر من تزويد المتعلمين بمحاضرات عامة تكشف عن المعضلات المتضمنة في مواقع القوة. ولكنها إضافة إلى ذلك توفر فرصاً للمعلمين لتعميق فهمهم لجوانب متعددة من ثقافة المركز والهامشية. وهذه التربية النقدية تمكن المربين من قياس مواقع القوة وتقييمها بعمق واكتشاف كيف تؤثر على العمليات التربوية. وانعكاسات هذه القوة على الحياة العامة لسكان الأرض، هو ما سنتولاه الآن بالنقاش المستفيض.

أبعاد القوة: التعليم من أجل السلام والعدالة الإجتماعية والتنوع

إننـــي أعتزم في هذا الفصل أن أتطرق إلى مفهوم الثقافات السائدة ومناقشة بعض البنـــى والتركيبات المتشعبة التـــي تساعد على بقائها، محاولاً علاج الموضوع من خلال أربعة مفاهيم بيئية تشملها تلك البنـــى المسيطرة في الوقت الراهن. وأول هذه البنـــى أو التركيبات هو المجتمع الأبوي الذي يهدف إلى ديمومة التمييز الجنسي وبنية التفوق العرقي التـــي تؤدي إلى التمييز العرقي وكذلك البنية الطبقية التـــي تتعدى على الاستغلال الطبقي وأخيراً البنية المتركزة على الإنسان (المتمثلة في الإفتراض القائل بأن الإنسان هو غاية الكون القصوى)، الأمر الذي يؤدي إلى إنقراض وفقدان الكائنات الحية والأجناس الأخرى. مثل هذه البنـــى الداعمة لا يمكن للسيطرة اعتبارها، في كل الأحوال، شاملة للاستنـــزاف والفساد بعمومية مطلقة.

الموقع المتميز

وقبل الشروع في مناقشة بنـــى المجتمع الأبوي والعرقي والطبقي، لابدَّ لي من أن أحدد موقعي الخاص ضمن بنـــى القوة والهيمنة هذه. فأنا رجل أبيض الجنس من أصل أوربـــي وأنتمي إلى الطبقة الوسطى وأشغل موقعاً متميزاً في مجال الكتابة والعمل الميداني. وكونـــي أبيض لا أتعرض إلى التمييز العرقي الذي يعيشه الملونين بشكل يومي بغض النظر عن أي مكانة يشغلونها في بنـــي الجنس والطبقة. ولكونـــي رجل لا أتعرض للآثار السلبية للمجتمع الأبوي الذي يعتبر القوة وتميز الذكور هبة ممنوحة. ولأنـــي سوي الجنس فلا أتعرض للإضطهاد الموجه نحو اللوطيين ولذلك فأنا لست ضحية مباشرة للرهاب البشري. ولكونـــي

أنتمي إلى الطبقة المتوسطة فلا أتعرض للآثار السلبية للبنـــى الطبقية التـــي يواجهها الفقراء. وفي موقعي المتميز هذا فأنا معفي، في الغالب، من أن أكون ضحية من نوع ما. وبسبب موقعي هذا، فأنا غالباً ما أكون معذّباً للآخرين دون وعي لتأثيرات هذا الموقع المتميز. وتسمي (مارلين فراي Marilyn Frye 1983) هذا الموقع المتميز "بالعين المتعجرفة". وبهذا المستوى من الإدراك، يمكن للمرء أن يصنف مشاهداته في إطار مرجعيته الخاصة دون الإلتفات إلى أي مرجع آخر. إن مثل هذا الموقع المتعجرف يفسح المجال إلى تجاهل الآخر حيث لا يجر سلوك الغطرسة والتعجرف هذا أي عواقب على صاحب الموقع المتميز. وعلى العكس من ذلك، فإن الذين يشغلون مواقع متدنية يتحتم عليهم الاعتراف بدقة وشمولية بمن هم في مراكز متميزة مقابل بقائهم على قيد الحياة. وتبعاً لذلك علينا أن ندرك جيداً بأن الأمر يتطلب الكثير من العمل الواعي عاطفياً وروحياً لكي يتحرر صاحب الموقع المتميز من طبقيته ويشرع في نمط من الإدراك أكثر شمولية للآخر.

إن جعبة التميز التـــي ترافقنـــي لا تحرمنـــي من تناول موضوع القمع والقهر عند معالجتـــي لقضايا التعليم والبيئة. إن التمييز الجنسي والعرقي هما صفتان تربطان بين العنف والسيطرة. إن أي تعامل مع تعليم اليوم يتجاوز أو يتجاهل موضوع العرقية سيكون بالضرورة ناقصاً. إن معالجة موضوع البيئة دون إعتبار موضوع التمييز العنصري والعرقية سيكون بالضرورة مصدر تجاهل متعمد ومتحيز إلى وجهة نظر قائمة على وجود موضع متميز. وتسمي "مارلين فراي" هذا النوع من التجاهل "تجاهل متعمد" لأنه نشط وفعال. إنها تتعرض لهذا الأمر من خلال مناقشتها للتمييز العرقي في أمريكا البيضاء.

> ولا يعتبر التجاهل أمراً بسيطاً. فهو ليس مجرد نقص أو غياب أو فراغ أو سلوك سلبي، بل إنه نوع من التجاهل المتعمد من قبل الأمريكيين البيض لقبائل ومجتمعات الهنود الحمر الأمريكيين، إن تجاهل البيض هذا، لتاريخ الشعوب الأسيوية في هذا البلد شبيه بتجاهل النعامة للأخطار بغرس رأسها في التراب. إن التجاهل الأحمق القاحل للغة السود من قبل معظم الأمريكيين البيض لهو أمر مشين حقاً. إن هذه الضروب من التجاهل المتعمد، هي في الواقع، نتيجة مركبة من عدة أفعال وكثير من الإهمال (فراي، Frye 1983 19–118:).

مع هذا الأسلوب للفهم في ذهني، آمل لمحاولاتي هنا في مناقشة بُنى المجتمع الأبوي والعرقي

والطبقي سيحالفها بعض التوفيق. إنني آمل في التفكير في هذا الأمر واستيعابه من سيعطيني أملاً في أن محاولاتي هذه لمناقشة تركيبات المجتمع الأبوي والعرقي والطبقي سيحالفها بعض التوفيق.

البيئة والحروب والمجتمعات الأبوية وتكريس العنف

تطرح (راين إسلير Riane Eisler) في مقدمة كتابها (الكأس والسيف، *The Chalice and the Blade* xiii–1988) على نفسها وعلى قرائها الأسئلة التالية: لماذا نؤذي ونضطهد بعضنا البعض؟ لماذا يمتلئ عالمنا بوحشية البشر ضد الرجل والمرأة؟ كيف يكون بوسع البشر أن يمارسوا كل هذه القسوة على جنسهم؟ ما الذي يجعلنا ننـزع إلى سلوك القسوة بوتيرة مزمنة أكثر من العطف والرقة؟ ما الذي يدفعنا نحو الحرب والتدمير بدلاً من السلام والبناء والتعمير؟

ربما يكون أيسر الأجوبة على مثل هذه التساؤلات هو أن العنف والقسوة هما جزء من التركيبة البشرية، غير أننا لن نتبع هذا النهج من التفكير هنا ومع ذلك فسوف يكون من الضروري تتبع موضوع العنف باهتمام دقيق، إذا أردنا التقصي العميق لهذه الأسئلة التي أود نقاشها في هذا الفصل من الكتاب. أما الطرف الآخر المقابل للعنف الأساسي فهو رؤية الطبيعة البشرية بوصفها "قابلة للكمال بلا حدود" في عملية التطور الارتقائي، وهذه أيضاً نظرة سطحية لجوهر الطبيعة البشرية. إن عنف القرن العشرين الذي تميز بالفظاعة التي لايمكن تصديقها يبدو مناقضاً تماماً أو على الأقل يشكك بشدة في مفهومنا للتقدم والكمال البشري.

إن معالجتي لمفهوم العنف والتدمير ستتبع نهجاً مختلفاً حيث أنني سأُطور وأحيك معاً عناصر وأوجه متباينة. وسيتخذ العنف عدة أشكال ومراحل متعددة عند دراستنا لتفاصيل وحقائق المشكلات والمواضيع التي تغلغل العنف فيها.

العنف ضمن الإطار الثقافي البشري

بعد التحقق من العنف والإبداع في إطارهما الكوني، فإنه لا زالت تواجهنا مشكلة

العنف المتجدر في سلوك أبناء البشر تجاه بعضهم البعض. وبسبب التشبع الذي لا يصدق لسلوكيات الكراهية والعنف السائدة حالياً في العالم، فإن الاعتقاد المرجح هو سيطرة العنف والقوة على جملة المساعي البشرية. إن عنف البشر تجاه بعضهم البعض يكذب أي اعتقاد، مهما كان بسيطاً، بتحسن أحوال الجنس البشري في هذا القرن عن أحواله في القرون السابقة. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الإستعمال المذهل وغير المعقول للأسلحة وحرق اليهود في ألمانيا وحقول القتل الكمبودية وفظائع البوسنة والتكدس الهائل للأسلحة النووية والتقليدية، كل ذلك وغيره يقود المرء إلى الاستنتاج بأن الجنس البشري يتاجر بالعنف. وبالتأكيد فإن سجل القرن العشرين يشير إلى أدلة قليلة جداً على كون الجنس البشري جنساً مسالماً. إن السلام وغياب العنف هما في الواقع استثناءان نادران. أنه لمن المؤسف حقاً بأننا عند هذا المستوى التحليلي للموضوع، نصل إلى استنتاجات جدٌ محبطة عن احتمالات المستقبل البعيد والمدى الطويل لأحوال البشرية. المنشآت والمخازن العسكرية في العالم كله، يتم تبرير وجودها بالقول، إن العنف والحرب يستوطنان البشر. ومن خلال هذه النظرة إلى مستقبل العالم، فإن السؤال المطروح، ليس إمكانية وقوع الحروب والعنف، بل السؤال الصحيح هو، من يا ترى سيبقى على قيد الحياة؟ ومن وجهة النظر العسكرية، وفي أحسن الأحوال، فالقول المعهود هو أن وجود آلات الحرب الفتاكة قد يكون رادعاً لمنع وقوع الحرب أصلاً. غير أن شعارهم هنا هو "الدفاع الأفضل هو وجود هجوم أفضل".

وخلال التطورات الأخيرة للعلوم التاريخية يتم استقصاء هذه التفسيرات المروعة للتاريخ البشري (إسلير وغيمبوتس وستون Eisler 1988; Gimbutas 1974; Stone 1976). إن علم التاريخ هذا يستحدث تفسيراً جديداً للتاريخ الغربي موسعاً بذلك فهمنا للتجربة البشرية وخاصة إدراك بعض المتغيرات التي تجتذب أو تردع العنف الثقافي. إن أحدث الدراسات لاستيعاب التاريخ الثقافي يمكن متابعتها من خلال تطور تفسيرات المجتمع الأبوي (بيري، إسلير، غيمبوتس، وستون T. Berry 1988; Eisler 1988; Gimbutas 1974; Stone 1976). وضمن بعد زمني تاريخي، فإن مرحلة المجتمع الأبوي قد سبقتها مرحلة المجتمع الأمومي لأوربا القديمة التي كانت ذروة إزدهارها فيما بين (6500) قبل الميلاد إلى غزوات "الآرين Aryan" حوالي (3500_{BC}) قبل الميلاد. إن ظهور تركيبة المجتمع الأبوي تتوافق تماماً مع قدوم

وامتداد الحضارة الغربية الذي يشمل إطارها الزمنـــي الخمسة آلاف سنة الأخيرة تقريباً. وتعتبر مرحلة ما بعد المجتمع الأبوي صيغة ناشئة لتاريخ يحدث في وقتنا الراهن ومتحولاً إلى مستقبل يقال عنه، أنه يتجاوز التركيبات السلطوية اليومية الصارمة، ويتميز هذا المستقبل المنظور بمشاركة كاملة في الحكم من قبل الجميع وبصيغة ناشئة جديدة لثقافة عالمية تشاركية. ويجب تحذير القارئ هنا بأن جوهر التاريخ البشري لا يتقسم، في الواقع، إلى تتابعات متماثلة دقيقة الترتيب، ومع ذلك فإن النمط المقترح حالياً يعطي وضوحاً مؤقتاً سيتيح لنا فرصة إدراك أعمق للموضوع المطروح.

الثقافات السائدة المهيمنة: إن فكرة "الثقافة السائدة" طرحت حديثاً في كتابات "راين إسلير" التـــي شمل عملها تفسيراً تاريخياً للعنف الثقافي (إسلير، إسلير ولوي، نوبل Eisler (1988; Eisler and Loye 1990; Noble 1992 اعتمدت "أسلير" في أفكارها وتفسيراتها من التطورات الحديثة في الدراسات التاريخية، وخاصة من كتابات (مارجا غيمبوتس، 1974 Marija Gimbutas) التـــي تضمنت استقراء تاريخياً للثقافات الدينية مستخلصة من دراساتها التاريخية فهماً مختلفاً جداً عن المفهوم السابق لتواجد العنف في المنحنـــى التطوري للبشر بعد مدى طويل لتاريخ الإنسان. واستناداً إلى دراسات "غيمبوتس" تجازف "إسلير" بالقول، عند تفحصنا للمرحلة المبكرة من العصور الحجرية القديمة والعصور الحجرية الحديثة حيث تبدو عبادة الآلهة سائدة فإننا لا نجد علامات دالة على الهيمنة أو التفرقة الجنسية. ويتباين هذا الاكتشاف بصورة ملحوظة مع الثقافات .'تاريخية العصرية الواردة في البنـــى الثقافية العبرية النصرانية التـــي تكرس عبادة الإله الأب وتحمل في جوهرها تميز جنس الذكور. ولقد صاحب هذا التسلسل الهرمي للسيطرة الذكورية وجود البنـــى الإجتماعية العنيفة. وتؤكد "إسلير" أنه، أينما وجدت سيطرة الذكور وجد معها مؤسسات الملكية الخاصة وتجارة وملكية الرقيق والعبودية والملكية الزراعية للأرض. وعلى عكس ذلك توجد معلومات أثرية يبدو وأنها تؤكد بشدة على وجود مجتمعات عادلة بالغة التكافؤ في تعامل الأفراد مع بعضهم البعض في الثقافات السابقة عن عصورنا الحديثة ومثال ذلك "العصور الحجرية القديمة والحديثة". كما تشير تلك المعلومات أيضاً إلى أن تلك المجتمعات كانت خالية من العنف

تماماً (إسلير، وإسلير ولوي Eisler 1988; Eisler and Loye 1990). ومن خلال هذه الدراسات، يمكن للمرء أن يستنبط رؤية أكثر تفاؤلاً للتاريخ حيث يكون من المعقول المجازفة بالتفسير الذي مفاده، إن الحروب والعنف ليسا حتميين لقصتنا البشرية. ومع الميل إلى قبول هذا التفسير المتفائل، إلا أننا نساق رغم ذلك إلى وجهة نظر بالغة الإنتقاد لإرثنا التاريخي الذي يبدو مرسخاً بعمق في تصور هرمي للقوة يصدرٌ على وجه التحديد من التركيبة الإجتماعية الأبوية التـــي هي في أبسط تفسير لها، لا تربو عن كونها نظاماً سلطوياً يهيمن فيه الرجال وتسمي "إسلير" هذه التركيبة السلطوية "بالنموذج المهيمن" ويجسد النموذج المهيمن هرمية سلطوية قائمة على التهديد أو استعمال القوة. وتطرح "إسلير" فارقاً مهماً بين هرمية الهيمنة وبين الهرميات الأخرى التـــي نشاهدها في الطبيعة والتـــي نسميها "بالهرميات الفعالة".

إن مصطلح *الهرميات المهيمنة* أو المسيطرة يصف أنظمة قائمة على القوة أو التهديد باستعمالها صراحة أو ضمنياً والقوة صفة مميزة لتنظيمات الرتب البشرية في مجتمعات الهيمنة الذكورية. وتختلف هذه الهرميات تماماً عن نمط الهرميات الموجودة في المتواليات المتدرجة من أسفل إلى أعلى كتنظيمات الأداء العملي التـــي منها على سبيل المثال الإرتقاء من خلايا إلى أعضاء في الكائنات الحية. وهذه الأنماط الهرمية يمكن تمييزها بعبارة الهرميات الفعالة حيث تتركز وظيفتها على الزيادة القصوى للإمكانيات الكامنة في العضوية الحية. وعلى العكس من ذلك، تشير الدراسات النفسية وعلم الإجتماع إلى أن الهرميات البشرية القائمة على القوة أو التهديد بها لا تكبت الإبداع الشخصي فقط، بل وينتج عنها أيضاً أنظمة اجتماعية تتعزز فيها بكثافة الخصائص البشرية السلبية وتكبح فيها بشكل منظم أسمى طموحات البشرية في إكتساب السمات الإيجابية مثل التعاطف والمشاركة الوجدانية إضافة إلى النضال من أجل إحقاق الحق وترسيخ قيم العدالة (إيسلير،204 :Eisler 1988).

إن خصائص المجتمع المهيمن متغلغلة في كل المؤسسات الإجتماعية والثقافية والإقتصادية. وبتفحص الإرث للتاريخ الغربـــي تتضح لنا تماماً تلك الصيغة السلطوية السائدة المتمثلة في التأسيسات السلطوية الأربع التـــي لا تزال تتحكم في التاريخ الغربـــي على مدى القرون الطويلة وهي الأمبراطوريات الكلاسيكية ومؤسسة الكنيسة والدولة القومية والشركات الحديثة (ت. بيري، T. Berry 1988). كل هذه المؤسسات كانت في وجهها التاريخي

مقتصرة على هيمنة الذكور ومحدثة أساساً لتحقيق الذات البشرية كما يتصورها الرجل. وكان للنساء عبر التاريخ دور هامشي هذا إن وجد أصلاً في توجيه أو التأثير على هذه التأسيسات (ت. بيري T. Berry 1988). ويوجد حالياً وعي متنامي وإدراك يزداد وضوحاً بأن محنتنا التـــي نعيشها هي مأزق حقيقي وأن للمجتمع الأبوي دور فعال في خلق هذا المأزق. ويتزامن مع هذا الوعي الناشئ محاولات جادة لتفكيك أو تفادي تركيبات الهيمنة هذه. ولعل الجدير بالملاحظة أيضاً، هو أن الحركة النسائية القوية التـــي اتضحت معالمها في العقدين الأخيرين من هذا القرن قد حققت الكثير نحو الرفع من مستوى الوعي الثقافي بالتأثيرات المدمرة للمجتمع الأبوي على مدى التطور الإجتماعي المعاصر (ميلبراث 1989 Milbrath).

العلوم الحديثة والنظام المسيطر: إن تطور العلوم الحديثة صاحبته عقلية وأنماط من التفكير تتوافق ونظم الهيمنة التـــي نشاهدها الآن سائدة في ممارسات المؤسسات الثقافية الغربية. ونظرياً تتبنـــى المساعي العلمية دعوى التحرر من القيم الموروثة غير أن ذلك لا نرى تطبيقه عملياً في ممارسة الحياة اليومية، بل وإضافة إلى ذلك نلاحظ إقتران الأنشطة العلمية بالمؤسسات والمنشآت العسكرية في كل الدول القومية. العلم كمؤسسة تدعمه أغراض عسكرية ويتغذى على الدعم المالي العسكري. ويؤكد (ليستر ميلبراث Lester Milbrath 1989) على أن معظم الجهود العلمية المنظمة تقريباً تحركها دوافع الهيمنة والسيطرة على الطبيعة وتفوُّق القوة العسكرية وتحقيق القوة والنمو الإقتصادي والتغلب على المنافسة وبذل قصارى الجهد لتعزيز المكانة وفرض الإحترام على الآخرين وجمع الأموال، في الوقت الذي يجدر فيه أن يلتفت العلم بجدية إلى البحث في مجال القيم والمبادئ الإنسانية.

إن أحد أهم المجالات التـــي تستحق البحث والتأمل، هي الطريقة التـــي يعيد فيها العلم ترتيب التجربة البشرية حول أبعاد النظام والقوة. وتجازف (كارولين ميرشنت Carolyn Merchant 1980) بطرح تفسير مفاده، إن نظرة العلم الحديث للعالم على أنه عالم ميكانيكي، كان لها أثر عميق على كيفية إدراكنا للنظام والقوة. وتؤكد على أن النظام كان نتيجة لمفهوم متشدد يفيد بأن حركة الأجزاء غير قابلة للإنشطار وهي خاضعة لقوانين

رياضية ثابتة ورفض قوى التغيير الروحية غير المتوقعة. ويؤكد هذا المفهوم أيضاً على أن تحقيق القوة تم من خلال تدخل نشط مباشر في عالم دنيوي علماني.

ولقد تم إنجاز مؤشرات القوة من خلال إمكانيات براعة البشرية في المكر والخداع حيث تمكن البشر من السيطرة على عالم الطبيعة. وبتحقيق هذه السيطرة على العالم الطبيعي يمكننا تصور المشروع الإنساني للعلم الحديث الذي يتمحور حول سيطرة الإنسان على العالم الطبيعي. وتواصل (ميرشنت Merchant 1980) حوارها حول الجنس من حيث الذكورة والأنوثة وأساليب الهيمنة السائدة في عالم اليوم. وتلاحظ بأنه عند التعامل مع الطبيعة على أنها الأنثى، فإن محاولات للتحكم في العالم الطبيعي ستتواصل جنباً إلى جنب مع مشروع إخضاع النساء كجزء من العالم الطبيعي. وما العنف والقوة إلا مكملين لهذا المشروع (ميرشنت Merchant 1980). ويوجد تفسير مماثل للمشروع العلمي الغربي الحديث، أوردته (فندانا شيفا Vandana Shiva 1989) حيث تجادل بأن العلم الحديث ما هو إلا نشاط قائم على التمييز الجنسي. والعلم والذكورة عند "فندانا" يرتبطان إرتباطاً وثيقاً بالسيطرة على الطبيعة وترى كل من (ماريا مايز وفندانا شيفا Maria Mies and Vandana Shiva 1993) بأن اتساع الأبحاث العلمية اليوم التي تشمل المورثات وتقنيات التكاثر يهدد الوجود البشري وتؤكد على أن عزيمة الأبحاث وإصرارها على إقتحام هذين المجالين يهددان الغطاء الواقي والحدود الأخيرة التي حفظت الإنسان وتولت حمايته حتى الآن ضد انتهاكات الأبحاث والتحاليل العنيفة وضد تحول الإنسان إلى موضوع للبحث أو مادة للتحليل المعملي. وتقدم كل من (مايز وشيفا Mies and Shiva 1993: 52) توجهاً جديداً للعلم تختلف عن التوجهات الحالية وتقولان، إذا كان العلم القديم لا يضع حدوداً للبحث فإن العلم الحديث مدرك أو يجب أن يدرك هذه الحدود جيداً. وفي كون محدود مثل كوننا لا يوجد تقدم مطلق ولا بحث غير محدود من أجل الحقيقة ولا نمو غير محدود إلا باستغلال الآخرين.

وذلك ليس الإتجاه التقليدي للعلم الحديث. وسوف ننتقل الآن إلى دراسة العنف المدمر الذي يصاحب إرتباط العلم بالمشروع العسكري.

الحروب الحديثة والدمار البيئي والمجتمع السلطوي الأبوي: تعتبر المؤسسات العسكرية

نموذجاً للثقافات السلطوية والهيمنة على الآخر. ولكون هذه المؤسسات قائمة على القوة والعنف، فهي أيضاً موطن السلطة الذكورية، وتستوطن الثقافات العسكرية بعمق في فخ تكريس الذكورة. إن العقيدة العسكرية تستتبع تركيبات النموذج المسيطر. وتوجد إدعاءات بأن نظاماً عسكرياً "قوياً" فقط، يمكنه ردع القوة وتهديداتها بفاعلية (غالتنج Galtung 1982). ومعظم كوادر المؤسسات العسكرية داخل وما بين الدول القومية التـــي تحدد "الأمن القومي" هي كوادر رجالية (سيجر، Seager 1993). ومن ناحية تحليلية أنثوية فإن جزءاً من البرنامج الذكوري في تحديد "الأمن القومي" هو حماية سيطرة التمييز الذكوري في المؤسسات الحربية (سيجر Seager 1993). وبصورة متزايدة منذ منتصف القرن العشرين، إتخذت الحرب منعطفاً بيئياً مشئوماً بكيفية مقصودة. ونستطيع القول بدون مبالغة، إن إحداث دمار بيئي، أصبح جزءاً معقداً من الإستراتيجية المدروسة في الحرب الحديثة. وتفيد بعض التقديرات بأن القوات المسلحة في كل أنحاء العالم أصبحت من أكبر مصادر تلوث الأرض (رنر، Renner 1991). وتوجد شواهد متعددة حالياً على هذه الأنماط التدميرية وأصبح التدمير البيئي فعلاً جزءاً من الإستراتيجيات العسكرية المخطط لها مسبقاً.

إننا رأينا الجيش البريطانـــي منذ مرحلة مبكرة من سنوات الخمسينيات (1950) يستعمل المبيدات الكيماوية لتدمير النباتات والمبيدات الخاصة بأوراق الأشجار لأغراض عسكرية عندما كان يحاول إخماد حملات ثوار ماليزيا خلال تمردهم على الإحتلال البريطانـــي. وفي فييتنام ألقى الجيش الأمريكي حوالي (25) خمسة وعشرون مليون جالون من مبيدات أوراق الأشجار وسموماً بيئية على مدى فترة الحرب الفييتنامية. وسببت أحدث حرب في الخليج العربـــي بين تحالف قوات متعددة الجنسيات بقيادة أمريكا ضد الجيش العراقي. كوارث بيئية فظيعة. ورغم أنها دامت فترة قصيرة إلا أنها تركت أجزاءً من العراق والكويت والسعودية في دمار شبه كامل وساد الدمار والتلوث البيئي المنطقة بكاملها. وخلال أسبوع واحد تحولت البنية التحتية لمدن العراق إلى حطام نتيجة للقصف الجوي الكثيف الذي لم يسبق له مثيل في الحروب القديمة والحديثة. لقد دمر قصف قوات التحالف شبكات تزويد المياه والشبكات الكهربائية وإمدادات الوقود والمخزون الغذائي وشبكات المجاري ووسائل النقل ووسائل إيصال خدمات الصحة العامة في كل تجمع سكانـــي رئيسي في البلاد العراقية (سيجر،1993

Seager). وعانت منطقة الخليج كلها ضرراً بيئياً بالغاً نتيجة تسربات نفطية عديدة وأدت حرائق النفط في الكويت إلى تلوث هائل في المنطقة على مستوى لم يشاهد من قبل. إن الصدمة العنيفة والضرر البالغ الذي لحق بالمنطقة نتيجة لهذه المواجهة العسكرية لا يمكن تقديرهما بصورة كاملة الآن، ولكن التأثير المتواصل لهذا الدمار لن يكشف النقاب عنه أبداً، لأنه لا الوسط البيئي الميت ولا الموتـــى يتكلمون.

وعندما ننظر إلى قارتنا (القارة الأمريكية) بحثاً عن خصائص السيطرة العسكرية والدمار البيئي، يمكننا عندئذ رؤية صورة لا تقل هولاً وخوفاً عن منطقة الخليج. وخير مثال على ذلك أمريكا الوسطى. المشاكل البيئية التـــي ظهرت في هذا الإقليم الصغير، متجددة عبر تاريخ طويل من نهب الموارد الطبيعية من طرف الشركات الأجنبية العاملة في الإقليم بالإتفاق والتحالف مع النخب المحلية المسيطرة. هناك أيضاً وجود عسكري متزايد موظف لدعم وحماية نشاطات النخب المحلية. وفي نفس الوقت لحماية مصالح واستثمارات الشركات الأجنبية. إن تواطؤ هذه القوى وتأثيرها المدمر على حياة الإقليم كانت ولازالت لهما آثار مفجعة. ولكون هذا الإقليم واحد من أكثر أقاليم العالم إحتواء لقوات عسكرية كثيفة فإن إنهيار المحيط البيئي يصبح نتيجة منطقية حتمية (سيجر Seager 1993). إن الحقيقة التـــي لايمكن إخفاؤها هي أن معظم النـــزاعات المسلحة ترتكز على استغلال الموارد واستصلاح واستغلال الأرض. وتزداد إنتهاكات حقوق الإنسان المتعلقة بإبعاد الناس عن أراضيهم يومياً، رغم إدعاءات الولايات المتحدة والغرب بشن الحروب على الآخرين بغية الحفاظ على حقوق الإنسان. إن شؤون أمريكا الوسطى تتحكم فيها الآن زمرة صغيرة من ملاك الأرض في معظم هذه البلدان الصغيرة. ونتيجة لهذا التحكم يطرد الناس فعلياً من أراضيهم بهدف إنتاج المحاصيل المربحة التـــي تناسب الإحتياجات الغذائية الإستهلاكية المفرطة لسكان أمريكا الشمالية. إن استغلال الأرض وتجريدها من الغابات نشاط مستمر بخطى حثيثة في أقاليم أمريكا الوسطى إلى درجة تشير معها التقديرات بأنه مع حلول العام (2025) لن يكون هناك وجود لغابات الأمطار الإستوائية بأي مكان بأمريكا الوسطى (سيجرSeager 1993). إن الآثار العالمية لمأساة أمريكا الوسطى البيئية لا تقتصر فقط على هذا الإقليم، بل ولغابات الأمطار في هذه المنطقة أهمية كوكبية تطال كل مكان من الأرض حيث ترتبط الغابات بأنماط

متعددة من الحياة على هذا الكوكب ولها تأثيرات بالغة على الطقس. وتصف منظمة الصحة العالمية الغابات بأنها "رئتـــي كوكب الأرض". إن تدمير الغابات المطيرة وفقدان الحياة البرية والتفسخ البيئي يهدد سلامة الصحة العالمية ويخلق في ذات الوقت مناطق قحط متسعة ويعمق مستويات الفقر العالمي ويكرس عدم التكافؤ الإجتماعي في أقليم يسوده بلاء تاريخ حافل بالظلم الإجتماعي ناتج عن عدم التوزيع العادل للموارد الطبيعية والإقتصادية (سيجر Seager 1993).

الفساد الكوكبـــي النووي ***Nuclear Wasteland*** عند تصنيفنا لكل الضروب المختلفة التـــي أثرت بها العمليات العسكرية على البيئة وصحة الإنسان، نجد أن إنتاج وتجريب الأسلحة النووية هو الأشد خطراً والأكثر ديمومة واستمراراً لهذا الخطر. ويجري (مايكل رنر، Michael Renner 1991: 145) المقارنات التالية: بينما يكون أثر النفايات السامة متركزاً نسبياً، يكون إنتشار الغبار النووي شاملاً عالمياً. ومع بقاء المواد الخطرة معنا لأجيال وأجيال قادمة حيث يمتلك البلوتونيوم نصف حياة مقدارها (24.000) أربعة وعشرون ألف سنة فإنه حتـــى وإن تم وقف وتحريم الترسانات النووية غداً فإنه لن يكون ممكناً التخلص من الآثار المدمرة لنفاياتها.

لقد بدأ العصر النووي العسكري مع بداية مشروع منهاتن الذي نتج عنه قصف هيروشيما وناجازاكي باليابان. وأنهى هذان القصفان الحرب العالمية الثانية ومثلا بداية حقيقية للعصر النووي. ورغم وجود مشاريع سلمية لاستخدام الطاقة النووية إلا أن أغلب البحث والتطوير في هذا المجال كان مكرساً لاختبار وتوسيع وتنويع كل ضروب الأسلحة النووية طوال فترة الحرب الباردة من سنة 1945 وحتـــى أواخر الثمانينيات من هذا القرن. ومنذ البداية المبكرة أحيطت مشاريع الحكومة الأمريكية النووية بالسرية التامة وبتصميم وعزيمة راسخة. دعونا نسمع كلمات (توماس ماري Thomas Murray) عضو لجنة الطاقة الذرية سنة 1955: "يجب ألا نسمح لأي كان بالتدخل في هذه السلسلة من التجارب النووية، أي أحد وأي شيء إطلاقاً" (رنر، Renner 1991: 145).

قيل هذا التصريح في جلسة مغلقة وهو يمثل رمزاً للأولويات الإستراتيجية في الشرق

والغرب خلال الأيام المبكرة للحرب الباردة. وبما أن المشاريع النووية كانت تحت طيات تعاليم "الأمن القومي" لكل من القوتين العظمتين فقد ترك الباب مفتوحاً لتعاظم هائل في بناء وتطوير الترسانات النووية والتنقيب عن اليورانيوم وتصميم الرؤوس الحربية وتجريب ونشر الأسلحة النووية. إضافة إلى أن مهندسي المركب الصناعي النووي عرضوا عن سابق علم، صحة وسلامة العاملين في مجال الصناعة النووية إلى الخطر وكذلك صحة وسلامة الجنود والمقيمين بجوار المواقع النووية. إن التأثير المدمر على البيئة والناس والعالم الطبيعي يتم تقييمه وترتيبه بدقة الآن فقط. إن العمل المضنـــي الذي قامت به (روزالي بيرتل Rosalie Bertell) والذي وثقته في كتابها (لا يوجد خطر مباشر، *No Immediate Danger* 1985) أوضح بدقة الأثر بالغ الخطورة للإشعاع منخفض المستوى في كل أرجاء العالم الذي نتج عن الصناعات النووية خلال فترة الحرب الباردة. وتثير "روزالي" فكرة "القتل الجماعي" حيث كانت اكتشافاتها المتعلقة بالتأثيرات طويلة المدى للإشعاع الذري تقودها إلى الاستنتاج الرهيب الذي يفيد بأننا متجهون نحو إبادة الكائنات الحية بما فيها الإنسان. وسيكون ذلك نهاية سريعة نسبياً "بمقياس الحضارة" تم أحداثها بتعمد لإنهاء التاريخ والثقافة والعلم والتكاثر البيولوجي والذاكرة. وبرثاء متميز ومؤثر للكتاب تعلن (بيرتل، Bertell 1985: 2) التعليق الختامي التالي: "إن القتل الجماعي هو أقصى رفض بشري لحياة الإنسان وهو أقرب إلى الإنتحار أو القتل العمد من قربه إلى عمليات الموت الطبيعي".

وليس مهمتـــي هنا أن أقدم تقييماً شاملاً لحرب العسكر على العالم الطبيعي. حيث أن تلك المهمة تم إنجازها بشكل جيد في موقع آخر (بيرتل، وميلبرات، ورنر، وسيجر Bertell 1985; Milbrath 1989; Renner 1991; Seager 1993). وبالأحرى ما أود فعله ختاماً لهذا الجزء هو التفكير مجدداً بدور المجتمع السلطوي والمحيط الثقافي الخاص الذي يتحرك فيه. ورغم أن وجود التركيبات السلطوية في ثقافة السيطرة حول العالم قد أحدثت دماراً وعنفاً بشكل غير مسبوق خلال هذا القرن، إلا أن الإشارة واجبة هنا إلى أن عنف التسلح النووي عبر التجارب والاستخدام والتخزين والتكدس أو حتـــى التخلص من الأسلحة النووية هو عمل أو مهنة الرجال الذكور في العرف الثقافي الغربـــي. لقد شاركت ثقافات أخرى في سباق التسلح ولكن كانت قيادتها تعمل تحت هيمنة القوى الغربية العظمى وهي أيضاً قيادات

ذكورية بيضاء. ولعل الجدير بالذكر، هو أن مشروع منهاتن الأمنـــي كانت فرق عمله وتشغيله والتخطيط له من ألمع وأبرع علماء العالم الغربـــي. وكان معظم هؤلاء الرجال متخصصين في مجال العلوم الطبيعية وخاصة الفيزياء كما كانوا ذوي ثقافة عالية المستوى وهم من المهذبين والأذكياء والأفضل حسب المعايير المعروفة. وهم جمع من العلماء الذين عملوا في مختبرات عسكرية بكل أرجاء الكتلتين الغربية والشرقية على مدى فترة الحرب الباردة تجمعهم روابط مشتركة وأحد أهمها هو أنهم جميعاً ينتمون إلى جنس الذكور. إن لغة سباق التسلح، كما سنرى، تبنت خصائص ثقافة الذكر التـــي انتشرت في معامل البحث هذه. قضت (كارول كوهن، Carol Cohn 1987) صيفاً كاملاً مع خبراء ذكور كانوا منهمكين في أعمال تخص الاستراتيجيات النووية. ولاحظت "كارول" خلال مرافقتها هذه أن اللغة التـــي يتحدثون بها كانت غير مفهومة تعمها مفردات خاصة ومركبة. وتضرب مثالاً على ذلك بقولها، أطلق مخترعو أول قنبلة ذرية على اختيارهم الأول إسم "Trinity" تيمناً بالصورة الأبوية للديانة المسيحية المتمثلة في الثالوث المقدس "الرب الأب والإبن والروح القدس" وهي القوى الذكرية في عملية الخلق لديهم. هذه اللغة شبه الدينية أعطت العاملين في المشروع إحساساً بكونهم يعملون ضمن جماعة خاصة من الكهنة، وولدت شعوراً عاماً لديهم إلى الدرجة التـــي جعلتهم خلال التطوير اللاحق لبرامج الحرب النووية الباردة يذكرون فيها عبارة "الكهانة النووية" (كوهن، Cohn 1987).

وتم استخدام تشبيهات للولادة الأولية في كثير من المشاريع التـــي غالباً ما اتبعت مسالك وطقوس إدماج المولود الذكر في جماعة الرجال. وأطلق العلماء والموظفون في (لوس ألاموس Los Alamos) على القنبلة الذرية اسم (وليد أوبنهايمر Oppenheimer's Baby). وأطلق على القنبلة الهيدروجينية في (ليفرمور Livermore) اسم (وليد تيلر Teller's Baby) على غرار اسم العالم "إدوارد تيلر" الذي نفاه الرايخ الثالث المجري. إن مثل هذه اللغة كانت شائعة الاستعمال وتشكل جزءاً من لغة العمل اليومي الخاص بالمختبرات. وخير مثال على ذلك هو حديث أحد الضباط المسئولين في مشروع لتطوير قمر صناعي حيث قال معلقاً عن المشروع بحماس "سنقوم بدور الأمومة والقياس عن بعد وتعقب ومراقبة الصيانة". إن صناعة الأسلحة النووية يهيمن عليها الذكور بصورة كاملة. وقد لوحظ الاستخفاف بالنساء كذلك

في بعض التعليقات المعادية "لتيلر" من قبل المحيطين به من رفقائه، وسموه الراغبون في تهميش دوره "أم القنبلة" ومنحوا (ستانلي ألام Stanley Ulam) لقب "الأب" مصورين "ألام" على أنه العالم الذي أمتلك الفكرة المهمة وخصب بها "تيلر" ليحمل بها هذا الأخير ويضعها بعد ذلك. لقد كان التفكير التسلطي مشوهاً إلى الدرجة التـــي جعلت هؤلاء الرجال يشعرون بأن القنابل التـــي أحدثت هذا الرعب والدمار الذي لا يصدق في هيروشيما وناجازاكي كانت بمثابة أطفالهم. وهي التـــي تدعى (الوليد الصغير والرجل السمين Fat Man and Little Baby). وتشير (كوهن، Cohn 1987) إلى أنه في المراحل الأولى من التجارب النووية لم تكن نتاج العلماء القائمين عليها فقط بل كانت نتاجاً ذكرياً صرفاً. وكانوا قلقين جداً قبل التأكد من نجاح القنبلة في إحداث الدمار المتوقع من تفجيرها. وكانوا يأملون أن تكون القنبلة صبياً ذكراً وليس فتاة أنثى. فالأنثى لديهم عديمة القيمة. وبعد نجاح واحدة من أولى التجارب، أبرق الجنرال (غروفز Groves) مباشرة إلى وزير الحربية (هنري ستيمسون Henry Stimson) قائلاً: "لقد رجع الطبيب بالغ الحماس وواثق بأن الوليد الصغير قد أصبح قوياً مثل أخيه" وعندها كتب "ستيمسون" إلى "ونستون تشرشل" قائلاً: "لقد تمت ولادة الأطفال على نحو جيد" وفي عام 1952م وبعد الاختبار الناجح لقنبلة هيدروجينية سميت (مايك Mike) في جزر المارشال، أبرق "إدوارد تيلر" متحمساً إلى لوس آلاموس قائلاً "إنه ولد ذكر" وتتأمل (كوهنCohn 1987) التاريخ الإجتماعي لمشاريع القنبلة المبكرة وتلاحظ أنه يتخللها وصف يجمع بين قوة الإنسان التقنية العارمة لتدمير الطبيعة وبين قوة الخلق. وياله من تناقض مذهل.

وتحمل هذه المؤسسات نظرة معادية للحياة وتتخللها صراعات من أجل إمتلاك القوة وغياب لأي مغزى عام والمهم لديها هو إمتلاك القوة فقط. وعند الإشارة إلى العدو يصبح الموقف احتمالاً مصاحباً أو ضرراً لا يمكن تفاديه وهذه المتناقضات اللغوية شائعة الاستعمال في الأوساط العسكرية كما يتم التعبير أحياناً عن "الضربات النظيفة جراحياً" ولقد أشار الرئيس (رونالد ريجان Ronald Reagan) إلى صاروخ نووي هجومي على أنه "صانع السلام" وهي الملاحظة الخاصة بصاروخ (أم إكس MX) الذي يحمل عشرة رؤوس حربية كل منها يحمل قوة متفجرة تفوق تلك القوة التـــي دمرت هيروشيما بحوالي 250 إلى 400

ضعف تقريباً (كوهن Cohn 1987).

وتعتبر اللغتان الجنسية والمجازية جزء من لغة العمل. وكثيراً ما تصنف الإعلانات في مجلات القوات الجوية المسلحة الهموم الذكورية الشائعة وتصور بعض الإعلانات الدعائية للأسلحة على أنها "عصي ضخمة" أو "الخارقات". ويوضح أحد أخصائيين دراسة الأهداف من البنتاغون، بأن خططاً لحرب نووية محدودة كانت فاشلة لأن عواقبها تشبه عملية التبول. حيث يجب عليك توقع استعمال الطرف الآخر لكل أسلحته. "وبعد دخول الهند عالم التصنيع النووي قيل أنها قد فقدت عذريتها " (كوهن، Cohn 1987).

وأخيراً فإن الأمر الأكثر ترويعاً هي الحقيقة المستعصية على الفهم والناتجة عن كون هؤلاء الرجال الأذكياء لم يكونوا مهتمين حتـــى ببقائهم على قيد الحياة. وكانت القوة أهم بعد في حياتهم إلى درجة التحكم في رؤاهم المنحرفة. وتشير (كوهن Cohn 1987) إلى أنه عند إنخراط مجموعة من الرجال في حوار فلا يشمل ذلك الحوار أي حسبان للحياة البشرية ويكاد يكون مستحيلاً في أن يشمل ذلك الحوار مشاغل وهموم الإنسان. وتختم "كوهن" مقالها ببعض الاستنتاجات الهامة التـــي تتعلق بتحويل الحوار الذكوري عن مساراته الحالية إذا كنا نأمل في عالم أقل عنفاً. إنها تؤمن بأن أولئك الذين ينشدون عالماً أقل عنفاً وأكثر عدلاً وسلاماً يواجهون مهمة ثنائية التوجه. وهما تقويض ذي عناية خاصة يليه تفكيك للحوار الإستراتيجي التقني. إن الصوت للعسكرية الذكورية والعقلانية المحرفة عن سياقها بميزان الثقافة المعاصرة ويطغي ذلك الصوت العسكري على الأصوات الأخرى وعلى مناصري السلام العمل على إضعافه والصبر والمقاومة حتـــى يفقد الصوت العسكري بعض قوته على الأقل. أما المهمة الثانية فهي إعادة التركيب لخلق أصوات بديلة تفرض وجودها. إنها أصوات ستكون متنوعة وستبتكر حواراً مع بعضها البعض وتلك هي العوالم المستقبلية.

ويعكس الحوار العنيف وجوداً لثقافة عنيفة وهو موجود في كل من النظامين الإجتماعيين الرأسمالي والإشتراكي. وعند مقارنة التنظيمات الرأسمالية الغربية مع تنظيمات الكتلة الشرقية الإجتماعية، يصدم المرء للتشابه المذهل الذي يعرضه هذان التنظيمان ضمن أبعاد القوة والعنف والمجتمع الأبوي السلطوي. لقد كانت الحرب الباردة تمريناً لكل من الجانبين في ممارسة القوة السلطوية المهيمنة. ورغم اختلاف الأنظمة الرأسمالية والإشتراكية في عدة

مجالات، إلا أنها تجتمع على استعمال القوة والعنف في حل النــزاع الإجتماعي. وحيث أن النظامين يتقاسمان رابطاً مشتركاً، فإن مواقفهما تجاه استنــزاف موارد العالم الطبيعي هي بالفعل في غاية التشابه. وعلى مستوى الدولة القومية واتحاداتها، أحدثت هذه التنظيمات الإجتماعية دماراً بيئياً في العالم الطبيعي (هاندا، Handa 1982). إن العنف والقوة والهيمنة كانت النتائج الملحوظة للحرب الباردة وبسقوط دول الكتلة الشرقية الإشتراكية لم يكن هناك مفر أو إنقاذ من العنف والرأسمالية تزحف حثيثاً نحو القرن الواحد والعشرين. إن إنتصار الرأسمالية لا يبشر بأي حال من الأحوال بوضع حد للعنف والهيمنة السلطوية. ورغم تغير مكان العنف نسبياً عن طريق تقليص مجالات الحرب الباردة إلا أن الحروب بين الدول والعنف العرقي داخل الدولة الواحدة وإنتاج وتوزيع الأسلحة لأجل الحروب "الساخنة" وعنف مسار النظام الإقتصادي العالمي الجديد يتركنا ضحية الأوضاع الراهنة الواقعة في شرك العنف.

ويمكننا القول بأمان بأننا ندخل القرن الواحد والعشرين وشعارنا العنف. لقد أفادت التصورات الموضوعة للقرن العشرين بأنه سيكون قرن يشهد فيه العالم إنتصار التقدم البشري وعقلانية الإنسان، غير أنه لا يوجد لدينا الآن أي ميراث من التقدم والعقلانية ونحن ندخل الألفية الثالثة. وتتفاخر السوق العالمية الجديدة للرأسمالية المتجاوزة للحدود القومية، بعدة إنجازات غير أنها لا تتفاخر بتركيبات إجتماعية سليمة. ويكون العنف مقبولاً كجزء من نسيج السوق العالمي التنافسي حيث يجب أن يكون هناك دائماً رابحون وخاسرون. وما هو واضح الآن، فإن العنف والهيمنة هما نتيجة متوقعة للحياة العصرية ومؤسساتها. ولا يدمرنا العنف على المستوى العالمي فقط ولكنه يمتد أيضاً إلى داخل نسيج حياتنا الخاصة وسنولي اهتمامنا الآن إلى احتمالات العنف الشخصي.

المجتمع السلطوي والمحيط البيئي للعنف البشري

إن أصل كلمة Ecology إيكولوجي هو "ECO" وتعنــي الوطن وتعنــي كلمة "لوجس Logos" المعرفة والعلم معرفة الوطن. نحن نعيش حياتنا في هرميات سلطوية للجماعة البشرية وتتداخل هذه الهرميات بعضها مع البعض الآخر. الأرض هي موطننا والمجتمع البشري هو

وطننا وألفتنا العائلية هي أيضاً موطننا. وعند التفكير في الموطن تتوارد في أذهاننا أفكار الحدود الآمنة. مثالياً ونظرياً موطننا هو الذي نخبر فيه التنشئة والمأوى وتأكيد الذات. إنه ليس موقعاً مكانياً ولكنه بالأحرى منطقة قرب لها حدود تمنحنا أمناً وثقة. ويمكننا القول إذاً بأن بيتنا هو موطننا وبوسعنا القول أيضاً بأن "جسدنا" هو وطننا وضمن هذا السياق فإن العنف هو عملية انتهاك لحدود الأمن والثقة. فالاغتصاب مثلاً عمل عنيف، ليس فقط لأنه انتهاك جسدي بل لأنه انتهاك لحدود النفس. تلك الحدود التي تمنحنا الثقة والأمن في الحياة. ويمثل الاغتصاب، في الواقع، اجتياح عميق للروح ونحن ندرك جيداً أن انتهاكات الروح تسبب ضرراً بالغاً قد لا يمكن إصلاحه.

ويوجد محيط بيئي للعنف وهو معاكس تماماً لنزعاتنا الطبيعية التي تسعى لتحقيق ظروف تمكننا من الإرتياح والثقة في الحياة التي نعتقد بأنها ذات طبيعة صالحة في جوهرها. والمجتمع الأبوي هو نظام سلطوي ليس فقط لأنه مؤسسة للسلطة ولكن لأن الهيمنة في حد ذاتها تتسم بانتهاك الحدود. وبمعايشة هذه الظروف يصبح، بوسعنا القول بأننا نعيش في مؤسسات العنف بعينها حيث يكون الذكور هم أبرز محطمي ومنتهكي الحدود. ولذلك يكون عنف الذكور ضمن ظروف المجتمع السلطوي هو في حد ذاته محيط بيئي للعنف. والمحيط البيئي للعنف هو وطن في الانتهاك.

لقد قمنا بدراسة البيئة المتعلقة بالعنف تحت النظام الإجتماعي الأبوي الذي خلق مخالفة نمطية للعالم الطبيعي على المستوى الكوني. دعنا الآن نرجع إلى العالم الصغير.

العنف الجوهري: تفيد معلومات من الولايات المتحدة الأمريكية التي جمعتها وزارة العدل خلال عام (1991) بأن النساء أقل تعرضاً للجرائم العنيفة من الرجال، غير أنهن يتعرضن للأذى بنسبة ستة أضعاف مقارنة مع الرجال (فرينش، French 1992). وفي كندا يأتي معظم العنف العائلي من قبل الرجال على النساء والأطفال في المنازل (لين وأونيل، Lynn and O'Neill 1995). عندما يكون العنف في شكل الإعتداء الجنسي في كندا فإن نسبة 98.8% من مرتكبي هذه الجرائم من الرجال و1.2% فقط من النساء. السفاح هو شكل من أنواع العنف الذي عرف وفقاً لحجمه ومدى إنتشاره. لقد أصبح الآن واضحاً بأنه منتشر على

نطاق واسع ولا يرتبط بطبقة إجتماعية معينة. (فرينش، French 1992). أن الرجال في كل طبقة إجتماعية ومستوى تعليمي يقومون بإغتصاب الأطفال الصغار والبنات، وأن البنات صرن الهدف الأول. إن الغالبية العظمى في سلسلة الجرائم المتعددة هم الرجال ومعظم الجرائم الجماعية يرتكبها الرجال. وغالباً ما تستهدف النساء (مايس وشيفا، Mies and 1993 Shiva).

إن (لين وأونيل، Lynn and O'Neill 1995) اللذان صنَّفا بدقة المعلومات الكندية عن الصلة الحميمة والعنف، ويؤكدان بأن عنف الرجال لا يمكن فهمه ما لم يتم إعتبار علاقات الأسرة في إطار معين من الناحية الإقتصادية والنظام السياسي. إنهما يتفحصان الفكرة المتعلقة بتنمية الدول الصناعية الرأسمالية ومصاحبتها لفصل حياة المجتمع داخل العالم العام للعمل، عن القانون والسياسة والعالم الخاص للأسرة والعلاقات الإنتمائية. ويرافق هذا الشرخ العام والخاص إنفصال بين الرجال والنساء بسبب انفصال أعمالهم أو إتصالهم بالعالم أو انشغالهم بشؤون حياة الأسرة. وطرح كل من (لين وأونيل، Lynn and O'Neill 1995) القضية على أنها موجودة في الأقطار الرأسمالية المتقدمة ومثال ذلك كندا، حيث فقد الرجال السيطرة حتـــى على أعمالهم الخاصة. وفي ظروف العمل في ظلْ النظام الرأسمالي، يصبح الرجال مقيدين بشروط لا يستطيعون معها الثورة ضد الإجحاف وأوضاع الإستغلال في العمل ويشعرون بالأمان فقط عند التعبير عن غضبهم في منازلهم. ويبدو أن إستعمال العنف في المنـــزل يدعم ما سبق الحديث عنه بخصوص تركيبات الدور الجنسي الذي يمكن التغاضي عنه.

إن الإستنتاج المذكور أعلاه لا ينطبق فقط على شمال أمريكا، وتعتبر مشكلة عنف الرجال عالمية نسبياً. وتشير (أنجلا مايلز،Angela Miles 1996: 117) إلى الوضع العالمي: "في جميع أنحاء المعمورة تتعرض النساء للضرب، للحرق وللاغتصاب الجنسي والمضايقات الجنسية ويُمَثَّل بهن ويحبسن للزواج والحمل ويعرضن للبيع للدعارة والفن الإباحي والإجهاض. إن النساء قتلن كأطفال وراشدات ومنعن من الطعام والعلاج والتعليم وأجبرن على العمل بدون مقابل لا لشيء *إلا لأنهن نساء*. وتضيف "أنجلا" بأن وجهة النظر العالمية، تشير إلى أشكال هذا الإعتداء بإختلاف الحضارات والثقافات والطبقات الإجتماعية ولكن العنف في حد ذاته

هو ظاهرة عالمية.

النظام الأبوي وحرمان النساء والبيئة من نظام حسابات الأمم المتحدة (UNSNA): تشير المجلة النسائية الإقتصادية الجديدة (1988) إلى عمل ميدانـــي أعدته (مارلين وارنغ Marilyn Waring)، وتؤكد فيه على أن الإقتصاديات والحسابات قد تم إدخالهما نمطياً في مجالات النقد النسائي. هذا النقد المتعلق بالأمم المتحدة ونظام المحاسبة لها (UNSNA) عمل أكثر من الإشارة إلى حرمان النساء من العمل غير مدفوع الأجر والقيمة. إن نظام الحسابات للأمم المتحدة والمسألة الدولية (UNSNA) بقوانينها ولوائحها تحكم معيار الدخول في جميع الدول. إننـــي أعتقد جازماً بأن هذا النظام يمثل تدعيماً إيجابياً لأيديولوجية النظام الأبوي المتسلط، العبودية العالمية للمرأة والأرض كوكبنا الأم في أنشطتها الإنتاجية وإعادة الإنتاج. (وارنغ، Waring 1988: 14).

وبتركيز إهتمامها على بعض الأعمال غير المعقولة التـــي يقيس بها الاقتصاديون النمو الإقتصادي والبشري، تشير "وارنغ" إلى كيفية نمو المصروفات العسكرية وخاصة الحروب التـــي تحتسب نمو بالرغم من فقدان الحياة الإنسانية. الكوارث البيئية مثال تسرب الزيوت في حادث (إكسون فالدز Exxon Valdez)، تعتبر نمو بينما المحافظة على الأرض وثرواتها لاتعطي لها أي قيمة في السوق. وعليه فإن تكلفة نظافة النفايات تزيد من الناتج القومي الخام بينما لا تعطي أي قيمة للأرض التـــي تضررت أو السلالات التـــي انقرضت أو فقدت أثناء التسرب. مما يثبت مظاهر العنف المباشر. والآن نعرج إلى الشكل الموسع على العنف الثقافي الإعلامي.

العنف الإعلامي الإعلام الجماهيري: يخلق ثقافة من العنف يتم تكريسها من خلال وسائل الإعلام الجماهيرية. وهذا الإعلام يشمل الصحف، التابلويد، والدراما المتلفزة، والرياضة، ودور العرض وأشرطة الفيديو. إن حوادث العنف في الإعلام الجماهيري أكثر وجوداً من تلك التـــي تحدث على أرض الواقع. وعلى سبيل المثال يمكن للصحافة خلق صورة لوباء إجرامي وتقدمها كصورة مرعبة للعالم نظرنا إلى (غيرنر Gerbner 1970). وبكل المعايير فإن الرجال والشباب الذكور هم أكثر قابلية لإرتكاب العنف في الإعلام الجماهيري (فسك،

Fiske 1978). وإذا الإذاعة المرئية فقط فإننا نجد نظاماً خاصاً لتصوير العنف. إن أحد أكبر الأشكال العامة للعنف في برامج الإذاعة المرئية هو الإعتداء الذي يبدأ بالتتبع عن قرب لجريمة قتل، ثم الإشارة إلى السلاح المميت ثم الإعتداء الغاشم والتنصل والإحتيال (فسك، 1978 Fiske).

وفي معظم الأبحاث الحديثة لبرامج الإذاعة المرئية في الولايات المتحدة الأمريكية ومنها تلك التـي أجريت في أربع جامعات، أشارت جميعها إلى أن برامج العنف هذه لها أضرار نفسية عميقة. إن العنف منتشر في برامج الإذاعة برامج التلفزيون السلكي. لقد تم الصرف على هذه الدراسات من قبل الصناعات السلكية ذاتها وبنيت على أساس عينة علمية مختارة لمدة 2.500 ساعة من البث. لقد توصلت هذه الدراسات، ليس فقط، إلى أن معظم البرامج مشحونة ببعض من أعمال العنف، وأن السياق الذي يقدم فيه العنف يمكن أن تكون له آثار ضارة. لقد أثبت الدراسات بأن مخاطر عرض معظم المناظر المتعلقة بالعنف التـي يبثها التلفاز تشمل تعلم كيفية إرتكاب سلوك العنف، ويصبح المشاهد أقل حساسية لآثار العنف الضارة. ويكون المشاهد أكثر خوفاً من التعرض للهجوم. إن مرتكبـي جرائم العنف في الإذاعة المرئية ممن يذهبون بلا عقاب تصل نسبتهم 73% من الحالات. وعندما يرتكب العنف بلاعقاب فإن المشاهدين يكونوا أكثر عرضة لتعلم الدرس بأن العنف عادةً ما يكون ناجحاً. إن معظم مقلدي سلوك العنف يخفقون في إستيعاب تتبع أثاره. وتشير نتائج الدراسة إلى أن نسبة 47% من جميع أعمال العنف تظهر عدم وجود أضرار للضحايا. ونسبة 58% تظهر عدم وجود ألم. أما التبعات والأضرار بعيدة الأمد مثل التبعات المالية أو الضرر العاطفي فقد أظهرت نسبة 16% فقط من الوقت ونسبة 25% من حوادث العنف في البث المرئية تم فيها استعمال المسدسات، الأمر الذي أكدت عليه الدراسة بأنه مولد للأفكار العدائية والسلوك العدواني. وفي الختام قليل من البرامج الإذاعية العنيفة تركز على عدم العنف كخيار لحل المشاكل.

إن عمل (غيربنر، Gerbner 1970) في الولايات المتحدة الأمريكية في مجال عنف الإذاعة المرئية يتعلق بالرسائل الجماهيرية التـي يبثها التلفاز والإعلام كجزء نشط لبيئتنا الحضارية والإجتماعية. إن إستنتاجات "غيربنر" تعتبر مروعة جداً، حيث تشير دراساته إلى أن نسبة 80%

من جميع أنواع الدراما المعروضة في التلفاز تشمل العنف وأن نسبة 50% من أبطال الأشرطة إرتكبوا العنف وأن نسبة 60% هم ضحاياه. الأشخاص كبار السن أكثر عرضة لعنف الصغار. وتوجد أيضاً مؤشرات تتعلق بالطبقة الإجتماعية والعرق. إن الطبقة الوسطى من البيض هي أقل إرتكاباً للعنف وأقل معاناة منه. وبالنسبة للعرق. فإن الإستنتاجات تظهر نسبة 50% من البيض الأمريكيين يرتكبون جرائم العنف مقارنة مع نسبة 50% من البيض الأجانب ونسبة 67% من غير البيض. أما ضحايا العنف فيها تتبع نفس المنوال المذكور أعلاه. (غيربنر، Gerbner 1970) أيضاً بأن "الفاعلية الهادئة" والرجولة والشباب تظهر علاقة دالة بالنجاح والشخصية السوية والبحث عن الذات والنـــزوع إلى العنف إن الباعث الثقافي للشباب يظهر كيفية تنمية عناصر الرجولة التـــي يتم إكتسابها من خلال أعمال العنف. في دور عرض الأفلام الترفيهية، تبدو الأفلام التـــي تعرض العنف هي خيار محبب للمراهقين من الشباب. وإحدى علامات الشباب المراهقين هي القدرة على أن يبقي الشاب هادئاً عند مشاهدة العنف الشديد.

ويمكننا عند ختام هذا الجزء بخصوص هيكلية النظام الأبوي أن نشير إلى كيفية ترسخ العنف في أعماق هذه الهيكلية. ويوجد نوع من بيئة العنف لدى الرجال على المستوى العالمي. فهو موجود في جميع الأسس والتركيبات الثقافية التـــي تمجد الجنس الذكوري. والعنف حاضر في المؤسسات الأكاديمية وفي السجون. ومع أنه يأخذ أشكال مختلفة حسب المواقف المتغيرة، إلا أن القاسم المشترك الأعظم فيه، هو الهيمنة على النساء والأطفال والكرة الأرضية ذاتها. ونفس الإجتياح العنيف الذي يتغلغل داخل الأمم هو ذاته موجود الذي يجري في عروق البشر، فهو معشعش في جميع مؤسسات السلطة إبتداء من الحكومة إلى المؤسسات العسكرية، ومن المجمعات الصناعية إلى المدارس والفصول الدراسية.

العنصرية

التنوع، الإختلاف والناس نحن نفكر في العالم الحديث بوصفه مقسّماً إلى دول قومية. وتظهر *الفروق بين الشعوب من الفروق* بين الدول. الدول القومية على أية حال، هي مؤشرات ضعيفة لتنوع الناس على هذه الأرض. وهنا نستطيع أن نضع تميزاً هاماً بين

الشعوب والدول القومية وهو ما دعا إليه (بيرنارد نيتسمن Bernard Nietscmann) في مجلة *البقاء الثقافي* (أقتبس من ماندر Mander 1991). ويصنف بيرناد في الزمن الحاضر 3.000 أمة محلية تعيش داخل حدود 200 دولة تسيطر على تلك الشعوب. وبموجب القانون الدولي فإن الدولة تشمل شعوباً ذات إرث مشترك ولغة وموقع جغرافي وحضارة ونظام سياسي ورغبة في الرابطة الاجتماعية. وهذا التعريف يمكن للمرء رسم خريطتين من الخرائط السياسية الجغرافية الشعوب وبلدان العالم وتعتبر الخريطة الأولى معروفة بصورة عامة وهي كبيرات الدول المعترف بها وبشعوبها وغالباً ما توصف في إطار ثلاث عوالم. أما الخريطة الثانية فهي تختلف تماماً وتشمل 3.000 شعباً وأمة تعيش تحت وطأة الدول المهيمنة (ماندر، 1991 Mander). ويجب هنا أن نلاحظ وجود أكثر من ثلاثة آلاف من *الشعوب المتباينة والمعترف* بها دولياً غير أن حدودهم ووجودهم ونضالهم الكبير غير معروفة بصورة واضحة. وما هو واضح يتمثل فقط في "الشعوب" متعددة القوميات التـي تم الإعتراف بها "كشعوب" و"كدول" رغم أنها لا تتصف بتلك الخصائص.

إنه من المهم الإعتراف بتنوع الشعوب الذين يسكنون الأرض لأنهم قوة معروفة وقد تبعث هذه القوة وتهدد هذا التنوع بخلق عالماً جديداً أحادي الثقافة. إن الثقافات والحضارات القوية تملي على هذا العالم تركيبته الإقتصادية وتجعل إستمرار بقاء الناس مهدداً (لورد، 1990 Lorde). وفي عصرنا هذا يجب التعرف على كيفية الإختلاف الذي يمكن إستغلاله بصورة ضارة. إن الوجود الحتمي "للربح الإقتصادي العالمي" يلعب دوراً لا يستهان به في هذا المجال ويقدم (أودر لورد Audre Lorde) تفصيلاً لكيفية عمل الربح الإقتصادي العالمي خلال هذه الحقبة المعاصرة:

إن إلغاء المؤسسات للفروق هو ضرورة مطلقة لتحقيق إقتصاد الربح حيث تتطلب هذه المؤسسات غرباء لدعم هذا الإقتصاد. لقد تمت برمجتنا جميعاً للإستجابة لهذا الإختلاف بين الناس بالتخوف والنفور ويتحتم علينا بأن نستجيب له بإحدى ثلاثة طرق. إما بتجاهله وإذا كان ذلك غير ممكن فبنسخه وإتباعه وأما إذا وجدناه ضعيفاً فبنفيه وإبعاده. إننا نفتقد لنماذج ريادية تساعدنا على الإتصال، من خلال اختلاف الثقافات بوصفنا بشراً متساوين ولذلك وظفت هذه الخلافات من قبل الثقافات المهيمنة لتكريس الإنفصال والإرتباك والعزلة (لورد، Lorde 1990: 2–281).

إن هذا النوع من التسلط غير المتوازن يشكل أساس التركيبات العنصرية وهو الذي سنطرقه الآن.

العنصرية النظامية: إن الجزء الأكبر من تاريخ أوربا الغربية ينــي سلوكنا بناء إشراطياً بحيث نرى الفروق بين البشر معارضة لبعضها البعض ويتمثل ذلك في المتناقضات كالتسلط والخضوع والخير والشر والإرتفاع والتدنــي (لورد، Lorde 1990). وفي المجتمعات التـي يتحدد الخير فيها من خلال هامش الأرباح بدلاً من الحاجات الإنسانية يجب أن يكون هناك دائماً مجموعة من الناس المضطهدين الذين يمكن إشعارهم على أنهم فائض لملئ فراغ بالمحرومين من حقوقهم الإنسانية. إن العنصرية هي الإعتقاد بتفوق متأصل بعرق يضع نفسه فوق كل العروق الأخرى وبالتالي يعطي لنفسه الحق بالسيطرة (لورد، Lorde 1990) وتشكل سلبية هذا الإعتقاد مشكلة أساسية للبشر عبر التاريخ ويغذي نظام الإعتقاد هذا مظاهر السيطرة والخضوع والعبودية وجميع أنواع العنف البشري. وغالباً ما تكون العنصرية مبنية على لون البشرة غير أن ذلك لا يحكي القصة بكاملها حيث أن العنصرية موجودة حتــى داخل اللون الواحد، وتوجد مجموعات مختلفة فرضت سيادة عنصرية على الأرض دون إعتبار اللون. إن معادة السامية هــي دليل واضح على أن العنصرية يمكن ممارساتها على أسس مختلفة غير اللون. إن الصراعات العرقية الداخلي في إيرلندا الشمالية وإيران والعراق ورواندا ويوغسلافيا ترتبط بالصراعات القبلية والدينية والإقتصادية وكل ذلك يرتبط بمآسي تاريخ الإستعمار. إن نقاشنا هنا يجب أن يبرز الفروق الدقيقة بين مجالات الصراع هذه.

إن أهم جزء في معالجتــي للعنصرية هنا ستكون عبر حدود اللون وعليه يكون من الضروري التعرض لبعض سمات العنصرية المحيرة التــي تعمل داخل حدود اللون. وللتعامل مع ألغاز تعريف العنصرية دعونا نتفحص ما قدمته (كارول آن ريد، Carole Ann Reed 1994) حيث ميزت بين التحاليل ضعيفة التركيز على حقيقة العنصرية مثل "الإنعكاس الضيق المضاد للعنصرية" والتحاليل الموسعة المبنية على العنصرية مثل "تلك المبنية على مناهضة العنصرية". التحاليل المعكوسة الضيقة هي التــي تؤخذ عادة كنقطة مرجعية ومفاتيح للحظات تاريخية محددة حيث تبدو وكأنها سبب لمتابعة حالة عنصرية ضد السكان الأصليين. إن إكتشاف

(كولومبوس Columbus) لأمريكا هي لحظة في تاريخ القارة تم فيها ميلاد العنصرة ضد السكان الأصليين. وهنا استعملت العنصرية لأغراض الإستغلال المادي للأراضي الجديدة وشعوبها (ريد، Reed 1994). وفي هذه اللحظة التاريخية ارتبطت العنصرية باللون وهو "أكبر" تميز عرقي يسهل التعرف عليه بين أناس العالم الجديد وأناس العالم القديم. وهكذا كان هؤلاء ذوي اللون الجسدي الأبيض من "الحضاريين" القدماء في العالم الأوربـــي يقال لهم بأنهم الأعلى درجة وراثياً من ذوي البشرة السوداء من سكان العالم الجديد (ريد، Reed 1994). وفي تلك اللحظة التاريخية كانت العنصرية تُربط بلون البشرة بين شعبين مختلفين. إن التفسير الواسع للعنصرية يقرنها بالعدالة الإجتماعية التـــي لا يمكن تتبعها تاريخاً والتـــي إنتهت بظهور العنصرية التـــي إرتبطت كذلك بمعايير أخرى كالأوصاف الجسمية أو الحضارية أو الدينية. ويشير (ريد، Reed 1994) إلى هذا النوع من الإختلاف قائلاً، إن الصفات الجسمية مثل شكل أعين اليابانيين والصينيين عادةً ما تجعلهم ضحية التمييز العرقي.

يوجد مثالان عن العنصرية "الموسعة" وهما في الدولة الإفريقية رواندا والصراع في إيرلندا الشمالية. في فصلي الربيع والصيف من 1995 أعد برنامج للمجازر التـــي ارتكبت في رواندا. إن تلك المجازر حددت بسرعة الضوء. لقد قدر عدد السكان الأصليين بما يقارب 7,700,000 نسمة قتل منهم على الأقل 800,000 نسمة خلال مائة يوم ووصف (فليب كورفيتش Phillip Gourevitch) هذه المجازر:

> مقارناً إياها بمذابح (بول بوتس Pol Pot's) التـــي ذبح فيها مليون نسمة من الكمبودين خلال أربعة سنوات وكذلك حمام الدم الذي جرى في يوغسلافيا السابقة والذي يعتبر على أنه ليس أكثر من تمرد في دولة مجاورة. يبلغ أموات رواندا نسبة تفوق ثلاث مرات مقارنة مع أموات اليهود في الهولوكوست إن أفراد جماعات قبيلة الهوتو الأغلبية بدأوا بقتل أفراد قبيلة التوتسي التـــي تشكل أقلية في مطلع شهر نيسان وفي نهاية الشهر كان من الأسهل العثور عليهم أمواتاً لا أحياء. لقد استمر القتل حتـــى منتصف شهر يونيو عندما قام الجيش المتمرد بغزو رواندا وأوقف المجازر. وفي شهر أكتوبر وجدت خبراء لجنة الأمم المتحدة بأن "الحصون الخرسانية والمخططات التـــي أعدها عناصر الهوتو ضد التوتسي في رواندا" تشكل "عملية القتل الجماعي" (Gourevitch 1995: 78).

إن خلفية وتعقيدات هذه المأساة لا يمكن التحدث عنها هنا. ولكن توجد أشياء عديدة

يمكن تدوينها باختصار. أولاً المجزرة كانت مسبوقة بتاريخ من الصراع الداخلي للمجموعات منذ زمن حكم الإستعمار في أواخر الخمسينيات ومع أنه لا توجد إختلافات واضحة في اللون غير أن إختلافات أخرى معروفة موجودة في الخصائص الجسدية للقبيلتين. إن التوتسي أطول قامة وأكثر نحافة والهوتو قصيرو القامة مع ضخامة الجسم. لا أحاول بأي شكل من الأشكال القول بأن الفروق الجسدية تشكل سبباً محدداً للمشكلة. إضافة إلى أن صراع رواندا له إرث إستعماري شجع الصراع الداخلي بين هذه المجموعات العرقية. وفي هذه العجالة، أود أن أركز على أن الصراع العرقي يمكن أن تولده عوامل مختلطة عندما لا يكون اللون كافياً للإختلاف.

إن إيرلندا الشمالية هي مثال آخر للعنصرية التـــي ليست لها حدود لونية. وهي أحد الأمثلة للصراع المزمن في التاريخ الأوربـــي الغربـــي الحديث وهو مستمر ومتصاعد. لقد قدَّم هذا الصراع كصراع دينـــي ولكن يبدو مثل هذا التفسير سطحياً. كل من طائفتـــي الكاثوليك والبروتستانت يزعمان بأن الخلافات ليست فقط دينية ولكنها أيضاً خلافات بين الشعبين. يمكن أن توجد حجة لتلك الخلافات، ويتمثل ذلك في أن البروتستانت هم أعراق أتت من اسكتلندا وفرنسا. وجميعهم يؤكد بأن الفروق الطبقية لعبت دوراً هاماً في هذه الخلافات. أن البروتستانت كانوا دائماً مفضلين من قبل الإستعمار الإنجليزي ولهم أفضل الأعمال والسكن. إن أثر إرث الحكم الإستعماري البريطانـــي لا يمكن بأي حال من الأحوال التغاضي عنه في إثارة المشاكل ويستحق إعطاؤه إعتباراً تاريخياً كبير بالخصوص. إن إيرلندا هي أول مستعمرة بريطانية. ولربما يقال أن البريطانيين مارسوا الوحشية الإستعمارية على الشعب الإيرلندي قبل ذهابهم إلى الهند والقارة الإفريقية. وحيثما ذهب البريطانيون إمتزج إرثهم الإستعماري بالتمييز العرقي تجاه أي شعب يجره القدر للوقوع تحت سيطرتهم الإستعمارية. إن إحساساً نمطياً تقليدياً بالتمييز العرقي البريطانـــي تجاه الإيرلنديين يتضح جلياً من خلال الإفادة التـــي قدمها لنا مؤرخ الملكة (اليزابيث Elizbeth) الأولى بخصوص هزيمة الأسطول الإسبانـــي "الآرمادا Armada" في تعليقه على الإنسحاب الإسباني. يقول المؤرخ بأن بعضاً من قطع الأسطول الإسبانـــي جرفها البحر إلى شواطئ "إيرلندا" حيث التهم "المتوحشون" بحاريها (دوسون، Dawson 1956).

الإستعمار الإستيطانـــي والتركيبات العميقة للهيمنة العرقية العالمية: إن التمييز العرقي شأنه شأن التمييز الجنسي، هو عنصر أساسي في تركيبة ثقافة الهيمنة. وعادة ما نجد مع التمييز العرقي أنظمة هرمية للقوة تكون مبنية عبر مسارات لإدراك من نوع ما للإختلاف العرقي، تتضح عندما تقوم المجموعة المهيمنة بإخضاع المجموعة المقهورة. إن الاختلاف ضمن سياق القولبة العرقية يحدث عندما تحدد مجموعة مهيمنة شكلاً معيناً من الإخضاع لمجموعة أخرى مقهورة. ويحدث هذا الإخضاع على مدى محاور إقتصادية وتعليمية وسياسية. ومانراه ضمن تركيبات الهيمنة العرقية هو عنف يمارس على الثقافة المهيمن عليها ومدمر للجسد والعقل والروح. ولا يعتبر الإختلاف لدى المهيمن إيجابياً كمظهر من مظاهر التنوع ولكنه بالنسبة للمهيمن سبب منطقي للغزو السلبـــي والتمييز. وهي عملية جديرة بالملاحظة للتعرف على كيفية حدوثها (داي، Dei 1994; 1995a) إن فكرة العرق وخصوصاً مفاهيم الهيمنة المرسخة في تركيبات فكرية عرقية لها جذور تاريخية مركبة. والتمييز العرقي الغربـــي تصاحبه خلفية تاريخية من الاستيطان الغربـــي والحكم الإستعماري. ويشير (إدوارد سعيد، Edward Said 1993) في تفحصه للتركيبات الاستطانية الإستعمارية للشرق وإفريقيا، إلى أن النظام بأكمله قائم على الإخضاع وتحويل السكان المحليين إلى ضحايا. أولاً، هناك متعة عارمة في استعمال القوة لملاحقة وحكم والإحتفاظ والإستفادة من الأراضي البعيدة وشعوبها. ثانياً، هناك الطرح الفكري لإخضاع المواطن المحلي تم إعادة تكوينه كشخص يتم حكمه والتصرف فيه. ثالثاً، هناك وجود لفكرة الخلاص والإنعتاق الغربـــي عبر "التبشير الغربـــي الحضاري" وهذه المهمة تم دعمها من قبل "خبراء الفكر". وهنا نجد المبشر والمدرس والمستشارين والدارسين. رابعاً، هناك وضع آمن يسمح للمستعمرين بالتغاضي عن العنف الذي يرتكبونه. وأخيراً، تم إزاحة السكان المحليين عن مواقعهم التاريخية على أراضيهم وإعادة كتابة تاريخهم على أنه نتيجة للثقافة الإستعمارية.

ويخلص (إدوارد سعيد Edward Said 1993: 132) إلى القول بأن كل ما سلف ذكره يصل في مجمله، إلى مزيج من فنون الوصف والملاحظة التـــي مفادها أن الأراضي التـــي تمت حيازتها والهيمنة عليها وحكمها يبدو أن سكانها محكوم عليهم بألا يفلتوا أبداً من البقاء رهن الإرادة الأوربية. وبتوسع أكثر لأفكار "سعيد" المتميزة يقوم (هومي بهابها، Homi

Bhabha 1990) بطرح ارتباطات مهمة للعرقية والخطاب الثقافي. ويؤكد أن الخطاب النمطي العرقي في مراحله الاستيطانية يقدم تركيبات للحكم تفصل المعرفة عن ممارسة السلطة. بعض هذه الممارسات الاستطرادية المنطقية تعترف بإختلافات العرق والثقافة والتاريخ كما أسهبت بدراساتها المعارف النمطية والنظريات العرقية والخبرة الاستيطانية الإدارية. وباستيعابنا لما سبق، فإن هناك إرساء لأفكار الأنماط العرقية المتعلقة بالشعوب المستعمرة من قبل الغرب. إن الأثر الكلي للممارسات الإستعمارية المركبة يجعل السكان الواقعين تحت وطأة الإستعمار هم السبب والنتيجة لنظام تفسير مغلق يبرر حكم المستعمر بمضامين شبه أخلاقية، حيث يرى المستعمر نفسه في علاقته بمن تم استعماره وكأنه يؤدي رسالة تحضر وتثقيف أو حاملاً لعبئ الرجل الأبيض (بهابها، Bhabha 1990) وتشير الدلائل إلى وجود نظرة عالمية راسخة لهذه الظاهرة الإستعمارية ونواتجها وهو ما سنوليه اهتمامنا الآن.

التمييز العرقي والرؤية الثقافية الغربية للعالم: يؤكد (أودر لورد Audre Lorde 1990) على أن الإرث الشاسع للتاريخ الأوروبي الغربي قد كيفنا عن طريق الإشراط إلى رؤية الإختلافات البشرية في تعارض مبسط لبعضها البعض. ولذلك تكونت لدينا مجموعة من المتعارضات أو المتناقضات: هيمنة/تبعية، جيد/رديئي، أعلى/أسفل، متفوق/متدني..إلخ، وهذه المتناقضات ترسخت ضمن أساسياتنا الثقافية. وكما يشير "لورد" يؤسس تقييم المجتمع للجودة على مفهوم الربح أكثر من مفهوم الحاجة الإنسانية ويترتب على ذلك ضرورة إيجاد مجموعة أو مجموعات يمكن جعلهم يشعرون وكأنهم فائض على الحاجة. ويحدث ذلك عن طريق الاضطهاد المنظم وإنـزالهم إلى "الحيز الأدنـى المجرد من الصفات الإنسانية وضمن هذا المجتمع تمسي هذه المجموعة مكونة من السود وشعوب العالم الثالث والطبقة العاملة والمسنين والنساء" (لورد، Lorde 1990: 281). وإضافة إلى لائحة "لورد" أود إبراز وإضافة قدر الشعوب البدائية المشئوم التـي استولت بلدان "العالم الجديد" على أراضيهم وثقافتهم بالغة التميز مما نتج عنه صور نمطية شائعة لهذه الشعوب الفقيرة مع تقديم المستعمر المتمثل في المركزية الأوروبـية بصورة مثالية. إن تجربة المركزية الأوروبية هذه والاستعمال المشين للقوة في ممارسة التمييز العرقي يتضمن تبرير الأرض المسروقة، ويقدم نموذجاً لعدم المساواة المخطط له

وهو تسويغ لمواصلة حرمان مجموعات الأقلية من حقوقهم المشروعة (زارات،Zarate 1994).

والجدير بالملاحظة هنا، هو إن الثقافة الغربية ليست الثقافة الوحيدة التـــي تتضمن ضروب التعارض هذه. ومع ذلك فإن رؤية الثقافة الغربية للعالم تولد تركيبتها الخاصة ظروف التمييز العرقي. ولأكثر من 500 خمسمائة سنة لا زالت تعمل ضمن الإفتراض القائل بأن لها مهمة تحضرية وتثقيفية لسكان هذا العالم. وتفيد هذه الرؤية بأن هناك إدعاء ضمنـــي لهذه المهمة يتمثل في أن الثقافة الغربية هي "المركز" وتعتبر كل الثقافات الأخرى "هوامش". ويوجد إدعاء أبعد مدى، وهو الذي يرى وجوب إندماج "الهوامش" في "المركز" وأصبح هذا الإفتراض هو الفاعل الرئيسي ضمن الثقافة الغربية في مواجهة بقية العالم. وضمن هذا الإطار المرجعي فإن التباين الثقافي ليس موجوداً لتعزيزه أو تقديره. ولا يكون التباين فسحة أو منفذاً لاستكشاف ومعرفة الآخر من الموقع السيادي الخاص. بل يرى أصحاب موقع المركز وجوب دمج أو قمع هذا التباين أو الإختلاف وإذابته في ثقافة موقع المركز. إن إدماج الهوامش في المركز لا يحدث تحت ظروف تبادلية أو تعاون بل تحت ظروف قهر وتسلط. ووفقاً لمفهوم تناقضات "لورد" يتولى المركز موقع الهيمنة ويتم إنـــزال الهوامش إلى موقع التبعية. أما فيما يخص الجيد/الرديء فهناك تقسيم فئوي آخر يتخذ فيه الفكر الغربـــي الثقافي منـــزلة الكفاءة العالية لنفسه ومبعداً ما عداه إلى الهوامش المعرّفة بأنها مظلمة وجاهلة ورديئة. وفي تناقض الأعلى/الأسفل والمتفوق/المتخلف، تنصب آراء الغرب الذاتية على أنها أكثر "تطوراً" و"تفوقاً" عند مقارنتها بثقافات الهوامش، والمحصلة النهائية هي تحديد عملية الهيمنة لكل الخصائص الإيجابية ضمن الثقافة الغربية دون سواها.

التمييز العرقي البيئي: تعنـــي العرقية البيئية ذلك التفسخ المنظم للأرض أو للشعوب كنتاج لعمليات العرقية النظامية التـــي تعنـــي بالمفهوم البيئي، أن أراضي محددة وشعوب ضمنها يمارس عليها شكل من التفسخ البيئي يمكن إرجاعه إلى حقيقة أن الشعوب وأراضيها خاضعة لعرقية تاريخية. وتمارس العرقية البيئية على المستويين المحلي والعالمي.

فعلى المستوى العالمي مثلاً تكون معاملة الغرب لإفريقيا مثالاً لعرقية تاريخية وبيئية معاصرة. إن التاريخ الكامل للعرقية الذي يمارس حالياً على الملونين، يرجع إلى التاريخ المشين

لتجارة العبيد. إن إستعمار الدول الغربية لإفريقيا، هو في الواقع، عملية استغلال تمكنا من إدراكها الآن بعد أن شاهدنا إنهيار أسطورة التفوق الغربـــي على القارات الأخرى. بدأ الأوربيون استكشافاتهم لإفريقيا بعد عام 1795. تلي ذلك الغزو العسكري الفعلي خلال الفترة ما بين 1880 و1900. وقامت القوات الأوربية الغازية بتقسيم القارة إلى دويلات ومناطق نفوذية صغيرة، ووضعت حدوداً جغرافية تعسفية فصلت بها بعض المجموعات العرقية وحجز مجموعات أخرى متباينة معاً. وتم تعطيل أنظمة الحكم المحلية عن طريق الضرائب وتعيين رؤساء تابعين لإدارتهم. وأغرقت الدول الإستعمارية الغربية إفريقيا ببضائع صناعية رخيصة، مثل القطن والسلع المعدنية والأسلحة النارية ومستبدلة الإنتاج المحلي عن طريق تشجيع المحاصيل المربحة مثل الفول السوادنـــي والكاكاو والموز. وفي نفس الوقت تطورت أسواق للغذاء المستورد مثل السكر. هذا الفخ العميق هو الإرث الذي تركه الغرب لإفريقيا وهو مستمر إلى الوقت الحاضر. واعتبر البريطانيون عملهم الإستعماري "عبء أو مهمة الرجل الأبيض" وصاغوا تعاملاتهم الإستعمارية بلغة منمقة صورتهم على أنهم يقومون بمهمة تحضرية لتمدين الرجل الأسود، حيث كان الإفتراض القائم لديهم، هو أنه سيتم تطوير إفريقيا بتعرضها للتأثير الحضاري الغربي. غير أن الوقائع تشير إلى خلاصة معاكسة لذلك تماماً وعلى سبيل المثال، أصبحت إفريقيا الآن أكثر فقراً مما كانت عليه قبل ثلاثين عاماً مضت ولازالت تزداد فقراً متزايداً باليوم والساعة. فالمجاعات والقحط والجفاف والحروب هي أمور شائعة. ولكون إفريقيا لم تعد سوقاً للإستيراد، فإن المصرفيين العالميين يبدو وأنهم شطبوا إفريقيا من السوق الإقتصادي العالمي (العالمية الجديدة، New Internationalist 1990). وكبديل عن الإستيراد من أوربا، أصبحت العديد من الدول الإفريقية مكبّاً لنفايات الغرب السامة. ومعظم الدول الإفريقية الآن مكبلة بأعباء الديون الإقتصادية الدولية والفقر مما اضطرها إلى السماح بالتخلص من النفايات السامة على أراضيهم من أجل المال. وكثيراً مايتم دفن النفايات السامة دون علم أو إذن الدولة المكب بصور سرية للغاية. وتلجأ سفن عديدة محملة بالنفايات السامة من البلدان الغربية إلى التفاوض من أجل الدخول إلى الموانئ الإفريقية وتقديم مبالغ مالية ضخمة كعمولة ورشاوى للنخب الحاكمة لأن بقية موانئ العالم

رفضت دخولها إليها بوصفها غير مرغوب فيها *Persona non grata*.

إن فئة السكان الأصليين هي أكثر المجموعات العرقية المحرومة والمتعرضة للتفرقة العرقية والعنصرية. وفي كل المجتمعات الغني منها والفقير، عانى ويعاني هؤلاء السكان أشد التهميش والمعاناة ماضياً وحاضراً (بيرغر، Burger 1993). إن تأثير الإستعمار الأوربي على سكان أمريكا الأصليين، يعتبر الآن من ناحية تاريخية كارثة كبرى. ويتكرر هذا الإرث الإستعماري حيثما تواجد الإستعمار الأوربي: في استراليا، نيوزيلاندا، جزر المحيط الهادئ، إفريقيا، آسيا، وشاملاً كذلك المنطقة الشاسعة في شرق وشمال الإتحاد السوفييتي السابق. ويتأمل (جوليان برغر، Julian Burger 1993) هذا الإرث الفاسد المفسد مستخدمة إحصائيات حكومية من مختلف بقاع عالم اليوم:

أصبح السكان الأصليون في نيوزلندا معرضين للبطالة سبع مرات أكثر من الشخص العادي. وخمسون بالمئة 50% من السجناء هم من الماوري Maori رغم أن الماوري يشكلون نسبة 9% فقط من العدد الإجمالي للسكان. ومعدل أعمار السكان الأصليين في أستراليا أقل بعشرين سنة من المتوسط العام لأعمار السكان وهم معرضون للسجن أكثر بأربع عشرة مرة بالنسبة السكان العاديين. ويُكون سكان غواتيمالا الأصليون نسبة 60% من الشعب ولكن عدد 150 طالباً منهم فقط هم من المنخرطين في التعليم العالي من مجموع 25.000 ألف طالب وطالبة. وفي كندا يموت الأطفال من السكان الأصليين بمعدل أكثر من مرتين من المتوسط العام للمعدل القومي (برغر، Burger 1993: 4).

ويحمل السكان الأصليون أيضاً عبء آثار التفسخ البيئي كنتيجة للنهب الصناعي المتمثل في خسارة الغابات، التعدين، بناء السدود والنشاط العسكري المصاحب لبعض هذه الأعمال، ويعيش السكان الأصليون في هذه البيئات الهشة وهم أول من يعاني آثار هذه الحرب على النظام البيئي (برغر، Burger 1990). إن علاقتهم الحميمة مع العالم الطبيعي تتركهم معرضين للضرر بصورة خاصة. ويصنف "برغر" مناطق التضرر البيئي كالآتي:

قطع الأشجار الهائل لا يترك لهم غابات ويضعف التربة التي سرعان ما تجرفها الأمطار الإستوائية. والزئبق الذي يستعمله المنقبون عن الذهب في أمازونيا يسمم ما مقداره 1500كلم (930) ميلاً من نظامهم النهري. ويقتل الأسماك ويسبب المرض لآلاف الهنود. وتلقى يومياً حوالي خمسة ملايين طن من النفايات السامة شاملة لأدخنة الفلورايد من صهر الألمنيوم في نهر سانت لورنس في كندا مما سبب

الإجهاض وتشوهات الولادة والسرطان بين هنود (الموهوك Mohawk). وسكان المحيط الهادئ الأصليين و"منطقة القطب الشمالي" يحملون عبء أضرار إلقاء النفايات الإشعاعية "وكذلك التجارب النووية" في جزر جونسون موطن 90.000 مواطن أيزلندي وهي محرقة أمريكية للنفايات السامة. وتتسرب الأدخنة السامة إلى البحر ملوثة سلسلة الغذاء برمتها. (برغر، Burger 1990: 120–1).

إن العرقية البيئية المتعلقة بالسكان الأصليين هي ظاهرة عالمية. ويمكننا أن نرى من التصنيف المذكور الوجه الحقيقي الشامل للعرقية البيئية التــي تعتمد على الأرض والثقافات خلال اللهث وراء الإقتصاد العالمي. إن التجليات المعاصرة لُلعرقية تمتد عميقاً داخل النسيج التاريخي للمجتمعات الغربية، تاركة السكان الأصليين ضحايا للقيم والممارسات الثقافية الغربية.

وأخيراً يمكن للمرء أن يواجه أيضاً "العرقية البيئية" في وسط محيط مدني، حيث يجادل (س. أ. باورز، C. A. Bowers 1993a) بأن الدمار البيئي في محيط المدن له أعمق الآثار على الأقليات التــي تعيش في مواقع يكون فيها إحتقار البيئة والامتهان أمر معهود لعشرات من السنين. ويلاحظ "باورز" كيفية حدوث ذلك في تجمعات المدن الأمريكية الشمالية وخاصة الولايات المتحدة. إضافة إلى أن ذلك يحدث بتفاوت يتوافق والخطوط العرقية. وهكذا فإن 60% من الأمريكيين الأفارقة والشباب (الهسبانيين Hispanic) في الولايات المتحدة يعيشون قرب مواقع نفايات خطرة. وفي مناطق المدن هذه يتعرضون لضعف الأخطار الناتجة عن تسمم الرصاص مقارنة بأقرانهم البيض.

الطبقة الإجتماعية

رغم أن مفهوم الطبقة له أصول متعددة، غير أن ظهوره في الأوقات الأخيرة يأتــي من النظرية الإقتصادية الماركسية. وضمن سياق النظرية الماركسية، تعنــي الطبقة مجموعة من الأشخاص لديهم، فيما يتعلق بوسائل الإنتاج، علاقة إقتصادية مشتركة تدخلهم في صراع مع المجموعات الأخرى والتــي لها علاقة اقتصادية مختلفة مع هذه الوسائل (بوتومور، Bottomore 1983). وهكذا يكون لدينا أسياد وعبيد، خدم وسادة وطبقة كادحة وطبقة

رأسمالية، كما هو مفهوم في تكوين الطبقات الإجتماعية عبر العصور القديمة والوسطى والحديثة. والتركيبات الإجتماعية الطبقية لها طبقات مساعدة أو جزئية معروفة ضمن أو بجانب الطبقات الأساسية. واستخدم (ماركس Marx) مصطلح الطبقة للمجموعات التالية: النبلاء الإقطاعيون، البرجوازية الثرية، البرجوازية الصغيرة، المزارعون الصغار، الطبقة الكادحة والعمال الزراعيين. وبالنسبة إلى "ماركس" كان مفهوم الطبقة الإجتماعية خاصية فريدة تختص بها المجتمعات الرأسمالية. (بوتومور، Bottomore 1983). وكانت نظرية "ماركس" عن الصراع الطبقي التاريخي محددة ومدعمة بالقرائن. ووفقاً لسلمه للنشوء والإرتقاء، كانت الرأسمالية حالة متقدمة من التطور الإقتصادي. وهكذا فإن الصراع الطبقي الذي افترضه بين الطبقة الكادحة والطبقة الرأسمالية في الثقافة الغربية كان أكثر حالات التقدم للتطور الإرتقائي. وفي مقالة له بعنوان "طريقة الإنتاج الآسيوية" أكد "ماركس" على أن الثقافات غير الغربية عليها التقدم نحو طرق الإنتاج الرأسمالية قبل أن يستطيعوا الإنتقال إلى الإشتراكية (هاندا، Handa 1982). إن النقد القوي الذي وجهه ماركس لاستغلال الرأسمالية للطبقة الكادحة شعر به كل سكان العالم. وعندما كان ماركس يكتب في مستهل القرن، كانت الرأسمالية الصناعية في أشد أشكالها الاستغلالية. لقد كان عصر رأسمالية *"دعه يعمل"* *(Laissez – Faire)* حيث كان استغلال العمال جلياً وجشعاً. وبقدوم الثورة الإشتراكية في كل من روسيا والصين. بدأت حكومات البلدان الرأسمالية تنظيم استئثار الرأسمالية بالمواطنين وقامت بإجراءات تستهدف تقليص مساوئ رأسمالية قوة السوق الظالمة. وفي أمريكا الشمالية، تمكنت نقابات العمال من الإتفاق الجماعي والتنظيم وتحقيق منافع عمالية من طبقة الملاك الرأسمالية. وطورت الحكومات في الديموقراطية الغربية منافع إجتماعية في الصحة ومجالات إجتماعية أخرى للوقاية من تأثيرات رأسمالية السوق غير المقيدة. وهكذا وضعت الديمقراطيات الغربية بإستجابتها للثورات الإشتراكية وجهاً إنسانياً على الرأسمالية ولقبتها "الرأسمالية الجديدة" رداً على رأسمالية "دعه يعمل" التـــي سبقتها.

وأمنت فترة ما بعد الحرب أرضية إختبار للأفكار المتصارعة للرأسمالية الغربية وإشتراكية الكتلة الشرقية. وإشتركت القوى المتنافسة خلف الأيديولوجيات في شيء واحد، تمثل في أن كل من الرأسمالية والإشتراكية اعتنقتا سيطرة طريقة الإنتاج الصناعية الغربية. وكانتا أيضاً على نهج مشترك فيما يتعلق باستغلال موارد الأرض الطبيعية والتقاسم المتساوي لإنتهاك العالم الطبيعي، الذي أعقب الحرب العظمى. إن سباق التسلح والسباق الإستهلاكي قد فرضا ضريبة على هذا الكوكب الأرضي مما يشكك في تفاؤل ما بعد الحرب للرأسمالية الغربية والإشتراكية الشرقية. وخلال الجزء الأخير من القرن العشرين، ها نحن شاهدنا إنهيار إشتراكية الدولة كما نشاهد كذلك مزاعم الرأسمالية في كسب رهان الحرب الباردة. وبهذا المنفذ الجديد أصبحت الرأسمالية مطلقة العنان وبلا منازع، وأصبحنا نشاهد رجوعاً تدريجياً لأشكال أولى سابقة من الاستئثار الرأسمالي. إن عودة وظهور ليبرالية "دعه يعمل" تصاحبها شكوك عميقة في المنعطف التحرري الجديد الذي تمثل في محمية من القوانين التـــي فرضتها الحكومة لحماية عامة الشعب وخاصة فيما يتعلق بالنشاطات الصناعية (مناهضة التلوث، السلامة، قوانين الصحة وما إلى ذلك) (كوكس، Cox 1991). كل هذه القوانين تبدو الآن في الطريق إلى إضعافها وتفكيكها. وتحت عباءة الليبرالية لجديدة، حقق موظفو القطاع العام مكاسب كبيرة في التفاوض الجماعي بخصوص الأجور ويصبحون الآن أهدافاً أمامية لتقييد الإنفاق الحكومي. ويصدم متفاضوا المساعدات الإجتماعية والعمال غير المنضمين للنقابات بتخفيض إنفاق الدولة والبطالة المتصاعدة. ويخوض الآن قطاعي الزراعة والمشاريع التجارية الصغيرة نـــزاع حاد مع الحكومات والبنوك بسبب التمويل الذي أصبح باهظ الأرباح ولم يعد التمويل غير الباهظ متاحاً لهما. وضمانات الأمان لهذين القطاعين يبدو وأنها أخذت في التلاشي (كوكس، Cox 1991). إننا نشهد هذه التغيرات القطاعية الدرامية بصورة متصاعدة في عمق الأنظمة الرأسمالية. كما نشاهد حالياً في بلدان الشمال الغنـــي مستويات عالية من البطالة والتدهور الفعلي للأجور وتقليص الشركات والإعتماد المتزايد على الوظائف المؤقتة والجزئية دون مزايا مالية تذكر. ويجري الآن أيضاً العمل على إضعاف تقابات العمال مما يخلق شعوراً بعدم الأمان بين عناصر الطبقة المتوسطة (كورتن، Korten 1995). إن عدم الحصول على وظائف ملائمة حتـــى ولو بمستوى متدنـــي يشكل مصدراً لليأس والإحباط

بين أوساط الشباب وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى أقليات عرقية. ونلاحظ تلاشي وظائف الشباب كنتيجة للتقليص في العمالة حتـــى ولو كانوا من الحائزين على شهادات عالية ومهارات تقنية رفيعة، وبذلك لم يعد هؤلاء الشباب يؤمنون بأن التعلم والتدريب الوظيفي يؤديان إلى وظائف مستقرة. إن آليات السوق التنافسي العالمي تضيق الخناق على إقتصاديات الشمال. وهذا التدهور يحدث في دول المركز.

ماذا يا ترى يحدث في المحيط الخارجي للمركز؟ لقد سمي المحيط الخارجي في الماضي القريب "العالم الثالث" أو "العالم المتخلف". وجاءت هذه التسمية من قبل قوى المركز. وفي سياق فكرة "التمييز العالمي" التـــي عملنا على تطويرها تدريجياً حتـــى الآن، وأود أن أضيف تعبيراً أو تسمية أخرى وهي، العالم الذي يعيش تحت تسلط ذوي الإمتيازات الذين يعملون دوماً على إسكاته. ومن المنظور النقدي الذي تبناه هذا الكتاب، فمن الأفضل تسمية المحيط الخارجي "العالم الذي يُستغلُّ بإفراط" أو "العالم مفرط التطور" (ساكس، Sachs 1992). ويسمى هذا العالم أحياناً الجنوب ولا يعنـــي ذلك موقعاً جغرافياً فقط، بل أيضاً أن مجموعة كاملة من الشعوب تعيش في كل أرجاء العالم، ابتُليت بظروف إقتصادية هامشية. ورغم أن مصطلحي "العالم الأول والعالم الثانـــي" غير متداولين حالياً، فإنه لا يزال ممكناً وصف "العالم الثالث"، بأنه العالم الذي يقع على حدود المحيط الخارجي للمجتمع الإقتصادي الدولي. وهو الذي يتكون من مجموعة من الدول التـــي خلال عملية النظام العالمي الجديدة، لم تصبح غنية ولم تنشأ بها صناعات. وفي سياق لغة الشمال، سمي العالم الثالث متخلفاً لأنه لم يدخل في رخاء "العالم المتطور". وعند الإشارة إلى العالم المتطور والعالم المتخلف، كثيراً ماتبرز الفكرة القائلة، بأنه لسبب ما افتقد عالم الجنوب المتخلف الدافع الأساسي والمعرفة التقنية ليصبح متطوراً وصاحب إمتيازات. وعادةً ما يعوز هذا الخطاب إدراك الحقيقة التـــي تفيد بأن تطور الشمال يرتبط إرتباطاً وثيقاً بتخلف الجنوب. إن المصدر الأساسي للأنشطة الإقتصادية بين الشمال والجنوب في الوقت الحاضر، هو المطالبة المنتظمة للشمال بإستخراج الموارد الحيوية من الجنوب، وإرسالها خاماً إلى الشمال ثم إعادتها إلى الجنوب في شكل بضائع وسلع إستهلاكية ونفايات وملوثات بيئية. وفي عدد جديد من مجلة العالمية الجديدة *The new Internationalist*. يقدم (ديفيد رانسم، David Ransom 1992) وصفاً جيداً وصورة معبرة

لكيفية حدوث هذا الأمر.

بالنسبة للإقتصاديين من السوق الحر في عالم الشمال، فإن الأمر برمته واضح لا لبس فيه. فالبضائع تتحرك بحرية، والتخلص من النفايات السامة في أراضي الجنوب هو أرخص وأسهل من حدوثه في عالم الشمال المدرك، حسب زعمهم، لأهمية المحافظة على البيئة. وهذه هي الطريقة المعتادة التـــي تسير عليها تجارة الشمال – جنوب. وكما سارت بمقتضاها على مدى العقد الماضي. وخلال هذه الفترة طلب البنك الدولي من بلدان الجنوب التـــي غرقت في الديون اتباع ما يسمى بسياسات التعديل البنيوي أو "إعادة الهيكلة الإقتصادية". وتطالب هذه السياسات بتصدير المنتجات مقابل سداد الديون. فإذا كان لدى البلد مثلاً موارد طبيعية مثل الخشب أو النحاس، فيتحتم عليه إذاً أن ينتج ويصدر المزيد منها وبسعر أرخص يتحكم فيه الشاري أكثر من البائع. ولأن بلدان أخرى عديدة مطلوب منها القيام بنفس العمل، الأمر الذي تسبب في إغراق السوق العالمي بالبضائع المصدرة من بلدان الجنوب مما زاد الأسعار تدنياً ومع ذلك يطلب من الدولة المدانة تصدير المزيد والمزيد. ومقابل ذلك طبعاً، هو حصول الشمال على المواد الخام بمقادير وفيرة وأسعار زهيدة. والمحصلة النهائية لمثل هذه الأنشطة المشبوهة هي تراكم أرباح وثروات شركات الشمال بينما تتراكم هموم الجنوب ومحنه. فهو أكثر تخلفاً وفقراً حيث أنتجت له هذه التجارة غابات مقتلعة وأنهار ملوثة وحفر هائلة في الأرض وشعب تم تجريده إقتصادياً فأصبح يعيش في فوضى عارمة. وكل ما استجد في الأمر هو أن الجنوب الآن لديه خيار إستيراد النفايات السامة مقابل تصدير المواد الخام (رانسم، Ransom 1992: 6).

إن الإنتقادات الصادرة من الجنوب لها أحقية منطقية ومبررة عندما تشكك في مصطلح "العولمة" واستخداماته المغرضة. وتتحدث (فاندانا شيفا Vandana Shiva) عن المواضيع المتعلقة بقمة الأرض التـــي عقدت سنة 1992 بمدينة ريوديجينرو وتقدم التوضيحات التالية:

إن شعار الشمال في قمة الأرض بإشراف الأمم المتحدة وفي مفاوضات عالمية أخرى يبدو وأنه يقول "ما بحوزتك هو ملك لي وما بحوزتـــي هو أيضاً ملك لي". هذه النظرة غير المتوازنة لمستقبل مشترك تجعلها فكرة العولمة أكثر يسراً وسهولة حيث بفرض الشمال وجوده في الجنوب من خلال الإمتداد الإقتصادي العالمي بينما يبقى الجنوب مكبلاً داخل حدوده. الجنوب لا يمكنه التواجد مكانياً إلا في الجنوب بينما يستطيع الشمال من التواجد عالمياً (شيفا Shiva 1992: 26).

وبسبب وسائل الإتصال العمومية في الشمال، فإننا لا نسمع ولا ندرك أصوات الإنتقاد القادمة من الجنوب. "إن وسائط الإعلام العالمية" هي في الواقع عصب السُيطرة لإحتكارية

لتكتلات الإتصالات الشمالية التـــي تتحدث عن الجنوب ضمن حدود النظرة العالمية التـــي يتبناها نصف الكرة الشمالي لرأسمالية العالم. إن الصحافة في نصف الكرة الشمالي تحكمه مصالح راسخة لرأسمالية الإحتكار. إننا في الواقع لا نسمع إلا أصواتنا. وبالمعنـــى الثقافي الأوسع مدى، تعتبر أصوات صحافتنا شمالية وأوربية المحور وتبعاً لذلك فهي متمركزة حول العرق.

الأصوات الجنوبية الناقدة تشكل مصدر تهديد وتتعارض مع المصالح الصناعية المشتركة للنصف الشمالي المهيمن. إن بعضاً من أفظع الأعمال الوحشية التـــي ارتكبت ضد حقوق الإنسان في أرجاء العالم الثالث كانت ضد الصحافة المعارضة. الصحافة النقدية في الجنوب يعرّض نشاط ممارسيه للخطر بصورة بالغة تصل إلى درجة احتلال هذه الصحافة من قبل الفئات ذات المستويات الرفيعة التـــي تقع تحت متابعة منظمة العفو الدولية (تشومسكي .(Chomsky 1989b

إننـــي أعتقد بوجود ضرورة لتذكير أنفسنا على الدوام بأن أصوات النهب الصناعي المتربعة على قمة الإقتصاديات الشمالية هي ليست أصواتنا ولا تمثل المصالح الحيوية للإنسانية. وعليه يجب علينا تحرير أنفسنا من وطأة وسائط الإعلام الشمالية التـــي تمطرنا بالدعايات المغرضة لعالمنا اليومي العجيب والتـــي هي في واقع الأمر "كلمة حق أريد بها باطل" وإحدى طرق التحرر هذه، هي محاولة سماع أصوات الجنوب، وأصوات المحرومين والمعدمين. ورغم صعوبة هذا الأمر، فإنه ليس مستحيلاً إذا قررنا بذل الجهد لتحقيق ذلك. إن أصوات الجنوب هذه، هي حقيقة أصوات إصلاح. لأنه بدون عدالة إجتماعية وإقتصادية لن يكون هناك استمرار تنموي يتضمن إحتمالات بقاء كوكب الأرض على المدى الطويل.

ويؤكد (سيرج لاتوش Serge Latouche)، الإقتصادي الفرنسي والمنظر الإجتماعي على أنه لم يعد هناك وجود "لعالم ثالث". ويقول بأن فكرة عالم ثالث نامي هي، في واقع الأمر، فكرة ميتة تماماً في الإقتصاد الحديث للسوق العالمية. ويجادل (لاتوش، Latouche 1993) بأن بديلاً عن العالم الثالث، يوجد الآن ثلاثة تجمعات من "العوالم الرابعة". إن العالم الأول الذي يعنيه "لاتوش" هو عالم موجود داخل رحم الدول الغنية. إنه عالم معاناة وضغوط وإحباط ضمن محاولات قاسية للبقاء خلال الحياة اليومية للمجتمعات الغربية الغنية، حيث توجد

معاناة مادية أخذت في التعاظم. إنه عالم حيث يعيش الفقراء والمحرمين ضمن عالم الوفرة والرخاء. لقد خلقت التقنيات الجديدة عمالاً عاطلين عن العمل وبدون حقوق. إننا نشهد نمواً غير مسبوق "للفقر المعصرن" الذي دعم بدوره ظواهر تفشي الإدمان على المخدرات والجريمة وانعدام الأمن وعدم الإستقرار. الأرقام والإحصائيات الدقيقة غير معروفة، ولكن توجد تقديرات للفقراء يصل بها عددهم إلى 40 أربعين مليون فقير في أوربا، إضافة إلى عشرين أو ثلاثين مليون أمريكي شمالي يعيشون تحت خط الفقر. ويتجاوز عدد الفقراء في أوربا الشرقية المائة 100 مليون فقير. المجموعة الثانية من "العوالم الأربعة" التـــي يحددها "لاتوش" هي الأقليات المحلية في العالم المتطور حيث لدينا شعوباً مثل (لابس أو سامي Lapps or Sami) من الشمال الأوربـــي الكبير و(الأسكيمو أو إنويت Eskimos or Inuit) من كندا و(غرين لاند وألسكا Greenland and Alasks) سكان أستراليا الأصليين، (والميلانيزين الأصليين والتغانين الغجر Melanesian natives and Tsiganes gypsies) المنتشرين عبر القارة الأوربية. وتشكل هذه الشعوب مجموعة من الثقافات التـــي هي تحديداً أقليات عرقية منتشرة عبر عدة دول ومقاومة للتحديث. وتم الاستيلاء على أراضي هذه الشعوب بغية تنفيذ المشاريع متعددة الجنسيات أو لاستعمالها كمواقع للتخلص من النفايات السامة. والمجموعة الثالثة من العوالم الأربعة هي تلك الشعوب التـــي تنتمي إلى الدول المسماة "الأقل تقدماً أو الأقل تطوراً" وهي الأكثر عدداً. هذه الشعوب ليست مقتصرة على أفراد معزولين أو مجموعات عرقية ولكنها تشمل دول كاملة بشعوبها وسكانها. هذه الدول المرفوضة هي بلدان الجنوب التـــي تسحقها أعباء ديون مؤسسات النقد الدولية. ولا أحد يعتقد بجدية في الوقت الحاضر، بأن هذه الدول المدينة لا يزال بوسعها الإنضمام إلى التنافس الدولي المتسارع واللحاق بالآخرين. ويتم حالياً في محيط التجارة، شطب قارة إفريقيا بأكملها من قائمة المساهمة التجارية في السوق العالمية الجديدة. إننا نسمع عن إفريقيا فقط عند حدوث إنقلاب عسكري أو مجاعة في أي أرجاء القارة المنكوبة. ويقوم "لاتوش" ببلورة القواسم المشتركة لهذه العوالم الثلاثة التـــي تشكل العوالم الأربعة:

رغم الثغرة الواسعة التـــي تفصل "العوالم الأربعة" الثلاثة فإنها تظهر عدداً محدداً من السمات المشتركة. ومنها أنها جميعاً ضحايا للتقدم الغربـــي وفي بعض الأحيان نفي داخلي تحت نفوذ الحداثة العالمية.

والطبقة المسحوقة في العرب الصناعي والسكان الأصليين في المحميات أو الشعب المزاح عن أرضه (ل دس LDC's) فكلها أمثلة للمبعدين عن وليمة الإستهلاك المفرط الكبيرة. هؤلاء المنبودين يقضون حياتهم وكأنهم سحناء في ثقافاتهم التـــي يحيطها الفقر... ولم يعد ممكناً إعتبارهم مجرد مجموعات صغيرة معزولة وسط مجتمع غني، بل إنهم يشكلون مجتمعاً آخر (لاتوش، Latouche 1993:42).

لقد وصلنا حالياً إلى طريق مسدود في الإقتصاد العالمي. إن عهد إستعمار عبر حدود مفتوحة هو في مرحلته الأخيرة. لم يعد هناك مكان آخر على هذا الكوكب ليتم إستيطانه. إستعمار الأراضي لم يعد ممكناً مادياً. كل ما تبقى لنا في عصر المعلومات الجديد هذا هو إستعمار العقل. وما بحوزتنا في أعقاب المجتمع الغنـــي هو الحطام الختامي للعصر الحديث سينوزيك النهائي.

ترابط النسيج التكاملي للجنس والعرق والطبقة

لقد قمنا حتـــى الآن بدراسة تقييمية للجنس والعرق والطبقة كمواقع منفصلة للهيمنة والقوة. وفي الواقع، فإن هذه القوى الإجتماعية هي عادة ما تكون مرتبطة ببعضها تنظيمياً. وسواء تمت دراستها منفردة أو مجتمعة فهي لا تزال أجزاء متكاملة من تركيبات الهيمنة. ودعنا نتأمل وصف (مارلين فراي Marilyn Frye's) لقفص الطيور:

إذا تفحصت عن قرب سلكاً واحداً، فلا يمكنك رؤية أسلاك القفص الأخرى. وإذا كان إدراكك لما هو أمامك تحدده هذه البؤرة البصرية ضعيفة التمييز، سيتركز بصرك على ذلك السلك الواحد وربما تنظر أعلاه وأسفله غير قادر على فهم عدم استطاعة الطائر على التحليق حول السلك حيثما أراد الطيران. زد على ذلك حتـــى لو قمت يومياً بتفحص كل سلك في القفص بهذا النظر ضعيف التمييز، فأنك ستبقى عاجزاً عن إدراك سبب عدم مرور الطائر عبر الأسلاك التـــي ليس لأي منها خاصية مادية. وشيء يمكن أن يكتشفه الفحص الدقيق لمعرفة كيف أن طائراً قادر على الطيران يمكن كبحه أو إيذاءه بسلك مفرد إلا بطريقة عرضية أو مصادفة. إنك عندما تتراجع إلى الوراء فقط وتتوقف عن النظر المجهري للأسلاك، ثم تلقي نظرة شاملة للقفص بأكمله، عند ذلك فقط، يمكنك إدراك سبب تقييد حركة الطيور عن طرق الأقفاص وسيكون بوسعك فهم الأمر في لحظة واحدة، وتتأكد بأن ذلك لا يتطلب حدة ذهن كبيرة. وستجده من الواضح تماماً بأن الطائر محاط بشبكة حواجز منتظمة الترابط، لايعوق أي منها بمفرده طيرانه. ولكن نتيجة لترابط هذه الحواجز فإنها مقيدة للحركة مثل أسوار متينة

لبرج محصن (فراي Frye 1983: 4–5).

يزودنا قفص الطائر بتصوير لكيفية تفاعل الجنس والعرق والطبقة، في الواقع الإجتماعي للقهر والهيمنة. هذه الأبعاد محاكة معاً في نمط معقد التركيب. وهكذا فأن النمط المهيمن للمجتمع التسلطي لا يوجد منفصلاً عن هيمنة العرق والطبقة. وعلى مستوى الواقع الإجتماعي والسياسي في أنماط الهيمنة هذه، يكمل بعضها البعض الآخر وتعمل معاً في أنماط قهر معقدة.

إن وصفنا للمستويات الثلاثة "للعالم الرابع" يكشف الدمار الحاصل الذي لازال النظام الإجتماعي العالمي يلحقه بمجموعات معينة من الأجناس البشرية. ويجب علينا الآن مواجهة دمار أشمل هو جزء لا يتجزأ من المنعطف الإقتصادي. إن العالم الطبيعي وكائنات كوكبنا الأخرى لازالت محل سلب ونهب السوق العالمي الجشع.

التعليم والإنصاف والإختلاف

إن وجود الإختلاف والتنوع ضمن المجتمع الأرضي والمجموعة البشرية هو أمر بديهي. ويصبح هذا الأمر قضية إشكالية لرجال التعليم عندما يتم إدراك قضايا النفوذ الإجتماعي والتعامل معها عبر خطوط الإختلاف. وفي مقالة جدلية دقيقة تربط التنوع الثقافي بالأزمة البيئية، يؤكد (سي. أي. باورز، C. A. Bowers) إن التغييرين الرئيسيين اللذان يهيمنان على المشهد التعليمي/السياسي في العقود المقبلة سيكونان الإدراك المتنامي بالأزمة البيئية والإعتزاز بالهويات الثقافية المتميزة. ويشدد "باورز" في خطابه لرجال التعليم على أن هذين البعدين ليسا متعارضين:

> بينما تبدو هاتان الظاهرتان منفصلتين ومتميزتين، ويتطلبان استجابات مختلفة، فإنهما في الواقع مرتبطين. كلاهما ولأسباب مختلفة يؤشران إلى إنتهاء المفاهيم الضمنية للثقافة الحديثة. إن بقاء ونمو الأنظمة البيئية للأرض تتعرض لتهديد خطير من الممارسات البيئية والمطالب المطردة للموارد التـــي لا يمكن تجديدها والتـــي يعتبرها الإنسان العصري ضرورية. كما أن خرافة النجاح الشخصي التـــي حفزت أجيالاً من البشر على هجر نسيج العلاقات والأنماط التـــي شكلت إرثهم العرقي ودخول الثقافة التنافسية السائدة والشديدة الفردية بدأت تظهر الآن خادعة بشكل متزايد. البطالة وإدمان المخدرات، الإغتراب الثقافي،

الفقر البنيوي، الضغط النفسي والإجهاد والأمراض التـــي يسببها التسمم تمثل الواقع الذي يطمس أسطورة النجاح الشخصي هذه. إن النقائص في صيغة الوعي الحديث هذه يتم الآن معارضتها من أنصار البيئة والمجموعات الساعية إلى إستعادة هوياتها العرقية الأمريكيين الأفارقة والهسبانيين، والأمريكيين الأصليين (السيوكس، النيز، البيرس، الشينيين... إلخ Sioux, Nez, Perce, Cheyenne, etc.). وبمعنـــى آخر فإن الأزمة البيئية وبروز الوعي العرقي تعود أصولها إلى نفس القيم الثقافية المهيمنة والممارسات التـــي تفهم الآن على أنها متزايدة الإشكالية (باورز، Bowers 1993a: 136).

في الجزء الختامي لهذا الفصل، سأقوم بدراسة أربع مجالات للإختلاف يجب التعامل معها في أي تحول تعليمي حاسم لزمننا الحاضر. سيتم بحث الإختلاف هنا ضمن سياق أربع إهتمامات لتحقيق تعليم غير مرتكز على التمييز الجنسي ومسالم وغير عنيف ومناهض للعرقية ومدرك للطبقية. ورغم أهمية مجالات الإختلاف الأخرى، مثلاً، التعليم المحيط بالتوجيه الجنسي، المقدرة وغيرها من المواضيع الهامة فإن دراستنا الراهنة ستركز على الإهتمامات الأربع السابق ذكرها.

التعليم المناهض للعرقية: رغم أن مفهوم الإختلاف العرقي الواضح يفتقر لأي أدلة علمية قوية، إلا أنه يجب علينا مع ذلك الإعتراف بأنه على مستوى الحياة اليومية تعتبر التأثيرات الإجتماعية للتعامل من منطلق موضع "عرقي" غير قابلة للجدل. وتوجد مضامين إجتماعية قوية للعرق مرتكزة خصوصاً على التجارب المعاشة لمجموعات الأقليات في مجتمعات الهيمنة البيضاء. (داي، Dei 1996). وعندما تثار قضية العرق ضمن سياق عواقبها وتأثيراتها الإجتماعية. يتم أحياناً مناقشتها على أساس إستحالة وجود عنصرية عرقية ما لم يكن لديك أعراق. غير أن هذا النقاش لا تؤيده تجربة عدة مجموعات عاشت واقع العرقية كما هي موجودة في العالم اليوم. ويجب على التربويين عدم التغاضي عن الممارسات والمظاهر المؤلمة التـــي يعيشها المتلقي لممارسات التركيبات التـــي تميز الناس على أساس عرقهم الملاحظ. العرقية كعملية إقصاء وتمييز إجتماعي يمكنها التأثير حيوياً في غياب خطوط واضحة لحدود تفصل بين المجموعات العرقية.

العرقية هي نظام إمتياز موجود بين المجموعات البشرية يسمح لمجموعة بإمتلاك نفوذ أولوي ووضع متميز على مجموعة أخرى. ولكي يتم مناقشة ظاهرة العرقية في مجتمعنا

الخاص، يجب أن نفتح نظام الإمتياز الأبيض بأكمله للنقاش. اللون الأبيض وإمتياز البشرة البيضاء في المجتمعات الغربية أمر مسلم به. (داي، Dei 1996). الإمتياز الأبيض تصاحبه مزايا إجتماعية وسياسية وإقتصادية هائلة نظراً لموقع الهيمنة الذي ينتج عن كون الفرد أبيض اللون. ويشكك التعليم المناهض للعرقية اليوم في "الإمتياز الأبيض" والفكر الذي يدعمه. ويمكن لهذا الإعتراض أن يكون نقطة دخول للبيض ليشاركوننا النقاش حول قضايا أثارها التعليم المناهض للعرقية. ويمكن للتربويين البيض الذين يباشرون تعليماً مناهضاً للعرقية طرح الأسئلة التالية: كيف يتم تصوير وتفسير اللون الأبيض في المدارس وكذلك في المجتمع الواسع؟ "ولماذا هذه الهيمنة للثقافة البيضاء التـــي تمتلك من القوة إلى درجة أن بعض الطلبة يساقون إلى الإعتقاد بأنهم كجنس أبيض يشكلون الأغلبية في العالم". (داي، Dei 1996). يحاول التعليم المناهض للعنصرية القيام بأكثر من مجرد التشكيك في الأسس الشاملة للامتياز الأبيض، وتوجد حركة نشطة مؤيدة للمسعى العلمي الذي يسعى لفتح منتدى أو حيزاً للنقاش. ومثلما يصوغ التربوي المناهض للعرقية (جورج داي George Dei 1996: 28) الموضوع قائلاً: "مناهضة العرقية تنادي بخلق مساحات لكل إنسان، خصوصاً الأصوات الهامشية التـــي يجب أن يتم سماعها. ويتطلب هذا من المجموعات المهيمنة في المجتمع سماع أصوات المجموعات الثانوية". وهكذا يجب على التعليم المناهض للعرقية تحديد ووضع مفهوم وملاحظة "الإختلاف" من موقع أولئك الذين يشغلون هوامش المجتمع وعليهم بإستمرار مقاومة هامشيتهم من خلال العمل الجماعي. هذا الأمر يجعل التربوي منهمكاً في مسألة كيفية تدريس الإختلاف في سياق تعليمي تربوي. وها هو "جورج داي" يجازف بطرح التصور التالي لتدريس الإختلاف:

يجب تدريس الإختلاف بطريقة تمكن الناس من إكتساب القوة للعمل الجماعي من أجل التغيير الإنتقالي التحولي وبأسلوب مدرك لقوانا الفردية والجماعية. يجب عدم تدريس الإختلاف بشكل يجعل "الآخر" دخيلاً ومصوراً بطريقة لا تمت للحياة الواقعية بصلة إننا ندرك إختلافاتنا لكي نتعلم من بعضنا البعض وهناك مسألة متصلة بهذا الموضوع تتعلق بالمدى الذي يمكن من التشديد على الإختلافات لمساعدة أو إعاقة سياسات التحول الإجتماعي. ويوجد بعض الشك في أن سياسات السمات المتشابهة يمكنها حجب أشكال الظلم الإجتماعي. في عالم مثالي لا يسعنا إنكار أهمية التواصل على أساس خصائصنا

المشتركة، وفي الواقع، علينا أن نكون رغم كل العوائق قادرين على تصور مجتمع متكامل وسط الإختلاف والتنوع. ومن المهم عدم الخلط بين التنوع والإنشقاق. ومع ذلك، فإن إبراز ووضع الإختلاف بموقع الإمتياز بشكل يؤكد الإنشقاق، ليس من مزايا التنوع. (داي،37 :Dei 1996).

يعترف التعليم المناهض للعرقية بتنوعات وتعقيدات العرقية في عالم اليوم. وهذا يمكننا من فهم "إدوارد سعيد" عندما يلاحظ أنه ليس هناك أحد اليوم منفصل بذاته (أقتبس من داي، Dei 1996). وضمن هذا الوضع المركب علينا التعامل بإستراتيجيات متعددة. ويجب أن يكون لدينا خيارات موظفة في وضع محدد بكيفية تجسد النضال ضد الظلم الإجتماعي. ويقدم (جورج داي، George Dei 1996) في معالجته لهذا التركيب مثالاً يشير فيه إلى أنه بإختيارنا التركيز على مناهضة العرقية السوداء علينا أن لا ننكر النضال ضد الغذاء السامي. وكما يشير، فإنهما شكلان من العرقية يتوجب على النضال المناهض للعرق مواجهتهما. إن مهمتنا هي التمكن من ربط هذين النضالين وكذلك ربط مناهضة العرقية بأشكال أخرى من القهر الإجتماعي والمسائل الإقتصادية والسياسية الأوسع مدى. وبإدراكنا الأمر، يجب على المرء أن يكون واعياً بالتأثيرات الإجتماعية القوية للإقتصاد المعولم على حياة الجماعة البشرية.

إعادة التركيب البنيوي القومي والعالمي في كندا له مضامين عميقة لمجال التعليم ويشاهد هذا بوضوح بالغ في علاقته بالأقليات العرقية والنساء والشباب المعوزين إقتصادياً. هذا الوضع يحرض مجموعة أقلية ضد أخرى. وهنا يكون الإختلاف منشأ للعرقية بين مجموعات الأقليات. (رومن وآير، Roman and Eyre 1997).

وفي مرتبة أخرى مهمة يوجد التشابه المعقد لأبعاد إختلاف أخرى. نظام التعقيد هذا يتطلب منا عند دراستنا للعرقية ضرورة أن يكون ذلك من خلال فهم تكاملي أكثر للممارسات الظالمة وكيفية تشابكها. ويسمي "جورج داي" هذا النمط من التحليل المناهض للعرقية "مناهضة العرقية التكاملية". ويقول "داي":

في هذا السياق إن فهم مناهضة العنصرية التكاملية يقوم على مبدأ أن أشكال القهر العديدة المتشابكة وأن دراسة نظام كالعرقية يتطلب دراسة للطبقة والجنس وعدم المساواة الجنسية والإرهاب البشري... إن الطبيعة المركبة لأعمال القهر. وتبادلية أدوار "القاهر" و"المقهور" في أوضاع مختلفة، يحتم علينا معالجة مناهضة للعنصرية لفهم أعمال القهر الإجتماعي. هذه المعالجة تستقي معلوماتها من معرفة أن

السمات الذاتية الفردية تشكل الإختلاف عن طريق إرتباطها بالعرق، الطبقة، الجنس، العمر، الإعاقة، الجنسية، الدين، اللغة والثقافة. (داي، Dei 1996: 56-7).

دراسة العرقية بأسلوب تكاملي تثير بضع أسئلة مهمة حول عدم المساواة الإجتماعية ويمنع أي محاولة سطحية الفهم لهذه الظواهر معقدة التمازج والإشتباك. وفي عالم يتزايد إندماج شعوبه في مجموعات حيث يكون الإختلاف هو الأمر الطبيعي، فإن التعليم حول قضايا مناهضة العنصرية سيكتسب أهمية متزايدة.

التعليم المحايد جنسياً: كما تمت مناقشة التعليم المناهض للعرقية، يجب أن تتم رؤية موضوع علاقات الجنس المذكر والمؤنث في المحيط التعليمي في سياق متكامل. على مستوى الحياة اليومية يتم التعايش مع علاقات الجنس المذكر والمؤنث من قبل أفراد ضمن محيط العرق والخلفية العرقية الثقافية والطبقة والعمر والمقدرة والتوجه الجنسي. وذلك ما يجعل الأمر أساسياً من البداية لتعليم التعميمات البسيطة عن الرجال والنساء ودراسة المحيط المحدد الذي تترسخ فيه تجاربهم الحياتية. إن التمييز الجنسي هو تأسيس رسخه تميز جنس على آخر. وفي سياق التعليم المعاصر، يمكننا الحديث بدون مداراة عن "الإمتياز الذكري". إن إعطاء الأولوية للإمتياز الذكري موجود ضمن مؤسسات المجتمع الأبوي التـــي سبق أن تفحصناها في هذا الفصل. وينظر إليه المجتمع الأبوي على أنه تأسيس الهيمنة الذكرية في تركيبات عمودية للسلطة الهرمية. وفي داخل المؤسسات التعليمية، تعطي الأولوية لتدريس وتعلم أنماط أكثر إرتباطاً بتجربة الطبقة الوسطى الذكرية البيضاء. وغالباً ما يتجاهل هذا الإمتياز إيجابيات الفتيات والنساء في منهج الدراسة. وإضافة إلى ذلك، فإن مهارات النساء لا يتم الإعتراف بها ومكافئتها لا في التعليم ولا في المحيط الإجتماعي الأوسع. ويمارس الإمتياز الذكري نفوذه ضمن المؤسسات التعليمية عندما تحصل النساء على مرتبات أقل نفوذاً ومسؤولية مع أنهن بنفس تعليم ومهارات الرجال. ونرى أيضاً، فيما يتعلق بالنساء، أن الأعمال التـــي توظف عدداً كبيراً من النساء تدفع لهن مرتبات أقل لنفس الأعمال والمهارات التـــي يحصل بموجبها الرجال على مرتبات أكبر. التمييز الجنسي هو من أكبر العوائق التـــي تعرقل نجاح الإنجاز. وبسبب الملاحظات المستمرة بأن الإنجاز الأكاديمي ليس أنثوياً، فإن الشابات والنساء لايصلن إلى أعلى مستويات الإنجاز ولا زلنا أيضاً نرى فروقات كبيرة في نسب التسجيل والمشاركة

في بعض حقول الدراسة، التـي أبرزها، الهندسة، العلوم التطبيقية، التقنيات والتجارة التـي هي مجالات يكاد الرجال أن يهيمنوا عليها بالكامل (أس. ولف، S. Wolf 1994). إن عملية إنتقال تعليمي تحولي حاسمة يجب أن تقتحم وتتغلب على مشاكل عدم المساواة التـي تقرها المؤسسات التعليمية التقليدية. إن هذا هو أحد أبعاد تعليم لا يقوم على التمييز الجنسي في توجهاته.

مجال رئيسي آخر يجب علي التعليم التحولي الحاسم المحايد جنسياً دراسته وهو العنف الذي يعم مؤسسات تهيئ الطلبة إجتماعياً في ثقافة ذكور. وكما سبق لنا أن ناقشنا، فإن النساء والأطفال هم ضحية لهذا العنف على مستوى مروع. إن واحد من أخطر أعمال العنف في نظام المدرسة الحديثة هو التحرش الجنسي وغالباً ما تتم معاملة هذا النمط من عنف الذكور داخل المدرسة على أنه غير مؤذ. "الصبيان سيبقون صبياناً" هي عبارة تسمع دائماً وعادة ما تستعمل كعذر للتحرش الجنسي (إس وولف، S. Wolf 1994).

وعندما يكون المجتمع الأبوي هو القاعدة. فإن قمة الهرمية هي بيضاء ذكرية سوية الجنس. كل ضروب العنف والإنتقاء يتم تنفيذها ضمن التركيبات المعيارية للمجتمع الأبوي. وضمن معايير المجتمع الأبوي، هناك إرتباط عال بين المنصب والحيثية الجنسية وتفضيل الذكور وهذا تجيزه الثقافة عبر مؤسساتها السياسية والإقتصادية والدينية والتعليمية. إن مؤسسات المجتمع الأبوي، مثل أي تشكيلات إجتماعية بالغة العنف، تجمع العنف البنيوي والثقافي المباشر في مثلث متوحش شرس. المجتمع الأبوي ليس فقط تركيبة مؤسساتية تحمي إمتياز الذكور. إنه يصلح أيضاً كمؤسسة تشريع وإجازة لإرتكاب العنف الذكري. ولكي تتم دراسة إنتشار التسلط يجب أن يكون هناك استكشاف متعمق لكيفية عمل الهيمنة والتبعية على مدى خطوط الحيثية الجنسية. يجب أن يكون هناك تمحيص عميق ودراسة مستفيضة لخلفيات العوامل الثقافية المؤدية لعنف الذكور وهيمنتهم على النساء. إن مؤسسات المجتمع الأبوي يتم تحديها الآن من قبل الحركات النسائية وهزت منفذ نحو تغيير ضروري طال إنتظاره. وليكون التغيير في هذا المجال فعالاً يجب أن يبدأ، رجال في ثقافتنا توصلوا إلى إدراك آثار كره النساء والإمتياز الذكري وكيف يعملان في غير صالح كل من الرجال والنساء. ما نحتاجه هو تعليم يتحدى إمتياز الذكر ولكن يعطينا أيضاً تصوراً لمشاركة بين الأجناس أساسها الإنصاف

الفعلي. إن أحدث دراسة (لراين إسلير وديفيد لوي Riane Eisler and David Loye) في كتاب (طريق المشاركة، *The Partnership Way 1990*) وورش عمل "القوى المحركة الجديدة" المستوحاة من دراسة "كارول بيرس وشركائها" هي معالجات ذات إيحاءات تؤدي إلى الإنصاف الفعلي بين الأجناس. (بيرس، Pierce 1994). وإجمالاً لما سبق، يجب على التعليم المحايد جنسياً معاينة عدم الإنصاف الجنسي على كل مستويات الحياة الإجتماعية. إن تصدعاً في سيطرة ونفوذ المجتمع الأبوي سيساعدنا على صياغة تصور لنمط من التعليم حيث الإنصاف هو القاعدة أكثر من كونه الغاية.

التعليم والطبقة الإجتماعية في سياق العولمة

لقد سبق وأن قمنا بطرح بعض الملاحظات التمهيدية بخصوص الطبقة الإجتماعية واعتبرناها بعداً مكملاً للإختلاف يصاحبها التمييز العرقي والحيثية الجنسية. إننـــي أود الآن مناقشة بعض القضايا التعليمية التـــي تتصل بالطبقة في إطار من العمل التحولي الحاسم. لقد علمتنا التجربة صعوبة دراسة قضايا الطبقة في السياقي التربوي التعليمي. وكما يؤكد (بيل هوكس، bell hooks 1994) فإن الأوساط التعليمية هي الأكثر سكوتاً عن الحقائق المتعلقة بالفوارق الطبقية. إننا نرى صمتاً بالغ الوضوح ومقاومة بالغة العنف لمعالجة قضايا الطبقة على مستوى كل المجتمعات الديمقراطية الغربية. (Aronowitz and Giroux 1993; Bourdieu and Passeron 1997; Bowles and Gintis 1976; Dale and Esland 1976). ونشاهد ضمن المجتمع الأمريكي الشمالي إدراكاً لا يمت للواقع بصلة شعار المدرسة للجميع بالتساوي. نحن نعلم بأنه على مستوى التشريع والممارسة اليومية، تقوم النظم التعليمية بتصنيف إجتماعي على مدى خطوط الحيثية الجنسية والعرقية والطبقية. ويحجب الفكر الليبرالي الغربـــي الطبيعة القهرية لمؤسساتنا التعليمية. لقد حدث خلال العشرين سنة الأخيرة تطوراً في مجال التربية والتعليم يصنف النظم المعقدة للقهر والتسلط. وظهر كذلك تطويراً أكثر بعداً لمنظور نقدي يثير بطريقة منظمة قضايا السيطرة، مثل الطبقة الإجتماعية في السياقات التربوية والتعليمية. لقد بنـــي هذا التطوير أساساً على دراسات قام بها (باولو فرير، Paulo Freire 1970) وهي دراسات متميزة عن القهر والتسلط في التدريس

(كولنــزر، وليفينغستون Collins 1995; Livingstone 1987). لقد أشرت سابقاً إلى أن قضية الطبقة قد إكتسبت معنــى جديداً في سياق الإقتصاد المعولم. والتعليم في وضعنا الحالي المرتبط بالعولمة قد عاد أدراجه إلى مهمة تدريب قوة العمل المستقبلية. حدث هذا بعد سنوات من الإهمال إكتشفت فيها الحكومات والمشاريع التجارية أهمية التدريب. إن المؤسسات التعليمية تتعرض لتعنيف وعقاب الحكومات والمؤسسات التجارية بسبب أدائها الضعيف في تدريب الطلاب على دخول السوق الوظيفي العالمي (جيم تيرك، Jim Turk 1992). ويلاحظ مدير التعليم في إتحاد العمال بأنتاريو بأن التعليم والتدريب هما سبب أقل من كونهما نتيجة لقرارات إقتصادية. ويؤكد بأن التشديد على التعليم والتدريب يحتمل أن يكون أكثر شيوعاً في إقتصاد نشط ومحول إلى التصنيع بالكامل أكثر من كون ذلك التركيز عاملاً مساعداً على إحداث هذا النوع من الإقتصاد الفاعل.

فإنه ومن الضروري تحديد موقع الطبقة الإجتماعية من خلال منظور نقدي يعتقد بإعادة تركيب الرأسمالية المطلقة العنان في إطار عمل إقتصادي عالمي. وينتهج التربوي الاسترالي (غرف فولي، Griff Foley 1993) إطار العمل النقدي الذي أقوم أنا بإقتراحه على كل من المستويين "العيانــي" و"المجهري" ويقترح "فولي" على المستوى العيانــي أن نتفحص السياسة التعليمية التــي تقودها عملية العولمة. ويجادل "فولي" بأن عولمة الإنتاج قد حولت دولة الرفاهية والخدمة الإجتماعية المنظمة إلى دولة تنافسية. إن ما يراه "فولي" يحدث في التحرك نحو دولة تنافسية هو تحول التعليم من حق للمواطن إلى أداة سياسية إقتصادية. وعلى المستوى المجهري ينظر إلى الناس على أنهم أدوات إنتاج يتم تقييمهم من خلال مستويات تدريبهم لأجل تحقيق حاجات السوق. ويرى "فولي" حاجة ماسة إلى معالجة تعليمية تربوية جذرية من شأنها أن تساعد المتعلمين على الإبتعاد عن التكوين "التقنــي" المسيطر ولإعادة تركيب العملية التعليمية بكيفية تمكننا من الإنتباه إلى ما يعانيه واقعياً جماعات العمال والعاطلين عن الشغل وما يتعلمونه خلال عملية إعادة التنظيم الرأسمالي. إن تعليماً نقدياً مصاغاً ضمن منظور طبقي يجب أن يتحرك في الإتجاه الذي يستعرض بوضوح نتائج إعادة التركيب الإقتصادي. ويجب تطوير هذا التعليم ضمن سياقات محلية ودولية ينتج عنها إستراتيجيات مضادة وفعالة تتبنــى كيفية إعاقة العولمة وإعادة التركيب بما يحقق مجتمعاً

عادلاً ونـــزيهاً. يذكرنا "فولي" بأن الرأسمالية التـــي بنيت على إستغلال الأفراد القلائل للغالبية العظمى هي متعارضة تماماً مع الصالح العام. ويجب أن ندرك أيضاً بأنه لن يكون هناك إصلاح حقيقي طويل المدى من قبل الرأسمالية للصالح العام أو مصلحة الأغلبية. ويذكرنا "فولي" كذلك، بأن نتأمل تجربتنا خلال الثمانينيات عندما كانت الرأسمالية في صلبها غير مستقرة ومتصدعة. وتستعيد الرأسمالية قواها وتخرج من أزمتها المرحلية بتكثيف إستغلال العمال. ويثير "فولي" مجدداً السؤال المطروح "بجانب من تقف أنت في الوقت الحاضر؟" ويكتب متحدياً التربويين الراشدين باستفسار مفاده:

هل سنختار نحن التربويين الراشدين العمل مع ولأجل رأس المال؟ أو عن طريق تكييف أنفسنا بكثافة لأي نوع من مؤهلات. أو بمقاومة شفوية منمقة للغة وتقنيات إعادة تركيب مكان عمل تسيره بوضوح مصالح رأس المال. أو هل سنتولى المهمة الأكثر صعوبة وهي الكفاح لتطوير صيغ من التعليم والتربية تخدم فعلياً مصالح العاملين؟" فولي، Foley 1993: 4).

وفي عهد العولمة بزخارفها وعباراتها المنمقة، نحن معرضون لأن نعتبر سذجاً اكتسابنا موقعاً مضاداً لسيطرة أصوات إعادة البناء الرأسمالي. ويجب علينا توضيح وإثبات أننا تربويين نقديين ولسنا سذجاً. إن تعليماً نقدياً مدركاً للطبقة الإجتماعية يجب أن يفحص بدقة كيف أن الإقتصاد العالمي للتجارة الدولية هو السبب الأساسي للإنحدار المطرد لأي عمل مثمر بكل أرجاء العالم. (جيرمي ريفكن Jeremy Rifkin) نهاية العمل، 1995 *The End of Work* يعرج على الإرتفاع العالمي في معدل البطالة الذي هو في أعلى مستوى له منذ الكساد الإقتصادي الكبير لسنوات الثلاثينيات. ويشير (ريفكن Rifkin) إلى أن عدد من يعملون بشكل غير مستقر أو بدون عمل إطلاقاً، يتصاعد بشكل حاد. بينما يجد ملايين الداخلين الجدد إلى القوة العاملة أنفسهم ضحايا ثورة التقنية المتطورة يومياً. ويلاحظ "ريفكن" كذلك بأن الحواسيب المتطورة وعلم صناعة الإنسان الآلي والإتصالات عن بعد والتقنيات بالغة التطور تكاد تحل محل البشر في كل المهن والقطاعات، بدءاً بالتصنيع والبيع بالتجزئة والخدمات المالية وإنتهاءً بالنقل والزراعة والخدمات الحكومية. ويضيف "ريفكن" قائلاً، إن عدة وظائف تم استبدالها ولن ترجع أبداً. إن العمال البدويين والسكرتيرات وموظفي الإستقبال وموظفي المكاتب وموظفي البيع في المحلات والصرافين بالبنوك والعاملين بمراكز

تحويل الهواتف وأمناء المكاتب والبائعين بالجملة ورؤساء الأقسام، جميعهم جزء من قوة عاملة إقتصادية أقدم عليها العهد الجديد وهي في طريقها الآن إلى الإنقراض. ورغم استحداث بعض الوظائف الجديدة فهي جميعها متدنية الدخل وعادة ما تكون توظيفاً مؤقتاً. يوجد إتجاه قوي إلى تقسيم القوة العاملة العالمية المعاصرة إلى قوتين يكون تعارضهما إحتمالاً قائماً، القوة العاملة الأولى هي نخبة معلومات تتحكم وتدبر الإقتصاد العالمي معقد التقنية، والأخرى هي الأعداد المتزايدة من العمال الذين تم إستبدالهم بالتقنية والإستغناء عنهم بصورة دائمة وأملهم ضئيل في إحتمالات توظيف هادف في عالم يزداد تشغيله آلياً.

ويشير (ريتشارد بارنت، Richard Barnet 1993) إلى أزمة الوظائف هذه، على أنها ميدان يتم فيه إثارة بعض أكثر الأسئلة جوهرية حول الوجود البشري. ويتوقع "ريتشارد" أن هناك كمّاً هائلاً من العمل ينتظر أن ينجزه البشر. منها بناء أماكن ملائمة للسكن، استكشاف الكون، جعل المدن أقل خطراً، تعليم البشر لبعضهم، تربية أطفالنا، التزاور، المؤاساة، شفاء الأمراض، إطعام بعضنا البعض، الرقص، تأليف الموسيقى، حكاية القصص، إختراع الأشياء وحكم أنفسنا. ولكن الكثير من النشاط الأساسي الذي تولاه الناس دائماً كتربية وتعليم عائلاتنا، الترفيه عن أنفسنا، إمتاع الآخرين، والتقدم بالصالح العام وكل ذلك لا يعتبر أنه وظيفة. وإلى أن نعيد التفكير بالعمل ونقرر ما يفترض على البشر عمله في عصر الآلة وأي مطالب أساسية للبشر يطالبون بها المجتمع بمقتضى تواجدهم فيه، فسوف لن يكون هناك أبداً وظائف كافية.

يشير (بارنت Barnet 1993) و(ريفكن Rifkin 1995) إلى أن بعض عناصر إستراتيجية عالمية لإعادة تنظيم العمل بدأت تتجسم. ويقترح "ريفكن" أن نتخطى وهم إعادة التدريب على وظائف غير موجودة. ويحثنا على البدء بالتفكير بما أوصلنا إلى هذا الحد وكان لا يمكن التفكير فيه وهو إعداد أنفسنا ومؤسساتنا لعالم يلغي تدريجياً التوظيف الجماعي في إنتاج وتسويق البضائع والخدمات. ويطرح "ريفكن" فكرة مفادها أنه علينا البدء بجدية في إعادة تحديد دور الفرد في عالم يقترب من الإستغناء عن العمالة.

إن التربويين في مجالات التعليم الرسمي، التربويين الراشدين في الجامعات بالأماكن غير الرسمية، التربويين في النقابات وأولئك المدافعين عن المشردين والعاطلين عن العمل، يواجهون

قضايا متبطة للعزم في تصديهم لنتائج إعادة التركيب العالمي القاسية والمدمرة. إن التربويين الذين تولوا المهمة الحاسمة للتواجد على حافة إستراتيجيات عالمية جديدة لإعادة تنظيم العمل خارج نطاق إعادة التركيب المدمر الناتج عن العولمة الإقتصادية يجب أن يستجمعوا الشجاعة والخيال لمواجهة هجوم الإنسان على البشرية. وسوف نناقش هذه القضايا بتعمق أكثر في فصل لاحق يهتم بقضايا متصلة "بجودة تعليم الحياة".

تعليم السلام: التعامل مع الصراع والعنف

السلام والصراع كلمتان لا يمكن فهمهما بدون سياق. وعلى نحو متشابه فإن فكرة تعليم سلام إنتقالي يحمل معه أيضاً تعقيداً يتطلب تفكيراً دقيقاً ودراسة شاملة والأجزاء السابقة من هذا الفصل أعطت القارئ إدراكاً لمدى وحجم العنف الذي يبرز في كل مظاهر العالم المعاصر. ورغم أن تعقيدات منظور سلام شامل هي عالم مستقل بذاته، فإن نظرتـــي المحددة لتعليم سلام إنتقالي هي أنه تعليم يتعامل بإبداع مع تعقيدات الصراع والعنف. وهنا مجدداً، سوف نرى أن تعليم السلام ليس إتجاهاً منفصلاً عن المشاغل الأخرى التـــي درسناها، كالعرقية والتمييز الجنسي، تعليم السلام عند تعريفه بهذا المعنـــى، هو تعليم متكامل سوف يهتم بالمجالات المتعددة للحياة الحديثة حيث يلتقي الصراع والعنف (بكمور، Bickmore 1997). ولا أريد الدخول هنا في نقاش شامل لأبعاد تعليم السلام المعقدة، بل تقتصر مهمتـــي هنا في ربط قضايا التربية والتعليم والتعلمّ بالسلام في السياق الأوسع للتعليم التحولي الذي يتم إستعراضه في هذا الكتاب. وسيتم نقاش ثلاثة مواقع أو مجالات للسلام والصراع. وهي العالمي/الكوكبـــي والإقليمي/المحلي والشخصي.

وعلى المستوى الكوكبـــي نلاحظ الصراع والعنف المنتشرين (تم التعرض لهما في الفصل الأول ومن خلال هذا الفصل). وما يجب إدراكه من منظور سلام تعليمي. هي الظروف الخلفية المتوارية التـــي تولد العنف على المستوى الكوكبـــي. وأحد العوامل الرئيسية الذي يعتبر محركاً حقيقياً جداً للعنف هو مركزية الإنسان التـــي تفترض بأن الإنسان هو غاية الكون القصوى. إن مركزية الإنسان هذه، هي إدراك مبالغ فيه، حيث يعطي لنفسه الأولوية في الأهمية مقابل الإستخفاف بدور وقيمة كل الكائنات الأخرى. وهذا الإدراك الخاطئ

الذي يوجه العالم هو دليل آخر على وجود ثقافة مهيمنة. وتوجد رغبة عميقة في جوهر الثقافة العلمية الغربية لممارسة الهيمنة والتحكم بكل العمليات الطبيعية. ويجب الإقرار في نقاشنا الحالي بأنه لا يمكن وصف كل الثقافات البشرية بأنها متمركزة حول الإنسان. ويبدو أن معظم الثقافات التقليدية والقبلية تمارس علاقة حميمة جداً مع العالم الطبيعي والكائنات الأخرى. هذه الثقافات تتميز أيضاً بعلاقاتها الحميمة مع الكون كله.

وتبدو الثقافة الغربية مختلفة جداً عن الثقافات التقليدية فيما يخص الإحساس بالألفة مع الكون والعالم الطبيعي. وضمن الخرافات الثقافية الغربية يمثل العالم الطبيعي مجالاً يستوجب ترويضه. وبنـــي هذا الترويض على علاقة مناوئة ومعادية للطبيعة. ويصف (فريدرك تيرنر، Frederick Turner 1980) هذه العلاقة بمقولته الشهيرة "الروح الغربية ضد البرية" ويؤكد كل من (براين سويم وتوامس بيري، Brian Swimme and Thomas Berry 1992) على أن إحتياجات البقاء التعليمي لوقتنا الراهن تتطلب ترحالاً لبناء علاقة ألفة مع العالم الطبيعي والكون كله. ولقد حقق العرف التعليمي التربوي الغربـــي النقيض المحوري للألفة. وفي الحقيقة تمثل رحلتنا التربوية إمعان في الإغتراب. لقد تم تعليمنا على أن نرى أنفسنا منفصلين عن العالم. وعندما نتحدث عن وجودنا، فإننا نعتبره منفصلاً عن الكون والعالم الطبيعي. وإدراكنا لهذه الحقائق هو الذي سيقودنا إلى التحرر من الأوهام التـــي تحدثنا عنها سابقاً. وإستناداً إلى رؤية الثقافة الغربية، فإن الضمير الإنسانـــي يكون واعياً ما دام يعتقد بأنه منفصل عن الكون والعالم الطبيعي. وعندما يتأمل المرء رؤية التفكير الغربـــي إلى العالم، فإنه يشاهد العالم خارج نطاق إدراكه ويراه صامتاً وساكناً، إضافة إلى أنه مادة ميتة يتلاعب ويتحكم بها حسب هواه، وأنه مكان يمكن التصرف فيه دون قيد أو شرط حسب الإحتياجات والإختيارات. والألفة الوحيدة ضمن هذه الرؤية للعالم هي الألفة الإنسانية. وهانحن محتجزين بذلك في المركزية الإنسانية. حيث يكون الصوت الآخر الوحيد إضافة لصوتنا هو الصوت البشري، حيث تكون كل مظاهر العالم الطبيعي، عدا الإنسان، في حالة صمت مطبق. نتصور ذلك لأننا نرى الكون خارج نطاق الإنسان وعلى أنه لا صوت له. وما ينتج عن ذلك هو عدم مقدرتنا على تكوين علاقة ألفة مع العالم الطبيعي. نحن غير مدركين بأننا نعيش بشكل سطحي. وهذا جزء من عجرفة التربية الغربية. إننا نعتبر الثقافات

التـــي تمارس علاقة ألفة مع العالم خارج نطاق الإدراك البشري على أنها بدائية ومتخلفة. ويؤكد ذلك بوضوح معاملتنا للسكان الأصليين. إن علاقتهم الحميمة بالعالم الطبيعي وتقاربهم ومحافظتهم على الحيوان والنبات يعتبرها الغرب تخلفاً حسب النعرات العنصرية. إن ما أخفقنا في إدراكه في العرف العلمي الغربـــي الحديث هو ضعف قدرتنا الشديد على التواصل مع العالم خارج نطاق الإنسان. لقد دربنا عرف التعليم الغربـــي على أن نرى العالم البشري فقط. ونراه كفاعل فعال. ولكن ماذا لو أن الكون، ما هو إلا تواصل أسباب فاعلة وليس مجموعة من الأشياء التـــي يقع عليها الفعل؟ (سويم وبيري Swimme and Berry 1992).

الموطن والتنوع: ما هي عواقب هذه التوجهات نحو العالم الطبيعي؟ ولنتفحص أولاً المعانـــي المتضمنة والواضحة الناتجة عن تدمير الموطن. وبحسب ما هو معروف حتـــى الآن. إن كوكبنا هو الأخضر الوحيد في هذا الكون. ونحن ككائنات متورطون في تدمير الإرث الغنـــي لبنية الأرض منذ ظهورنا عليها، مما سوف يفقر بدرجة كبيرة غطاء الأرض الأخضر وفي زمن جيولوجي قصير وقياسي (مايرز، Myers 1984). وبنهاية القرن العشرين يحتمل أن تتسع الصحاري بمقدار ثلثين كاملين وسنكون قد قضينا على ثلث غاباتنا الإستوائية على الأقل. إننا نبدو على حافة تدمير موروثنا من الشعب المرجانية، الشجر الإستوائي، مصبات الأنهار وأراضي المستنقعات. وبذريعة الرخاء البشري سنقتلع ونقطع ونستنـــزف ونسمم بحجة تطوير أراضي أخرى قيمة. هذه الوقائع ليست "أعمالاً إلهية" ولكنها نتيجة حيل البشر وخداعهم. ومنشؤها الضغوط المتعددة ضمن المجتمع البشري. يقابل الفقر في جزء من العالم جشع إستهلاكي في مكان آخر منه. ولتلبية تعقيد الإحتياجات البشرية في مجتمعنا المعاصر، قمنا بمغامرة الدخول إلى منـــزلق الإستغلال المفرط لموطننا الطبيعي. وتشير نتائج البحوث العلمية الآن إلى أنه عند إزالة بعض الغابات الإستوائية فإنها لا تعود إلى النمو بسرعة. وبإختفاء غطاء التربة وفقدان المغذيات الحيوية المخزونة لا يمكن أن تتجدد الغابة. والتصحر لا يمكن إلغاؤه أو أنه يسبب خسائر بالغة. إن ما يتعرض للخطر هو أكثر بكثير مما نظنه ممكناً. وعلى سبيل المثال، إنه عندما ندمر قطاعات معينة من المجال الحيوي وأبرزها الغابات

الإستوائية والشعب المرجانية وأنظمة أراضي المستنقعات البيئية بمقتضى ثرائها الحيوي وتعقيداتها البيئية التـــي تعتبر مصادر مؤثرة على عملية الإرتقاء، فإننا إذاً، نفقر المسار المستقبلي للإرتقاء (مايرز، Myers 1984). وفي حالة الغابات الإستوائية تحديداً، التـــي تحتوي على مقادير متفاوتة من التنوع الحيوي للأرض. فإن قلقاً دراميًا شديداً يسود أوساط المهتمين بالبيئة بخصوص الإنقراض الجماعي لبعض الكائنات. إن التدمير المتوحش والإقتلاع الكثيف للغابات الإستوائية من قبل المستوطنين الباحثين عن أرض للحرث والإستغلال والإقتلاع التجاري لأشجار الخشب والإحتياجات المنـــزلية وبناء المساكن قد يسبب بصورة مباشرة في إنقراض خمس إجمالي فصائل النبات والحيوانات عن طريق تدمير موطنها (وولف، Wolf 1988). إن الرثاء العميق يعبر عنه (جون راين John Ryan) في مقالة قصائدية عن التنوع البيولوجي *ونشرها معهد مراقبة العالم سنة 1992.*

بدرجة من التعقيد تستحيل على الفهم وبدرجة من الأهمية لا يمكن تقديرها أو قياسها، يشكل التنوع البيولوجي كل أنواع وأنماط الحياة على الأرض. ولا أحد يعرف ولو على وجه التقريب، عدد أشكال الحياة التـــي تتقاسم البشرية معها كوكب الأرض هذا. لقد تم التعرف على 1.4 مليون فصيلة أو نوعاً من الكائنات تقريباً. ويؤمن العلماء الآن بأن الرقم الإجمالي هو ما بين 10 و80 ملايين، أغلبها حيوانات صغيرة مثل الحشرات والرخويات موجودة في بيئات قليلة الاستكشاف مثل الجزء الأعلى المتغصن من الغابة الإستوائية أو قاع المحيط. ولكن الطبيعة تحتفظ بغموضها في أماكن مألوفة كذلك. وحتـــى حفنة ثرية من شرق الولايات المتحدة يحتمل إحتوائها على عدة فصائل وأنواع من الكائنات والحياة يجهلها العلم حتـــى الآن (راين، Ryan 1992: 9).

إننا نقوم بتدمير الفصائل وأنواع الكائنات بدون أن نفهم أبداً أهميتها الحيوية. وهناك تقديرات أنه بحلول سنة 2050 قد ينقرض نصف إجمالي أنواع الحياة الموجودة الآن. (سيجر، Seager 1995). إن الفصائل الأخرى هي مكونات حية لأنظمة بيئية حيوية "أنظمة بيئية" تزود البشرية بخدمات مجانية لا يستغنـــي عنها والتـــي قد يؤدي تدميرها إلى إنهيار الحضارة الإنسانية (أيرلك وأيرلك، Ehrlich and Ehrlich 1981). وفي الوقت الحاضر، أكثر من 90% من كل الفصائل وأنواع الحياة التـــي استوطنت الأرض قد اختفت. لقد انقرضت نتيجة عمليات طبيعية. وعندما بدأ البشر إصطياد الحيوانات للحصول على الغذاء، ولأجل التجارة

والرياضة وأعقب ذلك الإنقراض تمزيق البيئة الطبيعية. وخلال هذه العملية، ارتفعت نسبة الإنقراض إلى حوالي نوع واحد من الحياة كل سنة في القرن العشرين (مايرز، Myers 1984).

وفي الوقت الراهن، عندما يتم تدمير وإفساد البيئات الطبيعية على كل جانب، ترتفع نسبة الإنقراض إلى حوالي نوع واحد في اليوم أو حتـــى أعلى من ذلك. ويقدر أنه بنهاية هذا القرن، يمكن أن نفقد مليون نوع من الحياة. ويبدو الإحتمال واقعياً حيث أنه بحلول منتصف القرن المقبل، ربما يتم فقدان ربع إجمالي الفصائل الحياتية. ما هو مدى وحجم هذه الخسارة؟ ويحاول (نورمان مايرز، Norman Myers 1984: 154) أن يعطينا إحساساً بالمدى الذي يحدث به الإنقراض "إن عملية الإنقراض هذه في حجمها ومداها الزمنـــي المضغوط سوف تشكل كارثة بيولوجية مفاجئة أعظم من أي شيء تمت معايشته منذ بدء الزمن. ستتجاوز عملية الإنقراض بصورة هائلة "الموت العظيم" للديناصورات وماماثلها، والكائنات الحية التـــي رافقتها، منذ 65 مليون سنة مضت، عندما إختفى جزء كبير من الحياة على الأرض. إننا في منعطف سريع متهور من فقدان الفصائل الحياتية مما سيؤدي في آخر الأمر إلى إيقاف مسيرة الإرتقاء نفسها. هذا الأمر يوجزه عالمان يصنفان هذه الخسارة حيث يلاحظان بأن "الموت شيء، ووضع حد للولادة هو شئ آخر" (مايرز، Myers 1984).

وبتقدم مشروع العولمة الإقتصادية يمكننا رؤية أن إنعدام الحساسية لدمار العالم الطبيعي هو موقف قاسٍ. ومعظم الدول القومية الرئيسية متواطئة في هذه العملية التدميرية. وعلى المستوى العالمي، يأتـــي إدراك دمار العالم الطبيعي ومقاومته من مجموعات النساء. اللواتـــي يبدو أنهن معلمات الوعي النقدي في مجالات الدمار البيئي. ويلاحظ (جونـــي سيجر، 1993 Joni Seager) بأن النساء هن تقريباً عماد كل جماعة حركة بيئية حول العالم. ومع بعض الإستثناءات، تشكل النساء حوالي من 60 إلى 80 بالمئة من عضوية أغلب المنظمات البيئية. ونعلم أن هذا أيضاً هو الحال تقريباً في كل مظاهر حفظ السلام في عالمنا المعاصر (سيجر، Seager 1995). وهناك أمثلة محددة جديرة بالملاحظة، كما هو مبين في خلاصة (جونـــي سيجر Joni Seager's 1993) عن أمثلة من أنشطة نساء من كل أنحاء العالم. إن بروز النساء كقيادات ومحفزات للحركة البيئية الجماهيرية هي ظاهرة عالمية:

في الهند وكينيا. ترأس النساء الحركات التـــي تقاوم تدمير الغابات. لقد ساهمت مجموعة تسمى أمهات بحر الآرال في لفت الإنتباه الدولي لكارثة الآرال المختفي في الإتحاد السوفييتـــي السابق. النساء في أوكرانيا وعبر أوربا قمن بمبادرة إجبار حكوماتهن على الإعتراف بخطورة حادث تشرنوفيل النووي ونتائجه. النساء هن في مقدمة كل مجموعة إجتماعية تقريباً في أمريكا وكندا المنظمة لمقاومة النفايات السامة. (Seager 1995: 264).

وبناءاً على الأمثلة التـــي قدمتها، يمكننا توقع أن النساء المنهمكات في قضايا السلام الكوكبـــي سوف يصبحن أمثلة لجهود تعليم السلام. وسوف يشكلن نمطاً جديداً لقيادة ليست محتجزة ضمن التركيبات العنيفة للمجتمع الأبوي.

إن تحويل الإهتمامات بتعليم السلام إلى المستوى الإقليمي/المحلي يفتح عالم صراع وعنف يمتد من أحد أطراف الأرض إلى الطرف الآخر. لقد سبق لنا التوسع في موضوع العنف الممارس على السكان الأصليين. هناك نـــزاعات مركبة بين الشعوب داخل وعبر الدول القومية هناك صراعات عنيفة تؤثر على أجزاء معينة من الكرة الأرضية. إننا نشاهد مناطق نـــزاع في كل الأقاليم. الأمثلة منتشرة عبر العالم. إيرلندا الشمالية، البوسنة، رواندا، ومنطقة أمريكا الوسطى، الجزائر، نيجيريا، وهذه فقط بعض من الأمثلة. صناعة الأسلحة تقوم بتزويد الأسلحة التـــي تقود المنازعات المحلية والإقليمية. وعلى سبيل المثال، بين 1965 ومنتصف الثمانينيات، ازداد إنفاق العالم الثالث العسكري بأسرع مما في البلدان الغربية وشكل حصة أكبر من إجمالي الناتج المحلي، بمعدل أكثر من 4% (*دليل العالم*، *World Guide 1997/1998* [1997]). والخسارة البشرية لكل هذه المنازعات مذهلة. وإحدى نتائج النـــزاعات الإقليمية هي نشوء عدد عالمي مميز من الشعوب الذين يسمون اللاجئين. عبارة اللاجئين لها تعريف محدد في القانون الدولي: "اللاجئ هو شخص، غير قادر أو غير راغب بالرجوع لبلده لأسباب تتعلق بالعرق، الدين، الشعوبية العرقية، عضوية بمجموعة إجتماعية معينة، أو آراء سياسية. لقد إرتفعت أعدادهم من 17 مليون في 1991 إلى أكثر من 27 مليون عند مطلع 1995 (*دليل العالم*، *World Guide 1997/1998* [1997]). وليس هناك قواعد جاهزة لتعليم السلام نظراً لتعقيد الأوضاع المحلية والإقليمية.

يجب أن يتم تعليم السلام وحل النـــزاع وتكييفها يجب أن يتم تكييفها حسب محيط

الإقليم أو الموقع حيث تم بدلهما وأود إعطاء مثالين لجهود تعليم السلام، أحدهما من أمريكا الوسطى والآخر من إيرلندا الشمالية. برنامج تعليم السلام في أمريكا الوسطى آت من دراسة (آبيلاردو برينس كاسترو Abelardo Brenes–Castro 1988; 1996) وزملائه بعنوان "ثقافة السلام والديمقراطية في أمريكا الوسطى". وكان إستجابة لمبادرات الحلول السليمة للنـــزاع في أمريكا الوسطى، وشجعت جامعة السلام في كوستاريكا برنامج تعليم سلام يتعامل مع خصوصية إقليم أمريكا الوسطى. ومنذ 1998، ولا يزال هذا البرنامج منهمكاً في مبادرة تعليم طويلة الأمد تتعامل مع قضايا السلام والإستمرارية ويتم تنفيذها على إقليم أمريكا الوسطى مكثفة الجهود في كوستاريكا، غواتيمالا، هندوراس، السلفادور، نيكاراغوا، بنما، وبيليز، لقد أثمر برنامج "ثقافة السلام" نموذجاً متكافئاً للسلام والديمقراطية والتنمية المستمرة التـــي يتم بدورها في الإقليم وأماكن التعليم غير الرسمي. أنتج هذا البرنامج أكثر من ثلاثين كتاباً مدرسياً وعدة كتب لإرشاد التدريس والمدرسين. هذه الكتب الإرشادية يتم إستعمالها في ورش عمل الإقليم، وخصوصاً من قبل قادة المجتمع والعاملين في الإعلام. وبدأ البرنامج أيضاً بمخاطبة التربويين في نظام المدرسة الرسمي في عدد البلدان في الإقليم. يتعامل كل المشاركين في عملية التدريب مع قضايا مثل الإحتياجات البشرية الأساسية، والحقوق والواجبات، والتطور الشخصي وسياسات الحياة والروح التشاركية. وهناك ورش عمل تتعامل مع قضايا حول الحل السلمي للنـــزاعات، وأساليب اللاعنف التـــي ابتكرها غاندي وتنمية علاقات أكثر توافقاً بين الرجال والنساء. إن مشروع تعليم السلام هذا يحاول دعم المجتمعات الهامشية بإستعمال أساليب غير عنيفة لحل مشاكلها الإقليمية والإقتصادية والسياسية والإجتماعية والشخصية. إحدى الورش تدعي " لأجل صحافة بدون تحيز جنسي". وتتعامل مع النساء والإعلام. هذه الورشة الهامة تأخذ في إعتبارها أن تفسير الإعلام التقليدي للحقيقة هو غالباً ما يكون مبنياً على مبادئ تمييز تسلطية (*Dialogue* [1996]). إن برنامج "فتح ثقافة السلام" يتعامل مع قضايا تعليم السلام بأسلوب شامل ومتكامل.

سوف أورد الآن مثالاً لتعليم السلام في إيرلندا الشمالية يتعامل مع نـــزاع إقليمي ذي طبيعة أكثر تركيزاً وتحديداً. مبادرة برنامج السلام توجد في مقاطعة (أنتريم **Antrim**) في إيرلندا الشمالية في معهد يسمى (كوريميلا **Correymeela**).

الرؤية المبدئية لكوريميلا بدأها قس بروتستانتي، (راي ديفي Ray Davey)، من بلدة (لزبورن Lisborne) إيرلندا الشمالية بدأت وظيفته كراع للأبرشية قسيساً ملحقاً بجامعة بلفاست في منتصف الستينيات. وكان مقيماً في مدينة بلفاست سنة 1968 عندما إندلع الصراع بين البروتستانت والكاثوليك في إيرلندا الشمالية. ولأنه أصبح حساساً جداً للعنف المحيط به في الشمال خلال هذا الوقت، فقد قام بشراء ملكية في جبال أنتزيم الشمالية حيث سمي معهده كوريميلا. ولا يزال كوريميلا على مدى الثلاثين سنة الماضية معهد سلام وعدم عنف مكرس لتعامل نصرانـــي مؤيد لحلول مسالمة وتفاهم بين الكاثوليك والبروتستانت في الشمال. ويتبنـــى هذا المعهد المهم كفكرة أساسية بأن هناك بعداً روحياً للحلول السلمية وغير العنيفة للمنازعات. مدير المعهد الحالي هو (كولين كريج Colin Craig) الذي قص على مسامعي تفاصيل تاريخ كوريميلا وعمله.

لا يزال كوريميلا، على مدى هذه السنوات الثلاثين مصدر إلهام للشباب في شمال إيرلندا متيحاً مجالاً لرؤية جديدة وأمل متواصل في علاقات بروتستانتية كاثوليكية مستقبلية. ومن وجهة نظر معهد كوريميلا هناك ثلاثة عناصر رئيسية للسلام الحفاظ على السلام، إحداث السلام وبناء السلام. حفظ السلام هو شرط أساسي لسلام المجتمع. ونحن بحاجة لقاعدة نعمل من خلالها وهي تبعد العنف المباشر لكي تؤدي عوامل أخرى وظيفتها وتتواجد على الساحة الإجتماعية. وإحداث السلام هو أساساً مهمة سياسية تتعلق بالإنصاف، التنوع، المساواة والعدالة، وأخيراً، هناك بناء السلام الذي هو واقع تواصلي لو أن السلام يمكن إعادة صياغته، سيعنـــي ذلك تأكيد الناس ومعايشتهم للتواصل على نحو إيجابـــي. ويجب أن يقوم ذلك على أساس تجربة الناس اليومية. ويجب أن يتم ذلك من خلال مواجهة قصص بعضنا للبعض الآخر. في ملاحظات (كولين كريج Colin Craig's) يؤكد أنه لا يزال هناك تآكلاً مستمراً لمشاركة المجتمع والشباب في مثل هذه المشاريع. ويبدو أن هناك فقداناً لإحساس مسبق بالمكان والإرتباط مع العوامل التـــي تساعد الشباب على تكريس أنفسهم لحياة مجتمعهم المحلي. ويبدو أنه هناك فقداناً أيضاً للإحساس بحقيقة أن الشباب بوسعهم إحداث إختلاف في الحياة الحالية لمجتمعاتهم. هذا هو واقع "الإغتراب" وفقدان التواصل.

عند التفكير بهذه الحقيقة المعاصرة للشباب والإرتباط، قام فريق كوريميلا بإبتكار برنامج

جديد يسمى "الأوديسة". وهو بخصوص رحلة تم تصميمه آخذاً في الحسبان أن الناس يتوقون لواقع أشمل من المجتمع المحلي، المجتمع الإيرلندي الشمالي والمجتمع الأوربـــي هناك الإحساس بوجود مجتمع كونـــي أوسع الذي يمثله كريج بكتاب (توماس بيري *قصة الكون* Thomas Berry's *Univers Story* 1988) وإنطلاقاً من القاعدة الأساسية بأن "قصة الكون" هي القصة التـــي نشأت عنها كل قصص الثقافات الأخرى، فإن "الأوديسة" هي محاولة لتخيل وخلق برنامج من أربعة أجزاء. المجموعات التـــي تشارك في هذا البرنامج الرباعي الأجزاء يشمل أناساً متنوعين من كل ضروب الحياة في إيرلندا الشمالية ما عدا الآباء الذين لديهم أطفال. وهناك أيضاً توازن كاثوليكي وبروتستانتـــي، قوي ونقابـــي. الجزء الأول من البرنامج هو "بناء القصة". هذا الجزء يستهل "الأوديسة" حيث يحكي الناس حكاياهم الخاصة، قصص موقعهم المحلي، قصص تفردهم. ويبدأ بناء القصة عندما يحاول الناس نسج قصصهم معاً. ومن خلال المناقشات يحاولون بناء قصة مجتمع تعاونـــي قائم على القصص الفردية للمشاركين. وعند نهاية الأسبوع، يطلب من جميع المشاركين حزم بعض الملابس البسيطة وإعداد أنفسهم لرحلة لمدة أسبوع في قارب إيرلندي قديم مصنوع من جلد الحيوان يسمى (*كاراغ Curragh*). ويطلب منهم المشاركة في رحلة بمحاذاة الساحل الشمالي لإيرلندا من لوسولاج رجوعاً إلى شواطئ بالي كاسل حيث يقع معهد كوريميلا. هذه الرحلة مرسومة لتكون عملية تعلم مجردة من الرفاهية تقارب جداً لإحساس المجموعة بالبقاء على قيد الحياة. وهي مرسومة لإعطاء الناس إحساساً بالعمل المرهق ضمن سياق رحلة مضنية. وأثناء هذه الرحلة يلاحظ أن المشاركين يعبرون الحد الفاصل لشمال وجنوب إيرلندا الذي لايلاحظ في المياه الهائجة التـــي لا تتحدث عن الحدود. يتعلم الناس في هذه الرحلة الحياة على مستوى بدائي جداً. وعليهم الإعتماد على بعضهم لإنهاء الرحلة بسلام. ويتم توظيف العديد من الإختلافات الثقافية والدينية الموجودة بين مجموعة مشاركين في مهام الرحلة المستمرة. على الكاثوليكي والبروتستانتـــي مزامنة جهودهما عند إستعمال المجاديف ليتقدما بالقارب إلى الأمام. إن ما يدركه كل المشاركين في هذه الرحلة هو إيقاع الأرض ، إيقاع البحر، وإيقاع الساحل.

عند الإنتهاء من الرحلة، يقدم الجزء الثالث فكرة الخدمة. وهذا يعيدنا إلى فكرة أن هناك

خدمة وارتباط يدين بهما المشاركون لمجتمعاتهم. في الأسبوع الثالث هناك إلتزام عمل متواصل طوال اليوم حيث يتم تقديم العون في الملاجئ، مراكز العناية، وبيوت المسنين. وهناك إرشاد متاح للمشاركين لإعادة الإرتباط بالإلتزام نحو المجتمع.

وأخيراً، في الأسبوع الأخير، هناك التلخيص والإدماج المسمى "تعليم المفاتيح" وهي مفاتيح تمثل المعرفة، الخبرة، الذاتية والمشاركة. ويقوم كل المشاركين بالعمل التكاملي الذي يحاول تجميع التجربة الكلية للأسابيع الماضية. يمثل المفتاح لكل من المشاركين فتح باب لرؤية جديدة. ويكون التشديد على الرؤية في هذه المرحلة عملياً. ويتضمن العمل الإندماجي عملاً بعد البرنامج مستوحي من تجربة "الأوديسة" التـــي تم الإنتهاء منها. ويتم التشديد على رؤية ذات فاعلية للكون.

عندما نتنقل إلى المستوى الشخصي في دراستنا لتعليم السلام فإننا نتحدث عن تركيبات الألفة بالإضافة إلى علاقة المرء بنفسه. إن أبرز مجال يتطلب شكلاً من تعليم السلام هي منطقة الألفة بين الرجال والنساء وتركيبة الألفة العائلية. يتطرق هذا الفصل بالتفصيل للعنف العميق والمنتشر الناشئ عن تركيبات الهيمنة السلطوية وعندما تعمل تركيبة الهيمنة هذه على مستوى العلاقة الحميمة، فإننا نشهد عنفاً منتشراً تكون ضحاياه النساء والأطفال في كل مكان. إن تعليم السلام على مستوى العلاقة الحميمة يجب أن يتعامل مع عنف الذكور. ماهو شخصي وجسمي ليس أمراً خاصاً. كلنا نواجه على مستوى عمومي. تأثيرات عنف الرجال الواقع على النساء والأطفال. ونظراً للمحصلة العمومية لهذا العنف، فمن المناسب التعامل معه على مستوى التدريس العمومي. ونظراً لطبيعة العنف الذي أشرت إليه، فإننا نرى حاجة للتعامل مع هذه القضايا داخل وخارج نطاق المدرسة.

إننا نبدأ في الوقت الحاضر بمشاهدة المدارس تتعامل مع مشكلة التحرش الجنسي. وخلصت إلى أن هذه القضية لا يمكن أبداً فصلها عن قضية الأكثر إنتشاراً وهي مسألة الإنصاف الجنسي في التعليم (لاركن، Larkin 1997) التحرش الجنسي هو إنعكاس للتقليل من قيمة الفتيات التـــي تحدث ضمن وخارج نطاق المحيط التعليمي. ونحن نبدأ أيضاً بمشاهدة تنوع في المعلومات المتوفرة للتربويين. هنا في كندا هناك مواد تعليمية متوفرة على المستويين الإبتدائي والثانوي.

يجب أن يتم التعامل مع الإنصاف الجنسي والتحرش في إطار تعليم السلام (لاركن، Larkin 1997). وهناك عمل كثير يجب إنجازه في مجال العنف الذكري خارج نطاق المدرسة. ويجب أيضاً إعداد السجون، ووكالات الخدمة الإجتماعية ومؤسسات العلاج النفسي للتعامل مع إنتشار المشاكل التـــي يحدثها هذا النمط من العنف.

وبالإضافة للتعامل مع عنف الرجال تجاه النساء والأطفال، علينا أيضاً مواجهة العنف الهائل الذي يرتكبه الرجال ضد بعضهم. يجب أن يكون هناك مساحات تعليمية داخل وخارج المدارس تواجه كره النساء المدمر الناتج عن تكريس دور الذكر في مجتمعنا. وبالنسبة لمعظم الرجال، خصوصاً في فترة شبابهم. هناك حوار قائم بخصوص الذكورة (كوفمن، Kaufman 1997). ويؤكد "مايكل كوفمن" حالة الذعر التـــي تشكل جزءاً من نظام تكييف المجتمع للذكور لتقبل التميز الذكري:

هناك ذعر هائل أن صبياناً آخرين سوف يكشفون المخاوف الشخصية لأي صبـــي". هناك أيضاً الخوف الهائل من السخرية والتعرض للعنف على يد صبيان آخرين. هناك خوف هائل من الذكور الآخرين... وهو ما نسميه الرهاب أو الإرهاب البشري. وطبعاً، فإن إصطلاح الإرهاب البشري يشيع إستعماله أكثر للإشارة إلى خوف أو كراهية اللوطين والسحاقيات والمخنثين. ولا أريد أن يغيب عن نظرنا هذا المعنـــى المحدد والمهم. ولكن أشعر أن هذا الشكل المحدد من الإرهاب البشري الذي يحمله الرجال هو نتيجة خوف أوسع من رجال آخرين والخوف من عدم كونهم "متصفين بالرجولة" في ثقافة تعرف الرجولة بأنها المقدرة على الهيمنة على النساء، والرجال الآخرين. والتحكم بعواطف المرء. وإبراز النـــزعة الجنسية السوية التـــي هي إجبارية في مجتمعنا وليست مفاجأة أنه للعديد من الرجال، خصوصاً في شبابهم. وجود كراهية نشطة للشذوذ الجنسي. (كوفمن Kaufman 1997: 17).

ليست مهمتـــي هنا أن أغوص في عمق تعقيدات برنامج يتعامل مع عنف الرجال، وماهو مهم عند هذا الحد هو أن يدرك القارئ أن أي برنامج مفصل يتعامل مع العنف الذي نواجهه في مجتمعنا سوف يهتم بالضرورة بما يقوم به المجتمع من تكييف للرجال على التعامل العنيف.

الجزء الثالث

الإبـــــــداع

الإبداع في إطار كوني: رؤية تربوية في إطار العلوم الكونية*

ما لم ندرك أن حياتنا مرتبطة بالكون المحيط بنا، فإننا نخاطر بالانهيار والتفتت إلى عوالم صغيرة. ويجب ألاّ نعتقد مخطئين بأننا نعيش ضمن كيانات سياسية الدولة أو القومية، أو أن غايات الحياة الأساسية تقتصر على الحقائق الاقتصادية وأساليب الحياة الاستهلاكية. والحقيقة هي أننا نعيش وسط خضم من الفضاءات بالغة الضخامة والاتساع. إننا متغلغلون بشكل معقد في أعماق دراما كونية عظيمة (سويم، Swimme 1996: 60).

مقدمة وتمهيد

لقد انتهينا لتونا من نقد أساسي جذري لنظم التعليم التقليدية خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، وكنت قد وجهت انتباهكم إلى مخاطر الانهماك في مشاريع تعليمية ليست إلاّ تبنياً لأنشطة السوق الاقتصادي العالمي الجديد، الذي غالباً ما يستغل التقاط صورة للأرض من الفضاء الخارجي شعاراً دعائياً لأنشطة التجارة الدولية. إن التقاط صور للأرض من الفضاء الخارجي أمر غير كاف للحديث عن الأرض بكيفية شمولية. والكرة الأرضية كما يقدمها لنا رجال الأعمال، تولد لدى المرء إحساساً بأن شيئاً ما يتم ربطه بمواضيع أخرى، إما من خلال التجارة أو من خلال رسائل الاتصال البشري. إن بعض الشركات مثل شركة

* "إن الإطار الكوني" المقدَّم في هذا الفصل استُلّ بشكل كثيف من عمل (توماس بيري Th. Berry). التقيت توماس بيري لسنوات عديدة ناقشنا مطولاً رؤيته الكونية التـي بلغت ذروتها في "قصة الكون" (The Universe Story) في الجزء الأخير من هذا الكتاب حبكت أفكاره عن الكون لبناء إطار تربوي. وقمت بذلك بدراسة وتفسير "مبادئه الإثني عشرة" التـي سبقت في شكلها الحديث "قصة الكون".

(أ.ب.م I.B.M) وشركات الهاتف والإبراق الأمريكيتان يزعمان من خلال الدعاية الإعلامية بأنهما يقربان سكان الكرة الأرضية إلى بعضهما البعض من خلال جهودهما المشتركة في تطوير أنظمة الاتصالات. وبتجاوز فكرة أن الأرض ، هي عبارة عن منطقة لمشاريع تجارية، تصبح رؤية كوكبنا هذا، كوحدة واحدة متكاملة ومتنوعة الأشكال كما كانت قبل أن يقطنها البشر. نحن في الواقع مخلوقات كوكبية قبل أن نكون مخلوقات أرضية. إن علاقتنا بالكون كمخلوقات هي أكبر من علاقتنا بالكرة الأرضية وحدها. إن كوكبنا الأرضي يحتل مكانة بارزة في الكون. ونحن في أمس الحاجة إلى وعي كوكبي مدرك يمكننا من تحديد موقعنا ضمن عمليات الخلق الإبداعية التي تضمنتها قصة الكون الغامضة التي تنكشف تدريجياً. نحن لسنا في حاجة إلى وعي عولمي. وهذه العبارة تحتاج منا إلى توضيح وتبرير.

إننا نحتاج إلى نوع فريد من الإبداع لمشاريع اليوم التربوية. إن التعليم التقليدي خلال هذا القرن لم يؤهلنا لمواجهة هذه اللّحظة بكل وعودها ومخاطرها. إن الإقدام البشري كان دائماً محفوفاً بالمخاطر والاضطرابات. وهذا الشأن أصبح احتمالاً أكثر واقعية في الأوقات الراهنة، حيث نلاحظ أن سلوكنا المدمِّر العنيف إضافة إلى قدراتنا الإبداعية الضخمة، أصبحا يكتسحان كافة الشؤون البشرية وجميع أشكال الحياة والوجود على الأرض. إننا نسكن عالماً يصعب علينا كثيراً استيعاب أبعاد قواه. إن هذه القوى هي مصدر وجود التاريخ البشري والتركيبة الأرضية. وليس من المهم فقط بل ومن الضروري أن لا تقهر أي من هذه القوى أي قوة أخرى قهراً مطلقاً وألا تسيطر عليها سيطرة تامة. إن الإشكالية الكبرى التي أفرزتها مسيرة القرون الحديثة، هي السيطرة المتميزة التي حققها الإنسان على كافة القوى الأخرى من خلال التقدم العلمي والتقني. إن السيطرة على قوى العالم الطبيعي خاصة، كانت نتيجتها مختلطة بين الإيجابية والسلبية. لقد كانت مرحلة من الزمن بالغة الأهمية من التاريخ البشري، اتضح خلالها أن إمكانيات الشجاعة والابتكار والقوة قادرة على تحقيق ماكان حلماً بعيد المنال خلال قرون سابقة. إننا نسيطر على القوة النووية ونسافر في الفضاء ونعلم طريقة الشفرة الوراثية، ولكننا أيضاً منخرطين في تدمير قدرة الأرض على مواصلة استيعاب جنسنا البشري وكذلك عالم الحياة الأوسع مدى.

ولسوء الطالع أننا لا ندرك حقيقة ضعفنا ولا عواقب أعمالنا، أو على الأقل، لم يكن

ذلك واضحاً لدينا بعد. ولو كنّا مدركين لذلك لتولد لدينا نوع من التأمُّل، لم يعهده الغربيون لقرون خلت وربما لم نعرفه في السابق على الإطلاق. إن آمال المستقبل البشري وتحسن ظروف الأرض تكمن في الحكمة الناشئة عن هذا التأمل.

وبما أن منطقة الاضطراب الرئيسية هي المحيط الأرضي، فإن أهم دراسة هي تلك التـــي تجري في مجال علم الأحياء والتـــي نتج عنها إدراك عميق للأرض بكاملها على أنها حقيقة عضوية واحدة، حيث تعتمد مكوناتها جميعاً على بعضها البعض وهي متناغمة ومتكاملة في وظائفها الحيوية. إن إدراك تكامل واعتماد مكونات الأرض على بعضها البعض ولد ويولّد صدى مذهلاً عبر القرون ليس فقط من خلال آراء وتجارب (أفلاطون Plato) عن كون الكون كائن واحد متعاضد حيوياً ولكن أيضاً كإعادة تنبيه لتجربة البشر عندما استفاق الضمير لديهم لأول مرة. وبدخولنا مرحلة انتقالية للعلوم البيولوجية، ندخل كذلك إلى عصر جديد للأرض ومرحلة جديدة من التاريخ البشري أيضاً، إنه تفاعل خلاق للقوى المتصارعة من حولنا (سويم، Swimme 1984).

هذه هي لحظات وقفتنا التاريخية. أنها لحظات ثمينة جداً. لحظات يجد فيها التواصل البشري القديم مع العالم الطبيعي تعبيراً جديداً. ويسمى (توماس بيري Thomas Berry 1993) هذه العقود الأخيرة من القرن العشرين بأنها "لحظات تفوق تاريخي". إنه يرى بأن لحظات الخطر المحدق بالبشرية، يمكنها أيضاً أن تكون لحظات فرصة وإبداع. حيث لم يعد بوسعنا الحديث عن نهاية التاريخ كما تقول كل من (إيليا برجوجاين وإزابيلا ستينجر Ilay Prigogine and Isabelle Stengers 1984)، "إنها فقط نهاية القصص". ويمكننا القول، من خلال أوضاعنا الحالية بأننا نعيش بين القصص أي ما بين القصة العصرية وبين قصة أخرى منبلجة لا يستوعب كل تفاصيلها بعد، ولكننا مرغمين على تصورها على الأقل. وهذا هو الجزء "المبدع الخلاق" في الفكرة عن التربية والتعليم التـــي تتحدانا الآن. إنها تتحدانا في أن نعيش ونبقى وفي أن ننتقد أوضاعنا الراهنة المتردية، وتتحدانا في أن نبدع ونتخيل تركيبة جديدة نابضة بالحياة، يكون من شأنها تلبية احتياجاتنا الحيوية.

الوعي الكوكبي: ضرورة إطار كوني

إنه من المحتمل أن تكون الحضارة الغربية الحديثة هي أول الحضارات التـــي تحاول السير دون نظرة واعية للكون. وفي الواقع، وكما رأينا في الفصل الثالث من هذا الكتاب، حدث تحرر كامل من سيطرة المحيط الكونـــي الذي كان سائداً في التقليد الغربـــي. ومن وجهة نظرنا الغربية، كثيراً ما وصفنا ثقافات أخرى بأنها متخلفة لا لشيء إلاّ لامتلاكها نظرة كونية أشمل تركيبات أسطورية. لقد وصفت معظم العلوم الاجتماعية خلال نهاية القرن الماضي، شعوباً بأكملها بأنها متخلفة لأنها كانت تعتقد بالتفسيرات الأسطورية للكون. لقد حقق هذا الاتجاه الغربـــي الناقد أكثر من هدف، فمن وجهة النظر العلمية، ثم إرساء وترسيخ التفوق العلمي الغربـــي على تفكير جميع الثقافات الأخرى المعاصرة. كما أعطى وصف التخلف والبدائية هذا، عذراً مقنعاً للثقافة الأوربية لاستعمار واستيطان البلدان الأخرى (سعيد، Said 1993).

إننا حقيقة، نعيش الآن مرحلة حاسمة من التاريخ يمكن مقارنتها، إن لم تكن أكثر درامية، بالتحول الكبير الذي حدث خلال الانتقال من العصور الوسطى إلى العالم الحديث. نحن الآن في حالة انتقال من مرحلة الحداثة التـــي وصفتها في الفصل الثالث إلى رؤية عالمية جديدة لما بعد الحداثة لا نستطيع رؤية خصائصها بوضوح عند هذه اللحظة. إننـــي أسمي الانتقال الحقيقي إلى مرحلة ما بعد الحداثة بالمرحلة الإيكوزوكية (ecozoic). إن الإطار التعليمي الملائم للانتقال إلى هذه المرحلة الجديدة يجب أن يكون ملهماً وتحولياً وأن يتجاوز بوضوح التوقعات التعليمية التقليدية التـــي رافقتنا لبضعة قرون. إن نقد ما بعد الحداثة "للأسطورة الكبرى" للعولمة، سوف ينظر إليه على أنه أكثر من مجرد التشكيك، أنه نقد يبدو وأنه مشكك، ليس للأساطير القديمة فقط ولكنه نقد يستهدف إعادة بناء جدرية وتشكيل "للأساطير" المقترحة للمستقبل. وترى (دونا هاراوي، Donna Haraway 1991) بأن جميع القصص الكبرى العظيمة تقدم نفسها على أنها قصص حقيقية وهي في الواقع مصادر محتملة للعنف والظلم، ويعتمد جدلها على أن الاختلاف والتنوع الكونـــي يبدو أكثر وضوحاً من التماثل والعمومية من خلال عدسات التحليل النقدي الإجرائي لرؤية المجتمع، إن هذا النمط من الانتقاد يعرضنا لأخطار القيم التـــي لازالت تهدد بتغلغلها في أي من الرؤى الشاملة

الجديدة، بما فيها تلك التـــي سأناقشها في هذا الفصل من الكتاب. إننـــي اختلف مع "هاراوي" في محاولاتـــي الحالية لتقديم رؤية لعلوم كونية، لأننـــي أعتقد بأن الاختلاف سيفهم في النهاية على أنه في إطار أسلوب تكاملي متناغم. وعليه فأنا أعتقد بأن هناك أسباباً متراكمة تجبرنا على المحاولة فيما يسميه (ديفيد غريفن، David Griffin 1988b) رؤية إعادة البناء لما بعد الحداثة. إن هذه الرؤية يجب أن يتم إنجازها بتواضع وانفتاح وشفافية. وفي ضوء العواقب المدمرة للأسطورة الكبرى للسوق العالمي، يصبح من الضروري العمل بحذر وروية من أجل رؤية تكون شاملة في مداها وأهدافها وأهميتها لكي تتمكن من مقاومة ذلك النظام التمثيلي (المونولوجي monological) الشمولي للرؤية السوقية المدمرة. غير أنه وفقاً لتصريحات الفيلسوف (آرن غير Arran Gare) فإن هذه ليست كل الحكاية للمجازفة برؤية جديدة. يقول "جير"

"أنه ليس كافياً للدفاع عن علم كونـــي جديد كبديل للعلم الكونـــي الذي دعم العصر الحديث. إنه من الضروري تكريس هذا الدفاع بطريقة يمكنها التحدي بفاعلية الثقافة المهيمنة حالياً، إن العلوم الكونية الجديدة يتحتم عليها تمكين الناس وتوجيههم وترشيدهم للممارسة الفعلية للحياة اليومية، واستحداث حضارة قابلة للتحمل بيئياً. ولتحقيق ذلك، سيكون من الضروري بعث أسطورة كبرى جديدة، أسطورة جديدة تبنـــى على أسس علم كونـــي ومرتكزة على فلسفة للتغيير (غير، Gare 1995: 139).

وعندما يستخدم "جير" كلمة "العملية" (Process)، فإننـــي أعادلها بمفهومي للرؤية التحولية (الرؤية التـــي ترمي إلى التغيير). ويشير "جير" فضلاً عن ذلك، إلى التناقض الذي ينجم عن فقدان إيماننا في الأساطير الكبرى خاصة والأساطير الأخرى إلى حد ما. إن ما تم استنتاجه من ضياع الإيمان بهذه الأساطير هو أهميتها البالغة في تكوين وتتابع الأشياء والتنظيمات الاجتماعية والمجتمعات. إنه حتـــى في غياب هذه الأساطير لازالت ترشدنا إلى أننا نستطيع أن نعمل فقط عند علمنا بأي نص أو قصص نكون نحن جزء منها. وانطلاقاً من هذه القاعدة يمكننا أن نعلّم ما نستطيع عمله إزاء الأزمات البيئية حيث يتطلب الأمر خلق وابتداع قصص وأساطير تمكن الأفراد ليس فقط من تبنيها المشاركة فيها ولكن أيضاً ليتضح لهم سبب المشكلات الراهنة وكيف ظهرت وكيف يمكن تذليلها والتغلب عليها وما هو

الدور الذي يمكن أن يلعبه الأفراد تجاه حل تلك المشاكل (غير Gare 1995). إن القصص الشخصية والإقليمية الحيوية ستكون ضرورية ولكنها غير كافية لتحقيق ما نصبو إليه من تحول، خاصة ونحن نواجه زخم الرؤية التنافسية الأممية العالمية التـــي تتطلب الكثير من القوة والإرادة لمقارعتها. إننا نحتاج إلى قصص قوية ومركبة كافية لتوجيه الناس نحو سلوك فعَّال قوي قادر على التغلب على مشاكل البيئة وكذلك لمواجهة المشاكل المتعددة التـــي نتجت عن تدمير البيئة. إن الأمر يتطلب هذا النمط من القصص لكي يوضح للناس الإمكانيات المحتملة للتحول وكذلك الدور الذي يمكنهم لعبه في هذا المشروع التحولي. إن هذا المشروع، كما يوضحه "آرن جير" لا يمكن الاستهانة به أو التقليل من شأنه.

يقول "جير": "من أجل قصص فعالة "عاملة" مثل هذه، تكون قادرة على استهواء الناس وجلب اهتمامهم وأخذها مأخذ الجدية، ولكي يعرفوا ويجدوا حياتهم من خلالها ويعيشون طبقاً لرؤاها، لابد وأن تكون مثل هذه القصص قادرة على مجابهة القصص الحالية التـــي يعرِّف الناس أنفسهم من خلالها الآن ويعيشون طبقاً لقراراتها بكيفية هدامة ومدمرة للبيئة. إنه لمن الأهمية بمكان، توضيح كيفية عمل القوة ولماذا يكون الأفراد المسؤولين عن الأزمة البيئية العالمية غير قادرين على الربط بشكل فعال بين حياتهم الخاصة وبين المشاكل البيئية. إن الأسطورة الكبرى الجديدة يجب أن تمكن الناس من إدراك العلاقة بين القصص التـــي يعرِّف الأفراد أنفسهم من خلالها وبين القصص التـــي تكوِّن التركيبات الاجتماعية وتحدد أهدافها. إن مثل هذه التركيبات تمتد لتشمل العائلات والمجتمعات المحلية والمؤسسات والمنظمات المتحركة وصولاً إلى تكوين الأمم والمنظمات العالمية، بل والإنسانية ككل متكامل (غير، Gare 1995: 140).

إن القصة اللاحقة هي الأسطورة الكبرى كما يسردها كل من (توماس بيري وبرين سويم Thomas Berry 1988 and Brian Swimme 1984; 1996) ويجب أن يكون واضحاً لدى الجميع بأن المؤلفين لا يعتقدان من خلال سردهما لقصة الكون بأنها أسطورة نهائية. وفي مناقشات مع "توماس بيري" أوضح بأن قصة الكون لا يمكن أبداً سردها مرة واحدة. الكون نص بدون سياق. وهكذا فإن تنوع سرد القصص للأصول والكون معاً، هي في الواقع قصص متعددة ولكنها في إطار القصة الكبرى. إن القصة الكبرى هي أساس كل القصص التـــي تم سردها عبر العصور. وفي كل عصر من العصور يرتطم الكون بوعي الناس في

اتجاهات فريدة من نوعها. إن الأداء الفريد من نوعه لا يمكن أن يحدث إلاّ في زمننا هذا فقط. إن الأساس العملي (الإمبريقي Empirical) للقصة يجعلها إجبارية على وعي أناس العالم الحديث. والقصة التـــي سأسردها الآن تندرج ضمن سياق علم كونـــي، أشعر جازماً بأنها تواكب ويجب أن تواكب الرؤية التعليمية التـــي تمتلك رؤية كافية للسياق* الكوكبـــي.

قصة الكون

إننـــي عندما أقترح الأداء المتميز الذي قدمه كل من (براين سويم وتوماس بيري، Brian Swimme and Thomas Berry's) في عملهما *"قصة الكون"* ، فإننـــي أقوم بذلك مبدئياً وبشكل احتياطي متواضع. إننـــي أثمن هذه القصة عالياً. إن لها في نفسي عظمة ومهابة سواء على مستوى أهدافها أو أهميتها، ولكنها رغم ذلك ليست "أسطورة كبرى" يمكنها تعويض القصص الأخرى للأصول. وكان هذا الأمر وقد اعترف سويم بذلك عن طيب خاطر عندما ربط عمله بتقاليد المعرفة القديمة. "ربما نأمل أكثر من الممكن بأن العلم نفسه سيصبح من تقاليد الحكمة، ولكن لعلنا بدأنا نشهد خلق علم كونـــي شامل يرتكز على فهمنا المعاصر للكون. ولكنه فهم عميق ومرهف يؤهله للتفاعل بشكل منسجم مع التقاليد الثقافية الأقدم".

إننـــي لا أدعي علماً تاماً بشمولية وتعقيد القصص الأصلية الموجودة. إنها نتاج عمل عدد ضخم من الناس الذين عاشوا ويعيشون على الكوكب. إن اختياري لقصة أصلية محددة للدراسة والتمحيص يجب أن يفهم في ضوء الموقع المكانـــي الذي أشغله. إن منحتـــي الدراسية باهظة التكاليف حسب التقديرات والتقاليد الغربية. إننـــي لا أريد أن أكون منبوذاً بسبب الموقع المكانـــي الذي أشغله. وفي كل الأحوال، أترك للقارئ حرية تقييم فيما إذا

---

* عندما كان هذا العمل في طريقه إلى الطباعة، صادف وأن اطلعت على عمل (دونلد، وأوليفر وكاثالين وولدرون جيرشمن، Donald W. Oliver and Kathleen Waldron Gershman 1989) الذي يقدم رؤية تهتم جداً بالعلوم الكونية. وكان هذا العمل مستوحى من الفلسفة العملية التقدمية المنسوبة إلى (ألفرد نورث وايتهيد Alfred North Whitehead). وبالرغم من أن نقطة تدخلي تختلف عنهم، فإن آرائنا جميعاً تتحرك في نفس الاتجاه الذي أقوم باقتراحه هنا. ولا بأس في ذلك ، فتنموا الآلاف من ورود وأزهار العلوم الكونية.

كنت قد شغلت مكانـــي بكيفية نقدية تأملية. وكونـــي قلت ذلك فإن عملي مبنـــي على أعمال كل من (سويم وبيري Swimme and Berry's 1992) الموضح في "قصة الكون" والذي شكل نقطة دخولي إلى سياق علم كونـــي أكثر شمولية واتساعاً. لقد اكتشفت أن نقطة الدخول هذه قد فتحت منظومة من المعانـــي الواسعة التـــي أطمح أن أجد لها سياقاً كوكبياً عضوياً من شأنه أن يدفع بالمساعي التعليمية لكي تتجاوز الرؤية الضيقة للسوق العالمية، إن القصة التـــي سوف نستخلصها قريباً، كانت قد استوحت من بعض الأعمال الحديثة في علوم الفلك والفيزياء والتاريخ الثقافي. والجدير ذكره في هذا الصدد هو أنها تتمحور ضمن منظور علمي غربـــي. وللتأكد من ذلك، فيمكننا مراجعة الحقيقة التـــي مفادها، وجود طريقة واحدة فقط لسرد قصة الكون. إن اختياري للتوجه الكوزمولوجي "علوم الكونيات" لا يلغي إطلاقاً، الروايات الأخرى لقصة الكون. ولابدَّ من التشديد على الإحساس بالتعددية والتنوع عندما ننخرط في سرد قصصي شامل. ويمكن للقارئ أن يجد عدداً قليلاً من الأمثلة المقترحة ذات الأهمية الكافية لقراءتها.

قد يجد القارئ عمل (اليزابيث سوهاتورس Elisabet Sahtouris's Gaia) *الرحلة البشرية من الفوضى الشاملة إلى الكون* *Human Journey From Chaos to Cosmos* 1989 أو المؤرخ كندي الأصل جورجس سيوي Georges Sioui في عمله التاريخ الذاتـــي الأمريكي الهندي، *Amerindian Autohistory* (1992) ويمكن للقارئ أيضاً أن يشارك في الحوار النابض بالحيوية الذي يجري حالياً بين شيوخ السكان الأصليين في أمريكا وبين علماء الفيزياء المعاصرين. وعلى سبيل المثال، لاحظ أحد الفيزيائيين المعاصرين من الذين عملوا مع (ألبرت انشتاين Albert Einstein) أن العديد من اللغات الأصلية لأمريكا الشمالية تحتوي في تركيباتها وفي إمكانياتها التعبيرية على إدراك للمنظور الكونـــي لمرحلة ما بعد "انشتاين" ماعجزت عن إدراكه غالباً (روس، Ross 1996).

وأخذاً في الاعتبار الإدراك والتفهم السابق، فإن هذا الفصل سيعمل على وصف وتلخيص الخصائص كما قدمها (بيري Berry's 1988; 1989). وفي أعماله العديدة المستقلة، إضافة إلى العمل المشترك بين (سويم وبيري، Swimme and Berry's 1992). تكون نقطة انطلاقي في الدراسة بنظرة كوزمولوجية (علوم الكونيات) من خلال تفسير ودراسة "المبادئ الإثنـــي

عشر لفهم الكون" التـــي قدمها من أجل فهم الكون (بيري، Berry 1989). هذه المبادئ هي دليل النشوء والتطور الديناميكي في حياة الكون وكوكب الأرض والتطور والارتقاء داخل وفيما بين السلالات البشرية Species Human خلال عمليات النشوء والتطور والارتقاء. وهذه المبادئ الإثنـــى عشر هي كما يلي:

المبادئ

1. إن الكون في امتداده الكلي في الفضاء وسلسلة تحولاته في الزمن يمكن فهمه بكيفية أفضل، إذا نظرنا إليه "كقصة" وللمرة الأولى كانت لدينا قصة خلال القرن العشرين من خلال دقة الملاحظة العلمية الإمبريقيه. إلا أن الصعوبة تكمن في أن العلماء قدموا لنا القصة في مظاهرها الفيزيائية فقط وليس في العمق الكلي لحقيقتها أو في ثراء حقائق أبعادها ومعانيها. إن الحاجة العظيمة الوحيدة لبقاء الأرض واستمرارها أو بقاء المجتمع الإنسانـــي هي الاستعراض المتكامل لقصة الكون الكبرى. إن هذه القصة يجب أن تقدم لنا اليوم ما قدمته القصص الأسطورية الكبرى في العصور السابقة والتـــي كانت مصادراً للتوجيه والترشيد الحثيث للمجازفات الإنسانية السابقة.
2. الكون، هو وحدة متكاملة، أنه مجتمع من الكائنات الحية ذات العلاقة التفاعلية والوراثية المترابطة مع بعضها البعض بنوع من العلاقة غير القابلة أو للفصل في الزمان والفضاء.
3. الأصوات الكون ككل متكامل وفي تعبيراته المتنوعة والمتعددة، هو في الواقع، يحدثنا عن نفسه وعن الأسرار العميقة للوجود. كل شيء فيه يشع إظهاراً لنفسه ولألغازه الخارقة التـــي تحتويها الأشياء. هذه القدرة على التطور الذاتـــي المنتظم وعلى التعبير الذاتـــي والحضور الحميم للأنماط الأخرى للوجود يجب أن يدرك على أنه بعد روحي ساطع للكون مند بداية تكوينه.
4. إن الاتجاهات الأساسية الثلاثة للكون وعلى جميع المستويات من الحقيقة هي التنوع والذاتية والمشاركة. وهذه التوجهات الثلاثة هي التـــي تعرّف وتحدد الوقائع والقيم والاتجاهات التـــي يتقدم ويسير فيها الكون.
5. إن للكون مظاهر عنيفة ولكنها منسجمة في آن واحد. ولكنه مبدع باستمرارية ونظام في

إطار القوس الواسع لتطوره.

6. إن الأرض داخل المجموعة الشمسية هي مجتمع مندمج ذاتياً، وينتشر ذاتياً ويتغذى ذاتياً ويتعلم ذاتياً ويتعلم ذاتياً ويشفى نفسه ذاتياً. وكل المجموعات الحية الخاصة يجب أن تتكامل في وظائفها ضمن هذا المركب الواسع من المنظومات الأرضية المرتبطة بطريقة تبادلية طبيعية.

7. الإنسانية تندمج ضمن منظومات الحياة الأرضية، حيث أن البشرية هي الكائن الذي ينعكس فيه الكون ويعلن فيه نفسه في نمط خاص من الوعي الذاتـــي. البشرية مصاغة بشفرة جينية تجاه ثقافة انتقال جينـــي (وراثي) أُتيح من قبل المجتمع البشري في تنوع ملحوظ وفي مختلف بقاع الأرض. إن هذه الأنماط الثقافية المتنوعة بتنوع شعوب الأرض تنتقل إلى الأجيال المتتابعة عن طريق العمليات التربوية، المقصودة منها وغير المقصودة.

8. التحضر، هو الانتقال من الوجود المتكامل للعالم الطبيعي إلى استقرار البشرية في قرى ومناطق وتحكُّمها في قوى الأرض من خلال الزراعة وترويض الحيوانات الذي يبدو وأنه قد حدث منذ 12.000 سنة مضت. هذه المرحلة الزمنية التـــي تعرف بالعصور الحجرية القديمة، كانت أيضاً بداية للصناعات الفخارية وصناعات النسيج وطرق أخرى استخدام الوسائل والمعدات الحجرية. إن تشكيل القوى الرئيسية العظمى للمجتمعات الإنسانية ظهرت في الوقت الحاضر وتمثلت في تطور وتقدم الفكر البشري وإبداع خياله وشحذ عواطفه التـــي كانت أساساً لتشكيل وتوصيف مجتمعات إنسانية متعددة.

9. إن الحضارات القديمة الكلاسيكية هي في الواقع حقبة انسلاخ مطرد للإنسانية عن العالم الطبيعي، مع أن الأشكال الأساسية لتطور البشرية قامت في تلاحم جوهري مع الإيقاعات الكونية. لقد ظهرت المدن المكتظة بالسكان وطقوس دينية تمثلت في تعبيرات متقنة وتطورات هندسية معمارية وتطورت وانتشرت الاتجاهات الفكرية والدينية والأخلاقية. وظهرت وظائف اجتماعية متخصصة وتطورت أشكال من الحكم المركزي واكتشفت الكتابة وتراكمت المعارف وتطورت المهارات والخبرات التكنولوجية العظيمة. وتمركزت هذه الإنجازات في البداية في شرق البحر الأبيض المتوسط ووادي (الهندوس Indus) وانتقلت مؤخراً إلى وادي (الغانجس Ganges) والنهر الأصفر في شمال الصين.

وأخيراً مناطق غربـــي المتوسط وأوربا. وكذلك أمريكا الوسطى والجنوبية.

10. كانت بدايات المرحلة العلمية التكنولوجية الصناعية للتطور البشري في أوربا وأمريكا الشمالية. ومع بداية هذه المرحلة بدأ السلب والتدمير العنيف للأرض. وتبدلت مهمة الأرض بشكل عميق ومستديم على يد الوكالة الإنسانية في توازنها الكيميائي، الأمر الذي أثر سلباً على تركيبة الأرض الجيولوجية وعلى الأنظمة البيولوجية الحيوية. الماء والهواء ملوثان بدرجة عالية. تربة الأرض دمرت عن طريق التعرية جرَّاي شق الطرق وتشييد المنشآت الصناعية والمبانـــي الضخمة للتسوق والممارسات المدمرة للتفاعل مع النفايات وتلاشت أسرار الأرض القديمة وتقدير أهميتها من الوعي البشري.

11. تكمن أهمية عصر الأيكوزويك (ذو الطراز الإيكولوجي) وهو العصر الذي نحن على أبواب دخوله، في خصوصيته الجديدة التـــي تثبت توظيف كامل لعناصر العالم الطبيعي. والمراد استبداله، هو حتماً تلك المرحلة العلمية التكنولوجية المتمركزة على الإنسان لتحلَّ محلها المركزية البيئية. أننا الآن في طور التدشين لهذه المرحلة الجديدة. إننا نشهد الآن برامج متعددة جديدة تم تأسيسها على تكامل تكنولوجيات الإنسان مع تكنولوجيات العالم الطبيعي. إن مفهوم النظام المجتمعي الواسع الذي يشمل كل أنواع الحياة على الأرض وتكاملها مع بعضها البعض يبدو وأنه باشر الظهور وبداية التطور.

12. الطقوس الدينية العظيمة. يحتاج المجتمع الإيكولوجي المطور حديثاً إلى شعور بقوة خارقة للعادة وبالقدر الذي يتناسب مع الوجود المذهل لهذا الكون وكذلك مع كوكب الأرض المجيد الذي نعيش فوقه. ويمكن إيجاد هذه القوة العظيمة من تجديد روابط الانتماء البشري مع الطقوس الدينية الكونية العظمى المتمثلة في التسلسل اليومي للشروق والغروب وكذلك التتابع الفصلي والدورات المائية المطيرة العظيمة. ويعيد هذا إلى الأذهان الاحتفالات الشعائرية للحقبة الكلاسيكية. أن هذه الاحتفالات أخذت مكانها الآن ضمن حقبة جديدة للكون واندماجه من خلال العمليات الارتقائية النشوئية.

إن المبادئ المذكورة أعلاه، هي مؤشرات ارتقائية ديناميكية في حياة الكون وكوكب الأرض والأنواع الداخلية الخاصة والبينية للإنسان ضمن عمليات النشوء والارتقاء.

لقد تمت دراسة المبادئ الإثنـــى عشر والتعمق في تحليلها من خلال العمل اللاحق الذي

قام به (سويم وبيري Swimme and Bwerry) في *قصة الكون The Universe Story*
وتوضيح ومناقشة المبادئ الأربعة الأولى هي موضوع هذا الباب من الكتاب.

يحدد المبدأ الأول موقع القصة من حيث عمق أصولها، حيث تبدأ "قصة الكون"، وفقاً لنظرية النشوء والارتقاء مع حدوث الانفجار العظيم "Big Bang". ويسرد علينا هذا المبدأ قصة الكون التـــي بدأت منذ 15 خمسة عشر مليار سنة خلت عندما ملأ وميض عظيم ظلمات البحر الشاسع للفضاء اللاّمتناهي. وفي كل مرحلة تطورية للوجود تنفجر طاقة أصيلة لن تأتـــي مرة أخرى أبداً بمثل تلك الشدة التـــي حدثت بها في الماضي. ومع ذلك الانفجار الهائل تلاطم الكون في كل اتجاه مما أدى إلى تناثر (الهادرونات والبتونات) القطع والأجزاء واستقرارها بمرور الزمن في مواقعها في الوجود مما ساهم بسرعة في بعث الحياة والكائنات الذرية الدقيقة والهيدروجين والهوليوم بعد ذلك. وبعد أن أخذت النجوم مواقعها كمحيطات من النيران والأضواء في السماوات مرت بسلسلة من التحولات مما أدى إلى انفجار بعضها ليصبح غباراً نجمياً تشكلت منه المجموعة الشمسية والأرض. وتعبِّر الأرض عن نفسها بشكل فريد من نوعه يتمثل بعضه في بنية صخورها وتركيبتها البلّورية وفي روعة وعظمة وتنوع الأشكال الحية إلى حين ظهور البشرية. وهي اللحظة التـــي يصبح فيها الكون المنبسط واعياً بنفسه. نحن نحمل الكون في وجودنا كما يحملنا ويستوعبنا الكون في وجوده. إننا كائنين نحمل وجوداً كاملاً لبعضنا البعض في بعضنا البعض ونحمل أيضاً ذلك اللغز الأعمق الذي أدى إلى وجودنا نحن والكون معاً (سويم وبيري، Swimme and Berry).

وكنقيض للانسلاخ والانعزال، فإن قصة الكون تحمل معها معنـــى أساسياً لجودة نوعية علاقة عمليات الانبساط النشوئية التطورية، وهذه هي السمة الأكثر إشراقاً للمبدأ الثانـــي التكاملي.

وللحديث عن الكون كوحدة كلية متكاملة، أي أنه وحدة واحدة متكاملة لا يمكن شرحها ولا فهمها إلا في هذا الإيعاز الواحد المتكامل. ولا يمكن أبداً فهمها عن طريق تجزئتها إلى أجزائها التكوينية. وفضلاً عن ذلك فإن الكون متماسك ومتناسق بالنسبة لكل تصرفاته. يؤدي هذا الاستنتاج بأن النشاطات المتنوعة للكون ليست مستقلة عن بعضها البعض ولا يمكن اعتبارها منفصلة بأي حال من الأحوال. الكون يسلك ويتصرف بطريقة

متكاملة. وتتطلب الدراسة المنتظمة للكون بوصفه كلاً منظوراً وكوزمولوجياً ذا طبيعة مترابطة ومتكاملة. إن معالجتنا السابقة للحداثة تمت برؤية مفادها، أن كسوفاً حقيقياً قد حدث للفكر الكوزمولوجي وهذا ما يتضمنه فكر العالم الغربـــي وتراثه الحضاري. وفي معالجة لـــ (ستيفن تولمن Stephen Toulmin 1985) يوضح فيها فقدان المعنـــى الكوزمولوجي ويجادل بأن العلوم الطبيعية قد طورت تجزئة منهجية ونتيجة لذلك لم يعد أي نظام من الأنظمة العاملة الاحترافية أو فروع المعرفة والتفكير تناقش الكون ككل واحد متكامل. وإذا ما حاولنا الآن مناقشة أو التفكير في الكون ككل متكامل، فإننا إذا تناقش نظاماً بالمعنـــى الكوزمولوجي المتكامل. وعلى جميع مستويات التجزئة أو التكامل في الإطار الكونـــي، يجد المرء مجتمعاً من الكائنات مترابط ومتفاعل جنياً "وراثياً" ومعتمد على بعضه البعض بعلاقة غير قابلة للانفصام في الفضاء والزمان. وبهذا المفهوم يكون الحديث عن كون يتطور زمانياً وفضائياً في آن واحد. ويصف (ديفيد بوهم David Bohm 1988) الفيزيائي المعروف، الكون بأنه كل يتصرف بشكل غير متلاحم. وعندما يتحدث عن كون زمنـــي التطور، فإننا في الواقع نؤكد فكرة أن الكون هو مجتمع متفاعل ومترابط وراثياً وموثوق ببعضه البعض عن طريق علاقة غير قابلة للانفصام في الفضاء والزمان. ويتصرف الكون بطريقة ذكية على جميع مستويات التفاعل. وعندما نتحدث عن ولوج الكون، الناتج عن اندماج الكرة النارية الأولى، فإننا لا نتحدث عن ظهور عشوائي، بل وعلى جميع مستويات التفاعل يبدو وأنه نظام بديع خلاق، ويمكننا القول إذاً، بأن الشمس والأرض والكواكب ترتبط بعلاقات وثيقة لأن الكون هو الذي يحافظ على تماسكها معاً. ويصدق نفس القول على "مجرتنا درب اللبان Milky Way galaxy" في علاقاتها مع كل المجرات الأخرى المعروفة، ومرة ثانية نقول بأن الكون يفعل ذلك كحقيقة لنشاطاته الأولية غير القابلة للاختزال. ويؤكد الكون فكرة أن كل شيء موجود ويمكن أن يفهم فقط في سياق علاقات الارتباط، ولا يوجد أي شيء بمعزل عن غيره من الأشياء.

إن (سويم وبيري Swimme and Berry 1992) عندما يتحدثان عن كون يتفاعل كوحدة واحدة في الفضاء والزمان، فإنهما يتحدثان حقيقة عن كون ليس حاضراً لنفسه وحسب في وقت واحد فحسب، بل وحاضر لنفسه أيضاً عبر الزمن. وهذا معنـــى كون زمنـــي

التطوير. وبمفهوم زمنـــي التطور يتكون ويتبلور مفهوم الانبلاج النشوئي. ويستطيع (كارل ساغان، Carl Sagan 1980) في كتابه (الكون *Cosmos* 1980) أن يقول بأن البشر ما هم إلا نتاج نجوم محترقة. وما نحن إلا إحدى النتائج العديدة لتطور الكون. وبالتالي فإن الطاقة الأولية للكرة النارية هي طاقة الحياة كلها. وإن نفس طاقة الكرة النارية هذه تتحكم وتتصرف في التطور الحالي للكون. إن كوننا هذا يشبهنا تماماً من حيث هو كائن زمنـــي التطور. وكوكبنا الحالي هو نتيجة لنشوء النجوم. إننا نعلم علم اليقين بأن هذه العملية حدثت ولكننا لا نعلم كيف حدثت. ويمكننا القول أيضاً بأن نفس الطاقة التـــي تفجرت في النجوم هي التـــي تطورت عبر الزمن لتكتســـب وجهاً بشرياً (سويم وبيري، Swimme and Berry 1992).

ماذا نعنـــي إذاً عندما نقول بأن الكون هو مجتمع *متفاعل* من الكائنات؟ الكون كمجتمع متفاعل يؤكد حقيقة أن الكون، هو حقيقة متكاملة، وكل عناصره مشتركة الحضور مع بعضها البعض عبر الفضاء والزمان. وهكذا، فإن هناك حضور مشترك لكل طرف وآخر وتصرف مشترك (تفاعل) بين كل طرف وآخر. هذا الحضور المشترك لكل عنصر بالنسبة لكل عنصر آخر، يمكن أن يكون في الحاضر (فضائياً أو في وقت واحد) أو أن يكون حضوراً مشتركاً يظهر نفسه عبر الزمن. إن فكرة الانبلاج والانبساط الزمنـــي تحمل فكرة أو صورة حضور مشترك مع البعد النشوئي الذي يظهر سلسلة جينية وراثية غير استردادية في الزمن. أي أنها غير قابلة لأن ترتد إلى الوراء. ورجوعاً إلى الكرة النارية مرة أخرى، أو الانفجار الكبير Big Bang، فإنه يمكننا رؤية تصور بداية الكون من ذرة خارقة للطبيعة لتصبح كرة نارية متكوكبة في مجرات عديدة. ثم تأتـــي المرحلة التالية وهي تكوين أنظمة كوكبية متفجرة بالحياة وساطعة بوعي وإدراك ذاتـــي. وهذه العملية الجينية الوراثية هي أيضاً شاهد آخر على العلاقة التكاملية للكون. ويواصل كل من "سويم وبيري" التأكيد على أن قصة الكون هي قصة متكاملة وليست فقط سرد للظواهر عبر الزمن. ويقدمان العين البشرية كمثال على تأكيد ذلك. حيث يكون لدينا الجسيمات الأولية والعناصر التـــي استقرت في الكرة النارية. ولدينا الإبداعات الأولية للإبداع الأعلى. ولدينا البيئة الهندسية لجزيئات العضويات والكائنات القديمة الأولية. وعندما نفتح أعيننا ونرى الضوء فإننا نستخدم

إجراءات قريبة المطابقة للإجراءات التـــي تستخدمها النباتات للحصول على الضوء. جزيئات أعيننا تتصرف تماماً مثل جزيئات ورقة النبات لأن بنية جزيئاتها مشتقة منها. وكل أنماط سلوك الذكاء السابق موجودة في الحقيقة الحاضرة. وعندما يقول كل من "سويم وبيري" بأن "الكون" يسلك ويتصرف فإنهما يقصدان كامل الكون الحي الحاضر منه والماضي.

إن هذا يمكننا من أن نخلص إلى أن كوكب الأرض هو وحدة متكاملة، وأن أي كائن في الكوكب متضمن في الوجود والوظيفة لكل كائن آخر في هذا الكوكب. نحن الآن ندرك الأرض كوحدة ذاتية التنظيم وتشمل "شبكة الحياة" التـــي لا يمكن فهمها إلا جملة في إطار كلي. وتوجد أسطورة مجردة يصعب تصديقها، وهي تلك التـــي تفيد بأن كل شيء يرتبط بكل شيء آخر على هذا الكوكب. ونحن البشر نتأثر بالكائنات الحية الأخرى العضويات الأكثر صغراً والموجودة في الأرض منذ بداية تكوينها. ومن خلال نقاش المبدأ الثالث نسمي هذه الظاهرة بالصوت.

وهكذا نجد أن تاريخ البشر على الأرض هو حديث الوجود، واكتساب البعد الروحي هو الذي أتاح للبشر إمكانية الوعي بأنفسهم. ويحمِّل "كارل ساغان" السلالات البشرية مسئولية قدراتهم النفسية غريبة الأطوار.

> حيث أننا نجسد محلياً نمو الكون في الوعي بذاته، فقد بدأنا بالتأمل في أصول وجودنا. إنها مواد وأجزاء من النجوم تتأمل في النجوم. إنها التجمعات المنظمة لمليارات المليارات من الذرات المبعثرة والمسؤولة أيضاً عن نشوء الذرات ومتتبعة للرحلة الطويلة، التـــي من خلالها، على الأقل، ظهر الوعي والإدراك. إن ولاءنا يجب أن يكون موجهاً نحو المخلوقات وإلى الكوكب في آن واحد. إننا نتحدث عن الأرض. إننا لسنا مدانين، فيما يخص التزامنا بالحياة لأنفسنا فحسب، بل ولهذا الكون أيضاً، مدانين لهذا الكون القديم الشاسع والذي منه ننتشر. (ساغان، Sagan 1980: 345).

لقد تمكنا حديثاً من معرفة الأرض ضمن سياق أكثر شمولية للكون ذاته. لقد استعرض (بيري، Berry 1988) فكرة مفادها، بأنه عبر علوم الملاحظة كنا قد بدأنا إدراك كيفية نشأة الأرض كنتاج للعمليات الشاسعة المتعددة للكون وكيف ظهرت الحياة وأخيراً كيف اندمجنا نحن أنفسنا في الوجود. غير أنه بالرغم من حجم هذه المعرفة وأهميتها فإنه كثيراً ما ينقصنا

الشعور العميق لسر الأرض أو فهمها المتعمق. لقد حاول "بيري" اهتمامنا إلى النجوم في السماء والطيور في طيرانها اللّعوب في الهواء والأسماك في سباحتها الانسيابية عبر البحار والأزهار المتفتحة عبر الحقول. إنه يقترح علينا تجريب نكهات أريج ورحيق الأزهار والأشجار في الأمسيات الهادئة والاستمتاع بسماع أصوات (زيزات الحصاد) التــي ترتفع صافية ثم تنخفض تدريجياً لتذوب في نمط ذبذبات موسيقية ساحرة. يحدث كل ذلك ونحن نشاهد "الأضواء المعلقة Fireflies" تومض لبعضها البعض. إن شعورنا آنذاك هو الانبهار بوقع السر الرهيب للأشياء.

وعلى الرغم من هذه الإمكانيات الهائلة للفهم العميق، فإننا مع ذلك نجد صعوبة لاستيعاب هذا السر الغامضة. لقد انتاب (بيري Berry 1988) شعور بأننا لم نعد قادرين على فهم الأصوات التــي تتحدث إلينا من العالم المحيط بنا. إن انشغالنا العلمي المكثف إضافة إلى الاستغلال التجاري الذي لا هوادة فيه قد تركانا عديمي الشعور نحو العالم الطبيعي من حيث الاتصال العاطفي وإدراك المظاهر الجمالية والأسطورة الغامضة التــي يخاطبنا بها العالم الطبيعي. إن "بيري" يصف البشر كأشخاص بأنهم طوقوا أنفسهم بشدة إلى درجة لايستطيعون معها الخروج من ذواتهم ولا شيء آخر يستطيع النفاذ إليهم. إننا منغلقون الآن في عالمنا البشري ونحن كمجتمع، افتقدنا تماماً علاقاتنا الحميمة مع العالم الطبيعي. وكأطفال نصبح متعلمين للغة البشر بينما نبقى جاهلين للغة العالم من حولنا. ونصبح أيضاً اجتماعيين في المجتمع البشري بينما نبقى منغلقين وبعيدين وغرباء عن العالم الواسع للكائنات الحية الأخرى.

المبدأ الرابع يزودنا هذا المبدأ بواقع القيم الإنسانية وتحديد معانيها، حيث يشير (سويم وبيري، Swimme and Berry 1992) إلى أن القيم يتم تحديها بحساسية بشرية من خلال الاستجابة إلى الإلحاحات العاجلة للإبداعات الكونية المتطورة. وعلى المستويات المبدئية ينتج الكون تنوعاً في إبداعاته كلها. إن الفروقات التطورية يمكن ملاحظتها ليس فقط على مستوى الأفراد بل وعلى مستوى البنــى الاجتماعية والحقب التاريخية لتطورنا أيضاً. إن البشر مقدمون على مواجهة المشاكل في سياق هذه الخليقة المبدعة لأنه لا يوجد نموذج مطلق

لتطور الأفراد. إن التحقق الشخصي للذات يتطلب مجهوداً إبداعياً فريداً من نوعه للاستجابة لكل تلك القوى الخارجية والداخلية التـــي تؤثر على حياة الفرد. وينطبق هذا أيضاً على كل مرحلة تاريخية وكل نمط ثقافي حيث تكون الحاجة ملحة لخلق حقيقة واقعة تفيد بعدم وجود نموذج مثالي لهذه الخليقة المبدعة. والحقيقة هي، عدم وجود إجابات نهائية كاملة ولكننا نسعى في كل لحظة ونحاول الانفتاح على حياة أشمل من التـــي نعرفها الآن.

ويعتبر الكون متماسكاً ومعقولاً في تناسقه عبر كامل امتداده في الفضاء والسلسلة المتتابعة لتطوره الزمني. وأول ما يواجهه الوعي البشري، هو شبكة العلاقات التـــي تتمثل في مصفوفة خاصة لظهور الحياة. إننا نمر الآن بنوع من الفهم الجديد للقيم التـــي نعتبرها تقليدية. ويتدرج هذا الفهم في إطار أسطوري قصصي كمصدر للفهم واكتساب القيم الإيجابية بغض النظر عن سياقاتها التقليدية. إنه لمن المهم جداً أن تصبح الأجيال القادمة واعية بهذه القصة الأسطورية الشاسعة المتكاملة ذات القيم المقدسة التـــي كانت ولا تزال موجودة عبر الامتداد الزمنـــي لوجود العالم. وضمن هذا السياق، تكون كل الشئون الإنسانية. مثل المهن والوظائف والنشاطات البشرية المتعددة ذات معنـــى دقيق وبعيد المدى بما يعزز هذا العالم المندمج ويدعم الاتصال المتبادل للكائنات في إطار الحقيقة الكلية للوجود. ويمكننا ضمن هذه القصة أن نتبنـــى بنية معرفية بمعناها وأهميتها الإنسانية من خلال فيزياء الكون وكيميائه وذلك بتكريس والتعمق في علوم الجيولوجيا والبيولوجيا الأحياء والاقتصاد والتجارة وغيرها من المعارف والعلوم. وعن طريق كل تلك الدراسات يمكننا أن نقوم بدورنا في التعامل مع عملية الأرض. ويعتبر (سويم وبيري، Swimme and Berry 1992) عدم وجود طريقة أخرى لتوجيه وإرشاد الشؤون الإنسانية، إلاّ في إطار عملية الوجود والبقاء الكبرى واكتشافنا للدور الإنسانـــي في هذه العملية النشوئية العظيمة.

ويوضح المبدأ الرابع وجود ثلاثة اتجاهات أساسية للكون مترابطة فيما بينها بعلاقات ديناميكية وعلى جميع مستويات الواقع. وهذه الاتجاهات المترابطة هي التنوع أو التفاضل والذاتية والاتصال. إن هذه الاتجاهات الثلاثة هي التـــي تعرِّف وتحدد الحقيقة والقيم والاتجاهات التـــي يسير ويتقدم الكون طبقاً لها (ت. بيري، T. Berry 1989). إن تكوين هذا المضمون أو السياق المتكامل يعتبر ذو أهمية قصوى للاعتبارات والقضايا الإنسانية. ومن

خلال هذه الرؤية فقط، يمكننا الوصول إلى غايتنا المنشودة، وهي الحضور القابل للبقاء والاستمرار البشري ضمن الديناميكية الواسعة الكبرى للكون. يوجد افتراض قائم يفيد بأن الحقيقة الثابتة هي الكون نفسه وهو كذلك القيمة الثابتة حتـــى وإن وجد تعبيراً في التتابعات المتصلة للتحولات. وفي سياق التحول، يشير كل من (سويم وبيري، Swimme and Berry 1992) إلى أن أمراضاً ثقافية خطيرة أصابت المجتمعات الغربية وهي الآن تتفشى عبر ثقافات الكوكب. لقد واجهت الأرض ضربة متوحشة في كل مكوناتها كنتيجة للاستغلال الصناعي البشع. إن الهواء يتشبع بالآلاف من أنواع السموم غير المعروفة سابقاً وكذلك شأن الماء والتربة. إن مواطن حياة كثير من الأصناف الحية لحقها الآن ضرراً بالغاً نتيجة الضرر الذي لحق بالعالم الطبيعي والذي أصبح يهدد بدوره السلالات البشرية نفسها، ويحدث هذا الضرر بعمومية كوكبية شاملة (براون، Brown 1988).

لقد أوضحت مناقشاتنا السابقة للأزمة الكوكبية بأننا نحن الأزمة الكوكبية ذاتها. ومنذ نشوء الكوكب وحتـــى وقتنا الراهن، لازلنا نتشدق بوقاحة ونرجع الأزمة الكوكبية إلى محدودية معرفتنا وجهلنا للحقائق. ويبدو أننا خدعنا بالإدراك المحدود لنتائج تصرفاتنا وسلوكنا السلبـــي تجاه الكوكب والكون ككل. إن تعريف الفرد في إطار كوكبـــي يأتـــي من خلال مفهوم راسخ بأن الهوية الشخصية لأي فرد تكتسب فقط من خلال إدراك علاقته مع الكوكب والكون ككل متكامل. إن الخبرات الأساسية والمبادئ الرئيسية لكل الأديان الرئيسية تنص على علاقة جوهرية بين الفرد، كإنسان والكون. ويسمح لنا جوهر هذه العلاقة بالقول "إن حاجات الكوكب هي حاجات الشخص". ويمكننا أن نوسع هذه العلاقة قائلين بأن "حقوق الفرد هي حقوق الكوكب" (روزاك، Roszak 1978). وإذا بقيت هذه العلاقة في المسار الصحيح، فنحن إذاً قادرون على القول بأن التطور الشخصي يرتبط تكاملياً بالتطور الكوكبـــي.

ويمكننا ملاحظة التفاضل والتمييز من خلال ملاحظة أبراج الطاقة المترابطة بتناغم وانسجام التـــي نسميها بالأجسام أو العناصر الدقيقة والكائنات الذرية مقارنة بالبنـــى الإشعاعية للعالم المتحرك النشط، وكذلك بالنسبة إلى التعقيدات المتشابكة داخل الأنظمة الكوكبية. وأخذاً في الاعتبار، هذه الملاحظات فإننا نجد كوناً ذي تنوع لانهائي. أنها تنوعات

مختلفة لا حصر لها إلى الدرجة التـــي تجعل تاريخ البشرية قابلاً للفهم بشكل مطرد التنوع من الوعي والإدراك. وهكذا فإن الأنواع والسلالات البشرية يمكن أن ينظر إليها بأنها نشأت من الأرض كمصفوفة من التقاطعات. ويعتبر وجود البشر ترابط منسجم فريد من نوعه في إطار تنوعات لا نهاية لها يتميز بها الكون. ونرى، فضلاً عن ذلك، تنوعاً غير محدود للناس ضمن الأنواع والسلالات البشرية. ولهذه التنوعات، ترابطها المنسجم الخاص ضمن السياقات الثقافية والبيولوجية الحيوية ونشير إلى هذا النمط من الترابط المنسجم بالنوع أو العنصر أو العرقية. وإضافة إلى ذلك فإن الفرد يشكل جزءاً من هذا التنوع اللامتناهي في إطار الأنواع والسلالات البشرية، الأمر الذي يمكننا من القول بأن كل فرد من بنـــي الإنسان هو عبارة عن تعبير فريد من نوعه للكون المنبلج الفسيح.

وتعنـــي الذاتية أو المذهب الذاتـــي أن الكون يتكون من ذوات، مراكز الإحساس والعفوية. ويشير (تيلهارد دي شاردن، Teilhard de Chardin 1959) أن الذاتية تعنـــي ما هو في "داخل الذوات". ويسمي الشاعر (جيرارد مانلي هوبكنـــز، Gerard Manley Hopkins 1959) هذا البعد للذاتية "المشهد الداخلي" ومفهوم الذات عنده هو مصدر نشاط مستقل في الكون. وتبدو فكرة الروح مناسبة الذكر في هذا الإطار، حيث يمكن للمرء أن يقول بأن البشر يشاطرون الذاتية مع النبات والحيوان والعناصر الأخرى (سويم وبيري، Swimme and Berry 1992). وتشير العفوية التلقائية إلى قدرات التنظيم الذاتـــي للكون الحي على جميع المستويات. وتبدو ذاتية البشر في إدراكنا "للذات البشرية" كمركز للتنظيم الذاتـــي وإدارة وتوجيه الأنشطة كما نلاحظها في تنظيم الأنشطة البيولوجية والثقافية للسلالات البشرية.

إنه لمن المهم جداً أن نعتبر "القدرة على الإحساس" مع التلقائية من أجل الاستيعاب الكامل لمفهوم الذاتية واستخداماتها. والمسألة الشائكة التـــي نريد نقاشها، هي الخط الفاصل بين الكائنات الحسية وغير الحسية. وكما حدد (ديكارت Descartes) مثل هذا الخط على مستوى الإنسان، أمّا العلوم المعاصرة فهي أكثر شمولية، شملت (الثدييات mammals) مثل (الحيتان والدلافين Dolphins and Whales). ويفترض كل من (سويم وبيري، Swimme and Berry 1992) أن كل الأمور المرئية لها القدرة على الإحساس على الأقل من حيث

النشوء الوراثي، وعليه يمكننا القول بأن الذكاء والحس كانا مظهرين كامنين منذ البدايات الأولى لهذا الكون. إن تفسير عملية النشوء والتخلق (ظهور السمات من القدرات الكامنة للأشكال). كما تطرق لها كل من "سويم وبيري من خلال العلاقة المباشرة بين القوى المبكرة للأرض، وإمكانيات الإحساس الغائبة تماماً من تلك القوى. وعليه تكون افتراضاتنا المسبقة بأن الصخور والهواء والماء تكون كما هي عليه زينة مزهرة في الوجود الحسي. وعلى الأقل يمكن لنا أن نقول بأن الخبرة المستقبلية في شكلها الكامن تنتمي إلى أنشطة الصخور. وبانتماء صفتـــي الإحساس والعشوائية إلى المادة الكلية، سنبقى نحن بإحساس يشير إلى وجود بعد الذاتية الموجودة في المادة نفسها على كافة المستويات. ومن وجهة النظر هذه، يمكن للمرء أن يعتبر كافة مظاهر العالم الطبيـــيعي في إطار علاقات الانتماء الحميمة. ويسمح لنا هذا الاعتبار بأن جميع مظاهر العالم الطبيعي يمكن مخاطبتها بـــ "أنتِ". إن الفكرة العامة لافتراضات (جيا Gaia) وما زودنا به (لوفلوك، Lovelock 1988) هو أساساً للافتراض بأن الأرض نفسها هي شيء حي ولها هوية تلقائية وأحاسيس يمكن على أساسها مخاطبتها بأساليب ودية حميمة. وإذا كان هذا هو الحال، فمن ثم يمتد العالم الشخصي للإنسان إلى ماوراء المجتمع البشري. وسنتحدث باستفاضة حول هذا الموضوع لاحقاً.

إن التواصل يعنـــي نوعية العلاقة لكل أشياء الواقع، ولكي نكون، لابد وأن نكون في إطار العلاقة. ومعظم وجودنا يكون من خلال الإشباع النهائي في إطار العلاقات والتواصل. إن التعقيدات في العالم الشخصي للأفراد تنحصر في المجتمع، ومعظم وجودنا يجد إشباعاً في الصلة والعلاقات والانتماء، ويمكننا ملاحظة ذلك في طقوس الانتماء والتناغم المعقد الذي اكتشفه العالم الطبيعي. كثير من ريش الطيور والألوان ورقص وغناء العالم يظهر من خلال علاقات الصداقة الحميمة. وكذلك الطاقة التـــي اكتسبناها نحن والحيوانات الأخرى ونستخدمها في الانتماء والوجود، إن الاهتمام الذي نوليه لمظهرنا البدنـــي المادي وحده يكشف المعنـــى المطلق لتجربة التواصل (سويم وبيري، Swimme and Berry 1992).

إن فقدان الصلة والانفصال أو الانعزال هما نوع من الشر المطلق الذي يعانيه العالم. ويشير كل من (سويم وبيري Swimme and Berry 1992) مرة أخرى إلى أن الانغلاق في عالم خاص والانعزال عن العلاقات الحميمة مع الكائنات الأخرى. أما لنكون غير قادرين

على الدخول في متعة الحضور المشترك فهو اللعنة الشريرة بذاتها. واليوم نشير إلى هذه اللعنة بالاغتراب أو العزلة. إن هذه العزلة أو الاغتراب هو حصاد التأكيد المطلق على الفردية في عملية التنوع والتفاضل أو عندما تكون أسس الذاتية قد نُسفت (أوسلفان، O'sullivan 1990 ;1984). إننا نصنف السابق على أنه فردية أو أنانية (تمركز على الذات) ونصنف اللاحق على أنه انغلاق الذات. إن ما نلاحظه اليوم من سمات القيم الغربية المعاصرة هو اغتراب وعزلة دفينة. وفي هذا العالم الشاسع في تنوعه ووعوده بالانتماء، يجد الإنسان المعاصر نفسه محصوراً في عالم من الأنانية والوحدة والخيال هروباً من الواقع، وغير قادر على وجود اتصال فعال خارج حدود الذات. وحتـــى مع الإحساس بوجود المجتمع يكون هذا المجتمع مقتصر على البشر أما عالم ما وراء البشر يكون غائباً كليّاً. إن هذا الإحساس المبتور في الجماعة يوصف بالتمركز على الإنسان أي أن الإنسان هو حقيقة الكون المركزية. والمرادف الواقعي والحقيقي لذلك هو الأنانية والفردية. إن المبالغة في عملية التفاضل والتنوع، عندما يتم تبنيها بمعزل عن التواصل تؤدي إلى العزلة والتغريب. ومن خلال دراساتـــي في مجال التربية النقدية، أخذت في اعتباري أهمية التطرق إلى التطور التاريخي لفكرة الفردية لأنها تحتل مركزاً متميزاً في الوعي الحديث. وإضافة إلى ذلك يجب علينا تقييم، على المستوى الشخصي، الآثار الجذرية لقيم *الفردية* الموجودة في إطار التنافر. إن التعريف الحديث للفرد كوحدة اجتماعية مستقلة هو نتاج اتفاق عام تحقق من خلال النظرية الاجتماعية الليبرالية. وفي النظرية الليبرالية، يعتبر الأفراد عناصر منفصلة ومستقلة ووحيدة من نوعها في الإطار الشخصي. إن الموقف المبدئي "للحالة الطبيعية للفرد" تم وصفه من قبل هوبس Hobbes ممثلاً في العزلة حيث يتعاقد الفرد اجتماعياً للتحرر من مخاوف البقاء والاستمرار. إن استحداث المجتمع تم وفقاً لترتيبات تعاقدية تتضمن وحدات فردية مستقلة ومنفصلة، حسب وصف "هوبس" هي ذرات اجتماعية. إن هذا التحجيم الذري للفردية سوف يكون له تطبيقات مؤثرة في الفكر الحديث (أوسلفان O'sullivan 1990).

عندما قام "لوك Locke" بتطبيق نظريته عن طبيعة الإنسان على الظواهر الاجتماعية، كان مساقاً بالاعتقاد بأن القوانين الطبيعية تحكم المجتمعات البشرية بشكل يشبه تلك القوانين التـــي تحكم العالم الطبيعي، مثلما تخلق الذرة في الغاز حالة من التوازن. وكذلك يفترض بأن أفراد البشر يستقرون في

المجتمع بالسليقة أو الحالة الطبيعية". وعليه فإن وظيفة الدولة ليست فرض القوانين على الشعوب ولكنها اكتشاف القوانين الطبيعية التـي سادت قبل ظهور أي دولة من الدول. وطبقاً لآراء "لوك" شملت هذه القوانين الطبيعية الحرية والمساواة بين كل الأفراد وكذلك حق الملكية التـي تمثل نتاج عمل المرء (كابرا، Capra 1983: 79).

إن الجانب السلبـي للفردية أصبح الآن واضحاً في كل مستويات الحياة الثقافية. إن العزلة الذاتية للأفراد مثل التـي تم وصفها سلفاً، لها آثار عميقة تسببت في فقدان المنظور الكوزمولوجي الذي يربط الأفراد بالمجتمع الواسع ومن بعده الكون ككل.

الرؤية التربوية في السياق الكوكبي

لقد لاحظ ملاح الفضاء (غيس غريسوم Gus Grissom) عندما نظر خلفه إلى الأرض من الفضاء الخارجي وقال "يوجد صفاء ملحوظ. يوجد تألق ساطع في الفضاء لا يوجد مثله على الأرض. ولا حتـى في أيام الصيف الصافية من السحب في جبال (الروكي Rockies) ولا في أي مكان آخر"، يمكنك التصور والتحقق من عظمة أرضنا هذه وكيف ينتابك شعور من الخشية والرهبة الشديدتين عند التفكير بأنها الكوكب الوحيد بين الآلاف من الكواكب الأخرى غير المعروفة " اقتبست من (كيلي، Kelley 1988: 18).

لقد تحدث "غريسوم" هنا خارج التفهم الشامل للكواكب. وأعتقد أنا، بأن الرؤية التربوية والتعليمية للقرن الحادي والعشرين يتحتم عليها أن تتحقق في الإطار الكوكبـي في مجمله. نحن نعيش على كوكب وليس على كرة. وعندما ننظر إلى قصة الكون التـي وصفناها سالفاً، فنحن نواجه كلية عضوية وليست خريطة توضيحية فقط. نحن نوع واحد نعيش على كوكب يسمى "الأرض". إن الحياة كلها وكذلك الطاقات الهامة تأتـي من هذا المنظور العضوي للكون. إن الكرة الأرضية تكوين من نسيج الإنسان. وقبل عام 1492 كانت إجراءات التضاريس من أجل التخريط التجاري تتم في إطار مفهوم أن الأرض مسطحة وليست كروية. وبالنسبة للأوربيين، حوَّل (كولومبس Colombus) أنظمة خرائط الطرق التجارية من مفهوم الأرض المسطحة المنبسطة إلى الكروية. إن الكرة الأرضية اليوم، هي وسيلة للتخريط التجاري فقط. إن لغة العولمة هي الأولى والأعظم لتنفيذ الأغراض

التجارية. وفي كل القضايا الرئيسية التـــي ناقشناها في الفصل الثانـــي (الانتقاد Critique) كانت خلفية النقاش والمضمون، هي لغة العولمة. إن التحول الرئيسي والأساس في عصرنا هذا، هو أن تركيبة القوة على الكرة الأرضية قد تحولت من شئون الدولة القومية (بما في ذلك الشؤون العسكرية) إلى الشؤون الدولية. وفي جميع أنحاء العالم الآن تسلم حكومات الدول القومية شؤون إدارتها والتحكم فيها إلى حكومات الشؤون الدولية العالمية (بارنيت وكافانغ، كلارك، كلارك وبارلوا Barnet and Cavanagh 1994; Clarke 1997; Clarke and Barlow 1997). وعليه نحن لا نستطيع أن نتخلى أو نتسامح مع هذه اللغة العالمية. ويُعتبر من الضروري جداً، أن تكون هذه اللغة الجديدة موضع انتقاد ثقافي عميق على المستوى العالمي. وفي ذات الوقت لا نستطيع الإذعان لرؤى العولمة حتـــى ولو كانت الحركة النصحيحية الوحيدة. وعلى المستوى الكوكبي، نحن نتحرك إلى ما وراء المحيط الجغرافي إلى المحيط البيولوجي. ويشير (جيرمي ريفكن)، إلى هذا باسم "المحيط البيولوجي السياسي".

إن الانتقال من صورة ميكانيكية إلى صورة عضوية للأرض والتغير المصاحب من المحيط الجغرافي إلى المحيط البيولوجي يغير بشكل أساسي الإدراك البشري للزمن الذي ترتكز عليه كل تحديدات الأمن البشري... إن إطار الزمن الخطي للمحيط الجغرافي السياسي ينبغي ربطه بالحركة الدائرية لعمليات المحيط البيولوجي.إن مفهوم التسريع المستمر للإنتاج والاستهلاك المندفع إلى مستقبل رخاء لا نهاية له أودى بنا إلى الأزمة البيئية والاقتصادية الراهنة. وباسم التقدم رهنًا مستقبل كوكبنا وعرَّضنا أطفالنا للخطر المؤكد. إن توجيهاً جديداً لإطار ثقافتنا البشرية ليكون متطابقاً مع الدورات القمرية والسنوية للمحيط العضوي سيعنـــي إعادة التفكير في الملامح الأكثر جوهرية لقيمنا الزمنية (Rifkin 1991).

كيف يمكن لقصة الكون، التـــي انتهينا من سردها لتونا، أن تعطينا فكرة عن الاتجاه المؤقت الذي اقترحه "ريفكن" كضرورة ملحة؟ وأنا اقترح في هذا الصدد بأن قصة الكون يمكن لها أن ترشدنا وتساعدنا في تجديد رؤيتنا التربوية والتعليمية. إنها تقدم الأسس التـــي تمكننا من تبنـــي علوم كونية وظيفية فعالة من أجل رؤية كوكبية شاملة. إن القصة تولد فينا طاقة خلاقة. وفي هذا السياق، يحتاج المتعلمون قبل كل شيء، إلى ما يجذبهم ويلفت انتباههم ويعزز نشاطهم نحو هذه الرؤية المنشودة. إن الهدف الأساسي للقصة هو تمكيننا من التفاعل المبدع مع عمليات الكون الارتقائية كما نعهدها اليوم (توماس بيري، T. Berry 1988) هذه

القصة لا تزودنا فقط بالتوجيه والإرشاد والفهم الذي ننشده، بل تزودنا أيضاً بالطاقة اللازمة لخلق هذا الموقف الجديد. ويجب علينا أن نكرر بصفة مستديمة بأننا الآن نتعامل مع تغيير تاريخي أو تحوير ثقافي جذري مثل تلك التغييرات والتحويرات التاريخية والثقافية التـــي شهدناها في الماضي. إن التغيرات التـــي نتعامل معها الآن هي تغيرات ذات طبيعة جيولوجية وحيوية. ويجب على الرؤية التعليمية أن تكون على مستوى حجم هذا النظام.

إن المشهد الارتقائي للتطور الزمنـــي الذي تزودنا به قصة الكون ينطوي على متضمنات عميقة للرؤية التربوية. إن التعليم لا يمكن اعتباره عملية مقفلة لتراكم المعرفة ولا توجد مقررات منهجية تستطيع مقاومة امتحانات وتجارب الزمن. إن تحديات تعليمية جديدة أظهرت ذاتها مع تطورات الحياة المستمرة، وإذا كنا قادرين على الالتفات إلى الوراء في هذه اللحظة الحاضرة، سوف نرى أن لدينا إبداعاتنا الخاصة في استجاباتنا لعمليات الارتقاء الحياتية المستمرة. إن منظور التطور الزمنـــي لا يسمح لنا بالقول بأنه لا يوجد جديد تحت الشمس. وما نحن بصدد التحقق منه الآن هو أننا نمر عبر هذا الطريق مرة واحدة وأن الأنشطة التربوية والتعليمية خلال القرن العشرين كانت لها تحدياتها مرة واحدة أيضاً. وهكذا عندما يصر التربوي على أننا بدأنا رؤيتنا التربوية في إطار تطور زمنـــي فنحن إذاً نطور تقليداً يطمح إلى تكريس رؤية تربوية تشكلت في أفضل ظروف معرفتنا للكون.

وبالدخول إلى تفاصيل المبدأ الثالث يمكن أن نصل إلى حقيقة مفادها بأن التعليم يجب أن يشمل الآن رحلة إلى الصداقة الحميمة مع الكون. إن السياق الكوكبـــي للتعليم يشمل هذا النمط من الرحلات. إن التقاليد التعليمية الغربية قد حققت قطباً معاكساً تماماً للصداقات الحميمة. وفي الحقيقة كانت رحلتنا التعليمية بمثابة رحلة حج إلى التغريب، لقد علّمونا لنكون منفصلين ومتغربين عن العالم الطبيعي. وعندما نتحدث عن وجودنا، نتحدث عنه وكأننا موجودين خارج الكون ومنفصلين عن العالم الطبيعي. إن الرؤية البيئية الإيكولوجية العميقة ترتبط مع بعضها البعض بما يكون مقبولاً أو مرفوضاً لديها. وعلى العكس من الإصلاحات البيئية التـــي تحاول معالجة أعراض الأزمة البيئية العميقة تشكك أصلاً في أساسيات بنية الحضارة المعاصرة. إن ثقافتنا التقنية قد تعايشت واحتوت كل الانتقادات. ولهذا أجزاء منها يمكن أن تنتقد ولكن ليس كل الثقافة. تكون الإيكولوجية البـــيئية العميقة مثل النافورة

الهادرة المستديمة من حيث تدريس المواضيع الثورية لتشكل صلب وجودنا الاجتماعي وتفكيرنا من أجل تحليل وتفحص خارق للأوضاع الراهنة. إن البيئية العميقة تؤكد على أنه لا شيء أقل من الثورة العارمة في الوعي والضمير، سوف يكون ذي فائدة مستديمة للمحافظة على أنظمة الحياة على كوكبنا هذا (سيد ميسى Seed and Macy 1988: 38).

وفي دراستهما المتعلقة بالمنظورات البيئية المتعددة والعميقة يناقش كل من (ديفال وسيشنـــز Devall and Sessions 1985) الشاعر "روبنسون جيفرز" ولاحظا بأن شعره كان متأثراً جدًا بمقر سكنه على شواطئ كاليفورنيا حيث يقطن كبار القوم. لقد أشار الكاتبان إلى أن شعره أنطق الأنهار والجبال والصقور التـــي تقطن الشاطئ. "ديفال وسيشنـــز" اقتبسا من "جيفرز" وجهة نظره حول العالم:

إننـــي أعتقد بأن الكون كائن واحد. وجميع أجزائه هي تعبيرات لنفس الطاقة، وأنها جميعاً متصلة ببعضها البعض، وعليه فهي جزء من كلٍّ عضوي (هذه فيزياء وأعتقد بأنها ديانة أيضاً). الأجزاء تتغير وتمر أو تموت والناس والأجناس والصخور أو النجوم، لا أحد منهم كما يبدو لي يكون مهماً في حد ذاته، وحده الكل هو المهم الكل بأجزائه يكون جميل جداً ويجعلنـــي أشعر بجدية مطلقة لأحبه وأفكر فيه كشيء مقدس. ويبدو لي على أنه الكمال في حد ذاته والجدير بأعمق أنواع الحب، ويتضمن السلام والحرية والإعتاق. وليظهر المرء حبه إلى هذا الإله الوحيد بدلاً من الاتجاه نحو داخل الذات أو إلى الإنسانية أو الخيال البشري أو المجردات – عالم الأرواح. (ديفال وسيشنـــز Devall and Sessions 1985: 101–2).

إن "جيفرز" يمثل شكلاً من أشكال وحدة الوجود التـــي يمكن أن تشكل معضلة لبعض القراء. وهذا ليس مكاناً لنقاش وجهة نظره حول العالم. وعلى كل حال، نحن نرى في تفكيره معنـــى لما أسميه أنا الأفق الكوزمولوجي (العلوم الكونية).

إن التحرك إلى عصر الأيكوزوبك (عصر الانتقال أو التحول اللاحق) يكون بطبيعته إبداعيًا في توجهاته. وبينما كنا نتحدث عن كل الرؤى التـــي تم إنجازها، يجب علينا أن نهتم باستمرار ونكون واعين بقصة النشوء والارتقاء على كل مستوياتها من التنوع والتفاضل والذاتية والشراكة.

إن إعادة التناغم مع العالم الطبيعي لا يتم تحقيقها بالرجوع إلى الطرق القديمة من التفكير

والتمثيل في العالم. نحن لا نستطيع من النواحي العاطفية أن نقدم ما تقدمه أساطير السكان الأصليين أو تقليدهم من حيث مساهمة هذه الأساطير في توجيه مسيرة العالم. ونحن لا نستطيع أن ننسخ وجهات نظر أنظمة عالم لا نعيش فيه. وعليه يجب أن نتكيف ونتوافق مع سمات معينة من حكمة الماضي. يجب علينا أن نحتفظ بحساب رصين ونثمّن عالياً مميزات الثقافات والحضارات التـــي سبقتنا. ومع أن الدين والسحر والتقاليد الصوفية كانت معرضة للخطأ وكذلك قصص الأرواح إلاّ أنها كانت تحمل فيها ومعها الحكمة والوعي المدرك بالترابط العضوي الوثيق للبشرية بأساليب طبيعية معقدة. إن هذا النوع من التقدير لا يلغي الحداثة ولكنه قد يساعدنا على تجاوزها. إن المشكلة الأساسية التـــي تواجهنا هي اكتشاف الطرق الخاصة باستيعاب الحكمة القديمة بكيفية ناضجة حكيمة (بيرمان، ;Berman 1981 1989). لقد بدأنا نرى مثل تلك المحاولات في إعادة التعامل مع الحكمة التقليدية وإعادة اعتناقها من العقلية المركزية المغلقة للثقافة الأوربية (غرافلين Graveline 1998). وإضافة إلى ذلك فإن العلماء المحدثين بدؤوا يفهمون أن الحكمة المحلية التقليدية غالباً ما تكون دقيقة وذات قيمة عملية متميزة. إن العلوم المحلية التقليدية السابقة لأنظمتنا الغربية قد طورت أنظمة خاصة لتعريف وتسمية وتصنيف التربة والنباتات والحشرات وعناصر أخرى من البيئات المحلية وللحصول على فوائد طبية واقتصادية منها (ندتسون وسيزوكي Knudtson and Suzuki 1992).

ولأغراض التفهم العميق للعمليات الأرضية ولتكوين إطار مرجعي تكون رؤيته كوكبية. سيكون من المعقولية والحكمة أن ينتبه التربويون بشدة إلى الحكمة المحلية التقليدية بسبب تأكيداتها القوية والمتنوعة على الإطار الكوكبـــي العام. وفي هذه الآونة، من تاريخنا الثقافي، يتسم تعاملنا مع عالم السكان الأصليين الأول في الأمريكتين بعدم الاحترام والغطرسة والتسلط. ويعنـــي تعاملنا هذا أننا على الأرجح لا نفهم ولا نقدر هذا العالم. إننا قد بدأنا لتونا، وبمساعدة عملية التفكيك التـــي تتم في مرحلة بعد – الحداثة، في التحقق من أننا تجاهلنا وجهة نظر عن العالم كانت غنية بالأهمية الكونية. إن الخلاصة المذكورة أعلاه لوجهة النظر المحلية التقليدية حول العالم يمكن أن تقدم لنا تقديراً جديداً للدلالة التاريخية المعاصرة للكوزمولوجيات لدى الشعوب الأصلية. إن تربية ما بعد – الحداثة الموجودة في الأفق

الايكوزوكي ستدخلنا إلى الدلالة العميقة للمعرفة التـي يمتلكها السكان الأصليون. أنه في غاية الأهمية للتربية أن تعقد حواراً مع المنظورات عن العالم والتـي تمتلك كوزمزلوجيات غنية. ومما لا شك فيه هو أن هذه الحوارات تكون مفتوحة إن هذا النمط من التربية لن يكون رومانسياً عاطفياً للأساليب المحلية ولكننا نتوقع منها أن تكون أكثر ثراءً وعمقاً في الرؤى التـي ستنبثق عنها. وبالنسبة لوجهة نظرنا التعليمية الخاصة ستكون مفتوحة ومقدرة لوجهات النظر الأخرى عن العالم والناس الآخرين وتمريناً في التواضع الحضاري الذي طال انتظار ظهوره.

ويوجد بعد آخر للرؤية التربوية ينبثق من الافتراض القائل بأن المربـي الأول هو المجتمع الأرضي بأكمله. إن اهتمامنا بالعالم الطبيعي مبنـي على أساس استغلاله فقط. وينقصنا الإدراك الكافي بأن هذا العالم الطبيعي الذي نعيش فيه هو أكثر من هامش للاستغلال. إن غياب التناغم وعدم الافتتان بالعالم الطبيعي جعلانا متمسكين بوجهة نظر حول هذا العالم ترتكز أساساً على أبعاده المادية فقط. ويوجد شعور بالضرورة الملحة إلى تكوين منظور أوسع من المنظور المادي لهذا العالم، لأن مجالات العلوم السائدة وآفاقها قد تطورت بحجم هائل من المعرفة حول العالم الطبيعي في مظاهره المادية ومقدرتنا على السيطرة عليها. وهذا منظور أحادي الجانب ورؤية تؤثر على البرامج التربوية بأعمق مستوياتها. والمقترح بـين الدوائر التعليمية حالياً هو إمّا مداومة التعليم التقليدي أو تطبيق بعض المبادئ الإصلاحية. وكما أوضحنا سابقاً فإن الاهتمامات الكونية العميقة كانت سائدة في التقاليد الشفوية لدى معظم الناس البدائيين وخاصة أثناء الاحتفالات بعجائب العالم الطبيعي. كما يتواجد أيضاً كثير من المحتفلين الطبيعيين من الكتَّاب في قارة أمريكا الشمالية خلال القرن التاسع عشر والجزء الأول من القرن العشرين، منهم رجال مثل (ثورو، وايتمان، مير Thoreau, Whitman, Muir) وكذلك حديثاً (ادوارد آبي، الدو ليوبولد Edward Abbey 1982 and Aldo Leopold 1949). وفي هذه العجالة يمكننا أيضاً أن نشمل كتَّاباً مثل (باري لوبز، لورن أيزلي، ولويس توماس، Barry Lopez 1986, Loren Eiseley (1960; 1972; 1978) and Lewis Thomas (1975; 1980; 1984).

إن للحركة النسائية التقليدية دورها أيضاً، ويبدو أنها تحمل إحساساً عميقاً للاتصال

والتناغم مع العالم الطبيعي. ويمكن للمرء ملاحظة ذلك من خلال الكتابات المتنوعة لبعض العالمات من النساء من أمثال (راكيل كارسون Rachel Carson 1962) وعالمة الطبيعة (آنـــي ديلارد Annie Dillard 1974, 1983) والناشطة في الحركة النسائية (ديلاروس لاشابيل Deloris La Chapelle 1988). وهذه الأخيرة طورت طقوساً للترابط مع الأرض واستعادة هذه الهوية المفقودة مع العالم الطبيعي. وعندما ينظر المرء إلى علماء الطبيعة من ذوي الشهرة، فإنه لا يجد سوى الرجال، وبخصوص تحرك علماء البيئة من النساء، فإننا قادرون الآن على تفهم بأن أصوات النساء لم يتم سماعها بعد. إن الشاعرات من النساء اللاّتـــي لديهن إحساس بعالم الطبيعة يبدو وأن أصواتهن تتعالى وتتكاثر وتجد صدى مسموعاً، خاصة إذا ماتأملنا الأمر بدقة. ويوجد الآن صوت نسائي سائد وقوي يتكلم دفاعاً عـــن العالم الطبيعي (س. جريفن S. Griffin 1978; 1995). إن أحدث عمل لـــ (سوزان جريفن Susan Griffin) "*إله الحياة اليومية، The Eros of Everyday Life*" يتضمن إحساساً بضرورة إعادة الارتباط مع العالم الطبيعي الذي أحاول أنا رعايته هنا. وتكمن أهمية عمل "جريفن" في ربطها للعالم الطبيعي مع الحركات الاجتماعية الإنسانية. لقد أشارت بوضوح إلى الوعي الناشئ والمتنامي تجاه حب والعناية بالعالم الطبيعي وبين العناية بالمجتمعات البشرية.

> إذا كان ممكناً إعادة الارتباط بين شعور الإنسان وضميره ووعيه ليس فقط بالوجود المادي جسم للإنسان ولكن بالوجود المادي للأرض أيضاً، وما يبدو أولياً في إعادة الارتباط هو إنقاذ المعنـــى المتضمن في الوجود والذي يصب بدوره، في كل نوع من الالتقاء بين الذات والكون. بل وحتـــى في السلوك اليومي ومنه إله الحب. إنه الحب الشديد المقدس (سوزان جريفن، S.Griffin 1995:9).

إننا بدأنا نلاحظ الآن موجة من التفكير تظهر من اتجاهات مختلفة وموجهة جميعها نحو إعطاء معنـــى أكثر عمقاً واتساعاً للارتباط مع الأرض وتقدير موقعها وتحديده في إطار القصة الكبرى للكون. إن إعطاء الاعتبار والتقدير لهذه الأصوات يعتبر ذو أهمية قصوى لهؤلاء الذين يلهثون وراء رؤى بديلة جعلت كل همها تحقيق سوقاً عالمية. حيث كانت وجهات النظر السابقة تجاه الأرض كحضور مقدس في الكون، تحض وجهة النظر السوقية، ومعاملة الأرض كمادة ميتة مسخرة للاستغلال البشري.

ماذا يقترح هذا على الاحتياجات التربوية في الوقت الراهن؟ إن ما يحتاجه المنظور

الكوكبـــي في التربية بكل مستوياتها هو إعادة نظر جذرية في طرائق تفكيرنا لتكون ملائمة "للتحول النموذجي". ويقترح كل من (روبرت أورنستين وبول ايرلش Robert Ornstein and Paul Ehrlich 1989) بأننا نحتاج إلى تحول جذري في مسار حياتنا العادية والطرق التـــي نتصور بها أنفسنا وبيئتنا. واقترحا علينا التأمل في أنفسنا على المدى البعيد. كما علينا أن نستوعب ملايين السنين من تاريخ عمليات النشوء والارتقاء بدلاً من التاريخ المتسارع الذي ندرسه الآن (توماس بيري Thomas Berry 1988). وعند العروج على تعليم ما بعد المراحل الثانوية، يقترح شيئاً متجانساً ومطابقاً لقصة الكون ليكون الموضوع المناسب لكل العمليات التعليمية والتربوية. واقترح "توماس بيري" سلسلة من الدورات، تقترح الدورة الأولى منها سلسلة من المراحل لعمليات النشوء والتطور التـــي تضمنتها قصة الكون. وهكذا تتسع الدورات التعليمية لتشمل أنظمة المجرات ومراحل تكوين الأرض في المجموعة الشمسية وانبلاج الحياة بمظاهرها المتعددة على الأرض وظهور الوعي وتطور الثقافات البشرية.

وتوضح الدورة الثانية تطورات الثقافة البشرية وتقدم المتعلم لفهم واستيعاب التطور الشامل للإنسانية عبر مراحلها التاريخية وكذلك تنوعها الحضاري. وعلى المتعلم أن يكون مشجعاً ليدرك الاستمرارية في تطوره أو تطورها الشخصي من خلال إدراك التطور السابق للكون وللأرض ولكل تاريخ البشرية وعلاقة هذا التطور بالوعي الكوكبي. ويصر (بيري، Berry 1988) على أن هذه العملية التعليمية ضمن هذا السياق تشجع علاقة الهوية الشخصية بالزمن التاريخي والفضاء الثقافي.

أمّا الدورة الثالثة فيمكن لها أن تتناول الجوانب التاريخية المتمايزة للثقافات الكلاسيكية العظيمة التـــي سادت التطور البشري طوال آلاف السنين المنقضية. ومع أن تلك الحضارات كانت متباينة بصورة كبيرة في أنماطها الثقافية التـــي شملت كل الكوكب الأرضي، إلاّ أنها أنجزت الكثير في كل قارات العالم اليورو آسيوية والأمريكية والإفريقية. وفي أماكن مختلفة من العالم يمكن أن يقدم تأكيداً خاصاً على بعض من المعرفة الروحية التقليدية الموروثة.

والدورة الرابعة التـــي اقترحها "بيري" تركز على المرحلة العلمية التقنية للتطور. ما هو تحديداً تحت الملاحظة خلال المراحل التاريخية القريبة، هو سيطرة وسيادة الإنسان على العالم

الطبيعي. الأمر الذي أدى إلى التدهور لمجالات لا تحصى في العالم الطبيعي لصالح سيادة واهتمامات الإنسان بالقوة والسيطرة ووجهة النظر الميكانيكية للكون. وبالمناسبة فهي مرحلة من الدراسة يشهد المتعلم خلالها وعياً اجتماعياً أساسياً، خاصة وأن كرتنا الأرضية تقع الآن تحت تأثيرات إعادة هيكلة سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية. هذه التأثيرات تحدث بدرجة من القوة جعلت الأرض تهتز بشدة فريدة من نوعها لم تشهدها هذه الأرض من قبل.

لقد اقترح "بيري" أيضاً بأن المناهج يجب أن تتفحص جيداً لما يسميه هو (ظهور مرحلة الإيكوزويك). هنا يطلب منا بيري الرجوع، بطريقة جديدة، إلى الوعي الكوكبي الذي يتحدى ويقارع رؤية العولمة التي انتقدناها طوال هذا العمل. ويغامر بيري بالقول بأن هذه الدراسة يجب أن تقود الإنسان إلى إعادة اكتشاف الإنسان لموقعه في الإطار الطبيعي. ومن خلال هذه المناهج التعليمية يجب أن يكون الاهتمام أكيداً بالإطار الحيوي للأرض وكذلك علاج الضرر الذي حدث لآليات عملها مع بناء نظام اقتصادي جديد عن طريق تكامل الإنسان مع الدورة المتجددة دوماً للعالم الطبيعي ومداومان البقاء عن طريق الطاقة الشمسية.

وأخيراً الدورة السادسة التي يجب أن تركز على أصول القيم والتعرف عليها. هذه الدورة تهدف إلى اكتشاف ما تتضمنه خبرتنا عن الكون وماذا يمكن أن يكون أساس القيم. مثل هذا الأساس للقيم سوف تزود الإنسان والمضمون الكوكبي بالمغامرات الإبداعية التي نواجهها الآن. ويشهد "بيري" بأن العملية التربوية نفسها سوف تكتسب من خلال هذا البرنامج مضموناً كونياً وتاريخياً وثقافياً بالمعنى الذي يكون مقبولاً على نطاق واسع لدى الأشخاص من مختلف الأعراق.

وإذا ما تفحصنا طموحات التعليم الثانوي في المجتمعات الأوربية، يتضح لنا، كيف تغلغلت القوى المؤثرة للعولمة داخل البنية الأساسية للتعليم المعاصر. لقد كرست المدارس العامة جهودها الذاتية لحاجات الدولة القومية في الماضي، وباقتحامها من قبل قوى العولمة أصبحت المدارس العامة الآن إقليماً جديداً لربح واستثمار الشركات. إن الازدهار الحالي للحكومات الليبرالية الجديدة، كما هو الحال، في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ونيوزيلندة والمكسيك وتشيلي، وهذا لمجرد ذكر أمثلة قليلة وليس لحصر كل الدول التي طبقت إجراءات الخصخصة على المدارس العامة، مثل هذه الحكومات وضعت مخططات

قومية محكمة للتحرك نحو مطالب سوق العمل وبما يتلاءم مع الشركات متعددة الجنسيات. وفي ذات الوقت تقوم هذه الحكومات بتقليص التزاماتها نحو تمويل التعليم العام. إن مثل هذه الإجراءات تقود التعليم العام تدريجياً نحو الخصخصة. وتدريجياً أيضاً ولكن بخطى أكيدة يقاد التعليم العام تبعاً لذلك نحو سيطرة الشركات وتنفيذ مخططاتها. والجدير بالذكر هنا وبتأكيد أكيد هو الحقيقة الدامغة هو أن رؤى هذه الشركات مناقضة تماماً للرؤية الكوكبية التـــي استعرضناها في هذا الفصل من الكتاب. ولعله من المنصف هنا أن نقول بأن هناك معرفة تتراكم تدرجياً ومدعومة من قبل مخططات الشركات العالمية متعددة الجنسيات. وهي أولاً وأخيراً معرفة تقتصر على الربح. إن الحكومات التـــي تنفذ هذه المخططات الليبرالية مثل الحكومة التقدمية المحافظة في اونتاريو بكندا، تهاجم التعليم التقليدي علانية وافترضت تغييراً جذرياً حاداً للمناهج نحو تحقيق احتياجات الشركات. وهاهو أحد الكتاب من معلمي الأدب في انتاريو يصف لنا المنوال التـــي يسير التعليم في كندا وفقاً له.

مرحباً بالنظام التعليمي الجديد. الأمور في المدارس ربما تكون سيئة وتسير إلى الأسوأ. ولكن الطريق الأكيد لإصلاحها بسرعة هو الحصول على جهاز الحاسوب من الأصناف المستخدمة في (الأعمال العامة Business). رجال المستقبل ورفاق السفر من أصحاب 1.4 (ترليون Trillion) دولاراً أمريكياً للتقنية والمعلوماتية والصناعات التقنية، يذكرنا باستمرار على أنه ما لم تتمكن مدارسنا من الارتباط بشبكات الاتصال وبسرعة، فإن أطفالنا جميعاً سوف ينتهون إلى العمل بالمسحة المطاطية وسيناموں تحت الجسور.

وإذا كان التمويل لا يشكل مشكلة، فإن الحاسب الآلي سيكون تجربة جيدة ومهمة، مثلما كانت الإذاعة المرئية (التلفاز) والأشرطة السينمائية في الستينيات. غير أنه في معظم المدارس العامة، شراء التقنية باهظة الثمن عادة ما يعنـــي عدم شراء شيء آخر (أفرت غرين، Evereet-Green 1997).

وعادة ما تتم المساومة على حساب التخصصات الأدبية والموسيقى والأنشطة التربوية التـــي تتم خارج الفصل الدراسي والتربية البيئية وهذه بعض الضحايا أوردها كأمثلة فقط.

ولتنمية والتخطيط للتعليم التحولي المتضمّن في أجندة "الوعي الكوني"، سوف يكون من الضروري أن يتضمن رؤية قادرة على مقاومة رؤية الشركات الضخمة التـــي تؤمن

الاستغلال الأبدي لكوكب الأرض. وكثيراً من هذا النمط من التعليم القادم تم اقتراحه في الفصول السابقة. وفي نفس الوقت، مزيداً من البرامج التعليمية الإيجابية في التعليم العام يجب أن تقترح من أجل تطوير رؤية تربوية كونية تكون قادرة على البقاء والاستمرار.

أمّا بخصوص البرامج المقترحة للتعليم العالي، فيمكن أن تكون برامج مثيلة لها ملائمة لبرامج التعليم الثانوي. وقد اقترح هذا الفصل أن جميع مستويات التعليم يجب تكيفيها لتندرج ضمن السياق الكونـــي. هذا الإطار الواسع المفتوح يحررنا حالاً من الحصار الذي تمارسه المعاصر لسوق الاستهلاكية العالمية. إن قصة الكون ليست قصة أسواق. إنها قصة ديناميكية عن الأصول والخلق والإبداع. إن الإبداع المتضمن في سرد قصة الكون، هي أننا أحرار منفتحين على رؤية تربوية تفتح لدينا الوعي الثقافي وتزودنا بنوع من الحرية تبعدنا عن المتطلبات الإمبريالية الاستبدادية التـــي تتصف بها العولمة المسعورة. وإذا أعتبر الكون أساساً نهائياً يشكل صلب الأنشطة التربوية، عندئذ، يعتبر تقديم دورة تعليمية خاصة تتعلق بانبلاج الكون ونشوء عملياته أمراً ضرورياً وكذلك مقررات ذات علاقة بالكون ودورات تدريسية إضافية بالخصوص يجب أن تكون في متناول المتعلمين. العلوم الفلكية وعلوم الأرض وعلوم ارتقاء الحياة وتطورها في كل من الكيمياء وعلوم الحياة يجب أن تتبوأ مركز الصدارة في مضامين المناهج التعليمية لمراحل التعليم الثانوي. إن الدراسات التاريخية لتاريخ الأرض التـــي تركز على ما يسميه السكان المحليون "دورة الحياة" يفتح تاريخ التنوع ويعرّف أنواعاً لاحصر لها من النباتات وأنواع الكائنات والسلالات الحية التـــي تقطن هذا الكوكب. إن جميع المقررات والدورات الدراسية التـــي تتضمن، بشكل أو بآخر، المواضيع الكوكبية يجب أن تؤكد على التداخل والاعتماد المتبادل لكل أنواع الحياة. إن الوقت الذي يخصص لتطوير وتوسيع الرؤى، هو وقت ثمين ويستحق التثمين عالياً. إن مثل هذا الوقت يمكننا من مقاومة رؤية واحدة تفرضها الكوزمولوجيا المجزأة الراهنة، كوزمولوجيا السيطرة والاستغلال. إن الوعي الكوكبـــي يمكن تأسيسه على تطوير دورات دراسية ومقررات تتفحص وتنشط الوعي الكوكبـــي الذي ينتشر في الأساس الأسطوري للتركيبة العظيمة لشعوب الأمة الأمريكية الأولى. إن توأمة العلوم التقليدية المحلية الأصلية مع علوم الأرض المعاصرة، هي حالياً مجال للاستكشاف ونتائج ذلك يجب أن تكون موضوعاً للمقررات ودورات التدريب

التـــي تخص الاهتمامات الكونية.

إن مجالات المعرفة يجب أيضاً أن تتم مراجعتها ضمن إعادة النظر التـــي نشاهدها حالياً في كل مجالات التربية والتعليم. إن نماذج المعرفة السابقة للطباعة والترقيم لازالت على قدر مهم جداً للتربية والتعليم، وهي معارف مثمنة جداً في كل أطر التربية التقليدية، ومن خلال الفصل الرابع من هذا الكتاب، طورنا إحساساً بالتربية المقاومة تحت عنوان "المعرفة الإعلامية" وفي هذا الخصوص، نحتاج نحن في الظروف الحالية إلى تركيز شديد على الاهتمامات الكوكبية ويستخدم (ديفيد أور، David Orr 1992) مصطلح "المعرفة البيئية". وبخصوص المعرفة الكوكبية، دعنـــي أقول، بأن الجزء الأخير من هذا العمل سوف يتضمن في بعض أجزائه تمريناً في مجال المعرفة البيئية للأرض.

وتوجد طريقة واحدة لتطوير الوعي الكوكبي، وهي تنمية الإحساس وتعميق المعرفة بالإطار الحيوي الذي يعيش الفرد داخله. واقترح بالخصوص أن تصاغ المناهج التربوية في سياق يشمل ضمنه الإطار الحيوي للفرد. إن التركيز على المعرفة الحيوية التـــي تخص الإنسان في إطارها المتكامل ستكون قوة مناقضة لتحركات العولمة لأن معرفة المضمون والموقع المحلي هي صلب التركيز على الإطار الحيوي للفرد (سيل، بلانت ;Sale 1980; 1985 Plant 1989). إن المعرفة التربوية للإطار الحيوي يمكن تصورها في روعة الأرض ذاتها. وفي تقديمه لفكرة الإطار الحيوي، يزعم (توماس بيري، Thomas Berry 1988) أن مضمون الأرض لا يحرك قدراتنا وطاقاتنا الداخلية فحسب، بل ويزودنا أيضاً بالغذاء المادي "البدنـــي". ويتمثل ذلك في الماء والهواء والتربة والحبوب التـــي تزودنا بأساسيات البقاء، وأشعة الشمس التـــي تصب طاقتها في الأفق، كل هذه المتغيرات تتفاعل وتتكامل مع الأرض المثمرة. ومن الناحية الفيزيائية والروحية، نشكل نحن البشر الجزء الأخير من أمواج هذه العمليات الحيوية. وطالما كانت سلامة هذه العمليات محفوظة ، كان لدينا الماء والهواء والغذاء.

إن الصعوبة التـــي نواجهها نتجت عن التدمير الذي ألحقناه بتكامل واندماج الحياة الاجتماعية والذي يفترض أن يكون لصالحنا. وخلال هذه العملية لقد هدمنا نظام الحياة برمته. تقنياتنا التـــي ابتدعناها لا تعمل بانسجام مع تقنيات الأرض. نحن نجبرُ التربة على

الإنتاج بقدر يفوق طاقاتها وسياقاتها الطبيعية عن طريق رشها بالمواد الكيميائية. وفي ضوء عدم قدرتنا على قدح وتنشيط القوى الطبيعية، أصبحنا نستخدم العنف لغرض أساليب ميكانيكية على العمليات الحيوية، ونتيجة لهذه الأعمال، أصبحنا نعيش الآن في عالم ذو خصوبة متدنية، عالم فاسد، عالم أصبح نقاءه وجودة عمليات الحياة فيه أضحت نافذة.

ويقترح علينا (بيري، Berry 1988) تبنـــي تفاعلاً إيجابياً مع مجتمع الأرض كأعضاء مشاركين، وتبنـــي كذلك مشاريع تقدم ورفاه مع مجتمعات منطقة الإطار الحيوي الذي ننتمي إليه. ومن هنا نلاحظ أن الإطار الحيوي لا يتم تعريفه إلا في الإطار الجغرافي الذي يتم فيه تفاعل أنظمة الحياة التـــي يمكن اعتبارها نسبياً ذاتية النشاط في تحديد العمليات الحيوية للطبيعة. إن كل التنوع في وظائف الحياة يتم تنفيذه، ليس عن طريق الأفراد أو السلالات أو حتـــى ككائنات عضوية، ولكن كمجتمع يشمل الكائنات المادية كجزء عضوي في تركيبة المنطقة أو الإطار الحيوي. ويعرّف (توماس بيري، Thomas Berry 1988) الإطار الحيوي على أنه يتكاثر ويتغذى ويتربـــى ويحكم نفسه ويعالج ويفي بمتطلباته ذاتياً. ويضيف "بيري" على أن كل عنصر من عناصر أنظمة الحياة يجب أن تتكامل وظائفه في إطار وظائف هذا المجتمع لكي يبقى ويستمر في أي نمط من أنماط البقاء الفعالة.

وتتطلب وظيفة التكاثر الأولى، تتطلب منا الاعتراف بحقوق كل سلالة في موطنها وطرق هجرتها وإلى موقعها في المجتمع. إن الإطار الحيوي هو التركيبة المحلية للمجتمع مثل السكن والترتيبات والأوضاع المحلية للعائلة. إن المجتمع يستمر ويجدد ذاته من خلال الأجيال المتعاقبة ويحافظ بدقة على بقائه كمجتمع سواء على مستوى البقاء كسلالة أو بالنسبة لعدد أعضائه حيث يحافظ المجتمع على توازن معين ومعايير خاصة. إن البشر الذين يفترضون حقوقاً خاصة عن طريق احتلال الأرض وتحييد أنماط أخرى من الحياة عن مواطنها، هم في الواقع يهينون ويستهينون بالمجتمع في أعماق تركيباته. وإضافة إلى ذلك، فإن هذه الإهانة هي بمثابة إعلان حرب لا يستطيع البشر الانتصار فيها لأنهم أنفسهم يعتمدون في بقائهم على نفس أنماط الحياة التـــي يقومون بتدميرها.

الوظيفة الثانية للإطار الحيوي، هي الغذاء الذي يتطلب من أفراد المجتمع بأن يساندوا بعضهم بعضاً مثلما يفعل العالم الطبيعي من أجل الإبقاء على سعادة المجتمع ككل من ناحية

وإسعاد كل فرد فيه من ناحية ثانية. وبهذه الكيفية، فإن توسع وامتداد كل سلالة سيكون محدداً بأشكال الحياة المضادة أو الظروف بحيث لا يمكن لشكل أو مجموعة من أشكال الحياة أن يسحق الشكل الآخر. وفي آلية عمل المجتمع هذه، يمكن أن تتمكن البشرية من تحقيق ضمانات من خلال تجميع كل الغذاء العالمي من الزراعة والتجارة والاقتصاد. إن الأطر الحيوية لمختلف مجتمعات العالم الطبيعي يمكن اعتبارها مغامرات تجارية مثلما هي عمليات حيوية. وضمن العالم الطبيعي، يوجد تبادل مستمر للقيم، وطرح لرؤوس الأموال وبحث عن طرق أكثر اقتصاداً لعمل الأشياء. إن الأرض هي أفضل نموذج لأي عمل تجاري. إنها تنفذ عملياتها بطرق اقتصادية وإنتاجية تفوق ما تقوم به المؤسسات الإنسانية بكثير. وهي أيضاً تدير أنظمتها بأقصر طرق ومقاييس ممكنة. ولا يوجد في الطبيعة أي من المعقمات أو السموم أو أي من الفضلات الضارة مثل تلك التـــي ينتجها الإنسان.

الوظيفة الثالثة للإطار الحيوي هي تعلمه الذاتـــي من خلال النمذجة الفيزيائية والكيميائية والحيوية والثقافية. وكل تلك النماذج تعتمد على الأخرى في أدائها وبقائها. إن العملية النشوئية التطورية في جملتها يمكن اعتبارها عملاً بطولياً في مجال التعلم الذاتـــي من جانب كوكب الأرض ومكونات إطارها الحيوي المتميز. إن الجانب المهم لهذه العملية التعليمية الذاتية هو النموذج التجريبـــي لإجراءاتها. إن الأرض وكل من مناطقها وأطرها الحيوية قد أجرت بلايين لا تحصى من التجارب في تصميم الأنظمة الحياتية السائدة الآن. وهكذا، فإن عمليات التربية والتعلم الذاتـــي التـــي نلاحظها في العالم الطبيعي تشكل بدورها نموذجاً يمكن أن يتبناه الإنسان. ولا يوجد حالياً أي طريقة أخرى يمكن أن يتبعها البشر في تعليم أنفسهم سواء من أجل البقاء أو الأداء سوي تلك الطرق والإرشادات المتوفرة في العالم الطبيعي.

الوظيفة الرابعة للإطار الحيوي، هي الحكم الذاتـــي وهي وظيفة تكاملية منظمة توجد في كل مجالات الحياة الاجتماعية. هذا النظام ليس مفروضاً من الخارج ولكنّه ارتباط داخلي للمجتمع يمكن كل عضو فيه من المشاركة في الحكم والتعبير الحر مما يجعل للحياة معنـــى لكافة أعضاء المجتمع. إن هذا النظام من الحكم يسود معظم أرجاء العالم عن طريق التتابع الفصلي للتعبير عن الحياة. هذا التتابع الموسمي يخلق النظام الذي تتفتح فيه الحياة وتتحدر فيه

إمكانياتها الضخمة. إن البشر قد أدخلوا أنفسهم تقليدياً في نظم العمليات الاجتماعية من خلال احتفالاتهم الطقوسية. إن هذه الأنشطة ليست ببساطة أنشطة إنسانية صرفة ولكنها تعبيرات عن المجتمع المشارك برمته. أمّا بالنسبة للتفكير البشري، كل من أفراد المجتمع بمختلف أوضاعهم يجب أن يكونوا مشاركين مباشرة أو ممثلين (T. Berry 1988).

وتختص الوظيفة الخامسة للإطار الحيوي البيئي بمهمة المعالجة والاستشفاء الذاتي. إن المجتمع لا يحمل في ذاته، الطاقات المغذية التـي يحتاج لها كل عضو فيه فحسب، بل ويتضمن في ذاته أيضاً، القدرات الخاصة باستعادة الحيوية. يحدث هذا عند إتلاف الغابات عن طريق العواصف أو عندما يضرب الجفاف الحقول أو عندما يغزو الجراد الأقاليم ويتركها جرداء. في مثل هذه الأحوال تكيف المجتمعات الحية من أوضاعها من تلقاء نفسها، وتستدعي قوى الاستشفاء من الأعماق لتحقق الشفاء. يحدث هذا عند إلحاق الضرر مفرداً أو قطاعات كاملة من المجتمع الحيوي. الناس أيضاً، يجدون استشفاءهم من خلال الإذعان لأنظمة المجتمع وتقاسم الغذاء وقوى الاستشفاء.

الوظيفة السادسة لحياة المجتمع البيئي توجد في أنشطة الاكتفاء الذاتي. إن المجتمع يفي بوعوده ويكتفي ذاتياً في كل قطاعاته، يكتفي في الحقول النضرة وفي أشجار البلوط العظيمة وفي تحليق العصافير الدورية والحيتان العائمة أو في أي من التعبيرات البليغة للعالم الطبيعي. وتوجد كذلك أنماط الاكتفاء الذاتـي المتمثل في الفصول الموسمية، التـي منها التجدد الربيعي الغامض. إن الاحتفالات الواعية السرّ المقدس للكون تعبر عن ذاتها بكيفية فريدة من نوعها في كل منطقة وكل قطاع من قطاعات مجتمع البيئة وكذلك البشر يقومون بدورهم في هذه العملية، عن طريق ممارسة الطقوس الدينية ومهرجانات الأسواق وفي التجمعات السياسية المهيبة وكل أنواع الألعاب كالموسيقى والرقص وفي جميع الفنون المرئية والاستعراضية. ومن كل هذا تظهر الهوية الثقافية للإطار الحيوي البشري.

إن عالم يطمح إلى مقاومة العولمة وتجاوزها، لابد له من القبول والإيفاء بالدور التربوي والتعليمي لجميع وظائف المجتمع الست السابق ذكرها. إن التغيير المشار إليه، هو تغيير من الاستغلال الأنانـي المركز للعالم الطبيعي إلى مشاركة مركزية إيجابية حيوية.

وفي الختام نعرج على التعليم الابتدائي وشئون طفولة العالم. نحن كثيراً ما نشعر بأن عالم

الطفولة محدود ومدرسي الأفق. وبهذا المفهوم عن أفق الطفل، نعتقد نحن الكبار بأن قوى الطفل وقدراته لم تنمو بعد ليواجه العالم ويتفاعل مع مكوناته أشياءً وأحياءً. وهذا الاعتقاد يبدو مخالفاً للحقيقة. وتعتقد (ماريا مونتسوري، Maria Montessori 1973) وهي أحد أبرز التربويين العظماء في مجال الطفولة في العالم الغربـــي، بأن الطفل يجب عليه أن يواجه العالم والكون ككل في أبعد صورة للوجود من أجل تكوين أرضية تربوية متينة. وللوهلة الأولى، ربما يصدم بعض القراء بسرد "قصة الكون الكبرى للطفل" كأحد الأهداف الأساسية لتربية وتعليم الطفل الصغير. وعلى أية حال، فإن "ماريا مونتسوري" تشجع تدريس المضامين الكونية كمواضيع أساسية للأطفال خلال المرحلة العمرية من 6 إلى 12 سنة. وتشجعنا كذلك على تزويد الأطفال برؤية شاملة عن الكون والعالم الذي نعيش فيه. إن هذه الرؤية الشاملة الكلية، توضح كيف تكون الأشياء جزءاً من الكون، وكيف ترتبط مع بعضها البعض لتشكل وحدة واحدة كلية ومتكاملة. إن "مونتسوري" شعرت بأن مثل هذه الحقائق تساعد عقل الطفل على التفكير المركز وتساعده على الخروج من خضم البحث العشوائي عن المعرفة. وما تشير إليه "مونتسوري" هنا، هو أنه بدون هذا المرفأ الثابت، تضيع رؤية الطفل للعموميات الكلية وينحرف عقل الطفل وتفكيره نحو التشتيت. ويقتنع الأطفال ويجدون اكتفاءً عندما يجدون أنفسهم متمركزين في الإطار الكونـــي وليسوا جامدين وسط مركزية الأنا. إن هذا المدخل الكونـــي للتربية والتعليم منذ البداية، سيُؤدي إلى نتائج تربوية أساسية إيجابية هامة.

> إذا ما قدمت فكرة الكون إلى الطفل بالطرق المناسبة فإنها سوف تفيده كثيراً وأكثر من مجرد إثارة اهتماماته. أنها سوف تخلق الإعجاب والدهشة لديه، وسيشعر بأنه متلهف إلى سماعها أكثر من أي اهتمام مقنع آخر. إن المعرفة التـــي يكتسبها آنذاك تكون منظمة ومنهجية. ذكاؤه سيكون موحداً ومتكاملاً بسبب الرؤية المتكاملة التـــي قدمت له وكذلك اهتماماته ستتسع لتشمل الكل لأن كل الأشياء ترتبط ببعضها البعض وتمتلك مكاناً في العالم الذي أصبح مركز تفكير الطفل. (مونتسوري، Montessori 1973:10).

وبالنسبة لــ "مونتسوري" فإن التعليم المبنـــي على أسس كونية ليس شيئاً جديداً كلياً يخص عصرنا، ولكن أينما وجدت تربية حقيقة بكل ما تحمل الكلمة من معنـــى، لابد وأن

تكون مرتبطة بالقصص التـــي تروي كيفية نشوء الكون وارتقائه وموقع البشر فيه. إن أساطير الخلق هذه، يمكن أن تطور في خطط علمية توسع وتعمق الجهود السابقة لظهور العلم الذي نعهده حالياً. إن الأهم من ذلك، حسب وجهة نظرنا، هو أن الأفعال تقودها الأحلام. وتضع "مونتسوري" تأكيدات أساسية على الخيال وخاصة دور سرد قصة الكون. إن القصص الخيالية تختلف تماماً عن الإدراك المادي حيث لا توجد حدود للخيال. وهي تربط كذلك، بين نتاج الخيال والذكاء لدى المتعلمين.

ويمكن للمرء أيضاً، أن يلاحظ في العمل الرائد التـــي قامت به (أديث كوب Edith Cobb) بعنوان (*بيئة الخيال في الطفولة*، *The Ecology of Imagination in Childhood* 1977) والذي يبرز أهمية تنمية معنـــى العالم الطبيعي لدى الطفل كأساس لتنمية تفكير إلهامي مبدع أثناء الرشد. ومن خلال استدعاء الذكريات، تعتقد "كوب" بأن الطفل يبدو وأنه اكتسب خبرة خاطفة عن معنـــى الانقطاع وإحساس معبر بالاستمرارية وظهورها ككائن متكامل في العالم الخارجي كالأشكال والألوان والحركات من خلال الامتداد الزمنـــي العام. وترى "كوب" أن هذه ظواهر طبيعية وجزءاً من قوى الجهاز العصبـــي المركزي. إن جدل "كوب" الذي يدعى بأن خبرات الطفل التـــي تخص الفضاء والزمان هي معلّقه مؤقتاً يبدو عاماً بين الكثيرين ولا يجب تجاوزه لأنه ذكريات رائعة. ومع أنها لا تقف وحيدة في هذا الميدان، إلا أن هذا النمط من الدراسة ليس نهائياً. ويمكنك أن تستوعب المعنـــى عندما تقرأ "*كتاب أكسفورد عن الشعر الصوفي* "The *Oxford Book of Mystical Poetry*. هؤلاء الشعراء الصوفيون من أمثال (بليك، وردوورث، مانلي هوبكنـــز Blake, Wordsworth, Manley Hopkins) وآخرون ممن اكتسبوا خبرات مماثلة. ويعبر "وردوورث" في قصيدته "تلميحات الخلود المقتبس من ذكريات الطفولة المبكرة" عن عمق المعانـــي التـــي يحملها اتصال الطفولة بالمفاهيم الكوكبية والكونية.

نحن لا نولد في النوم والنسيان:
والروح التـــي تبعث منا نجم حياتنا
موجودة في كل مكان
وتأتـــي من بعيد:

لا من باطن النسيان الكلي
ولا من الوضوح الكلي
بل تجر سحب المجد
أننا نأتـــي من الرب الذي هو موطننا
وتنبسط السماوات من حولنا في الطفولة!
ظلال السجن التـــي تنغلق
على الطفل الذي يكبر،
ولكنه يشهد الضوء، وعندما
يتدفق يراه في ابتهاجه؛
الفتـــى الذي يبتعد يومياً عن الشرق
عليه أن يرحل
ومن خلال الرؤية الرافعة
التـــي تنتظره على الطريق؛
وأخيراً يراه الإنسان يتلاشى
ويخبو في ضوء الأيام العادية

ويمكننا أن نستخلص من هذه القصيدة الغنائية الأفق الواسع للطفل، وبإدراكنا لوجود هذا الأفق، أن نكون مستعدين تربوياً للتحرك في إطار رؤية جديدة لمجتمع الأرض. ويشكل هذا التحرك تحدياً حقيقياً للتربويين من حيث مدى إحساسنا بالجماعة. وتسأل (شارلين سبيرتناك Charlene Spretnak) التربويين هذا السؤال وتقدم لنا إجابتها الخاصة عنه.

ماذا يحدث إذا كنا من التربويين الذين يعززون الوعي بعلاقاتنا غير المنقصمة؟ في المقابل سيسمح للأطفال الصغار بمواصلة إدراكهم الطبيعي عن العالم كحقل واحد من العلاقات الجوهرية بدلاً من المعاناة من خلال العمليات التربوية والتعليمية التـــي تستبدل العمومية الكلية الواحدة بفكرة أن العقل منفصل محلياً لكل فرد على حدة بدلاً من كونه متأصلاً في الشبكة البيولوجية الكبرى. إن الأطفال الصغار يشعرون بارتباط سحري مع الناس والحيوانات والأشجار والأزهار. إن هذا الشعور يمكن له مع تقدم السنوات ومن خلال نظام تربوي يكرس العلوم الكونية، أن ينمو ويتسع ليشمل المعرفة

الخاصة بالانتماء، وكيف يمكن تعلمها من خلال تدريس العلوم والآداب والرياضيات والعلوم الاجتماعية والموسيقى والفنون الجميلة وغير ذلك من العلوم. (سبيرتناك، 9–188 :Spretnak 1991).

إنـــي لم أتعود الكتابة عن كيف يمكننا أن ندمج رؤية موسعة للتعليم الابتدائي في إطار كوكبي. وعلى كل حال، فإنـــي اقترح على هؤلاء المغرمين بهذا الشأن، أن يطلعوا على أعمال (جيمس موفتيس James Moffett's بعنوان المدرسة العالمية، *The Universal Schoolhouse* 1994). وأعمال (ديفيد هاتشنسون، David Hutchinson 1998) الذي اهتزت من تحتها الأرض. إن مثل هذه الأعمال سوف تكون ذات فائدة قيمة وستقدم عوناً كبيراً للمختصين في التعليم الابتدائي.

خلاصة

لقد حاولت في هذا الفصل، أن أقدم للقارئ إطاراً لرؤية تربوية تقع في كوزمولوجيا وظيفية وتكون مصممة لخلق وعي كوكبـــي عميق. هذا الوعي الكوكبـــي يحاول احتضان منظور مختلف جديد، عن المنظور الحالي للأرض الذي يعتبر الكوكب موقعاً خاصاً بالتجارة العالمية. ولقد أكدت عبر كل هذا العمل على ضرورة تجاوز كل الرؤى التربوية التـــي تدعم العولمة واقتصاد السوق. وهذا أمر مهم، بسبب إدماننا الثقافي في الوقت الراهن الذي أدى إلى أن تكون رؤيتنا مبثورة عن تحديد موقعنا في الكون الواسع وتقديرنا المحدود كسلالة بشرية لموقعنا على هذه الأرض. إننـــي لا أستهدف هنا تقديم صيغة سهلة لرؤية تربوية جديدة ذات إحساس كوكبـــي. وفي نفس الوقت، يمكن للقارئ، بعد استعراضه لمجمل الانتقادات التـــي وجهتها إلى مضامين وأهداف التربية التقليدية، أن يعتبر ما قدمته قصة مبدئية للكون، من شأنها أن تقترح رؤية خاضعة للتصويب والإضافة. وبما أننـــي أقوم بعملي من موقع متميز، فإننـــي أتألم كثيراً عندما أقترح معنـــى للتنوع عن طريق المجازفة بقصة موسعة مثل التـــي افترضها. إنه من المهم أيضاً، أن نتفهم بأن موقع القصة وسردها يجب أن يتم تذكرهما على الدوام. أننـــي أترك الحرية للقارئ في اختيار المدخل الذي يناسبه لدخول القصة. إن عوالم الأكثرية والأقلية والعرقية والعوالم المتمركزة في الطبقة والجنس والناس، كل هؤلاء يجب أن يؤخذوا في الاعتبار. لقد أشرت إلى بعض هذه المواقع في هذا الفصل من الكتاب من خلال مناقشتـــي لوجهات النظر العالمية حول السكان الأصليين والمغرمين بالبيئة والحركات

النسائية البيئية.

وتكمن مهمتـــي القادمة في إثبات، كيف يكون القوس الكبير لقصة الأرض متكامل العلاقات مع القصة الكونية الكبرى. وكيف تتكامل هاتان القصتان في تطوير قصة البشرية، بل وقصتنا الشخصية أيضاً.

التعليم من أجل التطور التكاملي

يشمل هذا الفصل حواراً موسعاً حول الفكرة العامة "للتطور التكاملي". إن كلمتـــي التطور والتكامل تم اختيارها بدقة. وعلى الرغم من التحليل النقدي لمفهوم التطور الوارد في الفصل الثانـــي، فلا زالت حاجة جوهرية ملحة إلى تكريس مفهوم للتطور يلائم معالجتنا للرؤية الأيكوزوكية التحولية للتربية والتعليم، إنه لشيء قاس لننتقد المفاهيم الغربية للتطور ولكن استيعاب التعليم في غياب الوصول إلى تطور واضح للتطور هو شيء آخر. وعليه فإذا كانت معالجتـــي لموضوع التعليم تتضمن مفهوماً محدداً وواضحاً لمعنـــى التطور، فسيكون من الضروري وضعها بحيث تتجاوز حدود الأفكار الغربية بالكيفية التـــي تتلائم مع أطر التفكير الغربـــي. إن ما استهدفه في هذا الفصل من الكتاب، هو تقديم نمط من "التطور التكاملي" وربطه بعملية تطور وتنمية مبدعتين عن المجتمع الإنسان ومجتمع الأرض والكوكب والكون بأكمله بما في ذلك العالم الشخصي. إن التطور التكاملي يجب فهمه في كل ديناميكي متكامل حيث يشمل التكامل الكون بأكمله ويعم الضمير الواعي الهام في حياتنا سواءً من داخلنا أو من حولنا في كل أجزاء العالم. وبذلك يكون التطور شاملاً لولوجنا في هذه الروح العالمية الشاملة أو *anima mundi* (سارديلوا Sardello, 1994).

إن الفكرة الأساسية للتطور تفترض بأن العمليات الحية علها تكون دائماً في حالة نمو ديناميكي مستمر، وتتضمن تآكلاً وتحولاً مستمرين. إن أفكار ونظريات النشوء والتطور تشمل جوانب مختلفة عن واقع النشوء الديناامي . ويعنـــي النشوء أساساً بأن جميع الأشكال الحية تتطور وتفوق ذاتها. أمّا التطور فهو الذي يزكي الطاقة الديناميكية التـــي تسيرٌ حركة تطور الأشياء. إن كلمة نمو غالباً ما تستخدم كمرادف لمعنـــى التطور عند تحرك الأشكال المتطورة نحو مستويات أرقى من التعقيد والتكامل والنماذج ويمكن ملاحظتها واعتبارها

ضمن هذا السياق. إننـــي أستخدم مصطلح التطور التكاملي بدلاً من الشمولي أو التطور الشامل المتكامل، وذلك من أجل الديناميكية الإبداعية الخلاقة وكذلك طبيعة العمليات النشوئية. إن مصطلح الشمولية يضع تأكيدات غير ضرورية على أوجه التماثل والانسجام والتكامل. إن مفهومي لمصطلح التكامل هو تزكية وتدعيم النشوء للعناصر المتماسكة ضمن الحركة الجدلية لكل من الانسجام والتنافر. إن النموذج التكاملي للتطور سيكون مستمراً ومفتوحاً ليقدم فهماً جليّاً للعملية التطورية التـــي تتضمن دوراً حاسماً في جهد تحول أنظمة التطور النشوئي. وهنا أعرِّج على نظرية "التركيبات المتنوعة" التـــي طورها كل من (إيليا، بريجوجين وإيزابيل ستينجرز، Illya, Prigogine and Isabelle Strengers, 1984) كعلم جديد للشمولية مبنـــي على التأزم.

ولكي تتضح نظرية "بريجوجين وستينجرز" ويتم إدراك طبيعة تركيباتها المتنوعة، يجب علينا الاستطراد في الافتراض بأن جميع الأشكال المتطورة هي أنظمة مفتوحة ومدعومة أساساً عن طريق التنوع المستمر لاستهلاك الطاقة. إن التركيبات المستهلكة مبنية على ما يسميه "بريجوجين وستينجرز" بمبدأ النظام من خلال التأرجح. ومن وجهة نظر نشوئية توضح هذه التأرجحات العمليات الارتقائية غير القابلة للتراجع في الحركة والطبيعة من خلال التقدم المستمر نحو أنظمة حية أكثر ارتقاءً في الحياة. إن جميع الأنظمة الحية ومنها الإنسان تشمل أنظمة فرعية تكون بدورها في تأرجح مستمر. إن جميع التركيبات المستهلكة يمكن وصفه كنظام شمولي للكمال المتنامي. إن التطور المتكامل يشير إلى نمط من ربط العمليات المشاركة في تكوين النظام أو المركب الأساسي. ويمكننا ملاحظة أن أي نظام حي يكون مرتبط من خلال عدة نقاط متنوعة. وكلما كان التركيب الحي المتنوع أكثر تعقيداً، كلما كانت الحاجة إلى الطاقة في تزايد من أجل تدعيم وتثبيت أجزائه المتصلة. إن أي نظام وفي أي لحظة يمكن له أن يعمل في حالة من التوازن أو في حالة من عدم التوازن. إن الانسياب المستمر للطاقة من خلال النظام يولّد تقلبات في داخله ومعظمها يتم امتصاصها أو استيعابها وتكيُّفها دون تغيير في النظام أو تركيباته المتكاملة. أمّا إذا وصلت هذه التأرجحات أو التقلبات إلى مستوى حاسم، فإن النظام يطاله التصدع إلى درجة تكون معها نقاط الارتباط القديمة غير قادرة على العمل. ويتحول النظام ذاته إلى نظام أعلى في سلم الارتقاء، ويكون هذا النظام

الجديد مرتبط بنقاط جديدة متنوعة ومختلفة. إن استهلاك الطاقة يولّد الإمكانيات لإعادة تنظيم مفاجئة لذات النظام، حيث تكون الأجزاء قد أعيد تنظيمها في شكل كلي جديد مما يدفع بهذا النظام إلى نظام أعلى في سلم ارتقاء الأنظمة. إن أي نظام جديد سيكون أكثر ارتباطاً وتكاملاً من سابقه وسيحتاج إلى قدر أكبر من الطاقة لتدعيمه. إن التحولات تحدث باستمرار وتكون الأنظمة خلال هذه التحولات أقل استقراراً مما يجعلها قابلة لتغيرات إضافية أخرى (بريجوجين وستيجر Prigogine and Strengers, 1984). ويمكن القول هنا بأن التطور يولّد دائماً مزيداً من التطور.

ومن خلال الأفكار الحالية عن عمليات النشوء والتطور، يمكننا الآن أن ندرك الحاجة إلى تبني مفهوم التطور والاحتفاظ به في الأذهان حتى وإن كانت بعض الأفكار الغربية واستخدامها لمفهوم التطور أدت إلى انكماشه وغموض معانيه.

التطور التكاملي والإبداع

يتناول (توماس بيري، Thomas Berry 1989) من خلال المبدأ الخامس مفهومي التطور والإبداع. ويشير إلى أن الكون يشمل جوانب عنف شديدة وأخرى منسجمة. وهو كون يتسم بالإبداع المستمر في إطاره التطوري الكبير. إن النشوء لا يتضمن مغامرات نظراً لطبيعة تكوينه الهادئة وغير المعقدة. ويبدو أن عمليات النشوء تحدث في شكل طاقة ديناميكية وتشمل معاً الاستقرار وعدم التوازن. ومن خلال نقاشنا السابق عن نظرية الأنظمة المستهلكة، يمكننا إدراك أن النظام عندما يصل إلى ما وراء تكوينه الحالي تجاه نسيج جديد من التنظيم الذاتي، فستكون هذه العملية مبدعة وخلاقة في تنظيم ذاتها. وتسمّى هذه العملية الإبداعية المتمثلة في التنظيم الذاتي بالتجديد الذاتي. ويشير التجديد الذاتي إلى خصائص الأنظمة الحية التي تجدد ذاتها باستمرار. ولتنظيم هذه العملية بهذه الطريقة حيث يكون تكامل الأساس مدعماً بكيفية مستمرة (جانتس Jantsch, 1984) إنه لمن المهم هنا أن نوثق الرباط بين المعنى الذي ألبسناه بالتطور التكاملي مع العمليات الموسعة للإبداع التي تتضح في القصة الكبرى للكون.

إن التسلسل الكلّي لتسلسل إبداعات تطور النشوء منذ البداية قد تم الكشف عنه في ثلاثة

مبادئ أساسية، كما أفرده (توماس بيري، Thomas Berry, 1989). إن هذه المبادئ الثلاثة هي التنوع والذاتية والتواصل. إن هذه المبادئ الثلاثة باقية كعمليات تطورية ديناميكية. وتعني في مستواها الأساسي مفهوماً شاملاً للإبداع ذاته. وعند حديثنا عن الإبداعية المعاصرة، لاحظنا أنها النشاط تشمل المعبر عن العمليات تقوم على التنشيط، والتعبير وتلبية العملية الكونية التي منها عملية الأرض وعملية الحياة وعملية الأنسنة "الإنسانية" والعمليات الأرضية وفقاً لإمكانيات واحتمالات اللحظة التاريخية. إن محطتنا التاريخية تحتم علينا الإمساك بالتنظيم الذاتي للعملية المتعلقة بنظام كوكبنا. إننا كبشر نجد أنفسنا في حاجة لوعي يسمح لنا بمراجعة تنظيمنا الذاتي من خلال عمليات التنظيم الذاتي للأرض والتواصل التي هي منبتنا أو بالأحرى أمناً. إن معالجتنا للفكرة المتعلقة بالتطور التكاملي يجب النظر إليها أساساً في ضوء المبادئ الثلاثة وهي التنوع والذاتية والعمومية.

إن الكون لم يخلق لطخة متجانسة ولكنه عالم من مكونات ذات هوية محددة ومشعة بمعقولية جوانية وهوية فردية. إن الشيء الأساسي المتضمن في هذا المبدأ، أي مبدأ التنوع والاختلاف وهو أيضاً هو الإحساس بالتنوع في كل مستويات عملية النشوء والارتقاء. أمّا مبدأ الذاتية فهو الذي يشير إلى داخل عمليات التمايز وبينما يفصل التمايز بين الكائنات والموجودات، فإن الذاتية تعطي الهوية الجوانية والتكوّن، التلقائية الحميمة، الذات القابعة في كل وجود، وصلتها المباشرة مع السر النهائي وتركيباتها الداخلية المتزامنة وأوجه الذات الداخلية لكل شيء ومدى اقترابها من المصير الغامض النهائي للأشياء. بينما تعبر الذاتية عن طبيعة التنظيم الذاتي للكائنات الحية. وخارج هذا العالم الداخلي للتنظيم الذاتي تنبع الحرية وهي ضئيلة جداً في تعبيرها المادي المبكر حيث تبدو غير موجودة مع إن حضورها يتم اكتشافه كتسلسل متنام كلما أخذت التطورات مجراها نحو مجموعة من الأشكال الحية التي تنتهي أخيراً إلى الإنسانية حيث تكون الحرية الداخلية في أعلى مستوى لها من التنظيم الممكن.

وفي إطار الإنساني فإن مبدأ الذاتية ينمو نحو مسار سيكولوجي. وبالتأكيد فإن علم النفس الفينو مبتولوجي هو أقرب إلى الارتباط بمجالات الذاتية والوعي (أوسليفان، O'Sullivan, 1990). وبغض النظر عن ذلك، فإنه يبدو مناسباً أن نَشْمَلَ النمو المعرفي

النفسي في إطار الذات. وهنا نتناول بالحديث عمل "شومسكي Chomsky" في مجال النمو اللُغوي و"بياجيه Piaget" في مجال النمو المعرفي و(كول بلرج Kohlberg" في مجال النمو الأخلاقي والقيم (أوسليفان O'Sullivan, 1990). وتكمن المشكلة هنا، في أننا نجد فيما ذكر أعلاه غياب واضح لعلاقة متينة جيدة بين نظرياتهم. كما أن هذه النظريات تحطم عنصر الجماعة الذي يمثل مبدأنا الثالث الأساسي. وعليه فإن العلوم النفسية كما تتطور في الزمن الحاضر تعطي الصفة المطلقة للذاتية كعنصر محدد للتنوع والاختلاف والتواصل.

وأخيراً فإن مبدأ المشاركة وهو عنصر حاسم في عملية نشوء الكون وارتقائه. ويشير الواقع إلى وجود حقائق كونية واضحة ومترابطة مشتركة أوجدها قوة الجاذبية وروابط الطاقة الأخرى. إن التركيب الذري في حد ذاته هو مشاركة الذرات وكذلك الحال مع النجوم في مداراها ومع مكونات كوكب الأرض، إضافة إلى الأشياء الحية المنسوجة داخلياً وهي الشبكة النهائية للحياة، كما هو الحال بالنسبة للإنسان. وكما هو الحال في الاختلاف والذاتية، كذلك تكون والمشاركة أحد عناصر التعبير القصوى في الوعي البشري وفي مركز الانجذاب العاطفي والتذوق الجمالي في سلوك الإنسان. إننا لا نستطيع الاستهانة بأهمية إحساسنا بالحاجة الماسة للمشاركة والعمومية ودورها الأساسي بالنسبة لوجودنا في حد ذاته. أنه لمن المهم جداً أن ندرك معنـــى فقدان المشاركة بالنسبة لنا وأثر هذا الافتقاد على حياتنا اليومية. إن تعقد عالمنا الشخصي مرتبط تماماً بالعمومية بالجماعة والمجتمع. إن معظم وجودنا، يجد رضاه الأقصى من خلال الانتماء إلى الجماعة والمجتمع. ويبدو ذلك واضحاً من تعقيد روابط الطقوس والعلاقات التـــي اخترعها العالم الطبيعي. إن الكثير من ريش الطيور والألوان الزاهية والرقص والغناء الذي نعرفه اليوم ما هو إلا نتاج لعلاقات الانتماء الحميمة بين الأشياء والأحياء. إن الطاقة التـــي نستهلكها نحن والحيوانات في مثل هذه الأنشطة الخاصة بوجودنا والاهتمام الـــذي نوليه لمظهرنا البدنـــي "المادي"، ما هي إلا دليل يكشف المعانـــي العميقة للخبرات التـــي نعيشها من خلال المشاركة والتواصل.

النمو التكاملي وديناميات الضبط الذاتـــي لكوكب الأرض

لقد رأينا من خلال الإرث الغربـــي الحديث بأن كوكب الأرض، ما هو إلا وجود ميت

ويخضع تماماً إلى سيطرة الإنسان وحذقه. ورغم الرؤية الخاطئة لهذا الإرث، فقد أصبحنا ندرك بالحقيقة التـــي مفادها بأن الأرض بها نمو وتطور عميق يتجاوز بكثير تخطيط الإنسان وتصميماته التـــي أوجدها عليها. إن المعرفة العلمية الأحدث تقودنا إلى فهم حقيقة كوكبنا. لقد أوضحت هذه الدراسات العلمية الحديثة بأن كوكب الأرض يمتلك قدرات عظيمة كافية للتنظيم والتسيير الذاتـــي. إن افتراضات "جيا Gaia" تعتبر مثلاً لهذه الحقيقة. وتوضح أعمال عالم الكيمياء الحيوية البريطانـــي (جيمس لوفلوك James Lovelock, 1979; 1988) بأن كوكب الأرض هو ذات حية في قواه الفريدة من نوعها من حيث تنظيم وتسيير ذاته. ويمكن ملاحظة طاقات التنظيم الذاتـــي للأرض من خلال تنظيم الإشارات الهامة التـــي ترسلها لنا وخاصة من حيث نظم حرارة سطح الأرض. ويبدو أن متوسط درجة حرارة الأرض تمتد بين 60 إلى 100 درجة فهرنهايت. وبالرغم من المتغيرات الهائلة في الجو، إلا أن متوسط درجة الحرارة يبقى في نفس الحدود عبر المئات من الملايين من السنين.

وإذا ارتفعت درجة حرارة الأرض، في أي وقت من الأوقات فوق هذه المعدلات المألوفة، فإن الأرض ستتحطم وتتلاشى. إن استقرار تركيز الأوكسجين داخل الجو الأرضي بمعدل 21% تقريباً يعتبر ضرورياً للحياة ويبدو أن هذا التوازن في الجو هو الأمثل لاستمرار الحياة. وإذا كان معدل وجود الأوكسجين في الجو أقل من المعدل الحالي، فإن الحيوانات الكبيرة والحشرات لن تستطيع الاستمرار في الحياة. وإذا ارتفع مستوى الأوكسجين لأكثر من 21% من جو الأرض فإن الخضراوات الرطبة سوف تحترق وتتلاشى.

ويبدو كذلك بأن تركيز كمية الملح في البحر والمحيطات هي أيضاً منظمة بحيث تتماشى مع وجود الحياة على الأرض. إن نسبة الملح في البحار والمحيطات تساوي 3.4% تقريباً. إن هذه النسبة المحددة تبقى دائماً ثابتة حتـــى مع التدفق الدائم لمياه الأنهار. وإذا زادت أو قلت نسبة الملوحة هذه في مياه المحيطات، فسوف تتخلخل الحياة على الأرض ولربما تنتهي كلياً.

إن وجود كميات بسيطة من "الأمونيا ammonia" في الجو هو ضروري أيضاً لإيجاد توازن بين الحامض الكبريتـــي وحامض النتريك."sulphuric and nitric acids" أن نتيجة هذا التوازن هو أن المطر والتربة سيكونان دائماً في المستوى الأمثل للحموضة حفاظاً على استمرار الحياة.

وختاماً فإن وجود طبقة "الأوزون Ozone" في طبقات الجو الأرضي العليا، هو الذي يحمي الحياة على سطح الأرض من الآثار المدمرة للإشعاعات فوق البنفسجية الضارة التـــي تعوق جزيئات الحياة الأساسية.

إن طرح (لوفلوك Lovelock's, 1979; 1988) بخصوص افتراضات "جيا Gaia" هو أحد الأمثلة عن الكيفية التـــي تعمل وتسير بها الأرض عن طريق القدرات الذاتية والتنظيم الذاتـــي. ويحاول البعض تكريس الاعتقاد بأن تدعيم واستمرار الحياة على كوكب الأرض يتم نتيجة للصدفة بدلاً من العمليات التنظيمية الذاتية للأرض. وإذا شبهنا ثبات الاتزان الذاتـــي لأنظمة الأرض مع وظائف أجسامنا ، فيمكننا عندئذ تصور مكان الصدفة من الموضوع. إن أجسامنا تسلك سلوكاً منظماً ويبدو أنه مقصوداً وهادفاً. إن التعرق والأكل والارتجاف والتنفس، كلها أنماط سلوكية جسمية متناسقة مع العمليات المتكاملة التـــي تحافظ على الاتزان البدنـــي ومن ثم تحافظ على النمو والاستمرار في الحياة. وحيث إن عمليات الاتزان الذاتـــي هذه تعمل على مستوى وظائف الجسم، فإنها بالتأكيد لا تبدو بعيدة عن افتراضات "لوفلوك" التـــي يقترح فيها بأن عمليات مماثلة تقوم بها الأرض ذاتياً لتحافظ على بقائها. إن افتراضات "لوفلوك" المتمثلة في افتراضات، "جيا Gaia" تقترح بأن الأرض لها أنظمة ذاتية وهي التـــي تسيرها وتدعمها باستمرار عن طريق الحفاظ على توازن العمليات الكيميائية والفيزيائية والحيوية من أجل تدعيم الحياة واستمرارها في عملية نشوء مستمرة.

إننـــي أريد أن أعرج هنا، على سلالة الإنسان في إطار التسيير الذاتـــي الديناميكي لكوكب الأرض. وإذا اعتبرنا الوجود البشري الحالي على كوكب الأرض، فيمكن للقارئ إذاً أن يستطلع أنشطتنا التفاعلية مع الأرض من وجهة نظر الأنظمة الديناميكية المتفرقة التـــي تم نقاشها سابقاً من قبل (بيتر راسل Peter Russell) في مؤلفه *(العقل العالمي The Global Brain)* ويمكنه أن يلاحظ الآتـــي:

"بالنظر إلى الأنظمة البشرية المتنوعة، يمكننا ملاحظة خاصيتين رئيسيتين يتصفان بالتأرجح الرئيسي ويتزايدان من خلال انسياب المادة والطاقة بمعدل انتروبـــي عالي (عامل رياضي لقياس الطاقة المهدورة في نظام ديناميكي "حراري = Entropy". نحن نستهلك الآن مقادير من المادة والطاقة بمعدل لم يسبق

له مثيل رغم وعينا بجميع المشاكل الناتجة عن ندرة الموارد ونفاذها. وفي ذا الوقت فإن إنتاج الإنسان من "الانتروبيا Entropy" قد توقف نتيجة لارتفاع معدل الاضطرابات في كل من المجتمع والبيئة (راسل، Russell 1983: 65–6).

يعتقد "راسل" بأن حضور الإنسان على الأرض يبدو وأنه يقترب سريعاً من نقطة الانكسار ويتجه نحو نتيجتين محتملتين وهما إمّا التصدع والاندثار أو التجاوز والنفاذ إلى خارج المحنة. إن أحد اقتراحات هذا الكتاب هو أننا نمر الآن بمرحلة من التبذير المفرط التـــي اسميتها بمرحلة "الإيكوزويك النهائي" أو "العصر الثلثي المنقضي". إن مرحلة التفرق هذه يجب علينا إدراكها بكل وعودها وشكوكها بخصوص الوضع الحالي للبشرية. وإذا تجاوزنا هذا الموقف الخطر نحو نظام جديد من التطور التكاملي الذي نوَّهت إلى تسميته "بمرحلة الإيكوزويك" فسوف ننتقل إلى مرحلة من النمو والتطور الذي نترقب قدومه. وإذا أردنا التحرك نحو هذا الاتجاه، فيتحتم علينا إزالة الأنظمة القديمة للتطور التـــي عالجت منبت أرضنا بطريقة عرضت وجودنا على هذا الكوكب إلى خطر. إن نوايانا الإنسانية نحو التطور التكاملي تهدف إلى الدفع بمشروع بقاء واستمرار السلالة البشرية عن طريق تبنـــي سلوكاً إيجابياً متبادلاً بين الإنسان والأرض وبما يَسْمَحُ ببقاء واستمرار الاثنين. إن مثل هذه العلاقة التـــي أصبحنا واعين بها ومدركين لنتائجها، هي تلك التـــي تتطلب وعياً خاصّاً بأنشطة التنظيم الذاتـــي التـــي ورثناها من عمليات وأنشطة نشوء الأرض وارتقائها. ويتناول المبدأ السادس (لتوماس بيري، Thomas Berry, 1989) طبيعة الأرض الحيوية الذاتية. ويقترح بأن الأرض من خلال النظام الشمسي هي ذاتية التنظيم وذاتية النمو والتكاثر وذاتية التغذية وذاتية التعليم والتعلم وذاتية التحكم وذاتية الاستشفاء وهي مجتمع ذاتـــي الاكتفاء. وإضافة إلى ذلك، فإن جميع أنظمة الحياة الخاصة يجب أن تندمج وتتكامل وظائفها في هذا الإطار الكبير لمجتمع أنظمة الأرض التـــي تعتمد على بعضها البعض في البقاء والاستمرار. وهكذا تكون هوية الأرض الديناميكية المنظمة في الكون متميزة بمركزها الخاص بتنظيمها وتطورها. إن الأرض تتغذى ذاتياً مفهوم مبنـــي على إدراكنا بأن الكون هو طاقة في تفاعل مستمر.

ولتعريف الأرض في إطار المجموعة الشمسية، يجب أن نفكر فيما تقوم به الأرض من أفعال وأعمال. إن فعلها الأساسي في إطار المجموعة الشمسية هو تغذية نفسها ذاتياً ، وكل

الغذاء الذي يكون في أي نظام الأرض/الشمس يستهلك نفسه. إن أشعة الشمس الناتجة عن التفاعلات النووية النجمية تصبح ورقة خضراء والجذور والأزهار المتميزة التـــي تصبح دماً ولحماً للحيوانات والتـــي تصبح بحيرات جنينية متكوكبة مرصَّعة لتصبح عناصراً من الهواء الذي يتحول بدوره إلى الورقة ويضاء عن طريق الشمس. إن شجر البلوط والحوت وطائر البطريق والأعشاب تتبرعم في الوجود من خلال المشاركة في تلك الدورات الخاصة بالتغذية الذاتية التـــي تشكل نظام (الأرض/الشمس) حيث تكون فضلات نوع من الكائنات غذاء لكائنات أخرى وبذلك تكون دائرة الحياة متكررة ومستمرة في تسلسل دائم من الحياة.

إن الأرض *ذاتية التعلُّم* ويأتـــي هذا الافتراض من أن التعلُّم يحدث عبر العمليات التطورية وهو عملية تعلُّم ذاتية. إنه وبكل دقة ، ذلك البعد التربوي للأرض الذي يجعلها كوكب ذي تألق وإشراق مقارنةً بأي كوكب آخر. إن هذه الخاصية الجينية والحساسية والقدرة على التذكر يمكن اعتبارها من الخصائص التـــي تعتبر مصدر قوتنا العظمى. ونحن كبشر وفقاً لخبراتنا الطويلة عن التعليم والتربية ، فإننا نحتاج إلى أن نعكس هذه الخبرة على طبيعية التعلم التـــي تأخذ حيزاً كجزء من عمليات المشاركة الاجتماعية.

إن الأرض *ذاتية التحكم* والإدارة، مما يشير إلى أن مجتمع الأرض يتحتم عليه أن يتكامل مع كل السلالات البشرية التـــي تعمر الأرض. إن التكامل الذي ننشده هو الذي يبدأ مع الاحترام الكامل والشامل لكل الأنواع داخل عالم الحياة. إن العالم الطبيعي قبل ظهور الإنسان كان مجتمعاً تشاركياً لكل الأنواع والسلالات المختلفة، حيث تكون كل سلالة وكل نوع يحكم الكل وهو محكوم في ذات الوقت من قبل الكل.

وختاماً فإن الأرض *ذاتية الاستشفاء* مما يفيد بأن المجتمع الأرضي يحمل في ذاته قوى فريدة للتجدد. إن استشفاء الأرض أو استشفاء المجتمع الأرض ذاتياً يشمل بعدين أساسيين متداخلين. توجد حاجة للاستشفاء للأرض ككل وتوجد حاجة لاستشفاء البشر الذي يعتبر سلالة خاصة. إن التكامل يبدأ بالاحترام الكامل لكل سلالة في إطار الحياة العامة للعالم. إن قوى الاستشفاء وقوى التجديد والانبعاث هي متجذرة في الحقائق الأساسية للكون وهي الأرض والسلالات البشرية.

نشوء الإنسان والتطور التكاملي

إنه لمن الواجب علينا أن ندرك حضورنا الإنساني على هـذه الأرض جيداً. يجب إدراك هذا الوجود كجزء مكمل لعملية النشوء الكوني ونشوء كوكب الأرض. لقد أفاد (توماس بيري، Thomas Berry, 1989) بأن الكون يتضمن تفصيلاً عن كيفية وجود الإنسان ونشوئه. وطبقاً لنظرية "بيري" فإن وجود الإنسان داخل أنظمة الحياة الأرضية ككائن حي ينعكس في وجوده الكون كله ويحتفل بنفسه بأسلوب خاص من الوعي الذاتي والإدراك الواعي بالوجود. إن الإنسان من الناحية الجينية يكون مطبوعاً وموجهاً نحو تفاعلات جينية ثقافية إضافية اخترعت من قبل المجتمع الإنساني وبتنوع مبدع عبر أرجاء المعمورة. إن هذا التنوع في الإنتاج الثقافي بين مختلف سكان الأرض ينتقل إلى الأجيال اللاحقة من خلال العمليات التربوية والتعليمية الرسمية وغير الرسمية.

ينشأ الإنسان من خلال عمليات النشوء والارتقاء كسلالة فريدة خاصة بكوكب الأرض. وفي إطار مصطلحات النشوء والارتقاء العامة، يكون الإنسان سلالة وجدت في زمن واحد ومكان واحد. وبقولنا هذا فإننا نعترف بأن الإنسان وجد في زمن محدد من الأزمنة التي نشأ فيها الكون وتطور ويكون وجوده كذلك مقصوراً على مكان معين. وعندما نشير إلى المكان المحدد، فإننا نقر بأن الإنسان هو مخلوق فريد في هذا الكوكب الأرضي. وبالنسبة للكون الواسع فإن هذا يعني أن البشر ينشئون في زمان ومكان معينين. نحن كسلالات بشرية نكون مخلوقات مألوفة في كوكب الأرض. ونكون نحن في الخلق، بالنسبة للزمان من انبثاق الأرض الفريد من نوعه. وبينما نقول هذا فإن الأرض تكون حدث معين في نشوء الكون وتكون منبثقة أيضاً في زمن واحد ومكان واحد. ويمكن لنا أيضاً أن نقول بأن السلالات البشرية هي فريدة في زمنها ومكانها في نشوء الكوكب الفسيح. وقبل أن تكون الأرض مشبعة بالحياة في هذا المركّب المتحرك في تشكيله لم يكن ممكناً ظهور كائن حي مثل الكائن البشري. إن الإنسان ليس مخلوقاً أرضياً فقط، بل وكل جزيء وكل عضو وكل عمل فيزيائي وبأي نمط، كل ذلك كان وقد ظهر من الكائنات والإمكانيات الحية في كوكب الأرض. وإنها لحقيقة أيضاً ، أن يكون الإنسان تعبيراً زمنياً للأرض في وقت معين ومحدد، خلال وجودها البديهي منذ أربعة ملايين سنة مضت. وعندما وصلت القارات إلى

مركّب من النظام المنمق البديع لم يكن موجوداً قبل ذلك وحسب ما نعرفه الآن سوف لن يحدث مرة أخرى. وخارج نطاق جمال الجنة وأناقتها ، فإن الأرض يبدو وأنها تجاوزت ذاتها وتفوقت على نفسها مرة أخرى في حالة من الإظهار الذاتـــي المنبهج الذي نسميه الإنسان.

إن الأرض هي مكان مركزي لعملية النشوء والارتقاء داخل النظام الكوكبي. ويبدو أن إمكانية الأرض قد تم احتوائها في نشوء المجرات والعناصر، ثانياً ، نرى نحن ميلادها الحقيقي في نشوء النظام الشمسي، ثالثاً، هي وعاء الحياة بمختلف أشكالها. ورابعاً، الأرض هي التـــي تولّد نشوء الوعي والتطورات الثقافية للأنظمة البشرية.

إنه لمن الأهمية القصوى في هذا النقاش، أن نقر بوحدة هذه العملية الإجمالية، منذ اللحظة الأولى غير القابلة للتصور لنشوء الكوكب، وحتـــى هذه اللحظة. إن هذا الوثاق غير القابل للانفصام للعلاقة الارتباطية يزداد وضوحاً للعلماء رغم أنها غائبة عن المعادلات العلمية أو الإدراك العام. وبفضل هذه العلاقة فإن أي شيء موجود هو مرتبط ومنتمٍ إلى شيء آخر في هذا الكون. ولاشيء منفصلاً لوحده دون شيء آخر. إن هذا الاتحاد يظهر وينتج على مدى حدود الفضاء والزمان. إن الكون هو مشترك عام ومجتمع في آن واحد. نحن أنفسنا نمثل هذا المشترك العام بطريقة خاصة من الوعي المتفكر.

اختراع المجتمع البشري غريزياً يدرك الإنسان نفسه كنموذج مكون للكون وكذلك متميز في هذا الكون. وهذا ما نعنيه عندما نقول الوجود. إن نشوء الإنسان هي لحظة تحولية للأرض لأن الأرض كما هو الحال لحظة تحول للإنسان. إن كل السلالات والأنواع من الكائنات لديها حاجة إلى إنشاء موقعها وهي في حاجة أيضاً إلى تأكيد هويتها أي أنها في حاجة إلى موقع ثابت ومستديم في إطار مجتمع الحياة الكبير. هناك حاجة للغذاء والكساء والمأوى والأمن. هناك حاجة للأسرة وكذلك للإطار الاجتماعي. إن الحاجة الاجتماعية تكاد تكون خاصة بالإنسان، حيث يكون الإنسان متميزاً بنموذج فريد من الوجود والكينونة. الإنسان له القدرة على التفكير والمخاطبة وتذوق الجمال والحس العاطفي والحكم الأخلاقي. إن هذه الخصائص تتجمع لتكون الإنسان وتعرّفه في مواصفاته ومميزاته المحددة.

ومهما كانت المدارك الثقافية للإنسان ، فإن أساسياتها الفيزيائية والإشباع والاطمئنان

النفسي تنبعث من الطبيعية البيئية المحيطة. إن المجتمع الإنساني في بدايته كان متكاملاً مع حياة المجتمع الكبيرة وكذلك المجتمع الأكبر المكون من جميع العناصر الجيولوجية والحيوية والإنسانية. إننا لا نعرف كيف كان هذا التناسق خلال الفترات المبكرة جداً. إننا لانعرف كيف كان الحال قبل 100.000 مائة ألف سنة الأخيرة من العصر الحجري. وحوالى 10.000 عشرة آلاف سنة مضت كان العصر الحجري الحديث تم من بعده الحضارات الكلاسيكية القديمة التي ظهرت إلى الوجود. وهنا يكفينا أن نوضح بأن الحضارات الكلاسيكية وبشكل عام الحضارات المتعلمة 5.000 الخمسة آلاف سنة الأخيرة تطور خلالها العالم الثقافي العظيم بمؤسساته القوية ، حيث أصبح الإنسان مسيطراً وحتى مدمراً لأشكال الحياة الأخرى.

إن الواجب علينا إدراكه هو أنه في هذا الوقت من تاريخ الأرض قد أخذ وجود الإنسان على هذا الكوكب أشكالاً مختلفة وتنوعات تحولية جذرية خلال هذه المرحلة القصيرة نسبياً من نشوئه الأساسي. إننا نبدو وكأننا سلالات ذات نهايات مفتوحة ولها القدرة على صنع أنفُسِهَا عبر مسارات مختلفة. إن سبب تركيزي على العلاقة الابتكارية بين الإنسان والأرض هو أن نُشعر القارئ بالحقيقة التي مفادها بأننا اخترعنا أنفسنا وأعدنا اختراع أنفسنا مرات عديدة خلال الفترة القصيرة التي تواجدنا فيها على الأرض. واليوم نجد أنفسنا في حاجة ماسة إلى القدرة التي تمكننا من اكتشاف رؤيا جديدة لأنفسنا تكون متعلقة أساساً بوجودنا على هذه الأرض. إننا خلال العصر الحديث اخترعنا الأدوات والأجهزة التي أوصلتنا إلى سياق مدمر للأرض. إن أملنا في هذه اللحظات هو أن تكون لنا القدرة على الاستجابة لإمكانياتنا في الإبداع والاختراع لكي نخلق حضوراً يكون مدَّعماً إيجابياً للعلاقات التكاملية بين الإنسان والأرض.

ولكون الإنسان منبثقاً أصلاً من العمليات الكوكبية وهو معتمد عليها في أبسط قوانينها للنمو والتطور، وهي الحقيقة الواضحة تماماً، خاصة خلال المراحل المبكرة من المغامرات الإنسانية. عليه يكون الإنسان، أكثر من أي نوع من أنواع الحياة الأخرى، ملزماً باكتشاف هويته الصحيحة ودوره في العمليات الأرضية وعبر مجتمع الحياة بأكمله سواء من خلال الغريزة أو التفكير. إن على الإنسان أن يقولب نفسه ويحدد موقعه في إطار العالم الطبيعي.

ويجب عليه أن يفكر في كيفية تذوقه للوجود، وكيف يؤدي وظائفه إضافة إلى التفكير في ماهية الدور الصحيح الذي يجب أن يقوم به. إن تلك الأفكار قد تم استعراضها في القصص التـــي وردت في خلق الكون والأحداث التـــي قادت إلى أوضاعه الحالية. وفي هذا الإطار يمكن للإنسان التقدم بهويته الذاتية ، كما يمكنه أن يخلق أنماطاً من السلوك تكون متناسقة مع مكونات الكون من حوله.

إن مرجع الاختلاف في هذه القصص هو الاختلاف في أساليب الحياة التـــي يتبناها البشر في علاقاتهم ببعضهم البعض وبالعالم الطبيعي من حولهم، وكذلك للقوى التـــي شكلت فهمهم النهائي لنشوء الكون وأنماط أنشطته المختلفة. ومن خلال خرافات الإنسان وطقوسه التـــي تأسست على تحولات موسمية للعالم الطبيعي، أسست المجتمعات المتعددة مفاهيم وجودها الوظيفي في داخل هذا الكون. إن الاختلاف في هذه الطقوس والخرافات تعكس تنوع الخبرات الحياتية للناس وخصائص المنطقة الجغرافية التـــي يعيشون فيها.

اختراع العصر الحجري إن الحياة العائلية والترويض في المبدأ الثامن، يمثل تحولاً من وجود مشترك ومتكامل في العالم الطبيعي إلى بداية تأسيس الحياة القروية الدائمة والتحكم في قوى الأرض والسيطرة عليها من خلال الزراعة وترويض الحيوانات وتربيتها (توماس بيري، T. Berry, 1989). إن فترة الترويض وتكوين تجمعات سكانية يبدو وأنه قد اخترع حوالي 12.000 اثنتـــى عشر ألفاً سنة مضت.

ومع ظهور اللغة أصبح تاريخ المجتمع البشري في حالة من البحث عن موقع ثقافي لائق في حياة الأرض. إن هذا التنقيب عن موقع ايكولوجي ملائم يثير قضايا جدلية أساسية منها، أين يقع البشر في النظام الطبيعي وبالتطبيع الاجتماعي كان الإنسان يحاول صياغة مكان له ضمن العالم الطبيعي (سويم وبيري، Swimme and Berry, 1992). ويستوجب علينا هنا أن نعطي بعض الاهتمام إلى بداية الحياة العائلية الاجتماعية والتحول من الوحشية إلى التمدن والترويض اهتماماً خاصاً لكي نؤكد أهميتها. إننا قادرون على الافتراض الذكي بأن الإنسان الأول كان صياداً وجانياً لثمار الأشجار. وكان البشر آنذاك ينطلقون في مجموعات تقدر ما بين عشرون وأربعون شخصاً. إن تقدير الفترة الزمنية لهذه المرحلة يرجعنا إلى حوالي 20.000

عشرون ألف سنة مضت. وفي هذه الأثناء يمكننا ملاحظة تغيير مأساوي جوهري يحل بوجود الإنسان وعلاقته بالعالم الطبيعي. وجدت قوة جديدة أوجدها ومارسها الإنسان. إنها قوة ذات آثار عميقة أدت إلى تغيير تاريخ الأرض. إننا نشير هنا إلى قوة الإنسان وقدرته على ترويض العالم بكيفية وطرق محددة. إن الترويض وبلغة بسيطة هو تغيير التكوين الجيني للنباتات والحيوانات. ومنذ البداية ، فإن هذا التغيير للتركيبة الجينية نفذ دون أدنى مستوى من التفكير الواعي المسبق أو أي تحرك لضمير حي. وإذا نظر الفرد إلى تاريخ التطبيع والترويض في الوقت الحاضر ، فإنه يلاحظ تفكيراً مسبقاً عكسياً إلى درجة أننا الآن نمتلك علماً متطوراً هو "الهندسة الجينية" ويمكننا في البداية أن نعتبر أصول التطبيع بأنها متواضعة. إن أول ترويض للحيوانات ربما حدث منذ 20.000 عشرون ألف سنة. وبمعرفة أن النموذج الحديث للإنسان وجد منذ 50.000 خمسون ألف سنة مضت وبمعرفتنا بأن أول نشاط زراعي ربما بدأ بعد 30.000 ثلاثون ألف سنة من ظهور النموذج الحديث للإنسان، يمكننا إذاً أن نقدر ونتفهم الشوط الذي قطعه المجتمع البشري لكي ينجز مهمة التطبيع والترويض سابقة الذكر.

إن الترويض في مراحله الأولى، لم يكن إلاّ تفضيل الصيادون لنوع معين من الحيوانات أو السلالات الحيوانية عن غيرها. تم تطور الترويض عندما بدأ الإنسان يربي الحيوانات ويرعاها.

وبطريقة مشابهة كان الإنسان الأول يجمع النباتات والحبوب ليصل إلى النقطة التي اكتشف فيها العلاقة بين الثمار والبذور وبين نباتات الموسم القادم. وما بدأ كحدث طبيعي جداً من ترويض الحيوانات أو زراعة الحبوب، انتهى إلى تحول جذري للكوكب بأكمله. إن السلالات البشرية هي السلالات الوحيدة على الكوكب التي طورت الترويض والتطبيع والتطويع ليصبح علماً منظماً ومتحكماً فيه. إن الهندسة الوراثية لا تزيد عن كونها نظام تحكم كامل للتطويع والترويض، وهو عمل شبيه بما قامت به الطبيعة تلقائياً منذ أمد بعيد. وعليه يجب على الإنسان الآن يتعامل برؤية ودراسة واحتراس مع الطاقة المادية والنفسية المؤدية إلى الإجهادات والإحباطات الاجتماعية التي نشاهدها حالياً. وهنا تأتي اللحظة التي يجد فيها الإنسان صعوبة في تحديد موقعه اللائق به في العالم الطبيعي. وبسبب الصعوبة في إيجاد

مكان الإنسان في العالم الطبيعي فإن البشر يوصفون أحياناً بـ *"التغريب عن العالم الطبيعي natural aliens* (افرندين، Evernden, 1983). وإجمالاً فإن عملية الترويض أو التطبيع صارت سيفاً ذي حدين. فمن ناحية كان البشر يحاولون تزويد أنفسهم بالغذاء والمواد الأخرى لتعزيز حياتهم واستمرارها، وهم من ناحية أخرى سلبوا الأرض من حيويتها. وعلى سبيل المثال، يمكننا مقارنة خصائص الحيوانات الوحشية بتلك المستأنسة أو المروضة، الأمر الذي يشعرنا بوعي خاص عن اعتبار ذلك نجاحاً مبدعاً، مقابل، وحشية وطباع دامت 4 أربعة ملايين سنة استبدلت بالمطاوعة الغبية للأنواع عن طريق الترويض والتشبيع (سويم بيري، Swimme and Berry, 1992). وبالتحويل الجذري للتركيبات الجينية للنبات والحيوان، يمكن أن نرى بأن السلالة البشرية ستتغير هي الأخرى في طبيعتها تغيراً جذرياً. إننا نرى نتائج الترويض هذا في شكل تحولات جذرية ذات مدى قوي إلى الدرجة التـــي ستغير جذرياً تركيبة الإنسان الطبيعية وستغير بذلك المجتمع البشري برمته. وبالتحديد، كما قاد الترويض البدائي إلى خلق سلالات بديلة، وإلى علاقات مختلفة بين المجتمع البشري والمجتمع غير البشري وإلى علاقات مختلفة بين أفراد البشر أنفسهم، وإلى مصير مختلف السلالات من الحيوانات مصير مختلف لنباتات العالم ومصير مختلف للبشر أيضاً، فيمكننا إذاً أن نتصور بأن ديناميكيات التطويع والترويض كواحدة من التحولات الدقيقة في الكون. إن الهندسة الوراثية ، تعتبر تدخلاً إنسانياً آخراً بذيئاً وسافراً حقاً في عمليات الكون الطبيعة. وإنها لمسئولية خطيرة وأساسية في أن نُطور قدرات يمكنها أن تغير بتطرف شديد عمليات الحياة الطبيعية.

الحضارات الكلاسيكية القديمة إن عمليات التطويع والترويض استمرت ضمن ما صار معروفاً "بالحضارة" وهاهو المبدأ التاسع يطرق باب النقاش حول الحضارات الكلاسيكية القديمة (ت. بيري، T. Berry, 1989). إن معظم التطورات المتميزة التـــي حدث في هذه المرحلة، ظهرت في المناطق المعروفة بأوربا القديمة. وهي رقعة جغرافية بيضاوية تمتد حدودها فيما بين شبه الجزيرة الإيطالية وحتـــى نهر الدانوب. إنها منطقة تم تعريفها بشيء من التفصيل في دراسات (ماريا جيمبوتس Maria Gimbutas, 1974) وفي تعليقات (رين أزلر، Riane Eisler, 1988). وهنا على مدى آلاف السنين ومنذ 6500 سنة قبل الميلاد وإلى

3500 سنة قبل الميلاد ظهرت حضارة متميزة بعدم نـــزوعها إلى الحروب والتسلط الاجتماعي الذي نلاحظه في الحضارات التـــي بدأت في الشرق. إن الأسلحة وأسوار الحواجز لحضارات الشرق يبدو وأنها كانت غائبة من المراحل الأولى قبل ظهور ما نسميه بالحضارات الأوربية الغربية. إن التركيبات والوظائف الاجتماعية للحضارات التـــي وصفت بالحضارات الإلهية يبدو أنها كانت أكثر تكاملية من حيث الذكورة والأنوثة. ويبدو أن تلك المجتمعات كانت أكثر مشاركة مقارنة بالمجتمعات التـــي ترسخت فيها التركيبات الأبوية "تسلط الرجل على المرأة".

وبجانب إنجازاتها الاجتماعية، تميزت هذه الحقبة بإنجازاتها الثقافية والحضارية الرفيعة، وكذلك الفنية مع المستوى الرفيع لأساطيرها وطقوسها وقدرتها على التعبير الذاتـــي. إن تلك الحضارات المبكرة وصلت إلى أعلى مستويات رقيها في جزيرة "كريت Crete" خلال القرن الرابع قبل الميلاد. إن أهميتها التاريخية تعتبر عظيمة ويجب أخذها في الاعتبار من قبل إنسان اليوم وخاصة من حيث قدرتها على التعبير السلمي الذاتـــي والحياة المشتركة بين بنـــي البشر. إن الحضارات القديمة تعتبر معياراً يمكن للحضارات اللاحقة أن تقيِّم نفسها على أساسه. وتعتبر حضارة جزيرة "كريت" من أهم الحضارات القديمة التـــي وصلت قمة التعامل الإنسانـــي بدرجة لم يستطع العالم الغربـــي أن يصلها من حيث الخصائص التـــي تميزت بها وخاصة في مجال الأخلاق ورفاهية الشعوب وانسجامها الاجتماعي وقدرتها على التعبير الذاتـــي المتعلق بالأساطير والطقوس. إن مثل هذه الحضارة المبنية على الأسطورة الإلهية هي واحدة من الحضارات القديمة المتميزة جداً (إزلر Eisler, 1988). لقد تحركت الحضارات التـــي تليها في مسار مختلف تماماً. إن هدفنا هنا ليس معالجة موضوع الحضارات القديمة التـــي تأخذنا إلى حضارة "سومر Sumer" ثم الحضارات الأوربية والمحلية القديمة في مختلف بقاع العالم. إن مثل هذه المعالجة ستأخذنا أيضاً إلى كل الأديان الحديثة ، ولكن المهم هنا هو أن ندرك مجمل التغيرات التـــي حدثت خلال الفترة الواقعة بين بداية النشوء ثم الترويض والتطبيع وحتـــى ظهور العلوم. إن الوجهة العالمية ومنذ تلك المرحلة قد بدأت في عمليات الإخضاع النهائي للأرض والماء والهواء والأنظمة الحياتية.

وبعيداً عن التطورات المبكرة لأوربا القديمة ، وخاصة التطورات المتألقة في جزيرة كريت، امتدت الحضارات الكلاسيكية منذ عام 3500 قبل الميلاد إلى 1600 بعد الميلاد. إن تلك الحقبة من الحضارات وعلى امتداد 5.000 خمسة آلاف سنة، يمكن النظر إليها الآن في إبعادها العميقة الشاملة، كجزء من التعريف الشامل من العمليات البشرية التـــي ظهرت في حدود العصر الحجري منذ 5.000 خمسة آلاف سنة مضت والعصر الصناعي العلمي الذي بدأ منذ 300 ثلاثة مائة سنة مضت.

إن هذه المرحلة يجب اعتبارها كمرحلة حيوية في تاريخ الكوكب الأرضي حيث كانت العملية الحضارية عملية تحول ليس للإنسان فقط ولكن للعملية الحيوية للكوكب ككل. وتمتد الحقبة الكلاسيكية على مدى خمسة آلاف سنة من تاريخ الأرض، إنها المرحلة التـــي كانت فيها حياة القارات وكذلك التركيبات والوظائف التـــي تؤديها هذه الأنظمة الحياتية قد تأثرت تماماً عن طريق وجود الإنسان وتدخله السلبـــي. إن ظهور الحضارات قد شكلت مرحلة جديدة من تاريخ الأرض. إن جميع تلك التطورات المختلفة تحتاج إلى الاحتفاظ بها في ذاكرة البشر ومنذ كانت الأرض حياة مشتركة للجميع ثم تأثرت جذرياً بالتحولات التـــي حدثت في أي جزء من أجزائها أو عنصر من عناصرها.

العالم الحديث إن المبدأ الخامس يطرح النقاش حول العالم الغربـــي الحديث (ت. بيري .T Berry, 1989). وفي التحرك نحو العالم الحديث الذي بدأ خلال القرنين السادس والسابع عشر حيث دخل العالم الغربـــي من نطاق البحث والتنقيب عن هوية الأرض والكون بكيفية تجاوزت كل الأبحاث التـــي أجريت في المراحل السابقة من تاريخ الأرض. وعلى أي حال، فإن بعد النظر وآفاق الحضارات الكلاسيكية والتـــي لا يمكن تعويضها استبدلت بمسارات أخرى من المعرفة تجاوزت أفق الفكر الموروث. ولقد ناقشنا بإسهاب هذا الأفق الخاص بالفكر الحديث في الفصل الثالث من هذا الكتاب. لقد وضحنا سابقاً بأن رؤية العالم الحديث لها دور فعال في توجهاتنا نحو العالم الطبيعي. إن أفكار المحدثين كان لها أثر بالغ في اختراق الديناميكيات الطبيعية للكون. ويمكننا الآن أن نستنتج بأن العمل العلمي الحديث دفع الإدراك البشري إلى نقطة يكون فيها الإنسان في مواجهة حادة مع الأرض مع احتمال أننا

أخيراً سوف نكون قادرين على إدراك حقيقي لديناميكيات العمليات الكونية. هذا الإدراك لن يكون مبنياً على الإعجاب أو الخيال أو التوقع والتخمين أو اختراع الأساطير أو الفلسفة المجردة، ولكن من خلال النظرية الوصفية المنطقية المرتبطة والمنبثقة عن معلومات حقيقية ومعطيات تجريبية.

لقد بدأت الحداثة بهذه الموجة من الثقة الناتجة عن القوة عندما وجد الأوربيون الطريق إلى فهم جديد للكون. لقد رأينا من قبل بأن التغيير في الوعي من قبل المحدثين تتطلب بأن تكون المعلومات التقليدية والطرق التـــي كانت تتبع للحصول عليها مشكوك فيها أو يتم إلغاؤها بالكامل. لقد أدت المعرفة العلمية الحديثة إلى اضطراب وإحباط المجتمعات التقليدية أينما كانت. لقد كانت المعرفة العلمية الحديثة مضادة للأديان وتسببت في الانهيار الأخلاقي وتصدع الأنظمة الاجتماعية القديمة ، كما أدت أيضاً إلى الاضطراب النفسي والإحباط العاطفي. إن الحداثة الصادرة عن المشروع العلمي الذي أفسد أو أعاق اقتصاد ما قبل الحداثة مثلما أفسد القانون والسياسة.

إن المعنـــى الكامل للمغامرة العلمية متعدد الجوانب وتكتنفه التناقضات والمفارقات. إن السبيل إلى المعرفة يتضمن أبعاداً عنيفة منذ البداية. إن التطويع والتطبيع الآلي للعلم الحديث غمر العالم وجرَّده من كل روح وبذلك يكون قد سلب العالم روحه وقضى على قرون من الخبرة العاطفية الغنية للمشاركة مع العالم الطبيعي التـــي كان يتمتع بها بَشَرُ ما قبل الحداثة. وبإدراكنا للعالم على أنه آلة أصبح البشر عن طريق العلم الحديث أحراراً طليقي العنان ليحوروا ويغيروا الطبيعة كيفما شاءوا دون أي اعتبار للعالم غير البشري. ومع وصول الحداثة أوجها، أصبحنا نحن في مواجهة أعظم تحول للوعي الذي لم يحدث منذ ظهور البشر على هذا الكوكب. وبالتأكيد فإنه تحول هام يضاهي ذاك الذي حدث مع ظهور الحضارات العظيمة القديمة. إن خبرة الحدث العظيم وهو ظهور الكون، والحدث العظيم وهو انبثاق الأرض وكذلك الحدث العظيم وهو ظهور الكائن البشري "الإنسان"، هي تجربة وخبرة لها أثرها العظيم في تغيير الوجدان الإنسانـــي بدرجة تتوافق وترتبط بتجارب الإيحاء الكلاسيكي للماضي عندما تأسست لبنات الثقافات المبكرة.

إن تحول الوعي لتطور الزمن يعتبر تحولاً جذرياً في نظام الأرض المرتبط بالبشر. لقد ظهر

نموذج جديد أو وجهة نظر عالمية جديدة بخصوص ما الذي يمكن أن يكون بشراً وذلك هو سبب أن يكون ذلك التحول الجذري مثيراً ومؤلماً. ويمكن اعتبار ذلك حدث تغيير هام للنظام بأكمله لأنه حتـــى ولو نبعث المعرفة أصلاً من السياق الثقافي الغربـــي فإنها ليست مرتبطة بأي ثقافة تقليدية. فالمعرفة الحديثة ترتكز على أدلتها ونواتجها مما أكسبها أهمية عالمية. إن عملية التحول الجذري الذي جلبته الحداثة يمكن إدراكه من خلال التغيرات الجذرية التـــي قدمها العلم الحديث للإنسان وهو تحول شبيه بالتحولات السابقة من تاريخ الأرض والتـــي من أهمها التحكم في الطاقة. فمن التحكم في عضلات الحيوان تقدمنا لاستكشاف الرياح والأنهار واستغلالها لتوليد الطاقة عن طريق البخار وإشعال النار من النفط والسيطرة على الطاقة النووية وهانحن الآن نتحرك بصدد السيطرة على الأنظمة الجينية. إن مثل هذه التغيرات تحول بصفة أساسية تركيبة النسيج الاجتماعي بين بنـــي البشر وكذلك بين الإنسان والعالم غير البشري. ومن المحتمل بأن يكون التحول الصناعي مع حركته نحو المدن وبيروقراطيته المملّة وبابتعاده عن التربة والنظام الموسمي وانتقاله إلى داخل المصنع بآلاته المصدعة للآذان، لهو أكبر تحول مكثف لمغامرات الإنسان. وحتـــى بتغيير الوحشية إلى طرق ترويضية أليفة في الحياة لا يضاهي ادعاءات الحداثة على أنها أهم تغيير في تاريخ المساواة بين بنـــي البشر.

إن المجتمع الإنسانـــي حالياً منشغل جداً بالعمليات العلمية والتقنية التـــي لا يمكن لنا إلغاؤها أو تجاوزها حتـــى ولو كانت الإنجازات المرغوبة مصحوبة بآثار سلبية غير مرغوب فيها. لقد جنـــي الإنسان فوائد عظيمة نتيجة لوجود الآلات رغم مصاحبتها لبعض الصعوبات وحقيقة هي إنجازات هائلة للعلم والتقنية التـــي سببت لنا كثيراً من مشاكلنا وصعوبات حياتنا التـــي نعانيها الآن. ويمكن ملاحظة ذلك في الزيادة الحادة في عدد سكان العالم، مما أدى بدوره إلى مزيد من الفقر رغم الجهود المبذولة لتقدم وسعادة الإنسان. وآخذاً لكل ذلك في الاعتبار، فلننظر إلى تدهور الغلاف الجوي للأرض ومع التدهور الذي نلاحظه خلال العقود الأخيرة من الزمن في حياة الإنسان عامة ، تظهر لنا تساؤلات خطيرة حول المعانـــي الكبيرة للعلوم والتقنية والطرق التـــي يمكن تتبعها في توظيف العلوم والتقنيات الحديثة مستقبلاً، إذا أردنا أن نتفادى مزيداً من التدهور والانحطاط في جودة حياة الإنسان

وإذا أردنا أن نحقق تحسناً لحياتنا جميعاً.

التطور فيما بعد الحداثة صنفت أوضاعنا الراهنة تاريخياً على أنها مرحلة نهائية في كثير مما احتوته الفصول الافتتاحية من هذا الكتاب. لقد تم هذا التصنيف من خلال الإطار الكبير لتاريخ الأرض الذي شمل الإنسان وما قبل الإنسان. إن ظهور الإنسان في الانسياب النشوئي لتطور الأرض البديع قد تم تصنيفه في أنماط مختلفة لمشاركة الإنسان في أنشطة الأرض وعملياتها التطورية. وكما نلاحظ الآن فإن أنماط مشاركتنا الحالية في العمليات الأرضية أصبح مشكلاً ومعرقلاً لمسيرة الطبيعية للأرض. إن سلوكنا الحالي يبدو وأنه قد أصبح يعرقل الارتباط التكاملي لعمليات الأرض الكبرى. إن أنظمتنا الحالية للتطور وضعتنا خارج نطاق العمليات النشوئية السوية الكبرى. إن المرحلة النهائية التـــي نعيشها حالياً يمكن وصفها وتصنيفها كواحدة من أعلى وأدق مقاييس أو معايير التفريط.

إن الاستغلال الصناعي البشع قد دمر كوكب الأرض نتيجة لآلاف الأنواع من السموم التـــي تشبِّع الجو والماء والتربة، وكذلك الأضرار المتزايدة التـــي أصابت العالم الطبيعي على نطاق واسع. إن مثل هذه الأنواع من التلوث أصبحت تهدد وجود البشرية نفسها. لقد أشرنا سابقاً إلى أنه خلال هذه الآونة من تطور الكوكب، أصبحت الأزمات الكوكبية نتيجة مباشرة لوعينا وإدراكنا المحدود. إن توحد وتضامن الفرد مع الكوكب ينبع من الوعي الحاد المتنامي الذي يقرُّ بأن الهوية الشخصية للفرد، هي في الواقع مرتبطة بالكوكب وبالكون إجمالاً. لقد أشارت كل الأديان الرئيسية إلى وجود مثل هذا الارتباط بين الإنسان والكوكب. نحن هكذا نكون قادرين على القول بأن التطور الشخصي من ناحية تكاملية مرتبط تماماً بتطور الكوكب الذي نقطنه. إن الصلات التكاملية التـــي اكتسبناها من منشأ الأرض في الماضي تبدو وأنها احترقت وتشتت. إنه من الواجب علينا الآن أن ندرك بعمق خطورة المشروع الإنسانـــي الذي وصل إلى هذا المستوى من تدمير الأرض وفي ذات الوقت أن نتحمل المسؤولية كاملة للتبعات الناتجة عنه. إن هذه المسئولية يجب أن توقظ فينا الضمير الواعي والتصميم الأكيد على المضي قدماً صوب تحقيق الالتزامات التربوية الأساسية لهذه المرحلة من تاريخ البشرية.

التطور المتكامل للإنسان

يرتبط تطور الإنسان المتكامل بالتطور العميق للذات الأولية ومن ثم بالكون الكبير. إن واقع تفكيرنا الذي لا يمكن تصديقه هو أننا كنا موجودين أصلاً ومنذ إنبلاج الكرة النارية الأولية. يوجد شيء من التذكر الحيوي "البيولوجي" في رحـــم الأم يذكرنا بأننا نرتدي خياشيم ولنا أذيال وزعانف للأيدي. وفي الوقت الحالي يعتبر وجودنا وجود للماضي أيضاً (شيلدراك Sheldrake, 1988) يوجد بداخلنا نـــزعة ملحة عميقة وترابط مع تاريخ النشوء الذي لا يصدق والإبداع الذي منه وفيه انبعثنا من لحظة لأخرى والذي يتضمن عبقرية التـــي تذهلنا وتجعلنا نشعر بالتواضع.

وكما أشرنا سابقاً، فإن ماضينا القريب قد شهد خسوفاً وكسوفاً بالمعنـــى الكونـــي. وفي هذا الإطار، فإن تطور سياق القيم أصبح مقيداً نتيجة للرؤية العالمية التـــي حددها الحداثة الراهنة حتـــى تم توصيف الأخلاقيات في هذا السياق بمواصفات بشرية. إننـــي أعتقد بأن قصة الأبعاد الكونية تتطلب قيم جديدة لصياغة سلوك أخلاقي يتوافق وقصة الكون. والمطلوب هنا، هو المعيار الأخلاقي الذي يحكم كل السلالات وأنواع الكائنات بما يحفظ حق الجميع في الوجود والبقاء. إننا نحتاج إلى سلسلة من الإرشادات التـــي توجه جميع الناس، وأينما كانوا بغض النظر عن العرق أو الجنس أو الثقافة أو الموقع الاجتماعي. وكيف يا ترى يمكن تحقيق ذلك؟

وفي إطار قصة الكون ، يكون العمل الجيد أو الأخلاقي هو الذي يعزز تطور الأرض والكون بأكمله واستمرارهما نقية ومتكاملة ويعمل نحو تحقيق التنوع والذاتية والمشاركة. أمَّا الأنشطة والأعمال التـــي تصنف بأنها تعيق التنوع والذاتية والمشاركة تعتبر أنشطة ذات قيم تثير التساؤل ومشكوك في جدواها. إن ما يمكن ملاحظته في هذا التقديم هو أن معنـــى العمل الأخلاقي لا يقتصر على الإنسان ولكنه يشمل كافة جوانب مجتمع الأرض. وهكذا تكون الأخلاق متضمنة في إطار العلوم الكونية الوظيفية التـــي تخاطب الكون كله بما في ذلك قصة الأرض. إن المهمة الكونية تندرج ضمن عملية التفاضل أو التمايز وترتبط في أسمى معانيها، بالتساؤل عن من نكون نحن كأشخاص؟ ومن نكون كمجتمعات معينة؟ يمكن لنا إذاً أن نقول، بأن لكل شخص عبقرية خاصة ومصير معين يجب التعبير عنه. هذا المصير

يكون مرناً ومفتوحاً وليس مسبق التشكيل. إن الطبيعة الرادكالية المتطرفة للتنوع هي الإبداع الذي يصاحبه عبء الوجود وعبء ما سيكون عليه حال الفرد مستقبلاً وبشكل مختلف عن أي شيء آخر في الكون. ويمكن أن نضيف ، بأنه لكي يكون الفرد لنفسه بنفسه كفرد أو كمجتمع، لابد له أن يكون متميزاً أو فريداً بكيفية مختلفة عن كل ما هو موجود في الحاضر وكل ما كان موجوداً في الماضي وكل ما سيكون موجوداً في المستقبل، إن ذلك يعني مايضيفه الفرد إلى أي علاقة لا يمكن إعطاؤه من قبل أي شخص آخر في الكون. وينطبق نفسه القول على المجتمعات. إن كل مجتمع أو فرد يسهم بسمة فريدة في كل علاقة يكونها أو يدخل فيها (سويم وبيري Swimme and Berry, 1992). إن المبدأ الأخلاقي للذاتية يتطلب القيام بمهمتين لتحقيقه.

المهمة الأولى هي تنشيط وتدعيم العمل العلمي المفيد للإنسان. إن البشر كنوع من الكائنات الحية دخلوا هذا العالم غير متكاملين بدرجة درامية. ونمونا الكامل يتكامل من خلال النمو مدى الحياة. إن نمو البشر وتطورهم يعني ترشيد الإحساس الإنساني وتعميقه من خلال التدريب ليتمكنوا هم أيضاً من الإحساس بالكون. أمَّا المهمة الثانية فهي إشباع الحاجة إلى قوة أو وسيلة تتحقق من خلال شَحْذ وتعميق أحاسيسنا وتعني القوة المتكاملة بأننا من خلال تطورنا وتحقيق أقصى مستويات إمكانياتنا، يمكننا أن نكوِّن مراكز للقوة الذاتية. إن تطوير هذه الذاتية يعني أننا كأشخاص نتعامل مع أنفسنا بجدية فيما يخص مصيرنا كمبدعين لهذا الكون. ويمكننا أن نرى الآن نشوءنا كجنس بشري له آثار قوية. إننا مشاركون في خلق هذا الكون. إن هذا الكون وفي جميع الأوقات وفي تمام كما له يمكنه العمل كأي فرد معين ، بل ويعمل فقط كأي كان معين موجود. إننا نريد أن ندخل هذه القوة بوعي تام بمعانيها في إطار أرضي متكامل بدلاً من تسفيهها أو استهلاكها هدراً أو الادعاء بأنها ليست موجودة (سويم وبيري Swimme and Berry, 1992).

وأخيراً يصبح المجتمع أخلاقياً بالمعنى الكوزمولوجي إذا أدرك بأن الإنسان يحتاج لأن يصبح واعياً مباشرة وبعمق لارتباطنا الوثيق داخل هذا الكون، كما يتضح ذلك من خلال البقاع التي نقطنها. ولكي نكتشف الحقائق المتعلقة بهذا الوثاق العلائقي للكون، يجب علينا التنقيب عميقاً في أنظمة أجهزتنا العصبية المركزية وفيما بين طبقات الذكاء التي

تحتويها أجسامنا. إن كل من جسم الفرد والتنظيمات البيئية "Ecosystem" يمكنهما اكتشاف بأن كل الكون مرتبط ببعضه البعض بسر غامض عميق من المشاركة. والدخول في علاقة معينة لا يعنـــي الدخول في الانسجام، حيث توجد علاقات تكونت من خلال الاختلافات الناتجة عن الصراعات والصادرة عن الخوف. وبغض النظر عن ذلك، فإنه حتـــى في العلاقات الصعبة توجد إمكانية وقدرات للإبداع المتقدم. وفي حالات التوتر الناتج عن الصعوبات والاختلافات، يمكن أيضاً ظهور تقدم إبداعي. إننا نحتاج إلى هذه المقدرة في أوقات الاختلاف كما نحتاجها كذلك في أوقات الانسجام والاتفاق.

وعلى المستوى البشري، فإن مهمة تكوين العلاقات تعتبر ذات تحدي رئيسي للمجتمع الإنسانـــي الذي يحاول الحفاظ على وجوده من خلال ارتباط تحكمه علاقات وجه لوجه. إن معظم الحضارات والأديان تهتم أولاً بتنمية وتدعيم القدرات من أجل تكوين العلاقات. إننا نحتاج إلى تنمية قدراتنا من أجل الانتماء والترابط على مستوى كل التفاعلات الإنسانية وكذلك المشاركة في العلاقات العميقة لقوى الكون.

إن المؤسسات الحالية للحداثة قد وطدت جذور عميقة وقوية من الإحساس بالذات إلى درجة نتج عنها ارتباك ومعاناة شديدين إضافة إلى التغريب والتشتت اللذين نعانيهما حالياً. (بيلان Bellan, 1985). لقد صنف (كريستوفر لاش Christopher Lasch, 1978) هذا التقوقع الذاتـــي الذي لا قيمة له ولا طائل من ورائه كذات دنيا دنيئة. إن ما هو أكبر وأخطر من ذلك، هو أن هذه الذات المتدنية إضافة إلى النظرة الميكانيكية للعالم يتضمنان ممارسات ضد العالم الطبيعي، ثم تعليمها وتطبيقها عن طريق أنشطة التعليم والتربية. ومن وجهة نظر الفردية والميكانيكية اللتين يتم تبنيهما عالمياً واللتين يعتبران الطبيعة، هي أيضاً ميكانيكية، فسوف نرى في النهاية تدمير الحياة التكاملية للمجتمع بأكمله بدلاً من أن يكون لصالحنا كما كان مفترضاً. ومن خلال هذه العملية، تسببنا في تدمير نظام الحياة ذاتها. إن تقنياتنا لا تعمل بانسجام مع تقنيات الأرض. نحن نرغم الأرض على الإنتاج فوق طاقتها وبمخالفة لقوانينها الطبيعية. وحيث أننا افتقدنا قدرتنا لاستحضار قوى الطبيعة والتودد لها، أصبحنا بالعنف والقوة نفرض أساليب ميكانيكية على العمليات الحيوية. ونتيجة لذلك، أصبحنا نعيش الآن في عالم تتدهور خصوبته تدريجياً ، عالم تم إفساده. إنه أصبح عالماً فاقداً

لنقائه. لقد فرطنا في خصائص العالم الممتازة الواهبة للحياة. إن نتائج هذا التفريط، هي التـي نعانيها الآن من خلال الأزمة البيئية، وهي أكبر بكثير من الأزمة التقنية في أعمق مستوياتها. إن موقع الفردية وتشكيل العالم من خلال "الذات الدنيا" هي أزمة تتعلق بالمعنـى والإدراك اكتسبناها في غياب المعنـى والإدراك الواعي الكوزمولوجي الذي حدث مع نهاية مرحلة السينوزويك المنقض. وعلى مستوى الأساسي، فإن الدفاع عن البيئة هو دفاع عن الكون وليس دفاعاً عن جمال الطبيعية فقط (إيفرندين Evernden, 1985).

المنشأ الأول: العالم الشخصي كعلاقة كلية

عند تفحص النظريات الاجتماعية والسياسية الغربية وتركيزها الشديد على النمو المستقل للأفراد، يجد المرء دون مفاجأة، بأن النظريات والممارسات الغربية تركز على العالم الشخصي وتعزز المفهوم الذي يتضمن مواصفات "الذات الدنيا" لقد جادلت بشدة من خلال أعمالي ومؤلفاتـي الخاصة في مجال علم النفس النقدي (أوسليفان O'Sullivan, 1984; 1990) في سبيل توضيح أن العالم الشخصي في مستوياته العميقة، ما هو إلاّ كليات وعموميات مترابطة. وبالنسبة لي شخصياً ، فإن الفكرة الأساسية وراء الفرد ككليات مترابطة، هي عدم وجود إحساس للفرد دون الإحساس بوجود المجتمع. والتطور الشخصي ما هو إلا عملية شاملة للعلاقات الديناميكية المعقدة المتشابكة من التنوع والذاتية والمشاركة.

ولكي نبدأ النقاش حول تطور العالم الشخصي ولكي نشمله داخل القالب الاجتماعي فلابد لنا من تقديم الفكرة العامة عن التبادل، أما أفكاري الخاصة في هذا المجال مستوحاة من أعمال الفيلسوف (جون ماكماري John MacMurray, 1957; 1961) الذي يعتقد بأن النمو والتطور الشخصي يشمل نوعاً من التبادل حيث يسلك الشخص مسلكين في آن واحد هما آمراً ومأموراً أو فاعلاً ومفعولاً.

لقد عرفنا من خلال الأبحاث الحديثة في مجال النمو بأن الطفل الصغير يشترك في علاقة تبادلية مع مربية مما يعطي الملاحظ شعوراً بوجود الإحساس المشترك بين الطفل ومربيه. وعند إنجاز هذه العملية بنجاح يبدو نمو الطفل مزدهراً وتظهر عليه علامات الارتياح. ونحن كأشخاص ، يبدو وأننا في حاجة ماسة إلى الشعور بمثل هذه العلاقات التبادلية والتعرف

عليها. وفي غياب هذه الناحية من نواحي النمو الاجتماعي خلال مراحل نمونا المبكرة الهشة، تظهر على تطورنا علامات الانهيار والتصدع ذات النتائج المدمرة. ويبدو أن البشر مجبورين نحو المشاركة العاطفية والوجدانية وحب الانتماء الممكن. ويعنـــي الانتماء هنا المعايشة المشتركة بين شخص وآخر في أعمق مستويات الذاتية. ولعلّه من الواضح، بأن كل سلالة تحمل في ذاتها قانوناً. يشير إلى مسؤولياتها في تعزيز العمليات الحياتية الخاصة بها. ونحن أيضاً واعين جداً بأن هناك وعي مشترك بين السلالات يعدّنا من البدايات الأولى على الانفتاح على حياة كونية أوسع من العالم الشخصي أو عالم السلالة الواحدة. إن الشعور بالارتباط مع كل قوى العالم هي مصدر أولي لكل جوانب تطورنا اللاحق. إننـــي أصنف هذا كحق أولي منذ الميلاد أو هي البراءة حيث تقف كل قوى الكون لتساعدنا خلال هذه الرحلة الرائعة التـــي نسميها هبة الحياة. إننا في عالمنا الحديث قوضنا رؤيتنا نحو جودة العلاقات العميقة لكل الحقائق التـــي تبناها السكان الأصليون والذين يقولون "كل علاقاتـــي هي علاقاتنا جميعاً" مع أنه من المهم جداً ، أننا في إطار سلالاتنا قد اقتصرت رؤانا على تقديس كل جوانب الحياة. وحتـــى لو كانت الأسرة الإنسانية، في كل مظاهر سلوكها، تكرس جهدها لتطور الحياة والحفاظ عليها، فنحن لازلنا مدركين لما يسميه (تشيلس جلنيدنج Chellis Glendinning, 1995) "القالب الأول" الذي يضعنا في عمق وعرض السياق الموسع لكل من الكوكب والكون بأكمله.

ويساعدنا (ستانسلاف غروف، Stanislav Grof, 1985) على فهم هذا المنشأ بتقديم خارطة تتبعية لعملية نمونا وتطورنا. ويتحدث "غروف" عن خارطة توضح نمو مرحلة ما قبل الميلاد. وفي مراحل طفولتنا الأولى المبكرة يكون تطورنا عن طريق الغذاء الذي يقدمه المربون والذي يعطينا بدوره شعوراً بالأمن والانتماء في هذا العالم الذي يعطينا الثقة الأساسية والإيمان بعمليات الحياة، حيث يكون الوعي بأننـــي أنا موجود في وعينا نحن جميعاً. وإذا سارت الأمور سيراً جيداً خلال مراحل الميلاد وبعدها مباشرة ، يكون درس استحداث واكتشاف شعور الانتماء والارتباط قد تم استيعابه ويمكنه دفع التطور اللاحق والتقدم به.

وخلال المرحلة الثانية من النشوء أو المنشأ. هناك إمكانية لتطور الهوية الذاتية والاعتزاز بها إضافة إلى تطور المركزية ووضوح القدرات ومنها إمكانية ظهور "أنا المدرك"، وهذا ما أعنيه

بتطور العالم الشخصي. إن إطار نمو العالم الشخصي يشمل تركيبات الحاجة حتـــى يمكننا أن ننمو ونتعلم ونؤدي وظائفنا جيداً ونحقق مطالبنا اليومية ونشارك بفاعلية في الحياة الاجتماعية.

إن المرحلة الأخيرة تساعدنا على أن نطور الإدراك الواعي الذي يسمح لنا بتكوين رؤى ومعانٍ من الحالات غير الاعتيادية للإدراك. إنه الضمير الواعي الذي يسميه (غروف Grof, 1985) "بالضمير عبر الشخصي" ويصفه "وكأننا جميعاً في شخص واحد". إن الوجود متحد حيث تكون الذات عالماً لوحده ويكون العالم ذاتاً لوحدها. إنـــي سأطلق تسمية "مستوى عبر الشخصي في الضمير الواعي "الذات الكوزمولوجية". ويجب أن نعي جيداً هنا، أن كل هذه الحالات يمكن ويجب أن نستشعرها وندركها ونخبرها على كل مستويات نمونا من الطفولة المبكرة إلى مرحلة النضج الكامل. وعلى سبيل المثال، يجب أن لا نضلل القارئ نحو التفكير بأن المرحلة الأخيرة التـــي يتحدث عنها "جروف Grof" بخصوص "عبر الشخصي" هي ببساطة عبارة عن عمليات مراحل النضج. توجد أدلة مؤكدة على أن الأطفال عادة مايكونون على قدر هام من الشعور بما نسميه "عبر الشخصي". إن وجود ثقافات السكان الأصليين في العالم الطبيعي ، تم وضع أساساتها في إطار إحساس كونـــي عميق. إن مباركة "أومها Omaha" هي مباركة الميلاد التـــي تقدم المولود الجديد إلى الكون. لقد تشرفت بحضور مناسبتين ، قام "توماس بيري" فيهما بإعطاء الطفل اسم التنصير وبقراءة ابتهالات صلوات "أومها" وكانت ابتهالاته كالتالي:

اسمعي أيتها الشمس ويا أيها القمر والنجوم
اسمعونـــي يا كل الموجودين في السماوات
إننـــي أتوسل إليكم بالإنصات لي
إنه بيننا جميعاً لقد ظهرت حياة جديدة
إننـــي أتوسل لكم بالموافقة والقبول
مهدوا له الطريق. مريحاً. لعله
يصل إلى ذروة الهضبة الأولى

اسمعوا يا أيتها الرياح والسحب والأمطار
والضباب، جميعكم يا من تتحركون في الهواء
والفضاء. أتوسل أن تسمعونـــي إنه في رحابكم ظهرت حياة جديدة
مهدوا له الطريق. لعله يصل إلى ذروة الهضبة الثانية
اسمعونـــي أيتها الهضاب والوديان والأنهار
والبحيرات والأشجار والأعشاب
جميعكم اسمعونـــي. إننـــي أتوسل إليكم
أن تسمعونـــي
إنه في رحابكم قد ظهرت حياة جديدة
اجعلوا غسله جيداً. مريحاً. لعله يصل إلى ذروة الهضبة الثالثة
اسمعونـــي أيتها الطيور صغيرة وكبيرة
التـــي تطير في الهواء. اسمعونـــي
أيتها الحيوانات صغيرةً وكبيرة
التـــي تتمختر في الغابات. اسمعونـــي
أيتها الحشرات التـــي تزحف من خلال الأعشاب والمخابئ والجحور تحت الأرض
إننـــي أتوسل إليكم لتسمعونـــي
إنه في رحابكم ظهرت حياة جديدة
مهدوا له الطريق. مريحاً. لعله يصل إلى نهاية الهضبة الرابعة
اسمعونـــي يا كل من في السماوات وأنتم
يا كل من في الفضاء ويا كل من على الأرض
إننـــي أتوسل إليكم لتسمعونـــي
إنه في رحابكم قد ظهرت حياة جديدة
إننـــي أتوسل إليكم بالقبول والمباركة
مهدوا له الطريق. مريحاً. لعله يسافر إلى وراء الهضاب الأربع.

الصدمة والأضرار والعنف. عرقلة المنشأ الأول

إنه لمن الضروري جداً أن ندرك جيداً، بأن أي إساءة للمنشأ الأول في عملية النمو، سوف تكون لها تبعات مدمرة على نمو الإنسان، إن العرقلة التـــي تنتج عن التصدع في علاقات الترابط قد تؤدي إلى صدمة وضرر لنمو الإنسان. إن جوهر الضرر النفسي يكمن في تجريد الفرد من السلطة وحرمانه من الاتصال بالآخرين (هيرمان Herman, 1992). إن الآثار السلبية التـــي يعانـــي منها الناس كنتيجة لتدهور الأوضاع في المنشأ الأول، أصبحت الآن مفهومة في الدراسة التـــي تسمى، "أعراض صدمة ما بعد الميلاد". وتوجد خلال العقدين الأخيرين دراسات مفصَّلة وأبحاث كلينيكية على الضحايا تركز أساساً على الضغوطات الناتجة عن أضرار الصدمة. إن التشتت والانفصال خلال مرحلة المنشأ الأول هما نتيجة للضغوطات النفسية الناتجة عن أضرار الصدمة الأولى التـــي تنتج بدورها عن العنف والاعتداء على الأطفال وأوهان القتال والإرهاب السياسي والتدمير البيئي. الاختراق هو العنف تحت أي قناع من الأقنعة المتعددة التـــي يرتديها، ونحن الآن بصدد إدراك العموميات والتشابه بين ضحايا الاغتصاب الأحياء وبين قدماء المحاربين، وبين النساء المسحوقات والسجناء السياسيين، وبين الأحياء من ضحايا معسكرات الاعتقال الكبيرة التـــي أنشأها الجبابرة الذين يحكمون الأمم وبيم الأحياء من معسكرات الاعتقال الصغيرة المخبأة التـــي أنشأها جبابـــرة مماثلون في البيت (هيرمان Herman, 1992). إننا الآن بصدد إدراك أن الحضارة الغربية عبر تاريخها قد خلقت هوة كبيرة في العالم الطبيعي في كل مظاهره من غير الإنسان. ونحن كبشر نأتـــي الآن على نوع من الإدراك يجعلنا نستشعر عظمة الأهمية لمجمل حياتنا التـــي تكمن في الارتباط بالعالم الطبيعي. ويزودنا العالم النفسانـــي المناصر لصوت المرأة (تشيلس غلنيدنج Chellis Glendinning) بالإحساس بمدى ومجال الارتباط وكذلك الإحساس بمعنـــى الضياع الذي يظهر نتيجة لفقدان الارتباط التاريخي.

"ولكوننا مخلوقات ولدنا لنعيش ونبقى في مشاركة مهمة مع العالم الطبيعي، فإن اختراق هذه المشاركة أو عرقلتها تشكل أساساً ظهور أضرار الإصابة الأولية. وهذه الإزاحة المنظمة للبشر من حياتهم، ومن مشاركتهم السابقة المفترضة والملغية مع العالم الطبيعي، من الأجزاء الدقيقة لنسيج الأرض، إلى الفصول الأربعة والشمس والنجوم التـــي تحمل الرضع خلال الأنهار باحثة عن ضالتها "اللعبة المقدسة" المتمثلة

في وقود وطاقة قوة الحياة. إنه لمن القسوة بمكان، أن يتم في العالم الغربـــي وبصورة تدريجية بطيئة ترويض النباتات والحيوانات أولاً. ثم وبمعدل مكثف ظهرت الحضارات الكبيرة ثم تطورت بعد ذلك المجتمعات التقنية بمعدلات سلبية، حتـــى لتصبح أنت وأنا نستطيع العيش لمدة أسبوع أو شهر بدون استنشاق رائحة الأشجار أو مشاهدة ظهور وأفول القمر أو رؤية حيوان في البرية أو على الأقل إدراك ترابط العلاقات بين مصائرهم ومصائرنا. إن الإصابة الأصلية التـــي نعانيها هي عدم تقديمنا إلى الطبيعة، سواء بوعي أو بدونه. والسبب هو أننا لا نعيش في عالم طبيعي. إنه إبعاد وإزاحة نفسية. إنه نفيٌ موروث في الحياة الحضارية. إنه في الواقع تغريبنا وتشردنا وضياعنا. (غلنيدنج ,Glendinning 1995; 64).

إن الصدمة والضرر الذين تم وصفهما هما نتاج الإحساس بالضياع والتشرد الذين تحدث عنهما "غلنيدنج" سابقاً لا يمكن تجاهلها في نقاشنا هذا حول الضغوطات الناتجة عن الصدمة والضرر الأولي. نحن نحاول إعادة الإحساس بالضياع الذي نعانيه بسبب انفصالنا عن منشئنا العميق وتربيتنا الأولى التـــي يقدمها العالم الطبيعي للبشرية في رحلتها "رحلة الحياة". إنها علاقة المشاركة التـــي تعتبر ترياقاً أو تطعيماً مضاداً للسم الذي يصاحب الذات المغلقة لإنسان ما بعد الحداثة. ويتطلب ذلك توسيعاً لآفاق مناحي نمونا وتطورنا لتصل حدود الذات البيئية.

التعليم من أجل وعي كونـــي: تنمية الذات البيئية

إن علاقتنا مع العالم مبنية على أسس التكامل من خلال الاندماج المتين بدلاً من تشييد الحدود الذي يعتبر تحدّياً للذات الدنيا المغلقة لإنسان ما بعد الحداثة. وبالتحرك إلى ما وراء الذات الفردية أو المطالب الذاتية الدنيا إلى ذات مشاركة تتطلب إحساساً مكثفاً للذات التـــي سنعرِّفها "بالذات البيئية". ستصل إلى الذات البيئية التـــي تتكامل مع أبعاد التنوع والذاتية والمشاركة. إن هذه الذات البيئية يمكن تحقيقها بديناميكية من خلال عمليات التوحُّد مع الآخرين والانتماء إليهم، وعليه فالذات البيئية هي عملية توحد وانتماء. ويقترح (وورك فوكس Warwick Fox, 1990) وجود ثلاثة أنواع عامة من القواعد لاستيعاب المشاركة والتـــي يمكن الإشارة إليها في إطار التوحد البيئي. هذه القواعد للتوحد تتم الإشارة إليها، *بالشخصي والكونـــي* وما هو متعلق بعلم الوجود "*الوجودية*".

الشخصية التـي ترتكز على التوحُّد والهوية تشير إلى خبرات المشاركة الاجتماعية للجماعة مع كينونات أخرى مثل المدارس والنوادي والبلدان والأمم والقارات. التوحُّد والانتماء لا يشير فقط إلى الوجود المادي الملموس مثل الأصدقاء والآباء والأقارب والحيوانات المنـزلية وغيرها ولكنه يشير أيضاً إلى عملية التوحد مع الآخرين كشيء شخصي لأننا نخوضها كجزء من كينونتنا وأي هجوم على سلالة من نتوحد معهم نعتبره هجوماً علينا شخصياً (و. فوكس W. Fox, 1990).

إن التوحد أو التماثل العاطفي العميق المبنـي على الذات يختلف عن التوحد المبنـي على الوجود والمفاهيم لكونية. وبتعريف الأخير كتوحد "غير الشخصية" بمعنـى أنه لا يرتكز على الذات. إن علاقات الهوية المتبادلة لا تؤدي وظائفها على مستوى اتصالات أو علاقات هذا الشخص أو ذاك أو حتـى تلك المؤسسة. إن التوحد أو تحديد الهوية المبنـي على الوجود المشترك أو عبر الشخصية مع شخصيات أخرى يشير إلى الخبرات المشتركة والعمومية. ومع كل ذلك يمكن إحداث مثل هذا التوحد عن طريق التحقق من الحقيقة التـي تفيد بأن الأشياء هي كما وصفها "وورك فوكس" في أنها التوحد والهوية المبنية على الوجود ويوضحها كالآتـي:

"إن الفكرة الأساسية هي أننـي أحاول الاتصال عن طريق الإشارة إلى التوحد المبنـي على الأساس الوجودي وهي الحقيقة. الحقيقة المدهشة حقاً، هي أن الأشياء تنطبع بذاتها لدى بعض الناس بكيفية جذرية، حتـى أن كل الأشياء الموجودة تتضح في المقدمة طاغية على خلفية الصورة لعدم الوجود. إن البطلان والفراغ اللذين تظهر منهما المقدمة لحظة بعد أخرى. هما الإحساس بالخصوصية أو الطبيعة المتميزة لكل ما هو موجود، وهو في حد ذاته "الطبيعة" أو "العالم كله" الذي يتم تجريبه والتعرف عليه ليس كعقبة خلفية مجردة مضادة لما تهتم به هواياتنا وذواتنا المتميزة ويظهرون به أنفسهم ولكنه تعبير لإظهار الوجود "مثال ذلك مجرد الوجود" كما هو وجودنا نحن. ولعلنا جميعاً قد جربنا هذه الحالة من الوجود. إن هذا الإحساس بالمشاركة العمومية. وبكل ما في ذلك ، فإنه ببساطة وفقاً للحقيقة لابد وأن تكون هكذا في لحظات معينة، إن الأشياء هكذا شيء خير من لا شيء. إن ذلك مدهش حقاً (و. فوكسW. Fox 1990: 251).

إن هذا النوع من الهوية يمكن تحقيقه من الجميع تقريباً في حالات نادرة. غير أن الحصول

على هوية وجودية مستمرة وعلى المدى البعيد ، لابد لها أولاً من وجود مسار لتطور روحانـــي. إن هذا النوع من الهوية يتطلب انفتاح أقصى على كل الموجودات ويتطلب مستوى هاماً من التوحد أكبر من الاهتمامات ضعيفة الأفق للهوية الذاتية.

أمَّا *الهوية الكونية* فهي التـــي تشير إلى تجارب المشاركة الجماعية والمجتمعية التـــي تظهر من الإدراك العميق للحقيقة التـــي تفيد بأننا وكل مظاهر الوجود الأخرى أتينا إلى الوجود من حقيقة واحدة تتضح تدريجياً (و. فوكس W. Fox, 1990). إن هذا النوع من التحقق أو التوحد في الهوية يمكن تحقيقه من خلال التمازج والتآزر المعبر لعلوم الميثالوجيا والعلوم الدينية والكونية والكوزمولوجيا العلمية، ويشير (تيلهرد ديكاردين :Teilhard de Chardin 1959 256) إلى توحد هذه الهوية الكونية على أنها عملية تجديدية لا نهائية:

> إن الأبعد مدى والأكثر عمقاً هو أنه كلما زاد اختراقنا للمادة عن طريق المناهج المتنامية في القوة يوماً بعد يوم ، كلما كنا مطوقين ومرتبكين بتداخل عناصرها والاعتماد المتبادل لمكوناتها. كل عنصر من عناصر الكون يلوِّح إيجابياً من خلال العناصر الأخرى: يلوح من أسفل ذاته عن طريق الظاهرة الغامضة للمركب الذي يجعله كائناً موجوداً من خلال قمة الكلِّ المنظم. ومن فوقه من خلال أثر اتحاد نظام الترتيب الأعلى الذي يمزجه. يسيطر عليه من أجل نماياته الخاصة (ديكاردين، de Chardin 1959: 265).

لقد قمنا بتعريف التطبيع والأهلية الكونية مع قصة الكونية. وتوجد آراء مختلفة حول هذه العمليات العميقة وعن العمليات المتجددة وتوحُّدنا معها في الهوية. إن هذا التعمق في العملية ا لكونية الكلية هو من الواضح مصدر للطاقات الهائلة.

ويمكن ملاحظة هذا الاتحاد من خلال وجهات النظر العالمية لدى معظم السكان الأصليين. وكذلك الحال مع "التوزميه Taoism" وهي ديانة صينية. وأيضاً مع الآفاق النشوئية الحديثة. (كاردين Chardin, 1959) و(بريجوجين مع ستيجرز Prigogine and Stengers, 1984) أو (جانتاش Jantsch, 1984) وهؤلاء قليل من كثير. إن الأكثر أهمية في أوقاتنا الراهنة هو القصة الكونية التـــي اتضحت مصادرها في اكتشافات العلم الحديث ، ويعتبر تطور النشوء موضوع الاتحاد العظيم للعلم الحديث. إن هذه الخلاصة لا تعتبر خاتمة نهائية لقصة الكون. وحتـــى مع التيار القوي لوجهات نظرنا الحالية حول النشوء الكونـــي،

فنحن لازلنا نعترف بأنه مع مرور الزمن سوف تكون هناك حاجة لتعبير وتعديل وجهات النظر تلك وخاصة حول المواضيع الحاسمة بالخصوص. إن ما نستطيع استخلاصه عقلانياً في هذا السياق هو موقف ثابت أخلاقياً وعقلياً نحو الاتجاهات العامة حتـــى مع تحوير أو مراجعة بعض الخصوصيات المحددة.

نحن لازلنا نمتلك كل أسباب الاعتقاد بأن وجهات النظر الخاصة التـــي تبطل هذه الآراء ستكون متطابقة تماماً مع الفكرة العامة التـــي مفادها بأن جميع الكينونات في العالم ما هي إلاّ جوانب متعددة لحقيقة واحدة متحدة والتـــي أصبحت متنوعة بمرور الزمن. إن تبرير مثل هذه الثقة لا يكمن فقط في الحقيقة التـــي تقول بأن كل الدلائل الموجودة في جميع الأنظمة والمجالات العلمية تشير نحو هذا الاتجاه، ولكن تكمن أيضاً في الحقيقة التـــي تقول بأنه حتـــى في أكثر العلوم تطرفاً مثل "التـــي يمكن قياسها عملياً" والتـــي تتحدى نظرنا العلمية الحالية توجد مثل هذه الإشارة نحو ذلك الاتجاه العام (و.فوكس).

إن موضوعنا الرئيسي ليس قصة النشوء بل هو آليات النشوء. فعلى سبيل المثال، ماهي العمليات التـــي تحدد التنوع في الكون مع مرور الزمن؟ (و.فوكس، 1990 — سوهاثورز، 1989) .

إن صورة هذا التعريف بالكون التـــي كنا نقوم بوصفها تحمل معها مطلباً تاريخياً غير عادي من السلالات البشرية. إن صعوبتنا الحالية هي أننا نتصور الكون ببساطة في أبعاده المادية فقط. إننا افتقدنا الانتباه إلى أن الكون منذ بدايته كان روحياً إضافة إلى أنه كان أيضاً حقيقة مادية فيزيائية. إن الدورة الكاملة لعملية النشوء كانت لتمكّن الكون من وجود تعبيراته في انبلاج الأشكال الحية وفي الأنماط المختلفة للوعي والضمير التـــي تظهر وتتجسد عبر امتداد أطراف الأرض. إن الأرض تتكامل مع ذاتها من خلال امتدادها الكلي في الفضاء وفي التسلسل الشمولي لتحولاتها عبر الزمن. إن المركّب الروحي الأسمى كان موجوداً منذ البداية مثله مثل كل أشكال الحياة التـــي كانت موجودة منذ البداية وأظهرت تعبيراتها في مراحل لاحقة. إن الكون الحالي هو تلك الكرة النارية في أوضح شكل لها. بينما تكون الكرة النارية هي الحاضر في شكلها الأصلي البدائي. إن حيز انحناء الفضاء العظيم يحمل جميع الأشياء مع بعضها البعض في احتضان متقارب إلى درجة تكفي لتكوين مركّب متكامل

للكون ، ومع ذلك فهو مركب مفتوح إلى درجة تجعل الكون قادراً على مواصلة الانبلاج والظهور. وفي هذا الإطار نحتاج لتحديد وتوضيح موقعنا في عرفان واستدراك جديد لهويتنا الكونية. إن الكون يتضح في ذاته وفي أسمى لحظات تألقه من خلال أنفسنا وكذلك في ملاحظاتنا الأمبريقية.

وإضافة إلى هذه الهوية الكونية، يستحق البشر كسلالة ، اهتماماً خاصاً، ونحن غالباً مانتحدث عن أنفسنا كأفراد، كأمم وثقافات أو مجموعات عرقية. نحن نتحدث عن المشروعات متعددة الجنسيات أو حتـــى المنظمات الإنسانية العالمية، غير أن هذا يختلف عن اعتبار أنفسنا كسلالات أو أنواع. إن مشاكلنا هي حقيقة مشاكل أنواع وسلالات، وهذا واضح في كل جانب من جوانب سلوك البشر وسماقم. توجد صعوبة كبيرة في تحديد الكيفية التـــي يمكن بها أن نؤسس سياقاً فعالاً من أجل ازدهار وتماسك نمط بشري لوجودنا. ويمكننا التأكد من خلال شيء واحد، وهو أن مستقبلنا مرتبط دون انفصام بمستقبل الحياة الشاملة للجميع الذي أتـــى بنا إلى الوجود، ويدعمنا في كل مظهر من مظاهر جودة حياة الإنسان. إنه يدعمنا ويمكننا من الإحساس الأخلاقي والعاطفي وفي مدركاتنا العقلية والثقافية وكذلك في الإحساس بالمقدس، مثلما يمكننا من الاستشفاء وتغذيتنا البدنية.

ويقدم كل من (سويم وبيري Swimme and Berry, 1992) سياقاً كونياً من أجل البقاء. أنهم يستعرضان رؤى وانتقادات تخص مرحلتنا التاريخية الراهنة. لقد غامرا باستعراض الأفكار المتعلقة بأخلاقنا التـــي بدأت منذ بداية الكون مثلما بدأ كل واحد منا وجودنا جميعاً منذ بداية الكون. ليس فقط تكويننا البدنـــي أو الفيزيائي الذي بدأ مع بداية تأسيس الكون ولكن تكويننا الروحي بدأ هو الآخر في تلك اللحظة إضافة إلى التكوين الأخلاقي للكون. إن هذا التشكيل الأخلاقي محكوم بثلاثة مبادئ أساسية، هي التنوع والذاتية والمشاركة.

إن مسيرتنا الحالية هي في الواقع اختراق لكل مبدأ من هذه المبادئ الثلاثة. إنه اختراق لأكثر مظاهر الأصول، فبينما تكون الاتجاهات الأساسية للنشوء نحو التنوع المستمر في الإطار العام لنظام الكون، يتجه عالمنا المعاصر وجهة الثقافات الذاتية المنفردة. إن هذا اتجاه موروثات الآلة ومجمل العصر الصناعي. إن هذا يتطلب تقنيات وعمليات ثابتة لا تباين فيها من التكاثر دون تضخيم أو تخصيب معانيها. وفي الإطار الأخلاقي المقبول، نعترف نحن بأن كل حقيقة

تتميز بخصائص فريدة وهي التـــي تقرر قيمتها المطلقة لكل من الفرد والمجتمع. وكلاهما يكمِّل الآخر، حيث يكون اختراق حقوق الفرد اعتداءً على المجتمع في ذات الوقت.

والالتزام الأخلاقي الثانـــي الذي ينتج عن العمليات الكونية، هو أن كل فرد ليس فقط مختلف عن أي موجود آخر في الكون ولكنه يتميز أيضاً بخاصية داخلية ارتباطية فريدة. إن كل موجود يحمل في أعماقه الذاتية السر الروحي منذ ظهور الكون إلى الوجود. وهذا مايمكن تعريفه بالعمق المقدس للفرد.

والالتزام الأخلاقي الثالث نابع من العملية الكونية حيث نجد أن الكون كله مرتبطاً مع بعضه البعض بطريقة تجعل وجود كل فرد موجوداً ويتم الشعور به عبر كل مدى الفضاء والزمان الكونـــي. إن هذه القدرة على ربط مكونات الكون مع بعضها البعض يمكِّن الكم الهائل من تنوعات الكائنات من الظهور إلى حيز الوجود في تلك الغزارة الرائعة التـــي نلاحظها من حولنا.

الالتزام الأخلاقي المعاصر، هو أن هذه الرحلة تتواصل في المستقبل من خلال تكامل أنظمة الحياة المنبلجة على الأرض والتـــي أصبحت الآن مهددة بالانقراض. إن السقوط الأخلاقي الكبير في أيامنا هذه هو إنهاؤنا لهذه الرحلة لأعداد كبيرة من ألمع أعضاء مجتمع الحياة. إن الحقيقة المروعة لعصرنا هذا، هي أننا، وكما أشار (نورمان مايرز Normans Myers, 1984) إلى نوبة الانقراض التـــي يبدو أنها ستؤدي إلى أعظم نكبة منفردة لتوازن الحياة والتنوع منذ أول اضطراب للحياة الذي حدث منذ ما يقارب من أربعة ملايين سنة مضت. إن العمل والرعاية والطاقة التـــي استنفدت عبر البلايين من السنوات والبلايين من التجارب التـــي لا نعلمها من أجل تكوين أرض رائعة كهذه التـــي أصبحت الآن نَكِرَةً ويتم إبطالها في أقل من قرن من الزمان مما نعتبره تقدماً نحو حياة أفضل في عالم أفضل. إن عالماً محطماً وعالماً من العجائب يبدو وأنهما استبدلا المواقع.

مجلس كافة المخلوقات: تعلم يكرس طقوس الهوية البيئية

إن مجلس المخلوقات كافة يشير إلى قانون خاص للطقوس ومنظومة من العمليات والممارسات التـــي صممت لتتبنـــى هوية ذاتية أوسع نطاقاً. أنها الهوية التـــي سبقت

الإشارة إليها "بالذات البيئية" إن تنمية هذا الإحساس بالهوية من خلال الطقوس كانت مهمة العديد من علماء البيئة والنشطاء من أنصار حماية البيئة من خلال أعمالهم التي سميت *"التفكير مثل الجبال": "نحو مجلس لكل المخلوقات* (سيد وماكاي Seed and Macy, 1988). إن القيمة التعليمية لهذا العمل، تكمن في محاولته لتطوير الطقوس التي تُظهر الروابط الداخلية للإنسان مع العالم غير البشري. إن مؤلفي هذا العمل يشيرون إلى وجود طرق متعددة يمكنها أن تقدح الإحساس العميق بالهوية التي نشير إليها "بالذات البيئية". إن طرائق تعزيز الخبرة المتعلقة بالهوية البيئية تمتد من الصلوات والشعر ومشاهدة البرية إلى العمل المباشر في الدفاع عن الأرض. لقد أشار الكتاب إلى أننا الآن في حاجة إلى تعليم فعَّال من أجل تنمية هوية بيئية. إن التربية يجب أن تؤسس على رغبة مقصودة ومؤكدة في صدقها بإعادة الارتباط بين الطبيعة ومستويات الوعي العميقة بعمليات النشوء. إن الآتي هو وصف مقتضب لعمليات الهوية البيئية التي يطمح مجلس "كل الكائنات" إلى تنميتها مع عالم الحيوانات والكائنات الواسع من غير الإنسان.

إن بداية عمليات المجلس تشمل الانشغال بعدد من التدريبات الجماعية بهدف غرس وتدعيم نـزعة الوعي لدى الإنسان في شبكة الحياة العامة لكل الحيوانات. إن هذا العمل قاده التأمل في "التذكر التطوري" وتبعته فترة في العصر الخشبي أو حياة البرية بقصد البحث عن الموجودات غير البشرية "حيوانات، نباتات، أنهار، جبال" التي يتم الشعور ببعض الارتباط معها والتي سوف يمثلها ذلك الشخص في المجلس. يطلب من كل مشارك أن يرتدي قناعاً أو نوعاً آخر من تمثيل هذه الكائنات. إن مثل هذا السلوك سوف يساعد المشاركين، عبر الأيام على تعلُّم الانفصال عن التمركز البشري المسيطر. ويبدأ المجلس اجتماعه مع منتصف النهار. وكل المشاركين أحيطوا علماً بأن اجتماعهم هذا سيعدهم لتحمل أعظم مسؤولية مقدسة. إنهم سيمثلون في المجلس كل أنواع الكائنات الأرضية ويتم تشجيع المشاركين على إدراك أنهم جمِّعوا من أجل شن حرب ضدهم من قبل البشر.

إن دمار أنظمة حياة الأنواع والسلالات ودمار أفق وخصائص الغلاف الجوي للأرض، ودراسة ما يمكن عمله تجاه هذه الأشياء. وباستخدام التأمل والتفكير العميقين ومتابعة الطقوس يمكن للمشاركين أن يتنقلوا داخل وخارج إنسانيتهم ، ويتعلّمون كذلك كيف

يطلقوا من شعورهم بالذات من خلال استشعار تراب النجوم الذي يتدفق في شرايينهم وبتذكر رحلة النشوء والارتقاء التـــي اتبعوها على مدى 4.5 أربعة بلايين ونصف سنة. في شكل وجود عضوي. إن تعلُّم التخلص من الاشتراط الثقافي للذات وتعلُّم الشعور بالتداخل المتبادل مع الطبيعية ، يحتاج إلى تحول جذري في الأنظمة التعليمية المعاصرة. لا توجد حدود على أرض الواقع، فأنا هو أنت ونحن أيضاً أنتم.

عندما يتم تعريف النشوء. سيجتمع المجلس لغرض الاستغاثة عن طريق الطقوس الرئيسية. وهنا تنادي الكائنات المجتمعة بعضها البعض ومن خلال بعضهم البعض إلى كل الكائنات الأرضية ليخبروهم عن الأخطار التـــي تهدد الأرض ومخلوقاتها. ليخبروهم عن الأسف والأحزان وخيبة الأمل وحثهم على الاستنكار والرفض العملي.

وأخيراً يشرع المجلس في تدريبات مبدئية على ممارسة الطقوس والتأملات الموجهة. وعندما يجتمع المجلس ثانية ، توجه دعاوى إلى بعض الحاضرين لارتداء هويتهم البشرية والشروع في الاستماع نيابة عن البشر. إنها دعوة إلى الاستماع إلى 10 عشرة ملايين سلالة. إنهم يريدون نقل مشاعرهم حول ما يجري إلى أبناء البشر وكذلك مشاعرهم حول كامل الدراما البشرية. إن التعبير عن المشاعر هذه تلقى تشجيعاً من كل المشاركين. بعدها يعاود المشتركون الاجتماع كبشر ويسألون الأرض أن تفوضهم من الآن فصاعداً، لتمثيل مصالح السلالات التـــي لا تحصى في تعاملاتهم مع بقية أفراد البشر.

إن هذه الطقوس الخاصة هي مثال محدود عن كيفية تنمية الهوية البيئية. أنها مثال عن عملية تعليم الراشدين. إننـــي لا أريد أن أترك القارئ بالانطباع الذي يجعله يعتقد بأن الميلاد البيئي الشخصي هو مهمة تربوية وتعليمية خاصة بالراشدين فقط. إننا متأكدون بأن الأطفال لديهم قدرات هائلة للتوحد مع شبكة الحياة العامة ، مما يجعل الأهداف التربوية والتعليمية في "التعلُّم البيئي" عملية تبدأ مع الطفولة وتظل مستمرة إلى نهاية الحياة.

جودة تعليم الحياة : رؤية تحولية إيكوزوكية

أخبرنـــي، ماذا تخطط عمله بحياتك المتوحشة والثمينة الواحدة؟

(Mary Oliver)

إن العالم الذي نجد فيه أنفسنا ونقضي فيه الأحداث البارزة لحياتنا يبعث إلينا بإشارات تنذر بالخطر. يجب أن نعترف بأن الكوكب الذي نقطنه هو في خطر. أصبح من الصعب في يومنا هذا أن نذهب إلى أي مكان دون أن نصدم باكتشاف الجرح العميق لعالمنا ولبنية نسيج حياتنا. إن التحدي الكبير الذي يواجهنا هو اكتساب الشجاعة لاعتناق هذا العالم واحتضانه في قلوبنا. إن مشاكلنا الحالية ليست سهلة للتحديد والمعالجة. نحن في هذا العالم الصغير (العالم الأول) يجب علينا أن نواجه نوعية الحياة التـــي أنجبناها أن نتحمل أيضاً، مسؤولية تدنـــي نمط حياتنا ونمط حياة العالم الكبير بما فيه عالمنا. إن النقطة الجوهرية في اقتصاد السوق العالمية الشاملة هي الفائدة، والهدف المهم والوحيد يتمثل في النمو الاقتصادي المعبر عنه في الناتج الوطنـــي الإجمالي. وتقديساً للسلعة فقد بعنا هذا العالم لحلم الفائدة، في الوقت الذي ابتاعت فيه القوى العاملة في الغرب فكرة المستوى المعيشي، غير أن هذه الفكرة لا تمثل سوى جملة مقارنة لتخبرك عما إذا كانت قدرتك الشرائية قد ارتفعت أو انخفضت في إطار مستوى الأجور. المستوى المعيشي لا يضيف شيئاً لنوعية الحياة. إن رؤيتنا الاقتصادية للسوق قد تركت بمجمل ثقافتنا في أزمة مدلول وشعور بعدم جدواها. ويؤكد (ميشيل لرنر، Micheal Lerner 1996) في ختام تحليله أننا نتوق أكثر إلى مدلول ومعنـــى الحياة. إن قيمنا الثقافية بارتباطها بالسوق الاقتصادية قد غمرتنا في تشاؤم عميق يجعلنا نطرح تساؤلاً عن وجود معنـــى أعمق وغاية أسمى للحياة فيما وراء الاهتمام المادي. النقطة الجوهرية لهذه النـــزعة المادية وتمجيد الاهتمام بالذات هي أننا في عالم يسوده لا مبالاة بالذات (لارنر Lerner 1996).

عندما يُسأَل الناس للتفكير ملياً في حياتهم، فإن من المدهش أن ما يشيرون إليه هو حقاً مهم. فالاستهلاك لا يشكل أولوية لديهم. أكثرية الأشياء التـــي يعتبر الناس أن لها مدلول في

حياتهم تتمثل في الممارسات الدينية، الحوار، الأسرة، ولمّ شمل الجماعة، المسرح، الموسيقى، الرقص، الآداب، الرياضة، الشعر، الحرف الفنية والإبداعية، التعليم وتذوق جمال الطبيعية (ديورينغ Durning 1992). غير أنه من الواضح أن شريحة واسعة من الناس، حتـــى في عالمنا الغربـــي المستهلك، هي مستاءة ونافرة من التنوع وكثرة السلع الاستهلاكية. وقد أدى ذلك، في شمال أمريكا وغيرها، إلى الميل نحو الاهتمام بالحقوق السياسية والإنحرافات الفاشية. ويحذر (ميشيل لارنر Micheal Lerner 1996) بأننا سنفتقد لبعض المفاهيم الهامة حول الحاجات الجوهرية للناس، إذا ما صرفنا النظر عن فهم الحقوق السياسية في الوقت الحالي. لاهو ولا أنا يمكننا غض النظر عن ما يميز طبيعة الاتجاه العميق نحو كره الأجانب، والعنصرية العرقية، وعنصرية ما بين الجنسين، ولقد زادت قوة هذا الاتجاه في يومنا هذا. وبالرغم من ذلك، فإن الفهم الراشد لهذه الحقوق يوصلنا إلى جوهر الأهداف المعنوية ويمكننا من إدراك أسباب فشل الكثير من الحركات الاشتراكية الديمقراطية في إلهام تصور الشعوب.

ورغم الصعاب، فلقد أنجزت الحقوق السياسية نجاحاً باهراً، لأنها كانت قادرة على إقناع شريحة واسعة من الناس بأن برامجها ستحقق حاجاتهم الجوهرية وتزيل في نفس الوقت مخاوفهم. إن الحقوق السياسية قدَّمت للناس برنامجاً منحهم إحساساً بالاهتمام بالآخرين، وبالجماعة ككل وهي حاجة عميقة حقاً. وفي نفس الوقت، فقد اندرجت هذه الحقوق في إطار البرنامج الليبرالي الجديد لاقتصاد السوق الحر الذي ألغى مفاهيم سياسة المجتمع المستقر على مستوى الحياة اليومية (جيدنس Giddens 1994).

وانطلاقاً من إطار سياسات تقدمية ومعانـــي اجتماعية غير محدودة، لا يجب ربط قيم الاهتمام والحرص بالمجتمعات القمعية. إلا أن هذا لم يتحقق. يعتقد أن سبب ذلك يعود إلى ذوبان الحل الديمقراطي الاشتراكي في إطار السوق التنافسية، ليصبح بذلك جزءاً من نمط حياة جديدة بدلاً من أن يكون متضمناً لها. إن المعايير الجوهرية للسلوك الفردي في السوق قد سيطرت مؤخراً على معايير الوعي الاجتماعي المتضمنة في البرامج الديمقراطية الاشتراكية. وقد استنتج (لارنر Lerner 1996) أن مختلف أصناف الليبرالية كانت غير قادرة على فهم تنامي الفاشية خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، ولازلنا غير قادرين على فهم الحركات اليمينية في العالم المتطور في أواخر التسعينيات. وعندما يتمعن "لارنر" في

الحركات التقدمية اليسارية، فإنه يرى عجزاً مماثلا لأن السياسة اليسارية غامرت كثيراً باتخاذ مواقف منافية ومعارضة لليبرالية. وهو يرى بعض خطوط التشابه بين هذين النقيضين. ويعتقد أنه في الأوقات التـــي اكتسب فيها اليسار شعبية قصوى، انكب اهتمامه حول أبعاد أنشطته السياسية، وهو إلى حد الآن لم يدرج في نظريته فهماً لشرعية الحاجة للاعتراف والرعاية، وأقل من ذلك كثيراً التوق نحو المعنـــى الأخلاقي والروحي.

ومن خلال الأبواب التمهيدية السابقة لهذا الكتاب، توصلت إلى الاستنتاجات نفسها. وعند مناقشة الحقبة الأخيرة لفترة السنوزويك، وهي فترة انهيار تاريخي تشبه تماماً ما نعيشه نحن الآن، لاحظت أن كل التقاليد السياسية المكتسبة تظل قاصرة عن الإيفاء بمتطلبات العصر. نحن بحاجة إلى رؤية سياسية جديدة تشمل على ما يسميه (لارنر Lerner 1996) سياسة الأمل والمدلول. وبالرغم من أن سياسات المدلول هذه يجب أن تعالج الاحتياجات الأعمق للمجتمع الإنسانـــي، إلا أنها ستفشل بسرعة في تحقيق ذلك إذا لم تشمل وتحتضن المجتمع العريض لكوكب الأرض، وكيف تمثل الإنسانية جزءاً من منظومة كاملة تشكل النسيج الحياتـــي. يجب علينا أن نجعل هذا العالم ينسجم مع المجتمع البيولوجي العريض وإدخاله أكثر في نسق حميمي، وهذا يتفق مع ما حدده (توماس بري Thomas Berry 1989) في مبدئه الحادي عشر.

نحن بحاجة إلى رؤية تحولية إيكوزوكية، يجب أن تتحد قلوبنا مع العالم وأن ندافع عنه كأنه جزء منا. واليوم يجب أن نفهم أن عالمنا يتضمن داخله ذاتية وباطنية عميقة تجعلنا نسلم بوجود ما يسمى *"أنيما موندي* *anima mundi*" (روح العالم)، إن هذا العالم مفعم بالروح وهو بالنسبة لنا منبت أولي يسمح لنا بالدخول والنمو عبر نهر الحياة. وانكب عالم النفس "مهالي سيكسينتماليي Mihaly Csikszentmihalyi) لمدة تزيد عن عقدين من الزمن في دراسة الظروف التـــي تجعل حياة الناس سعيدة وموفقة. وقد وصل مهالي من خلال دراسته الموسعة إلى استنتاج أمر يراه واضحاً، وهو إن المال والاستهلاك لا يمثلا معياراً مؤسساً لدرجة

---

* أنا لا أستعمل هذا المصطلح بالمعنـــى الذي أستعمله (يونغ Jung) وكتاب حديثون آخرون على الروح. أنظر على سبيل المثال (ساردیلو، Sardello 1995).

السعادة والتوفيق في الحياة، ويعتبر إنجازه مثالياً في مجال "نوعية الحياة" (سيكسينتماليي Csikszentmihalyi 1990; 1993; 1997). والتعليم من أجل نوعية الحياة هو السبيل لحياة ملؤها الحيوية والسعادة، وما يعرّفه مهالي "بالتدفق". التدفق هو روح الوعي التـــي توصلنا إلى أعمق درجات التركيز، إلى غاية "الامتصاص أو التشرب المطلق". هذا النمط من التشرب هو حجر الأساس لتطوير تجارب ذات جودة لحياتنا (سيكسينتماليي Csikszentmihalyi 1990). أفضل حياة ممكنة هي تلك التـــي تعي حاجات الإنسان التـــي تكرم التنوع، وتحترم فردانية الذات كما تحترم الجماعة في داخل الجماعة الإنسانية وتتسع لتبلغ أعماق حياة الأرض والكون ذاته. ويشير (أنتونـــي جيدنـــز Anthony Giddens) إلى هذا التوجه بـــ "سياسات الحياة" (جيدنـــز Giddens 1991; 1994). إن توجه "سياسات الحياة" لـــ "جيدنـــز" يطور فكرة "كيف يجب أن نعيش؟" في النمط ما بعد التقليدي، والذي من خلاله سترتقي أشكال الحياة المعنوية إلى مستوى التحقيق الذاتـــي في إطار الاتكال المتبادل الشامل. هذه الأنماط من الاهتمامات هي التـــي سنلتفت إليها الآن.

احتياجات الإنسان: تصور لقانون طبيعي

إن فكرة القانون الطبيعي ترتبط بتصور كون منظم. ويمكن فهم هذا التصور بإدراك نظام يتضمن تتابع وتكرار الظواهر الطبيعية، ووجود دورات من التفاعلات والعلاقات البينية ضمن العالم الطبيعي يمكن التنبؤ بحدوثها. إن الفكر الغربـــي ومنذ عصر أرسطو Aristotle تضمن تصورات متعددة عن الطبيعة، كان من بينها تصور الطبيعة كمصدر للعدالة، رغم وجود مفاهيم تشريعية قائمة تخص موضوع العدالة. لقد وجدت نظريات القانون الطبيعي هذه، بناءً على الأسس الفلسفية اليونانية القديمة. ومنذ عصر النهضة الأوربية استُخدمت هذه النظريات كذريعة لتأسيس المذهب السياسي الليبرالي. ويوجد الآن انبعاث لهذه التوجهات في مسارات تفكير المعرفة المعاصرة (رنس Runes 1955) وبالنسبة "لأرسطو" فإن الإنسان عليه أن يدرك، من خلال الملاحظة ومحاكاة الطبيعة ومساءلتها، ما هو طبيعي وما هو تابع ومطابق لنظام الطبيعة. ويتمثل الحق الطبيعي تماماً في إدراك أن العدل هو الانسجام التام مع نظام الطبيعة. وبالتالي يستند إلى قاعدة موضوعية ثابتة ومستديمة (وينر Wiener 1973).

إن القانون الطبيعي والنظريات السياسية في المعتقدات الغربية هي شكل من القانون الطبيعي والتبرير العقلانـــي التـــي تم تبنيه كأساس للنظام الأخلاقي. وبالرغم من أن هذه التطورات تم استخدامها كمصدر لتعزيز الوعي بالنظام المؤسس على تسلسلية السلطة فقد تمّ استخدامها أيضاً لتبرير إجراءات تعسفية لتظهر وكأنها إجراءات طبيعية. (وعلى سبيل المثال، يعتبر نظام الرق والعبودية جزءاً من النظام الطبيعي لدى أرسطو) يجب عدم التخلي عنه. إننا سنعتمد هنا منظور قانون طبيعي يتسم بالخصب والديناميكية والوعي للتغيرات الناجمة عن التطور. إننا نبدأ هذه المسيرة معتمدين على منظور القانون الطبيعي الذي طوره (روبيرتو مانجابـــيرا أنجر Roberto Mangabeira Unger). من خلال عمله (*المعرفة والسياسة* *Knowledge and Politics* 1975) الذي يبرز فيه موقفاً جلياً حول منظور القانون الطبيعي غير الجامد.

ولا يمكن للإنسانية قاطبة ولا لأي فرد منها أن يخترق جوهر التاريخ أو يدرك مسيرته، إلا أن التجربة الشخصية المنفردة، هي في الواقع تواجه مجموعة معينة من المشاكل المعقدة والمترابطة بيعضها والتـــي تظهر من خلال التعاملات الفردية مع الطبيعة ومع الآخرين ومع الذات وما دامت المشاكل والسبل المثالية في التعامل معها، كلاهما متواصلين في الزمان والمكان، فيمكن للفرد إذاً أن يتكلم عن طبيعة إنسانية وخير يشمل الكون. رغم أن الاستمرارية لا تعنـــي بالضرورة الديمومة والاستمرار (أنجر Unger 1975: 215).

إن توجهاتـــي، وهي شبيهة بتوجهات "أنجر" تأخذ موقفاً عن قانون طبيعي يعزز العمليات التطورية، وهي معطاءة غير محدودة، وذات استيعاب تاريخي متطور مع الزمن. وسنناقش الآن أسباب تبنـــي هذه التوجهات الفكرية.

إن فرضيتـــي الأساسية التـــي أناقشها في هذا الفصل هي أن التعليم المتناغم مع *نوعية الحياة* يجب أن يؤسس على حاجات الإنسان الحقيقية. وعندما نتفحص الحاجات الأساسية الواقعية للإنسان، ونتأمل عما يمكنها أن تكون، يجب علينا أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار أن هذه الحاجات نابعة من أعماق طبيعتنا. ويذهب (توماس بيري، Thomas Berry 1988; 1989) بعيداً ليقول بأن البنية المعمقة لحاجاتنا هي جزء من عمليات أوسع تحدث في كوكب الأرض وعليه، بل وتمتد أكثر من ذلك لتشمل الكون بحمله. وفي نطاق كوكبنا هذا، توجد

تركيبية معقدة ورائعة في رموزها الجينية، ومتداخلة فيما بينها إلى درجة تجعل كل رمز يرتبط بغيره ويعتمد على الرموز الأخرى. إن الحقل الثقافي الجينـــي للإنسان يتيح للنوع البشري حرية تطوير السبل التـــي تمكننا من تكوين هوية وحيدة من نوعها عبر الزمان والمكان. وإضافة إلى ذلك، فإن الرموز اللغوية الثقافية تمكننا من نشر أنشطة النوع البشري ونقلها إلى غيرنا من خلال اللغة والخيال. هذه العملية الخلاقة البديعة نطلق عليها تسمية *ثقافة الإنسان*. إن الرموز الثقافية هي جزء فعال من طبيعتنا، وهو ما توصلنا إلى تعريفه بالطبيعة الثانية ويمكن ملاحظة فعالية الرموز الثقافية من خلال تنوع الأنماط السلوكية والأنشطة المتنوعة التـــي تمارس في بعض المستويات الثقافية المتطورة. وكذلك من خلال التطورات التاريخية لمراحل الثقافة الإنسانية السابقة التـــي منها، حضارات العصور الحجرية القديمة والحجرية الحديثة أو الكلاسيكية وكذلك عصور العلوم الحديثة وظهور العصر الإيكوزكي.

إنه في أي وقت محدد من الزمن يعمل كل كائن حي في إطار بنية ذات حدود وإمكانات. وهذا ما أقصده عندما أتحدث عن قيود وحدود الطبيعة البشرية التـــي نخضع لها. ويخضع جزء من بيئتنا لتطور زمنـــي خلال أي وقت أو فترة زمنية. إن البنـــى الأساسية للأنظمة وأصناف الكائنات الحية تحمل بصمات الماضي التـــي تمكن العادات الطبيعية التلقائية من الكينونة من خلال بنية الكائن الحي في إطاره التاريخي. ويسمى (روبرت شيلدراك،Rupert Sheldrake 1994) حضور الماضي في الحاضر المجال المورفوجيني* (أو التشكلي). وما يقصده "شيلدراك" هو انعدام وجود قوانين مقولبة أو نهائية للطبيعة. إن جودة قوانين الطبيعة رائعة وغير محدودة وفعاليتها مثيرة، وهذا ما أوصلتنا إليه معرفتنا الحالية وما ستؤكده استنتاجاتنا المستقبلية. وعلى الرغم من أن كل الأنظمة الحية والكائنات تتبع نماذج تاريخية ذات ضوابط وإمكانات طبيعية، فإنها تقوم بذلك ضمن نظام تطوري مفتوح مما يسمح بالإبداع والاستقرار في آن معاً. ويتسم هذا الإبداع بعدم الخضوع للنـــزوات والاستبداد. وحتـــى في إطار العمليات الإبداعية يمكننا ملاحظة مواقع الاستقرار بسبب

*المجال الذي يتكون فيه الشكل (التشكل) والمورفولوجيا فرع من علم الأحياء يبحث في شكل الحيوانات والنباتات وبنيتها.

العادات الموروثة التـــي تراكمت عبر الزمن. وكلما تكرر نموذج أو نظام تطوري معين، كلما تعدد تكراره مرة أخرى. ويسلم "شيلدراك" بأن الحقول "الشكلية" (مورفيك) هي السبيل الذي تتكون من خلاله عادات أنواع الكائنات لتتوارث وتبقى. ويقدم "شيلدراك" نظرية تطورية فعالة للعادات تتضمن تفاعلاً للإبداع والعادات. ويؤكد بأنه دون الإبداع لن تنشأ عادات جديدة. وبالتالي فإن الطبيعة تتبع نماذج متكررة وتسلك وكأنها محكومة بقوانين غير قابلة للتطور. وعلى عكس ذلك تماماً، فبدون التحكم في تكوين العادات، فإن الإبداع سيصبح عملية فوضوية لا يكون فيها شيء مستقر إلى الأبد (شيلدراك، Sheldrake 1994).

إننـــي كثيراً ما أؤكد من خلال هذا الكتاب، على أننا نعيش مرحلة تاريخية حاسمة تشمل الإنسان والأرض وتتميز بتحولات جذرية. إن بعض نماذج العادات التـــي ورثناها من الماضي أصبحت غير عملية في الوقت الراهن نتيجة للظروف التـــي نعيشها حالياً. ونحن مجبرين بالضرورة لاستحداث نماذج وأنماط حياتية جديدة تمكننا من البقاء أحياء وتتيح لنا فرص حياة مريحة ومستمرة. إننـــي أشعر بأننا غير قادرين على التعامل مع الأحداث التاريخية لحاضرنا من خلال الاستجابات السطحية التـــي نواجه بها المشاكل والصعوبات. إننا أصبحنا الآن على وعي تام بأن المعايير الغربية للتقدم والتطور لا تتوافق والمعايير الإنسانية التـــي تحافظ على البقاء بكيفية جيدة ولا المعايير التـــي تحافظ على ديمومة سلامة الأرض وبقائها. ويجب أن تنكب مهمتنا على تعميق وعينا وإدراكنا للتطور بالكيفية التـــي تأخذ بعين الاعتبار النطاق الواسع لحاجات الإنسان.

التطور بالمعايير الإنسانية: نموذج فعال لحاجات الإنسان الطبيعية

إننـــي أعتمد كثيراً على النموذج الإبداعي للتطور بالمعايير الإنسانية التـــي اقترحها (مانفريد ماكس- نيف ومارتن هوبنهاين Manfred Max-Neef and Martin Hopenhayen 1989). وعلى القارئ أن يستوعب بأننـــي لا أستخدم هذا المثال كتصور نهائي لحاجات الإنسان، وإنما استخدمته لتوسيع وتعميق إدراك القارئ للتركيبة المعقدة لحاجيات الإنسان وكيف توفر لنا هذه الحاجات أساساً يسمح لنا ويمكننا من الفهم والاستيعاب الدقيق لنوعية الحياة. ويجب أن يكون الأمر واضحاً منذ بداية النقاش، على أن هذا النموذج يمثل مقترحاً

فقط ولا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يكون معالجة نهائية قطعية لاحتياجات الإنسان. وعلى أي حال فإن تقديم مفهوم جديد جذرياً لمعنـــى التطور، وفي ضوء ما يطرحه مقدموه بوضوح تام، من أننا نتسم بفقدان القدرة على التخيل الخلاق. ومن وجهة نظري الشخصية، فإن أصحاب هذه الفكرة، هم حقيقة يقدمون تصوراً جريئاً وخلاقاً عن حاجات الإنسان، وسوف تكون حافزاً قوياً لبعض الأفكار التـــي أحاول أنا شخصياً تطويرها في هذا الفصل من الكتاب. إن شعوري بأهمية إنجاز (ماكسنيف وهوينهاينر Max-Neef and Hopenhayen's 1989) مبنـــي على كون عملهم مكملاً لتصوري الشخصي حول التطور الاندماجي التكاملي. إن مفهومهما حول التطور يرتكز على تلبية حاجات الإنسان الأساسية، وتوفير مستويات متنامية من الاعتماد على الذات، وبناء علاقات عضوية مترابطة مع الناس ومع الطبيعة ومع التقنية المتجددة. وتكون هذه العلاقات على المستوى المحلي والعالمي وكذلك على المستوى الشخصي ومع المجتمع وعلى مستوى التخطيط والاستقلال الذاتـــي وكذلك على مستوى المجتمع المدنـــي والدولة. ويؤكد كل من "ماكسنيف وهوبناينر" على أن أفضل مسار للتطور هو ذلك الذي يتيح أكبر قدر من التطور والجودة في نوعية حياة الناس.

وإحدى الفرضيات حول التطور بالمعايير الإنسانية، تؤكد على عدم التعامل مع احتياجات الإنسان على انفراد أو بمعزل عن بعضها البعض. بل يجب النظر إليها كمنظومة مترابطة ومتكاملة ومتفاعلة فيما بينها. إنه لمن الأهمية الحيوية أخذ الاعتبار بأن حاجيات الإنسان ضمن منظومته التكاملية لا تعتبر منظمة تنظيماً طبقياً. وعلى العكس من ذلك، فإن تلبية حاجات الإنسان، هي في الواقع تكاملية ومتزامنة التفاعل وتبادلية التحقيق. لقد تم تصنيف هذه الحاجات ضمن محورين رئيسيين يوضحهما جدول رقم 8.1. وتمثل مصفوفة المحور الثانـــي الحاجات التـــي تتعلق بالقيم والحاجات اللامادية. ويظهر جدول 8.1 كيف أن الحاجات المتعلقة بالوجود والبقاء، مثل، الوجود، الامتلاك، العمل، والتفاعل لها علاقة تفاعلية مع الحاجات المتعلقة بالقيم مثل الحماية، العطف الفهم والإدراك، المشاركة، أوقات الفراغ، الإبداع، الشعور بالهوية والحرية. ويميز صاحبا المقترح بين الحاجات والمشبعات ويؤكدان على وجود فروقات هامة بينهما. ويشيران إلى أننا لا يجب أن نعتبر الغذاء والمأوى

من ضمن الحاجات، ولكنهما مشبعات لحاجات أساسية وضرورية للبقاء. وكذلك شأن التربية (سواء كانت رسمية أو غير رسمية) والتعليم والبحث، حيث يمكن اعتبارها مشبعات للحاجة إلى الفهم. إن منظومات العلاج والصحة الوقائية يمكن اعتبارهما مشبعات للحاجة إلى الحماية. والعلاقة بين الحاجات والمشبعات ليست علاقة تقابلية بين كل حاجة ومشبع واحد إلى واحد ولكن يمكن لمشبع معين أن يساهم في نفس الوقت في إشباع حاجات مختلفة. وعلى نقيض ذلك، يمكن لحاجة ما أن تتطلب عدد مختلف من المشبعات لكي يتم تحقيقها.

ويوجد فرضيتان إضافيتان تتعلقان بالتمييز بين الحاجة والمشبع. وتتمثل الأولى في أن حاجات الإنسان الأساسية محدودة العدد وقابلة للتصنيف. وأما الفرضية الثانية، فهي تلك التـــي تفيد بأن حاجات الإنسان الأساسية هي نفسها عند كل الثقافات والمراحل التاريخية. إن التغيرات التـــي تحدث عبر الزمن وخلال الثقافات المتعددة، ما هي إلا طرق ووسائل يتم من خلالها إشباع الحاجات الإنسانية.

إن كل منظومة اقتصادية أو سياسية واجتماعية تتبنـــى طرقاً مختلفة لإشباع الحاجات الإنسانية. وتحديد كيفية إشباع الحاجات ضمن ثقافة معينة هو سبيل فعال لتعريف هذه الثقافة.

إن هذا النموذج، هو حقيقةً نموذج مناسب للتعامل مع معضلات الوقت الراهن. لقد زودنا كل من (ماكس- نيف وهوبنهاينر، Max-Neef and Hopenhayen 1989) بمثال جيد يمكننا من استطلاع وتفحص الظاهرة المعقدة المتمثلة في الفقر العالمي. ومن خلال تحليلاتهما الجيدة يتعمق فهمنا لهذا المفهوم. ومن خلال الرؤية التقليدية، فإن مفهوم الفقر يقتصر على الصعوبات التـــي يعاينها الناس من أصحاب الدخل المحدود الذي يصل إلى معيار يسمى أو يتدنـــى عنه خط الفقر. وعند انتقاد هذا المفهوم من وجهة نظر اقتصادية، فإنهما يعتقدان بأن الفقر ليس مفرداً، بل نحن نتعامل مع أشكال من الفقر. ويؤكدان على أنه عندما لا نتمكن من إشباع أي من حاجات الإنسان الأساسية، نكون إذاً وضع حقيقي للفقر الإنسانـــي. وتتمثل بعض الأمثلة في فقر المادة (نتيجة لقلة الدخل أو الطعام أو المأوى) وفقر الحماية والأمن (الناتج عن تردي المنظومات الصحية أو العنف أو سباق التسلح) الحرمان من الحب

(الناجم عن التسلط، والقمع والعلاقات المستغلة للبيئة الطبيعية)، وفقر الفهم والإدراك (الناتج عن النوعية الرديئة للتعليم)، وفقر المشاركة (الناتج عن التهميش والتعصب ضد المرأة والأطفال والأقليات)، وفقر الهوية (الناتج عن التسلط وفرض القيم الغربية على الثقافات المحلية والجهورية والهجرة الإجبارية والنفي السياسي). ويؤكد كل من "ماكس - نيف وهوبنهاينر" على أن كل فقر يولد أعراضاً مرضية. ويتعامل نموذجهما مع (البانالوجيات) أو الأعراض المرضية الاقتصادية مثل البطالة والمديونية الخارجية والتضخم المفرط للأسعار. أما الأعراض المرضية السياسية، فهي انعدام الأمن على المستوى الفردي والجماعي والتصريحات المعسولة الكاذبة (مثل تسمية الصواريخ البالستية على أنها صانعة السلام) والعنف والتهميش والنفي.

وتقدم مصفوفة الحاجات والمشبعات تمريناً لتشخيص الفرد لذاته أو للثقافات المختلفة. وأقترح استخدام هذا المعيار كأداة تشخيصية لمدى تلبية ثقافتنا الخاصة لهذه التركيبة المعقدة من حاجات الإنسان وكذلك تلطيف التعبير عن شيء بغيض. (مثلاً تسمى الصواريخ البالستية بصانعة السلام) والعنف والتهميش والنفي.

الجدول 8.1: مصفوفة الحاجيات والمشبعات

الحاجيات وفق أصناف القيم	الحاجيات وفق أصناف الوجود			
	الوجود أو الكينونة	الامتلاك	الأفعال	التفاعل مع
البقاء	الصحة البدنية، الصحة الذهنية، التوازن، الحس الفكاهي، التوافق	الغذاء، المأوى العمل	العطاء، التناسل الراحة، العمل	البيئة الحياتية، الواقع الاجتماعي
الحماية	العناية، التوافق، الاستقلالية، التوازن، التضامن	منظومات التأمين المدخرات الضمان الاجتماعي المنظومات الصحية الحقوق، الأسرة العمل	التعاون، الوقاية التخطيط، الرعاية الاستشفاء، المساعدة	الوسط المعيشي البيئة الاجتماعية السكن
العاطفة	الاعتزاز بالنفس	الصداقات	الجماع والمغازلة	الخصوصية

	التضامن، الاحترام، التسامح، الكرم الاستقلالية، الولع التصميم الأحاسيس، الحس الفكاهي	الصداقات، الأسرة، الشراكات العلاقات مع الطبيعة	الجماع والمغازلة العطف، تعابير المودة والاشتراك العناية، الرعاية التقدير	الخصوصية، الألفة البيت، أماكن التجمعات
الفهم	الوعي الانتقادي الاستقبالية الفضول، الاندهاش الانضباط، البديهة العقلانية	الأدب، المعلمون المناهج والطرائق السياسات التعليمية سياسات الاتصال	الفحص والتنقيب الدراسة، التجربة التربية، التحليل تسوية الخلافات والتوسط بين الأطراف	إعداد تفاعلات رسمية، المدارس الجامعات الأكاديميات المجموعات التجمعات، الأسرة
المشاركة	التكيفية، الاستقلالية التضامن، الإرادة والرغبة، التصميم، تكريس الجهد من أجل موضوع أو شئ معين، الاحترام، الولع، الحس الفكاهي	الحقوق، المسؤوليات الواجبات الامتيازات، العمل	الانتساب، التعاون، الاقتراح الاقتسام، المعارضة، الطاعة التفاعل، الموافقة على التعبير عن الآراء	إعداد تفاعلات تشاركية، الأحزاب الجمعيات، الكنائس المجتمعات، الحوار الأسرة
الفراغ والاسترخاء	الفضول والاستطلاع، الاستقلالية، التخيل، الإهمال الحس الفكاهي، الفتور والهدوء، الحسية	الألعاب، المشاهد الفرق والنوادي الأحزاب والبديهة والحكمة	أحلام اليقظة الاكتئاب، الأحلام تذكر الأحداث السابقة وأيام الماضي، الرضوخ للأوهام والخيال، التذكر، الاسترخاء والراحة المزاح والاستمتاع، اللعب	الخصوصية الوحدانية، الأماكن المغلقة الأوقات الحرة المحيط البيئي، الأفق الطبيعي
الإبداع	الولع، التصميم، الإلهام، التخيل، الجرأة، العقلانية، الاستقلالية، الحس الاختراعي الفضول	القدرات، المهارات المناهج والطرق العمل	العمل، الاختراع البناء، التصميم التشكيل، التفسير	الإنتاجية وتصنيف المردود، الورش المجموعات الثقافية الحوار والاستماع فراغات وأماكن التعبير، الحرية المؤقتة

الهوية	الحس بالانتماء الاستمرارية، التمييز، الاعتزار بالذات، إثبات الذات	الرموز، اللغة، الديانة، العادات، الأعراف، المجموعات المرجعية، الجنس القيم، المعايير، الذاكرة التاريخية، العمل	الالتزام، الاندماج مع الذات، المواجهة، اخذ القرار، اكتشاف الذات، الاعتراف بالذات، تحقيق الذات، النمو	إيقاعات المجتمع الترتيبات اليومية الترتيبات التــي ينتمي إليها الفرد مراحل النضج
الحرية	الاستقلالية الاعتزار بالنفس التصميم، الولع فرض الذات الانفتاح، الجرأة التمرد التسامح	التساوي في الحقوق	المعارضة الاختيار الاختلاف عن الغير، المخاطرة تطوير الوعي الالتزام، العصيان	المطاوعة، المكانية المؤقتة

ملاحظة: عمود الكينونة أو الوجود يظهر صفات، فردية أو جماعية، تم تسطيرها بصيغة الأسماء. وعمود الملكية يظهر إلهامات ومعايير وميكانــزمات وأدوات (ليست بالمعنــى المادي) والقوانين... إلخ، بحيث يمكن التعبير عنها بكلمة واحدة أو أكثر. ويسجل عمود التفاعل مواقع وأوساط (مثل الأوقات والفراغات). أنها تتمثل في عيد الفصح الإسبانــي أو (البيفندن الألمانــي befinden)، بالمعنــى المكانــي أو الزمانــي. وحيث أنه لا توجد لها مرادفات لغوية مقابلة في اللغة الإنجليزية تم اختيار كلمة التفاعل كحل وسط.

ويمكن لمصفوفة الحاجات والمشبعات أن تكون تمريناً خاصاً أو للتشخيص الثقافي. وأقترح استخدام هذا النموذج كأداة لتشخيص مدى تحقيق ثقافتنا الخاصة الغربية لحاجات الإنسان المعقدة.

التربية من أجل المجتمع والإحساس بالمكان

بسبب وجود ثقافات فرعية حتــى ضمن مجتمع مزدهر مثل مجتمعنا، وأنا أتحدث هنا عن ثقافات دائمة حيث يجب التعامل مع الموضوع بنظرة يكتنفها التباين والتمييز. عندما أشير إلى ثقافة دائمة، فأننــي أتعامل مع مجموعة حاجات الإنسان الأساسية والمشار إليها في الجدول 8.1. وكنتيجة للاقتصاد الاستهلاكي المفرط، تعوَّدنا على نمط من الحياة يتسم بتبنــي قيم سطحية ويضع معايير استهلاك السلع على قمة سلم القيم الإنسانية. لقد افترضت في الفصل

الرابع من هذا المخطوط بأن أنماط الحياة الاستهلاكية قاصرة تماماً في الإيفاء بمتطلبات إشباع حاجات الإنسان الأساسية. وعندما أشير إلى الحاجة إلى ثقافة دائمة، فأنني أعني الشعور بالاستمرارية يؤكد على علاقات التواصل في تلك البيئة الثقافية. بحيث تضفي على الأشياء قيماً إنسانية ثابتة ومستديمة ليمتلك المجتمع من خلالها شعوراً عاطفياً وإحساساً عميقاً بالموقع والمكان نفسياً وجغرافياً. وفي كلا الوصفين، يبدو وأن المجتمعات المزدهرة تشجع فكرة انعدام الديمومة بالتشديد على اقتصاد المنتجات والسلع التي تخضع لزوال مخطط له ونوع من الحركية والتنقل، إلى درجة تجد الفرد في أمريكا الشمالية ينتقل من مكان إلى آخر ما يقارب عشر مرات في حياته. إن مجتمعات مثل هذه لا تشبع حاجات البقاء ومصادر الرزق إلا جزئياً. إضافة إلى أن نمط الاستهلاك المفرط يزيد من تعقيدات الحياة ويزعزع حاجات الأمن والحماية. إن مثل هذه الأنماط الحياتية المفرطة في الاستهلاك والمؤدية إلى الشعور بفقدان الأمن، هي التي ساهمت في تفشي أمراضاً عصرية مثل أمراض القلب والسكتة القلبية وارتفاع ضغط الدم. إن نقص نشاط وتعطل جزء هام من حياة المجتمع المعاصرة يؤدي إلى حرمان حاجتنا للهوية وبشكل خاص حرمان من إيقاع والحاجة إلى الانتماء. خاصة في إطار إيقاعات الحياة اليومية للمجتمع.

إن الحاجة إلى إحساس بالجماعة والمكان هي مفقودة وتفتقر لها ثقافتنا. ويؤكد (وندل بري Wendell Berry 1978) أن اقتصادنا، حكوماتنا، ونظمنا التعليمية لا تعمل وفق الفرضية القائلة بأن للمجتمع قيمة. أما فيما يتعلق بالمكان، فيصف "دافيد أور"، أن ثقافتنا منحرفة وتستهلك قدراً كبيراً من الطاقة والزمن للرحيل إلى أي مكان آخر. إن الحركية المتسارعة في الحياة المعاصرة تجعلنا نقضي ساعات لا حصر لها من حياتنا ما بين الطرقات والمطارات. وتعليقاً على نوعية الحياة المعاصرة، يضيف (أور Orr 1992: 127) متأملاً، "نعيش حياتنا وسط التعابير المعمارية، السوبر ماركات (الأسواق الضخمة)، البيوت، الطرق، مكاتب الأبراج الزجاجية، والتطور للتنقل المتماثل، لا واحد من هذه الأوساط يشجع على الوعي والحس بالأصالة، المسؤولية والانتماء". إن معظم متطلبات الحياة ومكونات العالم المحيط بنا يتم توفيره من أماكن أخرى، نفاياتنا الإشعاعية والسامة، المياه القذرة والنفايات الصناعية يتم نقلها بعيداً عن محيطنا، وبدون علم الناس يتم تخزينها في مناطق أخرى.

وكنتيجة للعولمة، والانفصال عن جذور الماضي، وسرعة الزوال والاستهلاك تدهورت ظروف الحياة لدى الكثير من المجتمعات، مما جعل الناس ينتقلون لإيجاد أعمال أفضل، كما تنتقل الشركات للبحث عن عمالة أرخص. إن المنتجات الاستهلاكية تنتقل آلاف الأميال حتـــى تصل إلى الأسواق العالمية، أما "الموضة" فهي تتغير من فصل لآخر، كما يتغير الوسط الذي ينمو فيه الإنسان في غضون جيل واحد فقط. إن حسنا ووعينا بالانتماء إلى مجتمع مستقر وأمننا قد فقدا وسط فوضوية المحيط من حيث تغيره وحركيته. وكانت نتيجة ذلك فقدان الصلة بالوسط الذي نعيش فيه، ومع الناس الذين نعيش معهم ومع العالم الطبيعي الذي يحيط بنا (نوزيك Nozick 1992). وفي وضعنا الاقتصادي الحالي الناجم عن العولمة الشمولية، أصيب إحساسنا بالمكان بشكل عام نتيجة لتدهور مختلف المجتمعات في العالم. ويسرد (مارشيا نوزيك Marcia Nozick في كتابها *لا مكان سوى المنـــزل* *No Place Like Home* 1992) بعض العوامل التـــي تسبب أزمات الحياة الاجتماعية في كندا. إن الأسباب الأساسية لذلك هي التخلي عن التصنيع مما أدى إلى ترك آلاف الناس في المدن الصغيرة والمجتمعات الحضرية في أرجاء البلاد عاطلين عن العمل، نتيجة لقفل المنشآت الصناعية والتدهور البيئي الخطير الذي يسمم مصادر المياه والهواء الذي نتنفسه في معظم مدننا من خلال التلوث الصناعي ونفايات الاستهلاك، وفقدان التحكم والسيطرة على المستوى المحلي من قبل الحكومات أو الشركات الذين عادة ما توجد مقارهم الرسمية بعيدة عن تلك الأماكن ولصالح أفراد لا هم لهم سوى الحصول على الأرباح أو إدارة الناس والتدهور الاجتماعي وإهمال حاجيات الناس الأساسية، بحيث يتم تهميش عدد كبير من الناس، تشريدهم، تعطيلهم عن العمل، تجويعهم ووضعهم في حالات اجتماعية غير سليمة إضافة إلى تشويه الهوية المحلية والتنوع الثقافي لإفساد الانسجام مع قيم القرية المعولمة.

إن عمق حاجتنا للإحساس بالمكان هو مثلما يعبر عنه في عالمنا الطبيعي بالموطن الثابت والمستقر. وبالرغم من أن الناس يظهرون مرونة كبيرة في ترتيب شؤون حياتهم، إلا أننا نحتاج مكاناً لتلبية حاجاتنا للحماية، العاطفة، الفهم، المشاركة، الاسترخاء، والإبداع، والهوية والحرية (أنظر الجدول 8.1). ولإنجاز ذلك في الوقت الحالي، لابد لنا من وجود بديل للعولمة غير المحدودة، ويكون هذا البديل قادراً على المساعدة في خلق وعي بالمجتمع والمكان، ويمكننا

من تلبية بعض حاجاتنا الأساسية التـــي يعوق تحقيقها الاقتصاد العالمي في وضعه الحالي.

وعلى المؤسسات التعليمية على كافة المستويات أن تلعب دوراً محورياً في تعزيز وعي المجتمع بالمكان. ويتم ذلك من خلال إدراج دراسات حول "الوسط البيولوجي". ويندرج في سياق هذه الدراسات، دراسة الأرض، وتاريخ المجتمع والناس الذين استقروا في المنطقة. والغرض من هذه الدراسات هو زرع وعي بتاريخ المنطقة يكون من شأنه أن يجعلهم أوفياء ومرتبطين بالمكان الذي يعيشون فيه.

وفي الوقت الذي لا يمكن الاعتماد فيه على الاقتصاد العالمي الشامل في توفير الحاجيات الأساسية للحياة، فإن زرع الوعي بالمكان من شأنه أن يصحح أوهام ذلك الاقتصاد الشامل. إن التعليم والتربية من أجل وعي بالمكان ليس هدفه تعليم التاريخ فحسب، بل أبعد من ذلك في صنع التاريخ نفسه. بالنسبة للهدف الثانـــي، فإن التعليم المحلي يشجع كل مجتمع محدد الهوية بالتركيز على أهداف تعليمية تعزز الاقتصاد المحلي المستقل لتوفير السلع والخدمات لسكان المنطقة.

التربية من أجل التنوع بين المجتمعات

يمكن للمجتمعات أن يكون لها شعوراً وإحساساً بالاستقرار وبالمكان في الوقت الذي تفتقد فيه لعنصر أساسي لخلق عالم عصري. هذا العنصر يتمثل في الاهتمام والتسامح تجاه الاختلاف والتنوع. وإحدى المشاكل المستديمة التـــي واجهت المجتمعات الإنسانية في الماضي، ولازالت تواجهها في الحاضر، هي روح التضامن مع من يدخل في مجتمع كمجموعة واحدة وتشويه وعزل من يبقى خارجه. إن الأحاسيس العميقة المترتبة عن هذا الاتجاه يمكن مشاهدتها في الضغينة وجنون الاضطهاد اللتين ابتلي بهما تاريخ العالم في الزمن الحاضر، ونشير في هذا الصدد إلى البوسنة، رواندا، وايرلندا الشمالية، كأمثلة لنـــزاعات عميقة ولّدت أحقاداً في المجموعات والمجتمعات. وبالرغم من أن الأسباب التـــي أنجبت هذه الأحقاد بين المجموعات والأجناس هي معقدة ومتعددة، إلا أننا نعلم أن هذا المشكل لا يعير أي اعتبار للحواجز الجغرافية والثقافية والتاريخية. أثناء الجزء الأخير من القرن العشرين، وأدى العنف المتولد عن هذا النوع من الأحقاد إلى إبادة جماعية في بعض الأحيان. إن ادعاءات التطور في

هذا القرن تعتبر باطلة إذا ما نظرنا إلى درجة العنف الذي يذهب ضحيته الناس في كل أرجاء معمورتنا. إننا نلاحظ الرعب من مختلف سلوكات كره الأجانب، والعنصرية والتمييز بين الجنسين والإرهاب الديني. وعندما تجتمع هذه الأنماط السلوكية مع بعض ينتج عن ذلك معاملات قاسية تجاه مجموعة ما على أساس اختلاف معين. وما يمكن ملاحظته من خلال سياسات الإقصاء هذه، هو أن العالم سيكون أفضل بطريقة أو بأخرى إذا ما كان هناك تقارب نحو ثقافة واحدة. إن فكرة هيتلر حول الجنس الرائد، وفكرة التصفية العرقية هي في نفس المعنى. إننا نعلم من وجهة نظر علمية مؤكدة أن الفروقات بين الناس ليست مؤسسة على أي تفوق بيولوجي لمجموعة على أخرى. وفي هذا الإطار، تبرهن (دانيالا غيوسيفي Daniela Gioseffi) في كتابها المعنون *منظور شامل عن التحامل On Prejdice A Global Perspective* على التمييز العرقي مناقضة نظرة الاختلاف التـــي تفترض التفوق العرقي:

> ليس هناك أي اختلاف مبدئي، فيزيائي أو بيولوجي، بين يهودي وألمانـــي، إفريقي، أوربـــي، أو آسيوي، وبما أن كل هذه الأجناس الإنسانية قد امتزجت بشكل معقد، وكلها تجد جذورها في نفس الموروثات الجينية الناشئة من مكان ما منذ 250.000 سنة خلت من قلب إفريقيا. كلنا ولدنا بنفس الطريقة. وفي غياب الأرض أو غياب الماء أو نقصانه، ومن دون التربة التـــي تنمو من خلالها النباتات والكائنات الحية، سوف لن تكون هناك حياة في أي مكان على الأرض. هذا بالطبع ليس تصوراً مركزاً على إفريقيا، ولكنها حقائق العلم الجينـــي الحيوي، لا دخل له بالقيم الثقافية لأي بلد خاص أو لأحكام قيم من أي نوع كانت، وإنه لمن السخرية أن يتكلم أصحاب النازية الجديدة (أصحاب الرؤوس الجرداء Skinheads) أو (الكلو كلوكس كلان Klu Klux Klan) عن "أناس التربة" تعبير عن ازدرائهم، ناسين أنه من دون التربة الخصبة لا يمكن إيجاد أي حياة على وجه الأرض (Gioseffi 1993: xi).

ومتابعة للتفصيل في هذا الاختلاف، يمكننا النظر إلى المبادئ الثلاثة للتمايز، الذاتية والتواصل كمظاهر تعكس الاختلاف والتنوع. دعنا أولاً نفترض وجود مجتمع مغلق مثل مجتمع أبيض مسيطر بقيم دينية أساسية. على الأرجح أن مجتمعاً مثل هذا لا يملك سوى تسامح بسيط تجاه الناس ذوي البشرة الملونة، يمارس تعصبا دينياً أعمى، ومن المحتمل أن يكون ضمنه تنظيماً طبقياً يتعامل مع المرأة بطريقة قمعية. عندما يفتقر المجتمع للتسامح تجاه

الاختلافات فيه، تنشأ من خلاله تنظيمات طبقية تؤدي إلى العنف والتعصب الأعمى. وعند وجود هذه التنظيمات الطبقية، يحدث خلط في مفهوم مدى الذاتية التـي يمكن للمجتمع توفيرها. إن المجموعة المسيطرة لا تعي أي اعتبار لغنـى الاختلاف التـي يميز العالم الذاتـي للناس الذين يملكون معنـى ومدلولاً لا مثيل له لما هو جوانـي. إن الذاتية تعنـي العمق الجوانـي لكل الكائنات. ويمكن اعتبارها أيضاً مظهراً لشخصية الإنسان المؤسس على لغز جوهري. في الماضي سُمِّي هذا البعد الجوانـي للإنسان بالنفس. لا يختلف الناس فيما بينهم ظاهراً فحسب، بل كل إنسان يملك قصيدية عميقة تثري وتتعزز من خلال تاريخه المنفرد في العالم. إن الأعماق اللامتناهية للناس من كل الأجناس، الجنسين، والديانات وغيرها تتطلب منا نوعاً من الوقار والمهابة. ويتم فقدان هذه الأنسجة الفنية لهذه الأنماط من خلال التعصب العرقي. إننا الآن فقط بدأنا نعرف مقدار ما تم فقدانه نتيجة الجشع الاستعماري الذي كان يدمر الإبداع والروحانية في تلك الثقافات الطبيعية. إن المجتمع الذي يشوه الاختلافات ولا يأبه بـ (الذاتية العميقة للكائنات) يفتقد للإبداع وعادة ما يتعامل مع الاختلافات بعنف معنوي ومادي.

إن المثال الذي طرحته أعلاه هو فرضي، إلا أنه يمثل واحد من الكثير من الأمثلة عن اللاتسامح والإقصاء الذي نشاهده في عالمنا اليوم. وفي إطار العالم الشامل الذي نتوجه نحوه، هناك ضرورة تعليمية تفرض نفسها على كل سكان هذا الكوكب من أجل الدخول في نطاق المجتمعات ذات الاندماجية الأكبر. إن الاندماجية هذه لا تعنـي خرقاً للحدود، بل تعنـي الانفتاح نحو التنوع والاختلاف وبطريقة تحافظ على وحدة كل عضو. وبالتالي، فإن التعليم على مجتمع اندماجي هو مفتوح على المدلول الكامل للاختلاف وأيضاً لمعنـى اللغز العميق لأي فرد عند احترام مبدأ الذاتية. ومن المهم أن نفهم هنا أن المجتمعات الاندماجية لاتنشط على أساس التساوي وإنما على أساس الاختلاف في الإبداع. إن الاندماج في عالمنا اليوم لا ينشأ في حيز مغلق، ولكن الكثير من المجموعات والمجتمعات تظهر على درجات مختلفة من الاندماج. الانتقال نحو الاندماجية، بالمفهوم الذي نعنيه هنا، يتطلب منا التعامل مع فروقات القوة. وهو ما يؤدي بنا إلى سبيل يبعدنا عن السيطرة والخضوع ويقربنا من مسائل التساوي في القوة والشراكة ضمن حياة المجموعة والمجتمع.

إن واحدة من المشاكل المستديمة في الحياة الاجتماعية هي وجود الاختلافات في القوة والتـــي تؤدي بدورها إلى تشكيل تنظيمات القمع والسيطرة. يمكننا ملاحظة ذلك القمع والسيطرة بين المجموعات الإنسانية وفي نطاقها على السواء. إن تنظيمات القمع والسيطرة توجد على جميع المستويات ويبدو أنها كانت دائما حاضرة خلال تاريخ الإنسان منذ البداية. وبالتركيز على تاريخ الاستعمار والإمبريالية في تاريخ الغرب، نلاحظ أن ثقافة الغرب قد دخلت تاريخياً ضمن الإرث الثقافي للمستعمرات الغربية. ذلك الإرث الذي يتميز بالسيطرة والتلاعب، كان دخول الدول الغربية إلى إفريقيا، آسيا، الشرق الأقصى، ولأمريكيتين قد جلب إلى هذه الثقافات المغلوبة ظروف العنف والاستغلال تحت تسمية الاستعمار والإمبريالية. إن الجشع العميق للثقافة الغربية كانت له سلوكات مختلفة على حسب قوة المستعمر وأيضاً وفقاً للبلد محل الاستعمار. ويمكن ملاحظة الصلف الثقافي الغربـــي في تصرفه الذي يقضي بأن الثقافات الغربية هي في المقام الأعلى مقارنة بأي ثقافة على صلة بها. وبالرغم من أن جزءاً من السيطرة الاستعمارية تمت نتيجة القوة المادية "العسكرية" إلا أنه كان هناك أيضاً عنف معنوي تم من خلاله خرق الجوانية العميقة للشعوب الأخرى، أعنـــي بذلك مبدأ الذاتية. إن الإرث الثقافي والديانة في الغرب جعلت الغرب يعتبر أي إرث ثقافي آخر همجياً ومتخلفاً، إن الذي حدث في العادة هو أنه بتجاهل الجوانية العميقة والذاتية للثقافات الأخرى قد توصل أسلافنا إلى الاستنتاج بأن الناس الآخرين هم متوحشون ومن مستوى أدنـــى. إن هذا مكافئ للقول بأن الثقافة الأخرى والناس المنتمين إليها هم غير إنسانيين. ويعتبر عمل المبشرين في هذا الصدد مثالاً على الإرث الاستعماري. ومن دون الإنقاص من درجة السيطرة المادية التـــي فرضتها الثقافة الغربية وبواسطة القوة والإرهاب، فإن الانتهاك المعنوي للثقافات الأخرى هو مكافئ لقتل النفس. وبالتالي فإن منظومات الاستعمار والإمبريالية أوصلتنا إلى إنشاء علاقات مع الآخرين مؤسسة على القوة المادية والمعنوية. هذه القوة لم يتم تنفيذها وإدارتها من الخارج فقط، بل كانت أيضاً من الداخل، فلقد أنجب الاستعمار عنصرية داخلية ضمن الثقافة المسيطر عليها، وتجذَّر هذا النوع من التركيبة الاجتماعية في علاقات الناس التـــي أصبحت مؤسسة على السيطرة والإخضاع، وعمت علاقة الإخضاع هذه داخل الثقافة المسيطر عليها. ومما تجدر الإشارة إليه هو وجود

مقاومة مستديمة لهذه السيطرة، وكانت المقاومة أساساً لإحداث التغيير الذي أدى بدوره إلى نوع من التحول في العلاقات وحتـــى إلى التخلص من السيطرة والتبعية. مثالان عن أشكال السيطرة الاستعمارية والعنصرية عبر التاريخ هما، شعوب أفريقيا والسكان الأصليين في الأمريكيتين وغيرهما من بقاع الأرض. ونتيجة السيطرة هذه تمت ممارسة الرق والإبادة الجماعية.

ولقد تمت ممارسة الاستعمار أيضا في إطار الثقافة الغربية. أهم بلد احتلته بريطانيا كان الجزيرة الجارة، ايرلندا. الثقافة الأنجلو- سكسونية للبريطانيين كانت تختلف جذرياً عن الثقافة السلتية للناس في ايرلندا. اعتبر البريطانيون سكان ايرلندا متوحشين، وقد أشير إليهم بذلك من قبل مؤرخ الملكة في عهد إليزابيث الأولى في القرن السادس عشر (داوسون Dawson 1956). وخلف هذا الإرث الاستعماري معاناة رهيبة لدى الايرلنديين عبر قرون، وبالدرجة التـــي تركت الشعب السلتـــي ما زال إلى يومنا هذا يناضل لأجل الشفاء منها. كانت ايرلندا أول مستعمرة للإمبراطورية البريطانية، ومن المعتقد على حسب ما نشاهده في ايرلندا الشمالية أنها ستكون الأخيرة.

إن إحدى ميكانيزمات السيطرة والإخضاع تتمثل في مقولة: "فرق تسد". في هذه الحالة يعمل المسيطر على جعل الخاضعين له يواجهون بعضهم البعض. في شمال ايرلندا، زرع البريطانيون أقلية بروتستانتية في وسط سكان معظمهم الساحق كاثوليك. وعلاوة على ذلك، فقد ميزوا البروتستانتيين في امتلاك الأراضي، وتميز لديهم كذلك الوضع الاجتماعي والامتياز الاقتصادي. يمكننا رؤية مأساة هذا الإرث في شمال ايرلندا حيث عمت الضغينة والتعصب الأعمى من أحفاد الاستعمار البريطانـــي. وغطت الضغينة الدينية على العوامل الاقتصادية والمعنوية المعقدة التـــي تركها البريطانيون في أعقاب ممارساتهم الاستعمارية. الإسقاط النفسي نحو مجموعة أخرى هو عامل معنوي مميز للضغينة العنصرية. عمليات الإسقاط هذه تعمل على مستوى الدولة والأفراد (جيوسيفي Gioseffi 1993). ليست ايرلندا مثالاً منفرداً من هذا النوع من السيطرة الاستعمارية، أمثلة أخرى موجودة في آسيا، أفريقيا، والكاريبـــي وحيث طبق البريطانيون هذا المبدأ.

إنه لمن المفيد أن نلاحظ التاريخ الاستعماري للثقافة الغربية وما تشوبه من تقلبات المهزلة

عبر مراحل الغزو الاستعماري – الإمبريالي. وعلى سبيل المثال، قسمت القارة الأمريكية إلى الأمريكيتين، جزء شمالي وآخر جنوبـــي من قبل الأربع قوى الاستعمارية الكبرى في القرن الخامس عشر. سيطرت بريطانيا وفرنسا على الجزء الشمالي. في الوقت الذي سيطرت الإمبراطوريتان الإسبانية والبرتغالية على الجزء الجنوبـــي. كل هذه القوى الغربية عاملت السكان الأصليين على أنهم متوحشون وغير إنسانيين وتعاملت معهم بصورة قمعية غير معهودة. وتغلب لاحقاً، في القسم الشمالي لأمريكا البريطانيون على الفرنسيين، ثم سيطر القسم الشمالي على جنوبه.

إنه لمن المهم أن نفهم من خلال هذه الأمثلة مقدار الجشع العميق للعادة الاستعمارية نحو السيطرة. وعندما نتأمل كل هؤلاء الناس الذين قطنوا الأرض، سواء في الماضي أو في الحاضر، يجب أن نفهم أن كل فرد وكل مجموعة هو ثمرة إبداعية لملايين السنين من التطور. إننا بصدد الوصول إلى الفهم، ومع نهاية القرن العشرين. أن التنوع في الثقافات هو التعبير الصارخ للقوى العميقة للاختلاف، والذاتية والطائفية التـــي يوفرها الكون لأصنافنا. ويتمثل التحدي التعليمي في الانتقال نحو مجتمع عالمي يحترم التنوع في الأفراد وبصورة غير مسيطرة وعادلة. هذه واحدة من أهم التحديات التعليمية التـــي تواجه العالم اليوم. إن الذي ينتظر منا أن نناضل لأجله على مستوى الأصناف وعلى مستوى كوكبنا، هو مجتمع يضم من خلاله التنوع الإنسانـــي من دون طمس وسيطرة، وبالتالي فإن مجتمعنا الكوكبـــي، وبمفهوم إنسانـــي، يجب عليه أن يضم في نفس الوقت كل أبعاد الاختلاف، الذاتية والطائفية. عندما تنهار هذه الأبعاد النبيلة نبدأ في الانحراف نحو ثقافة واحدة وفقدان الإبداع في إطار الأصناف. ونصاب أيضاً بشبح العنصرية القبيح وكره الأجانب. وتحت هذه الظروف نحن نتجه بثبات نحو الإبادة الجماعية، وبدرجة أقل خطورة، تهميشاً للناس ناجماً عن ازدياد خرق حقوق الإنسان، وبوجه خاص في بعض مناطق العالم التـــي هي محل استغلال اقتصادي غربـــي. أما بالنسبة للناس المهمشين والخاضعين، فإن معظم حاجياتهم الإنسانية مفقودة. على سبيل المثال، السكان الأصليون عبر العالم هم ضحايا خرق حقوق الإنسان، حيث انتهكت حاجياتهم في البقاء والحماية والعاطفة والفهم والمشاركة والاسترخاء والإبداع والهوية، والحرية وأصبحت كلها غير ملباة على جميع المستويات الذاتية والاجتماعية والبيئية

(أنظر جدول 8.1).

وعندما نوجه نظرنا نحو العلاقات بين المجموعات ضمن المجتمعات، فإننا نرى من خلال باب سابق أن المرأة عبر كل العالم تعانـــي من الرجل تحت بُنـــى السيطرة والإخضاع للنظام الأبوي. هذا النوع من السيطرة يحدث في كل الثقافات والأجناس في العالم المعاصر وعبر كل الأعمار والرتب الاجتماعية. ويعم التنظيم الطبقي بشكل واضح كل المستويات. إن على التنظيمات التعليمية في عالم اليوم أن تبحث عن كيف تقاوم وتغير هذه المؤسسات الطبقية. إن المرأة عبر كل العالم هي خاضعة لسيطرة التنظيمات الطبقية وهي ضحية لتعسف الرجل. وفي نفس الوقت فإن التنظيم المتحكم في عنف الرجل يعمل بشكل مختلف في الثقافات المتنوعة وأيضاً يعمل بشكل مختلف في إطار المجتمع الواحد. ويرسخ المجتمع الطبقي وعياً لدى الرجل والمرأة، ليس على أساس غير عادل فحسب، ولكن بتوجيه مقيد أيضاً حيث تصل المرأة رسالة ضالة وخاطئة، تأخذ منشأها من العديد من المصادر، وتعطيها فكرة على أنها لاتؤخذ على محمل الجد، يحدث هذا كثيراً من خلال ميادين التجارة، الطب والحكومة على سبيل المثال. وتعطينا "شارلين سبارتناك" صورة عن بعض نتائج السيطرة الطبقية والخضوع في كلا الجنسين:

حتـــى ضمن المخططات الطبقية المعتمدة للمظهر الجسدي للمرأة فإن الرسالة الثقافية تقول لها أنها غير وافية للطلب وفي حاجة إلى مكملات صناعية مثل القدم المقيدة*، أو الكعب العالي، والمشدّ، وصبغة الشعر حتـــى تصل إلى الجراحة التجميلية. وتعانـــي المرأة التـــي نشأت في المجتمع الطبقي المتسلط من الانهيار العصبـــي، والخوف، والاشمئزاز من الذات نتيجة لتنشئتها الاجتماعية. أما بالنسبة للرجال الذين نشئوا في هذا المجتمع فإن هاجسهم الأساسي هو أن يتصفوا بصفات الرجولة (التـــي تميزهم عن النساء). لا تهزهم العواطف "ولا يتأثرون"، أقوياء جسدياً (وبشكل خاص الجزء الأعلى من الجسم)، وغير طيِّعين وثمة ضغط كبير من أجل التميُّز عن المجموعة. وتجربة الحياة تعاش كتجربة تنافسية، فردية واستلابية... والغضب والخوف والعزلة موضوعات نفسية مشتركة بين الرجال الذين نشأوا في البيئة الطبقية المتسلطة؛ وتحييد العاطفة والمشاعر هو الاستراتيجية المقبولة" (Spretnak 1991: 119-20).

---

* في الماضي كانت الفتاة في الصين تخضع لعملية تقيد قدميها في قوالب خشبية لتبق صغيرة تلبـــي الأنوثة كما يرسم الرجل صورتها.

وما يمكن ملاحظته مما سبق في تنظيمات السيطرة والإخضاع الموجودة في إطار الطبقية، هو ترك الرجل في نقص وفراغ عاطفي في الوقت الذي تهمش فيه مساهمة المرأة. إن الخطة التعليمية نحو علاقات أكثر اتزاناً بين الرجل والمرأة سوف تفتح مجالات جديدة للتنوع، سواء للرجل أو للمرأة. إنه من الضروري أن نفهم أن مسألة الجنس يجب أن ينظر إليها مع المسائل الأخرى في إطار القمع على أساس الأجناس والثقافة والاتجاه الجنسي. إذا لم يتم ذلك، فإن هذه الاختلافات ستكون في وضع تنافسي بين الجنسين أو فيما بينها. وإذا أعطينا اهتماماً للتفرقة الجنسية من دون إعطاء اهتمام للعنصرية، يمكن توقع حدوث سيطرة العنصرية. الشيء نفسه ينطبق عل الاتجاه الجنسي، وهو المجال الذي سننكب على فحصه فيما يلي.

نحن نعلم تاريخياً وحاضراً أن بعض الناس رغبوا وأنشئوا علاقات ود، سواء كانت أو لم تكن جنسية، مع أشخاص من نفس الجنس، وأشخاص آخرون قاموا بتلك العلاقات الجنسية مع الأفراد من الجنس المغاير، أو مع كلا الجنسين وفي أي ثقافة وأي زمن. لقد استنتجنا ذلك من معلومات تاريخية وانتروبولوجية (ويشيك وبيرس Wishik and Pierce 1995). نحن نعلم أيضاً أن الطبقات التـــي تصف التنوع الجنسي تستعمل لتسليط القمع وخلق سيطرة وإخضاع. يمكننا القول وبتأكيد على أنه في الثقافة الغربية يعتبر الاشتهاء الجنسي للجنس الآخر هو القاعدة، أما الأنماط الأخرى للتوجهات الجنسية فهي مهمشة. تعرّف ثقافتنا الاشتهاء الجنسي لجنس الآخر واشتهاء الجنس المماثل كنقيضين، وهناك ميل نحو إنكار وجود ثنائي الجنس أو الاتجاهات الجنسية الأخرى أو الهويات. إننا نشوه الاشتهاء للجنس المماثل وثنائي الجنس ونربطهما بالظروف السلبية الاجتماعية والاقتصادية والدينية (ويشيك وبيرس Wishik and Pierce 1995). الاشتهاء الجنسي الإلزامي للجنس الآخر (الرجل للمر يشكل القاعدة الأساسية لمنظومة ثقافتنا الجنسية وقد سببت ضرراً فردياً واجتماعياً عميقاً للأشخاص ذوي الاتجاهات الجنسية التـــي تضعهم في وضع غير مقبول أو غير مألوف (مثال: اللوطيون والسحاقيات والأشخاص ذوو الاتجاه الجنسي المزدوج). المجتمعات ذات ميزة الاشتهاء الجنسي للجنس الآخر هي المسيطرة وتخلق صعوبة لأفرادها في قبول أي اتجاه أو هوية غير الاشتهاء الجنسي للجنس الآخر. إن الاشتهاء الإلزامي الجنسي للغير يعطي حق السيطرة إلى الناس ذوي الاشتهاء الجنسي للغير في الوقت الذي ينسب فيه الخضوع للسحاقيات،

اللوطيين، ومزدوجي الجنس. والأمر معزز بوجود طبقية صارمة ومتصلبة بين ذوي الاشتهاء الجنسي للجنس المغاير وذوي الاشتهاء للجنس المماثل. وبإنكار وجود ازدواجية جنسية، هنا أيضاً، تصبح مسألة التنوع مسألة كم. نحن بصدد حياة تحولت عن سيطرة نمط هي الاشتهاء الجنسي الإجباري للجنس المغاير الذي يتميز به ماضينا القريب بتجاهل تام لوجود تنوع جنسي، أو حتـــى عند الاعتراف بوجوده، ترافقه أحكام سلبية على الجنسية المثلية. ويتضح هذا التحول من خلال تقبلنا واعترافنا الآن بأن العالم يضم أنواعاً مختلفة من الاتجاهات الجنسية ومجال من أنماط مختلفة من الحياة الثقافية التـــي تتيح الحضور البين للوطيين والسحاقيات، وثنائيي الجنسية، ليكونوا جزءاً من المفهوم العام الواسع للمجتمع. ولتحدي الاشتهاء الجنسي الإجباري للغير من خلال التعليم، يجب جعل الناس أكثر تفتحاً تجاه مفهوم مجتمع شامل تقبل فيه مختلف الاتجاهات الجنسية كجزء من التنوع في المجتمع.

ولإنهاء هذا الجزء الخاص بالتنوع، أريد أن أترك القارئ بفكرة تكررت كثيراً خلال هذا العمل، وهي أن عولمة الأهداف التربوية وتعميمها عالمياً لا يقود إلى وعي لعالم أوسع وأكثر تنوعاً، وهذه هي السخرية التـــي لا تصدق لعمليات العولمة. وما يبدو أنه يحدث خلال التقدم نحو العولمة هو التطور المتزامن لأحادية الثقافة. وما نحن في حاجة ملحة إليه في وقتنا الحالي، هو نظام تربوي يتصدى لقوى الثقافة الواحدة ويفتح مدركاتنا جميعاً على ثقافة كوكبية غنية تحتضن التنوع وتتعايش معه.

التعليم والحاجة إلى ثقافة مدنية وتكرس المواطنة

إن الثقافات المستمرة ذات الإدراك الواعي بالموطن والمكان هي التـــي تعتبر البنـــى التحتية الأساسية داعمة للاتصالات داخل المجتمعات العريضة. وفي عالمنا الحاضر المتكامل والشامل، لا يمكن اختصار وتقليص روابطنا بالعالم الخارجي عند حدود مجتمعنا. وبغض النظر عن أهمية وضرورة الصلة والمشاركة في حياتنا المعاصرة، فإن الناس والمجتمعات تم إبعادهم وفك الدعم عنهم من قبل العديد من المؤسسات التـــي تؤثر في عالمهم. هناك إحساس بالفصل عن العمليات السياسية في ما يسمى بالمجتمعات الديمقراطية المشجعة على التحرر. لم نعد نحظى بالتعامل كمواطنين. وفي ثقافة يسيطر عليها المفهوم الاستهلاكي

أصبحنا نستجيب لتسمية مستهلك. ويعتبر النقص في المشاركة في العمليات الانتخابية السياسية، سواء كانت محلية، جهورية أو وطنية أمر جلي. في بلد مثل الولايات المتحدة الأمريكية، حوالي نصف السكان القادرون على الانتخاب يمتنعون عن القيام بذلك في الانتخابات الوطنية.

إقحام التعاملات الاقتصادية التـــي تتعدى الحدود الوطنية على مستوى المجتمعات المحلية قد سبب نوع من عدم الاستقرار في إحساس السكان المحليين بالأمن الاقتصادي. التعاملات الاقتصادية هذه لا تولي أي اعتبار لهذه المجتمعات الصغيرة سوى الوصول إلى أبعد حد ممكن في الحصول على الأرباح. وقد خلقت وسائل الإعلام، كما ذكرت مسبقاً، ثقافة خاصة بها. تشبُّع الناس بثقافة وسائل الإعلام قد أنتجت تدهوراً في الثقافة الاجتماعية للناس.

إن الاستجابات للعولمة، وللحكومة البيروقراطية ولسياسات فك الدعم عن المجتمع التـــي تقودها وسائل الإعلام، تتمثل في تنظيمات وسيطة تتخطى المجتمع المحلي لتصل إلى تنظيمات شاملة أوسع. نسمي هذه التنظيمات الوسيطة بالمجتمعات المدنية أو الثقافات. الحاجة إلى هذه التنظيمات الوسيطة هي استجابة لمقتضيات الوضعية الشاملة لحاضرنا. والحاجة لمواطنين وأعوان ومنذرين تصبح واضحة عندما نعي الظروف المحيطة بنا في هذا العالم الشامل الذي نتجه نحوه. ويتضح أن مفهوم المواطن يأتـــي من جديد إلى مركز الاهتمام. وفي وجود مواطنين واعين يتم مراعاة وفحص أنشطة السياسيين والمؤسسات المالية والتجارية. والحكم الفعال يعتمد على ممارسة الأفراد لحقوقهم ومسؤولياتهم، بحيث تتم مراقبة أنشطة الحكومات وممارسة الضغط لضمان عدم خرق لوائح القانون الدولي. المواطنون الحقيقيون في هذا العالم، هم الذين يرفضون أن تسيطر عليهم الحملة الدعائية للحكومات أو وسائل الإعلام. وهم حساسون وواعون للحاجة إلى ملائمة سلوكياتهم الاستهلاكية مع التطور المستمر، واستعمال طاقتهم الانتخابية بالطريقة التـــي تضمن للسياسات الاقتصادية والمالية أن تعكس الاهتمام السليم بمصادر العالم.

إن مفهوم المواطنة يعيد تقديم فكرة المجتمع المدنـــي. وليست فكرة المجتمع المدنـــي بحديثة العهد، ولكن يظهر وكأنها ولدت من جديد خلال الخمس والعشرين سنة الأخيرة كتصور مفيد لوصف البعد الاستقلالي لسلوك المواطن، والتنظيم والتصور المدنـــي (هول وأوسيليفان

Hall and O'Sullivan 1995). ويغطي مجال المجتمع المدنـــي مجموعة من التنظيمات الخاصة المستقلة التـــي تمارس أغراض عمومية خارج الأجهزة الرسمية للدولة وليست مهتمة بطريقة مباشرة بالربح الاقتصادي. وتوجد هناك منظمة عالمية يطلق عليها اسم "سيفيكوس Civicus" وهي التـــي حاولت أن تنظم دور ورؤية الآلاف من هذه التنظيمات. ويعتقد مربـــي الرشد (بد هول،Budd Hall 1996) أن منظمات المجتمع المدنـــي يمكن تقسيمها إلى تيارين على الأقل. التيار الأول يعرّف على أنه مجموع الأشكال المحلية والوطنية والجهوية لتنظيمات المجتمع المدنـــي التـــي تندرج مهامها في خلق سبل لتقوية الاتصال والتنسيق بين التنظيمات المنفصلة الموجودة حالياً. وتشمل هذه المرضات، وعمال الصحة العمومية، وموظفي الخدمة الاجتماعية وهيئة التعليم الذين يقومون باتصالات جمة مع زملائهم عبر العالم. وإضافة إلى ماسبق، هناك جيل جديد لمنظمات المجتمع المدنـــي تم إنشائها في الدول الغنية والفقيرة على السواء خلال السبعينيات والثمانينيات وهي متواجدة في كل مكان، وتسمى المنظمات غير الحكومية (NGOs).

أما التيار الثانـــي لمنظمات المجتمع المدنـــي المعرّفة من قبل "هول" فتتمثل في المنظمات التـــي لها خصوصية على المستوى الشامل. وتشمل هذه المنظمات: منظمة مقاطعة حليب نيسلي، والعديد من المنظمات البيئية مثل السلام الأخضر، الإنفاق العالمي على الطبيعة، المنظمات النسائية، تجمعات السلام والكثير من المنظمات الأخرى التـــي نشأت في إطار النشاطات المدنية العالمية. وبالنسبة للكثير من هذه المنظمات لا توجد هناك هوية وطنية أو محلية منسوبة إليها وعادة ما يشار إليها بالمنظمات الدولية غير الحكومية (هول، Hall 1996).

وكل من هذين التيارين للتربية المدنية يلبـــي الكثير من الحاجيات البشرية الضرورية والفروقات بين هذه المنظمات تتحكم في أنواع وأشكال الحاجات البشرية التـــي يتم تحقيقها. وبالرجوع ثانية إلى الجدول 8.1، يمكننا استنتاج حاجات البقاء، كالحماية، الفهم، المشاركة، الهوية والحرية وهي فقط بعض الحاجات الجوهرية التـــي تسعى هذه المنظمات بشتـــى الطرق لتحقيقها.

إنه لمن المهم أن ندرك أن المنظمات الثقافية المدنية، عادة ما تنشط مستقلة عن الحكومات والمنظمات الاقتصادية المتعددة الجنسيات، وهي تقدم رؤية للعالم مخالفة لهم. وعلى سبيل

المثال، عند انعقاد القمة الاقتصادية لمجموعة السبع اقتصاديات الكبرى G-7 يتم هناك انعقاد قمة موازية لمنظمة موازية، لا هي حكومية ولا اقتصادية. القمة البديلة هذه تسمى (TOES القمة الاقتصادية الأخرى) وهي تتكون من منظمات غير حكومية من مختلف دول العالم. وتحاول تقديم رؤية اقتصادية بديلة مناقضة لرؤية العولمة السائدة في مجموعة السبع. وهي قمة تجمع الكثير من المنظمات التـــي تهتم بالبيئة، المرأة، حقوق الإنسان وغيرها، وتناقش رؤى عن الكثير من المشاكل الحساسة والمهملة من أنظمة الاقتصاديات السائدة في عالم اليوم.

أصبحت الآن G- 8 بعد انضمام روسيا لها. "المترجم"

إن قمة الأرض التـــي انعقدت في البرازيل سنة 1992 هي مثال عن حالة انعقاد قمتين بالقرب من بعضهما البعض. لقد تم تنظيم القمة الرئيسية حول مواضيع الإيكولوجيا والتنوع البيولوجي مع مشاركة كل الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة. أما القمة البديلة المسماة المنتدى العالمي الشامل فقد كانت لها استجابة منقطعة النظير من المنظمات الدولية غير الحكومية من شتـــى دول العالم. حيث كان هناك حضور لحوالي 1500 مجموعة من 163 دولة. اشتمل المنتدى الشامل هذا على ملتقيات وورشات عمل ونقاشات وحلقات دراسية. كما عالج هذا المنتدى الشامل البدائل المحتملة لحل المشاكل المادية والمعنوية والسياسية التـــي أهملتها قمة الأرض. وركز المنتدى على التعليم مما أدى إلى معاهدة حول التعليم البيئي من أجل مجتمعات مستدامة ومسؤولية عالمية. ونالت هذه المعاهدة إجماع من كل المنظمات الدولية غير الحكومية من القارات الخمس. وقد طورت هذه القمة ست عشرة مبدأ للتعليم البيئي وهي متزنة ومستمرة. وقد رأيت ضرورة سرد هذه المبادئ هنا لأنها تمثل الروح التعليمية لهذا العمل وتعطي أيضاً عرضاً واقعياً لرؤية تعليمية تحولية.

1. التعليم حق للجميع، نحن الجميع متعلمين ومعلمين ومربين.
2. التعليم البيئي، سواء كان رسمياً أو غير رسمي، يجب تأسيسه على تصور إبداعي ناقد ومتجدد في أي مكان أو زمان، وداعماً لإعادة تطوير المجتمع وتحويله جذرياً وبنائه من جديد.
3. التعليم البيئي هو فردي وجماعي. ويسعى إلى تكريس مفاهيم المواطنة المحلية والعالمية، أخذاً في الاعتبار استقلالية الدول وسيادتها.
4. التعليم البيئي غير حيادي ومؤسس على القيم، وهو عمل من أجل إحداث تحول جذري في بنية المجتمع.

5. التعليم البيئي يجب أن يتضمن منهج مقاربة شمولي، وبالتالي فهو يركز على ترابط العلوم في العلاقة بين الناس والطبيعة والكون.

6. يجب على التعليم البيئي أن يحفز التضامن والمساواة واحترام حقوق الإنسان ويتضمن بذلك استراتيجيات ديمقراطية وبيئة مفتوحة على التبادل الثقافي.

7. يجب على التعليم البيئي أن يعالج المسائل العالمية الخطيرة، وأسبابها والعلاقات البينية التـــي تربطها بكيفية منظمة وضمن الأطر الاجتماعية والتاريخية. إن المسائل الأساسية ذات العلاقة بالتطور والبيئة، مثل السكان، الصحة، السلام، حقوق الإنسان، الديمقراطية، المجاعة وتدهور الثروة الحيوانية والنباتية، كل هذه المسائل يجب النظر إليها بهذه الطريقة التضامنية العادلة.

8. يجب على التعليم البيئي أن يسهل إنشاء الشراكات المبنية على المساواة بدأً بعمليات اتخاذ القرار على جميع المستويات والمراحل.

9. يجب على التعليم البيئي استعادة والاعتراف واحترام وإظهار واستعمال التاريخ الحقيقي للسكان الأصليين والثقافات المحلية، ودعم التنوع الثقافي واللغوي والإيكولوجي. ويقتضي ذلك الاعتراف بالبعد التاريخي للسكان الأصليين كطريقة لتغيير التوجهات العرقية، وتشجيع تعليم مزدوجي اللغة.

10. يجب على التعليم البيئي تدعيم كل الناس وتشجيع فرص التغيير الديمقراطي الجذري. ويعنـــي هذا استعادة المجتمعات للتحكم في مصيرها.

11. التعليم البيئي يثمن مختلف أشكال المعرفة. والمعرفة متنوعة ومتراكمة ومنتج اجتماعي لا يجب احتكاره أو المضاربة به.

12. يجب تصميم تعليم بيئي يسمح للناس بتسوية نـــزاعاتهم بطريقة إنسانية عادلة.

13. يجب على التعليم البيئي تحفيز الحوار والتعاون بين الأفراد والمؤسسات من أجل خلق أنماط حياة جديدة مؤسسة على تلبية الحاجيات الأساسية للجميع بغض النظر عن الفروقات في العرق، الجنس، العمر، الدين، الرتب الاجتماعية أو الجانب المادي أو المعنوي.

14. يتطلب التعليم البيئي وسائل إعلام ديمقراطية وتكريس نشاطها واهتماماتها لخدمة كل قطاعات المجتمع. وجعل الاتصال حق لا نقاش فيه. كما يجب كذلك تحويل وسائل الإعلام إلى واحدة من أهم قنوات التعليم، ليس فقط لنشر المعلومات على أسس عادلة، ولكن أيضاً من خلال تبادل الوسائل والتجارب و احترام القيم.

15. يجب على التعليم البيئي أن يدمج المعرفة، المهارات، السلوكات الموقفية والإجراءات العملية في إطار نشاط متكامل. ويجب عليه تحويل أي فرصة إلى تجربة تعليمية من أجل مجتمعات ذات تنمية مستدامة.

16. يجب على التعليم أن يساعد في تطوير وعي أخلاقي لكل أشكال الحياة التـــي يتشارك فيها الناس على هذا الكوكب واحترام كل أنماط الحياة وفرض حدود على استغلال الناس للأشكال الحياتية الأخرى.

(*التعليم البيئي لمجتمعات ذات تنمية مستدامة ومسؤولية عالمية 1993*).

ومن المهم أن نلاحظ أن هذه المبادئ التعليمية الستة عشر التـــي طرحت من قبل المنتدى الدولي في "ريو ديجانيرو" تعتبر رؤية تعليمية من منظمات أساسية عبر العالم. ولديها وعي ذو بعد كوكبـــي يسعى نحو عدل اجتماعي إنسانـــي ووعي تام بضرورة عدالة الاتصال والتبادل مع العالم الطبيعي الكبير. وضمن هذه المبادئ التربوية المقترحة، تبرز الحاجة الملحة إلى التنوع في المعارف والمعلومات التـــي من شأنها احترام القيم والأعراف المحلية وتلك الخاصة بالسكان الأصليين. وتسعى معاهدة التربية البيئية نحو مجتمعات ذات تنمية مستدامة ومسئولية عالمية شاملة إلى تحمل المسئولية من قبل كل سكان الأرض وبكيفية جادة وجذرية كبديل لأنماط التعليم التنافسي السائد الآن والذي يسعى جاهداً لتحقيق العولمة الحمقاء. وتظهر هذه المعاهدة للجميع، أهمية حضور الثقافة المدنية المتحضرة التـــي يمكنها أن تصوغ رؤية جذرية تحولية لأنظمة التربية والتعليم تضع على رأس قائمة أولوياتها المحافظة على سلامة الأرض وتلبية حاجات كل سكانها.

إن القدرة المعززة لصبغة المواطنة في ثقافة مدنية موسعة تخدم الكثير من الحاجيات الإنسانية الأساسية. وإذا تفحصنا الجدول 8.1 مرة أخرى، يمكننا ملاحظة أن الحاجات الأخلاقية للفهم والمشاركة والإبداع والهوية والحرية يتم تلبيتها بالمشاركة في ثقافة مدنية. إن حاجات الوجود بتفاعلها مع الحاجات الأخلاقية تغطي مجمل النطاق المتضمن للوجود والامتلاك والفعل والتفاعل. وعند تلبية هذه الحاجات، بتفاعلاتها المعقدة، يتضح معنـــى للمشاركة مما يتيح مجالاً للتناغم والانسجام بين المتفاعلين (بمعنى: تضامن). وأعتقد أن المقاومة الأساسية لسلبيات العولمة يأتـــي مصدرها من الثقافة المدنية التـــي تنشط حالياً على نطاق عالمي.

التربية والتنوع ذو الأساس البيولوجي: وحاجة الإنسان إلى التنوع في إطار العالم الطبيعي

إن تنافر الإنسان مع العالم الطبيعي الذي أنتجه المشروع العصري والذي لاحظناه من خلال الفصلين الثانـــي والثالث من هذا الكتاب، أنتج عمليات ديناميكية جعلت الناس في حالة مواجهة مع العالم الطبيعي. لقد تم التركيز في عصرنا الحاضر وانحصرت اهتماماتنا وإحساسنا بالقيمة على المشروع التاريخي للإنسان فقط. ونحن نعانـــي الآن انكماش وتنافر مع مكونات العالم من غير الإنسان. ويتمثل هذا الانكماش في النفور المتسارع والقتال الفعلي ضد الطبيعة أو بتشييد حاجز منيع من اللامبالاة. ويعتبر هذا الانكماش عنصراً أساسياً ومكوناً رئيسياً للمشروع العصري. لقد بدأنا نفهم الآن الكلفة الباهظة لمشروع التحديث. إن العالم الطبيعي من غير الإنسان أصبح متدهوراً ومدمراً بشكل خطير، وأصبحنا نعيش نوعاً من العلاقات المتناقضة وظيفياً مع العالم الطبيعي. لقد أصبح مفهومنا للعالم الطبيعي، على أنه شيء يمكن استغلاله والتعامل معه وفق إرادة الإنسان وهواه. ويصف (توماس بيري Thomas Berry 1988) إنسان هذه الوضعية بأنه شخصية إنفصامية مريضة. ويؤكد على أننا افتقدنا مدلول السر الرائع لعالمنا الطبيعي ولم نعد نفهم مختلف الإشارات التـــي يبعث بها إلينا عالمنا المحيط بنا. إن كثافة اهتماماتنا العلمية تساندها قسوة استغلالنا التجاري لكوكبنا الجميل أوصلانا إلى درجة من الصلابة لم نعد نشعر معها بظروف العالم الطبيعي ولا بأبعاد إشاراته التعبيرية والجمالية سواء كانت ظاهرة أو ضمنية. إن شأننا في ذلك شأن المريض نفسياً المنغلق على ذاته بشكل محكم بحيث لا يمكنه الخروج منها ولا أحد يمكنه الوصول إليه أو التواصل معه. إننا خسرنا علاقاتنا الحميمة مع العالم الطبيعي، ولم تكن التربية المعاصرة في المجتمعات الصناعية سوى رحلة أبعدتنا وتبعدنا على الطبيعة الأم وتقربنا من النفور منها. إن التعليم الذي تلقيناه جعلنا نرى أنفسنا منفصلين ومنعزلين عن العالم الطبيعي وعندما نتحدث عن موضوع الوجود أصبحنا نعنـــي به وجوداً منفصلاً عن الكون وعن العالم الطبيعي. وهذا هو فقدان الافتتان بعالم الطبيعة والانفصال عنه الذي تحدثنا عنهما في الفصل الثالث من هذا كتاب وإذا ما تأمل الإنسان الأمر من هذا المنظور، فإن وعيه سيدرك انفصاله التام عن العالم

الطبيعي والكون كله. وإذا ما أخذنا الرؤية الغربية بعين الاعتبار، فسوف نرى العالم خارج نطاق وعينا كشيء صامت جامد غير قادر على الحركة نستغله حسب هوانا واحتياجاتنا. إن وجود العالم خارج الوعي الإنساني هو شيء للاستعمال والاستغلال حسب نزوات الإنسان ورغباته. إن الألفة الوحيدة ضمن النظر إلى العالم بهذه الكيفية، هي الألفة الإنسانية. وبذلك وقعنا في إطار النظرية التي تعتبر الإنسان حقيقة الكون المركزية. الصوت الآخر الوحيد الذي يرافق صوتنا هو إنساني، وكل المظاهر الأخرى للعالم الطبيعي صامتة وساكنة. وحيث أننا ندرك الكون خارج نطاق الإنسان على أنه صامت لا صوت له، فلاوجود إذاً إلى الألفة مع العالم الطبيعي. إننا في واقع الأمر، لا نعي بأننا نعيش على سطح من الأشياء. وهو ما يمثل جزءاً من عجرفة وغطرسة أنظمة التربية والتعليم في العالم الغربي. نحن نعتبر الثقافات التي تقر بوجود ألفة ومحبة مع العالم خارج نطاق الوعي الإنساني، بأنها ثقافات بدائية ومتخلفة، ويظهر ذلك واضحاً من تعاملاتنا مع السكان الأصليين الذين يمتلكون محبة وألفة وصداقة حميمة مع العالم الطبيعي. ولهم تقدير واحترام لعالم الحيوان والنبات. إننا نعتبرهم متخلفين عن العالم العصري، ويجب العمل على تطويرهم أو إبعادهم. إننا من خلال التقاليد العلمية الغربية الحديثة قد فشلنا في إدراك قدرتنا المحدودة في التواصل مع العالم خارج نطاق الإنسان. لقد تم تدريبنا فقط لنرى أن العالم الإنساني وحده يمثل الحضور الواعي والفاعل.

ونتساءل عمّا يحدث لو كان الكون كله عبارة عن تواصل الأفراد بين وليس مجموعة من الأشياء؟ وبهذا المعنى من التلاحم مع العالم الطبيعي، يجب على الأنظمة التربوية والتعليمية أن تجعل هذا التلاحم مع الطبيعة أساساً لتعليم الناس (*التعليم البيئي من أجل مجتمعات ذات تنمية مستدامة ومسؤولية عالمية*، 1993). يجب علينا تغيير المفاهيم التي تعتبر الإنسان مركز الكون واستبدالها بمفاهيم جديدة تركز على الانفتاح على الحقائق والقيم والآخرين من الأحياء والأشياء إذا أردنا سلامة وديمومة هذا الكوكب. وتنطلق هذه الرؤية من قبول الحقيقة التي مفادها، أن حياة المجتمع، مجتمع كل أنواع الحياة والكائنات. هي حياة تضامنية وأن كل أنواع الكائنات ذات قيمة متساوية، والاهتمامات الرئيسية للإنسان يجب أن تتركز على المحافظة على الانسجام مع حياة المجتمع الكبير بكل مكوناته وهو مجتمع هذا الكوكب. وعند

الأخذ في الاعتبار بأن الكون هو مواضيع متكاملة وترتبط بعلاقات حميمة وليس بمجموعة من الأشياء، عندها نبدأ في تقديس الأعماق الداخلية لكل مجالات الوجود. وكما تصوغها (شارلين سبيرتناك، Charlene Spretank 1991). ليس البشر وحدهم يمثلون ذواتاً فاعلة في الكون. وتشير "شارلين" إلى أنه في أعماق أحاسيسنا، يمكننا تصور الكون على أنه ذات عظيمة. وبتعامل أكبر مع العالم الطبيعي على أسس ذاتيته العميقة ستتفتح لنا معان جديدة للألفة. وعند الوصول إلى علاقات حميمة وألفة حقيقية مع العالم، نبدأ برؤية وعي مصقول بالعالم خارج نطاق البشر. إن الإحساس بالحيوان والنبات يكشف عن وعي يؤدي إلى حساسية بالإيقاعات الأعمق للعالم البيولوجي. عندئذ يصبح البشر قادرين على عقد الصلة مع العالم الطبيعي، صلة تكرِّم الذاتية العميقة لكل تجليات الواقع. مع هذا الوعي الأرحب والأكثر تمايزاً ستتحقق قدرة ممتدة ليرى الواقع كله كأشياء مختلفة وحضور ذاتـــي.

مع هذه الحساسية الممتدة ومع هذا الانتباه نبدأ بتنمية توازن داخلي يتيح حدساً علائقياً عميقاً في كل شيء نختبره وهو موجود حولنا. يمكننا القول ونحن نختم هذا القسم من كتابنا إن رؤية تحولية للتربية يجب أن تُبنـــى على العمليات التأسسية للكون: تمايز، ذاتية، وتواصل. ومثل هذه التربية ستفسح المجال إلى تمفصل متزامن لكل من المختلف والمشترك. إن إبداعية الجماعة تتأسس في الاحترام والإجلال لجماعة حية أوسع؛ شبكة الحياة (سبرتناك Spretnak 1991).

وفي الختام، سأكمل هذا العمل بتفحص العناصر الأساسية لروحانية تدعم وتغذي بنية التخيل المطلوب من أجل تربية تحولية.

تهذيب الروح البشرية المعاصرة

الطقوس الدينية العظيمة إن المجتمع البيئي المتعاظم حديثاً، يظل بحاجة إلى تأمل صوفي الذي من شأنه أن يولد النشوة الرفيعة التـــي تناسب وجود هذا الكون المذهل وهذا الكوكب البهي الذي نعيش فوقه. هذا التأمل الصوفي يمكن اكتشافه في تجديد الارتباط الإنسانـــي بالطقوس الدينية الكونية العظيمة التـــي تتجسد أمام أعيننا في التعاقب اليومي للفجر والغروب وكذلك في التتابع الفصلي العظيم وانتظام الدورات الهيدرولوجية (المائية). إن مثل هذه الأحداث العجيبة تعيد إلى الأذهان تلك الاحتفالات الطقوسية الرائعة إبان العصور الكلاسيكية، غير أن مثل هذه الاحتفالات سوف تحدث الآن ضمن قصة جديدة للكون ونشوئه عبر عمليات الارتقاء (ت – بيري T. Berry 1989: 2).

لن نتوقف عن الاستكشاف والتنقيب
وستكون نهاية استكشافاتنا كلها
عند وصولنا إلى حيث ابتدأنا
وعند معرفتنا للمكان لأول مرة
(ت. س. اليوت، الفصول الأربعة T.S. Eliot, *Four Quartets*).

إننـــي أعتقد بأن أي معالجة جادة متعمقة "للتعليم التحولي" يجب أن تتعامل مع مواضيع الروحانيات. ويجب على التربويين الإطلاع بمهام تنمية الروح على المستوى الأكثر أساسية. إن التعليم المعاصر يعانـــي بشدة من قصور اهتمامه وحجبه للبعد الروحي للكون بأكمله وللعالم الذي نعيش فيه.

وفي مستهل هذا الحوار حول الروحانيات، دعونـــي أوضح للقارئ منذ البداية، بأننـــي لا أعتبر إطلاقاً ما أقصده بالروحانيات مرادفاً للأديان المؤسساتية أو المؤسسة الدينية الرسمية. إن الأديان في هذا الحوار، سوف لن ينالها الانتقاد ولا التمجيد. إننـــي عندما أقول بأن

الروحانيات ليست هي الدين، فإنني أقصد جازماً بأن الروحانيات ليست مرتبطة بالدين فقط ولكنها مرتبطة بمصادر الروح البشرية الأبعد عمقاً، وتتضمن الأبعاد اللامادية واللاجسدية لوجودنا البشري. إنها تتضمن الطاقات والعناصر الجوهرية وتلك الأجزاء التي وجدت سابقاً والتي ستبقى موجودة بعد تحلل الجسد واندثاره. إن الدين يحاول أن يجعل الروحانيات مؤسساتية منتظمة، وفي كثير من الأمثلة يحدث هذا لصالح التأسيس المنتظم وترسيخه أكثر من كونه إجراءً واضحاً لصالح الأفراد (ويل Weil 1997).

إنني أعتقد هنا، بأن "العولمة" في طريقها لأن تصبح ديناً. إنه الدين الذي لا يصقل الروح البشرية أو يروي ظمأها، بل إنه الدين الذي يقودها إلى الضلال من خلال تشديده المشؤوم على الماديات. إن ما يجري الآن تحت ستار "العولمة" لا يقل بأي حال من الأحوال عن قتل الروح وطمسها وجرها نحو الظلمات. إن مثل هذه الإجراءات أمر شائع الآن وتبدو أنها تتفشى بسرعة السرطانات الخبيثة. إن النزعة التي تستهدف "عولمة" اقتصاد العالم، هي بكل تأكيد، سرطان الروح البشرية. وفي ذات الوقت، ولأسباب موقعنا في النظام الكوكبي وروحانياتنا الآخذة في التدهور والانحطاط، فإننا في الواقع نقوم بتدمير عالم الروح بأكمله. إن بعض الجوانب المشرقة التي بدأت تلوح في الأفق، هي ما نشاهده اليوم في بعض مناطق العالم من حساسية واضحة تجاه فقدان الروحانيات التي يشهدها العالم وخاصة في ظل العولمة الاقتصادية. إن كتابات (توماس مور Thomas Moore 1992; 1994) الأخيرة عن مكانة الروح في أغوار حياتنا اليومية حظيت باحتضان كبير من قبل الجماهير العريضة في أمريكا الشمالية وأماكن عديدة أخرى من العالم. كما أن كُتّاباً آخرين في نفس مجال الروحانيات، من أمثال (جيمس هيلمان James Hillman) في (*شفرة الروح The Soul's Code* 1996)، (روبرت ساردیلوا Robert Sardello) في (*مواجهة العالم بالروح، والحب والروح Facing the World with Soul* 1994 *and Love and the Soul 1995*). ويمكن العثور على معالجة مضنية ودقيقة عن أهمية الروحانيات لحياة العالم المعاصر في المؤلفات العديدة لـ (كن ويلبر Ken Wilber). إن ما أجده متراكماً ويشد اهتمامي بشأن مؤلفات "ويلبر" ويمكن ملاحظته بوضوح في أحدث كتاباته تحت عنوان (*عين الروح The Eye of The Spirit* 1997)، وهو معالجته المتكاملة للروحانيات التي تشمل عدة فروع للمعرفة

وتولد مجالاً للاهتمام الذي من شأنه أن يعيد إثارة التساؤلات حول مركزية وجوهرية الروح في شؤون عالمنا المعاصر.

إن اتجاهي الخاص في التعامل مع موضوع النفس والروح يتمثل في المبادئ الثلاثة وهي التمييز والذاتية والمشاركة الوجدانية. وبخصوص التمييز، فإنني أذكّر القارئ مرة أخرى، بأن أي حوار حول الروحانيات سواء في سياق التعليم أو ما سواه، يجب أن يحترم التعدد والغزارة في التعبير الروحاني المتواجد ضمن سلوك الأسرة البشرية. وتبدو هذه الغزارة واضحة في التعابير المتنوعة للروح البشرية البادية في ديانات العالم العديدة. وتبدو الغزارة جلية أيضاً، في التعبيرات المتعددة عن الروحية حتى خارج الديانات الرئيسية الرسمية. ولعلّه من واجب القول هنا، بأن النزعة إلى تكريس ثقافة عالمية واحدة في زمننا هذا، هي نزعة خاطئة وبأن التنوع هو ملح الحياة في هذا المجال وهو الذي يعطي لها مذاقاً متميزاً ونكهة خاصة. إن الأصولية الدينية سواء كانت إسلامية أو مسيحية أو يهودية تمثل قصوراً عجيباً في فعاليات الروح البشرية. إن الرغبة في توحيد الثقافة وعولمة الاقتصاد، ما هما إلا انحراف بالروح البشرية وحبس لها، وعندما تسجن الروح البشرية بهذه الكيفية، فإننا فعلاً نكون معرضين للخطر. إن كل أشكال الأصولية شديدة التشابه (ليرنر Lerner 1996).

إن التنوع هو أحد العناصر الأساسية لروحية سليمة، ومع ذلك فإن نظرتنا للروحية ستكون سطحية جداً، إذا ما أغفلنا بعد عمق الروحية المرتبطة بمبدأ الذاتية. لقد تحدثت عن هذا البعد عبر هذا الكتاب، تحت مسميات مختلفة. وفي سياق نقاشنا الحالي، فإن الذاتية هي ذلك البعد للباطن العميق الذي يقترن عند الأفراد بمفهوم الروح. وسبق وأن تحدثت عن بعد عمق الذاتية ضمن سياق الباطن والتكوين الذاتي والبنية الداخلية المتميزة للفرد. إننا عندما نرى الأشياء في تنوعها، يجب علينا أيضاً تجاوز ظاهر الاختلافات. لكي نتمكن من إدراك الباطن العميق لكل الخلق. إن العين البشرية هي أحد الأعضاء التي تبدو بأنها تجذبنا نحو الباطن العميق لكل الأشياء. وعندما ننظر في عيني شخص ما أو حيوان ما ندرك تماماً أبعاد عمق الخلق العظيمة. وغالباً ما نشير إلى العين على أنها نافذة الروح، وهي حقيقة كذلك. اختبر بنفسك الحس العميق باللغز الذي تشعر به عند النظر في عيني طفل حديث الولادة. خذ مثلاً حيواناً أليفاً مثل كلبك، إذا كانت لديك رفاهية امتلاك واحد كرفيق،

واستكشف السر العميق للأشياء من خلال ذلك الغموض المحتشد في نظرته المحدقة. إن المغزى العميق لنمو إحساس بباطن الأشياء، أو البنية الداخلية المتميزة، تتيح لنا فرصة التمعن بعمق أكبر في أننا ذوات متواصلة. وأننا نحن البشر لسنا أبداً مجموعة من الأشياء.

إنه لمن المهم جداً أن يدرك القارئ، بأنني عندما استخدم كلمة الروح بوصفها ذاتاً، فإنني لا أفكر بماهية معينة أو بحقيقة مصاغة مسبقاً. إن طريقة عرضي للموضوع تتضمن حيوية نشطة تشمل الطبيعة الذاتية الفعالة للتكوين الذاتي. ويتعلق التكوُّن أو التكوين الذاتي بخصائص التجدد العميقة لكل البنى الحية التي تعزز وتحافظ على سلامة وكمال تركيبات عمليات الحياة. إنه بعد الباطن هذا، الذي نشير إليه أحياناً بأنه غذاء الروح. إننا حقيقة نعيش الآن في وضع مجاعة فيما يتعلق بغذاء أرواحنا. ولنتذكر التنمية المتكاملة من الفصل السابع، لنتذكر كم هي محدودة ثقافتنا الاستهلاكية المعاصرة في تلبية أعمق احتياجاتنا.

إن الجوانية الذاتية لا تنمو في فراغ. إننا نعلم تمام العلم بأن الروح تنتعش وتقوى في الجماعة. إن المصفوفة الأساسية التي استعرضتها في الفصل السابع تمثل إشارة واضحة إلى الخاصية الترابطية العميقة للواقع برمته. إننا أفراد في الجماعة البشرية وبها ولسنا أفراد في ذواتنا. ويشير السكان الأصليون إلى هذه الخاصية الترابطية للحقيقة كلها في كون "الكل أقاربي". إننا في حاجة الآن، بل ومن الضروري جداً أن ندرك بأن تنمية جوانبنا الروحية يجب رعايتها على المستويين، الصغير والواسع للجماعة البشرية. إن جوانب شخصيتنا الروحية مستوطنة في مستويات عديدة من الجماعة. نحن أعضاء في المشترك الكوني، والأرضي، والحيواني وكذلك المشترك البشري.

إن علاقاتنا بالمشترك الكوني تمكننا من الاشتراك في رحاب محيط اللاّمتناهي الذي يمكن للروح البشرية فهمه واستيعابه. ويحدثنا (توماس بيري Thomas Berry 1988) عن الكون بأنه نصٌ بدون سياق. نحن أعضاء بالمشترك والمجتمع الكوني العام الذي يجعل منا مادة للنجوم. إن الكون هو الحقيقة المقدسة الأولى. ووفقاً لتعبير "توماس بيري" فإننا نصبح مقدسين ومهيبين بمشاركتنا في الأبعاد الكونية المقدسة ذاتها. لقد كان لكل البشر منذ الماضي السحيق اهتمامات أساسية بعلاقاتهم بالكون. ونسج أناس من مختلف البقاع الأرضية

والأعراق البشرية أروع الأساطير مختلفين في سرد قصة منشئنا في حدود فهمهم لها. إن إدراك رحابة الكون في حد ذاتها، هي غذاء للروح.

وتجعلنا العظمة المهيبة للكون كله مبهورين ومفعمين بالطاقة والنشاط. إننا مخلوقات أرضية قبل أن نكون بشراً وأرواحنا تقوى في منشأ الأرض الذي يستعرض تنوعاً مذهلاً وعظمة هائلة. إن الامتداد الأرضي هو قوت دسم للروح البشرية. ويجري (توماس بيري Thomas Berry) في كتابه (التواصل الذاتي personal communication, 1989) مقارنة مع الامتداد القمري مؤكداً بأنه لو كنًّا مخلوقات قمرية لكانت أرواحنا قد جربت وحشة القمر وأقفارها. إن كوكبنا الأرضي يمتلك تنوعاً مذهلاً وكذلك باطناً غنياً يغذيان الروح البشرية وعندما يتلوث ويتسمم ذلك المنشأ، سيكون له آثر مصاحب سلبي هدام على نمو الروح البشرية. إن الحديث عن الأرض بوصفها أم حاضنة لنا كما هو شائع بين السكان الأصليين، لا يعتبر استعارة مجازية، ولكنه حديث له معان تطبيقية حقيقية. إنه لمن المناسب جداً أن نشير للأرض بأنها "أم" عند حديثنا ضمن السياق المشترك لكوكب الأرض. إن الرعاية التي تغمرنا بها الأرض كمنشأ أولي للجنس البشري وفصائل وأجناس أخرى عديدة، تجعل اختيار عبارة "الأم" ملائمة جداً وموفية للغرض. إننا كمخلوقات أرضية جنس من بين الأجناس الحية. وهذا المفهوم لا يمكن التقليل من أهميته، حيث يؤكد كل من (سويم وبيري Swimme and Berry 1992) على أننا لن نتمكن أبداً من إدراك المغزى الكامل للتكيف البشري في هذا العصر البيولوجي الجديد حتى نكتسب إدراكاً حقيقياً مفاده أن البشر، ما هم إلاّ جنس من ضمن الأجناس. لقد اعتبرنا البشر كدول وثقافات وجماعات عرقية ومنظمات دولية وحتى كمشترك بشري عالمي، غير أن أيٍّ من هذه الاعتبارات لاتركز بعمق على قضية الأرض – البشر كالتفكير في أن البشر هم فقط جنس ونوع من بين الأنواع والأجناس.

إن سوء الفهم لموقعنا بين الأنواع والأجناس هذا، كان ولا يزال له آثار وخيمة تتجاوز مستوى الأجناس. لقد كان التأثير البشري خلال المرحلة الصناعية بالغ الخطورة في الإخلال بالتوازن الطبيعي للكوكب إلى الحد الذي دخل فيه كوكب الأرض إلى مرحلة من الاستنزاف أسميتها بمرحلة السينوزويك النهائي (العصر الحالي الختامي). إن وحشة ووحدة

الروح البشرية التـــي نعيشها اليوم تنعكس عائدة على نفوسنا بسبب التلوث والتخريب الذي تحدثه لمنشئنا ومهدنا الأول. وعلى رأي المثل (كما تدين تدان). لقد اعتبرت النظرة الصناعية الغربية الأرض بأنها شيء منفصل عن الروح البشرية يمكن التلاعب به واستغلاله بما يشبع الجشع البشري. وهذا الإحساس بأن الأرض شيء منفصل عنّا، يعنـــي أننا كبشر ولنا تاريخ قد تجاهلنا حكمة تاريخ أسلافنا الموروثة. وبسبب هذا التجاهل أحدثنا تدميراً خطيراً لبيئتنا ومنشئنا بلغ حدوداً يصعب إصلاحها. لقد خسرنا ارتباطنا الروحي بالأرض وفي ذات الوقت نعوق نمونا الروحي. إن أفقنا الثقافي الغربـــي يقوم بتدمير البعد الروحانـــي لحياتنا، وبسبب العولمة المتفشية فإننا ندمر النمو الروحي للشعوب الأخرى عن طريق اقتحام ثقافاتها وطرق حياتها من قبل الثقافة الاستهلاكية الغربية. إن الغزو الثقافي التاريخي لحياة الشعوب الأصلية، تاريخياً وفي الوقت الحاضر، هو مثال ودليل على ذلك. إن المرونة المذهلة للشعوب المحلية التـــي تستعيد بفاعلية الإمساك بزمام تقاليدها، هي التـــي تمنحنا أملاً بأن الغزو الثقافي الغربـــي يمكن إعاقته ورده على أعقابه. ولكي نقوم نحن أنفسنا بهذا حالياً، علينا أن نحدو حدو الشعوب المحلية من السكان الأصليين في تشبثهم بالحفاظ على سلامة وكمال عالمهم الروحي. إننا إذا وجهنا اهتمامنا إلى المشترك البشري العام، يمكننا عندئذ رؤية قدرة الحياة المشتركة على تعزيز أو إعاقة النمو السوي للروح.

إن الانتهاك الصارخ للأصل والمنشأ الأول، من شأنه أن يضعف الروح البشرية على نحو خطير. إن مصطلح الفصام النفسي يشير في الواقع إلى الروح المحطمة. وتشير الأناجيل النصرانية إلى أنك عندما تؤذي طفلاً صغيراً، يسبب ذلك في دمار بالغ لنظام الأشياء إلى درجة تجعل مسيحاً رحيماً يقول، إن أي إنسان يريد إيذاء طفل، يستحق وضع حجر رحى حول عنقه وإلقائه في البحر. وبإدراكنا لما نعرفه حالياً عن أهمية بيئة الجماعة البشرية لنمو الروح الإنسانية، فإن الأمر لا يصدق إذا رأينا كيف ينتهك نظامنا الاقتصادي بعضاً من أهم احتياجاتنا البشرية. وحيث إن النظام الاقتصادي العالمي يقيِّم نفسه بمعايير الربح فقط، فإنه يتجاهل كلّياً تدهور أوضاع الروح البشرية ويسقط ذلك من حساباته كلّياً.

إن النظام الاقتصادي العالمي الذي تقوده دوافع الأرباح لا يشمل مكاناً لتهذيب وتغذية الحياة الروحية. ولا يقيم وزناً لأوقات الفراغ والتأمل والسكون لأن أيّاً من هذه النشاطات

لا تحكمها دوافع الربح. ويعتبر النظام الاقتصادي الحالي، الناس الذين يهتمون بحياتهم الروحية غير منتجين بل ومتخلفين. إن اقتصاد عالمنا المعاصر يشدد فقط على الحاجات والرغبات المادية ولا يعير اهتماماً للجوع الذي يسميه الناس جوع الروح. إن أنشطة التربية والتعليم في وجهتها الحالية، تحتاج إلى تحول جذري. إن واجبنا الأول والأكثر أهمية في الحياة هو الإمساك بزمام مصيرنا الروحي. إن مثل هذا الخطاب ليس مألوفاً في محيط التربية والتعليم. ومع ذلك فإننا نشاهد تدريجياً اهتماماً ملحوظاً في مجال التعليم ينـــزع نحو اعتبار التعليم على أنه مغامرة روحانية (بالمر، ميلر، مفت Palmer 1993; R. Miller 1993; Moffett 1994) وهنا مجدداً، نجد أن السكان الأصليين والشعوب المحلية مثال يمكن الاقتداء به. إن أحد أهم التقاليد الفطرية هو "البحث عن رؤية ما" مثل الذي يبرز أهميتها (توم براون، Tom Brown Jr 1988:4) بقوله "هناك عالم يتجاوز نطاق خبراتنا الانفعالية والعقلية والجسدية اليومية. إنه عالم يتجاوز الحواس الخمس، ويختلف عن مملكة الخيال، أنه عالم اللاّمرئيات وهو عالم السرمدية، إنه عالم الروح والرؤيا".

وخلال البحث عن رؤية ما، يجب على المرء أن يمتلك رؤية لحياة تمكّنه من إتباع رسالته في الحياة ومصيرها. استسمحونـــي لأقول بأن البحث عن رؤيا لا يركز على المصير الاقتصادي، وبإدراكنا لذلك، يمكننا أن نفهم كم هو أساسي أن يكون لنا مشترك حياة يعترف بأهمية نمونا الروحي.

تنوع واختلاف التعابير الروحية

إنه في نطاق الجماعة البشرية، رأينا في الماضي، ونرى الآن تنوعاً بديعاً في التعابير الروحانية البشرية، إنه يبدو أمراً طبيعياً للبشر في كل العصور والأزمنة بأن يعبِّروا عن البعد المقدس للحياة. ورغم أن التعابير المتنوعة للقدسية هذه، قد اختلفت وتختلف بشكل ملحوظ، فإن حقيقة وجود البعد المقدس للحياة البشرية يبدو وأنه غير قابل للجدل. كما أننا نقر أيضاً بأن موقعنا في الكون يوجد ضمن محيط تطوري زمنـــي. ونبعاً لذلك علينا توقع، بل واعتناق الفكرة التـــي مفادها، بأن البعد المقدس للحياة سيحتوي على نفس تنوع وحيوية إبداع الكون المتجلي للعيان تدريجياً. إن الاتجاهات الروحانية هذه، والتـــي تحثّ الأنظمة

التعليمية على تبنيها، لابد لها من أن تكون قادرة على الإيفاء بالاحتياجات الاستثنائية التـــي تفرضها ظروف كوكبنا الراهنة.

إن الروحانيات المعاصرة لا يمكنها الادعاء حالياً بأنها تمتلك لوحدها الخبرة الكاملة للروح البشرية. إن أية مزاعم على مستوى التفكير هذا، هي خاطئة التوجه ومضللة وخطيرة. ومااالتصعيد الراهن لمختلف الأصوليات إلاّ دليل على ذلك. إننا في حاجة لروحانيات ذات مدى وحجماً يمكنهما تمهيد السبيل لنا لاستيعاب وإدراك روعة الكون وبهجته. إننا بحاجة إلى روحانيات ذات رؤيا يكون تركيزها حيوياً على جميع أشكال الحياة، وتكون من أولوياتها المحافظة على الارتباط البشري المصيري مع العالم الطبيعي لكي يتجلى الكون تدريجياً. إننا بحاجة إلى روحانية فاتنة توقظ فينا الإحساس بالمكانة المهيبة لتجربتنا ضمن هذا اللّغز العظيم الذي وجدنا فيه. نحن بحاجة إلى روحانية متوطدة تربط أجسادنا بالغموض العميق للأشياء. نحن بحاجة إلى روحانية تكشف لنا جوانب تعدد "الاختلافات البشرية" وتوضحها لنا، وتظهر لنا البعد العميق لذاتنا الباطنية. إننا بحاجة إلى روحانية ذات بعد يمكننا من توطيد حياتنا وارتباطها مع التعبيرات المتعددة للمجتمعات البشرية، وتجعلنا منفتحين على إدراك أعمق لحقيقة أننا مشاركين في جماعة كونية مهيبة، يصفه (ماثيو فوكس Matthew Fox) بضخامة الخلق المهيبة، كما يشير إلى مكاننا ضمن هذا الخلق بإسهابه في شرح مفهوم شعب "اللاكوتا Lakota" عن الكون وماذا تعنـــي لديهم عبارة "الكل أقاربـــي":

الخلق هو كل الأشياء ونحن من ضمنها أيضاً. إنه علاقاتنا نحن بكل الأشياء. "الكل أقاربـــي" هو ابتهال شعب "اللاكوتا" كلما دخنوا الغليون المقدس أو غادروا كوخ التعرُّق والمجالسة. وتشير عبارة "الكل أقاربـــي" إلى كل الكائنات وكل الأشياء التـــي نراها والتـــي لا نراها، المجرات السيارة والشموس المتأججة والثقوب السوداء العميقة والمخلوقات المجهرية والأشجار والنجوم والأسماك والحيتان والذئاب وخنازير البحر والأزهار والصخور والحمم المنصهرة والجبال الشاهقة المكللة بالثلوج وأطفالنا وأولادهم وأحفادهم وأحفاد أحفادهم. وتشير عبارة "الكل أقاربـــي" إلى الأم المنفصلة عن زوجها والمرأة العاطلة عن العمل وطلاب الجامعات وملاّك الأراضي والعمال الذين يزرعونها وضفدع البركة وثعبان الأعشاب. وتشمل عبارة "الكل أقاربـــي" كذلك ألوان نهار مشمس وضّاء وظلمة الليالي الحالكة لغابات الأمطار وريش الببغاء المتلألئ وإيقاع الطبول الأفريقية وحجرات الطقوس الدينية

"لشعب الهوبـــي the Kiva of the Hopi" وروعة كاتدرائية تشارلز وروعة وإثارة مدينة نيويورك وكذلك يأس وبؤس السجون المزدحمة (م. فوكس M. Fox 1991: 7-8).

إن المعنـــى الرائع والحقيقي للكون هو الذي يتضمن تعبيرات متنوعة للاحتفاء بهذا السر العظيم. ولذلك فإنه ليس مصادفة أو مفاجأة أن يحتفل الناس لوجودهم بصيغ وأنماط متنوعة على امتداد الزمان والمكان، وهو الأمر الذي نحن متأكدون من صحته.

لقد نشأت التعابير المتعددة عن الأساطير والقصص وتعززت نتيجة لأنماط الحياة المتميزة التـــي بموجبها ارتبط سكان هذه الأرض، على تنوعهم، بعضهم البعض وبالعالم الطبيعي من حولهم، وكذلك بالقوى الروحية التـــي أمدتهم بتفسير جوهري لنشوء الكون وأنماط تفاعلاته وأنماطه الحيوية. إن الاختلافات في هذه التعابير والطقوس تعكس تنوع تجربة الحياة التـــي عاشتها الشعوب المتعددة والمواصفات الجغرافية للمنطقة التـــي سكنوها. لقد أعطت الأساطير والطقوس الدينية معنـــى لحياة هذه الشعوب واستحضرت لديهم الطاقة الروحية اللازمة لمواجهة الأهوال الكامنة في الحالات والأوضاع البشريـــة (سويم وبيري، Swimme and Berry 1992). ويقول كل من "سويم وبيري" بأن عملية الحضارة ما هي إلاّ امتداد لعمليات الانتقاء الطبيعي المستمرة. ويعتقدان بأن الانتقاء الطبيعي لا يحدث فقط داخل الأجناس البشرية، ولكنه يحدث ضمن تقسيمات البشر القبلية والحضارية المتعددة أيضاً. ومثلما يحدث باستمرار، انتقاء المجموعة البشرية من بين مجموعات الكوكب الحية فإنه يتم أيضاً وباستمرار انتقاء البنـــى الحضارية من بين سلسلة الاحتمالات الوفيرة. ومن هنا يمكننا فهم تنوع التعابير عن الروحانية التـــي تواجدت عبر الزمان والمكان. ويجب علينا أيضاً ألاّ نندهش بوجود تنوعات ضمن واقعنا التاريخي الحالي، تعبِّر عن مجمل الروح البشرية في زمننا الراهن. وخلال إظهارنا لبعض من هذه التعابير، لقد سبق وأن أكدنا على أنه من الضروري التمييز بين الروحانية والدين. ورغم أن الدين لا يعوق الروحانية، إلاّ أنه لا يحتويها بشكل كليّ. لقد ورثنا في عصرنا الحالي ميراث من الأديان والعلوم يتسمان بطقوس لا تشمل علاقتنا بالأرض في تمامها وكمالها.

إن تاريخنا المعاصر، يشهد تدريجياً طقوساً وصوراً من الروحانية تؤكد ترابط الإنسان مع العالم اللاّبشري، ويشهد كذلك فتوحاً علمية تعزز الروحانية وتصلنا بالكون بالغ الاتساع

والغزارة وألغازه المحيرة. إن مؤلفات كثيرة توضح هذا النوع من الترابط البشري بالكون نذكر منها (*قصة الكون*، براين سويم وتوماس بيري، *The Universe Story* by Brian Swimme and Thomas Berry 1992)، (*قلب الكون المجهول*، براين سويم، *The Hidden Heart of the Cosmos* 1996 by Brian Swimme)، (*إعادة ميلاد الطبيعة والرب*، روبرت شيلدراك، *The Rebirth of Nature and Gob* 1994 by Rupert Sheldrake's)، (*الرب والفيزيائية الجديدة*، بول ديفز، *God and the New Physic* 1984 by Paul Davies's)، (*الجيا، الرحلة البشرية من الفوضى إلى الكون*، اليزابيت ساهاتورى، *Gaia: The Human Journey from Chaos to Cosmos* 1989 by Elisabet Sahtouris's)، (*الكون الصغير*، لن مارجولس، *Microcosms* 1987 by Lynn Margulis's)، (*الكون*، كارل ساجان، *Cosmos* 1980 by Carl Sagan's)، (*عصور الجيا*، ج. أ. لافلوك، *The Ages of Gaia* 1988 by J. E. Lovelock's).

إن رواد العلوم البيئية المتميزون ما برحوا يحاولون تكريس مجموعات من الطقوس لقدح إدراك يوقظ الحس العميق. (الذاتية) لكل الأشياء. وينطلق هؤلاء العلماء من وجهات نظر خارج الديانات الرسمية، ومنهم (جون سيد وجوانا ميس John Seed and Joanna Macy) و(بات فليمنج وآرن ناس Pat Flemming, and Arne Naess) و(سيد وميس، Seed and Macy 1988)، محاولين تنمية طقوس خاصة لخلق وإحياء شعور خاص بالمحيط البيئي العميق وتمتد هذه الطقوس لتشمل من الابتهال إلى الشعر. ومن حيث البحث عن رؤيا في البراري إلى الدفاع الفعال عن كوكب الأرض.

هذا وتمهد كاتبات الصدى النسائي في مجال المحيط البيئي الطريق إلى روحانية تستجيب إلى الاحتياجات العميقة للنساء والرجال. ومن بينهن كاتبات أمثال (سوزانا جريفن، Susan Griffen 1978; 1995) و(ستارهوك، Starhawk 1997) و(راين آيزلر، Riane Eisler 1988) و(جوديث بلانت، Judith Plant 1989) و(تشارلين سبيرتناك، Charlne Spretnak 1991) وأخريات (دياموند وأورنستين، Diamond and Ornstein 1990) و(لاشابيل، La Chapelle 1988). إن الروحانيات النسائية، بكل تنوعاتها، تفتح الأبواب أمام تجسيد واستعادة الإحساس بأن جسد الأرض والجسد البشري مقدسان بقدر متساو (ستون، آيزلر، ستارهوك

.(Stone 1976; Eisler 1988; Starhawk 1979

إنه بعد خمسمائة عام من الهجوم الشرس على روحانيات السكان الأصليين للأمريكيتين، بدأ الآن يحدث نوع من الإدراك التدريجي لمغزى وقيمة تلك الروحانيات (ماندر، ستورم، ولويا، بترسون، Mander 1991; McGaa 1990 Storm 1972 Willoya 1962 Peterson 1990). إن السكان الأصليين الذين يعيشون في العالم المعاصر أنفسهم، أصبحوا يكتشفون أخطاءهم ويستعيدون حكمة أسلافهم، كنوع من الاعتراف والتصحيح لهجومات الروح الغربية المتوحشة. إن أهمية هذه الروحانية الفريدة من نوعها وبالغة التناغم مع عمليات الأرض والكون أصبحت قيمتها محل إدراك وإعجاب من قبل السكان المستوطنين حديثاً كمحاولة لاكتساب روحانية مرتبطة بالأرض. إن السكان الأصليين والمحليين شرعوا بسخاء حذر في مشاركة حكمة أسلافهم مع الآخرين من مستوطنين وغيرهم. وتزودنا (تشارلين سبيرتناك Charlene Spretnak 1991) في كتابها (*السكينة والخلاص: استعادة المغزى في عصر ما بعد الحداثة The Recovery of Meaning in the Postmodern Age*). بإدراك في غاية الوضوح للروحانية الفطرية. وتستعرض "تشارلي" طريقة أصلية لتمكين السكان المستوطنين الجدد من الارتباط بهذه الروحانية.

وفي القارة الأمريكية، حافظت القوميات الأمريكية المحلية على ممارساتها الروحانية المرتبطة بالأرض لأكثر من عشرين ألف سنة. ومنذ الاحتكاك الاستعماري بالغزاة الأوربيين، منذ خمسمائة سنة مضت، تعرضت الممارسات الروحانية للسكان الأصليين إلى هجوم شرس بهدف استئصالها لكي يتحلل النسيج الثقافي للسكان الأصليين على أمل أن تصبح جماعات الهنود الحمر عناصر أساسية متميزة في مجتمع العالم الحديث. ورغم الطموحات الاستعمارية وممارسات الهيمنة لم يحافظ المئات من السكان الأصليين على ممارساتهم الطقوسية وطرق عيشهم وثقافتهم فقط، بل وكانوا مستعدين لمشاركة الثقافة المهيمنة بعضاً من التعاليم المحلية المقدسة، مؤمنين بأن الوقت لازال سانحاً لكي ينمي كل الناس إدراكاً ووعياً ملؤه الحب والتوافق مع بقية العالم الطبيعي وأن تتغير أساليب الحياة الحديثة طبقاً لذلك. إن الأمل يحدونا جميعاً، بأنه لم يفت الأوان بعد، لكي نبذل الجهود من أجل إصلاح مسارات الحداثة وتجديد ارتباط علاقاتها المنفصلة مع عالم الطبيعة إلى علاقات ارتباط حميمة مع العالم الطبيعي. إننا جميعاً تواقون إلى شفاء عزلتنا المخدّرة للحواس، لكي نستبصر ونستشعر ضروب الحياة البديعة التـي أبدعها الخالق ببراعة متناهية، ولكي نستلهم الإحساس بحب نسيج الحياة البديع (سبيرتناك، Spretnak 1991: 89).

وبإدراكنا لهذه الأمور، فإن أحداث (سبتمبر، 1977) التاريخية التـــي قدم فيها "الهودوسيون Haudenosaunee" ملزمة من الأوراق إلى منظمة غير حكومية من منظمات الأمم المتحدة بمدينة (جنيف Geneva)، كانت حقيقة حدثاً تاريخياً متميزاً يتضمن معان ذات أبعاد عميقة. إن "الهودوسيون" المعروفين بالأمم الستة أو تحالف "الإنبركواس"، كانوا في الماضي شعوباً قوية تعيش في الجزء الشمالي الشرقي من قارة أمريكا الشمالية الذي يشمل حدود ما أصبح الآن كندا والولايات المتحدة الأمريكية. لقد كانت الأوراق التـــي قدمها "الهودوسيون" استجابة لنداء قدمته المنظمات غير الحكومية لحث السكان الأصليين على فضح أعمال القمع التـــي مورست عليهم طوال الخمسمائة سنة من الاحتلال ومنذ بداية الاحتكاك بالأوربيين الغزاة. لقد تم تسليم الأوراق إلى المنظمة غير الحكومية التابعة للأمم المتحدة ، تحت عنوان نداء أساس *لإيقاظ الضمير* وتنقل هذه الأوراق وجهة نظر السكان الأصليين في إحساسهم بأن أبناء البشر أساءوا ولازالوا يسيئون لبعضهم البعض حتـــى الآن ويسيئون إلى الكوكب الذي نعيش فوقه ويسيئون كذلك إلى أنفسهم. إن النداء الأساسي لنشر الوعي وإيقاظ الضمير يحدد بوضوح دور الحضارة الغربية في العملية الفعلية لتلك الإساءة للبشرية وللطبيعة. كما أن وجهة نظر النداء الأساسي هذا، تركز على النواحي الجيولوجية التـــي مفادها بأن الإنسان المعاصر هو طفل يشغل حيزاً زمنياً ضئيلاً في امتداد التجربة البشرية الطويلة الشاسعة، وباختصار شديد، فإن النداء في جوهره، هو دعوة لإدراك نسيج الحياة المقدس في هذا الكون الفسيح.

ورغم أننـــي ميزت بوضوح بين الروحانية والدين، إلاّ أنه سيكون الإيحاء إلى القارئ بأنهما مجالين مقفلين، ويبدو أن الدين يحمل سيفاً ذي حدين في كل من الحياة الروحية والحياة العامة. إن الانتقاد الرئيسي الموجه إلى الأديان العامة المنظمة، هو تشجيعها للنـــزعات الاجتماعية المحافظة "أي مقاومة التجديد" وتقييدها للحياة الروحية. وعلى الرغم من أن هذا هو واقع الحال في العديد من الشواهد فإنه مع ذلك لا يمثل كل الحقيقة. ومع أن أغلب الأديان التقليدية تهدف إلى السيطرة الاجتماعية، فإنه يجب الاعتراف أيضاً بأن الحركات الدينية كانت ولا تزال بؤرة التحول الاجتماعي والرؤى الثورية. وفي هذا الإطار يوضح (جنتر لوي Guenter Lewy) في كتابه (*الدين والثورة*، *Religion and Revolution* 1974)،

بأن الدين يمكن أن يكون أيضاً قوة محركة للحركات الثورية ضد السلطات الجائرة. ولقد شاهدنا في القارة الأمريكية، كيف أن قراءة مقاطع معينة من الإنجيل النصرانـــي تمهد السبيل لروح دينية تركز على التحرر من القهر (جيوتيريز، Gutierrez 1973). (الثورة السنديانية Sandinista) في (نيكاراجوا Nicaragua) كان مبعثها منبثقاً من مبادئ الديانة المسيحية في التحرر (م. فوكس، M. Fox 1991) ونلاحظ أيضاً في أمريكا الشمالية نمطاً من الروحانية يسمى "روحانية الخلق". لقد ألف (ماثيو فوكس Matthew Fox) مؤلفات عديدة في مجال روحانيات الخلق والإبداع التـــي تجمع بين التصوف النصرانـــي والكفاح المعاصر من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين الجنسين والمحافظة على البيئة (1983، 1988، 1991). وفي كتاب "توماس بيري" (*مصادقة الأرض نظرية لها هوية للمصالحة بين البشر والأرض*، 1991) ترى أفقاً مكملاً لما كتبه "فوكس" حيث يطرح هذا الأخير نمط من الروحانية النصرانية للخلق.

إن كتاب (مايكل لرنر، Michael Lerner) تحت عنوان (*سياسات المعانـــي The Politics of Meaning* 1996) وكتابه (*التجديد اليهودي: درب للاستشفاء والتحول، Jewish Renewal A path to Healing and Transformation* 1994)، هما محاولتين من يهودي أكاديمي ومعالج نفسانـــي وناشط اجتماعي لمعالجة القضايا الرئيسية التـــي ناقشتها في هذا الكتاب، غير أنها لا تخلو من وجهة نظر يهودي تقليدي ممارس لديانته اليهودية الأرثوذوكسية. ويتحدث "لرنر" في كتابه عن القضايا الأساسية للعولمة والمحيط البيئي وكذلك التمييز الجنسي والعرقي والتركيبة الطبقية. إن المهم في كتابـــي "لرنر" ليس فقط القضايا الاجتماعية التـــي حاول معالجتها، وكذلك تأكيده على أهمية الأساس الروحي للحياة البشرية ولكنه إضافة إلى ذلك تحدث عن تجدد الدين اليهودي من اليهودية الأرثوذوكسية التقليدية المحافظة ودعى إلى التجديد بكل التزام وإخلاص. إنه يفتح بعداً روحانياً جديداً يربط فيه بين أبعاد النبوءة اليهودية بروحانية تهتم بالاحتياجات التاريخية المعاصرة. ويقدم كتابه للقارئ غير اليهودي من أمثال "أوسلفان" رؤية واضحة للموارد الوفيرة التـــي يقدمها العرف اليهودي للعالم. وفي إطار التربية والتعليم، تأتـــي الأعمال الحديثة (فليب وكسلر، Philip Wexler 1996) و (آن آدلسون، Ann Adelson 1995) في نفس السياق وتقترح

نفس الأفكار.

لقد تم تعريفنا في الغرب بتعاليم الإسلام (سعيد، Said 1979) والبوذية والهندوسية الآتية من الشرق، وتقدم هذه التعاليم موارد وفيرة للتدبر والتأمل والتعبد. إن ما ألفه صديقي الراحل (مادان هاندا Madan Handa) تحت عنوان (مياتريا Maitreya) يظهر لدى المرء إحساساً بالقدسية ضمن إلهام الهندوسية، غير أنه أثر ذلك يتضح على وجهة نظر تتجاوز ذلك العرف. وتقدم أعمال (مياتر، Maitreya's 1988) و(سرى أوربينيدو Sri Aurobindo's) من (مكديرنت، McDermott 1987)، تجربة قيمة في عمق تعاليم الهندوسية وقدرة هذا التوجه على معالجة بعض القضايا الأساسية التـــي تواجه العالم المعاصر. إننا نجد أيضاً ثراءً مذهلاً في تعاليم البوذية من خلال مؤلفات (الدايلاي لاما، Dalai Lama 1982; 1996) و (تشنات هانه، Thich Nhat Hanh 1992; 1994; 1996) وكذلك مؤلفات (جونا ميس، Joanna Macy 1983; 1989; 1991). وهنا مجدداً نجد تخصيصاً وشمولية، مما يسمح لهذه الأعراف الغنية بمعالجة بعضاً من القضايا الروحانية الرئيسية في هذه الأزمنة. وتظهر القارة الأفريقية بتنوعات التعبير الدينـــي بين شعوبها المتعددة. وطالما كانت الروحانية والدين جزءاً مهمّاً من حياة الشعوب الأفريقية اليومية (سمارت، Smart 1997). إن الثقافات الأفريقية التقليدية تضفي روحانية على محيطها الكونـــي وتصد القوي التـــي تهددها بقوى مضادة خارقة للعادة. ويشير الأكاديمي الأفريقي (جورج داى، George Dei 1995b) إلى أن نظريات الوجود الأفريقية المحلية تظهر جوهر العلاقة الحميمة بين الفرد والمجتمع والعالم الطبيعي.

إنه لمن المهم جداً أن ندرك هنا القدرات الهائلة لكل التقاليد الدينية الشائعة على تجديد نفسها وتمهيد سبل جديدة لرؤى تنمي الروح البشرية. إنه في الواقع، لأمر في غاية الروعة، أن نرى مفكر من أحد التقاليد الروحانية ينفتح على دراسة وسبر أغوار تقاليد روحانية أخرى. وكمثال على ذلك نرى سمو (الدالاى لاما) في كتابه (*القلب الصالح The Good Heart* 1996) يقدم وجهة نظر بوذية حول تعاليم المسيح، ويستكشف ويعلق على مقاطع معروفة من كل من الأناجيل النصرانية الأربعة ويستنتج توافقات مدهشة بين قصص حياة المسيح وبوذا. وفي كتاب (*أقطاب مذهب زِن والصوفية*) نرى تأملات راهب نصرانـــي

حول ثراء التقاليد الروحانية الشرقية (ميرتون، Merton 1973). إن ما تقوله هذه الأمثلة بشكل أساسي، هو أننا عند نقطة في التاريخ حيث تتلاشى تدريجياً التقاليد الروحانية المتمايزة أو المختلفة لتتلاقى في ترسيخ قيم بعضها البعض دون الانتقاص من خصوصية أي منها.

وما نخلص إليه هنا فيما يتعلق بالتنوع والحياة الروحية، فهو وجوب انعكاس ثراء الأرض في وفرة وثراء التنوعات الروحانية دون الانتقاص من كمال أي منها. ويجب أن ندرك أيضاً بأن أي تقهقر نحو روحانية ثقافة واحدة، كما نشهده في التنوعات الأصولية المعاصرة، سيؤدي حتماً إلى عواقب بالغة الخطورة والتدمير. أما بخصوص الروحانيات في عالم اليوم فإن الاتجاه الفعال هو (ترك ألف زهرة تنمو) ونحن كبشر نتجه إلى مشترك عالمي بالغ التمايز وبتوقعات إيجابية وفي ذات الوقت نحو أبعاد ذاتية لم يسبق تخيلها إضافة إلى توجهاتنا التدريجية نحو مشترك ينفتح على الأعماق الأبعد غوراً لقصة كوكبنا. إن آخر شيء نحتاجه أو بالأحرى أول شيء نخشاه هو انهيار عصبي، الذي اعتقد بأن ظهور الأصوليات هو مثال له.

الرهبة واللغز

لقد سبق وأن ربط الفيلسوف (غابرييل مارسيل Gabriel Marcel) بين مفهومي المشكلة والغموض. والمشكلة هي لغز محدود وموجود ليتم حلّه، بينما يكون السر (أو اللغز) شيئاً غير متناهي وسيتم التعايش معه بدون أجوبة متكاملة. هذا وسبق أيضاً لفيلسوف آخر هو (ألفرد نورث وايتهد Alfred North Whitehead) أن قال بأن سمة الفلسفة هي "البدء بالتعجب والانتهاء بالتعجب". ترى كم من الفلاسفة يقولون هذا اليوم؟ إننا نعيش في عالم سفه التعجب وتفّهه، لينتهي بنا المطاف إلى محاولة جديدة لتلفيق التعجب في (أراضي ديزني DisneyLand) أو من خلال "الحقيقة الافتراضية" (ماندر، Mander 1991). إن الإحساس بالرهبة عند النظر إلى السماء في ليلة مزدانة بالنجوم يتسم الآن بالتراجع لأننا أصبحنا نعتبر السماوات تحدياً لخيالنا العسكري والصناعي. إن الدوافع الغريبة التي ساعدت على استكشاف كوكب الأرض، هي التي تغذي الآن طموحات استكشاف النجوم وأغوار الفضاء الخارجي. ورغم ذلك كله، فإننا نَحنُّ باستمرار إلى العودة إلى قدسية الرهبة والإحساس بها نحو الكون الرهيب. إنني اعتقد جازماً بأننا نمتلك ما يدعو إليه (رودولف

أوتو ، Rudolf Otto 1969) نحو "الإحساس بالمقدس" إنه إحساس بالبعد المقدس لمجمل الحقيقة. إنه إحساس يجعلنا مبهورين عند إدراكه. إنه إحساس دائم الاقتران بالشكر والامتنان لكوننا جزء من سرٍّ عظيم. إن هذا الإحساس بالتعجب والرهبة يبدو وإنه جزء من استجابتنا للواقع وهو موجود فينا منذ الولادة ونراه بالتأكيد في نظرة الصغار المحدقة وبالتأكيد في ذوي القلوب الشابة.

إن الإحساس بالقدسية موجود ونشط على كل المستويات، وهو ليس مقتصراً على عضو واحد من الحواس فهو نشط في البصر والنطق واللمس بل وكل ضروب الحواس. وفي مجال التعليم يجب أن ندع إحساسنا بالرهبة يهدينا سواء السبيل في سعينا للفهم والإدراك ، وعلينا أن لا نسمح لضحالة عقلية السوق التجارية بأن تقيدنا أو تحد من حريتنا. إن الرؤية الشاسعة لقصة منشئنا هي تصحيح لرؤى السوق التجارية العالمية أحادية الثقافة. إن مؤلفات (سويم وبيري، swimme and Berry 1992) (اليزابيت سوهاتورس، Elisabet Sahtouris 1989) ليس مثالين إلاّ لهذا الاتجاه المضاد للعولمة. ويقترح علينا "براين سوي" في كتابه (*القلب المخفي للكون*، *The Hidden heart of the Cosmos* 1996) أن نجعل بعضاً من الاكتشافات الهامة التـــي حققناها عن الكون موضع لحظة تأملية تجسد اهتماماً موحداً. ويتجسد هذا الاهتمام في أسئلة مثل، ما الذي يعنيه التواجد كإنسان في هذا الكون الشاسع الذي يتجلى غموضه تدريجياً؟ ما هو دورنا فيه؟ وما هو مصيرنا؟.

إن هذا الإحساس بالمصير الناتج عن التأمل العميق للكون، كان ولا يزال موجوداً لدى كل أبناء البشر وعبر كل العصور. لقد أدرك سكان الأمريكيتين الأصليين عظمة هذا الكون إلى درجة جعلت (توماس بيري، Thomas Berry 1988) يقول بأن هنود الأمريكيتين يمتلكون نمطاً خاصاً من الإدراك المبهم للطبيعة. إن إدراك وجود عظمة القوة الخارقة للطبيعة في كل مكان من النظام الكونـــي، يوطد لدى هذه الشعوب واحد من أكثر صور الروحانية المتكاملة التـــي عرفها الإنسان، وتعتبر الرؤية العظيمة (للآلك الأسود Black Elk) وهو أحد المشاهير من حكماء الهنود، إحدى أكثر الرؤى إبهاراً عن الكون وموقع البشر في دورة الحياة. إن أبعاد هذه الرؤية التنبؤية كانت مذهلة حقّاً، لأنها توقعت في بداية هذا القرن ما يحدث لنا مع نهايته (نياهارت، Neihardt 1972).

إن الإحساس بالرهبة الذي يثيره الكون ذاته، يعكس أيضاً الجمال المهيب للأرض نفسها. إننا نشاهد ذلك بطريقة متراكمة من خلال تأملات رواد الفضاء الدين غامروا بالسفر إلى الفضاء الخارجي "والدين كانوا أغلبهم من الرجال" لقد غادروا الأرض مسافرين في الفضاء كأدوات للحرب الباردة وعادوا كمخلوقات حية تنتمي لكوكب الأرض. وتحولت أفكارهم عن رحلتهم إلى الفضاء من الروح الحربية إلى روح صوفية. لقد بدا لديهم أن الإحساس بالرهبة الذي أثاره جمال كوكب الأرض الأصيل قد حال دون الشعور بالدولة القومية. وعند نهاية رحلتهم المذهلة أصبح كل رواد الفضاء كائنات تنتسب إلى كوكب الأرض (كيلي، Kelley 1988) ولكم مثالين على ذلك:

تبدو الأرض ليلاً أكثر سحراً وجمالاً مما هي عليه أثناء النهار. هناك دائماً عاصفة تحدث في مكان مامن الأرض. ويغطي وميض البرق أحياناً ما مقداره ربع قارة تقريباً. ولأول وهلة يشاهد المرء هذا ويحسبه اضطراباً طبيعياً، إنه انفجار كاستعراض ملكي مهيب. بينما يكون داخل المركبة الفضائية هدوء تام، فلا سماع لزعزعة الرعد الصاعقة ولا إحساس بهبوب الرياح ويبدو كل شيء وكأنه هادئ في مكانه، أنها مجرد أضواء متراقصة. وفجأة قد تتخيل رغماً عنك بأن البرق ليس صادراً عن عاصفة طبيعية ولكنه نتيجة لانفجارات القنابل. لا يجب أن يحدث هذا. فلتتوهج فقط الأنوار الشمالية والبرق فوق هذه الذرة الثمينة (فلاديمير شاتالوف، Vladimir Shatalov, USSR)، أخذت من (كيلي، Kelley 1988: 36).

وعندما تنظر من خارج النافذة متأملاً عبر ظلمات الفضاء التـــي تبعد ربع مليون ميل، ألها نظرة إلى أجمل نجم في السماوات. إنك لست قريباً بما يكفي لأي كوكب آخر حتـــى ترى من قطب إلى قطب وعبر محيطات وقارات. ويمكنك أن تشاهد الأرض وهي تدور لترى أنه ليس لها خيوط تشدها في الفضاء أو تدعمها في مكانها. أنك تراها تتحرك في ظلمة تكاد تفوق الإدراك البشري (يوجين سرمان، Eugene Cernan USA)، أخذت من (كيلي، Kelley 1988: 54).

إننا بدأنا الآن نشاهد بعض مؤلفات ممتازة تذكّر إحساسنا بطبيعة كوكبنا الروحية. إن المؤلفات التـــي أقوم بذكرها هنا على سبيل المثال، ما هي إلا توضيح بسيط من ضمن مجموعة أكبر من الكتب والمؤلفات المتاحة التـــي نراها تزداد يوماً، منها (*الكوكب الأزرق: احتفال بالأرض* *The Blue Planet: A Celebration of the Earth* 1983) من تأليف (لويز

يونخ Louise Youug) وهو كتاب لا يعدو عن كونه تاريخ الأرض وقصة حياتنا. وتحاول هذه الكاتبة أن تطلع القارئ بتفصيل ينبض بالحياة. وتقدم صورة جميلة للاكتشافات الجيولوجية التـــي توضح لنا كيفية تركيبة الطبقات الأرضية التـــي تتكون من المادة والطاقة دائمة التطور والفاعلية. إن هذا التعريف الرائع بعلوم الأرض يثير إحساس القارئ بالطبيعة العظيمة لكوكبنا الجميل. وإضافة إلى ذلك يستكشف كتاب (دون جيتون، Don Gayton's) تحت عنوان (*الأفق الباطن Landscapes of the Interior* 1996)، وهو عمل يشمل سبعة عشر مقالاً ويمثل رحلة فريدة من نوعها تجوب أعماق الارتباط البشري بالطبيعة. ويكشف كتاب (جيتون) هذا أيضاً، ذلك الغموض العجيب لقارة أمريكا الشمالية. إن ما سينطبع في ذهن القارئ، من بين هذه الكتب، هو ذلك الكتاب المتميز لـــ (ديريك جنسن، Derrick Jensen's) تحت عنوان (*الإنصات للأرض Listening to the Land* 1996) الذي يجمع فيه "جنسن" أحاديثَ مع المهتمين بالبيئة وعلماء اللاهوت وسكان أمريكا الأصليين وعلماء النفس وأنصار المساواة بين الجنسين والمهتمين بالكتابة في مجال الطبيعة وممارسو الطقوس الدينية، مستكشفاً معهم المفاهيم العميقة للعالم الطبيعي. وأخيراً يأتـــي عمل (بول ديفيرو، Paul Devereux) بعنوان (*الرؤية الجديدة للأرض Re-Visioning the Earth* 1996) ويعتبر هذا العمل دليلاً لاكتشاف قنوات الشفاء بين العقل والطبيعة. ويقدم هذا العمل دليلاً عملياً على استخدام القوة والطاقة لشفاء أنفسنا عقلياً وعاطفياً وروحياً. إن هذا الكتاب يوحي حقيقة بالرهبة.

إن مجمل الأعمال التـــي أوردوها حتـــى الآن هي في الواقع من خارج المجال التربوي الافتراضي، وسوف نحتاج ضمن المحيط التربوي لصقل كُتّاب ومؤلفين يعبِّرون عن أهمية الإحساس الروحي في مجال التعليم والتربية. ويرد في ذهنـــي منهم اثنان من تربوي أمريكا الشمالية، هما زميلي، (جون ميلر John Miller) وهو تربوي جيد الإطلاع على الممارسات التأملية في كلا الثقافتين الغربية والشرقية. ويوضح كتابه (*التأمل الممارس، The Contemplative Practitioner* 1994) أهمية البعد التأملي في مجال التعليم. وبعد تفكير ملي في أعمال (ديفيد سكون David Schon) يؤكد "ميلر" على رأيه بضرورة امتلاك التعليم لبعد تأملي مكمل لعملية الفكر التعليمي أو التفكير في التعليم:

ولكن هل يكفي إمعان الفكر؟ وأنا أوضح بأن ثمة عنصراً ضرورياً للممارسة السليمة لم يحسم بعد. إنه من الواضح أننا نتحدث عن مستوى آخر من التجربة يتعدى نطاق تجربة الحواس والتأمل أو التفكير. هذا المستوى الثالث يثرى الرؤية الكلية للتجربة الروحية عن طريق الارتباط بالوجود. هذا المستوى "مستوى المتأمل الممارس" يتحقق عبر صور من التفكير المتعددة من التأمل والأسطورة والعظمة (ج. ميلر، J. Miller 1994).

ويفتح "ميلر" مجال تعليم يتعارض يقيناً مع نـــزعات وميول مقتضيات السوق ومتطلباته. إن التأمل والسوق لا يلتقيان وإذا التقيا فهما مزيـــج سيئ رديء.

هذا ويظهر (ديفيد بيربل، David Purpel) في أحدث مؤلفاته (*الأزمة الروحية والأخلاقية في التعليم The Moral and Spirtual Crisis of Education* 1989) مسؤولية التربويين بكل دقة وتحديد في صياغة نظام تربوي ملتزم يكون رحب الأفق دائم الوعي بالمشاكل التـــي تعيق بدل الجهود لصياغة هذا النمط من النظام وكذلك الوعي بالمشاكل الضمنية الكاملة التـــي قد تعيق القيام بهذا الجهد من أجل التغيير والتحول الجذري في النظام التعليمي. وفيما يلي توضيح لأهداف النظام التربوي ومعتقداته:

1. *التمعن والتدبير في روعة ورهبة الكون وغموضه*، يشير (بيربل Purpel) إلى مسؤليتنا كتربويين في تمعن العالم والكون الذي نسلكه وأن نتقاسم ردود أفعالنا على نحو أصيل وعقلانـــي، وفي ذات الوقت علينا أن نكون واعين بما نلاحظه وأن نشرك الطلاب فيما نلاحظه وما ينتج عن هذه الملاحظة من خبرات. ويوضح "بيربل" قدرتنا وواجبنا في مواجهة هذه الحقيقة كانعكاس لشبابنا النسبـــي وكنوع من المخلوقات في كون موجود منذ بلايين السنين. وهكذا يجب علينا أن نشعر بالتواضع بما يلائم تواضع أي مبتدئ. وبالرغم من ذلك، يجب علينا الاحتفاظ بثقتنا في أنفسنا، حيث أننا وصلنا إلى مزيد من المعرفة التـــي تتراكم باستمرار مع مرور الزمن، وربما بمعدل سريع جداً. إن تفجر معرفتنا هذا ومهما كان متناقصاً ظاهرياً قد أدى إلى شعور أعمق بغموض عمليات النشوء الأساسية الأولية وكذلك القدر والمصير المنتظر. إن الضرورة تحتم على التربويين إن يوفروا بيئة أساسية متينة لبرامجهم الدراسية. وكجزء من هذه البيئة، نحن بحاجة إلى إرساء حقيقة الغموض الهائل الذي يحيط بوجودنا بالغ التعقيد. إن مثل هذه البيئة المنشودة يعتبر

وجودها حاسماً لأنها ستحدد موقعنا ليس فقط كمشاهدين وملاحظين مهتمين بغموض الكون ،ولكن كوننا أيضاً مظهراً من مظاهر هذا الغموض. وهكذا علينا أن نرسي منذ البداية بعدنا الوجودي (إننا بشر منهمكون في عملية تحديد وجودنا). وفضلاً عن ذلك تساعد هذه البيئة في ترسيخ الفكرة التـــي مفادها، أن عملية بحثنا عن معنـــى وهدف الوجود البشري هي عملية مستمرة يحفها عدم اليقين، وعليه فهي تتطلب معرفة جدية وتفكيراً وبحثاً عميقين. وإضافة إلى ذلك فإن مثل هذه البيئة المستهدفة تقتضي منا أن نكون خلال عملية البحث والتفكير واعيين دائماً بصعوبة المهمة وضآلة التقدم الذي نحرزه. وبهذه الكيفية يمكننا أيضاً أن نستشعر ولو بمقدار ضئيل حجم المسئولية الملقاة على عاتقنا. وعلينا الاستجابة بحزم لما يحيط بنا من ظروف لأن بقاء البشر مرهون بمدى استجاباتهم لظروف وجودهم. (بيربل 1989 Purpel).

2. *تنمية وتدعيم تكوين المفهوم (المغزى)* يفيد رأي "بيربل" فيما يتعلق ببيئتنا الخاصة كجزء من قصة الكون، بأننا لسنا مجرد جنس معنـــي بالبقاء على قيد الحياة فقط، بل بالأحرى نحن جنس عازم على خلق أنظمة فكرية تفسر لنا الماضي وترشد الحاضر وتوجه المستقبل.

وعندما يتفحص التربويون هذه الأنظمة الفكرية المختلفة، فإنهم يواجهون عندئذ بنفس تنوع وتعقيد تفسيرات الكون. ويجب على التربويين كذلك، وبطريقة موازية، أن يتعاملوا مع سياق المفهوم أو المغزى الذي سيتم من خلاله تقديم الأنشطة التربوية والتعليمية. إن الهدف التربوي لا يكمن في تحديد أو تدريس نظام لمفهوم أو معنـــى معين ولكنه يكمن في إحداث التدريس لاستجابة من نوع ما لذلك التحديد. ويجب على التربويين تذكير أنفسهم وطلابهم دائماً، بأن أي حضارة أو ثقافة هي بنية بشرية، وإن خلق أو إعادة خلق الثقافة هي مسؤولية البشر أنفسهم، وبالتالي فإن تشجيع المفهوم الذي يفيد بأن التأسيسات الثقافية والقيم والمعتقدات هي هبة ممنوحة، هو عمل مضلِّلٌ فكرياً. وحتـــى ولو أننا غير مسؤولين عن ابتداع أو خلق أنفسنا فإننا وبدرجة عالية مسئولين عن خلق وابتداع ثقافتنا. وتعتبر ثقافتنا نحن أيضاً على إدراك وتأمل وفرة الإبداع الثقافي النسيج الذي نسميه الحياة. إن العملية

التعليمية قائمة على مفهوم أساسي جداً يفيد بأن العالم له معنـــى وأننا مشتركين في تقرير وخلق أيضاً، مسؤولة عن تشكيل شخصياتنا. ونحن نعيش حقيقة وسط علاقة جدلية بين الغموض والطبيعة والثقافة. وإدراكاً منّا للدور الهام الذي نقوم به نحن البشر في خضم الكون والزخم الشاسع الذي ينطوي عليه. ورغم محدودية هذا الدور، إلاّ أنه مهمّ ويحتم علينا الاستجابة لمسئولياتنا الإبداعية. ويجب على التربويين مساعدتنا لكي ندرك هذه العملية وطبيعتها الإبداعية عن طريق شحذ طاقاتنا الإبداعية الخلاقة وأن يكشفوا لنا عن إبداعات ثقافية متعددة.

نحن لسنا فقط بحاجة إلى ثقافة تساعدنا على الحياة، بل وتساعدنا أيضاً على إدراك وتأمل وفرة الإبداع الثقافي للنسيج الذي نسميه الحياة. إن العملية التعليمية قائمة على مفهوم أساسي جداً يفيد بأن العالم له معنـــى وأننا مشتركين في تقرير وخلق ذلك المعنى. ويحاول البشر منذ مستهل حياتهم تقريباً ، فهم عالمهم والتحكم فيه. ويجب على المؤسسات التعليمية تدعيم وتطوير مثل هذه الدوافع. ولا يعنـــي ذلك طبعاً ، بأنه على التربويين أن يحاولوا تشجيع نظرية الأنا "بأن لا وجود لأي شيء غير الأنا" التـــي تعنـــي الانغماس الذاتـــي أيضاً. بل يجب على التربويين تأكيد الأساس البشري الجماعي للثقافة، دون إهمال للذاتية والخيال وبالقدر الضروري لدوافع خلق حياة ذات معنـــى وأبعاد أخلاقية (بيربل، Purpel 1989; 114-15).

3. *تنمية وتشجيع الانسجام بين الطبيعة والبشرية، وما يصحبها من مسؤولية بذل قصارى الجهد من أجل تحقيق الوئام والسلام والعدالة.* يعتقد "بيربل" بأن تنمية فكرة الانسجام، هي تأكيد ذاتـــي للغز ولرهبة قصة الخلق العظيمة. ويقتضي هذا التأكيد القبول بمبادئ كونية وأخلاقية أساسية. إن المعنـــى المتضمن هنا، هو الإيمان بوجود إحساس جوهري نرتبط فيه بشكل أساسي، سواء ببعضنا البعض أو بالطبيعة وبالكون. ويعتبر هذا، في أبعاده العميقة، أمر ضروري للتطابق والتوافق الكونـــي الذي يجسد التكامل حيث تتم المحافظة على السلام والوئام والعدل الاجتماعي في آن واحد. إن ما أعنيه هنا ضمناً، هو كون ذو وئام ومعنـــى يكون فيه كل إنسان ذا قيمة فطرية وجدير بالاحترام، ويكون فيه وقار ومنـــزلة كل عناصر الكون مضمونة وتكون هذه العناصر مترابطة في علاقة

متبادلة وذات أهمية ومعنى. ويؤكد "بيربل" على أن الوئام بتعريفه الصحيح يتطلب وجود العدل والسلام والكرامة التـــي لا تتجزأ. إن "بيربل" بهذا التأكيد لا يقع في فخ التشبيه "عَزْوِ الصفات البشرية لغير العاقل" ومن ثم يلاحظ بما هو آتي:

علينا أن نكون واعين بموقعنا في الكون وكذلك في علاقاتنا مع الطبيعة، وخاصة في تحمل مسئولياتنا في الحفاظ على بيئتنا والعمل على رعايتها وتحسينها. علينا أن نواجه بدون مغالاة كيف أن جنسنا البشري تم تعريضه للخطر، ليس فقط في تأسيسات اجتماعية معينة وبل وفي الوجود الفعلي لكوكبنا كنظام حي أيضاً. إن كفاحنا من أجل المشاركة في تنشيط الدوافع الكونية من أجل خلق محيط بيئي تتحقق فيه السعادة للبشر والطبيعة والكون، وحب للعدالة والمساواة وذلك ما نسميه أحياناً بالوئام. نحن نشاهد بالفعل إمكانيات مهمة ومثيرة للمشاعر، نشأت وتنشأ في هذا المجال متجسدة في انبثاق جهود رائعة لنشر الوعي، مثل تلك الأنشطة التـــي تقوم بها الحركات النسائية والبيئية ذات الأفق الرحب والتـــي تتمحور أنشطتها حول الاهتمام الجاد بالألفة والوئام المرتكزان على إدراك تام باعتمادنا المتبادل على بعضنا البعض وعلى رؤيتنا الشاملة للخلق بأكمله (بيربل، Purpel 1989: 116).

4. *تنمية وتطوير وتدعيم معتقد ثقافي يعتمد على الثقة في قدرة البشر على المشاركة في خلق عالم يعمُه الأنصاف والتراحم والرعاية والعطف والسعادة.*إن التربويين هنا، يجدون أنفسهم مجدداً ، في وضع يحتم عليهم التأكيد ليس فقط على هذه المبادئ ولكنهم أيضاً. سيجدونها مبادئ مقدسة ومهيبة. ويؤكد "بيربل" على أن التربويين سيكون بوسعهم قبول مبادئ تشمل الحب والإنصاف والتراحم والسعادة، وسيكون عملهم مدعَّماً بوحي من هذه المبادئ الأخلاقية ذاتها. وفي نفس الوقت سيكون من المهم قبول الجميع للصعوبات الجمة التـــي تصاحب تعريف هذه المبادئ وتوظيفها والإحساس بها.
5. *تنمية وتدعيم وتطوير أفكار وقيم المجتمع نحو التراحم والاعتماد المتبادل ضمن تقاليد المبادئ الديمقراطية.* يؤكد "بيربل" بأن على التربويين بهذا التوجه للعرف الديمقراطي، أن يكونوا واعين بالمشاكل والصعوبات والتعقيدات التـــي تنشأ وتصرُّ على الاستمرار كنتيجة لهذه التوجهات الأخلاقية. وبالتأكيد فإنه، لا يوجد أي تضارب بين المبادئ والنوايا الروحية للديمقراطية من ناحية وفي كوننا واعيين بمشاكلها من ناحية ثانية. وفي الواقع، فإن روح الديمقراطية نفسها هي التـــي تسمح وتشجع فعلياً التفكير النقدي

المستمر وحرية البحث التـــي يمارسها الأحرار. ويجب علينا أيضاً أن نكون يقظين دائماً وواعيين بمعانـــي المؤسسات الديمقراطية في إطار الواقع الاجتماعي والسياسي لأي مرحلة تاريخية (بيربل، Purpel 1989: 117-18).

6. *تنمية وتطوير وتدعيم مشاعر الغضب والالتزام وتحمل المسئولية في مواجهة الظلم والقهر.* *إن الغضب والاستنكار في مواجهة القهر*، هو استجابة عاقلة ومنطقية لموقف تنتهك فيه قيمنا السامية. وعلينا أن نكون حذرين جداً عندما نتغاضى عن انتهاكات معينة على اعتقاد بأنها ليست ذات شأن، مثلما يحصل في حالات البطالة التـــي يكون معدلها مقبولاً حيث يتم التغاضي عنها.

ويؤكد (بيربل، Purpel 1989) على أن هذه الأهداف هي من الشدة والقوة بحيث تثير افتراضات ومعتقدات وقيم. ويرى "بيربل" كذلك بأن القيم والمواقف والمعتقدات التـــي تمثلها هذه الأهداف، هي حقيقة مستمدة من محاور وأبعاد الإجماع الثقافي الواسع الذي يمكن أن يساعد في التعبير عن إحساسنا "بالقدسية" في أساطيرنا وافتراضاتنا وبنية معتقداتنا.

إيروس (Eros) إله الحب عند الإغريق

تقول (أودر لورد، Auder Lorde 1978) في مقالها الجريء (استخدام الشهوة واستغلال قوتها). إن كلمة (إروتك Erotic) أصلها من الكلمة الإغريقية (إيروس Eros) وهي تجسيد للحب بكل مظاهره وأبعد معانيه. ومن منطلق فهمها للشهوة تتحدث (أودرى) عنها بأنها تأكيد لقوة الحياة التـــي تحتويها الطاقة الإبداعية. وتأتينا هذه الطاقة الدفينة في صورة متجسدة. ويمكن مشاهدة ارتباط الايروس بالحب عندما لا يقتصر ارتباط الشهوة بالطاقة الجنسية، بل هي بالأحرى، القوة المحركة التـــي تحرك كل صور الحياة وتحولها من حالة احتمال الوجود إلى حالة الوجود المتحقق. في كتاب "الحياة المتقدة" يرى (سام كين Sam Keen 1994) في الايروس طاقة الحياة التـــي تدفع الطيور إلى الهجرة وتدفع نبتة الهندباء إلى الازدهار.

لقد أشرت في الفصل الثالث من هذا الكتاب إلى أن اتجاه التفكير الغربـــي قد أدى إلى الانفصال بين الروح والطبيعة.وفي مقال رائع ، يقدم (رالف ميتزنر Ralph Metzner 1993)

في هذا الصدد معنـــى تاريخياً متراكماً لهذا الانفصال:

> لدينا اعتقاد راسخ بأن حياتنا وممارساتنا الروحانية يجب أن تنــزع في الأتجاه المعاكس لطبيعتنا. إننا نتصور أن الروح تتسامى، بينما نتصور في المقابل ، بأن الطبيعة التـــي تحتوي أحاسيس مادية جسمية، بأنها تشدنا أو تغرقنا إلى الأسفل. إن الاعتقاد المترسخ في طبيعة الوعي الأوربـــي، بخصوص "ثنائية الروح" هو من الشدة والقوة إلى الدرجة التـــي يتعذر علينا معها تصور خلاف ذلك. وتبقى العواقب الوخيمة لهذا التصور واضحة حين نفكر ملياً في حقيقة أننا لو أحسسنا بأننا منفصلين عقلياً وروحياً عن طبيعتنا الخاصة (الجسم والغرائز والأحاسيس... وغيرها) فإن هذا الانفصال سينعكس إلى الخارج بحيث نعتبر أنفسنا منفصلين عن عالم الطبيعة العظيم وعن الأرض وعن كل ما يحيط بنا. إن الثقافة الغربية هذه الحضارة العظيمة التـــي نفتخر بها تحتوي على هذه الثنائية المتوطدة في نظرتها الدينية وعلومها الإنسانية للعالم. وطبقاً لهذه النظرة فإن العالم المادي جامد ومعدوم الحس وغير روحانـــي، وليست هناك إمكانية لأي نوع من التواصل النفسي أو الروحي بين البشر والأرض والطبيعة (ميتزنر، Metzner 1993: 6).

إن تاريخنا الثقافي هو تاريخ فصل الروح عن الجسد، لقد فصلنا العقل عن المادة، والعواطف عن المنطق. ويبدو أن الثقافات الأبوية ذات تاريخ طويل في فصل الجسد عن الروح (سبيرتناك،Spretnak 1978). ويوضح (أوكتافيو باز،Octavio Paz 1995) بأن الثقافة الإغريقية اليونانية جاءت قبل المسيحية بوقت طويل وكان لها شك عميق في علاقة الجسد بالحب الشهوانـــي، حيث اعتبر (أفلاطون) العناق الجسدي سلوكاً منحطاً. واستمرت الثقافة المسيحية بعد اليونانيين في ترسيخ مبدأ الاختلاف بين الجسد والروح، واعتبرتهما في حرب دائمة مع بعضهما البعض. وخلال التاريخ المعاصر، أوصلتنا أنظمة معرفتنا إلى نقطة الفراق مع الطبيعة. مما يجعلنا نعيش في عوالم المجردات المنفصلة "الواقع الافتراضي". ومع تعمقنا عبر أغوار العقل المتباعدة ، فإننا ضمن نطاق الواقع الافتراضي هذا، نترك العالم الطبيعي وراءنا. إنه لمن الضروري جداً أن نتدبر إلى أين سيقودنا هذا الأمر وإلى أي نهاية سيوصلنا.

إنه من الضروري أيضاً ومند مستهل نقاشنا هذا، أن نقوم بتحديد فروقات مبدئية بخصوص العلاقة بين الروح والمادة. ويحدد (كن ولبر، Ken Wilber 1995) فوارق هامة بين ثلاثة رؤى عالمية مختلفة حول العلاقة بين الطبيعة والروح. الرؤية العالمية الأولى هي، الرؤية

السحرية "تلاحم وعدم انفصام" حيث تكون الروح بكل بساطة متساوية مع الطبيعة (هذه دنيوية). والرؤية العالمية الثانية هي ذلك الانفصام الأسطوري حيث تكون الطبيعة منفصلة عن الروح وجودياً أو تكونان مطلّقتين من بعضها البعض (الدنيوية الأخرى). أمَّا الرؤية العالمية الثالثة فهي الصوفية الروحية حيث تكون الطبيعة تعبيراً مثاليًّا عن الروح (اتحاد هذه دنيوية مع الأخرى دنيوية).

إن نظرتنا الغربية للعالم وفي أبلغ مثال لها تتجلىً ضمن الرؤية العالمية الثانية للانفصام الأسطوري. لقد تم تدريبنا على فصل عقولنا عن أجسادنا وأرواحنا في هذه الثقافة. وحدث هذا طبعاً من خلال تدريبنا الدينـــي وأنظمة تعليمنا ومؤسساتنا التربوية. ويتم تدريس هذا الانفصال في مؤسساتنا التربوية للتعليم العالي. ويلاحظ (بيل هوكس Bell Hooks) من الأكاديمية ما يلي:

الأساتذة نادراً ما يتحدثون عن الحب والشهوانية الجسدية في فصولنا الدراسية. ولكوننا قد تم تدريبنا ضمن الإطار الفلسفي للثنائية الميتا فيزيقية "ما وراء الطبيعة أو الغيبيات" الغربية فإن الكثير منا قد تقبلوا فكرة وجود انفصال بين الجسد والعقل. ونتيجة لإيمانهم بهذا، فإن المعلمين يدخلون الفصول ليقوموا بالتدريس وكأن العقل هو فقط المتواجد في الفصل وليس الجسد أيضاً. ويعتبر لفت الانتباه إلى الجسد بمثابة خيانة لميراث الكبت والإنكار الذي ورثناه عن أسلافنا الأكاديميين الذين كانوا ولا يزالون في غالب الأحيان بيضاً وذكوراً (هوكس، hooks 1994: 191).

إن مجمل المسار الثقافي الغربـــي هو خلق فصل بين الطبيعة والروح وكذلك إخراجنا من حواسنا (بيرمان، Berman 1989). إن الذين يكتبون في مجال الشهوانية كثيراً ما يعبرون عن تجربة مباشرة وعن كيفية حدوث هذا الانفصال في حياتهم. وتوضح (آليس ووكر، Alice Walker 1997) كيفية حدوث الانفصال في حياتنا الخاصة كنتيجة لتعرضها للمسيحية البابوية. وفي أحدث كتاب لها، شمل مقالات متعددة حول الفعاليات السياسية، تستكشف "آليس" فيه بداية وعيها منذ طفولتها. وكنتيجة لمحدودية ديانتها الموروثة، تقول "آليس" بأنها أساءت إلى نفسها الغريزية الطبيعية التـــي تعزها أيما إعزاز، والتـــي تعرِّفها "بنفسها الوثنية". أمَّا بالنسبة للنساء ، توجد محاولات متكررة للمساواة بين الإباحية وشهوانية الدعارة. وتشدد (أودر لورد، Audre Lorde 1978) في تأكيدها على شهوانية الدعارة والإباحية على

أنهما استعمالين متعارضين كلياً للرغبة الجنسية وشهوتها. إن الشهوانية تظهر الطبيعة الترابطية العميقة على نحـــو يتعارض مـــع الإباحية. وتوضح "لورد" كيفية تأثير الشهوانية عليها بدرجـــة شخصية عميقة.

تقول "لورد" الشهوانية تؤثر في طرق متعددة، أولها القوة الناتجة عن المقاسمة العميقة للمطاردة مع شخص آخر إن مشاركة البهجة ونشوة الالتقاء سواءً كان ذلك جسدياً أو عاطفياً، روحياً أو فكرياً، تمثل الجسر بين المشاركين الذي يرتبط من خلاله المشاركون في الالتقاء. ويعتبر هذا الجسر أساساً لفهم الكثير مما ليسوا متشاركين فيه ويقلل في ذات الوقت من تهديد اختلافاتهم.

الطريقة الثانية المهمة الذي يؤثر بها الارتباط الشهوانـــي هي الإبراز المتفتح الجريء لمقدرتـــي على الإحساس بالنشوة، والطريقة التـــي ينبسط بها جسدي للموسيقى وينفتح على الاستجابة لها صاغياً إلى أعمق إيقاعاتها لتتفتح مع هذا الانبساط كل مستويات شعوري على التجربة المشبعة شهوانياً، سواء كان ذلك رقصاً أو كتابة قصيدة أو تمحيص فكرة معينة أو صنع خزانة لحفظ الكتب.

إن الارتباط الذاتـــي المتقاسم هو مقياس البهجة التـــي تمكنننـــي من تعريف قدرتـــي على الإحساس بها، وتذكرنـــي بمقدرتـــي على الإحساس. إن هذه المعرفة العميقة بمقدرتـــي على الإحساس بالنشوة وبهجة الحياة مع إدراكي بأن هذا الإشباع الحسي ممكن دون الضرورة لتسميته زواجاً أو إلهاً أو حياة أخروية.

إن هذا هو أحد أسباب الخوف المرعب الشديد من الشهوانية ، وحصرها في حجرة النوم فقط، وهذا عندما يتم الاعتراف بالشهوانية أصلاً. إننا ولأول مرة، أصبحنا نشعر بعمق بكلّ جوانب حياتنا. إننا أصبحنا نطلب من أنفسنا ومن حياتنا الإحساس بالتوافق مع تلك البهجة التـــي مكّنتنا من الشعور بها. إن ثقافتنا ومعرفتنا حول الشهوانية أعطتنا قوة وأصبحت عدسة نتفحص من خلالها كل أوجه وجودنا، ملزمين أنفسنا بتقييم تلك الأوجه بأمانة من حيث المعنـــى الذي يرتبط بحياتنا (لورد، Lorde 1978: 5).

تقول "سوزان جريفن" في كتابها (*الحب في الحياة اليومية*، *The Eros of Everyday Life* 1995) بأن الشهوانية ترتبط بالمجتمع وبالقدسية وتوضح أيضاً توازي المحيط البيئي والإنصاف الاجتماعي في ضوء الشهوانية.

يوجد تجسيد للحب حاضر في كل لقاء ويعتبر هذا أمراً مقدس. ما على المرء إلاّ الإصغاء الداخلي لتواريخ وترددات الكلمات التـــي نستعملها للتعبير عن التجربة الدينية. إن كلمة "ساتسانج في اللغة

سانسكريتية" تعنـــي في اللغة الإنجليزية "لقاء أو اجتماع" وتعنـــي أيضاً "التجمع الإلهي المقدس". وفي اللغة الإنجليزية ترتبط كلمة "Common شائع" مع كلمة "يتواصل Communicate" ثم بكلمة "التواصل Communion". إن وجود المرء في حالة تواصل ومشاركة، يعنـــي أن يكون واعياً بطبيعة الوجود. وهنا يلتقي المحيط البيئي والإنصاف الاجتماعي مع الإدراك بأن الحياة يتقاسمها الجميع. وسواء أدركنا أو لم ندرك ذلك، فإننا موجودون لأننا نتشارك ونتبادل وندفع قدماً هبة الحياة. إن معرفة هذه الأمور تعتبر ضرورية وحيوية لحالة الروح مثلما هي تمريناً وممارسة حيوية للجسد (غريفن، Griffin 1995: 150).

وبمؤلفات (سوزان غريفن، Susan Griffin 1978; 1995) و(راين آيزلر، Riane Eisler 1988) و(أوكتوفيو باز، Octavio Paz 1995) و(سام كين، Sam Keen 1994) وآخرين، أصبحنا نشرع في إعادة الاعتبار للشهوانية، ويشمل ذلك الأوجه الأكثر حنوًّا وعاطفة لتركيبتنا الجنسية. وللقيام بهذا ستكون هناك حاجة ضرورية ملحة لإعادة النظر في علاقة الرجال بالنساء التـــي بنيت على ثقافة المجتمع البابوي والتـــي تتمثل في تسلط الذكور على الحيثية الجنسية. إن هيمنة الذكور هي المعيار الفعال في الثقافة الغربية المعاصرة. وضمن هذا الإطار السلطوي البابوي فإن أجساد النساء ليست غير مقدسة فقط ولكنها ليست ملكاً لهن أيضاً. إن الرغبة العميقة للمتعة المشتركة. هي متكلفة ومصطنعة في هذا النمط من علاقة الهيمنة. إن أجساد الرجال والنساء ليست ضمن هذه البنية المعيارية المتاحة للمتعة المشتركة وفي المقابل، نجد الموقف يتضمن انتهاكاً وسيطرة وتلاعباً تجاه أجساد النساء، بدلاً من أن يكون موقف متعة وانتشاء وبهجة مشتركة بين الرجل والمرأة. إن الرجال ينظرون إلى النساء من زاوية تسلطية مبنية على القوة أكثر من النظر إلى النساء من زاوية المتعة المشتركة. إن خضم العنف الجنسي من جانب الذكور المرتبط بالحب الشهوانـــي الجسدي، هو تمثيل خاطئ تماماً للعواطف الشهوانية. إن الاغتصاب ليس إظهاراً للعاطفة، بل على العكس هو إظهار لإساءة استعمال القوة. إن الاغتصاب عمل شنيع لا يزيد عن كونه تدنيس وانتهاك للحرمة.

إن المتعة العارمة التـــي تحتويها أجسادنا عند العناق المشترك تمكننا من تجربة الانتشاء العميق الذي يمنحنا إياه وجودنا، رغماً عن كل الصعوبات والأحزان التـــي نواجهها في

حياتنا. إننا ونحن نحتفل بالشهوانية، فإننا لا ننسى الحاجة إلى البنـــى الأسطورية التـــي تأخذ في اعتبارها الأسى والألم والموت، كجزء من دورات الحياة والطبيعة. إن الإحساس بالقدسية في اللقاءات الشهوانية الجنسية التـــي تتخلل الحياة اليومية يجب أن تكون جزءاً من الاحتفال بوجودنا اليومي. ويقوم عالم اللاهوت (كارتر هايوورد Carter Heyward) بتقديم صورة التوازي الآتية:

إننا ونحن نمر بتجربة الإحساس بالقدسية فإننا نشرع في معرفة أنفسنا كمقدسين وأن نتخيل أنفسنا مشتركين في خلق بعضنا البعض وفي خدمة صالحنا العام. إننا ندرك القدسية في وجوه أحيائنا وأصدقائنا وكذلك وجوهنا نحن، حيث نبدأ في الشعور بالارتياح في أجسادنا وأنفسنا، ونستعيد إحساسنا وارتباطنا بالآخرين مما يشعرنا بالقوة. ونصبح موارد حكمة واستمتاع لبعضنا البعض. وهما ساحتان لم نجرؤ على الاعتراف بهما بعد (هيوارد Heyward 1989: 102).

ويجب علينا استحداث قصص تخبرنا عن منشأ قدومنا ومن إلى هذا العالم بسرور وبهجة أكثر من تصوير هذا القدوم بالأسى والخطيئة. وعلى خلاف الصور الحضارية المعاصرة للعنف، تشجع "راين أيزلر" تطوير صور روحانية للشهوة الجنسية، بدلاً من تصوير العنف والهيمنة بصور شهوانية. وتقول "آيزلر" في هذا الصدد:

إن الشموع والموسيقى والزهور والنبيذ، التـــي عادة ما ترتبط بالغرام والجنس والحب، هي أيضاً مرتبطة بالطقوس الدينية التـــي هي أكثر شعائرنا قداسة.

لماذا هذا التشابه الملحوظ؟ ولو أننا نادراً ما نلاحظه. هل هو أمر عرضي؟ حين نستخدم كلمة العاطفة في كل من الأفعال الجنسية والصوفية. أم أن هناك ارتباطاً منسيًّا منذ أمد بعيد ولكنه لا يزال فعَّالاً؟ هل يمكن أن يكون توق الكثير من الرجال والنساء إلى ممارسة الجنس واعتباره شيء جميل وساحر، هو الدافع المكبوت منذ زمن بعيد تجاه طريقة أكثر روحانية؟ وفي نفس الوقت شدة عاطفية للتعبير عن الجنس والحب؟ (آيزلر، Eisler 1995: 15).

إنه لمن الواجب علينا، فيما يتعلق بهذه الأمور، أن ندرك بأننا عند نقطة اختيار ثقافي بالغة الأهمية. وفي ذات الوقت فإننـــي أدعم بقوة، اختيار العودة الكاملة إلى وعينا. إن هناك قوى ثقافية تحدث إحساساً فضائياً يسمى (الفضاء الافتراضي Cyber Space). إن هذا الفضاء لا يرتبط بكل الحواس ولكنه يدعونا إلى عالم مختلف عن العالم الذي منحتنا إياه حواسنا في

نمطها الارتقائي طويل الأمد. وعوضاً عن استكشاف الواقع الذي من أجله منحتنا عمليات الارتقاء حواسنا، فإنه بوسعنا الآن إحداث واقع مبرمج في الفضاء الافتراضي. ومثلما هو الأمر في مجال الهندسة الوراثية، فإن هذه الصيغة للوجود البشري تتخذ شخصية الخالق. إن الحقائق الافتراضية ابتكار بشري يدعونا لنشهد عجائب عقولنا في مواجهاتنا مع التكنولوجيا. غير أن التحليل النهائي لهذا الواقع ليس هو حقيقة بمجمل حواسنا. وعلى الرغم من ذلك فإن وجود "العالم الافتراضي" يظهر وعداً بأن عالماً يمكن إحداثه من وفرة وثراء العالم الطبيعي. ويمكن مشاهدة ذلك في العالم الشهواني الذي توفره (الإنترنيت Internet). إننا مدعوون اليوم ضمن نطاق الإنترنيت إلى وليمة إباحية لم يسبق لها مثيل. إن تشبع الإنترنيت بالإباحية، هو على أية حال، مجرد امتداد لنظمنا السلطوية الحالية. إن الحسية في الفضاء الافتراضي تحمل معها نفس نظم هيمنة القوة وفصل الروح عن الجسد، ونفس نظم حرمان وقهر النساء التي تشجعه الثقافة الحالية.

ولذلك فإن المرء لا يمكنه توقع أن نشوء حياة شهوانية كاملة قد يتحقق من خلال واقع افتراضي. إن الحب الجسدي يجب أن يتم الاستمتاع والاحتفال به جسدياً وعن طريق علاقات تستخدم فيها كافة الحواس. إن الطقوس بنيان متكامل تشترك فيه كل الحواس بأقصى مدى لها ضمن تجاذب ترابطي عميق يوسِّع الوعي بالوجود الجسدي في الحياة الاجتماعية الأوسع مدى. إن توسع الذات هذا ليس توسُّعاً للعقل كما هو الحال في الواقع الافتراضي، بل بالأحرى، هو توسع وتكثيف مصاغ جزئياً بتجربة الانتشاء التي يُصاحب هبة الطقوس والرهبة. إن تفهم وتقدير الشهوانية يصوغ احتمالات جديدة في حياة ، يتم اكتشافها بوثيرة متزايدة، بأنها حياة مترابطة وخلاقة بصورة لا نهائية ، يحدها فقط، والقوى الديناميكية وقت البشر (سيبرتناك، Spretnak 1978).

الملاذ والسكون

إن عالمنا المعاصر تغمره الدعاية المفرطة. وبمقدور المرء أن يشاهد الآن البث المرئي في أغلب أرجاء العالم وعلي مدار الساعة. وخلال هذا البث نكون نحن مغمورين بسيل عارم من الإعلانات ومن خلالها إغراءات المبيعات الاستهلاكية. وفي عالم اليوم يجد العديد منا

صعوبة في الانفراد بأنفسهم أو الركون إلى خصوصية انفرادية. ورغم عمق الترابط لواقع حياتنا اليومية كلها، فإن ذلك لا يخفف من واقع الحقيقة الأساسية للحياة. وبقدر ما يحتاج لبشر للترابط، فإن هناك أيضاً احتياج أساسي وعميق للسكون والانفراد. إننا جميعاً نعتبر لانفراد بأنفسنا في صمت وسكون أمراً ضرورياً، غير أن السكون بمعايير سوقنا العالمية لاستهلاكية لا قيمة له. السكون غير منتج ولا يزيد من قيمة إجمالي الناتج القومي. ولكن لحقيقة هي أن الصمت والسكون يجعلان حياتنا أكثر قيمة وجودة. وبمراجعة الجزء الخاص بالنمو المتكامل الذي احتواه الفصل السابع من هذا الكتاب، يمكننا أدارك فائدة الصمت حاجتنا إليه، فالصمت حاجة أساسية تتعلق بمجرد كينونة ووجود الأفراد. يضفي الصمت بعداً روحانياً لحياتنا، ونتمكن من خلال السكون من الوصول للإحساس بقدسية وجودنا. إننا بحاجة لإيجاد أوقات وأماكن ننفرد فيها بأنفسنا في صمت وسكون. أننا نسمى هذه الأماكن الخاصة بالسكون والصمت ملاذاً. وإن تخصيص وقت وتحديد مكان لتنميته الصمت الذي يحتاجه الناس أمرا لا يمكننــي تحديده لهم. وكل ما أود القيام به هو، إدراك أهمية السكون الجوهرية للحياة البشرية وكذلك الاعتراف بالحاجة إلى مكان مخصص لتنميته. إن الملاذ هو مهد الروح وفراشها.

الاحتـــفال

إنه لمن البديهي أن يأتـــي يوم على كل واحد منا، ليصبح فيه واع ومدرك بأنه موجود فقط. إننا لم نطلب أو نختار أن نكون هنا. نحن هنا موجودين فقط. يأتـــي بعضنا إلى هذا العالم مكتملي الحواس بينما تكون حواس البعض الآخر غير مكتملة. البعض منا يولدون في الرفاهية والوفرة، بينما يولد البعض الآخر في الفقر والعوز. نأتـــي كلنا للوجود ببشرة ذات ألوان متنوعة، وحيثيات جنسية وعرقيات مختلفة. ونعيش حياتنا في مواقع مختلفة من العالم وفي مراتب طبقية مختلفة. كما نعيش حياتنا ضمن قوالب ورؤى ثقافية مختلفة أيضاً. غير أنه رغم كل تنوعنا واختلافاتنا هذه، فإننا نشترك في شئ واحد أساسي، وهو أننا جميعاً وُهبنا "الحياة". وعلى الرغم من أننا جميعاً سوف نواجه خبرات من الألم والأسى وربما بنسب متفاوتة غير عادلة ظاهرياً، فإننا جميعاً نشعر في أوقات معينة خلال حياتنا بسعادة لمجرد

وجودنا على هذه البسيطة. إن هبة الحياة غالية جداً. أنها ثمينة إلى درجة تجعلنا نتحمل معها الكثير من المعاناة من أجل مواصلة الوجود، لكي نرى ما تخبئه لنا الحياة في الآتـــي من الأيام. إننا، في الواقع لا نعيش بهجة الحياة بمفردنا، بل نعيشها منذ مستهل نشأتنا ضمن نطاق مشترك للحياة. إن التعبير عن بهجة الوجود هو لب وجوهر ما نسمـــيه الاحتــفالات. ويـــرى كل من "براين سويم وتوماس بيرى" الاحتفال في صلب كينونة الكون ذاته. ويشيران إلي أنه، لو كان لهما الاختيار في تعبير واحد ملائم للكون بأجمعه، فانهما سيختاران تعبير "الاحتفال".

إن مظهر الكون المهيب يمكن ملاحظته في طرق التعبير النوعية المختلفة على امتداد النظام الكونـــي بأكمله وعلى كوكب الأرض بصفة خاصة. ليس هناك كائن غير مشارك في هذه التجربة وعاكس لها في المحيط الخارجي بطريقة مستقلة منفردة ووحيدة من نوعها. ومع ذلك ترتبط تلك الطريقة بعلاقة وثيقة بوحدة الكون الأكثر شمولية. وضمن سياق الاحتفال هذا، نجد أنفسنا، نحن البشر في وسط هذا المشترك الاحتفالي العـــام. إن دورنا له خصوصية. وتتمثل هذه الخصوصية في تمكين هذا الخضّم المشترك العام بأكمله من التفكير والاحتفال بنفسه وبغموضه العميق بطريقة خاصة من الإدراك والوعي الذاتـــي (سويم وبيري Swimme and Berry 1992: 264).

إن مظاهر الاحتفال يجب أن تتحقق على كل مستويات إدراكنا الواعي. إن التجربة الاحتفالية، قد ارتبطت منذ أقدم الأزمنة بنمط متناسق مع الإحساس بالقدسية. إن هذا الإحساس بالطبيعة الروحانية للوجود بأكمله، يمكن مشاهدته في كل التعبيرات الثقافية للقدسية، لقد أحتفل سكان الأمريكيتين الأصليين امتنانهم وسعادتهم بوجودهم، من خلال إحساسهم المتميز بالمشاركة في مشترك واحد يجمعهم مع كل الكائنات في العالم الطبيعي المحيط بهم. ويتضح ذلك من شعورهم بأن "الكل أقاربـــي". يمكن مشاهدة ذلك من خلال أفكارهم عن الكون حيت يمكن ملاحظة كل الحقيقة من خلال "دورة الحياة".

إننا نجد دواعي وأسباب للاحتفال من خلال الأحداث الأساسية الهامة التـــي لها معانـــي عميقة، مثل الانقلاب الشمسي من خلال فصول السنة صيفاً وشتاءً وكذلك الاعتدال الربيعي والخريفي. إن ولادة حياة جديدة لها معزى عميقاً أيضاً وكذلك طقوس الزفاف والمآتم التـــي يحضرها عدد وفير من الأصدقاء والأقارب. إن الافتقار للإحساس بمكاننا في

الكون وكذلك الفقدان المماثل للطقوس المتعلقة بمشاركتنا في لغز الحياة العظيم هما من الأمور الخطيرة للغاية. إن العجز وانعدام القدرة على إظهار إحساسنا بالنشوة الامتنان بهبة الحياة، يشكل خسارة فادحة للمغزى والمضمون بخصوص مهمتنا ومكانتنا في عمليات الحياة الأوسع مدى. نحن نعيش الآن في زمن مذهل وغير معقول من تاريخ الأرض، ويجب أن نمسك بزمام الإحساس بهدفنا من الحياة وقيمة الوجود من خلال الاحتفال باكتمال وجودنا في الزمان والمكان. ويشكل الاحتفال جزءاً أساسياً لا يتجزأ من طقوس الوجود. وحيث أننا من المخلوقات التـــي تعيش الألفية الجديدة، علينا إذاً أن نذكر أنفسنا، بأننا على أبواب القيام بعمل عظيم. وإنها لسعادة عارمة، أن نكون نحن جزءاً من هذه العظمة.

المراجع

Abbey, Edward. 1982. *Down the River.* New York: Dutton.

Abram, David. 1996. *The Spell of the Sensuous.* New York: Vintage Books.

Adams, Henry. 1931 (1918). *The Education of Henry Adams.* New York: Random House-Modern Library.

Adelson, Ann. 1995. *Now What? Developing Our Future.* Ph D Dissertation. University of Toronto.

Apple, Michael. 1979. *Ideology and the Curriculum.* London: Routledge and Kegan Paul.

Aronowitz, Stanley and Henry Giroux. 1991. *Postmodern Education.* Minneapolis: University of Minnesota Press.

— 1993. *Education Still Under Siege.* Toronto: OISE Press.

Barnet, Richard. 1993. 'The End of Jobs.' *Harper's Magazine* (September): 18–24.

Barnet, R. and John Cavanagh. 1994. *Global Dreams: Imperial Corporations and the New World Order.* Toronto: Simon and Schuster.

Basic Call to Consciousness: Akwesasne Notes. 1978. Rooseveltown, NY: Mohawk Nation.

Bateson, Gregory. 1972. *Steps in an Ecology of Mind.* New York: Ballantine.

— 1980. *Mind in Nature: A Necessary Unity.* New York: Bantam.

Bellah, R. 1985. *Habits of the Heart.* New York: Harper and Row/Perennial Library.

Berman, Morris. 1981. *The Reenchantment of the World.* Ithaca, NY: Cornell University Press.

— 1989. *Coming to Our Senses: Body and Spirit in the Hidden History of the West.* New York: Bantam.

Bernanos, Georges. 1937. *Diary of a Country Priest.* New York: Macmillan.

Berry, Thomas. 1988. *The Dream of the Earth.* San Francisco: Sierra Club Books.

— 1989. 'Twelve Principles for Understanding the Universe and the Role of the Human in the Universe.' *Teilhard Perspective* 22. 1 (July): 1–3.

— 1991. *Befriending the Earth: A Theology of Reconciliation Between Humans and the Earth.* Mystic, CT: Twenty-Third Publications.

— 1993. 'A Moment of Grace: The Terminal Decade of the Twentieth Century.' Madan Handa Memorial Lecture, Toronto.

Berry, Wendell. 1978. *Home Economics.* San Francisco: North Point Press.

Bertell, Rosalie. 1985. *No Immediate Danger. Prognosis for a Radioactive Earth.* Toronto: Women's Educational Press.

Bhabha, Homi. 1990. 'The Other Question: Difference, Discrimination and the

Discourse of Colonialism.' In *Out There: Marginalization and Contemporary Culture*, ed. Russell Ferguson, Martha Gever, Trinh Minh-Ha and Cornell West. Cambridge, MA: MIT Press.

Bickmore, Kathy. 1997. 'Teaching Conflict Resolution' *Theory Into Practice* 36. 1 (Winter): 3–10.

Bloom, Alan. 1987. *The Closing of the American Mind*. New York: Simon and Schuster.

Bohm, David. 1988. 'Postmodern Science in a Postmodern World.' In *The Re-enchantment of Science: Postmodern Proposals*, ed. David Griffin. New York: State University of New York Press.

Bohm, David and David Peat. 1987. *Science, Order and Creativity*. Toronto: Bantam.

Bottomore, T. (ed.) 1983. *A Dictionary of Marxist Thought*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Bourdieu, T. and J. C. Passeron. 1977. *Reproduction in Education, Society and Culture*. Beverly Hills, CA: Sage Publications.

Bowers, C. A. 1993a. *Critical Essays on Education, Modernity, and the Recovery of the Ecological Imperative*. New York: Teachers' College/Colombia Press.

— 1993b. *Education, Cultural Myths, and the Ecological Crisis*. Albany, NY: State University of New York Press.

Bowles, Samuel and Herbert Gintis. 1976. *Schooling in Capitalist America*. New York: Basic Books.

Brenes-Castro, Abelardo. 1988. *Declaration of Human Responsibilities for Peace and Sustainable Development*. Costa Rica: University of Peace.

— (ed.). 1996. *Una Experiencia Pionera: Programa Cultura de Paz y Demoicracia en America Central*. Costa Rica: University of Peace.

Briggs, John and David Peat. 1989. *Turbulent Mirror: An Illustrated Guide to Chaos Theory and the Science of Wholeness*. New York: Harper and Row.

Brown, Lester R. et. al. (eds). 1988. *State of the World, 1988: A Worldwatch Institute Report on Progress Toward a Sustainable Society*. New York: W. W. Norton.

— 1990. *State of the World, 1990: A Worldwatch Institute Report on Progress Toward a Sustainable Society*. New York: W. W. Norton.

— 1991. *State of the World, 1991: A Worldwatch Institute Report on Progress Toward a Sustainable Society*. New York: W. W. Norton.

— 1996. *State of the World, 1996: A Worldwatch Institute Report on Progress Toward a Sustainable Society*. New York: W. W. Norton.

Brown Jr, Tom. 1988. *The Vision*. New York: Berkley Books.

Brundtland, H. 1987. *Our Common Future: The World Commission on Environment and Development*. Oxford: Oxford University Press.

Burger, Julian (ed.). 1990. *The Gaia Atlas of First Peoples*. New York: Anchor.

— 1993. 'An International Agenda.' In *State of the Peoples: A Global Human Rights Report on Societies in Danger*, ed. Marc Miller et al. Boston: Beacon Press.

Campbell, Joseph. 1988. *The Power of Myth*. New York: Doubleday.

Capra, Fritjof. 1983. *The Turning Point*. New York: Simon and Schuster.

Carson, Rachel. 1962. *Silent Spring*. Cambridge, MA: Riverside Press.

Chomsky, Noam. 1989a. *Necessary Illusions*. Montreal: CBC Publications.
— 1989b. *The Washington Connection and Third World Fascism*. Montreal: Black Rose Press.
— 1997. *Media Control: The Spiritual Achievement of Propaganda*. New York: Several Stories Press.
Clarke, Tony. 1997. *Silent Coup: Confronting the Big Business Takeover of Canada*. Toronto: James Lorimer and Co.
Clarke, Tony and Maude Barlow. 1997. *MAI: The Multilateral Agreement on Investment and the Threat to Canadian Sovereignty*. Toronto: Stoddart.
Clay, Jason. 1993. 'Looking back to go forward: Predicting and Preventing Human rights Violations'. In *State of the Peoples: A Global Human Rights Report on Societies in Danger*, ed. Marc Miller et al. Boston: Beacon Press.
Clover, Darlene, Shirley Follen and Budd Hall. 1998. *The Nature of Transformation: Environmental Adult and Popular Education*. Toronto: University of Toronto Press.
Cobb, Edith. 1977. *The Ecology of Imagination in Childhood*. New York: Colombia University Press.
Cockburn, Alexander. 1994. 'Beat The Devil.' *The Nation* 1, 3: 405.
Cohn, Carol. 1987. 'In the Rational World of Defense Intellectuals.' *Signs* 12, 4.
Collins, Michael. 1991. *Adult Education as Vocation: A Critical Role for the Adult Educator*. New York: Routledge.
— 1995. 'Critical Commentaries on the Role of Adult Educators.' In *In Defense of the Life World: Critical Perspectives on Adult Learning*, ed. Michael Welton. Albany, NY: SUNY Press.
Connell, Robert, D. Kessler, G. W. Dowsett and G. W. Ashenden. 1983. *Making the Difference: Schools, Families and Social Division*. Boston: George Allen and Unwin.
Cox, R. W. 1991. 'The Global Political Economy and Social Choice.' In *The New Era of Social Competition: State Policy and Market Power*, ed. D. Drache and M. Gertler. Montreal: McGill-Queens University Press.
Cremin, Lawrence. 1964. *The Transformation of The School*. New York: Vintage.
— 1976. *Traditions of American Education*. New York: Basic Books.
Csikszentmihali, Mihaly. 1990. *Flow: The Psychology of Optimal Experience*. New York: Harper Perennial.
— 1993. *The Evolving Self: A Psychology For The Third Millennium*. New York: Harper Perennial.
— 1997. *Finding Flow: The Psychology of Engagement with Everyday Life*. New York: Basic Books,
Cushman, Phillip. 1990. 'Why is the Self Empty: Toward a Historically Situated Psychology.' *American Psychologist* 45. 5: 599–610.
Dalai Lama. 1982. *Essence of Refined Gold*. Ithaca, NY: Snow Lion Publications.
— 1996. *The Good Heart: A Buddhist Perspective on the Teachings of Jesus*. Boston: Wisdom Publications.
Dale, Roger and Geoff Esland (eds). 1976. *Schooling and Capitalism: A Sociological Reader*. London: Routledge and Kegan Paul.

Daly, Herman E. 1973. *Toward a Steady-State Economy.* San Francisco: Freeman.

Daly, Herman E. and John Cobb. 1989. *For the Common Good: Redirecting the Economy Toward Community, the Environment, and a Sustainable Development.* Boston: Beacon Press.

Davies, Paul. 1984. *God and the New Physics.* London: Penguin Books.

Dawson, Christopher. 1956. *The Dynamics of World History.* New York: Sheed and Ward.

de Chardin, Teilhard. 1959. *The Phenomenon of Man.* New York: Harper Torchbacks.

Dei, George. 1994. 'Anti-Racist Education: Working Across Differences.' *Orbit* 25, 2.

— 1995a. *Drop Out or Push Out? The Dynamics of Black Students' Disengagement from School: A Report.* Toronto: Ontario Institute for Studies in Education.

— 1995b. 'Indigenous Knowledge as an Empowerment Tool.' In *Empowerment: Towards Sustainable Development,* ed. N. Singh and V. Titi. Toronto: Fernwood.

— 1996. *Anti-Racism Education: Theory and Practice.* Halifax, Nova Scotia: Fernwood.

de Lone, Richard. 1979. *Small Futures: Children, Inequality, and the Limits of Liberal Reform.* New York: Harcourt Brace Jovanovich.

Devall, Bill. 1988. *Simple in Means, Rich in Ends.* Salt Lake City: Peregrine Smith.

Devall, Bill and George Sessions. 1985. *Deep Ecology: Living as if Nature Mattered.* Salt Lake City: Peregrine Smith.

Devereux, Paul. 1996. *Re-Visioning the Earth: A Guide to Opening the Healing Channels Between Mind and Nature.* New York: Simon and Schuster.

Dewey, John. 1963. 'What Psychology Can Do For the Teacher.' In *John Dewey on Education: Selected Writings,* ed. R. Archambault. New York: Random House.

— 1966. *Democracy and Education.* New York: Free Press.

Dialogue: Newsletter of the University of Peace. 1996. San Jose, Costa Rica: Peace University.

Diamond, Irene and A. Ornstein. 1990. *Reweaving the World: The Emergence of Ecofeminism.* San Francisco: Sierra Club Books.

Dillard, Annie. 1974. *Pilgrim at Tinker Creek.* New York: Harper and Row.

— 1983. *Teaching a Stone to Talk: Expeditions and Encounters.* New York: Harper and Row.

Distress Signals. 1986. Video. Director, John Waler. National Film Board of Canada (17 December).

Durning, Alan. 1991. 'Asking How Much is Enough?' In *State of the World, 1991: A Worldwatch Institute Report on Progress Toward a Sustainable Society,* ed. Lester R. Brown et al. New York: W. W. Norton.

— 1992. *How Much is Enough: The Consumer Society and the Future of the Earth.* New York: W. W. Norton.

Dyson, Freeman. 1985. *Weapons and Hope.* New York: Harper Collophon.

Ehrlich, Paul R. and Anne H. Ehrlich. 1981. *Extinction: The Causes and Consequences of the Disappearance of Species.* New York: Random House.

Eiseley, Loren. 1960. *The Immense Journey.* New York: Random House.

— 1972. *The Unexpected Universe.* New York: Harcourt Brace Jovanovich.
— 1978. *The Star Thrower.* New York: Times Books.
Eisler, Riane. 1988. *The Chalice and the Blade: Our History, Our Future.* San Francisco: Harper and Row.
— 1995. *Sacred Pleasure: Sex, Myth, and the Politics of the Body.* San Francisco. Harper San Francisco.
Eisler, Riane and David Loye. 1990. *The Partnership Way.* San Francisco: Harper and Row.
Ekins, Paul Hillman. 1992. *The Gaia Atlas of Green Economics.* Toronto: Anchor Books.
Eliade, Mircea. 1959. *Cosmos and History: The Myth of the Eternal Return.* New York: Harper Torchbooks.
Eliot, T. S. 1969. *The Complete Poems and Plays of T. S. Eliot.* London: Faber and Faber.
Ellul, Jaques. 1964. *The Technological Society.* New York: Vintage/Random House.
Environmental Education for Sustainable Societies and Global Responsibility. 1993. Environmental Education Treaty. Brazil.
Epp-Tiessen, Ester. 1990. 'Project Ploughshares.' Working Paper. Waterloo, Ontario.
Evereet-Green, Robert. 1997. 'Arts, Not IBM, Makes Kids Smarter.' *Toronto Star* (17 November).
Evernden, Neil. 1985. *The Natural Alien.* Toronto: University of Toronto Press.
Ewen, Stuart. 1976. *Captains of Consciousness: Advertising and the Social Roots of the Consumer Culture.* New York: McGraw Hill.
Fiske, John. 1978. *Reading Television.* London: Methuen.
Foley, Griff. 1993. *Adult Education and Capitalist Reorganization.* Sydney, Australia: University of Technology.
Fox, Matthew. 1983. *Original Blessing: A Primer in Creation Spirituality.* Santa Fe: Bear and Co.
— 1988. *The Coming of the Cosmic Christ.* San Francisco: Harper and Row.
— 1991. *Creation Spirituality.* San Francisco: Harper San Francisco.
Fox, Stephen. 1981. *John Muir and His Legacy: The American Conservation Movement.* Boston: Little, Brown.
Fox, Warwick. 1990. *Toward Transpersonal Ecology.* Boston: Shambhala.
Freire, Paolo. 1970. *The Pedagogy of the Oppressed.* New York: Seabury Press.
French, Marilyn. 1992. *The War Against Women.* Toronto: Summit.
Frye, Marilyn. 1983. *The Politics of Reality.* Freedom, CA: Crossing Press.
Galtung, Johann. 1982. *Environment, Development, and Military Activity.* Oslo: Universitetsforlaget.
Gare, Arran. 1995. *Postmodernism and the Environmental Crisis.* New York: Routledge.
Gayton, Don (ed.). 1996. *Landscapes of the Interior: Re-Explorations of Nature and the Human Spirit.* Gabriola Island, BC: New Society Publishers.

Georgescu-Roegen, Nicholas. 1971. *The Entrophy Law and the Economic Process*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Gerbner, George. 1970. 'Cultural Indicators: The Case of Violence in Televison Drama.' *Annals of the American Association of Political and Social Science* 338, 23.

Giddens, Anthony. 1990. *The Consequences of Modernity*. Stanford, CA: Stanford University Press.

— 1991. *Modernity and Self Identity: Self and Society in the Late Modern Age*. Stanford, CA: Standford University Press.

— 1994. *Beyond Left and Right: The Future of Radical Politics*. Stanford, CA: Stanford University Press.

Gimbutas, Marija. 1974. *The Gods and Goddesses of Old Europe, 7000 to 3500 B.C.: Myths, Legends, and Cult Images*. London and Berkeley, CA: Thames and Hudson and University of California Press.

Ginsberg, Morris. 1973. 'Progress in the Modern Era.' In *Dictionary of the History of Ideas*, ed. Philip Wiener. New York: Charles Scribner and Sons: 633–50.

Gioseffi, Daniela (ed.) 1993. *On Prejudice: A Global Perspective*. New York: Anchor Books.

Glendinning, Chellis. 1995. *My Name is Chellis and I'm Recovering from Western Civilization*. Boston: Shambhala.

Goldson, Rose. 1977. *The Show and Tell Machine*. New York: Delta.

Gourevitch, Phillip. 1995. 'Rwanda: A Case of Genocide.' *New Yorker* (March): 41–84.

Gramsci, Antonio. 1971. *Selections from Prison Notebooks*. New York: International Publishers.

Grant, George. 1983. *Modernity and Responsibility*. Toronto: University of Toronto Press.

Graveline, Fyre Jean. 1998. *Circle Works: Transforming Eurocentric Consciousness*. Halifax, Nova Scotia: Fernwood.

Griffin, David (ed.). 1988a. *The Reenchantment of Science: Postmodern Proposals*. New York: SUNY Press.

— (ed.). 1988b. *Spirituality and Society: Postmodern Visions*. New York: SUNY Press.

— (ed.). 1990. *Sacred Interconnections*. Albany, NY: State University of New York Press.

Griffin, Susan. 1978. *Woman and Nature: The Roaring Inside Her*. New York: Harper and Row.

— 1995. *The Eros of Everyday Life*. New York: Doubleday.

Grof, Stanislav. 1985. *Beyond the Brain*. Albany, NY: State University of New York Press.

Gutierrez, G. 1973. *A Theology of Liberation*. Marynoll, NY: Orbis Books.

Hall, Budd. 1996. 'Adult Education, Globalization and the Development of Global Civil Society.' World Congress of Comparative Education.

Hall, Budd and Edmund V. O'Sullivan. 1995. 'Transformative Learning: Contexts and Practices.' In *Empowerment: Toward Sustainable Development*, ed. N. Singh and V. Titi. Toronto: Fernwood.

Handa, Madan. 1982. *Manifesto for a Peaceful World Order: A Gandhian Perspective.* Toronto: Cosmic Way Publications.

Haraway, Donna. 1991. *Simians, Cyborgs and Women: The Reinvention of Nature.* New York: Routledge.

Harman, Willis. 1988. *Global Mind Change: The Promise of the Last Years of the Twentieth Century.* Indianapolis: Knowledge Systems Inc.

Hart, Mechhthild. 1995. 'Working and Education for Life.' In *Defense of the Life World: Critical Perspectives on Adult Learning*, ed. Michael Welton. Albany, NY: SUNY Press.

Henderson, Hazel. 1992. *Creating Alternative Futures.* Boston: Perigtine Books.

Herman, Edward and Noam Chomsky. 1988. *Manufacturing of Consent.* New York: Pantheon Books.

Herman, Judith. 1992. *Trauma and Recovery: The Aftermath of Violence from Domestic Abuse and Political Terror.* New York: Basic Books.

Heyward, Carter. 1989. *Touching Our Strength.* San Francisco: Harper.

Hillman, James. 1996. *The Soul's Code: In Search of Character and Calling.* New York: Random House.

Hofstadter, Richard. 1955. *Social Darwinism in American Thought.* New York: George Braziller.

Holland, Joe and Peter Henriot. 1984. *Social Analysis: Linking Faith and Social Justice.* Washington, DC: Orbis.

hooks, bell. 1994. *Teaching to Transgress.* New York: Routledge.

Hopkins, Gerard Manley. 1959. *The Journals and Papers of Gerard Manley Hopkins.* Toronto: Oxford University Press.

Hurtig, M. 1991. *The Betrayal of Canada.* Toronto: Stoddart.

Hutchins, Robert Maynard. 1959. *A General Introduction to the Great Books and to a Liberal Education.* Toronto: Encyclopaedia Britannica.

Hutchinson, David. 1998. *Growing Up Greed.* New York: Teachers College Press.

Isla, Ana. 1996. 'Downplaying Ecological Stress: Debt-for-Nature Swaps.' Unpublished MS. Toronto.

Jantsch, Erich. 1984. *The Self-Organizing Universe: Scientific and Human Implications of the Emerging Paradigm of Evolution.* New York: Pergamon Press.

Jensen, Derrick. 1996. 'Listening to the Land.' In *Landscapes of the Interior: Re-Explorations of Nature and the Human Spirit*, ed. Don Gayton. Gabriola Island, British Colombia: New Society Publishers.

Kaplan, Robert D. 1994. 'The Coming of Anarchy.' *Atlantic Monthly* (February): 44–76.

Katz, Michael. 1968. *The Irony of Early School Reform.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Kaufman, Michael. 1997. 'Working with Young Men to End Sexism.' *Orbit* 28, 1: 14–17.

Keen, Sam. 1994. *Hymns to an Unknown God.* New York: Bantam.

Kelley, Kevin (ed.). 1988. *The Home Planet.* Don Mills, Ontario: Addison-Wesley.

Kennedy, Paul. 1993. *Preparing for the Twenty-First Century.* New York: Harper.

Knowles, Malcolm. 1986. *Using Learning Contracts: Pratical Approaches to Individualizing and Structuring Learning.* San Francisco: Josey-Bass.

Knudston, Peter and David Suzuki. 1992. *The Wisdom of Elders.* Toronto: Stoddart.

Korten, D. 1991. 'People Centered Development: An Alternative for a World in Crisis.' People Centered Development Forum, Manilla, Philippines.

— *When Corporations Rule the World.* 1995. West Hartford, CT: Kumarian Press.

Kothari, Rajni. 1988. *Transformation and Survival: In Search of Humane World Order.* Delhi: Ajanta Publications.

Kropotkin, P. 1895. *Mutual Aid.* Brighton: Horizon Press.

La Chapelle, Dolores. 1988. *Sacred Land, Sacred Sex, Rapture of the Deep: Concerning Deep Ecology and Celebrating Life.* Silverton, CO: Fine Hill Arts.

Larkin, June. 1997. 'Confronting Sexual Harassment in Schools.' *Orbit* 28, 1.

Lasch, Christopher. 1978. *The Culture of Narcissism.* New York: W. W. Norton.

— 1989. 'Progress: The Last Superstition.' *Tikkun* 4, 3 (May\June): 27–30.

Latouche, Serge. 1993. *In the Wake of the Affluent Society: An Exploration of Post-Development.* London: Zed Books.

Leopold, Aldo. 1949. *A Sand County Almanac.* New York: Oxford University Press.

Lerner, Michael. 1994. *Jewish Renewal: A Path to Healing and Transformation.* New York: Grosset/Putnam.

— 1996. *The Politics of Meaning.* Reading, MA: Addison-Wesley,

Lewy, Guenter. 1974. *Religion and Revolution.* New York: Oxford University Press.

Lifton, Robert Jay. 1993. *The Protean Self.* New York: Basic Books.

Livingstone, David (ed.). 1987. *Critical Pedagogy and Cultural Power.* South Hadley, MA: Bergin and Garvey.

Lopez, Barry Holstun. 1986. *Arctic Dreams.* New York: Charles Scribner and Sons.

Lorde, Audre. 1978. *The Uses of the Erotic: The Erotic as Power.* New York: Out and Out Books.

— 1990. 'Age, Race, Class, and Sex: Women Redefining Difference.' In *Out There: Marginalization and Contemporary Culture*, ed. Russell Ferguson, Martha Gever, Trinh Minh-Ha and Cornell West. Cambridge, MA: MIT Press.

Lovelock, James E. 1979. *Gaia: A New Look at Life on Earth.* New York: Oxford University Press.

— 1987. *Gaia: A Model for Planetary and Cellular Survival.* Boston, MA: Lindisfarne Press.

— 1988. *The Ages of Gaia: A Biography of our Living Earth.* Boston, MA: Lindisfarne Press.

Lynn, Marion and Eimear O'Neill. 1995. 'Families, Power, and Violence.' In *Canadian Families: Diversity, Conflict, and Change*, ed. Ann Duffy and Mancy Mandell. Toronto: Harcourt Brace: 271–305.

Lyons, Thomas and Edmund V. O'Sullivan. (1992). 'Educating for a Global Perspective.' *Orbit* 1.

McDermott, R. (ed.). 1987. *The Essential Aurobindo.* Rochester, VT: Inner Tradition/Lindisfarne Press.

McGaa, Ed Eagle Man. 1990. *Mother Earth Spirituality: Native American Paths to Healing Ourselves and Our World.* San Francisco: Harper San Francisco.

McKibben, Bill. 1989. *The End of Nature.* New York: Random House.

MacMurray, John. 1957. *The Self as Agent.* London: Faber and Faber.

— *Persons in Relation.* 1961. London: Faber and Faber.

McPhail, Thomas. 1981. *Electronic Colonialism.* Beverly Hills, CA: Sage Publications.

Macy, Joanna. 1983. *Despair and Power in the Nuclear Age.* Philadelphia: New Society Publishers.

— 1989. 'Awakening to the Ecological Self.' *In Healing the Wounds,* ed. Judith Plant. Toronto: Between the Lines.

— 1991. *World as Lover, World as Self.* Berkeley, CA: Parallax Press.

Maitreya. 1988. *The Gospel of Peace.* Toronto: Universal Way Publications.

Mander, Jerry. 1991. *In the Absence of the Sacred: The Failure of Technology and the Survival of Indian Nations.* San Francisco: Sierra Club Books.

Mander, Jerry and Edward Goldsmith. 1996. *The Case Against the Global Economy.* San Francisco: Sierra Club Books.

Margulis, Lynn. 1987. *Microcosmos: Four Billion Years of Evolution from Our Microbial Ancestors.* London: George Allen and Unwin.

Margulis, Lynn and Karlene Schwartz. 1982. *Five Kingdoms: An Illustrated Guide to the Phyla of Life on Earth.* San Francisco: Freeman.

Mason, Mike. 1997. *Development and Disorder: A History of the Third World Since 1945.* Toronto: Between the Lines.

Max-Neef, Manfred E. A. and Martin Hopenhayen. 1989. 'Another Development: Human Scale Development.' *Development Dialogue* 1: 17–61.

Meizerow, Jack. 1995. 'Transformation Theory of Adult Learning.' In *Defense of the Life World: Critical Perspectives on Adult Learning,* ed. Michael Welton. Albany, NY: SUNY Press.

Menzies, Heather. 1989. *Fast Forward: How Technology is Changing Your Life.* Toronto: Macmillan of Canada.

Merchant, Carolyn. 1980. *The Death of Nature: Women, Ecology, and the Scientific Revolution.* New York: Harper and Row.

— 1995. *Earthcare.* New York: Routledge.

Merton, Thomas. 1967. *Mystics and Zen Masters.* New York: Delta Books.

— 1973. *The Asian journals of Thomas Merton.* New York: New Directions Publication.

Metzner, Ralph. 1993. 'The Split Between Spirit and Nature in European Consciousness.' *Trumpeter* 10, 1.

Mies, Maria. 1986. *Patriarchy and Accumulation on a World Scale: Women in the International Division of Labor.* London: Zed Books.

Mies, Maria and Vandana Shiva. 1993. *Ecofeminism.* Halifax, Nova Scotia: Fernwood.

Milbrath, Lester, W. 1989. *Envisioning a Sustainable Society: Learning Our Way Out.* Albany, NY: State University of New York Press.

Miles, Angela. 1996. *Integrative Feminisms: Building Global Visions.* New York: Routledge.

Miller, John. 1994. *The Contemplative Practitioner.* Toronto: OISE Press.

— 1996. *The Holistic Curriculum: Revised and Expanded Edition.* Toronto: OISE Press.

Miller, R. (ed.). 1993. *The Renewal of Meaning in Education.* Brandon, VT: Holistic Education Press.

Mitter, Swasti. 1986. *Common Fate Common Bond: Women in the Global Economy.* London: Pluto Press.

Mische, Patricia. 1989. 'Ecological Security in an Interdependent World'. *Breakthrough: A Publication of Global Education Associates* 1 (4) Summer–Fall.

Moffett, J. 1994. *The Universal Schoolhouse.* San Francisco: Josey-Bass.

Montessori, Maria. 1973. *The Education of the Human Potential.* Madras, India: Kalakshetra Publications.

Moore,Thomas. 1992. *Care of the Soul.* New York: HarperCollins.

— 1994. *Soul Mates: Honoring the Mysteries of Love and Relationship.* New York: HarperCollins.

Mumford, Lewis. 1961. *The City in History: Its Origins, Its Transformations, and Its Prospects.* New York: Harcourt, Brace, and World.

Myers, Norman (ed.). 1984. *Gaia: An Atlas of Planet Management.* Garden City, NY: Anchor/Doubleday.

Neihardt, John G. 1972. *Black Elk Speaks: Being the Life Story of a Holy Man of the Oglala Sioux.* New York: Washington Square Press.

Neisser, Ulric. 1967. *Cognitive Psychology.* New York: Appleton Century Crofts.

Nelson, Joyce. 1989. *Sultans of Sleaze.* Toronto: Between the Lines.

New Internationalist. 1990. 'The Poor Step Up Trade Wars'. 294 (February).

— 1991. 'Test Tube Coup: Biotechs Global Takeover'. 217 (March).

— 1992. 230 (April).

— 1997. 'Gene dream'. 293 (August).

Noble, David. 1977. *America by Design: Science, Technology, and the Rise of Corporate Capitalism.* New York: Oxford University Press.

— 1992. *A World Without Women: The Christian Clerical Culture of Western Science.* New York: Oxford University Press.

Nozick, Marcia. 1992. *No Place Like Home.* Ottawa: Canadian Council of Social Development.

Oliver, Donald W. and Kathleen Waldron Gershman. 1989. *Education, Modernity and Fractured Meaning: Toward a Process Theory of Teaching and Learning.* Albany, NY: State University of New York Press.

Oliver, Mary. 1992. *New and Selected Poems.* Boston: Beacon Press.

O'Neill, Eimear. 1998. 'From Global Economies to Local Cuts: Globalization and Structural Change in Our Own Backyard.' In *Confronting the Cuts: A Sourcebook for Women in Ontario,* ed. L. Ricciutelli, J. Larkin and E. O'Neill. Toronto: Inanna Publications and Education Inc.: 3–11.

Ornstein, Robert and Paul Ehrlich. 1989. *New World New Mind.* New York: Simon and Schuster.

Orr, David, W. 1992. *Ecological Literacy: Education and the Transition to a Postmodern World.* Albany, NY: State University of New York Press.

Ortega y Gasset, José. 1957. *The Revolt of the Masses.* New York, W. W. Norton.
O'Sullivan, Edmund. 1980. 'Can Values Be Taught?' In *Moral Development and Socialization*, ed. E. Turiel. Boston: Allyn and Bacon.
— 1983. 'Computers, Culture and Educational Futures: A Critical Appraisal.' *Interchange* 4, 3 (Winter): 17–26.
— 1984. *Critical Psychology: An Interpretation of the Personal World.* New York: Plenum Press.
— 1985. 'Computers, Culture and Educational Futures: A Meditation on Mindstorms.' *Interchange* 16, 3 (Fall): 1–18.
— 1990. *Critical Psychology and Critical Pedagogy.* New York. Bergin and Garvey.
Otto, Rudolph. 1969. *The Idea of the Holy.* New York: Oxford University Press.
Palmer, Parker. 1993. *To Know as We are Known.* San Francisco: Harper and Row.
Paz, Octavio. 1995. *The Double Flame: Love and Eroticism.* New York: Harcourt Brace and Co.
Peterson, Scott. 1990. *Native American Prophesies: Examining the History, Wisdom and Startling Predictions of Visionary Native Americans.* New York: Paragon House.
Phillips, Charles. 1957. *The Development of Education in Canada.* Toronto: W. J. Gage and Co.
Pierce, Carol Wagner. 1994. *A Male/Female Continuum: Paths to Colleagueship.* Laconia, NH: New Dynamics Publications.
Pike, Graham and David Selby. 1988. *Global Teacher, Global Learner.* Toronto: Hodder and Stoughton.
Plant, Judith (ed.). 1989. *Healing the Wounds.* Toronto: Between the Lines.
Postel, Sandra. 1992. 'Denial in a Decisive Decade.' In *State of the World, 1992: A Worldwatch Institute Report on Progress Toward a Sustainable Society*, ed. Lester R. Brown et al. New York: W. W. Norton.
Prigogine, Ilya and Isabelle Stengers. 1984. *Order Out of Chaos: Man's New Dialogue with Nature.* New York: Bantam.
The Progress of Nations. 1997. New York: UNICEF.
Purpel, David. 1989. *The Moral and Spiritual Crisis in Education: A Curriculum for Justice and Compassion in Education.* Grangy, MA: Bergin and Garvey.
Quarter, Jack. 1992. *Canada's Social Economy.* Toronto: James Lorimer and Co.
Quarter, Jack, and Fred Matthews. 1987. 'Back to the Basics.' In *Critical Pedagogy and Cultural Power*, ed. David Livingstone. Massachusetts: Bergin and Garvey: 99–119.
Ransom, David. 1992. 'Green Justice.' *New Internationalist* 30 (April).
Reed, Carole Ann. 1994. 'The Omission of Anti-Semitism in Anti-Racism.' *Canadian Woman Studies/les cahiers de la femme* 14, 2 (Spring): 68–71.
Regehr, E. 1996. 'Weapons and war: Arms trade control as conflict resolution'. *Project Ploughshares Monitor* (September).
Renner, Michael. 1991. 'Assessing the Military's War on the Environment.' In *State of the World, 1991 A Worldwatch Institute Report on Progress Toward a Sustainable Society*, ed. Lester R. Brown. New York: W. W. Norton.

Rifkin, Jeremy. 1981. *Entropy.* New York: Viking.
— 1991. *Biosphere Politics: A New Consciousness for a New Century.* New York: Crown.
— 1995. *The End of Work.* New York: Jeremy Tarcher/Putnam Books,
Rifkin, Jeremy and Nicanor Perlas. 1983. *Algeny.* New York: Viking.
Roberts, W. Bacher. 1993. *Get a Life: A Green Cure For Canada's Economic Blues.* Toronto: Get A Life Publishing House.
Roman, Leslie and Linda Eyre (eds). 1997. *Dangerous Territories: Struggles for Difference and Equality.* London: Routledge.
Rosen, Edward. 1973. 'Cosmology from Antiquity to 1850.' In *Dictionary of the History of Ideas*, ed. Philip Wiener. New York: Charles Scribner and Sons.
Ross, Rupert. 1996. *Returning to the Teachings.* Toronto: Penguin Books.
Roszak, T. 1978. *Person/Plant: The Creative Disintegration of Industrial Society.* Garden City, NY: Doubleday.
Rowledge, D. and L. Keeth. 1991. 'We've Gotta Have It: Economic Growth as an Addiction.' *Environment network News*: 3–5.
Runes, D. 1955. *The Dictionary of Philosophy.* New Jersey: Littlefield Adams.
Russell, Peter. 1983. *The Global Brain.* Los Angeles: J. P. Tarcher.
Ryan, J. C. 1992. 'Conserving Biological Diversity.' In *State of the World, 1992. A Worldwatch Institute Report on Progress Toward a Sustainable Society*, ed. Lester R. Brown. New York: W. W. Norton.
Sachs, Wolfgang. 1992. 'Development.' *New Internationalist* 202.
Sagan, Carl. 1980. *Cosmos.* New York: Random House.
Sahtouris, Elisabet. 1989. *Gaia: The Human Journey from Chaos to Cosmos.* New York: Pocket Books Collophon.
Said, Edward. 1979. *Orientalism.* New York: Vintage Books.
— *Culture and Imperialism.* 1993. New York: Alfred A. Knopf.
Sale, Kirkpatrick. 1980. *Human Scale.* New York: Coward McCann and Geohegan.
— 1985. *Dwellers in the Land: The Bioregional Vision.* San Francisco: Sierra Club Books.
Sardello, Robert. 1994. *Facing the World with Soul: The Reimagination of Modern Life.* New York: HarperCollins.
— 1995. *Love and the Soul: Creating a Future for Earth.* New York: HarperCollins.
Schaef, A. 1987. *When Society Becomes Addict.* San Francisco: Harper and Row.
Schorer, Mark. 1946. *William Blake: The Politics of Vision.* New York: Vintage Books.
Schiller, Herbert. 1983. *The World Crisis and the New Information Technologies.* San Diego: Paper.
Schweickart, Russell. 1988. Preface. In *The Home Planet*, ed. Kevin Kelley. Don Mills, Ontario: Addison-Wesley.
Seager, Joni. 1993. *Earth Follies: Coming to Feminist Terms with the Global Environmental Crisis.* New York: Routledge.
— 1995. *The New State of the Earth Atlas*, 2nd edn. New York: Touchstone.
Seed, John and Joanna Macy. 1988. *Thinking Like a Mountain: Towards a Council of All Beings.* Philadelphia: New Society Publishers.

Selby, D. 1995. *Earthkind: A Teachers' Handbook on Humane Education*. Stoke-on Trent: Trentum.

Sheldrake, Rupert. 1988. *The Presence of The Past: Morphic Resonance and the Habits of Nature*. New York: Times Books.

— 1994. *The Rebirth of Nature and God*. Rochester, VT: Park Street Press.

Shiva, Vandana. 1989. *Staying Alive: Women, Ecology and Development*. London: Zed Books.

— 1992. 'Global Bullies: Tread Gently on the Earth.' *New Internationalist* (April).

— 1995. *Monocultures of the Mind: Perspectives on Biodiversity and Biotechnology*. London: Zed Books.

Sioui, George. 1992. *Amerindian Autohistory: An Essay on the Foundation of a Social Ethic*. Montreal: McGill University Press.

Smart, N. 1997. *Dimensions of the Sacred*. London: Fontana.

Smith, Huston. 1992. *Forgotten Truth: The Common Vision of the World's Religions*. New York: Harper.

Smith, James. 1993 'Foreword.' *New Internationalist* 308.

Spretnak, Charlene. 1978. *The Spiritual Dimension of Green Politics*. Santa Fe: Bear and Co.

— 1991. *States of Grace: The Recovery of Meaning in the Postmodern Age*. San Francisco: Harper and Row.

Starhawk. 1979. *The Spiral Dance: A Rebirth of the Ancient Religion of the Great Goddess*. San Francisco: Harper and Row.

— 1997. *The Pagan Book of Living and Dying*. San Francisco: Harper San Francisco.

Stone, Merlin. 1976. *When God Was a Woman*. New York: Harvest.

Storm, Hyemeyohsts. 1972. *Seven Arrows*. New York: Ballantine.

Storr, Anthony. 1988. *Solitude*. London: Fontana.

Suzuki, David and Peter Knudston. 1988. *Genethics: The Ethics of Engineering Life*. Toronto: Stoddart.

Swimme, Brian. 1984. *The Universe is a Green Dragon: A Cosmic Creation Story*. Santa Fe, NM: Bear and Co.

— 1996. *The Hidden Heart of the Cosmos*. Marynoll, New York: Orbis Books.

Swimme, Brian and Thomas Berry. 1992. *The Universe Story: An Autobiography from Planet Earth*. San Francisco: Harper and Row.

Taylor, Charles. 1991. *The Malaise of Modernity*. Toronto: Anansi.

'Test Tube Coup: Biotech's Global Takeover.' 1991. *New Internationalist* 217 (March).

Thich Nhat Hanh. 1992. *Touching Peace: Practicing the Art of Mindful Living*. Berkeley, CA: Parallax Press.

— 1994. *A Joyful Path: Community Transformation and Peace*. Berkeley, CA: Parallax Press.

— 1996. *Breathe! You Are Alive*. Berkeley, CA: Parallax Press.

Thomas, Lewis. 1975. *The Lives of a Cell: Notes of a Biology Watcher*. New York: Bantam.

— 1980. *The Medusa and the Snail: More Notes of a Biology Watcher.* New York: Bantam.

— 1984. *Late Night Thoughts on Listening to Mahler's Ninth Symphony.* New York: Bantam.

Thompson, William Irvin. 1987. *Gaia: A Way of Knowing.* Barrington, MA: Lindisfarne Press.

Tough, Alan. 1981. *Learning Without a Teacher.* Toronto: OISE Press.

Toulmin, Stephen. 1985. *The Return to Cosmology.* Berkeley, CA: University of California Press.

Turk, Jim. 1992. 'Training is the Answer'. *In Training for What? Labour Perspectives on Job Training,* ed. Nancy Jackson. Toronto: Our Schools/Ourselves Foundation.

Turner, Frederick. 1980. *Beyond Geography: The Western Spirit Against the Wilderness.* New York: Viking Press.

Unger, Roberto Mangabeira. 1975. *Knowledge and Politics.* New York: Free Press.

Wackernagel, M. and W. Rees. 1996. *Our Ecological Footprint: Reducing Human Impact on the Earth.* Gabriola Island, BC: New Society Publishers.

Walker, Alice. 1997. *Anything We Love Can be Saved: A Writer's Activism.* New York: Random House.

Wangoola, Paul and Frank Youngman. 1996. *Towards A Transformative Political Economy of Adult Education.* De Kalb, IL: Northern Illinois Press.

Waring, Marilyn. 1988. *If Women Counted: A New Feminist Economics.* San Francisco: Harper and Row.

Weber, Max. 1958. *The Spirit of Capitalism and the Protestant Ethic.* New York: Charles Scribner and Sons.

Weil, Andrew. 1997. *8 Weeks to Optimum Health.* New York: Alfred A. Knopf.

Welton, M. 1995. 'In Defense of the Lifeworld.' In *Defense of the Life World: Critical Perspectives on Adult Learning,* ed. Michael Welton. Albany, NY: SUNY Press.

Wexler, Philip. 1996. *Holy Sparks: Social Theory, Education and Religion.* Toronto: Canadian Scholar Press.

Wiener, Philip (ed.). 1973. *Dictionary of the History of Ideas.* New York: Charles Scribner and Sons.

Wilber, Ken. 1995. *Sex, Ecology, Spirituality: The Spirit of Evolution.* Boston: Shambhala.

— 1996. *A Brief History of Everything.* Boston: Shambhala.

— 1997. *The Eye of the Spirit: An Integral Vision for a World Gone Slightly Mad.* Boston: Shambhala.

Williams, Raymond. 1976. *Key Words: A Vocabulary of Culture and Society.* London: Fontana.

Willoya, William. 1962. *Warriors of the Rainbow: Strange and Prophetic Dreams of the Indian Peoples.* Happy Camp, CA: Naturegraph Publishers.

Wishik, Heather and Carol Pierce. 1995. *Sexual Orientation and Identity.* Lacona, NH: New Dynamics.

Wolf, E. C. 1988. 'Avoiding a Mass Extinction of Species.' In *State of the World,*

1988: A Worldwatch Institute Report on Progress Toward a Sustainable Society, eds Lester R. Brown et al. New York: W. W. Norton.

Wolf, Sandra. 1994. *Engendering Equity: Transforming Curriculum*. Toronto: Ministry of Education of Ontario.

World Guide 1997/1998: Alternative Reference to Countries of the Planet. 1997. World of Women, Instituto Del Tercer Mundo.

Worster, Donald. 1977. *Nature's Economy: A History of Ecological Ideas*. Cambridge: Cambridge University Press.

Wynnc, Edward. 1987. 'Managing Effective Schools: The Moral Element.' In *Educational Policy for Effective Schools*, ed. Mark Holmes. Toronto: OISE Press.

Yeats, William Butler. 1983. 'The Second Coming.' In *Modern Poetry*, ed. Maynard Mack. New York: New American Library.

Young, Louise. 1983. *The Blue Planet: A Celebration of the Earth*. New York: New American Library.

Zarate, Jose. 1994 'Racism and Indigeneous Education.' *Orbit* 25, 2.


جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر
بدمشق